



حزب ١٩٤٨

ونكبتهم

أحمد زكريا محمد فرج				محرواً			
عبد القادر ياسين		لواء أ.ح. متقاعد/ حمدي شعراوي		د/ عبد الكريم العلوجي		محمد حسني	
خالد سعيد		أحمد منصور إسماعيل		أسمهان شريح		آمال الخزامي	
نظيمة سعد الدين		رشا حسني		ياسمين مجدي		رضوى عبد القادر	
رانيا عبد الرحيم		نعمة عبد ربه أبو مصطفى		نمال قاسم		هدى فاروق	
المدهون							
أسماء الغريايوي		منى محروس		ياسمين حلمي العابدي		كريمة عزوم	



بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	
الطبعة:	طبعة أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة / ميدان حلیم
خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٢/٩٩٦١٦٣٥
٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦ - ٠١٠/٠١٠٤١١٥

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة
شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر
٠٢/٥١١٤٣٧١ - ٠١٢/٢١٠٨٤٩٣

مقدمة

مقدمة حرب ١٩٤٨ ونكبتها

حرب ١٩٤٨ ونكبتها

تظل الحرب العربية الصهيونية الشاملة الأولى، علامة فارقة، في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، وستظل كذلك، لما لها من انعكاسات، على ملامح مجمل المنطقة العربية، ليس ملامحها السياسية، فحسب، بل ولما كان، لتلك الحرب، وما زال، من تأثيرات اجتماعية، وأثار ثقافية، وحتى سلوكية، على الشعوب العربية، وما يرتبط بتلك الشعوب، من قوميات أخرى، أيضاً.

وعبر الكتاب المائل بين أيدينا، تضافرت جهود واحدٍ وعشرين باحثاً، عبر ثلاثٍ وعشرين فصلاً، غير المدخل، مقسمين على أربعة أبواب، للتعرض إلى تفاصيل تلك الحرب، على مختلف الجبهات القتالية، والمستويات السياسية، والجوانب الاقتصادية، والاجتماعية، ليقدمون نظرة بانورامية، لا تفتقد إلى العمق البحثي الجاد.

فيعالج المحرر عرضاً سريعاً لمجريات الأحداث، في "مدخل الكتاب"، مع بعض الأهداف، التي حققتها إسرائيل عبر حرب ١٩٤٨، ثم ينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب، عنوان الأول منها هو "الحرب"، حيث تتطرق الباحثة رانيا عبد الرحيم المدهون، في الفصل الأول، إلى "الاقتصاد السياسي للنكبة"، ثم تكتب الباحثة أسماء الغرباوي، في الفصل الثاني، عن أداء "المقاتلين الفلسطينيين" قبل الحرب، وأثناءها، فيما تكتب الباحثة ياسمين مجدي، عن "المتطوعين العرب"، في الفصل الثالث، ليتناول السيد اللواء أ. ح. متقاعد/ حمدي شعراوي، في الفصل

الرابع، بقلم المتخصص، استراتيجيًا، وتكتيكيًا، في الشؤون العسكرية، عن وقائع الحرب على " الجبهة المصرية "، وتتلوه الكاتبة الصحفية نظيمة سعد الدين، في الفصل الخامس، لتكتب عن وقائع الحرب على " الجبهة السورية "، ليتناول، بعدها، في الفصل السادس، الكاتب، والمحلل السياسي العراقي، الدكتور/ عبد الكريم العلوجي، فيكتب عن أداء " الجيش العراقي في الحرب "، وفي الفصل السابع، تتحدث الباحثة ياسمين حلمي العايدي، عن دور " الجيش الأردني في الحرب "، لتختتم الباحثة المتميزة أمال الخزامي، بالفصل الثامن، الباب الأول، بالكتابة عن " الحرب على الجبهة اللبنانية "، ليبدأ الباب الثاني، بعنوان " الأبعاد والروايات "، بالفصل التاسع، الذي تناولت فيه الباحثة نعيمة عبد ربه أبو مصطفى " الأبعاد الدولية للحرب "، أما في الفصل العاشر، فيكتب الباحث المتميز خالد سعيد، عن " الرواية الإسرائيلية للحرب "، فيما يكتب الباحث محمد حسني، في الفصل الحادي عشر، وتحت عنوان " الذات والآخر في الحرب "، عن تأثير الحرب، على تشكيل صورة ذاتية للعرب، وصورة ذهنية عن الآخر، كنتيجة لتلك الحرب، مُفصلاً تفاصيل الصورتين، لتنتقل الباحثة رضوى عبد القادر، في الفصل الثاني عشر، وتكتب عن " الرؤية الإسرائيلية للنكبة "، ثم كتب لنا أحمد منصور اسماعيل، في الفصل الثالث عشر، عن " أبعاد قيام الدولة الصهيونية "، والتي أعطاها عنواناً مرادفًا وهو (من اليبشوف إلى الدولة)، وعن " ملابسات تأسيس جيش الدفاع الإسرائيلي "، تعود الباحثة رضوى عبد القادر، في الفصل الرابع عشر، لتنتهي الكاتبة كريمة عزوم، الباب الثاني،

بالفصل الخامس عشر، الذي تحدثت فيه عن " إتفاقيات الهدنة ".

يبدأ الباب الثالث، والذي يحمل عنوان " النكبة "، بالفصل السادس عشر، الذي تكتبه الباحثة أسمهان شريح، تحت عنوان " الحرب المزعومة "، لتعقبها الباحثة الجادة هدى فاروق، في الفصل السابع عشر، بالكتابة عن " جامعة الدول العربية والنكبة "، فيما يكتب المناضل، والمؤرخ، والكاتب، والمحلل السياسي الفلسطيني، عبد القادر ياسين، مجيباً على سؤال " كيف نُسجت النكبة الفلسطينية؟! "، في الفصل الثامن عشر، ثم يعود، مرةً أخرى، ليخوض عبر الفصل التاسع عشر، " في أسباب النكبة من داخلها "، ثم تنهي أسمهان شريح، الباب الثالث، بـ " قراءة في وثائق النكبة "، في الفصل العشرين.

وفيما يخص " تداعيات النكبة "، يغوص الباب الرابع، والأخير، من الكتاب، عبر الفصل الحادي والعشرين، الذي كتبه رشاد حسني، عن " الأبعاد الجغرافية والديموغرافية للنكبة "، لتعرض منى محروس، في الفصل الثاني والعشرين، لأهم نتائج، وانعكاسات الحرب، سياسياً، ألا وهو " ثورتي مصر والعراق "، فيما تختتم نهال قاسم الكتاب، بالفصل الثالث والعشرين، فتكتب عن " انعكاسات النكبة على سوريا ".

لا شك أن هذا الكتاب، وهو يجمع ثمرة أبحاث، وجهد، باقة من ألمع الباحثين، المتخصصين في الشأن الفلسطيني، وقضايا الصراع العربي - الصهيوني، قام بالكشف عن جوانب كثيرة،

متعلقة بحرب ١٩٤٨، كانت مستغلقة، وكشف عن الكثير من الأسرار، والخبايا، ما يجعل قارئه، يفوز بمتعتي القراءة، والاستكشاف، لعوالم مازالت آثارها حاضرة، وتؤثر في الواقع السياسي الراهن، للمنطقة العربية، وما جاورها من مناطق أخرى.

المحرر

القاهرة في ١٧/١٢/٢٠٠٩

* * *

مدخل...

ما جرى في ١٩٤٨ - وهم، أم حرب؟!

أحمد زكريا محمد نرج

ما أن وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة، على قرار تقسيم فلسطين، بأغلبية ٣٣ عضوًا، ومعارضة ١٣، وامتناع ١٠ أعضاء عن التصويت، في ٢٩/١١/١٩٤٧، حتى تفجرت الإشتباكات المسلحة بين المناضلين العرب الفلسطينيين، ورجال العصابات الصهيونية المسلحة، في أول ديسمبر/ كانون الثاني ١٩٤٧، إثر رفض طرفي الصراع للقرار آنف الذكر، والذي خصص للصهاينة ٥٥% من مساحة فلسطين، بينما لم يكن في حوزتهم آنذاك سوى ٧% فقط. ورغم قلة السلاح والذخيرة الفلسطينية وتواضع التدريب وافتقار القيادة الموحدة، خلأً للوضع على الجانب الصهيوني، الذي حظي بتأييد القوات البريطانية في فلسطين، إضافةً إلى توافر السلاح (الخفيف والمتوسط والمؤل)، والذخيرة، والتدريب العسكري الراقي، ووجود قيادة عسكرية وسياسية موحدة، ومحددة الأهداف، إلا أن المقاتلين الفلسطينيين حققوا انتصارات ميدانية، مكنتهم من السيطرة على الموقف العسكري في فلسطين، وقطع طرق الإمداد على الصهاينة، وشدّدوا الحصار على الأحياء والمستوطنات الصهيونية، الأمر الذي حدا بالولايات المتحدة الأمريكية، التقدم - بواسطة ممثلها السيناتور أوستين -

في ١٥/٣/١٩٤٨، إلى مجلس الأمن، بعدولها عن التصويت لصالح قرار التقسيم، إنقاذاً للموقف الصهيوني المتدهور عسكرياً، واقتراحها بدعوة المجلس للتراجع عن قراره، ودعوة الجمعية العمومية، للإنعقاد في دورة طارئة لتقرير وضع فلسطين، ومع تناقص الأسلحة والذخيرة، لدى المقاتلين الفلسطينيين، نظراً لاستهلاكها عبر أربعة أشهر من القتال الضاري، مع عدم ورود أي إمدادات إليهم، وتدفعها على الصهاينة، من البريطانيين، بدون حساب، لجأ المقاتلون العرب، إلى اللجنة العسكرية بدمشق، والتابعة للجامعة العربية، يستنجزونها وعود الجامعة، بمد الفلسطينيين بالسلح، إلا أن تلك اللجنة، قبضت يدها عن مد المقاتلين بما يلزمهم، رغم توافر الأموال، والأسلحة، والعتاد، التي جمعت باسم فلسطين، وأهلها، ومع استمرار هذا الخلل في الدعم اللوجستي للطرف العربي، وتدفعه لصالح الطرف الآخر، استطاع الصهاينة، استعادة زمام الأمور، تدريجياً، إلى أن استولوا على قرية القسطل في ٦/٤/١٩٤٨، وعقب استشهاد عبد القادر الحسيني، في ٨/٤/١٩٤٨، في معركة استعادة القسطل، والتي انتهت بهزيمة ساحقة للصهاينة، شن مقاتلو منظمي "الأرجون"، و "شثيرن" الصهيونيين، بقيادة مناحيم بيغن، غارة عنيفة، على قرية دير ياسين، العزلاء، غربي القدس، في ٩/٤/١٩٤٨، أسفرت عن مجزرة يندى لها جبين الإنسانية، مخلفة وراءها ٢٤٥ شهيداً عربياً، من القرويين، غير المسلحين، قُتلوا بطرقٍ بشعة، وتم التمثيل بهم، وسيق من بقي حياً، من أبناء القرية، حفاة، عراة، جرحى، ومشوهين، وقذف بهم خارج الخطوط

الصهيونية، لإذاعة أخبار المجزرة، وإلقاء الرعب، والفرع، في قلوب القرويين الفلسطينيين، في المناطق الأخرى، ودفعهم للفرار، وعدم المقاومة، ولعبت الإذاعات العربية دورًا هامًا، في هذا الأمر، عبر الإعلان المتكرر، لأخبار المذبحة، وتفاصيلها، وكرر الصهاينة مذابح مماثلة، في قرى ناصر الدين، وعيلوط، وحواصة، وسكرير، وبيت دراس، وبيت الخوري، والزيتون، والقبو، وغيرها، كما تحول التدخل البريطاني، إلى السفور والعلانية، لمعاونة القوات الصهيونية، في الإستيلاء على العديد من المدن العربية (حيفا، ويافا، والقدس الغربية)، وإخلاء بعضها من أهلها العرب (طبريا)، الأمر الذي أربك المقاتلين الفلسطينيين، وأسهم في إنكسارهم النسبي، وقد نجم عن هذه الممارسات الصهيونية، والبريطانية، والرسمية العربية، طرد وفرار ما يزيد عن ٣٠٠ ألف فلسطيني، من قراهم، ومدنهم، خلال بضعة أشهر، قبيل إنهاء البريطانيين لانتدابهم، على فلسطين، توزعوا في المدن، والقرى الفلسطينية، الواقعة تحت سيطرة المقاتلين الفلسطينيين، اللد، والرملة، وغزة، والمجدل، والمثلث العربي في الجليل، وعكا، والناصرية، علاوة على نزوح بعضهم إلى سوريا، والأردن، ولبنان، ومصر.

في حين اكتفت الدول العربية، بالتصويت على رفض قرار التقسيم، في مجلس الأمن، ولم تعمل على تحويل رفضها هذا، إلى إجراءات عملية لمنع تنفيذ القرار، ومن ثم إعاقة إقامة الدولة الصهيونية. ترجمت القوى الصهيونية رفضها لقرار التقسيم، لإدعائها بأحققتها في كل فلسطين، خلافاً لما منحه لها ذلك القرار، بزيادة قدراتها

التنظيمية، والعسكرية، والتمويلية، استعدادًا للمعركة الفاصلة، فقد أعلن بن جوريون، آنذاك " إن تكوين الدولة لا يعتمد على قرار التقسيم، لأن الدولة ستخلق بواسطتنا، فنحن الذين نقرر مصير البلاد ". وتحركت القيادة الصهيونية في عدة اتجاهات، فور صدور القرار، ففضلاً عن دفع مقاتليهم في أتون المعارك والإشتباكات المسلحة، لتنظيمهم ميدانيًا، وتطوير قدراتهم القتالية، وتوسيع مناطق التحكم والسيطرة، والخوض في مذابح للقرويين من عرب فلسطين، بهدف ترويعهم، وبناء نفسية المقاتل الصهيوني على سفك الدماء بوحشية، ودون رحمة، أو تردد، أو اعتبارات إنسانية. وفي الوقت نفسه، كانت قيادة " الهاجاناه " تضع تفاصيل خططها العسكرية الشاملة، للإستيلاء على فلسطين (الخطّة دال)، كما عقد بن جوريون صفقة سلاح ضخمة مع تشيكوسلوفاكيا، اشتملت على أسلحة ثقيلة، كالدبابات، والطائرات المقاتلة، و ١٥ ألف قطعة من الأسلحة الخفيفة، والتي وصلت تبعًا إلى فلسطين، منذ بداية ١٩٤٨، وحتى منتصف الهدنة الأولى، عقب إعلان الدولة الصهيونية (يونيو/ حزيران - يوليو/ تموز ١٩٤٨)، وقد كان بن جوريون قد حصل، خلال رحلته إلى نيويورك، في يونيو/ حزيران ١٩٤٥، على صفقة ضخمة، قوامها آلات، ومعدات، وخطوط إنتاج أسلحة خفيفة ومتوسطة، مكنت الصهاينة من إقامة صناعات للذخيرة، والأسلحة المتوسطة، والخفيفة، في فلسطين، ومع الإستجابة الأمريكية السريعة، تمكن الصهاينة من إنشاء تلك القاعدة الصناعية العسكرية، تحت سمع وبصر الإنتداب البريطاني، وفي إطار من الصمت، وعدم

الإكتراث الرسمي العربي، الذي كان يراهن آنذاك على حيادية الموقف البريطاني، بل تحدوه الآمال لأن يلعب " الصديق البريطاني " دورًا لحل المشكلة، حلًا سلميًّا، فطالما حفل تاريخ نضال الشعب الفلسطيني، ضد الإحتلال البريطاني، وضد المشروع الصهيوني، منذ عشرينات القرن العشرين، وحتى حرب ٤٨، بتدخل الحكومات العربية بالنداءات، والبيانات، والتعهدات المضللة للفلسطينيين، بناءً على طلب من البريطانيين في كل مرة، لتهدئة الإنتفاضات، والثورات العربية في فلسطين، ضد الإحتلال البريطاني، والتسهيلات المقدمة منه للمشروع الصهيوني، المتمثلة في تسهيل الهجرة اليهودية لفلسطين، ومنح الصهاينة آلاف الدونمات من أراضي الدولة في فلسطين، وتشكيل المفاوز الليلية المشتركة بين الجنود البريطانيين ورجال " الهاجاناه " و " البالماخ "، والموافقة على تشكيل قوات الشرطة الخاصة اليهودية في فلسطين، فيما قبل، والتي عُدت أحد الأنوية الهامة التي مهدت لتشكيل قوات " الهاجاناه " بدءًا من ١٩٣٨.

مع انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، يوم ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨، تاركَةً كل أسلحتها، وذخائرها، ومعداتها، ودباباتها، وسياراتها العسكرية، ومخازن ذخيرتها، وإمداداتها التموينية، والغذائية، وحتى الملابس، وتجهيزات الإتصالات، والثكنات العسكرية، ومراكز البوليس، لقوات " الهاجاناه "، في كل المدن الفلسطينية، علاوةً على تسليمها للمطارات والموانئ إليهم، أيضًا، أعلن بن جوريون قيام " دولة إسرائيل "، في اليوم التالي (١٥/٥/١٩٤٨)، وعلى الفور دخلت إلى فلسطين، جيوش خمس

دول عربية هي مصر، وسوريا، والعراق، والأردن، ولبنان، علاوةً على قوات فوزي الدين القاوقجي، الضابط السابق، في الجيش السوري، وأحمد عبد العزيز، الضابط المستقيل من الجيش المصري، ومن التف حوله من الجنود والضباط المصريين، الذين تركوا الخدمة العسكرية، ومئات من الفدائيين المصريين، إضافةً إلى متطوعين من السعودية، كان إجمالي قوام تلك القوات مجتمعة ٢٤ ألف مقاتل. وفور دخول تلك القوات، قام الجيشان المصري، والأردني، بنزع سلاح المقاتلين الفلسطينيين، وعزلهم عن المعركة، وسجن من رفض منهم تسليم السلاح، بدلاً من الإستقواء بهم، كقوة مضافة، خَبِرَت أرضَ ودروب فلسطين، وعادات شعبها، وتمرست في القتال الطويل ضد العدو الصهيوني، ومسلحةً بوضوح الهدف، ولديها الدافع القوي، للقتال حتى اللحظة الأخيرة، لاستعادة الأرض والديار، وفي المقابل تشكلت القوات الصهيونية من " الهاجاناه "، التي تم إعادة تنظيمها في قسمين كبيرين، هما جيش الميدان، وقوامه ٢٠ ألف مقاتل، وجيش الدفاع ١٧ ألف مقاتل، إضافةً إلى البالماخ (وهي قوات النخبة في الهاجاناه) ٢٥٠٠ مقاتل، والشرطة اليهودية ٦٠٠٠ مقاتل، واللواء اليهودي، العائد لثوه من ميادين القتال في الحرب العالمية الثانية، وكان مركزه في إيطاليا، وقوامه ٥٠٠٠ مقاتل، علاوةً على المتطوعين اليهود في صفوف الجيش البريطاني، الذين خاضوا معارك الحرب العالمية الثانية، موزعين بين مختلف أفرع الجيش البريطاني (بحرية، ومدركات، وطيران، ومدفعية، ومشاة)، وبلغ عددهم ٢٣ ألف مقاتل، أي أن جملة قوام القوات

الصهيونية بلغت ٧٣.٥٠٠ مقاتل، ومثلهم في الإحتياط، وتنامى عدد المقاتلين إلى أن وصل إلى ١٠٦ ألف مقاتل صهيوني، عشية اتفاقات الهدنة، في ١٩٤٩، طبقاً لما ورد في مذكرات بن جوريون، وهكذا بدلاً من أن تُشكّل القوى العربية المهاجمة، ثلاثة أضعاف القوات المعادية، أي ما يوازي ٢٥٠ ألف مقاتل على الأقل، طبقاً للقاعدة العسكرية المعروفة، في المعارك النظامية الحديثة، دخلت الدول العربية الحرب، بما يوازي ثُلث قوة خصومها، مع افتقاد قواتها للتسليح، والتدريب الحديث، بل إنها لم تخض غمار أي حرب حديثة، لعدة عقود مضت، وتخضع لخمس قيادات ميدانية مختلفة، بعضها يدين بالولاء الكامل لبريطانيا، الحليف الرئيسي للحركة الصهيونية، فقامت الجيش الأردني كان الجنرال: جون باجوت جلوب - الإنجليزي، الذي قام بسحب السلاح من المقاتلين العرب، عقب الهدنة الأولى، في اللد والرملة، ثم ما لبث أن سحب القوات الأردنية، نفسها، منهما، وتركهما مكشوفتين، فاستولى عليهما الصهاينة، وعلى عشرات القرى المحيطة بهما، دون مقاومة تذكر، كما سحب القوات الأردنية من النقب، في ١٩٤٩/٣/٣، أثناء مفاوضات الهدنة بين الأردن والصهاينة في رودس، وعقب توقيع الهدنة بين الصهاينة ومصر، في ١٩٤٩/٢/٢٤، تاركاً الطريق مفتوحاً إلى خليج العقبة، بعد أن نُبِّه الصهاينة إلى الأهمية الإستراتيجية لوجود منفذ للدولة الصهيونية الوليدة، على البحر الأحمر، فقامت القوات الصهيونية، في سبعة أيام، بالإستيلاء على النقب بالكامل، وأم الرشراش (المصرية)، مؤسّسةً فوقها ميناء إيلات. لقد كانت الجيوش العربية المشاركة في

القتال تجهل الهدف الذي تقاتل في سبيله، وتعاني من عدم الإلمام بطبيعة الأرض التي تقاتل فوقها، وترزح تحت صنوف قهرٍ طبقي إجتماعي، طال أوضاعها داخل الجيش، بل في ميدان القتال، أيضاً، وتناثر بعضها عن بعض، في التشكيل، والتنظيم، والتسليح، والتدريب، وتفتقد الخطة العسكرية الموحدة، بل القيادة الموحدة، أيضاً، وترزح تحت حكم أنظمة فاسدة، وتابعة للإستعمار البريطاني، وتخضع لنفوذه، في أن، مما جعل تلك الأنظمة تدعن للسيدان البريطانيين، والأمريكي، بقبول الهدنتين، الأولى، فالثانية، فأتاحت للقوات الصهيونية فرصة لالتقاط الأنفاس، وإعادة تنظيم الصفوف، وتقوية الدفاعات، وسد الثغرات، وتلقي الإمدادات التسليحية القادمة من الخارج، وتوظيفها في ميادين القتال، بعد توزيعها في سائحة ذهبية من الوقت، فيما أمضت القوات العربية، فترات الهدنة، في انتظار فرج من الله، لم يأت، لمن لم يسع له حثيثاً، واستكان لوعود من الخصم، لم تتحقق، لقد اجتمعت كل العوامل المؤهلة لهزيمة عربية مدوية في حرب ١٩٤٨، فمن استهانة بقوة العدو، إلى التضخيم في القدرات الذاتية، دون الإستناد لأي مقومات موضوعية لهذا التضخيم، إضافةً إلى التأثير السلبي لغياب الديمقراطية، حيث أضعف الإحساس بالمواطنة، فضلاً عن التخاذل، وعدم الجدية والإرتجال، على حساب التخطيط، في مواجهة عدوٍ يستقوي بالعلم والتكنولوجيا، عدا عن تعارض أهداف الدول العربية مع بعضها البعض، من دخول جيوشها إلى فلسطين. وعلى المستوى الخارجي، فلقد تركت الدول العربية الساحة الدولية خاليةً أمام القوى الصهيونية، ترتع فيها، وتجند الأصدقاء، وتتسج

التحالفات، بل إن غفلة الدول العربية وصلت إلى مداها، عند احتكامها، المرة تلو الأخرى، إلى أعدائها، لنصرتها على عدو آخر، لقد كان الحكام العرب أسرى أوهام، لم يخلصهم منها كل ما حاق بهم من هزائم، الأمر الذي يلقي بظلال من الشك حول حقيقة هذا الموقف من جانب الحكام العرب، فلم تكن النتائج لتختلف لو اتخذ الحكام العرب موقفاً صريحاً معلناً بالتواطؤ مع الحركة الصهيونية، فيما يتعلق بإنشاء الدولة الصهيونية.

لقد حققت حرب ١٩٤٨، للكيان الصهيوني، من الأهداف، ما فاق التوقعات، على النحو التالي: -

(١) رسّخت الحرب على الأرض، قراراً دولياً كان على الورق، بإنشاء دولة إسرائيلية، دون أن تعترف هي بهذا القرار، وبما يترتب عليه من إلزامها بما ورد فيه من حدود دولية، تقيد أطماعها التوسعية، في المنطقة، مستقبلاً.

(٢) حصلت إسرائيل بالحرب، على أكثر مما منحه لها قرار التقسيم، فاستولت على ما يناهز ٧٨% من مساحة فلسطين، في حين لم يعطها قرار التقسيم سوى ٥٥% فقط، فضلاً عن أنها سدت كل الثغرات التي كانت تعتبرها نقاط ضعف في الخريطة السياسية، التي أقرها قرار التقسيم، للإسرائيليين، فأوجدت منفذاً لها على البحر الأحمر، وتفاادت وجود إدارة دولية للقدس، بل سيطرت عليها بكاملها، على دفعتين، خلال حربي ٤٨، ثم ١٩٦٧، أقامت دولتها هي، بينما فوتت الفرصة على الفلسطينيين

إقامة دولتهم، ووفقًا لقرار التقسيم. فقد انتهت الحرب بعقد اتفاقات الهدنة بين " دولة إسرائيل "، والدول العربية المشاركة فيها، دون الطرف الفلسطيني، حيث لم تمثله في المعارك قوات مستقلة، بل خاض الفلسطينيون حربهم، مُجْبَرِينَ، تحت أعلام الدول العربية الأخرى، ووفقًا للشروط التي فرضتها عليهم تلك الدول.

٣) فرضت إسرائيل بالحرب على الآخرين، وفي المقدمة منهم الدول العربية المحيطة بها، والرافضة " ظاهريًا " لمشروعها، معاملتها كدولة، ومنذ اللحظة الأولى لميلادها، وليس كمجموعة عصابات، كما كان يردد الحكام العرب، بغطسة كاذبة جوفاء.

٤) فرضت إسرائيل توازنًا جديدًا للقوى في المنطقة، تكون لها فيه اليد العليا، ومؤسس على أمر واقع، لا على مزايدات كلامية.

٥) أرست إسرائيل بموجب تلك الحرب، دعائم، وأسس تعاملها المستقبلي، مع جيرانها الراضين لوجودها، قائم على أساس البطش بمن يقف ضد طموحاتها. وقد وعى الطرف العربي الدرس جيدًا، ومن لم يستوعبه منهم هذه المرة، فهناك مرات تالية تؤكد نفس المفهوم، وترسخ نفس الواقع.

٦) رَوَّجَت إسرائيل لإدعاء جديد، يضاف لأساطيرها المؤسسة للدولة الإسرائيلية، وهو أن تلك الدولة قامت على الأرض بموجب " حرب استقلال، حرب تحرير "، بموجب " نهوض قومي "، صاحبه ثورة مسلحة، على الإحتلال الأجنبي البريطاني، وعلى التخلف الإجتماعي، والثقافي، والإقتصادي العربي، فصورت نفسها على أنها امتدادًا لحركة

النهوض القومي الأوروبي في مواجهة التخلف الإقطاعي، وهو السمة الأساسية للثورات الرأسمالية، مما يكسبها تعاطف تلك الدول الرأسمالية الغربية، على مستوياتها الرسمية والشعبية. كما صورت نفسها على أنها امتداد لحركات التحرر الوطني، في دول العالم الثالث، وأنها جزء من حركة التحرر الوطني في العالم، علَّها تكتسب بذلك تعاطف حركات التحرر الوطني في المستعمرات، والدول التي نالت استقلالها حديثاً. ثم عبر ادعائها بانتهاج الأفكار الاشتراكية، في ظاهرها، الإستعمارية الإستيطانة، في جوهرها، والتي أسست على أساسها المزارع الجماعية، فيما بعد، سعت إلى اكتساب تعاطف الدول الاشتراكية.

٧) دشنت إسرائيل، ومنذ اللحظة الأولى لنشأتها، دخولها نادي الدول الإستعمارية، التي تفرض ما تريده بقوة الأمر الواقع، بالقوة المسلحة، وليس عن طريق العلاقات المتوازنة، القائمة على احترام إرادة ومصالح الشعوب الأخرى، فحازت بذلك على تقدير الدول الإستعمارية (الملقبة بالعالم الحر)، ورأت فيها تلك الدول حليفاً أساسياً، يمكن الإعتماد عليه، في تحقيق مشاريعها الإستعمارية في المنطقة، لإخضاعها وابتزازها، فأوجدت لنفسها دوراً وظيفياً استثمارته، فيما بعد، الدول الإستعمارية الكبرى، عبر الستين عاماً التالية.

وإلى مزيد من التفاصيل، نغوص في فصول هذا الكتاب

الحرر

القاهرة في ٢٠٠٩/١٢/١٥

* * *

الباب الأول: الحرب

الباب الأول الحرب

الفصل الأول:

الاقتصاد السياسي النكبة

رانيا عبد الرحيم (الرهون)

اندلعت الحرب، بمجرد صدور قرار تقسيم فلسطين، عن الجمعية العمومية، للأمم المتحدة (١٩٤٧/١١/٢٩)، ولأن النصر إنما يتحقق في الجبهة الداخلية، أولاً، ولأن الأساس في الجبهة الداخلية هو البنية الاقتصادية، لذا كانت هذه الدراسة.

اقتصاد القطاعين

واجه الشعب العربي الفلسطيني (١٩٣٢ - ١٩٣٩)، إجراءات من الضغط والحصار الاقتصادي، المنظم، والمبرمج، التي مارسها التحالف الإمبريالي البريطاني - الصهيوني، والتي أدت إلى نتائج مأساوية، على طريق التطور الاقتصادي للشعب العربي الفلسطيني^(١).

إن حصيلة التطور، حتى العام ١٩٣٩، أثبتت أن الإمبريالية لجأت إلى مختلف الأساليب، لإجهاض الكفاح التحرري للشعوب، وقد كانت المنظمة الصهيونية، أحد وسائل الإمبريالية البريطانية، لتثبيت وحماية مصالحها الاحتكارية، وتنفيذ سياساتها (الإمبريالية) في الشرق الأوسط، والمحافظة على مواقعها الاقتصادية - النفط، السوق، والاستراتيجية - في

(١) أحمد سعد، التطور الاقتصادي في فلسطين، ط١، حيفا، دار الاتحاد للطباعة والنشر، أيار/ مايو ٨٥، ص ١٢١.

الطريق إلى الهند، ولمقاومة الحركة العربية المعادية للإمبريالية^(١).

كما أكدت حصيلة التطور، عجز القيادة التقليدية العربية، من ممثلي عائلات أسياذ الأرض، والإقطاع المتبرجز - الذين تحولوا من تأجير الأراضي، إلى توظيف رأسمالهم في التجارة وغيرها - عن قيادة الزخم التحرري لجماهير الشعب العربي الفلسطيني المسحوقة، التي فجّرت انتفاضة ١٩٣٣ وثورته (١٩٣٦ - ١٩٣٩). خاصة في مواجهة عدو متمرّس، ذي خبرة، من ممثلي الرأسمالية المتطورة - الإمبريالية والصهيونية^(٢).

يتضح من خلفية التطور الاقتصادي، أنه بفعل حكم الانتداب البريطاني، المتساق مع الاستيطان الصهيوني، وتأثيره على سوق المنافسة الاقتصادية - الجارية في فلسطين - نجحت إمكانيات تطور برجوازية يهودية صناعية قوية، وبروليتاريا عمالية صناعية. كما كانت هناك قاعدة جماهيرية واسعة جدا من الكادحين، والفلاحين وصغار البرجوازيين المسحوقين العرب، - بفعل الإمبريالية، والاستيطان الصهيوني، مستعدين للتضحية في سبيل التحرر، والاستقلال^(٣)، كما تفتّحت البطالة، في وسط العمال العرب، والفلاحين^(٤).

إلى جانب أسياذ الأرض، والعائلات الكبيرة (الحسيني،

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ٤٨، ط ٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ١٣٥.

والنشاشيبي...)، التي ضُربت مصالحها الاقتصادية، أيضاً، بفعل الإمبريالية والصهيونية، ولكنها ظلت ترهب التحولات الجارية، الاقتصادية والاجتماعية^(١).

في عهد الانتداب:

انشطر الاقتصاد الفلسطيني، في عهد الانتداب، إلى ثلاثة أجزاء، احتوى الأول منها على الاقتصاد العام المشترك، أو الكلي، الذي ضمَّ المدخلات، والمخرجات، البريطانية، العربية، واليهودية، واحتوى الثاني على الاقتصاد اليهودي، الذي ضمَّ تجمعات الجالية اليهودية (ذات النزعة الصهيونية) المتنامية بمؤسساتها، وتمثل الثالث في الاقتصاد العربي الفلسطيني^(٢).

الإطار المؤسسي للنشاط الاقتصادي:

أولاً: الصهيوني:

ارتبطت التطبيقات المؤسسية الصهيونية، بالحركة الصهيونية، وأيديولوجيتها، وأهدافها، الرامية إلى استيطان فلسطين، والعمل على تهويدها، من خلال عملية استغلال الأرض، واستثمارها، واستصلاحها، وتشجيع الهجرة " اليهودية - الصهيونية " المتواصلة إليها، وانقسم الإطار المؤسسي التمويلي، الذي عمل من خلاله الاقتصاد الصهيوني في

(١) سعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الأول، بيروت، ١٩٩٠ انظر: فؤاد حمدي بسيسو، المنطلقات السياسية والقانونية والإدارية والمؤسسية للتطور الاقتصادي في فلسطين ص ٦٠١.

فلسطين، إلى (١):

١ - المنظمة الصهيونية: كانت بمثابة الأم لكل المؤسسات الصهيونية، التي تأسست، أو نشطت في فلسطين، خلال سني الانتداب البريطاني.

٢ - الوكالة اليهودية: اعتبرت الممثل السياسي والاقتصادي للقطاع اليهودي الصهيوني في فلسطين.

٣ - الهستدروت.

٤ - الكيرين كايميت.

٥ - الكيرين هايسود.

٦ - المؤسسات التمويلية الصهيونية الأخرى.

ثانياً: المؤسسة التعاونية:

لعبت مؤسسات الحركة التعاونية، في فلسطين، دوراً بالغ الخطورة، في بناء وتمتين أرضية الانطلاق، لمختلف الأنشطة الاقتصادية، في فلسطين، ولاسيما بالنسبة للمستوطنين اليهود. فقد كان لها تشابكاتها، وارتباطاتها الأساسية، بالوكالة اليهودية، والهستدروت، وكثير من المؤسسات التمويلية، فضلاً عن تمتع تلك الحركة التعاونية الصهيونية، بدعم كبير من سلطات الانتداب (٢).

كما ظهر الفرق بين ملامح الحركة التعاونية وإنجازاتها، في

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢١: ٦٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢٥.

الوسطين، اليهودي والعربي، ففي الوسط اليهودي، كان ثمة هيكل مؤسسي من عدة نماذج، لعبت دوراً مركزياً في بناء قواعد (الوطن القومي اليهودي)، على حساب الوجود المؤسسي في فلسطين، ويلاحظ أن من أهم أسباب نجاح التنظيم التعاوني، لأنشطة المجتمع اليهودي، في فلسطين، إسهام " المنظمة الصهيونية العالمية " فيه، والأفراد اليهود، إسهاماً انعكس في تبني المنظمات الصهيونية، في فلسطين، لسياسة الاستيطان، وتأسيس المزارع الجماعية، وتدعيمها. يضاف إلى ذلك جذور المجتمع اليهودي - الصهيوني، الوافد إلى فلسطين^(١).

ثالثاً: الإطار المؤسسي العربي:

في الوقت الذي توفّر فيه للاقتصاد الصهيوني، الكثير من المؤسسات الصهيونية، ذات الانتشار العالمي، (المرتبطة بشبكة علاقات عضوية مع الصهيونية العالمية، وقوى الاستعمار العالمي، في أوروبا الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية)، بالإضافة إلى إطار سياسي، وقانوني موافق لأنشطتها، هيأته لها سلطات الانتداب البريطاني، بجانب إمكاناتها البشرية، والتنظيمية، فقد لوحظ أن الإطار المؤسسي، الذي تم تأمينه للاقتصاد العربي، اتسم بالمحدودية، والضعف، الشديدين، سواء بالنسبة للإمكانات والموارد المالية، أو البشرية، أو الأطر المؤسسية، التنظيمية، السياسية، والقانونية، التي تُوفّرها، عادةً، إدارة التنمية الوطنية، في أي اقتصاد وطني، مستقل، والتي كانت غائبة في الاقتصاد الفلسطيني، بالإضافة إلى ملاحظة عدم توفّر دعم عربي، بشكل ملحوظ، للمؤسسات

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٦.

العربية الفلسطينية.

وانقسم الإطار المؤسسي العربي إلى^(١):

- ١- الحركة التعاونية العربية.
- ٢- البنك العربي: وهو أقدم مؤسسة مصرفية عربية في فلسطين.
- ٣- بيت المال العربي.
- ٤- البنك الزراعي العربي.
- ٥- البنك الصناعي العربي.
- ٦- مؤسسات عربية أخرى.
- ٧- صندوق الأمة.
- ٨- غرفة التجارة العربية.
- ٩- شركة التأمين العربية المحدودة.

كما رأينا، فقد حالت بريطانيا دون تقدم العرب، اقتصاديًا، وأبقتهم فقراء يعتمدون على الزراعة. وبما أن رقعة فلسطين ضيقة، ومواردها محدودة، لذلك طغى عليها الاقتصاد الصهيوني الصناعي، رغم تأليف لجان للاقتصاد الوطني، لتشجيع المصنوعات الوطنية^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٦، ٦٣٢.

(٢) محمد فائز القصري، حرب فلسطين ٤٨، الجزء الأول، الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٤٢.

موارد فلسطين والطاقة الاستيعابية:

من المفاهيم التي أسهمت في زيادة امتصاص موارد فلسطين، وطاقتها المتاحة واستغلالها لصالح الاقتصاد اليهودي، مفهوم الطاقة الاستيعابية^(*)، فقد عمل اليهود على تكييف معنى الطاقة الاستيعابية، بشكل مضلل، تناقض مع المفاهيم الاقتصادية المنطقية، المتعارف عليها لهذه الفكرة، والدفاع عنه، بحيث تتمكن من تبرير استيعاب أكبر عدد من المهاجرين في فلسطين، رغم محدودية الأرض ومواردها^(١).

إن تطبيق هذا المفهوم، كان يعكس إحلال الوجود اليهودي - الصهيوني تدريجيًا، محل أهالي البلد الأصليين من العرب، ونزع ملكية الأرض الزراعية، ومنافسة المنتج العربي الزراعي، والصناعي، منافسة قاتلة. كما ارتكز هذا المفهوم على الجانب الديناميكي، الذي تُشع دائرته بشكل غير محدود، كلما زادت إمكانات التمويل، والتثمين، والتكنولوجيا^(٢).

سياسات الهجرة^(٣):

١ - سياسات حكومة الانتداب، التي ساعدت على تسهيل الهجرة اليهودية العلنية، والسرية، وإحلال الوجود الصهيوني، محل الوجود العربي، في فلسطين.

(*) قدرة الموارد الطبيعية المتاحة، على تأمين ظروف معيشية مناسبة، للمجتمعات المقيمة في فلسطين، وتحسين مستويات دخلها.

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣٧.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٤٤ - ٦٤٦، ٦٥٠.

٢ - السياسة الصهيونية تجاه الهجرة.

٣ - الصراع على موارد فلسطين، ومفهوم طاقة الاقتصاد الفلسطيني الاستيعابية، وتأثيره على التطورات الاقتصادية لفلسطين، فيما يتعلق بتلبية احتياجات الوجود اليهودي - الصهيوني الاستيطاني المكثف، أدى كل هذا إلى خلق صراع مصالح، بين المجتمعين العربي واليهودي - الصهيوني، نظرًا لتنازعهما على الموارد، نفسها.

محددات التطور الاقتصادي:

لا يرجع تضاول المساهمة العربية، في هذا القطاع، لقصور في إمكانيات العرب، ولكنه يرجع، بشكل جوهري، إلى سياسات السلطات البريطانية، والتي انحصرت أهدافها، منذ بداية احتلالها لفلسطين، في تأطير وضع البلاد داخل ظروف اقتصادية، وسياسية، تمكّن تلك السلطات من إنشاء وطن لليهود، طبقًا لالتزاماتها وفق " وعد بلفور "، و " صك الانتداب "، والذي كال بكيل معاول الهدم، التي تبنته، طوال الثلاثين عامًا، التي سيطرت خلالها سلطات الاحتلال البريطانية على البلاد^(١).

ثمة محددات رئيسية قادت التطور الاقتصادي، وأسهمت في صياغة ملامحه الهيكلية^(٢):

أ- أديرت دفعة الاقتصاد الوطني الفلسطيني، وفق مجموعة من الأطر

(١) د. هند أمين البديري، أرض فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ، ط١، القاهرة، مطابع جامعة الدول العربية، أكتوبر تشرين الأول ١٩٩٨، ص ٣٦٠.

(٢) الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ٦٩٩ - ٧٠٦.

السياسية، والقانونية، والمؤسسية، التي ارتبطت بإحلال الوجود الديمغرافي الصهيوني، محل نظيره العربي.

ب- تم توجيه التطور الاقتصادي لفلسطين، وفق متطلبات إقامة مختلف القواعد الإنتاجية، والمؤسسية، الصهيونية، وقد تَمَثَّل ذلك كله، في مختلف السياسات، لا سيما ما تعلَّق منها بسياسة الهجرة الصهيونية، وسياسات استغلال موارد فلسطين الطبيعية، واستثمارها، وبشكل خاص، ما اتصل منها بتشجيع الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، واستيطانها من قِبَل اليهود - الصهاينة.

ج- أسهمت سياسات الانتداب التمييزية، لصالح المستوطنين الصهاينة، والمجتمع الصهيوني، في إسقاط المحاولات العربية، لتطوير القدرات الذاتية، والتطوير المالي، والزراعي، والصناعي.

د - أسهم الالتزام البريطاني، من خلال الإدارة العسكرية، في البداية، ومن ثم الإدارة المدنية، في تردي الأوضاع الاقتصادية العربية.

هـ - سجَّل التاريخ الاقتصادي لفلسطين، ظاهرة الثنائية في الاقتصاد.

و - سقط الاقتصاد العربي - الفلسطيني، ضحية ضعف العرب، الذين كان منوطاً بهم إنقاذ ذلك الاقتصاد، وإغاثته، وذلك في إطار هيمنة القوى الاستعمارية الانجليزية، المتحالفة مع مجموعة دول الحلفاء.

ز - ترَتَّب جزء من المسؤولية، في تمكين التفوق الاقتصادي الصهيوني، من النفاذ إلى فلسطين، على بعض قيادات شعبنا، التي مزقتها الخلافات السياسية.

ح - لعبت الخبرة المتراكمة لدى الفئات اليهودية - الصهيونية المهاجرة إلى فلسطين، بالإضافة إلى شبكة العلاقات المالية، والمصرفية العضوية، بكثير من المؤسسات في الدول الغربية، دورًا رئيسيًا، في إنجاح مسعى تمثين قاعدة الوجود المؤسسي الصهيوني، في فلسطين، وقد تكاثفت السياسات المالية، والنقدية، والجمركية، والتجارية لحكومة الانتداب، مع الإمكانيات التمويلية الوفيرة لقوى الحركة الصهيونية، ومؤسساتها، في دعم القطاع الإنتاجي اليهودي.

العلاقات الاقتصادية

محددات التطور الزراعي^(١) :

١ - الأراضي الزراعية: تميّز الاقتصاد، بأنه اقتصاد زراعي، بالدرجة الأولى، لأن ثلث السكان اعتمدوا في معيشتهم، بشكل مباشر، على الزراعة، رغم أن البلاد لم تكن قد حقّقت الاكتفاء الذاتي، في الإنتاج، والاستهلاك الغذائي، بصورة عامة، والحبوب بصورة خاصة.

٢ - مصادر المياه: تم استغلالها خلال فترة حكم الانتداب.

هيكل الإنتاج الزراعي، وتطوره :

انقسم هيكل الإنتاج الزراعي، إلى الزراعة الوطنية، وزراعة الحمضيات، والزراعة الكثيفة، والمختلفة، حيث تضاعف إنتاج المحاصيل الزراعية، من عام ١٩٢٢ - ١٩٤٤، ثلاث مرات، باستثناء الحمضيات والدخان، كما ارتفع دخل المحاصيل الزراعية، بسبب ارتفاع

(١) المصدر نفسه، ص ٦٥٥.

الأسعار في العالم كله، خلال فترة الحرب العالمية الثانية، وحدث تحول في نوعية الإنتاج الزراعي، فانتقل من الاستهلاك الذاتي إلى الإنتاج التسويقي، وغدا التحول في إنتاج المنتجات التي تُدر دخلاً أكبر^(١)، وترتب على ذلك أن^(٢):

١- حقق القطاع الزراعي الفلسطيني، نموًا اتسم بعدم الانتظام، بفعل المحددات السياسية، والقانونية، والمؤسسية، الناجمة عن تأثير التحالف بين قوى الحركة الصهيونية والانتداب، والذي أدى إلى خلق ظاهرة الثنائية في الاقتصاد الزراعي الفلسطيني، فأصبح لكل من الاقتصاديين، العربي، والصهيوني، هيكل إنتاجي، وتمويلي، وتسويقي مختلف، واتسم الاقتصاد العربي بالتراجع المستمر، نتيجة غياب إدارة التنمية الوطنية.

٢- تأثر النشاط الزراعي في فلسطين، بالعلاقات الاقتصادية الدولية، تأثيرًا كبيرًا.

٣- تمثلت أهم مشاكل الزراعة في فلسطين، أثناء الانتداب، في اعتماد الزراعة على محصول واحد، هو الحمضيات، أمام الضغط السكاني المستمر على موارد فلسطين الطبيعية، ولا سيما غزو الهجرة اليهودية المتدفقة على فلسطين، الأمر الذي حرم البلاد، من فرصه

(١) المصدر نفسه، ص ٦٥٨ - ٦٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- المصدر نفسه، ص ٦٦٤ - ٦٦٦.

- جدد جلادي، إسرائيل نحو الانفجار الداخلي، التخاطب بين المستوطنين الحوريين وأبناء دار الإسلام، ط١، دار البيان للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٨٨، ص ٥١.

- ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

استغلال مواردها الطبيعية والمائية، بشكل يساعد على تنمية مستوى معيشة أهلها.

٤- ظهر تفوق المزارع الصهيوني على العربي، في مجال الإنتاج، في عدد من الزراعات، لما توفّر للزراعة الصهيونية من تقنية مميّنة متفوقة، ورأسمال وافر، وقوة تسويقية عالية، بفعل مجموعة القوى والسياسات التمييزية، رغم أن ذلك التمييز كان حكرًا على اليهودي - الصهيوني الغربي، وفشل ٩٩% من محاولات اليهود الفلسطينيين وغيرهم من العرب، بصورة عامة، في إقامة قرى زراعية، إلى عام ١٩٤٧*، لأن معظم الأموال الصهيونية، قد تم صرفها على مستوطنات صهيونية أشكنازية، بسبب أهميتها القومية، والاقتصادية، والأمنية للمشروع الصهيوني. هكذا احتكر المستوطنون الأشكناز تأسيس الكيبوتسات، والتعاونيات الزراعية، وكان الدور الذي خصص لليهود العرب، هو العمل كأجراء رُخصاء.

٥- اتخذ التطور الإنتاجي الزراعي، اتجاهًا غير متوازن، بالنسبة إلى فروع الإنتاج.

٦- ارتفعت أسعار إنتاج المزارع العربية، أثناء الحرب العالمية الثانية، وارتفع الدخل الزراعي، وإن لم يحدث تراكم رأسمالي في الريف، بسبب الضرائب الفادحة على الفلاح العربي.

(*) بلغت نسبة الأراضي الزراعية التي امتلكها الصهاينة، حتى العام ١٩٤٤، أقل من ١٠%، من مجمل الأراضي الزراعية، و ٩٠% للعرب.

محددات التطور الصناعي؛

أ- في القطاع العربي^(١)؛

١- واجهت الصناعة العربية الحرمان من فرص النمو، التي توفرها، في العادة، إدارة التنمية الوطنية، إلا أن الزيادة السكانية العربية، شكلت مصدرًا أساسيًا لسوق الإنتاج الصناعي العربي، إلى جانب ذلك ساعدت ظروف الحرب العالمية الثانية الصناعية العربية، وذلك نتيجة انخفاض الاستيراد، الذي أدى، بدوره، إلى نمو كثير من فروعها (مثل صناعة التبغ العربي).

٢- عانت الصناعة العربية، من مشكلة الانشداد إلى أساليب الإنتاج التقليدي، واليدوي الأسري، فقد عجزت هذه الصناعات عن مواجهة المنافسة الخارجية.

٣- أثّرت الأعمال الثورية، والانتفاضات الوطنية، التي شهدتها فلسطين، سلبيًا، في فرص نمو الصناعة العربية.

٤- اندلعت الحرب العالمية الثانية، فحدث التطور السريع لكثير من الصناعات، إلى جانب نجاح الجهد الصناعي العربي الفلسطيني المثابر، في تطوير نواة قاعدة صناعية عربية، قابلة للانطلاق.

ب- في القطاع اليهودي^(٢)؛

١- لعب الإطار السياسي المؤسسي لحكومة الانتداب، والحركة

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧٧ - ٦٨١.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الصهيونية، دورًا مركزيًا، كمحدد رئيسي، من محددات النمو الصناعي في القطاع اليهودي، في فلسطين.

٢- استفادت الصناعة اليهودية من معاملة سلطات الانتداب التفضيلية لها.

٣- أدى تشجيع حكومة الانتداب، للهجرة اليهودية إلى فلسطين، وخاصة العمال الصناعيين، والمهنيين، والحرفيين المهرة، إلى قيام قاعدة صناعية يهودية - صهيونية قوية.

٤- أسهمت " الوكالة اليهودية " في ٤٠% من التمويل اليهودي الصناعي، ٥٠% الأكلو - فلسطيني، ١٠% البنك الصناعي، ١٠% بنك العمال.

ج - صندوق القروض متوسطة الأجل :

قام بتقديم القروض للمشاريع المتوسطة والصغيرة، لمدة لا تزيد عن ثلاث سنوات^(١).

هيكل الإنتاج الصناعي عام ١٩٣٩ وتطوراتها :

في بداية حكم الانتداب، كان الوضع الصناعي في فلسطين متقدمًا نسبيًا (عنه في العهد العثماني)، لكن الصناعات النسيجية كانت متدهورة، مع التوقف، تمامًا، عن زراعة القطن، بعد تدفُّق المنتجات القطنية الأوروبية الرخيصة، واختفاء مصانع النسيج في بعض المدن، أما

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨١.

الصناعات التمويلية، فقد أسهمت في ضعفها الصناعات المستوردة^(١).

بعد ذلك برز في مجال الإنتاج الصناعي، وبشكل أوضح من الإنتاج الزراعي، التغيرات الحاصلة، في ميزان الإنتاج لصالح الصناعة، في القطاع اليهودي، وشركات الامتياز الاحتكارية، فقد اتسعت باطراد وتيرة نمو الإنتاج الصناعي اليهودي، وحجمه، بنسبة أكبر من الإنتاج الصناعي العربي^(٢).

فقد استغل الاستيطان اليهودي الرأسمال الأجنبي، وعلاقات الاستيطان بالسوق العالمية الرأسمالية، وبالاحتكارات الأجنبية، وتشجيع حكومة الانتداب لتطويع الطاقة الإنتاجية اليهودية، وذلك عن طريق استيراد الآلات الحديثة للصناعة، واستغلال الخبرة التقنية للمهاجرين اليهود^(٣).

في عام ١٩٣٩، ومن خلال الإحصاء السنوي لحكومة الانتداب في فلسطين، ظهرت نتائج التطور، واستثمارات رأس المال في قطاع الإنتاج الصناعي في فلسطين، وكانت كالتالي: ^(٤)

أ - انعكس ضعف المكانة، التي وصل إليها أصحاب الصناعة

(١) سميح شبيب، الأصول الاقتصادية، والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين ١٩٢٠ / ١٩٤٨، رام الله، وزارة الثقافة الفلسطينية ١٩٩٩، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) سعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٤) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: -

- الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧٤.

- سعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٨.

العرب، في مجال التوظيف في الصناعة، ولم تتعد حصتهم ٦.٥ ٪، من مجمل الاستثمارات، أما اليهود فبلغت حصتهم ٤٠.٣ ٪، وشركات الامتياز ٥٣.٢ ٪، من الصناعة الفلسطينية العامة. وتدل بيانات الإحصاء على أن السبب، لم يكن فحسب، نتيجة لضعف الرأسمال العربي، المُعد للاستثمارات في الصناعة، وإنما، أيضاً، نتيجة لخطّة التحالف الإمبريالي - الصهيوني المبرمجة، والمنسقة، التي تجسّدت في تسريع وتيرة النمو الرأسمالي، وتوسيع السوق من قِبَل القطاع اليهودي (احتلال السوق)، أيضاً، الشركات الاحتكارية المختلطة الأجنبية - الصهيونية (برأسمال مساهم ومشترك)، فضلاً عن تدفّق رأس المال، إبان الهجرة الكبيرة (١٩٣٣ - ١٩٣٧)، ولهذا، كانت النتيجة أن أغلبية رأس المال الموظّف، في العام ١٩٣٩، احتوته شركات الامتياز الاحتكارية والمختلطة، برأسمال صهيوني وأجنبي.

ب - بلغت نسبة الصناعات العربية حوالي ٢٨ ٪، واليهودية - الصهيونية حوالي ٧٢ ٪، من الصناعات الكلية في فلسطين.

ج - وصلت نسبة اليد العاملة الصناعية العربية ٢٠ ٪، واليهودية - الصهيونية ٧٦.٩ ٪، ومن حيث متوسط عدد العاملين في المجال الصناعي اليهودي الواحد، فقد زاد ٣.٣ مرة، عن عدد العمال العرب في الصناعة الفلسطينية.

د - كانت الطاقة الإنتاجية للصناعة اليهودية أفضل منها في الصناعة العربية.

هـ - بلغت نسبة الإنتاج الصناعي العربي ١٧.٥%، واليهودي ٦٨.٤% (أي زاد القطاع اليهودي عن نظيره العربي، حوالي ٤ أضعاف).

و - تفوق القطاع اليهودي - الصهيوني، في مجال تنوع إنتاج الصناعة الواحدة.

ز - كما تفوق القطاع اليهودي - الصهيوني في مجال الكفاءة الإنتاجية (الناتج الصافي إلى الناتج الإجمالي).

ح - فاق عدد المحلات، والمؤسسات الصناعية في القطاع اليهودي الصهيوني، عنه في القطاع العربي، عدا فرع النسيج.

تطور الصناعة:

عكست معطيات الإحصاء الصناعي، للعام ١٩٣٩ الاتساع الشاسع في الهوة بين تطور الصناعة العربية، وتطور الصناعة اليهودية - الصهيونية، إذ استطاعت الأخيرة الهيمنة على جميع أوجه الإنتاج الصناعي، بالنسبة للصناعة الفلسطينية، لقد كان العاملون العرب يتمركزون، في الأساس، في ثلاثة فروع أساسية، هي الأغذية، والنسيج، والتبغ، وبلغت نسبة العاملين في هذه الفروع الثلاثة (٥.٥٥%)، من مجمل عدد العاملين العرب، في الصناعة، ما يدل على أن الصناعة العربية، كانت تعاني من مشكلة التطور الآلي في الصناعة^(١).

استمرار الطابع الحرفي للصناعة، وتمثيله بنسبة ١٨.٣٤% من

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٥.

مجمل العالمين، أما في الصناعة اليهودية - الصهيونية، فقد كان عدد المستقلين اليهود من أصحاب الورش الصغيرة، والمهن، هي ضعف المستقلين العرب، تقريباً، إلا أن وزنهم، ضمن مجمل الإنتاج الصناعي اليهودي - الصهيوني ٩.٧%، أي لا يوازن النسبة التي يشغلها الإنتاج الحرفي العربي، في مجمل الإنتاج الصناعي العربي ٣.١٨%^(١).

تأثير الحرب في الصناعة؛

اتسعت فجوة النمو بين الصناعتين، العربية، واليهودية الصهيونية، رغم استفادة كل منهما من ظروف الحرب، ففي الصناعة اليهودية - الصهيونية، ارتفع الإنتاج الصناعي بنسبه ١٠٠%، كما تم تطوير وسائل الإنتاج، وأساليبه - الأمر الذي برز في صناعة الماس - وتطوّرت تطوُّراً سريعاً، كما ارتفع إسهام الصناعة اليهودية - الصهيونية في مجموع الإنتاج الصناعي الفلسطيني من ٨٠%، عام ١٩٣٩، إلى ٨٥% خلال الحرب العالمية الثانية، إلى ذلك، تفاقم حجم الوحدات الإنتاجية اليهودية - الصهيونية، فيما يتعلق بعدد العاملين فيها، بالمقارنة مع الوحدات الإنتاجية العربية، كما زاد حجم رأس المال، وعدد الأحصنة في الآلات المستخدمة، وارتفعت نسبة الأجور، وكم الإنتاج الصافي في القطاع اليهودي - الصهيوني، عنه في القطاع العربي^(٢).

ورغم هذا، استطاع القطاع العربي أن يتفوق على القطاع اليهودي - الصهيوني، في بعض الصناعات، كالتبغ، والزيوت النباتية، والأخشاب،

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٧٥ - ٦٧٧.

والورق، والجلود، والنسيج، حتى عام ١٩٤٢^(١).

كما لوحظ التفوق في كل من الناتج الصافي، والأرباح الصافية، للصناعة العربية، بالمقارنة باليهودية - الصهيونية، حيث أن الناتج الصافي في الفترة (١٩٣٩ - ١٩٤٢)، ازدادت نسبته إلى ٥٥٠.٧% في القطاع العربي، و ٤٦٧.٨% في القطاع اليهودي - الصهيوني، أما بالنسبة للأرباح الصافية، فجاءت ٦٦٣.٧% للقطاع اليهودي - الصهيوني، و ٤٠٤.١% للقطاع العربي^(٢).

محددات التطور التجاري:

بعد تقدّم التجارة، في العهد العثماني، وتدقّق المنتجات القطنية الأوربية الرخيصة، عبر المرافق، وطرق التجارة، وزيادة الصناعات المستوردة^(٣)، أسهمت في تكييف تجارة فلسطين الخارجية، وتشكيل هيكلها، واتجاهاتها، خلال عهد الانتداب، مجموعة من العوامل الرئيسية، علي رأسها طبيعة الموارد الطبيعية والبشرية، ثم طبيعة الموقع الجغرافي لفلسطين، وسط الخارطة العالمية، فالتنمية التي جرت في فلسطين، بما في ذلك محتوى الإنتاج، ووسيلة المواصلات التي تم إقامتها، فضلاً عن السياسة التجارية، والجمركية، التي انتهجتها سلطات الانتداب البريطاني والسياسة التمييزية، ضد المصالح العربية الفلسطينية، المساندة للمصالح الصهيونية^(٤). فوجد التطورات الاقتصادية والثقافية، زمن الانتداب

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) شبيب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٢.

البريطاني، إلى ذلك احتلال اليهود في حكومة الانتداب للوظائف، في جميع الدوائر الحكومية، ولاسيما في القطاعات المالية، وشكلوا أغلبية في مصلحة السكك الحديد، وفي الوقت الذي ظهرت فيه طبقة جديدة من المسلمين والمتقنين، أخذ تناقص اليهود في جميع المجالات، ولاسيما، منذ الثلاثينيات، علي أن ظهور هذا التنافس لا يعني تقليص حجم التجارة اليهودية، إذ أن حجم التجارة، خلال الثلاثينيات والأربعينات، قد ارتفع^(١). وبفضل هذه الحماية، تشجّع أغنياء اليهود في العالم، فنقلوا قسماً من رؤوس أموالهم إلى فلسطين، وأنشئوا عدة صناعات، واستغلوا فرصة قيام الحرب العالمية الثانية، فحملوا حكومة الانتداب البريطاني علي الاعتماد عليهم، دافعين بها إلي وضع أنظمة، حصرت بموجبها الاستيراد من الخارج للمستوطنين اليهود، ومؤسساتهم التجارية، فأتاح ذلك لها، أن تزداد وتتوسع، لهذا أصبحت فلسطين، وبعض بلاد الشرق الأوسط، سوقاً تجارية، تُروّج فيها المنتجات اليهودية^(٢).

أولاً: هيكل الموارد الطبيعية والبشرية وانعكاساتها:

هيأت فرص، ساعدت علي تطوّر الإنتاج الزراعي والصناعي، وتشكيل حدود التجارة الخارجية، استيراداً وتصديرًا، علي الرغم من سيادة الطابع الاستهلاكي، في الصناعة الفلسطينية^(٣).

(١) جلادي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ - ٣٨.

(٢) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٤.

(٣) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٢.

١ - موقع فلسطين الجغرافي:

انعكس موقع فلسطين المتميّز، كواسطة امتداد الوطن العربي، وبين القارات الثلاث (آسيا، وأفريقيا، وأوروبا)، علي قيام تجارة نشيطة، نسبياً، بالإضافة إلي قيام فلسطين بدور المركز، لإعادة تصدير المنتجات المستوردة، من جنوبي شرق آسيا، إلي أوروبا^(١).

كانت مواني فلسطين الرئيسية علي البحر المتوسط، خلال الانتداب، تضم كلا من حيفا، يافا، تل أبيب، عكا، وغزة. وحتى قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨) كانت فلسطين تلعب دوراً مهماً، كمركز لعبور التجارة العربية إلي أوروبا، وزادت أهميتها، بعد حفر قناة السويس^(٢).

٢ - الموارد الطبيعية وتشكيل تركيبة التجارة الخارجية:

كان لمحدودية موارد فلسطين الطبيعية، أثر كبير، في تشكيل المجال الإنتاجي، وبالتالي التصديري الفلسطيني، فتركزت تلك الموارد، بالدرجة الأولى، علي الإنتاج الزراعي، ومستخرجات البحر الميت الكيماوية، إلي جعل هيكل الصادرات الفلسطينية يعتمد علي المنتج الزراعي، وليس الصناعي، مثل باقي البلدان المستعمرة، ولاسيما سلعة واحدة، هي الحمضيات، بالإضافة إلي تصدير متواضع، لمنتجات البحر الميت الكيماوية، وبعض المواد الخام، كالجلود، والصوف الخام، وأمعاء الماشية، وقد انعكس ذلك علي إقامة حركة متصاعدة للمستوردات، من أجل تغطية حاجات فلسطين الرئيسية، من المنتجات الزراعية

(١) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٣.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٣.

والصناعية. ولمحدودية الموارد الطبيعية، وطبيعة المرحلة الإنمائية المتواضعة، التي كانت عليها فلسطين تحت الانتداب، ومع تزايد عدد السكان، وحدوث بعض التحسُّن في مستويات المعيشة، فقد سجَّل الميزان التجاري عجزًا كبيرًا، ومتصاعدًا، قيمته ٩.٢ مليون جنيه فلسطيني^(١)، وارتفعت قيمة تلك العجز المتواصل، أثناء الحرب العالمية الثانية، خاصةً، ما بين سنتي ١٩٢٢ - ١٩٤٦، حتى وصل إلى ٢٠.٦ مليون جنيه، في عام ١٩٤٤، و ١٩.٥ مليون جنيه، في عام ١٩٤٥، ٤٢.٨ مليون جنيه في عام ١٩٤٦، فسجَّل اتجاه عام تصاعدي، في فترات السلم الداخلي والخارجي، أثناء الفترة نفسها، وانخفاضًا، في فترات الحركات الثورية (عام ١٩٣٧، مثلاً)، وفي فترات الاضطرابات الدولية (عام ١٩٤٣، مثلاً)^(٢)، حيث كان الهبوط في نشاط فلسطين التجاري. وتتضح هذه الصورة أكثر، في العلاقة بين فائض الاستيراد، ومصادر الاقتصاد الفلسطيني، إلى السوق الإمبريالية^(٣).

وقد لعبت العوامل المتعلقة بغياب إدارة تنمية وطنية، وإحلال إدارة استعمارية محلها، وما نجم عن "صك الانتداب" من نصوص تمييزية ضد مصلحة فلسطين، دورًا في تحقيق هذا العجز. كما تم تمويل العجز في الميزان التجاري، الذي انعكس على ميزان المدفوعات، بفعل الصادرات غير المنظورة، وتحرك رأس المال الوافد إلى فلسطين، مع

(١) ياسين، مصدر سبق ذكره، أوردته الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٣.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٣ - ٦٨٤٠.

(٣) سعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

المهاجرين الصهاينة^(١).

ثانياً: تركيبة التجارة الخارجية والتخلف الاقتصادي:

عكست مكونات نظام التجارة الخارجية السلعية، طبيعة الاقتصاد الفلسطيني، الذي اتسم بالتخلف وتوزعت صادرات فلسطين، خلال الانتداب، على الأقسام الرئيسية التالية: المنتجات الزراعية، والمواد الغذائية، والمواد الأولية، والبضائع غير المصنّعة، والمصنّعة.

سيطرت المجموعة الأولى على مكونات تجارة فلسطين التصديرية، وكانت الحمضيات الأولى في قائمة الصادرات، فارتفعت نسبتها إلى ٩٥% من مجموع الصادرات الزراعية، أما سلع الجزء الثاني، فشملت الجلود الخام المجفّفة، والصوف الخام، والكبريت^(٢).

إلا أنها، مع بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين سُدَّتْ ضربات متلاحقة للتجارة الفلسطينية، بدأتها الإدارة العسكرية، التي رفعت أجور الشحن، وحظرت تجارة الزيت، وبعض أنواع الفاكهة.

كما اتُخذت إجراءات متعددة لحظر الإتجار بالمواد الغذائية، عام ١٩٢٠. ما لبث أن ألحقت بضربات أخرى، أكثر ضراوة، حين أغرقت الأسواق بالمنتجات الزراعية، المماثلة للمنتجات الفلسطينية^(٣).

خلال أربعينات القرن العشرين، ظهرت منتجات فلسطينية جديدة، على قائمة الصادرات: بنزين، مازوت، وماس مصقول، ما عوّض

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨٣ - ٦٨٤.

(٣) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٧.

انتكاسة صادرات الحمضيات الفلسطينية، خلال الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى تضاعف حجم الصادرات خمس مرات، من عام ١٩٣٩ إلى ١٩٤٦.

نتيجة لتخلف فلسطين الاقتصادي، وانفتاحها على التجارة الحرة مع الدول الأجنبية، بدون قيود أو سياسات تجارية وطنية، بقيت صادرات القسم الثالث تُمثل نسبة ضئيلة (الصابون، منتجات شركة البوتاس الفلسطينية، والأملاح المعدنية) ^(١).

ثالثاً: السياسة الاقتصادية البريطانية التمييزية وانعكاساتها التجارية:

عمل الانتداب على توجيه تجارة فلسطين الخارجية، لمصلحته، بالإضافة لدعم الاقتصاد الصهيوني، وأدى ذلك لزيادة مطردة في فائض استيراد المنتجات في فلسطين (١٩٣٩)، بسبب زيادة الهجرة الصهيونية، ودعم فرص توطيّن اليهود في فلسطين، وما رافقها من استيراد البضائع، لخدمة احتياجاتها، الاستهلاكية والإنتاجية، وإضعاف فرص نمو الاقتصاد العربي ^(٢).

فتحت حكومة الانتداب، فرص التصدير والاستيراد للمتهادين العرب، واتسعت الأعمال التجارية، والمالية، والزراعية، والاقتصادية، وتدققت الأموال من الخارج، ولم تهتم بالصناعة المحلية، لكنها استنزفت موارد فلسطين الطبيعية، وتركز نشاطها في البناء، والزراعة، اللذان كانا يخدمان الأغراض الصهيونية، والبريطانية، فالبناء كان يخدم حركة

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٤.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الاستيطان الصهيونية، بالدرجة الأولى، والزراعة (الموالم) كانت تُدر أرباحًا طائلة جرّاء بيعها في الأسواق الخارجية، وبهذا، فقد استفاد اليهود - الصهاينة، أكثر من العرب، في تلك المجالات^(١).

كما قامت سلطات الانتداب بالعديد من الإجراءات، لحماية الإنتاج اليهودي - الصهيوني، وتحقيق الدخل التعويضي لخزينة الانتداب العامة، لذا شهرت البرجوازية الفلسطينية العربية المقاطعة، والمناداة بالتجارة الحرة، لمواجهة اتساع الهوة، بين الرأسمالية العربية، ونظيرتها اليهودية - الصهيونية عام ١٩٤٥^(٢).

انعكس كل هذا على اتجاهات التجارة الخارجية في جانبها، التصديري والاستيرادي، وفيما يتعلق بأهمية بريطانيا، وممتلكاتها النسبية في تجارة فلسطين الخارجية، فقد ارتفع نصيبها من الواردات الفلسطينية في الفترة من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٤٠، من ٢١.٥% إلى ٣٣.٧%، كما احتلت بريطانيا المركز الأول في تجارة فلسطين الخارجية، طوال فترة الانتداب، تلتها ألمانيا، بعد عام ١٩٣٦، نتيجة نشاط الهجرة اليهودية، التي صاحبها تصدير الآلات، والمعدات الصناعية، بسبب منع اليهود من حمل أموالهم معهم من ألمانيا إلى فلسطين، وفقًا لبنود اتفاقية الهعفراد، الموقّعة بين الحركة الصهيونية (شتيرن)، والحكومة الألمانية زمن النازي. كما استوردت فلسطين، من بريطانيا، معظم احتياجات

(١) سعد، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: -

ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١ - ١٩٥.

الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٤ - ٦٨٥.

الحكومة (المدنية، والعسكرية) البحرية، والجيش، والقوى الجوية، وكذلك جميع احتياجات مشاريع الامتياز، التي أُقيمت برؤوس أموال بريطانية - صهيونية مشتركة، أيضاً، المنسوجات القطنية، والصوف، والأدوات الكهربائية، والأسمدة، والشاي، والسكر، والملح، والسّمك المجفف والمحفوظ، والدواجن^(١).

بالنسبة للصادرات الفلسطينية إلى بريطانيا، تمثلت في سلع زراعية، أو مواد خام لازمة للصناعة، فاستوعبت بريطانيا، قبل الحرب العالمية الثانية، ٥١.٥% من قيمة الصادرات الفلسطينية، وبسبب الحرب، وتحول التجارة إلى منطقة الشرق الأوسط، تراجعت المستوردات البريطانية، وفي أعقاب الحرب مباشرة، عادت الصادرات الفلسطينية صوب أسواقها التقليدية، فارتفعت نسبة الاستيعاب البريطاني للصادرات الفلسطينية، صوب أسواقها التقليدية من ١٤.٥% عام ١٩٤٣، إلى ٢٨% عام ١٩٤٦. كما تقدّم موقع الولايات المتحدة، خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كسوق لصادرات فلسطين^(٢).

وقد اقترح مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧، تكوين مجلس اقتصادي عربي يهودي مشترك، ليوفر لفلسطين منفذاً عادلاً، متساوياً للطرفين في أسواق التصدير، علي أن تدفع جميع المشاريع المدارة من قِبَل ذلك المجلس أجوراً عادلة للطرفين، على أساس واحد^(٣).

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٤ - ٦٨٥.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٥.

(٣) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٧.

رابعاً: تأثير التجارة بالحرب العالمية الثانية:

تنامت تجارة فلسطين الخارجية، تنامياً ملحوظاً، خلال سني الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، وسجل ميزان المدفوعات عجزاً متواصلاً، جرى تمويله من خلال المشتريات العسكرية البريطانية، وأسهمت تحويلات الأموال اليهودية، في تغطية العجز التجاري، كما أدت ظروف الحرب إلي إحداث تغيير في تركيبة الصادرات الفلسطينية، واتجاهاتها، فاتجهت معظمها إلي أسواق الشرق الأوسط، علي عكس ما بين الحربين، وبسبب صادرات الأسواق الأوربية، إلي جانب الحماية علي الواردات المصرية، وأصبحت بذلك أسواق الشرق الأوسط المصدر الأساسي للتصدير، فارتفعت الصادرات إلي ٧٥%، والواردات إلي ١٨%، ولوحظ بشكل خاص استفادة الصادرات الصناعية من فرص تنافس الصادرات الفلسطينية، أثناء الحرب العالمية الثانية، ففي بداية الحرب، بلغت قيمتها ٧٥٠ ألف جنيه، وفي نهايتها ٧.٠٠٠.٠٠٠ جنيه (١)

د - محددات النظام المصرفي والمالي:

المؤسسات المالية في فلسطين^(٢):

١- لم يكن للجانب العربي مؤسسات مالية كثيرة، فقد اعتُبرَ البنك العربي أحد أهم هذه المؤسسات، وكان قد أنشئ عام ١٩٣١، وقدم خدمات جليلة للاقتصاد العربي الفلسطيني، أيضاً، كان هناك البنك

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٦.

(٢) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٧ - ٣٦٩.

الزراعي العربي، الذي أنشئ عام ١٩٣٣. وعن المشاريع التي قُدمت من قبل البعض، لإنشاء مصارف عربية زراعية، تُقدّم قروضًا طويلة الأجل بفوائد، فلم تُلاق نجاحًا، كما لم يُقام مشروعًا آخر، قُدّم إلى الجامعة العربية، لإنشاء مؤسسة مالية تابعة لها، لتأمين تسليف زراعي عقاري.

٢- أما عن الجانب البريطاني، فكان صورة من صور الاحتكارات الإمبريالية العالمية، فعملت على مصادرة أراضي عرب فلسطين.

٣- وعن الجانب الصهيوني، فقد عمل على دعم الاستيطان الزراعي، عن طريق مؤسساته المالية (الكيرن هايسود، الهستدروت، الصندوق القومي اليهودي، والكثير من البنوك والمؤسسات المالية).

قبل عام ١٩١٨، لم يكن في فلسطين نظام مصرفي، وفق التحديد العلمي المتعارف عليه، وبقي الوضع هكذا، حتى مطلع الانتداب البريطاني. وقد لعبت الهجرة اليهودية، لا سيما من ألمانيا، دورًا رئيسيًا في تشكيل الجهاز المصرفي، وتنشيطه، إذ سعت لبناء القاعدة المصرفية اللازمة لممارسة النشاط الاقتصادي والاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وقد كان إنشاء المؤسسات المصرفية عائدًا، بالدرجة الأولى، إلى الجهد اليهودي - الصهيوني، وليس إلى الإدارة الانتدابية^(١).

تطور الجهاز المصرفي في عهد الانتداب البريطاني:

في عام ١٩٢٢، صدر القانون المصرفي الأول، ولم يضع قيودًا

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٧.

عملية على فتح البنوك الجديدة، ووضع رقابة غير جديدة، انحصرت على العمليات المصرفية، وحتى على جمعيات التسليف التعاونية، أدت هذه السياسة المصرفية لهجرة اليهود، وتدفق رأس المال على نطاق واسع، وبالتالي، إلى نمو سريع في عدد البنوك، والجمعيات التعاونية للتسليف، لاسيما خلال المدة ما بين سنتي ١٩٢٠ - ١٩٣٤^(١).

بدأ عهد جديد للمجتمع اليهودي - الصهيوني في فلسطين، في فترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٥، وشهدت هذه الفترة الممارسات النازية، أثناء الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي أدى إلى تدفق المهاجرين الصهاينة لفلسطين بأعداد مضاعفة، ورافقت هذه الهجرة، عملية تدفق منتظم لرؤوس الأموال، وازدهرت البنوك، شأن سائر فروع الاقتصاد، وكان لهجرة اليهود الألمان دور رئيسي في ذلك^(٢)، بعد زيادة البنوك إبان الحرب الأثيوبية - الإيطالية، وتأثيرها على البنوك الصغيرة، فتحركت سلطات الانتداب لوقف الحرية، شبه الكاملة، على النشاط المصرفي، وتم إصدار تشريع مصرفي، لتدعيم الوضع المالي للبنوك المحلية، وتقوية رأسمالها، والحد من عدد البنوك والمؤسسات المالية الصغيرة، عام ١٩٣٧، رغم الانخفاض في عدد البنوك، عام ١٩٣٦. وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية، والذي لم يكن بسبب التعليمات الجديدة، بل لانحدار الهجرة، وبالتالي قلة تدفق الأموال، والركود الاقتصادي، منذ عام ١٩٣٦ والكساد، أيضاً، كسبب محلي للثورة الفلسطينية العربية

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨٧ - ٦٨٨.

١٩٣٦ - ١٩٣٩، تبلّورت هيكلية النظام المصرفي على النحو التالي ^(١):

أ - البنوك الأجنبية. ب - البنوك المحلية.

ج - جمعيات التسليف التعاونية.

بعد انخفاض الائتمان الممنوح لمجموع الودائع، لأكثر من ٧٠٪، في نهاية عام ١٩٤٥ (١٩٣٨ - ١٩٤٥)، في البنوك، ومن ١٠٩٪ إلى ٣٢٪، في جمعيات التسليف، ارتفعت بنسبة ٤٦٪ في البنوك، ٥٨٪ في جمعيات التسليف، نهاية عام ١٩٤٧ ^(٢).

الجهاز المصرفي: بين القطاعين العربي واليهودي - الصهيوني، جرى تكييف السياسة الجمركية البريطانية، بحيث تخدم متطلبات دعم الصناعة اليهودية وحمايتها، وإضعاف الصناعة العربية، ففي عام ١٩٢٤، صدر قانون الرسوم الجمركية، بديلاً عن قانون النظام الجمركي (في العهد العثماني) (١١٪ على البضائع المستوردة، ١٪ على الصادرات)، وشمل ^(٣):

أ - زيادة الرسوم الجمركية على بعض المواد، بهدف زيادة دخل الحكومة.

ب - خفض رسوم الاستيراد على بعض مواد البناء، كالحديد، والخشب، من ١١٪ إلى ٣٪، وذلك لدعم أنشطة الإسكان اليهودية في فلسطين.

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨٨ - ٦٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٨٥ - ٦٨٦.

ج - إعفاء المقتنيات الشخصية، والآلات الزراعية، والبذور، التي كان المهاجرين اليهود، يأتون بها إلى فلسطين، من الرسوم الجمركية.

د - إلغاء المعاملة الخاصة التي كانت تتمتع بها البضائع التركية، والمصرية، والسورية، لفلسطين، وقد أُدخلت من وقت إلى آخر، تغييرات في معدلات الرسوم الجمركية، لدعم الصناعة اليهودية، وضرب الصناعة العربية، أيضاً، تحققت الحماية للصناعة اليهودية، برفع وخفض وإلغاء الرسوم. وقد كان لهذه الإجراءات، أثر سلبي بالغ في الإنتاج العربي، بسبب الرسوم الجمركية العالية، إلى ذلك رفضت سلطات الانتداب، الاستجابة لمتطلبات دعم بعض الصناعات العربية، من خلال حمايتها من المستوردات، تمثل كل ذلك في هيمنة القطاع اليهودي على قطاع التجارة الخارجية لفلسطين، تصديراً واستيراداً، ويشهد سجل النضال الوطني والاقتصادي العربي - الفلسطيني، على رفض هذه السياسات البريطانية التمييزية، والمطالبة بتصحيحها.

نخلص من هذا كله، أن فلسطين عاشت إبان الانتداب البريطاني، تحت بنيتين اقتصاديتين، وليس بنية واحدة، أولاهما عربية، والأخرى يهودية - صهيونية، استقرت بالرساميل الكبيرة، والتقنية العالية، ومحابة الانتداب البريطاني، على حساب العرب الفلسطينيين، وبنيتهم الاقتصادية، الأمر الذي كان له تأثير حاسم على حرب ١٩٤٨.

* * *

الفصل الثاني:

المقاتلون الفلسطينيون في الحرب

(أسماء الغرياي)

دأبت معظم المراجع العربية عن الحرب العربية الإسرائيلية الأولى (١٩٤٧ - ١٩٤٨) على تجاهل الدور البطولي للمناضلين الفلسطينيين، في بداية الحرب العربية الصهيونية، التي اندلعت عقب التصويت على قرار التقسيم مباشرةً، وحتى دخول الجيوش العربية إلى فلسطين (١٥/٥/١٩٤٨). حتى "الموسوعة الفلسطينية" أغفلت ذلك الدور^(١). وكان من سوء حظ الشعب الفلسطيني أن معظم الأعلام الحرة ضلت سبيلها، أو أخطأت غايتها، بسذاجة، وحسن نية، فكانت الخطة التي اتبعتها، هذه الأعلام، هي توهين عزائم الأمة العربية، وتهوين النكبة عليها، عن طريق "فلسفة" النكبة، بشكل يوهم القارئ العربي، أن ما حدث، كان لا بد من حدوثه، لأنه طبيعي، أو لأنه لا قبل للعرب برده أو تقويضه^(٢).

نتحدث الآن عن دور المناضلين الفلسطينيين، خلال تلك الحقبة الخطيرة من تاريخ فلسطين (١٩٤٧ - ١٩٤٨)، "فنسجل بكل زهو

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (الدراسات الخاصة)، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: د. هيثم كيلاي، حروب فلسطين العربية - الإسرائيلية، ص ٤٧٨ - ٥١٠).
(٢) نقولا الدّر، هكذا ضاعت.. وهكذا تعود - دور النفط والمدفع في تحرير فلسطين، بيروت، مطابع دار الحوادث، ١٩٦٤، ص ٦٧.

وفخر، أن الشعب الفلسطيني كمجموع، وخاصة طبقة الفلاحين والعمال، وعلى الرغم من ضعفه وقلة عدده، ثبت في وجه الاستعمار، ثباتاً عجيباً، فما ذل ولا لان، وما هان ولا استكان”^(١). وقد ذكر حاييم وايزمان في مذكراته: ”إن مقاومة الفلسطينيين العنيفة، ومواقف السيد أمين الحسيني، هي التي أخرت تنفيذ البرنامج اليهودي في فلسطين إلى عام ١٩٤٨، بينما كان مقرراً له أن يتحقق في عام ١٩٣٤، على الأكثر”^(٢).

ما أن صدر قرار التقسيم، في ٢٩/١١/٤٧، حتى اندلع القتال بين العصابات الصهيونية الثلاثة (الهاغانا، الأرغون، شتيرن)، وبين المناضلين الفلسطينيين، بعد أن كانت الفكرة السائدة بين الحكومات العربية أن القتال في فلسطين لا يحتاج إلى قوات نظامية، أو بالأحرى كان قادة الجيوش العربية يقولون إن جيوشهم غير مستعدة لدخول حرب نظامية، وكانت الجامعة العربية ترى أن الرجال المتطوعين يستطيعون أن يقضوا على اليهود، أو يمنعوهم من إقامة دولتهم، وأن الجيوش العربية يجب أن تستخدم للتهديد فحسب! غير أن هذه الدول التزمت بقرارها عدم الدخول، حتى يجلو عن فلسطين آخر جندي بريطاني، الأمر الذي لم يتم، إلا في ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨^(٣). ونظرًا لأن فلسطين وديعة مقدسة في عنق الدول العربية، فإن الاعتماد الكلي على الدول العربية لم

(١) إميل الغوري، المؤامرة الكبرى - إغتيال فلسطين ومحق العرب، القاهرة، دار النيل للطباعة، ط١، ١٩٥٥، ص ١٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣) محمد فائز القصري، حرب فلسطين عام ١٩٤٨ - الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب، الجزء الأول، دمشق، دار المعرفة، ط١، يوليو/ تموز ١٩٦١، ص ١٢٤.

يحقق النتائج التي كان عرب فلسطين يأملون فيها، وربما كان له تأثير سلبي من الناحية العسكرية، إذ بالرغم من أن المشاركة العربية في حرب ١٩٤٨ كانت رمزية، لم تصل إلى المستوى المناسب للمواجهة، من حيث التدريب، والتسليح، والتنسيق. فقد استغل الصهيوينيون هذا التدخل لكي يصوروا للعالم وكأن نصف مليون يهودي كان عليهم أن يواجهوا جهداً عربياً موحدًا لسبع دول، ذات جيوش نظامية^(١).

بعد أن اشتركت الجيوش العربية في معارك معدودة، وجدت نفسها عاجزة عن الاستمرار في القتال، ولم تنجح هذه القوات، حيث افترقت إلى الخبرة، والإمكانات العسكرية، في ضوء ذلك، توجب على الفلسطينيين أن يواجهوا، وحدهم، القوات الصهيونية بأشكالها المتعددة، النظامية وغير النظامية، وأن يأخذوا بالحسبان، أيضاً، وجود القوات البريطانية الحامية للوجود الصهيوني في البلاد، وذلك طيلة الفترة الممتدة بين كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، وآيار/ مايو ١٩٤٨، معتمدةً على الإمكانات المحدودة لديهم. مما يجعلنا نتساءل: كيف استطاع المناضلون الفلسطينيون الصمود في وجه العدو، خمسة أشهر متصلة، قبل دخول الجيوش العربية؟ وكيف حافظ المناضلون الفلسطينيون على ٨٠% إلى ٨٢% من مجموع الأراضي الفلسطينية في أيدي العرب الفلسطينيين؟!، وهكذا تسلمتها، الجيوش العربية، لكن هذه الجيوش قلبت الآية، وكفت عن القتال، لكن بعد ما تركت للكيان الصهيوني ٧٨% من مجموع الأراضي الفلسطينية.

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.

كيف تبلور المناضلون الفلسطينيون؟

كانت حركة الكشف من أهم حركات الشبيبة، التي قامت بأدوار معينة، في مدن البلد الكبرى، وخصوصاً يافا، وبرز أعضاؤها، بصفاتهم منظمين وأدوات ارتباط في أيام التحركات الثورية. وفي سنة ١٩٤٥، انسحبت أفواج من الكشف العرب من المنظمة الرسمية للكشف، التي كانت قائمة في إطار جهاز التعليم الحكومي، وأنشأت اتحاداً قطرياً للأفواج العربية القومية، بقيادة فوزي النشاشيبي. وفي سنة ١٩٤٦، برزت، أيضاً، منظمات شبه عسكرية للراشدين. كانت أولها (النجادة)، التي أسسها المحامي محمد نمر الهواري، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥. وهي غير حزبية، واتخذت من يافا مركزاً لها، ووصل عدد أفرادها، في صيف سنة ١٩٤٦، إلى ٢٠٠٠ رجل، وقد ذكر في المنشور الأول إلى الشعب العربي في فلسطين أن هدف (النجادة) هو "توحيد الشباب، وإيقاظ مشاعره القومية، وتنشئته على الانضمام، والنظام، والتضحية، وربط فلسطين بالدول المجاورة" (١).

وفي حملة آل "الحسيني"، من أجل السيطرة على الجمهور العربي في فلسطين، لم ينسوا "النجادة". فلدى عودة رئيس "الحزب العربي"، جمال الحسيني عنه الهواري نائباً للقائد الأعلى للمنظمة (القائد الأعلى: المفتي). لكن هذا التعيين كان رمزياً. وعندما تأكد آل الحسيني من أن الهواري يرفض قبول سلطتهم الكاملة، أحيوا، في أيلول/سبتمبر ١٩٤٦،

(١) حرب فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ترجمة أحمد خليفة، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تموز/يوليو ١٩٨٤، ص ١٢.

منظمتهم التي سبق أن تأسست في سنوات الأحداث، وتفتتت في أثناء الحرب، تحت اسم (الفتوة)، وأنشئت فروع لها في القدس والقرى المجاورة، وترأس المنظمة كامل عريقات، وهو ضابط سابق في الشرطة السرية في القدس. وكان رمز المنظمة الجديدة فارسًا يحمل بيده راية، واشتمل قسمها على: عهد بالمحافظة على عروبة فلسطين، ومقاومة الوطن القومي اليهودي، والإخلاص للوطن، والموت في سبيله^(١).

كانت العلاقات بين المنظمتين متوترة، ولم تنجح المحاولات المتواصلة لتوحيدهما. وازداد ضغط آل الحسيني لتصفية "النجادة"، التي اعتبروها نقطة تجمع لمعارضيه. وفي آيار/ مايو ١٩٤٧، عين المفتي ضابطًا مصريًا متقاعدًا، هو محمود لبيب، قائدًا أعلى "لمنظمة الشبيبة العربية". وحضر لبيب إلى البلد، ومورس ضغط شديد على "النجادة"، للانضمام إلى المنظمة الجديدة. وفي ١٤/٦/١٩٤٧، أعلن الهواري دمج منظمة الشبيبة، التي عين كامل عريقات رئيسًا لها. وبعد فترة قصيرة، اضطر محمود لبيب إلى مغادرة البلد، بعد أن رفضت السلطات البريطانية تمديد إذن إقامته^(٢). لكن سيطرة آل الحسيني على منظمات الشبيبة العربية باتت كاملة.

الهيئة العربية العليا

معروف أنه غدا في فلسطين، في عام ١٩٤٤، ستة أحزاب عربية

(١) المصدر نفسه، ص ١٢ - ١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٥.

فلسطينية، هي: (١)

١- الحزب العربي الفلسطيني (المعروف بحزب المفتي) ترأسه جمال الحسيني.

٢- حزب الدفاع الوطني (المعروف بحزب المعارضين) ترأسه راغب النشاشيبي.

٣- حزب الإصلاح (ترأسه الدكتور حسين الخالدي).

٤- حزب الكتلة الوطنية (ترأسه عبد اللطيف صلاح).

٥- حزب مؤتمر الشباب (ترأسه الحاج محمد يعقوب الغصين).

٦- حزب الاستقلال (ترأسه عوني عبد الهادي).

عندما أُعلنَ الإضراب العام، في البلاد في ٢٠/٤/١٩٣٦، إتحدت تلك الأحزاب، فألفت هيئةً إئتلافيةً سميت (اللجنة العربية العليا)، من رؤساء الأحزاب السابق ذكرهم، مضافاً إليهم المفتي الحاج أمين الحسيني، وكان يشغل منصب رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وقد انتخب رئيساً للجنة، وأحمد حلمي باشا نائباً للرئيس، وأميناً للمال. وتولت هذه اللجنة قيادة الحركة الوطنية في فلسطين، إلى أن أصدر المندوب السامي البريطاني أمراً بحلها، ونفي أعضائها. وتمكن الحاج أمين الحسيني من مغادرة البلاد إلى لبنان، سرّاً. ونفي عدد من أعضاء اللجنة العليا إلى جزيرة سيشل، وظل الحسيني يوجه الحركة الوطنية من خارج

(١) الغوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩.

البلاد^(١)، حتى أطلق صراحهم وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم (١٩٣٩)، فعادوا، ولكنهم راحوا يعملون متفرقين، إذ أعاد " الحزب العربي " تأليف " اللجنة العربية العليا " (١٩٤٥)، وتألّفت من الأحزاب الأخرى هيئة ثانية، سموها (الجبهة العربية العليا). ولما عقد مجلس الجامعة جلسته المشهورة، في بلودان (١٩٤٦)، رأى المجلس أن يعمل على توحيد الأحزاب الفلسطينية، واقترح مقرر اللجنة، إلغاء كل من (اللجنة العربية العليا)، و(الجبهة العربية العليا)، وتألّف (الهيئة العربية العليا)، على أن يحتفظ بالرئاسة إلى الحاج أمين الحسيني (رئيسًا)، وجمال الحسيني (نائبًا للرئيس)، والدكتور حسين الخالدي (سكرتيرًا)^(٢).

شكلت " الهيئة العربية العليا " في كل مدينة وقرية فلسطينية، لجنة محلية للمقاومة. وانبثق عن هذه اللجان لجنة مركزية، أطلق عليها اسم " اللجنة القومية العامة ". وتشعبت من هذه اللجنة لجان فرعية لجمع المال والسلاح، ولجان دعاية لصالح قوات المجاهدين، كما تمت إعادة تشكيل " قوات الجهاد المقدس ".

رغم الصعوبات في العثور على السلاح، وإيصاله إلى فلسطين، وارتفاع أثمانه فقد تمكنت " الهيئة العربية العليا " من شراء ٥٣٩٦ بندقية، و ٣٠٩ مسدسات، و ٨٠٨ رشاشات مختلفة الأحجام، و ٢١٣ مدفعًا من أنواع الهاون، والمورتر، ومضاد للدبابات، و ٦ ملايين طلقة للبنادق،

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

(٢) عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٢، الجزء الأول، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ت، ص ٤٤.

ونحو مليون طلقة للرشاشات، ونحو ١٥٠ ألف قنبلة يدوية^(١). وأسست الهيئة، في الوقت نفسه، ورشة فنية في مرسى مطروح، بصحراء مصر الغربية، وثلاث ورش لصيانة السلاح في القاهرة، وفي داخل فلسطين، ومعملاً لتعبئة الذخيرة في دمشق، وعنابر ومخازن للسلاح والذخيرة في دمشق، وببيروت، وصيدا، والسلم، ومرسى مطروح، والقاهرة، والعريش، وعدة أماكن في فلسطين. وبلغ مجموع ما أنفقته " الهيئة " ثمنًا لهذه الأسلحة، وصيانتها، ونقلها، ٣٣٠.٨٠٠ جنيه فلسطيني*، ولولا ذلك لما تمكن الفلسطينيون من الصمود في وجه العدو، ما يربو على خمسة أشهر من قرار التقسيم، وحتى دخول الجيوش العربية^(٢).

الجهاد المقدس:

في مستهل إعادة تكوين " الجهاد المقدس "، عام ١٩٤٧، اختيرت القدس مقرًا لرئاسة الجهاد المقدس، التي تشكلت من: (٣) عبد القادر الحسيني رئيسًا، وكامل عريقات نائبًا للرئيس، وقاسم الريماوي أمينًا للسرا، ومالك الحسيني مسؤولًا ماليًا، وعاصم الجندي مسؤولًا للتموين، وموسى شيبان (سوري) مسؤولًا للنجدات السريعة، ومنير أبو فاضل (لبناني) مفتشًا عسكريًا، وداوود الحسيني مفتشًا للشؤون الإدارية. كما تم تعيين عدد من قادة القطاعات، تحت إمرة القيادة المذكورة، من بينهم

(١) الغوري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.

(*) كان الجنيه الفلسطيني، آنذاك، مساويًا للجنيه الاسترليني.

(٢) انتصار خليل الشنطي، دور المجاهدين الفلسطينيين، صامد الاقتصادي (عمان)، العدد ١١٣، تموز/ يوليئو، آب/ أغسطس، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨، العدد ١١٣، ص ٣٧.

(٣) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

ضباط من سوريا، والعراق، ولبنان.

التنظيم الداخلي للجهاد

صنّف العاملون في الجهاد المقدس إلى الفئات التالية: (١)

المجنّدون المقاتلون: وهم من الفلسطينيين، والمتطوعين العرب. ومهمتهم نشر الثورة، وقطع طرق المواصلات البريطانية والصهيونية، ومواجهة أعمال الإرهاب الصهيوني. وكانت " الهيئة العربية العليا " تؤمّن لهم السلاح، والعتاد، وتدفع لهم رواتب شهرية رمزية، وتألّف الفصيل من ٨ - ١٠ مقاتلين.

المجنّدون المرابطون: من المواطنين المقيمين في القرى، الذين تولوا الدفاع عن قراهم، والمناطق المجاورة لها. وقدر عددهم بأكثر من ١٨ ألف مجاهد، متوسطي التسليح، والتدريب. وكانت " الهيئة " تؤمّن لهم بعض السلاح، والعتاد، والمال.

فصيل التدمير: تألّف من المجنّدين المختصين بعمليات النسف والتدمير، وقد شهدت هذه الفئة تقدماً ملموساً، وبفضل انضمام عناصر مدربة على يد خبراء ألمان، وضباط عرب، وبخاصة من سوريا والعراق.

فصيل الاغتيال: انتخب من العناصر الفلسطينية المتحمسة، وكانت مهمة اغتيال الخونة، والسماصرة وباعة الأرض لليهود، والقضاء على

(١) د. محمد خالد الأزعر، جيش الجهاد المقدس في فلسطين ١٩٣١ - ١٩٤٩، ط١، غزة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠، ص ٢٨ - ٢٩.

العناصر البريطانية المعادية لعروبة فلسطين. وقد أحدث هذا الفصل ارتباطًا في البلاد، بعد أن قامت عناصر مضادة للجهاد باغتيال أناس أبرياء، ونسبت ذلك لقوات الجهاد.

مبدأيًا: توزعت قوات "الجهاد المقدس"، بعد اشتداد حدة الاشتباكات بين الجانبين العربي الفلسطيني والصهيوني، غداة قرار التقسيم، على سبعة مناطق قتالية، هي: القدس، بيت لحم، رام الله، المنطقة الغربية الوسطى، المنطقة الجنوبية، المنطقة الغربية، المنطقة الشمالية. وهو توزيع كان كافيًا بتغطية معظم أنحاء فلسطين، بما يدعو للتساؤل حول القدرة الحقيقية على أداء المهمات الدفاعية، والهجومية لقوات "الجهاد"، في مواجهة التنظيمات الصهيونية التي بلغ قوامها - على أسوأ التقديرات - في ذلك الحين، زهاء ٦٠ ألف مقاتل، ممن أحسنوا نسبيًا، التدريب، والتسليح، والتنظيم. ولم يكن عدد قوات "الجهاد" ثابتًا في المناطق المذكورة، ففي القدس كان العدد يصعد، أحيانًا، إلى ألف مقاتل، أو يهبط إلى خمسمائة، بحسب الظروف، ولم يكونوا جميعهم مسلحين دائمًا. هنا يتضح لنا الفرق الكبير في التدريب، والتسليح، والتنظيم بين الطرفين، العربي - الفلسطيني، والصهيوني.

معارك الجهاد:

على الرغم من افتقار التسليح والتمويل، فإن قوات "الجهاد المقدس" خاضت معارك مشرقة كثيرة، قبل ١٩٤٨/٥/١٥ - تاريخ دخول الجيوش العربية - حيث أوقعت هذه المعارك خسائر ملموسة بأفراد العصابات الصهيونية المسلحة.

من هذه المعارك، معركة بريرة، الأولى والثانية، في آذار/ مارس، ونيسان/ إبريل ١٩٤٨، ومعركة جولس (١٩٤٨/٤/١٢). ومعركة جبل سكوبس في القدس، التي انتقلت فيها قوات الجهاد لاستشهاد زعيمها عبد القادر الحسيني. وذلك بهجوم قوي، قاده الشهيد حسن سلامة، ضد قافلة يهودية متجهة إلى جبل سكوبس، في ١٣/٤/١٩٤٨، أسفرت عن مصرع نحو ٤٠ شخصية يهودية بارزة في القافلة، التي كانت تنقل مؤنًا، وذخيرة، من الأحياء اليهودية بالقدس، إلى مستشفى هداسا، والجامعة العبرية. ومعارك دير أبي طور، في ٢٧/٧/١٩٤٨، والنبي داوود، في ١١/٨/١٩٤٨^(١).

في قطاع الجليل بالشمال، خاضت قوات "الجهاد المقدس" معارك موفقة، مقارنة بالقوة اليهودية المضادة، أشهرها معركة أبو شريتح (غرب ترشيحا)، ومعارك مجد الكروم، والكابري، والبروة، وأبليت "الجهاد" جميعًا بلاءً حسنًا. كذلك أظهرت هذه القوات قدرات طيبة في معارك قطاع القدس عمومًا، والتصدي للقوافل اليهودية على الطرق وخطوط المواصلات، والرد على حملات التدمير الصهيونية ضد المراكز العربية.

كما امتلك رجال فصيل التدمير في "الجهاد المقدس" باعًا طويلة في العمل العسكري. فقد ردوا على المتفجرات اليهودية في بابي العامود، والخليل، بالقدس بأعمال أكثر جرأة وفاعلية. حين زودوا سيارة نقل بريطانية عسكرية بمتفجرات تزن طنًا ونصف من مادة (ت. ن. ت)،

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦.

وفجروها في شارع هاسوليل، داخل الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، فدمروا ثمانية بنايات للقيادة الصهيونية، منها جريدة "بالستين بوست"، وجريدتي "علمشمار" و"هاشكيفا". ومن هذا القبيل، أيضاً، تفجير شارع يهودا، أكبر الشوارع اليهودية بالقدس. وكذلك مجموعة من التفجيرات في كل من تل أبيب، وحيفا، ويافا^(١).

ثمة اتفاق نسبي بين المصادر العربية والصهيونية على أن الأشهر الأولى، عقب قرار التقسيم، شهدت أرجحية للجانب الفلسطيني، وبدا من بعض طوائف اليهود وأوساطهم جنوح إلى التسليم، وقبول التعاون مع العرب، واعتقاداً بأن مستقبلهم، ومستقبل فلسطين، مرتبط بذلك، بل وسرى التشاؤم إلى زعمائهم، حيث صاروا يقولون إن معركتهم خاسرة، إذا لم يتيسر لهم فرقتان كاملتان في معداتهم، تنزلان إلى الميدان، خلال ثلاثة أشهر^(٢)، حتى أن المندوب الأمريكي في مجلس الأمن، وارين أوستن، اقترح على مجلس الأمن الدولي، في ١٩/٣/١٩٤٨، إصدار قرار يلغي قرار التقسيم، وذلك حتى تحمي الإمبريالية الأمريكية المشروع الصهيوني من الانهيار، فكان في ذلك بوادر نصر فلسطيني عظيم، لم تلبث أن ضعفت، فما كان من القيادة الصهيونية، إلا أن تفتق ذهنها عن حل فريد، فنظمت تلك القيادة، مذبحه دير ياسين، في ٩/٤/١٩٤٨، ومن هنا بدأ ميزان القوى يميل لصالح الصهاينة، بعد أن بدأت الذخائر تنفذ من المناضلين الفلسطينيين، ومع شحة الأسلحة،

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٢) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، تاريخ ومذكرات وتعليقات، الجزء الرابع والجزء الخامس، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٥١، ص ١٢٧.

وامتناع الحكام العرب عن مد أولئك المناضلين بالسلاح والعتاد، ناهيك عن أن أجهزة الاعلام الرسمية والعربية أساءت توظيف مذبحه دير ياسين، مما أوقع الرعب في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني، على أعراضهم قبل أرواحهم، مما خدم الجانب الصهيوني، فيما لم يؤثر على الرأي العالمي، أي تأثير يذكر.

فرقة التدمير العربية:

أراد عبد القادر الحسيني، قائد الجهاد المقدس، تكريم ستة من الفدائيين العرب، من أهالي بيت المقدس، بعد محاولتهم نسف الفندق اليهودي (عدن)، القائم في أقصى حي بن يهودا من الغرب، لكنهم فشلوا بعد أن تصدى لهم، يومئذ، رجال الجيش البريطاني، فأحبطوا مساعيهم قبل ساعة التنفيذ ببضع ثوان. فألف الحسيني فرقة أسماها (فرقة التدمير العربية)، التي اتسع نطاقها مع الأيام، وازداد عدد رجالها، فأصبحوا خمسة وعشرين مناضلاً، هم فوزي القطب، عبد القادر فرحات المعروف بأبي محمد السدمير، ومحمد علي الكرد، وعادل شرف، ويعقوب أبو حليلة، وياسر شرف، و خليل دكيرك، وزيد غنيم، وجواد الجاعوني، ومحمد الشرفاء، ويوسف الحايك (هؤلاء من القدس)، ومحمود دعبس، ونادي دعبس، وعبود غيث، و محمود الهيني (هؤلاء من الخليل)، وحلمي البرق (من نابلس)، ومحمود العكاوي (من عكا)، وعطا عثمان، وناجي مصطفى وأخوه (من عمواس)، وكاظم صالح المغربي (من المغرب)، وداوود البيتوني (من بيتونيا)، وعبد الرحمن السيلوي (من سيلة الظهر)، وعبد القادر التونسي (من المغرب)، وعبد الله

كمردوس^(١).

نجح هؤلاء بقيادة فوزي القطب، في أعمالهم، وعاد إليهم الفضل في نسف معظم منازل الصهاينة، وسقوط الحي اليهودي بالبلدة القديمة.

اللجنة العسكرية:

انبثقت عن الاجتماع الذي عقده مجلس الجامعة العربية، في عالية بلبنان، في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، لجنة، أسموها (اللجنة العسكرية)، قوامها: ^(٢)

أمير اللواء الركن إسماعيل صفوة ياشا (عن العراق)، المقدم محمود الهندي (عن سوريا)، فؤاد عمون، وقد استبدل به، بعد قليل، المقدم الركن شوكت شقير (عن لبنان)، عزة دروزة (عن فلسطين). وانضم إلى اللجنة، بعد قليل، طه باشا الهاشمي، كمفتش عام للمتطوعين.

اتخذت اللجنة العسكرية من دمشق مقرًا لأعمالها. وتمنى الكثيرون، وفي مقدمتهم أبناء فلسطين، لو اتخذت تلك اللجنة من القدس مقرًا لها، لتكون قريبة من ميدان القتال.

عقدت اللجنة عدة اجتماعات، فجاء اجتماعها الثاني، في ١٠/٨، حيث بحثت مسألة القتال في فلسطين، وفي اليوم الثالث (١٠/٩) رفعت إلى مجلس الجامعة تقريرًا سريًا، موضحة ومحدّرة من مخاطر الوضع

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦.

بعد انسحاب بريطانيا من فلسطين، ولهذا أوصت بما يلي: (١)

- المبادرة، حالاً، بتجنيد المتطوعين، وتسليحهم.

- حشد الدول العربية لجيوشها النظامية على مقربة من الحدود الفلسطينية.

- تأليف قيادة عربية عامة، وتعيين المرجع الأعلى لهذه القيادة من جميع الدول العربية.

- البدء بمد عرب فلسطين بما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية، وبمقادير كافية من الرشاشات والقنابل اليدوية، والمتفجرات، وما إلى ذلك من الأسلحة.

- وضع ما لا يقل عن مليون دينار أردني، تحت تصرف اللجنة العسكرية، لتمويل القوات الفلسطينية.

- مبادرة الدول العربية لشراء أكبر كمية ممكنة من الأسلحة، والأعتدة، وأن تدخرها لتمويل المجاهدين.

- حشد أقصى ما يمكن من الطائرات المقاتلة والقاصفة في المطارات القريبة من الساحل الشرقي للبحر المتوسط، لمراقبة المواصلات البحرية، والحيلولة دون وصول النجذات إلى اليهود من وراء البحار.

لكن الجامعة لم تبد أي اهتمام لتنفيذ المقترحات المتقدم ذكرها، باستثناء تخصيص مليون دينار، والوعد بإرسال كميات من السلاح. ترى

(١) المصدر نفسه، ص ١٩.

هل كان تغير من الوضع شيئاً لو نفذت تلك الإقتراحات؟ موقف الجامعة
حذا باللجنة العسكرية إلى حصر جهودها في (١):

تزويد المناطق الفلسطينية المعرضة للخطر اليهودي أكثر من
غيرها، بما لديها من سلاح وعتاد، حتى تتمكن تلك المناطق من الدفاع
عن نفسها.

جمع أكبر عدد ممكن من المتطوعين، من فلسطين، ومن سائر البلاد
العربية، وتدريبهم، وتسليحهم، وتشكيل وحدات مقاتلة منهم.

اللجنة القومية:

أدرك المقدسيون مدى الحاجة إلى تنظيم صفوفهم، فقاموا، في
٢٦ كانون الثاني/يناير، بتكوين لجنة قومية، قوامها: (٢)

الدكتور فوتي فريج، الشيخ أسعد الإمام، حنا عطا الله، توفيق وفا
الدجاني، الحاج طاهر بركات، المحامي تحسين كمال، شريف صبح،
المحامي أنور نسيبة، صالح عبده، الحاج فوزي الخياط، الحاج عيد
عابدين، جميل وهبه، يوسف عبده، المحامي وديع صلاح.

تولت هذه اللجنة الإشراف على شؤون المدينة، وراحت تعمل في
عمارة لدير الروم، بين حارة النصارى وباب الخليل. وأرادت أن تشترك
في شؤون الدفاع، فأشير عليها بأن تحصر أعمالها في الشؤون الإدارية،
على أن تنحصر شؤون الدفاع في اللجنة العسكرية.

(١) المصدر نفسه، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٤ - ٩٥.

أما القوات الصهيونية في فلسطين، فحين صدر قرار التقسيم، كانت مؤلفة من: (١)

الهأغاناه:

هي القوة الرئيسية، والفعالة، في ساحة القتال، ويكفي القول بأنها نظمت على أساس أن تكون جاهزة لأن تصبح جيش دولة إسرائيل، يوم إعلان قيامها. وقد استطاعت الصهيونية أن تستفيد، إلى أقصى حد، من تدريب الشبيبة الصهيونية، تدريباً عسكرياً متقدماً، حين دفعت عناصرها إلى الانخراط في صفوف الجيش البريطاني، والجيش الحليفة، في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، ثم استطاعت، في العام ١٩٤٤، أن تقنع الحكومة البريطانية بتشكيل فرقة (مجموعة ألوية) صهيونية مقابلة، قوامها ٢٦ ألف جندي، تدربت، وعملت في ساحة العمليات في إيطاليا، كما أنها فتحت مدرسة لهذه الغاية في مستعمرة مشمار هايمك، شرق حيفا، وحينما انتهت الحرب العالمية الثانية، انشغلت الهأغاناه في تهريب الصهاينة إلى فلسطين، وانضم إليها " الفيلق الصهيوني " في إيطاليا، ليصبحوا النواة المقاتلة في الهأغاناه. وبلغ عدد أفرادها ما يقرب من ٢٠ ألف مسلح، و ٣٠ ألف احتياطي. انقسمت الهأغاناه إلى أربعة عناصر:

١- البالماخ: وهي القوات الضاربة، أو الكوماندوز، وبلغ تعدادها ثلاثة آلاف مقاتل، توافرت لهم جميع صنوف الأسلحة المساعدة، ووسائل النقل الآلي، والخدمات الميدانية اللازمة.

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤ - ٤٥.

٢- الجيش المحارب: أو قوة الميدان (حيل هسديه)، وهي القوة الأكبر حجمًا، وضمت الشباب المدرب عسكريًا، الذي بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، متخصصين في العمليات الهجومية، والدفاعية، معًا.

٣ - الحرس الوطني: أو قوة الحراسة (حيل همشمار)، مهمتها حراسة المستعمرات، والمراكز العسكرية، والدفاع عنها، وضم جميع المستوطنين اليهود، بمن فيهم غير المسلحين.

٤ - كتائب الشبيبة: ضمت الشباب المتطوعين، دون سن ١٧ سنة، وتحولت، تدريجيًا، إلى كتائب محاربة، وقوات احتياطية.

كما كانت هناك قوات إرهابية صهيونية أخرى، من أبرزها:

الأرغون وشتيرن: وقد عملتا على تصفية الوجود العربي في فلسطين، ونشر الرعب، لترحيل الفلسطينيين، من خلال عملياتهما الإرهابية على المدن والقرى العربية، من أجل إبادة أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين.

المناضلون الفلسطينيون، والقوات الصهيونية في الميزان :

كان ميزان القوى البشرية المقاتلة، الفلسطينية والصهيونية، في حرب ١٩٤٨، في الأشهر الستة التي سبقت دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، على النحو التالي: ١٢٠٠٠ مناضل فلسطيني وعربي، مقابل ٦٧.٠٠٠ مقاتل صهيوني. أي أن عدد الصهاينة خمس أضعاف عدد المقاتلين الفلسطينيين. ومع علم الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بذلك، إلا أنها ظنت أن بإمكان القوات الفلسطينية القضاء على الصهاينة، في مدة أسبوع أو أسبوعين، وحدها، دون تدخل الجيوش العربية!

تدل تلك الأرقام على أن قوة اليهود كانت، قبل بدء القتال ١٩٤٨، عبارة عن: (١)

العدد

٢٠.٠٠٠ جندي دربوا، تدريباً كاملاً، وكانوا مزودين بالسلاح الكامل.

١٠.٠٠٠ جندي دربوا، تدريباً كاملاً، وكانوا مزودين بالسلاح الكامل.

٣٠.٠٠٠ جندي دربوا، تدريباً جزئياً، ولم يزودوا بالسلاح.

٦٠.٠٠٠ هؤلاء ينتمون إلى عصابة الهاغانا.

٦.٠٠٠ مسلحون ينتمون إلى عصابة الأرغون، وكانوا مسلحين.

١.٠٠٠ مسلح ينتمون إلى عصابة شتيرن، وقد عهد إليهم بأعمال التخريب.

٦٧.٠٠٠

أما ما يخص التسليح:

فكانت كميات السلاح التي بقيت في حيازة " الهاغاناه "، يوم إعلان

التقسيم، بحسب تقرير قسم التسليح، على النحو التالي (٢):

قنابل يدوية	رشاشات	مسدسات	بنادق	رشاشات	رشاشات متوسطة	بنادق مضادة للدروع	مدافع هاون ٢ بوصة	مدافع هاون ٣ بوصة	
-------------	--------	--------	-------	--------	---------------	--------------------	-------------------	-------------------	--

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٢.

(٢) حرب فلسطين...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

الفصل الثاني: المقاتلون الفلسطينيون في الحرب

٦٠٣٧	١٥٧٩	٣٢٩٦	٨٨٩٩	٤٤٠	٣٢	٢	٢٢٩	٨	مستعمرات
٥٢٢٨	٥٩٤	١٣٤	٥١٧	٩٦	٣٠	٠	١٠٢	٢٠	قوة الميدان المعابة
٣٣٨٦	٣٥٨	١٠٠	٦٥١	٧٤	١١	٢	٤٧	١٢	البلاخ
٣٩.١٠٠	١١٣١	٣٠٠	٥٩٥	١٦٥	٨٤	١٢	٢٢٢	٤٤	قواعد مركزية
٥٣.٧٥١	٣٦٦٢	٣٨٣٠	١٠.٦٦٢	٧٧٥	١٥٧	١٦	٦٧٠	٨٤	الجموع

عدد أسلحة القوات الفلسطينية، ما بين شهر كانون الثاني

يناير، و ١٥ آيار/مايو ١٩٤٧^(١)

البنادق	في الأرياف
١٤٠	غربي الجليل
٢١٠	جنوب شرقي الجليل
٢٥	إقليم حيفا
١٣٠	منطقة طولكرم
١٥٠	منطقة يافا
٢٥٠	منطقة القدس
١٥١	منطقة غزة
١٠٥٦	المجموع
البنادق	في المدن
٣٨١	القدس
٢٦٤	يافا
٣٧٠	حيفا
١٥٠	غزة
٢٠٠	بيسان
٣٠	عكا
٩٧	طبرية
٧٢	صفد
١٥٦٤	المجموع

هنا يتضح الاختلال الكبير في التسليح، لصالح الصهاينة

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

فقد كانت سلطات الانتداب البريطاني قد حرمت الفلسطينيين من مجرد حمل السلاح واستعماله، وبالطبع من اقتناء أي منه. في المقابل حرصت تلك السلطات على تسليح الصهاينة، بذريعة الدفاع عن أنفسهم على اعتبار أنهم الأقلية! لهذا راح المجاهدون من أبناء فلسطين يبحثون عن السلاح في كل مكان. فريق منهم ذهب إلى السلوم، والعلمين، وسائر أنحاء القطر المصري، وليبيا، وبر الشام. واشتروا ما وجدوه هنا وهناك، والبعض لجأ إلى اللجنة العسكرية بدمشق، يرجوها أن تمدده بما لديها من سلاح، ولكن كيف لها أن تلبّي رغبة هذا البعض، وهي نفسها لا تملك منه شيئاً؟!

أما الأسلحة التي وصلت أبناء فلسطين من الدول العربية، فكانت شحيحة، حيث كانت تلك الدول ترسل القليل منها، كما انتصبت صعوبات، أيضاً، في وصولها، بالإضافة لأن معظمها كان غير صالح للاستخدام.

في المقابل، بدأت الأسلحة تتدفق على إسرائيل، ومعها تدفقت الأموال والتبرعات من المنظمات الصهيونية في العالم الغربي، وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، إلى الوكالة اليهودية. وكان مبعوثو "الوكالة اليهودية" يجوبون مختلف أنحاء أوروبا، لشراء الأسلحة، والذخائر من مخلفات الحرب العالمية الثانية. كما عملت "الوكالة اليهودية" على تسليح قواتها بمختلف أنواع الأسلحة، فأقامت المصانع لإنتاج الأسلحة الخفيفة، ومختلف أنواع الذخائر.

عدد الشهداء من أبناء فلسطين^(١) :

العدد

١٩٥٣ شهداء تمكن من إحصائهم ومن معرفة أسمائهم، وتاريخ، ومواضع استشهادهم.

٤٠٠٤ شهداء لم يتمكن من معرفة أسمائهم، وتمكن من تحديد عددهم، وتاريخ، ومواضع استشهادهم.

٧٠٤٣ شهداء لم يتمكن من معرفة أسمائهم وتاريخ استشهادهم، ولكن تمكن معرفة مواضع استشهادهم.

بالرغم من هذا التفاوت الضخم بين الجانبين، ومن اختلال ميزان القوى، فقد استبسل الفلسطينيون في الدفاع عن مدنهم وقراهم، ضاربين أروع الأمثلة في النضال، بتلك الأسلحة البالية، بل الغريب أن الأشهر القليلة التالية لصدور قرار التقسيم، شهدت أرجحية للجانب الفلسطيني، كما سبق وذكرنا.

المعارك:

ثمة معارك عديدة اندلعت بين الفلسطينيين والصهاينة، كما وقعت صدامات كثيرة، في أنحاء مختلفة من فلسطين، حيث النفوس المشحونة، والقلوب المشتعلة، إثر قرار التقسيم، كان أهمها ما وقع في القدس، إذ نسف المناضلون الفلسطينيون شارع هاسوليل، وحي بن يهودا، ودار

(١) عارف العارف، سجل الخلود: أسماء الشهداء الذين استشهدوا في معارك فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٥٢، الجزء السادس، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، د.ت.، ص ٧.

الوكالة اليهودية، فيما نسب رجال "الأرغون" فندق سميراميس، ونادي الضباط البريطانيين. وفجّرت ألغامهم عند باب العمود، وباب الخليل، ويوم سقوط القسطل، ومذبحة دير ياسين، والتي كانت، بحق، نقطة تحول في ميزان القوى، وما وقع في مدينة يافا، وحيفا، وصفد، وطبريا، وبيسان. ورغم التفاوت في عناصر القوى بين الطرفين، فإن الاشتباكات بين الطرفين لم تتوقف، ومعها النضال المستميت من قبل الفلسطينيين، دفاعاً عن أرضهم ضد العدو، حتى دخول الجيوش العربية، في ١٥/٥/١٩٤٨ إلى فلسطين. وعلى سبيل المثال لا الحصر.

بيت صافا*:

في ٢٥ كانون الأول/يناير ١٩٤٧، هاجم الصهاينة بيت صافا، قاصدين قتل روح المقاومة العربية في عاصمة البلاد، القدس، "فأتوها من ناحيتين: رامات راحيل في الشرق، وتولى هؤلاء مهمة الهجوم. ومن ميكور حاييم في الشمال، وكانت مهمتهم الإشغال، وكانوا حوالي مئة وخمسين مقاتلاً. لكن سرعان ما تصدى لهم حماة القرية، وردوهم على أعقابهم، وقتلوهم بشدة، إلى أن جاء البريطانيون، في ٦ شباط/فبراير ١٩٤٨، وعسكروا في القرية، للحيلولة دون اشتباك الفريقين، وظن العرب أن الصهاينة لن يجرؤوا على دخول القرية، ما دام الانجليز مرابطين فيها، ولا سيما عندما أكد قائد السرية البريطانية أنه لن يسمح

(*) قرية عربية واقعة جنوب القدس، وتكاد تعد حياً من أحيائها، فيها ألف وخمسمائة نسمة من الأهالي، وهي قائمة على تل مطل على خط السكة الحديدية، التي تربط القدس بيافا، وتل أبيب، وعلى الطريق التي تربط القدس ببيت لحم والخليل، ولهذا وضعها الصهاينة نصب نيرانهم.

للسهانية بتسلم الموقع، ولكنه أخلف وعده، فتسلم السهانية الموقع، وراحوا يسلطون مدافعهم المورتر على بيوت القرية وأهلها، فألقوا ما يقرب من السبعين قنبلة، ومع ذلك صمد المناضلون، وظلوا مرابطين في القرية^(١)، وأما باقي الأهالي، من نساء، وشيوخ، وأطفال، فقد رحلوا عن القرية.

يعد هذا الحادث من أهم الحوادث التي وقعت في القطاع الجنوبي، إذ راح السهانية، من بعده، يسيطرون على ذلك القطاع، وسدوا الطرق التي تمر من هناك، وتصل بين القدس والمدن الواقعة في جنوبها. ذلك بفضل تأمر وخيانة الانجليز.

لفتا **:؛

كان اليوم السابع والعشرون من شهر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ من أيام القدس العصبية، حيث امتد القتال في المدينة القديمة، وضواحيها، في لفتا، وروميما، وفي حي القطمون، وباب الخليل، وعند طلعة القسطل، وباب الواد. وكانت أخطر هذه الحوادث ما جرى لقافلة صهيونية في المكان المعروف بطلعة القسطل، على طريق القدس - يافا، فقد هاجمها العرب، وقتلوا أربعة من أفرادها، وجرحوا خمسة، منهم جولدا مايرسون، رئيسة الشعبة السياسية في "الوكالة اليهودية"، حينذاك، فانتقم أفراد العصابات الصهيونية، بأن هاجموا قرية لفتا، مسلحين بالمدافع الرشاشة، من نوع ستن وتومي. ولقد أحدث هذا الحادث

(١) العارف، النكبة...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

(**) قرية عربية، واقعة غربي مدينة القدس، وتكاد تعتبر حيًا من أحيائها.

ذعرًا في لفتاء، ورحل عنها معظم أهاليها، ولا سيما عندما تقوى الصهاينة، بالعدد والعدة، ونسفوا معظم المنازل العربية، ولم يكن بيد اللفتاويين، يومئذ، أكثر من خمسين بندقية، وما كانت هذه بكافية، لدرء الشر عنهم، عندئذ خلت القرية من الأهالي، وسدت في وجه العرب طريق القدس - يافا من هذه الناحية^(١). وكان هذا وحادث بيت صفافا أول الحوادث التي أدت إلى رحيل الأهالي عن منازلهم من قطاع القدس.

حصار الحي اليهودي في البلدة القديمة:

في ٢ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ اشتبك العرب واليهود في قتال بين الشيخ جراح ومياشورم، إثر محاولة قام بها اليهود لنسف عمارة الوقف، القريبة من بوابة مندلبوم، وقد دمروا جانبًا منها. ودام الاشتباك طيلة الليل والنهار، واشترك فيه ما يربو على المائتين من رجال الهاغاناه، ومثل هذا العدد من العرب^(٢). واضطر هؤلاء لإطلاق النار على الصهاينة من مدفع رشاش، نصبوه على مؤذنة المسجد. وضيق العرب الخناق على الصهاينة في البلدة القديمة. فحاصروهم في حيهم، حصارًا تامًا. وكان بإمكانهم أن يستولوا على الحي المذكور كله لولا البريطانيين. فلم يجد العرب بدءًا من تجويع الصهاينة. ورفض هؤلاء الإنذار الذي وجه إليهم بالتسليم.

معارك الصبيح:

في ساعة مبكرة من صباح يوم ١٩٤٨/٢/٣، اصطدم ثمانية

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨.

(٢) العارف، النكبة...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨.

من أبناء عشيرة الصبيح بفئة من المستوطنين الصهاينة، قوامها عشرون مسلحاً في الأراضي الواقعة بين مضارب العشيرة ومستعمرة كيشت. ورجع الصهاينة إلى مستعمراتهم، تاركين وراءهم سبعة قتلى، وفكروا بالانتقام، ولهذا طلبوا النجدة من قيادة الهاغاناه، فأنجدتهم بعدد كبير من مستوطني المستعمرات المجاورة. لكن الفلسطينيين كانوا أسرع منهم، إذ تنادوا للقتال، وأتتهم النجدة، التي بلغ عددها تسعين مناضلاً، يقودهم المجاهد عبد القادر الفاهوم. وقد تخندقوا حول المستعمرة، على شكل هلال، وكان البرد شديداً، والأمطار تنهمر بغزارة، عندما بدأ القتال، وراح الصهاينة يقصفون المواقع، التي تخندق فيها المناضلون بقنابل مدافعهم القوية (المورتر)، وقد استعملوا الرشاشات، أيضاً، ولكن ما كانت هذه ولا تلك لتؤثر على المناضلين^(١). ودام القصف ساعتين، ولما رأى الصهاينة بأن القصف لم يجد نفعا، خرجوا من المستعمرة.

التزم المناضلون الصمت، فلم يطلقوا النار على الصهاينة، تاركينهم يتقدمون، عندئذ شرع المناضلون في إطلاق النار، الأمر الذي أحدث بلبلة في صفوف الصهاينة، فتراجعوا، فلاحقهم المناضلون، حتى السهل، فيما لم يكن لدى المجاهدين أسلحة الثقيلة، أو عتاد يكفي للبنادق الاعتيادية، التي كانت بأيديهم، ولقد أكد عبد اللطيف الفاهوم، الذي قاد المناضلين في هذه المعركة،

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

أنهم أحصوا ما تبقى لديهم من عتاد، فلم يكن بيد الواحد منهم سوى عشر طلقات، وفشل الهجوم، لعدم الاستعداد الكافي للمعركة.

معركة سنهدريا * :

في اليوم العاشر من كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، هاجم فريق من " الجهاد المقدس "، يقدر عدده بمئة مقاتل، الحي المعروف بسنهدريا. ولكن اليهود المرابطين في ذلك الحي تمكنوا من صدّهم. وما كان هذا الهجوم ليفشل لو حدث تغير في الخطة الموضوعة، إذ بدأ المشاة الزاحفون في إطلاق النار، قبل وصول حاملي الألغام. فانتبه اليهود، وفتحوا على المناضلين نارا حامية. وكادوا يحصدونهم، لولا أن أحدهم (عوض الترمسعاوي) سلط نيران رشاشه على الكشاف الكهربائي، الذي استعمله الصهاينة في كشف مواقعهم، فأعطبه. وبذلك نجا المجاهدون، وقد أصيب أحدهم بجراح^(١).

اشترك في هذا الهجوم جماعة من سكان قرى رام الله، كستجل، وترمسعيا، وبيتونيا، والمزرعة الشرقية. وكان على رأسهم عبد القادر الحسيني، يساعده كل من كامل عريقات (أبو ديس ٩)، والشيخ عبد الفتاح المزرعاوي (المزرعة الشرقية)، وإبراهيم أبو دية (صوريف).

(*) من الأحياء اليهودية القائمة شمال المدينة، بين حي مياشورم اليهودي وحي الشيخ جراح العربي.

(١) العارف، النكبة...، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

معركة كفار عسيون الأولى وظهر الحجة:

في ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، فشل العرب في الهجوم الذي شنوه على كفار عسيون، الذي كانوا يهدفون من ورائه الانتقام من مستوطني تلك المستعمرة، وهم الذين كانوا أطلقوا النار، في اليوم السابق، على سيارة القنصل العراقي، وهو في طريقه إلى الخليل. وقد اشترك في ذلك الهجوم عدد كبير، قيل أنه جاوز الألفين من أهالي مدينة الخليل وقراها، والقدس، وقراها، ومن بدو بئر السبع. إلا أنهم صدوا عن المستعمرة، وما كان في أيديهم أكثر من بضع بنادق اعتيادية، أضف إلى ذلك أنهم جاءوا في صفوف غير منتظمة، لا يقودهم قائد، وليس لهم هدف معين. وعبثاً حاول الرجال الذين كانوا يتقدمون الصفوف تنظيم صفوفهم. فاستشهد منهم أربعة عشر، وجرح أربعة وعشرون آخرون^(١).

لكن العرب سرعان ما انتقموا لأنفسهم من الصهاينة. بعد يومين من تاريخ المعركة، عندما قدم فريق من الصهاينة من ناحية (عرطوف)، لنجدة إخوانهم في (كفار عسيون). وما أن اقترب الصهاينة المسلحون من قرية صوريف، وأحس بهم أهالي تلك القرية، حتى تصدوا لهم، وراحوا يطاردونهم، إلى أن أرغموهم على الاعتصام بجبل (ظهر الحجة)، الواقع شمال القرية، وعلى بعد أربعة كيلومترات منها. ورغم أن هذه النجدة الصهيونية كانت مدججة بالأسلحة الأتوماتيكية، وبجهاز لاسلكي، وكانت كبيرة العدد، فإن المناضلين العرب تمكنوا من التغلب عليها، فأبادوها عن بكرة أبيها. واستشهد أربعة من المناضلين، مقابل ٤٠ صهيونياً، معظمهم من الشباب، وطلاب الجامعة العبرية.

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣ - ٨٥.

معركة بيت سوريك:

في ٢٥ / ١ / ١٩٤٨، علم المناضلون بأن قافلة صهيونية ستمر من باب الواد، والقسطل، في طريقها إلى القدس، وأن الزعيم الصهيوني حايم وايزمان فيها، فوقفوا لها بالمرصاد، وزرعوا الألغام في الطريق قرب القسطل، وترأس عبد القادر الحسيني ستين مجاهدًا في انتظارها، فيما كان فوزي القطب، وكامل عريقات، مع مفرزة تدمير، جاهزين لنسف الآليات على الطريق، ودامت المعركة يومين. ولكي يخفف الصهاينة الضغط عليهم، أرسلوا قوة من البالماخ إلى قرية بيت سوريك، القريبة من الطريق وحاصروها. وذاع الخبر بأن عبد القادر وصحبه في خطر، فتوالى النجدة الفلسطينية من القرى المجاورة، وحضر إلى الميدان أكثر من ألف مجاهد مسلح، عندئذٍ تدخل الجيش البريطاني، كعادته في الوقت الحرج بالنسبة للصهاينة، ليخرج القافلة ويعيدها، وارتد الصهاينة إلى الورا، تاركين وراءهم أربعة وثلاثين قتيلًا، وسبعة وعشرين جريحًا^(١).

ميكور حايم:

في ١٣ آذار/ مارس ١٩٤٨، هاجم المناضلون الفلسطينيون مستعمرات ميكور حايم، للمرة الثانية، كما هاجموا مستعمرات رامات راحيل، وتل بيوت، الواقعة جنوب القدس. وتمكنوا من احتلال جانب كبير من ميكور حايم. لكن الانجليز، المرابطين على مقربة من تلك المستعمرة، أنذروا المناضلين بالانسحاب، فانسحبوا، حيث لم يكن في

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

مقدورهم أن يقاتلوا جيشين، في آنٍ، ورغم هذا لم ينقطع تبادل النيران، ولم ينته القتال، إلا عندما تدخل الإنجليز، فقتلوا العرب بعدد من قنابلهم من مدافع الهاون، وصدوهم إلى الوراء^(١).

معركة القسطل*:

في ٣ نيسان/ إبريل ١٩٤٨، احتل رجال البالماخ قرية القسطل، بهدف السيطرة على طريق تل أبيب - القدس، ليتمكنوا من تموين القدس، التي كانت مطوقة بالعرب من كل جانب، وكان مئة ألف من سكانها اليهود، على وشك الموت جوعاً، حتى أنهم حاولوا، عبثاً، أن يقتنعوا العرب بوساطة المندوب السامي البريطاني في القدس، كي يسمحوا لهم بمرور سبع سيارات، محملة قوَّاً لإطعام سكان القدس. ولم يكن في القرية، عندما جاءها اليهود، سوى عدد ضئيل من المناضلين، لا يزيد عن الخمسين من أبنائها، وما كان باستطاعة هؤلاء أن يصدوا اليهود، الذين جاؤوا القرية العربية بقوات كبيرة، ولم تكن القرية محصنة، تحصيناً كافياً، ومع ذلك فقد دافعوا عن قريتهم، دفاع الأبطال، ولم ينسحبوا منها، إلا بعد أن نفذت ذخيرتهم، وسقطت القسطل بأيدي الصهاينة. على أن المناضلين العرب سرعان ما استعادوها، وقاد الهجوم كامل عريقات، الذي تمكن من الصمود فيها، حتى ٣ نيسان/ إبريل، قبل أن تنفذ ذخيرته، إلا أنه أصيب بجراح، ونقل إلى القدس، ورغم معارضته، ولم يحظ عبد القادر الحسيني - وكان قد غادر قبل أيام إلى

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(*) قرية عربية صغيرة، واقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من القدس.

دمشق في محاولة للحصول على أسلحة من اللجنة العسكرية - بأكثر من ٥٠ بندقية، و ٣ مدافع رشاشة^(١)، وحينما رجع إلى القدس، وعرف بوقوع رجاله، الذين استبد بهم التعب، في حالة حصار في القسطل، أرسل بطلب المزيد من المقاتلين، فأمدّه " أبو دية " ** بثلاثمائة من ميليشيا القطمون، وانطلقا على رأس هذه القوة، لمهاجمة القسطل، بهدف كسر الحصار. ولم يكن الشك يخامر الحسيني حول الكيفية التي ستنتهي بها المعركة. واختار المناضلون طريق الاستشهاد، ووزع الحسيني المهمات على الشكل التالي، لاسترجاع القسطل: (٢)

- سرية القطمون في الوسط، على الطريق العام، من الغرب إلى الشرق.

- قوة الجهاد المقدس على يمينها، باتجاه جنوب القسطل.

- جماعة البدو (هارون بن جازي) إلى اليسار.

وأرسل عبد القادر إلى قالونيا عناصر احتياطية، لمنع نجدات الصهاينة من القدس، والمستعمرات المجاورة. بدأ الهجوم بعد الظهر، فتمكن الجناح الأيسر من أن يلتف حول القرية، ولم يستطع القلب والجناح الأيمن أن يوصلا إليها، ولما شاهد الحسيني المناضلين يتراجعون، تقدم لوحده، وهو في حالة يأس وانفعال، ودخل القرية، وغاب فيها. وبدأت إشاعة استشهاده تدور على الألسن، إلا أن ألفي فلسطيني، تشجعهم

(١) المصدر نفسه، ص ٥٢ - ٥٣.

(**) إبراهيم أبو دية، أحد قادة المجاهدين الفلسطينيين، إبان ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

هتافات نسائهم، والزغاريد، برغم الحزن المسيطر على المدينة، قاموا بمصادرة كل ما يتحرك على عجلتين في المدينة، واتجهوا، مجردين من السلاح، جميعاً تقريباً لمهاجمة القسطل. وفي صباح ٤/٨ جاءت مجموعة من " جيش الانقاذ"، واقتحمت القرية من الشمال ودخلتها، وأسرت الصهاينة، الذين انحصروا فيها، ووجدت جثمان الشهيد عبد القادر الحسيني في مدخل القرية، مصاباً بشظايا قنبلة. لقد كان لاستشهاد الحسيني أثر سييء في النفوس، أحبط همم المناضلين، وأفقد المعركة قيمتها التعبوية، وخسر نتيجتها المرجوة، وهي المحافظة على الموقع الحصين، وقطع طريق القدس. ولما كان جميع الرجال، تقريباً، قد أصروا على أن يمشوا في جنازة الحسيني، فإنه لم يبق في القسطل أكثر من أربعين مقاتلاً، وفي الليلة نفسها، قامت فرقتان من البالماخ بتجديد القتال، فسقطت القسطل في أيدي الصهاينة^(١).

معركة الماصيون:

رابطت جماعة من المسلحين الصهاينة في الطريق لاعتراض السيارات العربية، وفي إحدى محاولاتهم اعترضهم العرب، حينما كانوا يصعدون تل الماصيون بمنطقة رام الله، ودارت المعركة، وانتصر المناضلون الفلسطينيون، وقتل أحد عشر من الصهاينة، ورفع ستة أيديهم، رامين سلاحهم، معلنين استسلامهم، وحينما تقدم المناضلون لتسلمهم رماهم أحد الصهاينة بقنبلة يدوية، فسلط المناضلون رصاصهم عليهم، وأبادوهم^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٢) صالح مسعود أبو يصير، جهاد شعب فلسطين - خلال نصف قرن، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ٣٢٧.

معارك يافا:

كان وضع يافا دقيقاً، لتجاورها مستعمرات كبيرة، هي تل أبيب، وملبس، ومكفا إسرائيل، وبيت فجان، وهايكفاه، وحولون، بينما كانت أحياء يافا المتطرفة تتصل بثكنتي درويش باشا، وتل الريش، التي يعسكر فيها الجيش البريطاني. لذلك ألف أهل يافا لجنة قومية، أشرفت على الدفاع، بقيادة حسن سلامة، وجندت ٥٤٠ ماضلاً، استلموا ٢٨٤ بندقية من " الهيئة العربية العليا "، وأرسلت لهم اللجنة العسكرية، في ١٣/١١/١٩٤٧، مئة بندقية فرنسية، ووزعت " اللجنة القومية " للمدينة وحدات المناضلين إلى عناصر ثابتة للدفاع، تكونت من ٣٥٠ ماضلاً، إضافة إلى قوة متحركة، أثناء الهجوم، تألفت من ١٩٠ ماضلاً، اهتم المناضلون الفلسطينيون بتوزيع قواهم على الأحياء المجاورة للصهاينة، وقد جاء في أحد كشوف يافا، في ١٩٤٨/٣/٢، ما يلي: (١)

الجبالية: ٨٧ رجلاً معهم ٥٩ بندقية، أبو كبير: ١٣٠ رجلاً معهم ٥٠ بندقية، و٤ رشاشات خفيفة، كرم التوت: ٣٢ رجلاً، معهم ١٢ بندقية، المسلخ: ٣٥ رجلاً، معهم ١٦ بندقية، ورشاش خفيف، أبو الديوك: ٥٢ رجلاً معهم ٢١ بندقية، طاسو: ٣٢ رجلاً معهم ٢١ بندقية، تل الريش: الجهة الجنوبية الغربية، ١٢٩ رجلاً معهم ٦٠ بندقية ورشاش. الأمر الذي يعكس مدى قلة الذخيرة، وتدني مستواها، بما لا يتناسب مع هدف

(١) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨، لمزيد من التفاصيل انظر (أبو يصير، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨ - ٣٧٢).

الدفاع عن مدينة كبيرة.

في ٣/٥ أمدت قيادة " جيش الإنقاذ " يافا بسرية، فارتفع عدد المدافعين إلى ١٥٠٠ مقاتل، استطاعوا أن يشددوا الضغوط على الصهاينة.

في ٤/٢٨ شن الصهاينة هجومين كاسحين على يافا، أحدهما على تل الريش، والآخر على المنشية الفوقا، في وقتٍ واحد، مزودين بعدد كبير من المدرعات، واندلعت بينهم وبين المناضلين الفلسطينيين معارك طاحنة، وقيل أن الصهاينة خسروا في تل الريش مائة قتيل، وغنم العرب ست مدرعات، وإن نجح الصهاينة في دخول أطراف حي المنشية^(١).

بعد ذلك سادت الفوضى في يافا، وساء الحال فيها، بعد الأخبار عن سقوط القرى المجاورة لها، مثل، الخيرية، وساقية، وكفر عانة، وتطويق قرية سلمة الباسلة. وانسحب قائد جيش الإنقاذ، بعد فشله في أن يسيطر على الفوضى، التي سادت المدينة، مستعيناً برجال الجيش البريطاني.

في ١٤/٥/١٩٤٨، اقتحم الصهاينة يافا، ورفعوا الأعلام الإسرائيلية على مبانيها، وعملوا فيها نهباً وسلباً. ولم يبق من أهالي يافا العرب سوى ٤ آلاف نسمة. وبسقوط يافا انفتح طريق اللد والرملة أمام الصهاينة.

معارك حيفا:

لم يكن في حيفا أسلحة كافية، وكان إمدادها صعباً جداً، نظراً لكثرة المستعمرات حولها، ومع ذلك شكل الفلسطينيون لجنة دفاع لكل حي

(١) العارف، النكبة...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦.

عربي. وأرسلت اللجنة العسكرية بدمشق إمدادات عسكرية إلى أهالي حيفا، ولكن الوضع في المدينة كان سيئاً للغاية، فبعض البنادق المرسلة إلى حيفا عاطلة، وغير صالحة، ورفض رئيس اللجنة القومية استلام البنادق المرسلة إليه، ولم يستلم منها سوى ٨٩ بندقية. عندئذٍ قررت اللجنة العسكرية بدمشق إرسال ٣٠٠ بندقية وألف قنبلة يدوية.

بالرغم من قلة السلاح والعتاد، واختلاف القادة، بذل المجاهدون من أبناء حيفا والقرى المجاورة ما في وسعهم للتغلب على الصهاينة، واشتبكوا في قتالٍ مرير معهم، غير مرة. وفي ١٧/٣/١٩٤٨، مرت بعكا، باتجاه حيفا، قافلة سياراتٍ عربية فيها تموين وأسلحة، وذخيرة ومتفجرات، ومعها قائد حامية حيفا، الملازم الأول محمد الحنيطي، ولما وصلت القافلة إلى مقربة من مستعمرة مونتسكين، يمين عكا وحيفا - وكان الصهاينة قد ترصدوا لهذه القافلة على الطريق - اشتبكوا مع العرب واستشهد في المعركة ١٤ عربياً، بينهم محمد الحنيطي^(١)، وعلى أثر ذلك ساء الوضع في حيفا. وفي ٢١/٤/١٩٤٨، سَلَّمَ البريطانيون مواقعهم المتاخمة لحيفا إلى القوات الصهيونية، رغم وعود البريطانيين السابقة للعرب، وبذلك سقطت حيفا.

نقاط التفوق والإخفاق في أداء المناضلين الفلسطينيين^(٢) :

- أظهروا براعة ومهارة واضحين في أعمال حرب العصابات.

- تفوقوا في المقاومة القائمة على الفداء والاستبسال.

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

(٢) الشنطي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ - ٦١.

- تمكن المناضلون من إرهاب المستعمرات الإسرائيلية، رغم الإرهاب الذي تعرض له الفلسطينيون من قبل السلطات البريطانية.

- كانت القرى الفلسطينية تقف مجاهدة، تصد العدوان، بوسائلها الدفاعية الضعيفة.

- لجأت عناصر " الجهاد المقدس " إلى الدفاع عن الأحياء والقرى، بدلا من أن تلجأ المقاومة التطوعية من رجال " الجهاد المقدس "، في مواجهة المنظمات العسكرية الصهيونية المدربة، إلى حرب عصابات، لإنهاء العدو، واستنزافه.

بالرغم مما اتصف به قتال المناضلين من استبسال وشجاعة وصمود، فإن النتائج التي آل إليها الوضع، تجعلنا ندرك الأخطاء السياسية والعسكرية، التي وقعت فيها القيادة العسكرية الفلسطينية، آنذاك، والتي تمثلت في:

١ - عدم تقدير حقيقة العدو، وجهل التفاصيل عن شؤونه العسكرية، والاستهانة بقوته.

٢ - عدم قيام القيادة السياسية بتعبئة كاملة لجميع القوى العسكرية، والاقتصادية، والسياسية.

٣ - افتقاد القيادة العسكرية الموحدة.

٤ - الافتقار إلى الاستراتيجية الواضحة.

في ضوء ما تقدم، يمكننا رؤية مدى نضال، وجسارة الشعب

الفلسطيني، رغم الفارق الضخم في الإمكانيات، والتسليح، بين الجانبين، الفلسطيني والصهيوني، ومع ذلك لم يرضخ الشعب الفلسطيني، أبداً، ولم يستسلم، وكانت المقاومة هي أهم ثوابت الشعب الفلسطيني، التي قد تخفت حيناً، تحت مطارق الأزمات، وتوالي العواصف، لكنها لا تتلاشى، أو تتوقف، ولا يتخلى عنها الشعب الفلسطيني، كخيار استراتيجي.

* * *

الفصل الثالث:

المتطوعون العرب في الحرب

ياسمين مجري

” اكتشفنا أن كل امرأة لا تجمع إلا من زيتونها بالذات، دون أن تمد يدها إلى زيتون الغير، رغم أن الأرض وما عليها قد تم الإستيلاء عليها ”^(١). حكى ذلك عن فلسطين (١٩٤٨) التي اختلفت كثيرًا عن العراق، في حربه الأخيرة، حيث البيوت نهبت، والمتاحف دمرت. فهل كانت البداية في حرب ١٩٤٨، حين أرسلت الدول العربية متطوعين وجيوش افتقدوا المهارة اللازمة، فكللوا بالفشل، ثم ما لبثت أن نفضت الدول العربية نفسها يدها من الحرب، فصار الزيتون مستباحًا.

بدأت الحكاية، منذ وصول لجنة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق إلى فلسطين. وجاء تقريرها مؤكدًا على ضرورة إنهاء الإنتداب وتقسيم فلسطين^(٢). فقررت جامعة الدول العربية بدء المقاومة العسكرية، وطالبت الأقطار العربية بدعم، يشمل المال، والجيوش، والعتاد. وأنشئت لجنة، عرفت فيما بعد، باللجنة العسكرية^(٣).

(١) رسمي أبو علي، رواية الطريق إلى بيت لحم، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩١، ص ٨٧. دارت الرواية حول أحداث ١٩٤٨.

(٢) د. عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص ٢٥٠.

(3) David Tal, War in Palestine, 1948: Strategy and Diplomacy, USA,

لكن الخريطة، آنذاك، لم تبشر بخير، فالأقطار العربية منشغلة بما تعانيه من احتلال، بالإضافة لعدد من المشكلات الداخلية، التي عانت منها، مثل مصر، التي أربكتها حكومات الأقليات، فشغلت الشعب بقضية الدستور، عن الكفاح ضد الإحتلال البريطاني، الإحتلال نفسه، الذي وقف وراء عصابة الهاغاناة الصهيونية على أرض فلسطين.

حيال ذلك الموقف، كان الحل هو المتطوعين، الذين دعتهم اللجنة العسكرية بدمشق إلى الانخراط في جيش التحرير، الذي أسمته " جيش الإنقاذ " ^(١). إلا أن هذا القرار النظري لم يطبق، عملياً، بالسرعة المطلوبة، ولم يُعين قائدًا لهذا الجيش، إلا في ١٩٤٧/١٢/٧، أي بعد مرور شهرين، شهد كل يوم فيهما تقدمًا لصالح العدو ^(٢). وكانت تلك بداية عجز مخطط الجامعة العربية، تلك الجامعة التي قامت في بدايتها، أصلاً، على خلافات.

اختلفت البداية في الحرب الأمريكية على العراق مارس - آذار ٢٠٠٣، فالمتطوعون لم تتبناهم الجامعة العربية، ولا الدول العربية، رغم ذلك تتشابه الحربان في مساوئ الزج بمدنيين إلى القتال، دون سابق معرفة، حيث بدا " أصحاب إقتراح الجامعة العربية لإرسال متطوعين إلى فلسطين، أشخاص يجهلون مبادئ الحشد، وقيمة العمليات الحربية،

Routledge, 2004, P9.

- (١) عارف العارف، النكبة؛ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٢، ج١، بيروت، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص٣٩.
- (٢) مروة جبر، جامعة الدول العربية وقضية فلسطين (١٩٤٥ - ١٩٦٥)، بيروت، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٩، ص٥٥ - ٥٦.

وسياسيون، لا يقصدون سوى الدعاية”^(١). وتكررت المأساة في الحرب العراقية، حيث استشهد عدد كبير من المتطوعين العرب، في الأيام الأولى للقصف، وهم يتدربون في معسكرات مكشوفة، أو وهم في خنادق ومعسكرات متقدمة^(٢).

كان الإقبال كبيراً على التطوع لصالح فلسطين. ويُذكر أن عدد المتطوعين الذين تم تدريبهم في معسكر الجيش السوري، في ١٩٤٨/٢/٨، بلغ ٤٩٧٦، كان منهم ٢٩٨٧ سورياً، وفقاً لتقرير اللجنة العسكرية الموجه إلى جامعة الدول العربية^(٣). وكانت تعليمات قيادة الإنقاذ تقضي بقبول انضمام المتطوعين إلى قوات الإنقاذ، بصرف النظر عن جنسيتهم أو بلادهم، عندما تتوفر في المتطوع حسن النية والإخلاص^(٤). فكانوا خليطاً من السوريين، من دمشق، وحمص، وحماء، وحلب، ومن العراقيين، والفلسطينيين، وقليل منهم دروز، وأكراد، وشراكسة^(٥). وخدم معهم عدد من العسكريين الألمان، الذين فروا من معسكرات الاعتقال البريطانية. وكان هناك عدد أكبر من اليوغسلافيين. ونشط، أيضاً، البريطانيون الفارون من الخدمة، كخبراء لقيادات الكتائب^(٦).

(١) هاني الهندي، جيش الإنقاذ، بيروت، دار القدس، ١٩٧٤، ص ٥٧.

(٢) <http://www.alwihdah.com/view.php?cat=1&id=463,26/2/2008>.

(٣) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٥) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٩.

(٦) حرب فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٤٨: الرواية الإسرائيلية الرسمية، ط ١، ترجمة أحمد خليفة، نيقوسيا، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤، ص ٢٢١.

اتفقت اللجنة مع وزارة الدفاع السورية على فتح أبواب معسكرات قطنا، لاستقبال المتطوعين^(١). ولم يكن صدفة وجود معسكر المتطوعين الرئيسي في سوريا، حيث اقتضت الضرورة العسكرية هذا القرار، ليتعادل دور سوريا مع دور ملك الأردن، عبد الله بن الحسين، بالإضافة لخروج الرأي العام السوري، مطالبًا بإتخاذ موقف^(٢). وتبع معسكر قطنا لقيادة اللواء إسماعيل صفوت باشا، قائد القوات العربية^(٣).

ما كان جيش الإنقاذ ليؤلف من خليط من الناس، لولا أن إنجلترا وقفت تعارض تأليف جيش عربي من أبناء فلسطين، عندما أرادت الجامعة العربية، عند بدء القتال، تأليف مثل هذا الجيش^(٤).

كانت فلسطين الإختبار الجوهري الأول لجامعة الدول العربية، الذي فشلت في اجتيازها، وتمادى فشلها في عدم تمكين الفلسطينيين من امتلاك مقاليد أمورهم، والتحكم في مصائر أنفسهم، فيما بعد^(٥). وعلى الرغم من مشاعر العرب تجاه فلسطين فإنهم كانوا ممزقين وضعفاء، بدرجة لا تستطيع التصدي لحركة الصهيونية الديناميكية^(٦)، فلم يسع العرب لتنسيق

(١) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩.

(2) Tal, op. cit., p11.

(٣) محمد حسين عريبي، صراع الفدائيين؛ الفدائيون الليبيون في حرب فلسطين ١٩٤٨، طرابلس، الفرجاني، ١٩٦٨، ص ٨٧.

(٤) عارف العارف، النكبة؛ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٢، ج ٢، بيروت، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص ٤٦٣.

(5) Eugene L. Rogan, The War for Palestine: Rewriting the History of 1948, Cambridge, Cambridge university Press, 2007, p82.

(6) Issa Khalaf, Politics in Palestine: Arab Factionalism and Social Disintegration, 1939 - 1948, newyork, SUNY Press, 1991, p161.

جهودهم الدبلوماسية والحربية^(١).

ليعتبر الصهاينة تلك الخلافات في صالحهم، كما زعم بروفيسير إيلان بابيه، المؤرخ الإسرائيلي بجامعة حيفا، " سيد الموقف كان الأنانية لدى كل دولة عربية بحثت عما تريده، فتحولت المعركة المقدسة ضد الصهاينة إلى إغتصاب كبير للأرض... فدخلت بعض الدول العربية المعركة ليس بغرض منع قيام دولة إسرائيل، إنما تقويض قيام دولة فلسطينية، ليتمكنوا من السيطرة على الجزء العربي فيها، عندما يعجز الفلسطينيون عن الحصول على دولة مستقلة " ^(٢) ليدفع المتطوعون العرب ثمن سير " كل دولة وراء أطماعها على رغم من محاربتهم نفس العدو " ^(٣).

تم تقسيم " جيش الإنقاذ " إلى كتائب، توالى دخولها إلى فلسطين، من أول يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨ حتى آخر فبراير/ شباط، كالتالي (فوج اليرموك الثاني، فوج اليرموك الأول، فوج اليرموك الثالث، فوج القادسية، فوج حطين، فوج أجنادين، فوج العراق، فوج الدروز)، ما كان ليزيد الفوج على السبعمئة فرد. وكثيراً ما كان يهبط إلى خمسمائة^(٤). والتحقت بهذه الأفواج بطارية ونصف من المدفعية. وكان تعداد بطارية

(1) Ilan Pappé & others, The Israel/Palestine Question, USA, Routledge, 1999, P163.

(2) Ibid., P167.

(3) Rogan, op. cit., p82.

(4) Yoav Gelber, Palestine 1948: War, Escape And The Emergence Of The Palestinian Refugee Problem, 2NDEDETION, UK, Sussex Academic Press, 2006, P50.

المدفعية بين ١٢٠ - ٨١ جنديًا، ومعهم أربعة مدافع^(١).

رافق الجيش وحدات صغيرة، لم تصل إلى مستوى الكتيبة، مثل " سرية الخماسين "، المشكّلة من متطوعين، من مدينة الحمة السورية^(٢). فبلغ عدد الرجال الذين هبطوا فلسطين، في أواخر يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، ألفين، وتضاعف هذا العدد، فأصبح أربعة آلاف، عندما انتهى الانتداب^(٣). بينما كانت قوات الدفاع الإسرائيلي تزيد عن ٣٥.٠٠٠ فرد، ومع منتصف يوليو/ تموز بلغوا ٦٥.٠٠٠ فردًا، وفي ديسمبر/ كانون الأول وصلوا إلى ٩٦.٤٤١^(٤).

كثيرًا ما كان يلتحق بأفواج " جيش الإنقاذ " سرايا، كسرية " منكو "، للمتطوعين الأردنيين، وسرية حلب، التي حملت اسم " أسود الشهباء "، والتحق هاتان السريتان بفوج اليرموك الثالث. وهناك، أيضًا، السريتان اللبنانية والأردنية. كما جاءت كتيبتا " الحسين " و " القادسية ". وكانتا مكونتان من متطوعي العراق، ولحقت بهما كتيبة لبنانية ورابعة درزية، حملت اسم " جبل العرب " ^(٥).

أما على صعيد الحرب العراقية الأخيرة، فمتطوعوها كانوا حوالي ٨ آلاف، إذ لا توجد أرقام دقيقة حولهم - أغلبهم من الأردن، وسوريا، والخليج، ومصر، والجزائر، وتونس، ولبنان، واليمن، بالإضافة إلى

(١) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

(٢) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢١.

(٣) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٩٩.

(4) Rogan, op. cit., p81.

(٥) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢١.

مجموعات من " القاعدة "، كونت خلايا^(١)، وهؤلاء تشابهوا، من ناحية غرضهم الديني من الجهاد مع نضال الإخوان المسلمين في فلسطين ٤٨ مع الفارق. ولم يتأثر المتطوعون بخلافات الدول العربية، نظرًا لأنهم لم يأتوا بناء على رغبة عربية، لكنهم تأثروا بالأجواء العراقية نفسها، الحاوية على خلافات طائفية، وكان ذلك أسوأ، لأنه يحدث على أرض المعركة. وإن كان مجرد وجودهم المبعثر أكبر دليل على امتداد فشل الدول العربية، التي عجزت عن حماية فلسطين، فطوت يديها عن العراق، تاركة زمرة متطوعين لا يضمهم جيش واحد، يحاولون حماية العراق.

كتائب أخرى

لأجل فلسطين خرج، بخلاف " جيش الإنقاذ "، متطوعون من مصر. وكان المحرك الأساسي لخروجهم، إضراب يوم ١٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧، الذي دعت إليه أحزاب " مصر الفتاة " و " الإخوان المسلمين " و " الحزب الوطني " ^(٢). وأبرق المرشد العام للإخوان، الشيخ حسن البناء، إلى مجلس الجامعة العربية، في ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٧، يقول إنه على استعداد لأن يبعث، كدفعة أولى، بعشرة آلاف مجاهد من الإخوان. وطلب إلى حكومة النقراشي السماح لفوج من هؤلاء المجاهدين باجتياز الحدود، ولكن حكومة النقراشي رفضت الطلب. ولما طلبوا إليها أن تسمح لهم بالقيام برحلة علمية في سيناء، وألحوا في طلبهم، اضطرت

(1) <http://www.alwihdah.com/view.php?cat=1&id=463>, 26/2/2008

(٢) عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.

إلى الموافقة، فراحوا يتسللون إلى ربوع فلسطين، في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٨^(١). ولحقت بهم دفعات أخرى، تسللت بطرق مختلفة.

مر شهران، بدأت فيهما حرب عصابات منظمة، بشرت بنجاح رائع، فعلمت الحكومة المصرية، وطابت إلى المركز العام سحب قواته من النقب، ورفض الإخوان، فلم تجد الحكومة بدءًا من قطع الإمدادات، والتموين، ومراقبة الحدود بشدة، لتضمن عدم وصول شيء منها للمجاهدين، حتى تضطروهم للعودة إلى مصر، ورأى المجاهدون أنفسهم يعيشون أيامًا طويلاً على التمر والماء، وعلى الخبز اليسير الذي يشترونه من نقود قليلة، يرسلها أهلهم، بين حين وآخر^(٢). هنا بدا الضغط البريطاني، الذي قيد الدول العربية، فعجزت عن دعم متطوعيها.

لما رأت الحكومة المصرية أن لا مناص من دخول الحرب، فسمحت لهم بالتدرب على القتال في معسكر "الهكستب" بمصر، وزودتهم بالأسلحة، وبمئة من جنود المدفعية، وعدد من الضباط^(٣). واضطر الإخوان إلى قبول ذلك، والعمل تحت قيادة الجامعة العربية، على أثر قيود الحكومة المصرية^(٤). ورفضها السماح لهم بالتدرب في معسكر قطنا السوري، وإصرارها على تدريبهم في مصر^(٥). تألفت قوات

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٩٨.

(٢) كامل إسماعيل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، القاهرة، مكتبة وهبة. ص ٥٧.

(٣) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٤) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

(5) Gelber, op. cit., p57.

الإخوان من ثلاث كتائب؛ قاد إحداها البكباشي (المقدم) أحمد عبد العزيز، الذي استشهد في المعركة^(١).

من مصر، أيضاً، أعلن حزب "مصر الفتاة" عن تأليف عدة أنواع للقتال من الوحدات، ضد الصهيونية في فلسطين^(٢). فانشأت كتيبة "القمصان الخضر"، وحدات متطوعين خاصة بها. وبحلول إبريل/ نيسان ١٩٤٧، دخل منطقتي غزة، والنقب، الآلاف من المتطوعين المصريين^(٣).

كان هناك متطوعون آخرون، مثل الإخوان المسلمين السوريين، الذين كونوا سرية، قوامها خمسة وثمانون مقاتلاً. وهناك أيضاً سرية "منكو" للمتطوعين الأردنيين وقوامها مئة وخمسون ماضلاً، حطوا على جبل الزيتون، وسموا أنفسهم نسبة إلى التاجر إبراهيم منكو، الذي تولى الإنفاق عليها من ماله الخاص^(٤).

لعبت جمعية "إنقاذ فلسطين" دوراً هاماً. وهي الجمعية العراقية التي كان أول أعمالها، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧، دعوة الشعب العراقي إلى التطوع، فلبى دعوتها زهاء ١٥ ألف شخص. وما أن أرسلت ثلاثة أفواج منهم، حتى طلبت اللجنة العسكرية منها الكف عن إرسال عدد آخر. وتم إلغاء تلك الجمعية، التي ذكر رئيسها "أن الحكومة ألغت

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٢) عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥.

(٣) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

(٤) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

هيئة جديدة، بدلاً منها، اسمتها (الجهة المتحدة لإنقاذ فلسطين)، وتلك الجهة لم تفعل شيئاً، سوى أن الأموال التي جمعت لإنقاذ فلسطين، تم تجميدها على يدها! ”^(١).

عن قيادة جيش الإنقاذ

بداية من اجتماعات الجامعة العربية، رفض مفتي فلسطين السابق، المفتي الحاج أمين الحسيني، دخول قوات عربية لفلسطين، لكن تم تجاهل رأيه. وكل ما طالب به من دعم مادي وعسكري^(٢)، وهو الخطأ الأكبر للجامعة، التي كان عليها دعم القوات المحلية، بدلاً من جلب قوات خارجية، تزيد من إرباك الموقف.

وفي محاولة أخرى، خاضها المفتي، لوضع ” جيش الإنقاذ ” تحت قيادة فلسطينية، يمثلها المقاوم الفلسطيني عبد القادر الحسيني، لكن السوريين اقترحوا فوزي الدين القاوقجي، بدعم من العراقيين، والأردنيين، فقبل الاقتراح السوري^(٣). بينما عارض المفتي قيادة القاوقجي للميدان، قائلاً: ” إنه لا يصلح لقيادة الميدان ”^(٤). وأصر المفتي على تكوين قوى محلية فلسطينية، ينضم إليها متطوعون من باقي الدول العربية، يتولى المفتي قيادتها^(٥). فهل كان المفتي على صواب حيال القاوقجي، الذي أعلن: ” في أول نيسان/ إبريل ١٩٤٨ أخذ الجو يصحو

(١) المصدر نفسه، ص ٤٩ - ٥١.

(2) Rogan, op. cit., P82.

(3) Tal, op. cit., p18.

(٤) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٤١.

(5) Gelber, op. cit., p47.

قليلاً، فقررت أن أخوض معركة قوية في أحد المستعمرات اليهودية في مرج بن عامر؛ واخترت من بين هذه المستعمرات، أقواها (مشمارة عاميك)^(١). فكانت من أفدح الهزائم التي مُني بها " جيش الإنقاذ "، بناء على هذا القرار المتسرع! فكان القواقجي حلقة ضعيفة في القوات العربية، لأنه رأى: أن المعركة مع الصهاينة لن تكون قصيرة، أو سهلة، فعمل على تأجيلها^(٢).

في الواقع، مثل اختيار القواقجي صورة أخرى للخلاف العربي - العربي، حيث أراد الرئيس السوري، شكري القوتلي، من اختياره للقواقجي، " أن يوازن ما بين سلطة المفتي، والملك عبد الله في فلسطين " ^(٣). وأختار القواقجي مقر قيادته على سفح جبل حوريش، بين نابلس وجنين، حيث أقام محطة إذاعة، بثت برامج دعائية، حفلت بالمبالغات^(٤).

عندما لم يتوصل المفتي و " جيش الإنقاذ " إلى اتفاق، لجأ إلى حل وسط، وهو اقتصار أعمال " جيش الإنقاذ " على المناطق الشمالية (الجليل والسامر). وأما المنطقة الوسطى، فعُهد بالدفاع عنها إلى فرق " الجهاد المقدس "، التي تدين بالولاء للمفتي.

كثيراً، أيضاً، ما كان ينتقل المتطوعون من " جيش الإنقاذ " إلى فرق " الجهاد المقدس "، لأنهم كانوا ينظرون إلى الجيش الأول كدخلاء،

(١) د. خيرية قاسمية، مذكرات فوزي القواقجي ١٨٩٠ - ١٩٧٧، ط٢، دمشق، دار التحرير، ١٩٩٥، ص ٣٦٢.

(2) Rogan, op. cit., p85.

(3) Gelber, op. cit., p46.

(٤) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.

ومرتزقة، ورؤساء غير صالحين. وكان " جيش الإنقاذ " بدوره، يراهم جنباء، لا يصلحون للقتال^(١). فاتسمت علاقة " جيش الإنقاذ " والمقاتلين المحليين بغياب التعاون الجدي^(٢).

بدا أسوأ مثال، ذلك الخلاف الذي حدث في معركة " القسطل "، حين اتصل المناضل الفلسطيني عبد القادر الحسيني، بالقاقوقي، طالباً إمدادات من الأسلحة، ليتصدى بها للصهاينة. وعلى الرغم من توفير الجامعة العربية الأسلحة للقاقوقي، فإنه نفى للحسيني، وجود أسلحة كافية لديه. واستشهد المناضل الفلسطيني، في تلك المعركة، في إبريل/ نيسان ١٩٤٨، وكان من أهم رجال المفتي فاضطربت قواته، بعد الإستشهاد^(٣).

ما حدث مرآه لخلافات الدول العربية، التي أرادت حسم المعركة لصالحها، فاختارت قيادة غير ملائمة، لم تنتبه لما تفقد من أرواح، ولا حتى لمعنويات المقاتلين، التي أثر عليها الانسحاب من أرض المعركة، وترك الجرحى والشهداء، الأمر الذي قال عنه الزعيم اليوغوسلافي، تيتو: " في المعارك كنت أمر الرجال بحمل الجرحى، وعدم الانسحاب دونهم، رغم عددهم الكبير، خصوصاً المصابين منهم بالتيفوس. كان هذا عبئاً جسيماً، ولكنه ديناً لا بد من الوفاء به نحو هؤلاء الرفاق، ليتأكد الجرحى أنهم لن يتركوا وحدهم " ^(٤). وما كان أقرب تلك المعركة - التي عملت على تحرير يوغوسلافيا - الدائرة في مطلع الأربعينيات، لتتعلم

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٤١.

(٢) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.

(3) Rogan, op. cit., p86.

(٤) السيد فرج، تيتو في الميدان، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

منها القوات العربية، آنذاك.

ظروف مختلفة واجهها متطوعو العراق، مارس - إبريل ٢٠٠٣. فقد طفت الخلافات المحلية - بين الفرقاء السنة والشيعية والأكراد - على الساحة. ولم يعان المتطوعون من سوء القيادة، لأنهم لم ينتظموا في كتائب، أو جيش واحد، إنما وقعوا في أزمة عدم التنظيم مع الجيش العراقي، مثل ما ذكره العميد المهندس الركن سبأ عبد الله باهيري، في كتابه " حرب العراق: الحقائق والأوهام " عن حالات استبساالية قام بها بعض العراقيون المتطوعين، خاصة وهم يواجهون الموقف، وحدثهم، بعد فرار القوات العراقية^(١). كما ذكر أحد المتطوعين " أن الجيش العراقي أخلى مواقعه، دون إخطار المتطوعين " ^(٢).

فقد الكثير من المتطوعين أرواحهم، ليس بسبب إرتباك القتال، فحسب، بل بسبب الخيانة، أيضاً. وعن ذلك قال الكاتب اللبناني هشام عليوان، في كتابه " نهاية اللعبة " : " تم تجميع المتطوعين داخل ملعب الشعب، وأثناء التجميع رُصد المكان عن طريق العملاء. وقُصف الملعب بأكثر من ٢٥ صاروخاً، عشرات المتطوعين استشهدوا، في هذه الليلة... قرر بعض المتطوعين تنظيم أنفسهم بأنفسهم، فاتجهوا إلى منطقة نفق الشرطة، وتحصنوا هناك، حتى دهمت قوات الاحتلال المنطقة، ورفض المتطوعون العرب إخلاء النفق، واستشهدوا جميعاً، بعد معركة كانت من

(1) <http://www.kkmaq.gov.sa/Detail.asp?InNewsItemID=142409>, 25/2/2008.

(2) <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/18673EC8-1EB6-4844-BFAF-7331D5A6CD34.htm>, 25/2/2008.

أشرس وأشرف معارك المقاومة العربية، خلال الحرب. حدث ذلك برغم ورود معلومات مؤكدة للمتطوعين بسقوط بغداد^(١).

إمكانات المتطوعين

لم يكن ثمة نقص في المتطوعين لأجل فلسطين، وإن لمس النقص في الضباط والرقباء، حيث ذكر تقرير عن قيادة " جيش الإنقاذ "، يقول: " إن مستوى التدريب أدنى من المتوسط، وقدرتهم القتالية منخفضة، ويرجع هذا الأمر إلى قلة عدد الضباط، وتسليم القيادة إلى ضباط متقاعدین، أو ضباط صغار، وحتى رقباء. والنظام العسكري مهلهل " ^(٢)؛ إذ لم يتجاوز عدد ضباط الإنقاذ المائة.

أما المتطوعون فكان بعضهم ذا خبرة سابقة في القتال، مثل المتطوعين الليبيين، حيث اشترك أكثرهم في الحرب العالمية الثانية مع الطليان، ثم انقلبوا عليهم، قبل أن يلتحقوا بالإنجليز^(٣). وكان الجندي منهم يتقاضى راتباً شهرياً، قدره أربعة جنيهات ونصف فلسطيني. هذا عدا الطعام، والكساء، والسلاح. وتولت الجامعة العربية الإنفاق عليهم^(٤).

لم يكن لدى رجال الإنقاذ خرائط، أو كشوف، أو إحصاءات، كما لم تكن لديهم وسائل قوية للاستخبارات. وما كانوا يعلمون عدد اليهود، ومستعمراتهم، وقت الهجوم، والدفاع لديهم، إلا النزر اليسير. وبدا جهل

(1) <http://www.sidonianews.net/news/Books/Hisham%20Elewan2004.htm>, 25/2/2008.

(٢) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠.

(٣) عريبي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

(٤) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٣٩.

القيادة الفاضح في أساليب القتال الحديثة، وسوء الإدارة^(١).

أما عن السلاح فقد عانى العرب، في فترة حرب ١٩٤٨، من مشكلة النقص الخطير في السلاح. وكان المفروض أن تقدم الحكومات العربية عشرة آلاف بندقية لفلسطين، حسب قرار جامعة الدول العربية بالقاهرة، في ١٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٧^(٢).

كان سلاح " جيش الإنقاذ " من نوعية رديئة، مصدرها بقايا مستودعات الحرب العالمية الثانية^(٣)، كما كان خليطاً من أنواع مختلفة من البنادق، الإنجليزية، والفرنسية، والبلجيكية، ونسبة قليلة من مدافع الهاون المختلفة الأنواع، والعيارات، وقليل من الرشاشات المختلفة بأنواعها، مع بعض المصفحات، التي كان أغلبها من المغانم اليهودية. وكانت الأسلحة، على قلتها، غير منسقة في أنواعها، ولم تكن مصنفة، بحيث يُسلّح كل فوج بأكمله بنوع واحد من السلاح^(٤). فصنع ذلك مخزوناً مختلفاً وشاذاً، جعل صيانتها أمراً مستحيلاً، غير أن الأسلحة كانت قليلة الكفاءة، بخلاف إنه كان هناك صعوبة في نقل الأسلحة للمقاتلين.

لم يكن هناك نظام لتزويد جنود الخطوط الأمامية بالذخيرة، الطعام، الماء، أو المساعدات الطبية، وتحت وطأة هذه الظروف لم يستطيعوا

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٦٠.

(٢) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.

(٣) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠.

(٤) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

استكمال المعارك لأكثر من ساعات. ويذكر أحد المحاربين أنه في إحدى المعارك وصل تاكسي لرام الله، وركابه، يشترتون الرصاص من على الرصيف، ليزودوا بها المقاتلين، الذين نفذت ذخيرتهم^(١).

رغم كل تلك المشكلات، كانت لدى أفراد " جيش الإنقاذ "، الشجاعة، والترابط، التي جعلت الضباط البريطانيين يعتبرونه " درجة مذهلة من الانضباط "، ويعتبرون نظامه " أعلى شيء لآن، شوهد لدى العرب " ^(٢). وأكد القاوقجي ذلك، قائلاً: " كان الجيش لا يملك من القوى المادية بالنسبة لما يملكه اليهود، جزءاً مما ينبغي لجيش أن يملكه، لكنه كان يتمتع بحماسة واندفاع شديدين في القتال. وكان يقاتل، ليلاً ونهاراً. حتى أصيب كثير من الجنود بالديزنتاريا، والأمراض الصدرية " ^(٣).

كما حاولوا ضبط مجريات الأمور فأنشأوا محكمة عسكرية خاصة ترأسها، في معظم الوقت، ضابط حقوقي متطوع. وكانت إحدى أهم القضايا التي عالجتها قضية ضابطين - عراقي وفلسطيني - أحيلا إليها بتهمة إرتكاب تجاوزات وجرائم ضد مواطنين فلسطينيين في الجليل. وأصدرت حكماً بإعدامهما رمياً بالرصاص^(٤).

(1) Gelber, op. cit., p88.

(2) Ibid., P52.

(٣) جبر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.

(٤) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧ - ٧٨.

أهم المعارك

من جديد، تدخلت بريطانيا حين واجهت القوات العربية في فلسطين، في البداية، بإعلان أنهم لن يسمحوا بأي إجراءات عسكرية، قبل انتهاء مدة انتدابهم، في يوم ١٥/٥/١٩٤٨. وأقرنوا القول بالفعل، عندما هاجمت الطائرات المصرية مطاراً يهودياً، بالقرب من حيفا، إذ تصدت لها الطائرات الإنجليزية، وغيرها من الحوادث التي تدخلت القوات الإنجليزية فيها لصالح اليهود^(١). فكان يُستخدم المتطوعون في التوغل في المناطق العربية، ليجسوا بهم النبض: نبض الإدارة البريطانية. وكانت تأتيهم الأوامر بالألا يخوضوا معركة، إلا للدفاع عن النفس، ومثال على ذلك ما قامت به مجموعة متطوعين ليبيين، من حراسة مبنى حكومي (مبنى البوليس)، ولا شيء، غير هذا، خشية أن يخرج الإنجليز منه، ويسلموه للصهاينة^(٢). وإن واجهوا، لأجل القيام بالدفاع، افتتار القوات للإسلة الدفاعية، كالمدافع الخاصة، والأسلة المضادة، والدروع، وغير ذلك مما يتطلبه أمر الدفاع^(٣).

لعل أهم المعارك التي خاضها " جيش الإنقاذ " كانت، على التوالي، معركة الزراعة، جنوبي بيسان، معركة النبي صموئيل، شمالي القدس، معركة مشمار هاعميك، في مرج برعام، معركة يازور، عند مدخل يافا، معركة يافا، معركة صفد، معركة يالو، عند باب الواد، معركة عكا،

(١) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(٢) عربي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

(٣) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.

ومعركة الشجرة^(١). كما كانت هناك معركتا المالكية، الأولى والثانية، ونيفي يعقوب، وفيهما تمكن الجيش من تحقيق مهمته^(٢).

وقعت معركة الزراعة، في فبراير/ شباط ١٩٤٨، بين الصهاينة وفوج اليرموك، وهو أول أعمال الفوج، حين هاجم مستعمرة الزراعة الكبيرة، التي أحاطها الصهاينة بخنادق، وسلطوا عليها الماء، حتى أصبحت مستنقعا، يكاد يكون من المستحيل اجتيازه، إلا بالدبابات. وكان الجنود العرب يجهلون طبيعة الأرض، وقدره الأهالي على القتال، كما أنهم سيقوا إلى الميدان، قبل أن يتموا تدريبهم، وكان عتادهم قليلاً. ومع هذا، فقد صدرت الأوامر بالزحف، وما أن اقتربوا، حتى هاجمهم الصهاينة وغاصوا في الطين، ساعتها صدرت لهم الأوامر بالانسحاب^(٣). وفي معركة الجليل، أيضاً، كانت قوات " جيش الإنقاذ " تعاني من ضعف بسبب إنتشارها على جبهات واسعة، بالإضافة إلى عدم وجود احتياط عام. وكان موقف العتاد محزناً جداً، فلم يكن يكفي لمعركة يوم واحد، حتى ولا لبضع ساعات. وبعد قتال دام ١٢ ساعة، صدرت أوامر الانسحاب^(٤).

لم تكن معركة الزراعة، وحدها المحققة لخسائر فادحة، بل ثمة

(١) عارف العارف، النكبة؛ سجل الخلود؛ أسماء الشهداء الذين استشهدوا في معارك فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٥٢، ج٦، بيروت، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص٢٧٦.

(٢) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص٨٩.

(٣) العارف، مصدر سبق ذكره، ج١، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٤) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص١٠٧ - ١٠٩.

معركة " مشمار هاعميك "، حيث كلف القاونجي " جيش الإنقاذ " بإلقاء ٤٥٠ قذيفة، في خمسة أيام على تلك المستعمرة لكنه لم ينل منها شيئاً، فضحت المعركة " جيش الإنقاذ " ^(١). ولم تستطع أن تغطي عليها برامج المبالغة والدعاية، التي كانت تبثها محطة إذاعة جيش الإنقاذ ^(٢). ومن أهم أسباب الهزيمة نجاح الإنجليز في إقناع القاونجي بأن يمنح الصهاينة هدنة ٢٤ ساعة، ثم مدت يوماً آخر. كانت النجدة تتدفق على المستعمرة، والمناطق المحيطة، بقصد تطويق قوات الإنقاذ، وإبادتها ^(٣).

أما الإخوان فكانوا، في الفترة الأولى من الحرب، يجهلون المستعمرات اليهودية، وطرق تحصينها، كما كانوا يعانون من نقص في الأسلحة والمعدات ^(٤). فكانت هزيمة معركة " كفار داروم "، التي لم يبدأ فيها الإخوان المسلمون الهجوم والقصف في الموعد المقرر، حتى وضح النهار، وأصبح في مقدور العدو أن يرى القوات، فحصدوهم بالبنادق والرشاشات ^(٥). وأدرك الإخوان أن أفضل السبل هي عدم المهاجمة إنما إرغام الصهاينة على الدخول في معركة خارج مستعمراتهم، في ساحة مكشوفة. وفعلاً انقسمت الوحدات، مباشرة، بعد هذا الفشل إلى عصابات صغيرة ^(٦).

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٦٠.

(٢) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

(٣) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.

(٤) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠.

(٥) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٦) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

مثلت معركة "باب الواد" معركة أخرى هامة، عجز المناضلون المحليون، وحدهم، عن استكمالها، فدعمتهم فصائل من "جيش الإنقاذ"، في مايو/ أيار ١٩٤٨. وكان من المفترض أن يبقى "جيش الإنقاذ"، إلى حين وصول الجيش العربي، لكنه انسحب قبل وصوله. وإن تمكن الجيش العربي، بعدها، من تدارك الموقف وإلحاق خسائر باليهود^(١). معركة المالكية، أيضًا، لم يستثمرها "جيش الإنقاذ" جيدًا، فبعد قتال دام خمس ساعات انسحب الصهاينة، ودخل جيش الإنقاذ. ولكنه توغل في الجليل، وترك مجموعة المستعمرات إلى يسار قواته. فيما كانت القوات السورية تقاتل، يومها، على مقربة منه. ولو تقدم الإنقاذ نحو الشرق، بدلاً من التوجه نحو الجنوب لاستطاع تأمين الاتصال بالجيش السوري^(٢).

أما معركة الشجرة، فكانت أدق المعارك، تنظيمًا، وأكثرها تضحية، إذ كانت خسائر جيش الإنقاذ، حين انسحب، ألقًا، بين قتيل وجريح^(٣). وقد استمرت الهجمات، إلى أن سرت الهدنة الأولى^(٤).

إن فشل المتطوعين في فلسطين لم يعن قصورًا في إمكاناتهم، بقدر ما عني تكاتف مجتمع دولي مع العصابات الصهيونية، مثل أمريكا، التي اعترفت بقيام الدولة الإسرائيلية بعد دقيقة من إعلانها، كما وقفت بريطانيا إلى جوار الجانب الصهيوني، ليصبح الفشل بذلك نصيب

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص٤٩٩ - ٥٠٠.

(٢) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص١٠٤ - ١٠٦.

(٣) عارف العارف، النكبة؛ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٢، ج٣، بيروت، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص٦٣٧.

(٤) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص٥٢٤.

العرب، الذين عجزوا عن كسب المجتمع الدولي، الذي حتى حينما تدخل بتصدير بعض الأسلحة إلى العرب، كان يُكتشف بأنها فاسدة، مثلما " ثبت لدى فحص بعض البنادق السعودية والمصرية أن عددًا منها لا يصلح للاستعمال " (١). مع الوضع في الاعتبار أن بريطانيا كانت المستعمر الأساسي لتلك البلدان، وبالتالي هي التي تضخ لهم المنتجات والأسلحة! بالإضافة لذلك، كانت المعركة الفلسطينية ساحة أخرى للخلافات العربية.

تطورت الخلافات العربية، مع الوقت، لتصل إلى صمت عربي، أسهم هذه المرة في الهزيمة العراقية، مارس - إبريل ٢٠٠٣، رغم أداء المتطوعين العرب المشرف في العراق - الذي ذكر الكاتب هشام عليوان في كتابه " نهاية اللعبة " - أمثلة عليه " في مواقع مشهودة في البصرة، والخصيب، والنجف، وكربلاء، والكوت، وفي الطريق إلى بغداد، وفي المطار، بالمعركة الأولى والثانية، ثم في نفق الشرطة ومعركة الأعظمية بعد سقوط العاصمة " (٢). لكن للأسف ذلك لم يمنع سقوط العاصمة العراقية تمامًا مثل فلسطين.

بداية النهاية

أثناء الهدنة الأولى، تم إعفاء القاوقجي، وكلف العقيد أنور بنود - من الجيش السوري - بقيادة وحدات جيش الإنقاذ بفلسطين (٣). وأعيد تشكيل جيش الإنقاذ، أثناء الهدنة، ليصبح مكونًا من " لواء اليرموك الأول، لواء

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩.

(2) <http://www.sidonianews.net/news/Books/Hisham%20Eltewan2004.htm>, 25/2/2008.

(٣) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ١١١.

اليرموك الثاني، لواء اليرموك الثالث " (١).

في الوقت نفسه كان أحمد عبد العزيز - الذي استشهد فيما بعد - يجمع قواته المبعثرة من الإخوان المسلمين، ويحشدوها في بيت لحم (٢). وبينما كان الإخوان يعملون في تموين معركة " الفالوجا "، ويدافعون عن مناطق " بيت لحم "، و " الخليل "، إذ اتخذ النقراشي قراره بحل جماعة " الإخوان " (٣)، لإعتقاد الملك فاروق بأن مقاتلي الإخوان إن عادوا إلى مصر منتصرين، فسوف يعملون على قلب نظام الحكم، واستبدال الجمهورية بالملكية (٤).

عندما اجتازت الجيوش العربية حدود فلسطين، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، تقرر سحب " جيش الإنقاذ " منها، على أن يعاد تنظيمه في سورية، ولكن بعد أن أصابه فشل في المعارك التي خاضها (٥). وفي مايو/ أيار ١٩٤٨ تولى الملك عبد الله القيادة العليا للجيوش العربية، وأعلن حل " جيش الإنقاذ "، وأحل القوات العربية النظامية محله (٦).

التحقت البقية الباقية من جيش الإنقاذ بالجيش السوري، تحت اسم " لواء اليرموك "، إلى أن حُل، وانتهى بذلك " جيش الإنقاذ " (٧). الذي لم

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٣٧.

(٢) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٤) عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ - ١٩٥٢، ج ٤، بيروت، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ص ٨٤٤.

(٥) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٩.

(٦) الرواية..، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٧.

(٧) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٣٨.

يتجاوز عدده، يومًا، ثلاثة آلاف مقاتل، ومعداته لم تتجاوز عشرة بالمائة، كما ينبغي لجيش يشغل جبهة واسعة، كجبهة بالنسبة لعدده^(١). أما عن الإخوان فانضم بقيتهم إلى الجيش المصري، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨^(٢).

بهذا كان مجيء الجيش العربي محاولة لإصلاح الموقف، بعد سحب كتائب المتطوعين، لكنه عجز عن إنجاح مهمته، بينما في كفة الحرب العراقية الأخيرة اختفى الجيش العراقي الموجود، وبقي المتطوعون، وحدهم، ففشل صمودهم، أيضًا. هكذا فالمعركتان تتماشان في فكرة وجود متطوعين على أرض معركة، اكتنفتهما خلافات كثيرة، وعدم تنسيق، وعدم استعداد كاف، كأننا لا نستفيد من تجارب التاريخ.

دروس التجربة

لعل من الإيجابيات القليلة في حرب ١٩٤٨، ما قام به قادة الإخوان المسلمين، عند استشهاد أحمد عبد العزيز بتاريخ ١٩٤٨/٨/٢٢ قرب عراق المنشية، فانتدبوا غيره، ثم عادوا فسحبوه، لعدم انسجامه مع الضباط الآخرين، وأرسلت البكباشي (المقدم) عبد الجواد طبالة^(٣). وأمام هذه المحاولة لحسن اختيار القيادة، نجد تجربة القاوقجي، الذي كان يرى الكثير من هزائم جيش الإنقاذ نصرًا مبررًا، " إنه نجح في قطع

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٢.

(2) Haim Levenberg, Military Preparations of the Arab Community in Palestine, 1945 - 1948, USA, Routledge, 1993, P178

(٣) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤١٣.

المواصلات بين المستعمرات اليهودية في المنطقة " (١).

لعل أهم الأشياء التي افتقدتها التنسيق على كافة مستوياته، لتفادي الخلافات، كالتنسيق بين جيش الإنقاذ والقيادات في الخارج. فروى القاوقجي: " في وسط القتال، كنت أطلب عتادًا، ومع ذلك لم ترسل القيادة العامة عتادًا، ولا أخبارًا عن العتاد. فأخذنا، كالعادة، نعد ما يلزم من ترتيبات، ونجمع ما يمكن جمعه بالتقدير من جبهات مختلفة " (٢).

كما كانت هناك أولوية للتنسيق الداخلي بين المتطوعين، والمقاومين المحليين. فإن جيش الإنقاذ كان يتعامل مع المحليين بريية، ويغلقون الطرقات أمامهم، وهم عائدون لمنازلهم، أو يتصدون للباعة، وقاموا بعمل حظر تجول (٣).

كان من الطبيعي أن تحدث خلافات، في ظل الوقت المشحون بالمعارك، لكن ليس بصورة كبيرة، لأنه لا يُعتقد أن رغبة تحرير فلسطين - التي جمعت المتطوعين العرب، رغم انفراط حكوماتهم - ستسول لهم ارتكاب حماقات. كما أنه لا بد أن الفلسطينيين كانوا يرحبون بقدمهم، رغبة في التخلص من العدوان الصهيوني. وأبرز الأمثلة على ذلك، ما كان يحدث في الحرب العالمية، حين اعتقدت بعض الشعوب العربية، أن انتصار ألمانيا سيخلصها من الإستعمار البريطاني، فرفع البعض شعار: " إلى الأمام يا رومل ". مرحبين بقواته لعلها تساعدهم.

عانت المعركة، أيضًا، من سوء تقدير الموقف الصهيوني، ومثال على ذلك، ما ذكره أحد المسؤولين العسكريين، في جيش عربي كبير: " إننا ذاهبون في نزهة عسكرية إلى تل أبيب، لا أكثر.. فالناس في قريتي،

(١) الهندي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.

(٢) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٦.

(3) Gelber, op. cit., p53.

حين يقيمون الأفراح والليالي الملاح، يطلقون الرصاص في الهواء، دليلاً على فرحهم، وعلامة على ابتهاجهم، وإن الأسلحة التي معكم تكفي جداً لهذه المهمة الهينة اللينة” (١).

هذه المهمة الهينة في فلسطين، هي التي أدت لهزيمة ” كفار داروم “، التي لم يكن الإخوان المسلمين متأكدين، خلالها، من دخول المشاة إلى المستعمرة، ولهذا لم يطلبوا من رجال المدفعية التوقف عن القصف، مما أدى إلى استشهاد أربعين مجاهدًا من الإخوان. واضطر هؤلاء إلى الانسحاب، وفي أثناء انسحابهم، راح الصهاينة يضربونهم من الخلف، فبلغ عدد الشهداء أربعة وسبعين، والجرحى خمسين. فأدرك أحمد عبد العزيز، بعدها، أن مهاجمة المستعمرات من غير دبابات، ضرب من الانتحار، ذلك لأن المستعمرات محصنة، تحصينًا تامًا، فاستخدام تكتيك حرب العصابات! (٢).

يبقى سؤال: هل كان الإعداد الجيد لمثل تلك المعارك، وحسن دراسة وتقييم الموقف، سينقذ كثيرين ممن استشهدوا؟ الواقع أن هؤلاء المتطوعين العرب أسلموا أرواحهم لأجل فلسطين، أو العراق، منذ البداية، وانتصروا لأنفسهم، في النهاية، حتى لو كان ذلك في معارك، ردد التاريخ أن العرب مُنوا فيها بالهزيمة. لتتحد معركة فلسطين بالعراق، تحت اسم ” طاهر حسين عثمان “، الشاب الفلسطيني الذي ولد في أحد مخيمات لبنان، بعدما فقد وطنه في حرب ٤٨، فعاش في الدنمارك، وقُتل وهو في طريقه للتطوع في الحرب العراقية الأخيرة.

* * *

(١) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩.

(٢) العارف، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

الفصل الرابع:

حرب ١٩٤٨ على الجبهة المصرية

لواء أ.ح. متقاعد/ سمري شعرواي

خاض الجيش المصري الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، وقد تحققت مفاجأته بموعد الحرب، في يوم ١٢/٥/١٩٤٨، ليحارب يوم ٥/١٥، فقد كانت حكومة محمود فهمي النقراشي ترى عدم دخول الحرب، إنما معاونة الفلسطينيين بالسلاح، والمتطوعين. وكان النقراشي يرى ألا يُدخِل الجيش في اختبار لمطالبة بالجلء عن مصر، لقدرة الجيش المصري على الدفاع عن قناة السويس، ودخول حرب ضد الصهاينة، قد يكشف عكس ذلك، لكن النقراشي أذعن لرغبة الملك فاروق. وكلف الجيش دخول الحرب، فدخلها على محورين، الساحلي، والداخلي (الشرقي). وكان ما كان.

منذ ثورة عرابي جُنِب العسكريون المصريون السياسة والأمن القومي، خوفاً من الثورات واحتماءً بالاستعمار، ورأى السياسيون أن الحرب أكبر من أن تترك للعسكريين، فاتخذوا قراراتها، والسياسة لا تنجح إلا بإرادة وطنية تتبناها، وبقوة عسكرية تحميها، وبإمكانات اقتصادية تمولها.

- في مؤتمر " بلودان " للجامعة العربية (٤٦/٦)، قال مكرم عبيد باشا " إذا قلنا للفلسطينيين حاربوا بما معكم نكون مسئولين عن

خسائرهم، ورفض النقراشي باشا في مؤتمر الجامعة بعالية ١٠/٤٧، دخول الجيش المصري الحرب^(١) وقال بالمعونة المادية وبالمتطوعين، ولم يتم تنفيذ شيء.

- إن أي مفكر استراتيجي أو عسكري، كان لابد سيدفع بالمتطوعين وبغناصر عسكرية، للتعرف على ما يدور في فلسطين، وطبيعة القتال، ومسرح العمليات المجاور. ولابد كان سيرفع الاستعداد، فالمثل يقول "إذا اشتعلت النار في شقة جارك، سارع وشارك في إطفائها، وجهاز أدوات الإطفاء في شقتك"، وفلسطين أمن وطني لمصر، فحدودها تمنع الأطماع الصهيونية، وكان من الخطأ بقاء مصر، حتى ١٣/٥/١٩٤٨، بدون قرار.

- إذا أضفنا الخلافات في التوجهات العربية، للموقف المصري، نعجب كيف تدخل مصر الحرب (١٥/٥/٤٨)، مع أن الاحتمال الأكبر كان الفشل. فنبليون يقول: "أفضل أن أحارب جماعة، على أن أحارب في جماعة". فكيف سنحارب، ونتعاون مع دول متنافرة الأهداف، متعارضة ومتنافسة المصالح - فلا شفافية، ولا يعرف أحد عن قوة الآخر شيئاً.

حجم القوات^(٢): حشدت مصر ٥٠٠٠ مقاتل (مجموعة لواء مشاة)^(٣)، ومعها عناصر سودانية، و٣ أسرايا سعودية.

محمد فيصل عبد المنعم، أسرار حرب ١٩٤٨، القاهرة، دار الهنا، ١٩٦٨، ص ٢٣٥.
(٢) القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية، العمليات الحربية بفلسطين ١٩٤٨، القاهرة، القوات المسلحة، ١٩٦٣، ص ١٧٩.

(٣) كمال الدين حسين، مذكرات أسد الثورة، نصف الدنيا، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٠.

- وصل تدريب القوات إلى مستوى الفصيلة، عدا كتيبة، وصل تدريبها^(١) لمستوى السرية "للاشغال بالأمن الداخلي".

الاستكمال الإداري والفني: العجز بالوحدات العاملة (٦٠%)، والاحتياطية (٩٠%)، وحملة العربات صالحة للسير على الطرق فحسب. ولعجز المركبات، تم تأجير ٣٠ لوري، لنقل القوات من رفح إلى غزة^(٢).

كانت القوات الجوية: ٦ طائرات مقاتلة - ١ طائرة استطلاع - ٥ طائرات نقل، جهزت كقاذفات.

القوات البحرية: ٢ كاسحة الغام، إحداها في بور سعيد، والأخرى في العريش، تعملان بالتبادل، وقطعة نقل بحري، دون تسليح (تنقل حمولة ٢٥٠ طن، أو ٢ سرية مشاة)

المعلومات والاستطلاع: لا معلومات عن العدو، أو قوته، تسليحه، أسلوب قتاله، ومسرح عملياته، وتحصيناته، وقدرة صمودها للقصف.

التخطيط للحرب ومهام العمليات: عبارة عن توجيهات عامة، فلا تحديد للتوقيتات، وللمهام، ولا تنسيق، وتبادل تعاون بين القوات للمناورة، والحشد، تأمين وحماية الأجانب، ولا وضوح لكيفية العمل، للوصول إلى الهدف النهائي، فالمهمة تحددت في:

"الجيش المصري" يحتشد في العريش - هدفه غزة - تقوم القوات

(١) حسين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣.

البحرية بحراسة السواحل الفلسطينية، بالاشتراك مع القوات الجوية، وتقديم المعاونة لهما^(١).

بدء العمليات وتطورها (٦ - ٤٨/٥/١٩)

في السادسة مساء ٤٨/٥/٦، عبرت القوات الخفيفة الحدود إلى خان يونس، وغزة، لجمع المعلومات، لصالح الجيش المصري، وفي ٥/١١، أطلقت مدفعيتها على مستعمرة كفار دروم، المتحكمة في طريق خان يونس - غزة، وتمركزت على تبة على المنطار، شرقي غزة، لتؤمن دخول القوات المصرية الرئيسية إلى غزة^(٢).

- فجر ٤٨/٥/١٥ تقدمت القوة الرئيسية إلى غزة، حتى لا يحتلها الصهاينة، "دافعة مقدمة"، واشتبكت مع مستعمرة الدنجور، ولم تستطع اقتحامها، لشدة نيرانها غير المتوقعة، ولإرهاق القوات، فتركت سريتين لحصارها، وتقدمت باقي المقدمة، ودخلت غزة، في الساعة من صباح يوم ٥/١٥.

- دخلت القوة الرئيسية صباح ٥/١٦، غزة، واستلمت تبة علي المنطار من القوة الخفيفة، واشتبكت مع مستعمرات (كفار دروم - بيرى - بيرون اسحق - اللاسلكي).

- واتضح غياب المعلومات عن العدو. فراجت الشائعات عن

(١) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٩.

قوته وحصونه، لنجاحه في التمسك بالمستعمرات، رغم القصف فلم يسبق دراسة تأثير القصف على التحصينات وخصصت قوات للحصار.

العمليات على المحور الأيمن^(١) :

تقدمت القوة الخفيفة للإستيلاء على بئر السبع، عبر طريق غزة إليها، للسرعة والمفاجأة تغلبت على المقاومة، في بركة العمارة، والمواقع حول بئر السبع، ودخلتها ٤٨/٥/١٩، وضرب طيراننا مستعمرة الدنجور، ومطار بتاح تكفا، ومحطة كهرباء ميناء تل أبيب.

- يوم ٥/١٧: تقدمت القوات من رفح، وسيطرت على العوجة - العسلوج، وبدلت القوات الخفيفة في بئر السبع بقوات صغيرة لتجعلها تتقدم إلى الخليل.

عمليات ١٩ - ٤٨/٥/٢٤^(٢)

لتحقيق السرعة، تقدمت القوات المصرية تاركة عناصر صغيرة لحصار مستعمرات " الدنجور، كفار دروم"، فنشطت المستعمرات، وخصصت قوات إضافية، لإحكام حصارها، ولتأمين المواصلات. وطولبت رئاسة الجيش بقوات لهذه المهمة، لعدم انتقاص القوات المقاتلة، تحسباً للعمليات المقبلة، وتقدمت القوات، شرقاً وشمالاً، قبل دعمها.

- هدفت القيادة السياسية الوصول إلى تل أبيب، لتحقيق نصر

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٧.

سياسي سريع ونهو الحرب، ولم يتصوروها حرباً ضد عدو متفوق في التدريب، بمسرح عملياته وقوته. لدرجة إرسال إشارة مفتوحة " نريد المجدل اليوم "، دون معرفة بموقف وحالة القوات، وإرهاقها، وضرب معنوياتها، والوعي بأمنها وسلامتها^(١).

- تقدمت القوات فوصلت [بيت حانون - بيت لاهيا]، قبل الظهر، وفتحت عليها النيران من مستعمرة دير سنيد، فأمرت باقتحامها: وهي مستعمرة شديدة التحصين، تسيطر على طريق غزه - تل أبيب، وهي مركز الإمداد لمستعمرات الجنوب بالرجال، والسلاح. واحتل الهجوم الأول دشمة واحدة، وفشلت المحاولات الثانية، والثالثة، لفشل فتح ثغرة في حقل الألغام، وأصر قائد القوات المصرية، على الهجوم، للمرة الرابعة، بنفس السرية، فجر ١٩٤٨/٥/٢٤. وبعد تحضير جيد، ودعم تدريب على المهمة، سقطت المستعمرة، وتقدمت كتيبة للمجدل، فدخلتها دون قتال. ونشير هنا لخطر الاستهانة بالعدو، وعدم التحضير الجيد للمعركة، اكتفاءً بالجرأة والشجاعة.

التقدم شمالاً وشرقاً (١٩٤٨/٦/١١ - ٥/٢٤)

١ - بوصول متطوعين ليبيين ومصريين للقوات الخفيفة، دخلت الخليل، ووصلت طلائعها بيت لحم، واتصلت بالقوات الأردنية، يوم ١٩٤٨/٥/٢٤، وإن بقيت خارج أسوار القدس. ولحجمها الصغير، غطته بالخداع، وظلت في حاجة للتعاون مع الجيش الأردني لعملياتها^(٢).

(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٠.

(٢) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.

٢ - بلغ حجم قواتنا، مجموعة لواء. واستمرت السيطرة الجوية، بضرب المستعمرات، وميناء تل أبيب، وجهزت طائرات كوماندوز كقاذفات (دون تسليح).

٣ - وصلت قواتنا عراق سويدان، يوم ٢٤/٥/٤٨، للسيطرة على الطريق إلى مستعمرات النقب^(١). وبقفزات صغيرة، وبالتواجد في بئر السبع، أصبح الوصول لمستعمرات النقب، عبر طرق جانبية، وعملت قواتنا على طريق العوجة - بئر السبع، غزة - عراق سويدان، وكان معرضاً لنشاط المستعمرات، رغم تحذيرات رئاسة الجيش، إنما تلبية للمطالب السياسية.

٤ - لطلب الجيش الأردني تخفيف الضغط عنه، في باب الواد - النطرون، تقدمت قواتنا، على خط أسدود - كستانيا، فتعرضت لنيران من معسكر بريطاني، وهي متقدمة، فاستعانت بقوات مدرعة، وتخطت شمال أسدود " بأربعة كيلو "، وقصفت نجبا، وبذلك طالت خطوط المواصلات، وهاجم العدو أسدود، مرتين ٥/٣٠ - ٦/١، فارتد بخسائر كبيرة^(٢).

الموقف حتى ١٩٤٨/٦/١:

احتلت القوات المجدل وأسدود، ودير سنيد، وغزة، ووصلت القوات الخفيفة إلى بيت لحم، صار المحور الرئيسي (رفح - المجدل) طريق، سكة حديد، وخط تليفون، مهدد بمستعمرات " الدنجور "، أمام رفح، " كفار دروم "، أمام دير البلح، " بيرون اسحق ونير حاييم، وكفار عام "،

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٠.

أمام غزة، " ونيتسانيم " بين أسدود والمجدل، فطلبت قيادة القوات استكمال مرتبات الحرب للقوات^(١)، دعم القوات الجوية للمساعدة والحماية، إنشاء رياسة مستقلة، لتأمين خطوط المواصلات، تعزيز وزيادة القوات المدرعة، والمدفعية، والإشارة، كما يلي: -

١ - رفع القوة الحالية إلى فرقة مشاة كاملة، ومجموعة لواء مستقل.

٢ - زيادة القوات المدرعة إلى مجموعة.

٣ - تعزيز الموقف الإداري بجميع عناصره، لضمان إعاشة القوات.

٤ - عدم طلب أى تقدم آخر للقوات قبل تطهير المناطق المكتبة وتعزيز أمنها.

- ولتأمين الخط المجدل - أسدود، والمجدل - بيت جبرين القدس وللاستصال بقوات الأردن تمت العمليات الآتية:

- ٦/١: قصفنا نجبا، وهوجمت، صباح ٦/٢، ودمرت بعض الدشم، وتوقف الهجوم لاقتراب نجدة قوية للعدو أثرت نيرانها على قواتنا فانسحبت إلى المجدل. لذا يتحتم تجهيز احتياطي قوات ونيران للتعامل ضد دعم العدو

تغيير اتجاه العمليات للتمسك بخط المجدل - الفالوجا - بيت جبرين - الخليل ٦/٣ - ٢
تقدمت القوات (٦/٢) شرقاً (٤٠ كيلو)، للوصول إلى خط المجدل - الفالوجا، يوم ٦/٣، لعزل مستعمرات النقب، حتى تستسلم. وطردت العدو

(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٤.

من دير نحاس، وترقوبية، واتصلت بالخليل^(١).

وقد ظهر عجز القوات العربية عن التعاون، والتقدم إلى تل أبيب^(٢)، رغم تخطي الجيش المصري نيتسانيم، (١١ كم من تل أبيب) ووصول القوات الأردنية للد ورملة، والجيش العراقي لنفس المسافة من تل أبيب. وقد تخلف المراجع في المسافات، ولكنها تشير للقرب الشديد من تل أبيب^(٣). إذا لماذا التوقف عن استكمال مهمة الحرب؟! وإذا كان التزاماً بقرار التقسيم، فلماذا كانت الحرب، أصلاً، بدلاً من دعم الفلسطينيين ليحافظوا على أرضهم، ٨٢% من أرض فلسطين، قبل الحرب؟!!

تعارض السياسات^(٤):

طلب حاكم لواء الخليل الأردني، إخلاء القوات المصرية لبنت جبرين (٦/٣)، والتي كانت تهدد الخليل والفالوجا. كما أصدر الجنرال "جون باجوت غلوب" قرارات لم ترض الجانب المصري والأهالي في القدس، واللد، أو الرملة، وغيرها^(٥)، وأن دخول القوات للحرب، يعطي قياداتها الحرية لتحقيق مهمة الحرب (تدمير قوة العدو العسكرية)، وأن تتحكم فيها مصالحنا فحسب وليس توجهات دول أخرى، وإلا فستضيع الأرواح هباءً.

(١) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٣.

(٢) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ١٦١.

(٣) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٤) هيكل، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٤٧.

احتلال نيتساريم^(١) :

لحماية أسدود والمجدل: نجحت قواتنا، وأنزلت بالعدو خسائر (٣٠٠ قتيل و ١٠ أسرى)، وفشل في استردادها في ليلة ١٩٤٨/٦، واحتلت أرض الفناطيس، فاستردتها قواتنا، وفشل العدو أيضًا، في استردادها.

عمليات ٤٨/٦/١١^(٢) :

بسبب تفوق العدو، استرد العسلوج، لقلة قواتها، واحتل الحسير فور الهدنة، وحشد قوته جنوب كوكبا وعراق سويدان، حتى ٦/١٤، وهاجم في اتجاهات متعددة، بينما، لنقص قواتنا، اعتمدنا على الشجاعة والنخوة، وهذا غير كافٍ في الحروب.

الهدنة الأولى (٦/١١ - ٤٨/٧/٧) :

فزع الصهاينة لأوضاع القوات ولاقتراب الجيش اللبناني من عكا، واستيلاء الجيش السوري على شرق طبريا، ومحاويلته تطويقها غربًا^(٣).

موقف القوات المصرية :

طالت الخطوط الدفاعية والمواصلات، فصارت رقيقة، سهلة القطع، لصغر حجم القوات بالمواقع، ولم تتأثر استعادة العسلوج لإعلان الهدنة^(١).

(١) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(١) المرجع نفسه، ص ١٧١.

تيسر للقوات المصرية كتيبة واحدة، كاحتياطي^(١)، واستنفدت خطوط المواصلات قوات كبيرة، للحراسة، وصار الإمداد البحري مهدد لعدم تجهيز الشاطئ، والإبرار الجوي، متعذر، لنقص معدات الإسقاط، وأصبحت القوات في أمس الحاجة لتطهير المستعمرات، والمواقع المكتسبة، قبل أي تقدم. وقد استغل العدو الهدنة، في تحسين أوضاعه، في مواجهة قواتنا.

استئناف العمليات الحربية

لكثرة الخروقات الصهيونية للهدنة واحتلالها مواقع مؤثرة على قواتنا قامت قواتنا بالآتي:

١ - محاولة احتلال بيت دراس ٧/٧^(٢)، وفشلت القوة التي احتلتها، لطلبها النجدة خطأ، بدلاً من إعلان نجاحها، فقصفتها مدفعيتنا، فأرتدت ووقعت في يد العدو.

٢ - استرداد كوكبا ثم الحليقات يومي (٨، ٩/٧/٤٨):

٣ - استرداد تبة الخيش (٧/٩)^(٣) واستغلت القوات المصرية النجاح، بالاستيلاء على مستعمرة كفار دروم، المحاصرة، منذ بدء العمليات في ليلة ٩ - ١٠/٧/١٩٤٨، وطهرتها، وعثر على وصف لحالة المحاصرين السيئة تدل على نجاح الحصار^(١)

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

٤ - عملية بيت عفه وعبدس ونجبا ١٠، ١١ / ٧: استردت القوات المصرية بيت عفه، واستغلت النجاح، لاحتلال عبدس. ولكونها واقعة تحت النيران، عادت قواتنا إلى بيت عفه، فأمرت القيادة باحتلالها، ثانيةً، بالخطوة والقوة نفسها، فلم تنجح القوة، لتحسين الموقع طبيعيًا.

٥ - معركة نجبا: (المؤثرة على طريق المجدل - عراق سويدان). اقتحمتها القوات، حتى حقول الألغام، فتعرضت المشاة للنيران، وأمر بسحبها.

٦ - صد الهجوم على بيت عفه (١٤/٧/١٥)، حاول العدو استردادها، مستخدمًا قاذفات اللهب، لأول مرة، ونجح في إحداث ثغرة، أمام لهب، فسدتها قواتنا، استردادًا على التشبث بباقي الموقع.

٧ - حصار الدنجور (١٣/٧)، قصفت المستعمرة، حتى ١٧/٧، وسحبت قوة الهجوم استخدامها، لاستعادة العسلوج.

٨ - عملية بيروت اسحق (١٥/٧)، نجح احتلال نصف المستعمرة لجزء من القوة، وأبلغ بتقدم عشرين مصفحة، ولم يصل دعم لقواتنا المنهكة، فصدر أمر الانسحاب، وهنا برزت أهمية وجود احتياطي جاهز، بالقوة، والنيران، والطيران، يدفع أثناء القتال، والتشبث بالأرض المكتسبة.

٩ - معركة العسلوج (١٧/٧)، في اقتراب صامت ليلي ناجح، وبحماية جوية، وصلت القوة إلى موانع الألغام، وتوقفت، لعدم وصول جماعة فتحها، بينما قامت القوات الخفيفة باقتحام المدينة، وثبتت العدو،

بموقعها لحماية طريق العوجة - بئر السبع، والسيطرة على الطريق لمستعمرة رفايم، القرية من العسلوج، وبذلك تم تأمين طريق العوجة - العسلوج - بئر السبع، يوم ٧/٢١.

١٠ - العمليات في منطقة كراتيا - الفالوجا - حتا (من ١٧-٧/١٨)، أحجم المناضلون عن المشاركة في اقتحام مستعمرة جالون (٧/١٤)، فأبديت المستعمرة بالمدفعية، ودعم المناضلون قرية أبو جابر (مركز عشيرة الشيخ أبو جابر)، وتسلى العدو، ليلاً، ودمر بعض منشآتها، وانسحب، وانضم مائة مناضل لقوات الفالوجا، لسد الثغرات بين المواقع.

١١ - الهجوم المعادي على كراتيا، كان يحميها ٨٢ مناضل، منهم ٣٠ مصري، وقد هاجم العدو حتا، مساءً، متجهًا إلى كراتيا، فانسحب متطوعو كراتيا، التي سقطت " بعض مقاتليها ترك موقعه لمحاصرة مدرعة معادية، والآخرين أوقفوا النيران، حتى لا يصيبوا المنسحبين من حتا "، وتحصن بكراتيا مائة صهيوني، فتم الهجوم على كراتيا، وأوقفت الألغام تقدم الدبابات والمدرعات، فتعرضت المشاة، وانسحبت، فاحتلت الدبابات التبات المشرفة على المدق الموصل للفالوجا، والموازي للطريق الذي يسيطر عليه العدو. وأوقفت النيران الساعة ١٧.٠٠، يوم ٧/١٨.

مبادرة قائد: أمر القائد المحلي باحتلال التباب المسيطرة على كراتيا، حتى جنوب عراق سويدان، وغرب الفالوجا، فأمن المدق الموصل للمجدل والفالوجا، واحتله بسريتين ليلة ١٨ ويوم ٧/١٩، وبذلك فتح الطريق لقواتنا، وقفل الطريق لمستعمرة العدو بالنقب، وهنا نلاحظ التخطيط المسبق للعدو، لتحقيق مكسب، قبل أو فور إيقاف النيران،

ليفرضه. وقد حرمت مبادرة القائد العدو من مخططه.

الهدنة الثانية (٧/١٩ - ٤٨/١١/٥) :

كعادة العدو، هاجم القرى، وطرد الفلسطينيين بكثافة، فتضخمت مشكلة اللاجئين، ولم يعالج العرب ضعف قواتهم، بتسليح الفلسطينيين - فاكتمسب العدو الأرض، وغيّر الديموغرافيا، مستغلاً تفوقه، ولو جزئياً^(١) - وكعادته، طلب إيقاف القتال، عند شعوره باحتمال إرهاب قواته، أو فقدانها للتفوق، أو احتمال الخسائر، فقراره، وتصرفه مبكر.

يوم ٤٨/٧/١٩ - لغم العدو سكة حديد رفح، وفجر قطاراً، وفي ٧/٢٢ احتل العسلوج، وفي ٧/٢٣ حاول فتح الطريق إلى مستعمرات الجنوب بالقوة، ففشل، وقصف مواقعنا بالمدفعية والهاونات.

صدرت الأوامر للقوات الخفيفة بفتح طريق شرق العسلوج، لربط رفح بالعريش، وبئر السبع، في ٧/٢٥، ومن ٧/٢٧ حتى ٤٨/٧/٣٠، استمرت مهاجمة العدو لبنت عفه - الفالوجا - عراق المنشية - كراتيا، واستولى على المحجر، شمال أسدود، ورفض إخلائه من منطلق تفوقه. وقد سُمح بتموين مستعمراته الجنوبية.

ويوم ٤٨/٩/٢٠ أعلنت حكومة عموم فلسطين (في غزة) فزادت الخلافات مع الأردن والعراق (٨/١٣)^(١).

العمليات (٦ - ١٥/١٠) تحت التفوق المعادي والتحصين

(١) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣٤.

لمواقع، قرب خطوطنا - واستمرار قصفه لعراق المنشية، والفالوجا، وطلعاته للاستطلاع الجوي - بدأنا تنظيم دفاعاتنا، وتحصينها، بانضمام كتائب احتياطي، جيش مرابط، عناصر سعودية، وسودانية، وبعض المتطوعين، والمجاهدين. " إن ضم وحدات من الجيش الاحتياطي والمرابط، أو القوات السودانية، أو السعودية، أو المتطوعين " لابد أن يسبقه، تدريب وتلقين، بطبيعة القتال بالجبهة وبالعدو، وبالمهارات الميدانية اللازمة، وبالتدريب الليلي، وبالإخفاء، والتمويه، وبالخداع، وبالتجهيز الهندسي.

العمليات (١٥ - ١٠/٢٢) إحساسًا بالتفوق، واستيعابًا لأسلوبنا القتالي، وخصائص تسليحنا، وفهم تخطيطنا، مارس العدو خرق الهدنة، وفتح الثغرات، في خطنا العازل لمستعمراته الجنوبية، وقطع خطوط مواصلاتنا، وعزل قواتنا عن بعضها البعض، وتثبيتها بضرب عراق المنشية، والفالوجا، واحتلال الحليقات (١٠/٢٠)، وقطع طريق رفح - غزة، رفح - العوجة، والاستيلاء على بئر السبع (١٠/١٩) حتى صدر أمر إيقاف النار (١٠/٢٢).

القوات المصرية تدفع الثمن وحدها

- ١ - لدخولها حرب، وهي غير جاهزة
- ٢ - دخولها ضمن مجموعة جيوش غير متعاونة (لأسبابها الخاصة)
- ٣ - الدخول في حرب قيادة سياسية، وهدف سياسي، وليس عسكري (تدمير قوة العدو العسكرية)

ولم تنتهز الحكومة المصرية الهدنة، باستكمال نواقص، واحتياجات الحرب، ولم تشكل قوات احتياطية، خفيفة الحركة، قوية النيران، مُدْرَبَةً، لحسم مواقف القتال، فحوصرت الفالوجا، لانسحاب قوات بيت جبرين، صغيرة الحجم، التي لم يعاونها أحد.

القوات المصرية تتحمل الهجوم الصهيوني وحدها :

لانسحاب القوات العربية إلى حدودها، أو توقفها عن القتال، ولعدم دعم الدولة المصرية قوات الجبهة المتسعة، طويلة خطوط المواصلات، بقوات تؤمّنُها بحصار المستعمرات، ولعدم استخدام الطاقة الفلسطينية المجروحة المعطّلة، بالتواصل مع قياداتها المحلية بأجهزة الأمن، للسيطرة، والتوجيه، وفرز الأنسب لذلك.

١ - قررت القوات المصرية تقصير خطوط المواصلات، والدفاع عن خط غزة - بئر السبع. وبسقوط بئر السبع، عدلته ليكون غزة - العوجة، فأُخِلت (٢٧، ١٠/٢٨) نيتسانيم، وأسدود، وفي (٣، ١١/٤) أُخِلت المجدل، لتعزيز غزة، فأحتلها العدو.

٢ - للتردد في سحب قوات الفالوجا، تمسكت تلك القوات بمواقعها، حتى لا يحدث انهيار، وقبلت القتال في حصار، متعرضة للقصف الجوي، والحرب البرية والنفسية، ونقص المؤن، والذخائر، والعتاد، في مواجهة عدو متفوق، له حرية الحركة، وتفوق النيران. فأنشأت قوات الفالوجا جهازاً لمقاومة الدعاية، والحرب النفسية، والصمود المعنوي^(١).

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤١.

٣ - أعيد تنظيم قوات غزة - رفح - العوجة، وتشكيل احتياطي لكلٍ منها.

- طلبت مصر من الأردن والعراق وسوريا المعاونة في فك حصار الفالوجا، وأبدى الأردن الاستعداد، وكانت الخطة " دمشق " بدفع فوجين من سوريا، وفوجين آخرين من العراق، وفوجٌ من الأردن، لفتح الطريق إلى الفالوجا، إلا أن جلوب باشا القائد البريطاني^(١)، رفض الخطة، تخوفاً من ضرب الطيران الصهيوني لعمان، واقترح بدلها، دخول قوة، ومعها ٣٠٠ رطل مفرقعات، تدمر أسلحة الفالوجا، ثم تنسحب قوات الفالوجا، ليلاً، عبر مدق مهجور، يعلمه هو والرائد (كوكت) الإنجليزي في الجيش الأردني. وتم دفع الرائد ورقيب أول إنجليزي عبر المدق إلى الفالوجا لمقابلة العميد (سيد طه)، قائد الفالوجا، الذي اشتم رائحة التوريط، للغدر في هذه الخطة، وأيده قائد القوات، فطرد الرائد الإنجليزي^(٢)، وقد صدق حدسه، إذ تم أسر ضابط مصري، دخل من هذا المدق، وأبلغ بعد ذلك بأن ضباط المعتقل الإسرائيلي كانوا يتكلمون أمامه عن هذه الخطة، وفي لجنة الهدنة في " رودس "، سأل الجانب الإسرائيلي المصريين، لماذا لم ينفذوا الخطة. واتضح أن الجنرال " جلوب " باشا سلّم الخطة للصهاينة والمصريين. وفي ١٩/١١/٤٨، دفع المفرقعات وبتحليل خطة غلوب اتضح أنها ستؤدي إلى كشف نية الانسحاب، بتدمير وتفجير الأسلحة والذخائر، كما سيؤثر انسحاب القوات بدون أسلحتها الثقيلة عليها،

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٥.

معنويًا، بدون أسلحتها الثقيلة، وأن انسحاب ٤٠٠٠ جندي، بعد كشف نية انسحابهم، خطر يعرضهم للأسر، والإبادة، والحل الأمثل هو تنفيذ الخطة "دمشق"، باقتحام الفالوجا، وفك الحصار، حتى تنسحب القوة بسلاحها، في حماية القوات الجوية، مع هجمات تثبيتية على العدو. وفي النهاية بقيت مشكلة الفالوجا، دون حل، وصمد الرجال، ٢٥ يومًا، استردوا خلالها عراق المنشية من العدو، بهجمة مضادة كلفته ٥٠٠ قتيل صهيوني، فلم يكرروا هجومًا أرضيًا، بعدها، على الفالوجا، أبدًا (ويذكر أن قائد قوة الهجوم المضاد كان "البكباشي جمال عبد الناصر" زعيم مصر الراحل) ^(١) - والذي لم يأخذ حقه من التكريم لبطولاته هو والرجال المحاصرين، الذين رغم ضغط الحصار والجوع، لم يعتد أحدهم على مدني، أو مخزن طعام، بل ظهرت فيهم روح الإيثار، بالتنازل عن الطعام خفية للمرضى، وأن يترك المصاب المستشفى، ليحل مكان الأكثر إصابة، والكل كان يعاني ربع مرتب الطعام، وقسوة البرد، وأمراض سوء التغذية، وقلة النوم، وندرة وسائل النظافة الشخصية. وهنا يذكر همة وبطولة المدنيين الفلسطينيين، وشجاعتهم في الدفاع عن الثغرات بين المواقع، وأخيرًا لا ينسى بطولة رقيب، ظل يطلق النار، لصد الهجوم، حتى الصباح، ليكتشف أنه قد فقد الإبصار ^(٢).

لقد غُيّبت بطولات كثيرة من الإجماع أن تهمل: وتعرضت الفالوجا، ومطار العريش، ومخيمات اللاجئين في كل أرجاء قطاع غزة للقصف،

(١) المرجع نفسه، ص ٣٠١.

(٢) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣٩.

وقصفت الفالوجا (١١/١٧)، و ١٩ غارة، و ٣٠٠ قنبلة حارقة، و ١٨٠ قنبلة. وليلة ١١/٩ قصفها الطيران بـ (١٠٠٠) قنبلة^(١) ودافع جنود مصريون وشرطة فلسطينيون عن بئر السبع، ببسالة، متحصنين بمركز الشرطة، حتى دُمر عليهم، ونسف خزان المياه فوقهم^(٢).

القوات المسلحة تحافظ على كرامتها في أسوأ الظروف: إذا كانت الدولة لم تلب احتياجات القوات، ولم تعلن التعبئة، قبلها أو بعدها، في (مَعْلَمه أو جَهْل - أو استعلاء، أو فهلوة، أو بقصد) فقد عاندت القوات، وأصرّت على الصمود في الفالوجا، وباقي المواقع، وبفدائية من القوات الجوية، التي دمرت القوات الصهيونية، عند اختراقها الحدود المصرية، نهاية الحرب، وبالقوات البحرية الضعيفة، التي ضربت ميناء تل أبيب، وقيصرية، وخاضت المعارك أمام المجدل وغزة، وأذاقت العدو الفزع والخسائر، كما أذاقه طيراننا في تل أبيب، ومستعمراته، وجميع مطاراته.

بلغ السيل الزبي: واجتمع رؤساء أركان الجيوش في القاهرة (٤٨/١١/١٠) وقالوا كلمتهم للسياسيين:

١ - تدارك ما تحتاجه الجيوش (أسلحة - ذخائر - طائرات - دبابات - قطع بحرية)، وخلافه، حتى لو أعلننا التعبئة العامة، لتلبية الاحتياجات.

٢ - ترك حرية العمل العسكري للعسكريين، وجعل العمل العسكري

(١) المرجع نفسه، ص ٥٥٣.

(٢) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٨.

فوق كل اعتبار.

٣ - على السياسيين عدم اتخاذ قرار يستدعي استخدام القوات المسلحة، قبل وضعهم في الصورة، بحالة القوات، كما نتقد رؤساء الأركان كل الحكومات العربية، لعدم استغلالها الهدنة، لتلبية احتياجات الجيوش^(١).

وقد تم تعيين اللواء أ. ح أحمد فؤاد صادق، قائدًا عامًا للقوات المصرية، وتغيرت بعض القيادات وضباط الأركان.

- نظرة العسكريين للسياسيين:

يجلسون في العاصمة، يحتسون الشاي، ويقيّمون خطط قادة، عملوا بأعصابهم، وجنود وضباط قاتلوا بأجسادهم، ولم يفهموا القضية، وخطر الصهيونية، أو المشاكل السياسية، والعسكرية، والتاريخية، فقد دخلت كل دولة الحرب، لأسباب داخلية، وخارجية، وبضغط حماسي من الشعب^(٢). وهو نفس ما قاله مفتي فلسطين.

- كانت القيادة العليا غير مؤهلة، عسكريًا. فوزير الحربية المصري (الفريق محمد حسين باشا) أدى معظم خدمته في مصلحة السجون، وكانت معظم القيادات الكبرى أمنية، لا تمتلك سوى القليل من العلوم العسكرية، والخبرة القتالية، في حين كانت القيادات الميدانية مؤهلة، واكتسبت بسرعة الخبرة، لولا التدخل السياسي، وعجز الإمكانيات.

(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧٣ - ٥٧٥.

(٢) هيك، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤١.

كان اللواء المواوي يدير العمليات، بعلم وحرص المدرس بكلية أركان الحرب، وتولى اللواء فؤاد صادق، في ظروف صعبة، فأدار العمليات بإثارة الحماس، والنخوة، أكثر من دقة التخطيط والتنفيذ، فقد تلاحقت عليه الأحداث، ^(١) وقد نجحت " النخوة " في طرد إختراق العدو للحدود المصرية.

الموقف (١١/١٠ - ٤٨/١٢/٥):

حمايةً للقوات، والمعدات، وبإصرارٍ، أخلت القوات المصرية الخط الأمامي، عبر المدقات المكتشفة بالساحل، مستخدمةً ألواح الصاج، والسالك الشبكي. وتمركزت في غزة - رفح (٣٧ كم)، وفي الحدود من رفح إلى العوجة (٦٥ كم)، والعوكة - العسلوج (٤٠ كم)، ومنطقة الخليل - بيت لحم (٥٠ كم)، علاوةً على بيت جبرين - عراق المنشية، واعتبرت الخليل - بيت لحم قاعدةً لإمداد الفالوجا، أو لانسحاب قوات الفالوجا عبرها ^(٢).

تعقد الموقف:

- ١- التصرف بأوامر سياسية من القاهرة، وليس طبقاً للموقف الميداني.
- ٢- عدم توفر المعلومات عن العدو.
- ٣- طول خط المواصلات، وعجز الحملة.

(١) هيكل، المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٢) القوات المسلحة المصرية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٨.

٤- خطورة إشاعات الانسحاب، لأثرها المعنوي السلبي، على الأداء وكفاءته.

٥- عمل العدو من خطوط مواصلات قصيرة مستندًا على مستعمرات قوية.

تطور العمليات ٥ - ٤٨/١٢/١٠:

معركة الشيخ نوران " المسيطرة على خطوط مواصلات مستعمرات " [الرابية - الدنجور - المشنة] وطريق غزة - رفح (أمام خان يونس) - استُخدمت القوات العائدة من العسلوج، الخامسة والنصف مساء يوم ١٠/٦، لتهاجم المستعمرة، بعد ساعة واحدة، وتظل تقاتل حتى الرابعة مساء ١٢/٧، وقد أدار العدو نيرانه، بدقة، من طائرة ملاحظة، بينما فقدنا السيطرة على طرفي الهجوم، لعدم ربط اللاسلكي، لم تحقق الدبابات، اللوكست المفاجأة، رغم استخدامها، لأول مرة، لأنها شاركت بعرض عسكري في القاهرة، وأنت محملة بالقطار، فرصدها العدو.

الموقف من ١١ - ٤٨/١٢/٢٢:

استمر العدو في قصف قواتنا، واحتلال مواقع مراقبة أمام رفح - دير البلح - العوجة، والمواقع المتروكة في الشيخ نوران - تل الحمة، وتل الفارغة - خربة أبو ستة، كما نشط في الفالوجا، والخليل، وهاجم خان يونس، وتعثّر وارتد. وقد أبلغت سوريا بمعلومات عن حشود في [جولس بيت جبرين - الودايمة - بئر السبع]، وينتظر مهاجمتها قطاع غزة، لقطعة من ٢٢ - ١٢/٢٥ وكانت أول معلومات متبادلة بين القوات العربية، وكانت صحيحة. وقد تم الهجوم، في التوقيت المنتظر، بالتسلل إلى التبة

٨٦، (بخط دفاعات دير البلح)، البعيدة عن طريق رفح (٢كم)، وقصفت معسكرات اللاجئين في البريج، ودير البلح بالبحرية، لبث الذعر، و إحداث إرباك - وكانت القوة كبيرة (ثلاث كتائب)، كما وضح مما وقع جثة قتيل، حوصرت الثغرة، وبدأ الهجوم المضاد، فوراً، السادسة صباحاً، وحاصرته الدبابات، وتم اقتحام العدو بالدبابات، وقاذفات اللهب، رغم المطر، وخسر ٥٠٠ قتيل، وسميت المعركة " مجزرة اليهود "، ولم يفلح تدخله على اللاسلكي، بإشارة للانسحاب، حيث اكتشفتها القوات " بالتحقيق "، خلال المعركة، فوراً.

١ - وضح التعاون الوثيق، والتدريب العالي للعدو، بين قواته البرية، والبحرية، والجوية، رغم فشله، وفداحة خسائره. وأثرت الأحوال الجوية على حجم طيرانه المهاجم.

٢ - برزت قيمة التدريب الليلي، وسرعة الهجوم المضاد باحتياطي جاهز، حتى لا يُعطي للعدو فرصة التمسك بالأرض.

٣ - برزت قيمة الحصول على المعلومات، عن العدو والأرض، لتجنب الأرض غير الصالحة للاستعداد.

٤ - وضحت أهمية المهارة في استخدام أمن اللاسلكي، واتخاذ بدائل له، لخطورة تعرض حامله.

٥ - الحاجة لدفع عربات إسعاف مدرعة، ونصف جنزير، لإخلاء الجرحى.

٦ - التجهيز الهندسي هام، واستخدام الأرض حيوي، لتأمين الفرد،

والمعدّة، والسلاح، خاصة عند القصف النيران، بالمدفعية والطيران، وفي حالة غياب طيراننا.

٧ - وضحت المرونة، والاختراق الأمني، في وجود خرائط عن الجبهة الشمالية، والوسطى، في جيوب الأسرى والقتلى، وأن وجودهم في الجبهة الجنوبية، تعني مرونة وسرعة المناورة بالقوات لدى العدو، من اتجاه إلى اتجاه آخر.

كلمة حق:

أبلغ رئيس أركان حرب الجيش العراقي قادة الجيوش العربية، بأن العدو أخذ حريته في العمل أمام الجبهة المصرية، لرفض مصر إيقاف النيران (١٦/١١/٤٨)، ولم يتحرك أحد للتخفيف عنا، وكانت هناك الفرصة سانحة، بعد الخسارة الفادحة للصهاينة، في التبة ٨٦، وتورطهم بالكامل في الجبهة المصرية، وسوء معنوياتهم، وضعف قواتهم في الجبهات الأخرى، للهجوم المفاجئ على العدو، وإرباكه، وانتزاع المبادأة منه، وإلحاق الهزيمة به، لو خلاصت النوايا، وتوحد الهدف^(١).

عمليات العسلوج (٢٥ - ١٢/٢٦):

قامت قواتنا الجوية بضرب قواعد العدو، في العمق، بكثافة، لتعطيل استخدامه قواته الجوية ضدنا، وفرضنا السيطرة التكتيكية عليه، وضربت كل مطاراته، تقريبًا، ولكن ظهر قصورنا في المقاتلات الليلية، ووسائل الإنذار الجوي، ونظام حماية المطارات، والاعتماد على مطار العريش

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧٦.

الوحيد في سيناء.

قَصَفْنَا العدو جَوًّا، وهاجم العسلوج وفصل العوجة/ بني غازي، بني غازي/ العسلوج، وتباب الشريف، وطريق رفح - العوجة (٣كم)، غربًا، وبعد ثبات قواتنا في رفح وغزة، وعدم الاستعانة بهما في معركة التبة ٨٦. أخبرت القوات الجوية بحشود في مستعمرة رفاقيم، فأمرت القيادة، القوات بالالتزام بالهدنة، في سذاجة ملحوظة، فقد خرق العدو الهدنة، مساء ١٢/٢٥، واحتل موقعين على محور العوجة - العسلوج فتم طرده، فعاود هجومه، صباح ١٢/٢٦، واستولى على الموقع، بعد استشهاد قائده و ١٦ من جنوده، فأمرت القوة بالانسحاب على محورين، سيرًا على الأقدام، مع تجنب الصدام بالعدو، كما أمرت قوة بني غازي، بالانسحاب، ولم يتخذ أي إجراء لدعم العوجة، بعد موقف العسلوج. فتم قصفها جَوًّا، وسقطت (١٢/٢٧) وطارد العدو القوة حتى الحسنة، وأسر بعضها، أما المحور الجنوبي للإنسحاب من العسلوج، فوصل القسيمة ١٢/٢٨، مستخدمًا جمالاً مؤجرة من العربان، وقد لوحظ القلق وعدم الثبات لشيوع فكرة الانسحاب.

العمليات ضد العريش (٢٧ - ١٢/٣١)

قطع العدو طريق رفح - العريش، عند بلدة بئر العبد، (في ٤٨ موقع) بمتسللين من البحر، وحاول قطع طريق رفح - غزة، مع استمرار مهاجمة قوات الفالوجا، لتثبيتها، فطلبت المعاونة الجوية، فالجرحى عددهم ٢٠٠ فرد.

عمليات ١٢/٢٨:

هاجم طيراننا العدو بالعوجة، والعسلوج، والفالوجا، وأبلغ بحشود كبيرة حول العسلوج - ودارت معارك جوية، وظن العدو أن الانسحاب أدى إلى الانهيار، فقسم جهوده لأكثر من اتجاه، وكلفت قوات بيت لحم، بإدخال ذخيرة للفالوجا، ولو بتضحيات.

عمليات ١٩٤٨/١٢/٢٩:

قصف العدو الفالوجا، انتقامًا لخسارة الليلة السابقة، في استرداد بيت جبرين، بينما تقدم من العوجة، واقترب إلى ١٠ كم من مطار العريش، الذي أخلته القوات الجوية، وهدد العدو مطار الحمة، واكتشف الطيران أن قوته (حوالي ٦٠ مصفحة، ٢٠ دبابة) تقترب من بئر لحفن، فكثف الطيران ضربه، فانتشر العدو في الصحراء، لتغرر عرباته، وقامت الطلعات الجوية من القاهرة والقناة بجهد خارق، وسيطرت على أرض العمليات، في لحفن، وخطوط المواصلات لغزة، وكثفت القوات في بئر لحفن، دون سحب أى قوات من غزة وردت دفاعات مطار الحمة دوريات العدو.

عمليات ١٩٤٨/١٢/٣٠:

ركز طيراننا على القوات المقتربة من بئر الحفن (١٠٠ مصفحة ودبابة)، حتي أبو عجيلة، وأسقط للعدو طائرة، وأصاب أخرى، وهبطت لنا طائرتان اضطراريًا، ولعنف ضربات طيراننا، بدأ العدو الانسحاب، دون أن تطارده قواتنا، لعدم تيسر قوات للمطاردة.

عمليات ١٩٤٨/١٢/٣١:

اقتربت قواتنا ٨ كم من أبو عجيلة، بعد تطهير الطريق، مع استمرار

العدو بضرب الفالوجا.

عمليات ١ - ١٩٤٩/١/١١:

انسحب العدو من العوجة، لفشل هجومه في تطويقنا، وأسقطنا له ٣ طائرات، وهاجم طيراننا مطارات العدو في العمق، والعدو على طريق رفح - العوجة، وهاجمت بحريتنا تل أبيب الميناء، وأصابنا سفينتين.

عمليات ٢ - ١٩٤٩/١/٢:

ضرب العدو مخيمات اللاجئين بغزة ورفض طلب الأردن (سرية للتأمين من رأس النقب).

عمليات ٣ - ١٩٤٩/١/٥:

ركز العدو قصفه على الفالوجا، وقصف بحرًا وجوًا مخيمات اللاجئين في غزة، لإشاعة الذعر والإرباك، وهاجم مساء يوم ١٩٤٩/١/٣ طريق العوجة - رفح، واحتل تبة الأسرى برفح، مستندًا على مستعمرة الدنجر، فاحتلت قواتنا مواقع أمامها، وأوقفته، وثبتت هجومه.

ليلة ١٩٤٩/١/٤:

لفشل العدو في تبة الأسرى، اتجه إلى تبة لطفي، واقترب من أطرافها، ودارت معركة عنيفة، فحدثت به خسائر، اضطرت له للانسحاب، ليقتله وكفاءة المدفعية.

ليلة ١٩٤٩/١/٤:

احتل العدو موقع عوجه (٥)، ليسيطر على طريق العريش - غزة،
العوجة - رفح، فتم هجوم مضاد عليه، وانسحب، وعاود هجومه، ففشل،
وعاد مرة تالية، لينسحب بعد خسائر كبيرة.

عمليات ٤٩/١/٥:

احتلت قوة للعدو موقع قرب التل، ٧ صباحاً، ليسيطر على طريق
العريش - رفح، واستولت على عربتي ذخيرة، فتم هجوم مضاد عليها،
وطردت، واستعيد اللوريين في الرابعة عصرًا، وقام طيراننا بضرب
العدو حول رفح، وتقاطعاتها، وعلى مطارات العمق، وأبلغ بخلو الحسنة،
مع إتلاف الطريق.

فشل تطويق رفح (٦ - ١٩٤٩/١/٧):

حاول العدو تطويق رفح، فتم سد الثغرات، حول دفاعاتها، وصده
وإحداث خسائر جسيمة به.

مساء ١/٧:

تسلل العدو واحتل سلسلة التبات جنوب رفح بـ ٢ كم وقصف بالمدفعية
تمهيداً للهجوم تم طلب إيقاف النيران الثانية ظهرًا، لكنه خرق الهدنة بعد
ساعة واحدة. واحتل مواقع حاكمية على طريق العريش - رفح، داخل
حدود مصر. وضرب دير البلح، ومخيمات اللاجئين، ولغم طريق رفح،
ومحطة السكة الحديد، وقطار، واعتدى على بلدة جبر عمير، طريق رفح
- العريش، وأسقط طائرة بريطانية كانت تقوم بالاستطلاع.

الموقف ٤٩/١/٨:

أنذر قائد القوات المصرية كبير مراقبي الهدنة، لسحب العدو المتسلل، وإلا سيطردهم بالقوة، وطلب الرد، قبل يوم ١/٩، وأعاد مخاطبة نائب الوسيط الدولي، يوم ١/١٠، الذي أبلغه بأن اليهود وعدوا بالانسحاب، فطلب منه إمداد قوات الفالوجا.

الموقف في ٤٩/١/١١:

أبلغ قائد القوات المصرية بانسحاب المتسللين. وكان هذا آخر هجوم للعدو، وبدأ إعادة تنظيم قواته. لقد كان لإفشال هجمات العدو المتتالية تأثير معنوي جيد على قواتنا، إذ أثبتت جدارتها بالنجاح، والقتال المرهق، المتلاحق، لقلة قواتنا، فحين توفر لها العمل من خطوط قصيرة، وهجمات سريعة، وبتحضير جيد للمعركة وللغزيمة القتالية العالية للقوات، كان النجاح.

- ظهرت خطورة تواجد اللاجئين المقهورين المحتاجين، خلف وبين القوات، لسهولة حدوث الذعر بينهم، لأنهم غير مجهزين هندسيًا، غير معبئين معنويًا، وغير مسلحين، بل متفرجين كأكياس تدريب الملاك، يشعرون بالغصّة، لعدم إشراكهم في الدفاع عن بلدهم، وهم الذين حموا بلادهم ثلاثين سنة ضد الإنجليز واليهود. لقد كان عدم التواصل معهم، والاهتمام بهم، وباحتياجاتهم، فيما توعيتهم وتكليفهم بالدفاع عن أرضهم - كما حدث في الفالوجا - بمعاملتهم، وإشعارهم بدورهم ككتلة وطنية، فاعلة، ومؤثرة، وليست ضائعة، تنتظر وكالة غوث اللاجئين. فمثالهم يرضى بالقليل ويسهل استثارة حميته، للغصّة في حلقه، والطعنة النازفة

في جنبه، من الصديق، والعدو، سواءً بسواء.

الهدنة الأخيرة

في رودس عقدت الاجتماعات المتوالية بين دول الطوق وإسرائيل من ١٣/١/٤٩، ووقعت الهدنة مع مصر في ٢٤/٢/٤٩، واخترقت في ٩/٣/٤٩، وفك حصار الفالوجا، يوم ٢٦/٢/١٩٤٩.

أسباب النكبة

- لم تدخل الجيوش العربية الحرب بهدف واحد.

- ركبت الزعامات العربية عنترية جاهلة^(١) ولم تتفهم الدول العربية الخطر الصهيوني على كلٍ منها، واعتبرت تدخلها بدافع لأخوة والشهامة وليس بدوافع تتعلق بالأمن الوطني، أو القومي^(٢).

- لم تكن الجيوش مستعدة للحرب. فالجيش المصري لم يجرِ مناورةً واحدةً منذ سنة ١٩٣١، وانحصر عمله في حراسة المحمل، واحتفالات المولد النبوي، وفض المظاهرات، ومكافحة الفيضان، والكوليرا والمalaria، والجراد^(١).

- "قاد الأعمى البصير" فقادت العواصم الميدان، ووجه من لا يعلم الخبراء.

- جنبنا الفلسطينيين الذين صمدوا وحافظوا على (٨٠ - ٨٢%) من

(١) هيكل، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٤.

(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٦٨٨.

أرضهم، حتى أعلن مندوب أمريكا في الأمم المتحدة عن التراجع عن قرار التقسيم، لقد حرمانهم من المعونة بالسلاح، بل جردناهم من تسليحهم البسيط، وتركناهم عزل تحت رحمة الصهاينة، وعدنا إلى بلادنا بعد النكبة.

- لم ندر الصراع كما يجب، فقبلنا الهدنة والصهاينة على وشك الانهيار، دون أي مكسب لنا.

- لم نهدد العدو، بإنذاره ليلتزم. فخرق الهدنة، بخرق الهدنة، والاعتداء على اللاجئين بالاعتداء على المدنيين، وضرورة توثيق^(١) جرائم تسميم الآبار - وتجويع وقتل الأسرى، وحرقتهم^(٢).

الخاتمة:

للنصر في الحرب يجب ألا نبدأ الحرب إلا بتوفير متطلباتها، ولا نديرها إلا بالالتزام بقواعدها. ولا ننهي الحرب إلا ونحن قادرين على الاستمرار فيها، فنرهب عدونا حتى يخشى معاودة قتالنا.

تخويف العدو الذي لم يحدث فتم الإستيلاء على أم الرشراش^(١) المصرية، لانتهاه الحرب، دون أن تخشى إسرائيل بأسنا، وقعت إتفاقية الهدنة، يوم ١٩٤٩/٢/٢٤، وخرقتها ١٩٤٩/٣/٩ (بعد ١٥ يومًا) فقال موسى ديان " إنها أهم الخروقات المدروسة، لوقف إطلاق النار " ! فقد استولت إسرائيل على أم الرشراش المصرية، وأقامت ميناء إيلات، لتفتح

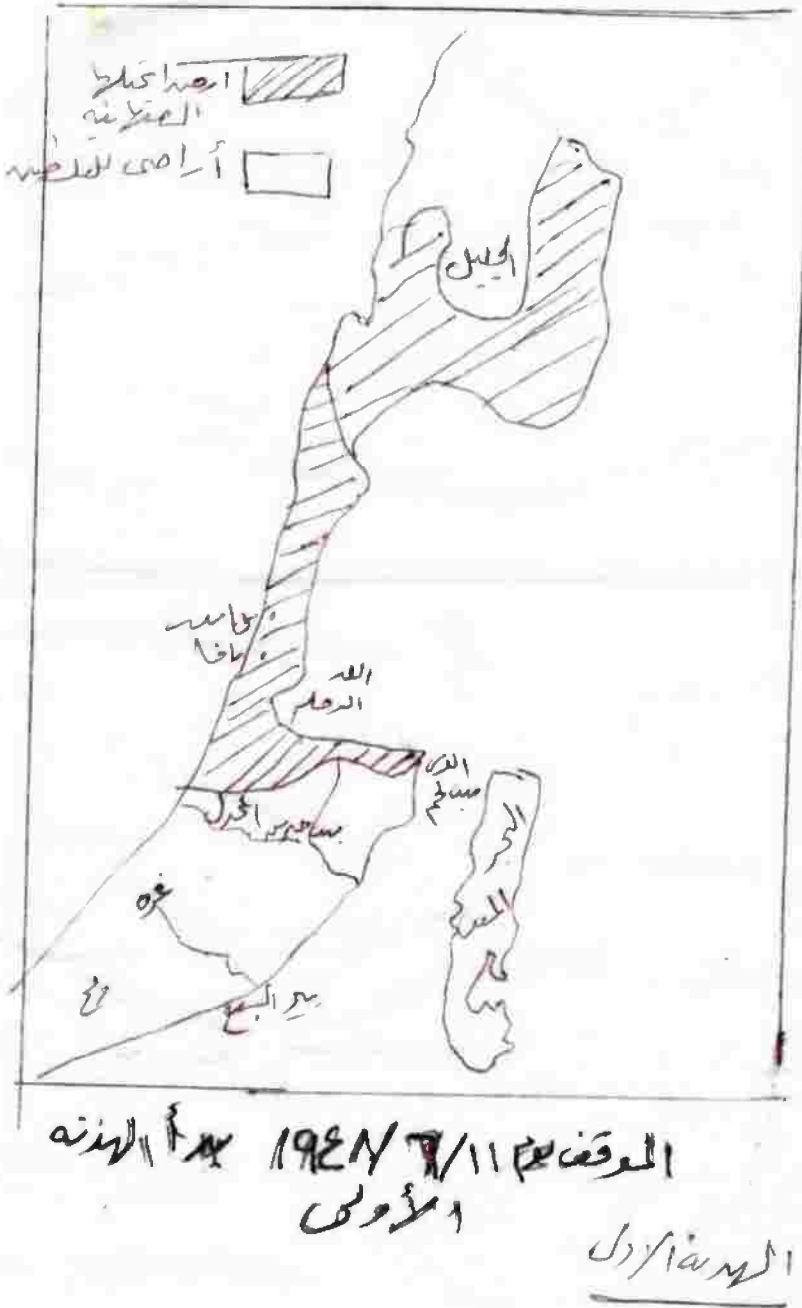
(١) هيكل، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٧.

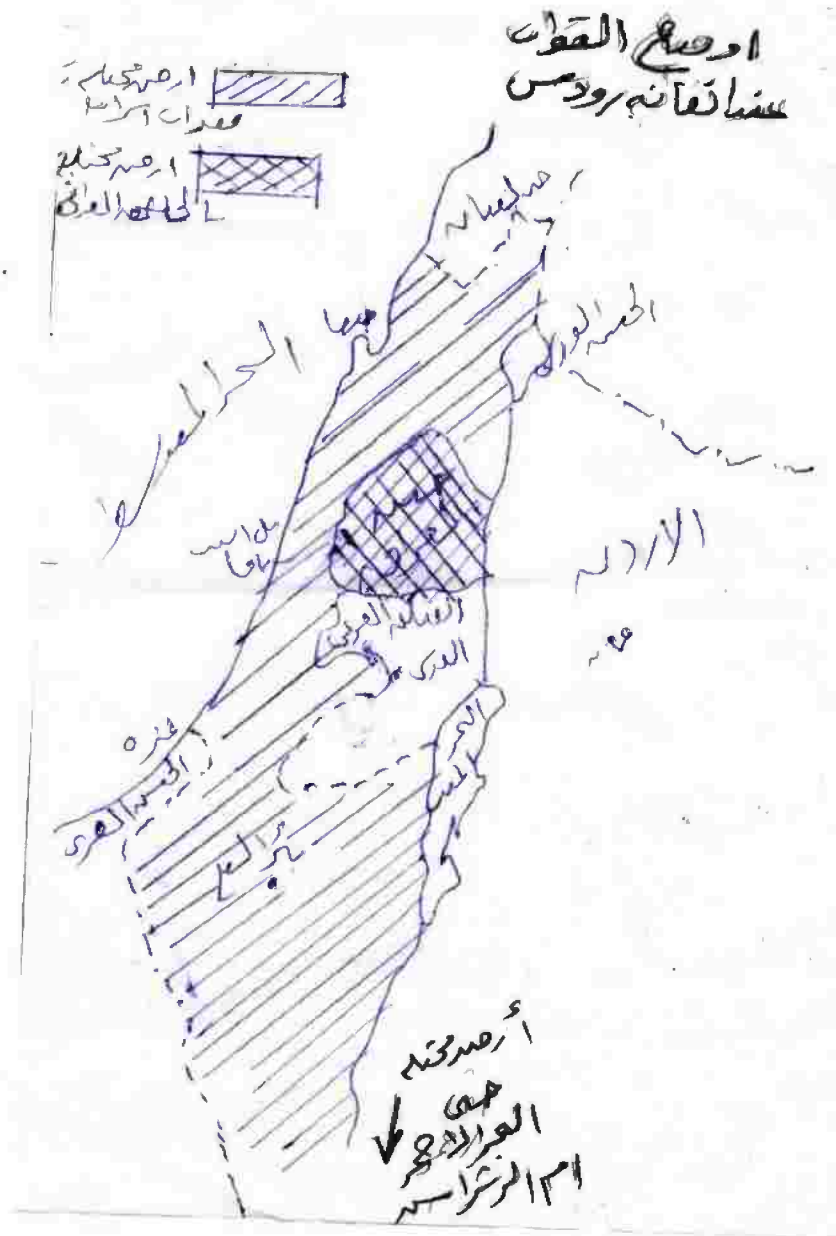
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٢.

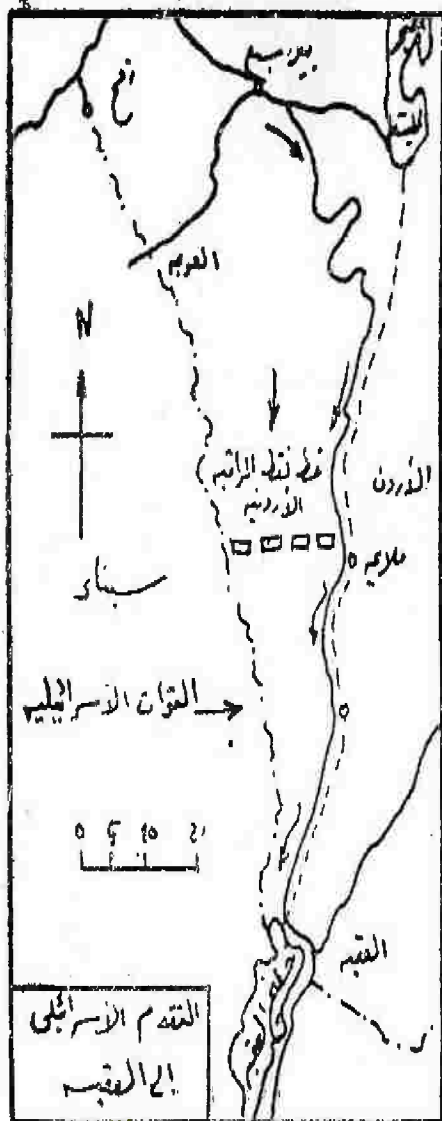
(١) عبد المنعم، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥٦.

الطريق والمجال للتجارة مع دول آسيا، وللتواجد في قلب أفريقيا، لتحوط مصر في منطقة منابع النيل، ولتقيم علاقاتها، المتنافسة مع مصر في البحر الأحمر، بعلاقاتها مع دوله، للسيطرة على جزره، تهديدًا لمصر، والدول العربية المطلة على البحر الأحمر، ورغم صدور قرار مجلس الأمن " ٨٩ لسنة ٥٠ " ^(١) الذي أقرت فيه إسرائيل، لرئيس لجنة الهدنة، بمخالفاتها للهدنة، ووعدت بالانسحاب من منطقة (بئر قطار)، المتضمن لأم الرشراش المصرية، فإنها لم تنسحب منها، حتى الآن، ولن تنسحب إلا بضغط القوة والمقاومة، كما انسحبت بعد عشرين سنة لتنفيذ القرار ٤٢٥ بالانسحاب من جنوب لبنان، تحت ضغط المقاومة اللبنانية المقاتلة أساسًا.

(١) الإنترنت، قرارات الأمم المتحدة، القرار ٨٩ لسنة ١٩٥٠.

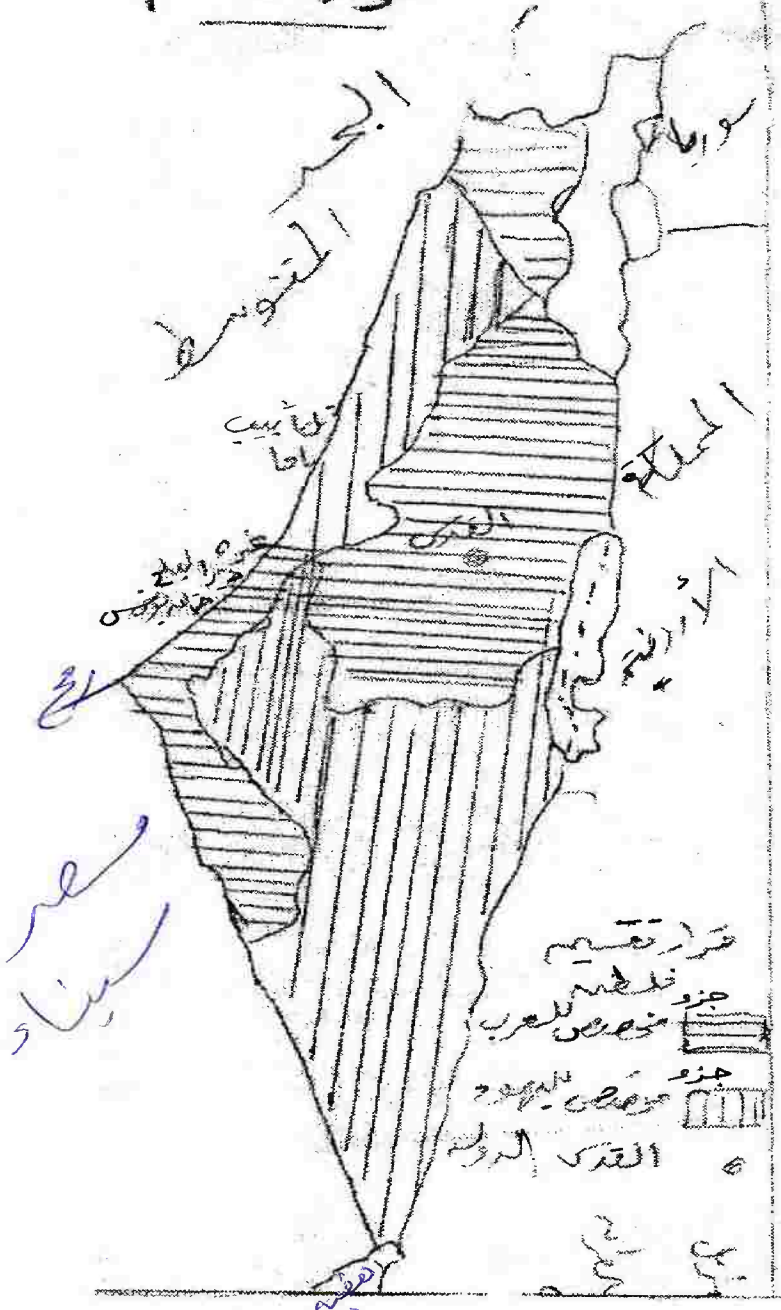


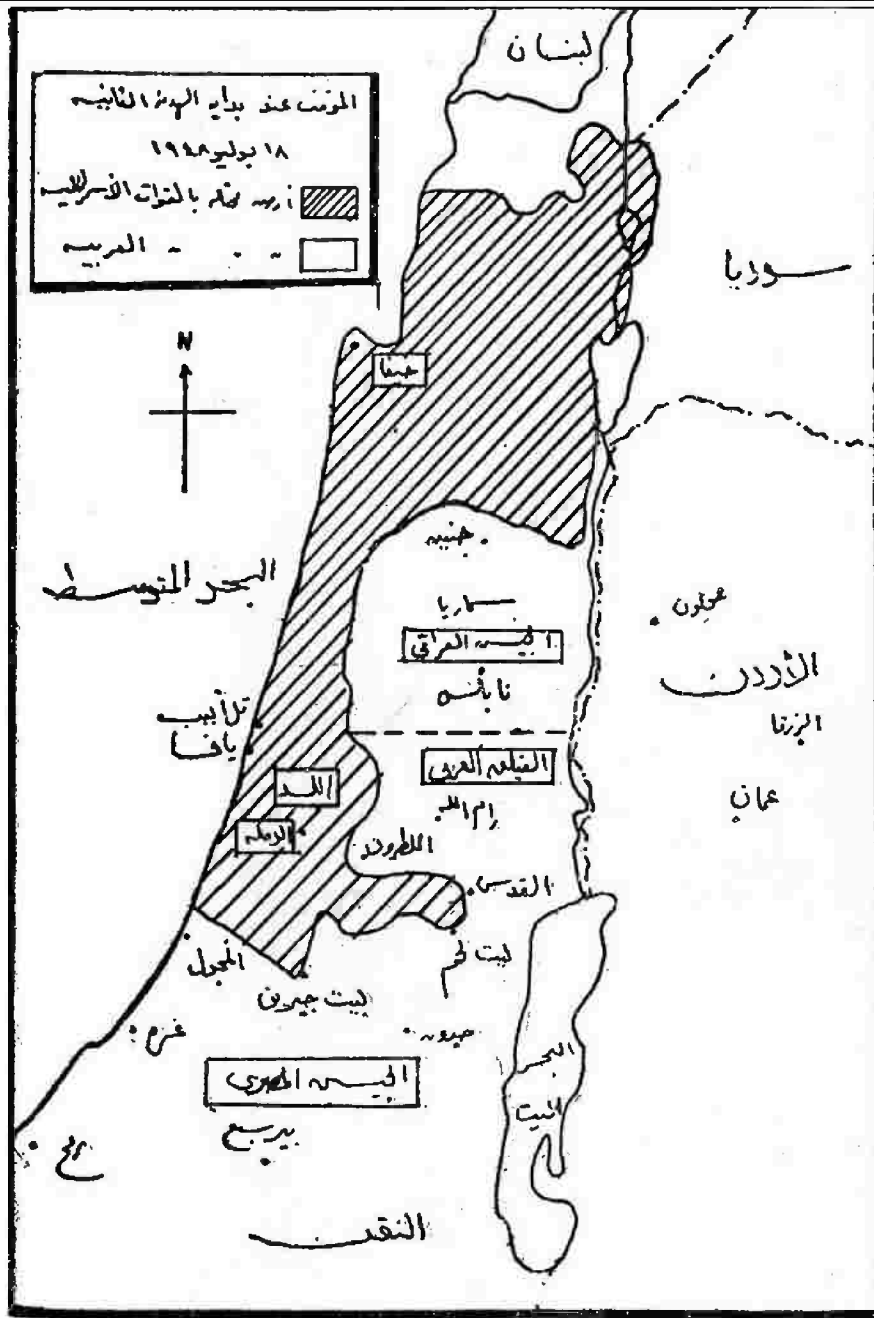




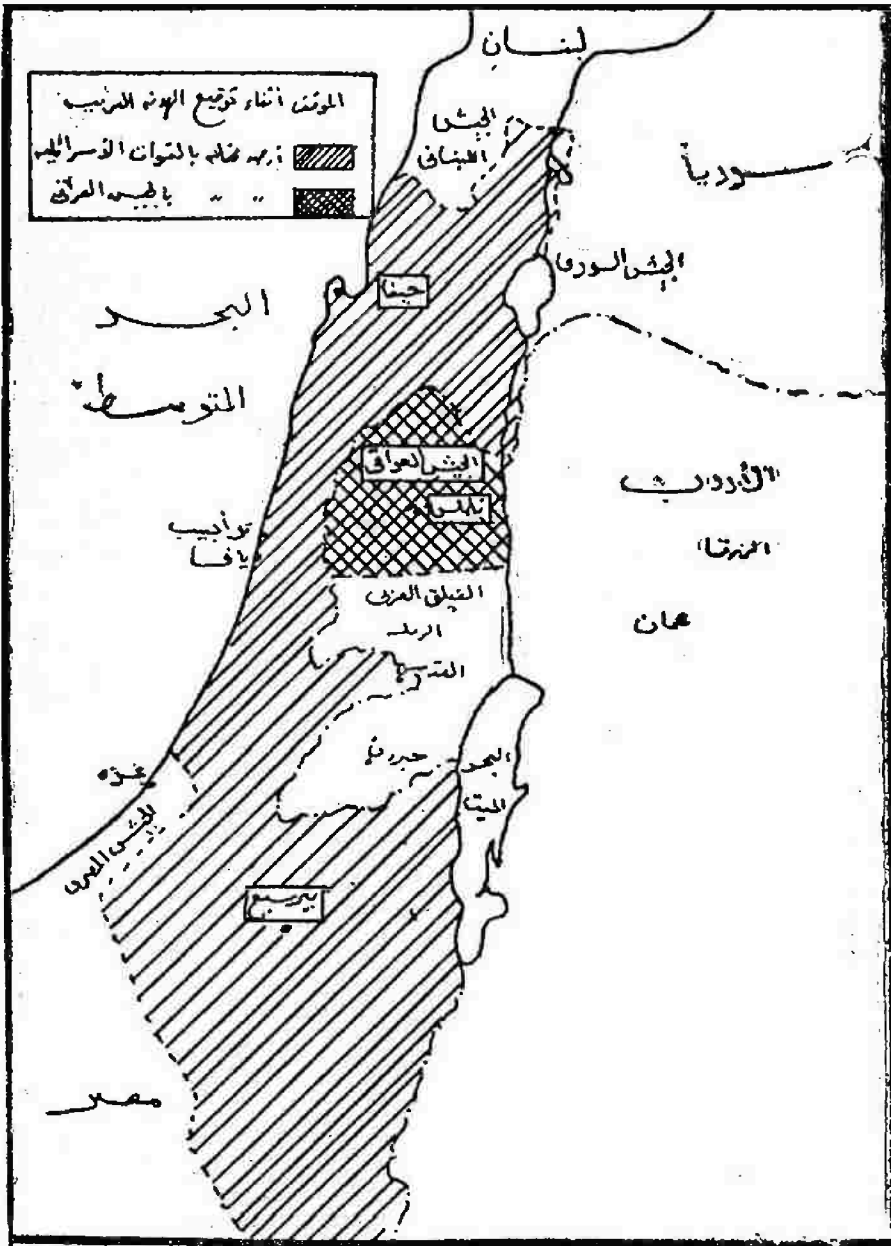
٥٠/٢/١٠٥ (الاستيلاء على ١٣ الممرات البحرية) دود فنان

مؤلف القلم





الموقف في فلسطين عند بدء الهدنة الثانية ١٨ يوليو ١٩٤٨



الموقف في فلسطين أثناء توقيع الهدنة العربية الاسرائيلية (رودس - ١٩٤٩)

الفصل الخامس:

الجهة السورية في الحرب

نظيمة سعد الدين

بالرغم من حداثة عمر الجيش السوري، فإنه شارك في " جيش الإنقاذ"، رغم ضعف تدريب المقاتلين السوريين، وبدائية تسليحهم. وقد نفذ الجيش الفتى الأوامر، واقتحم منطقة تغص بالاستحكامات الحصينة، واحتل سمخ، ومستعمرة مسادة، ما جعله الجيش العربي الوحيد، الذي عمل على احتلال أراضي خارج نطاق الأراضي المخصصة للدولة العربية، تبعاً لقرار التقسيم.

خلفية سياسية:

لقد اعترف، رسمياً باستقلال لبنان وسورية، عام ١٩٤١، لكن امتيازات السيادة الجوهريّة - وهى السلطان التشريعية والتنفيذية والسيطرة على القوات المسلحة - كان لابد من انتزاعها - شيئاً فشيئاً من الفرنسيين، خلال السنوات الأربع التالية. وعندما طلبت الحكومتان السورية واللبنانية بصورة خاصة ترحيل القوات الخاصة بالشرق - وهى قوات مؤلفة من بضعة آلاف شكلها الفرنسيون من الأقطار التابعة لهم - حالاً وسريعاً، وهى الخطوة الوحيدة التى تجعل الحكم الذاتى فعالاً، إذا سمح بتشكيل جيوش وطنية^(١).

(١) باتريك سيل، الصراع على سورية، دراسة للسياسة العربية (١٩٤٥ - ١٩٥٨).

أصر الفرنسيون على تعليق ترحيل تلك القوات، بعقد معاهدة تربط سورية بالفرنسيين، وهذا إحتلال حسم بشكل دموى، حين قامت القوات الفرنسية باعتداءاتها العلنية على المدنيين السوريين، الذين دعم موقفهم قوات الضباط والجنود الهاربون من (القوات الخاصة بالشرق)، والدرك (١).

ظلت القوات المسلحة الأجنبية ترابط في أراضي سورية. وبقيت أهم الدوائر الاقتصادية، والسياسية في أيدي السلطات البريطانية والفرنسية. وأجرت بريطانيا وفرنسا مفاوضات ما وراء الكواليس، وعقدتا في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٥، اتفاقية قضت بمواصلة احتلال سوريا ولبنان، بصورة مشتركة (٢).

في مستهل ١٩٤٦، طلبت حكومتا سوريا ولبنان من مجلس الأمن الدولي اتخاذ قراراً بجلاء القوات المسلحة الأجنبية من أراضيها على الفور، وقد دعم الوفد السوفييتي مطلب لبنان وسورية، بقوة وحزم. وحاولت فرنسا وبريطانيا، بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية، أن تعرقل بشتى الوسائل، حل المسألة حلاً إيجابياً في مجلس الأمن ومع ذلك اضطرت بريطانيا وفرنسا، في جو نهوض النضال ضد الإمبريالية، وبفضل المساندة الدبلوماسية الدائبة التي قدمها الاتحاد السوفييتي لسورية

(ترجمة سمير عبده - محمود فلاحه)، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٤٤.

(١) المصدر نفسه، ص٤٤، ٤٥.

(٢) تاريخ الأقطار العربية المعاصر (١٩١٧ - ١٩٧٠) الجزء الأول، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، معهد الاستشراق، ترجمة دار التقدم، ١٩٧٥، ص١٠٢.

ولبنان، وبفضل ضغط الرأي العام العالمي إلى الموافقة في آذار/ مارس ١٩٤٦، على إجلاء قواتهما من أراضي هذين البلدين، وكان ذلك انتصاراً كبيراً للشعبين السوري واللبناني، وفتح صفحة جديدة في تاريخهما في ١٧ نيسان/ إبريل ١٩٤٦، غادر آخر جندي أجنبي أراضي سورية^(١).

بعد جلاء القوات الأجنبية :

رغم نيل الإستقلال السياسي، بقيت سورية هدفاً لمطامع الدول الإمبريالية، وتطلعاتها التوسعية. وقد أخذت الاحتكارات الأمريكية تحريك الخطط لبناء خط لأنابيب البترول من العربية السعودية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، عبر أراضي سورية. وبذلت الاحتكارات الفرنسية جهودها للاحتفاظ بمواقعها في إقتصاد سوريا. وسعيًا لزعزعة فرنسا، حاولت بريطانيا تنفيذ خطة توحيد البلدان العربية، تحت إشرافها، وإنشاء "سوريا الكبرى" و "الهلال الخصيب"^(٢)

. إن نيل الاستقلال السياسي، وجلاء القوات الأجنبية قد طرحا أمام الحكومة السورية ضرورة حل عدد من المسائل الوطنية العامة، منها القضاء على بقايا الاستعمار، وإزاحة الاحتكارات الأجنبية، وإنشاء الصناعة الوطنية، وإلغاء النظم والرواسب الإقطاعية، وإشاعة الديمقراطية في الحياة الاجتماعية. غير أن البرجوازية الوطنية، التي ترأست، في المرحلة الأولى، حركة التحرر الوطني، كانت تخشى، بحكم

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

إزدواج طبيعتها الطبقية، استمرار اشتداد هذه الحركة (١).

لقد بدا أن السوريين كانوا يودون دفع الأمور مع الفرنسيين إلى الذروة، بوجود الإنجليز، وكانت تتملكهم ذكرى عام ١٩١٩، حيث انسحب الإنجليز تاركين الفرنسيين، ليقضوا عليهم، كما يريدون، ولكن التدخل البريطاني، وكما توقع السوريون، وقد انتهى، على أية حال، إلى تفجر الوضع الثوري، وفي نيسان/ إبريل ١٩٤٦، تم انسحاب جميع القوى من القطر السوري (٢).

قد ظلت " الكتلة الوطنية "، رغم عجزها، المرشح الوحيد لاستلام السلطة، ما بقيت العلاقات بفرنسا تغلب على الدبلوماسية السورية، وما بقي الجنود الفرنسيون يحتلون البلاد، حتى ارتكزت على ادعاءاتها باحتكار الوطنية، فعادت إلى السلطة، إثر انتخابات تموز/ يوليو ١٩٤٣، وانتخب شكري القواتلي رئيساً للجمهورية، على حين ألف زميله، سعد الله الجابري، وحكومة تمثل فيها الحرس الوطني القديم، تمثيلاً قوياً (٣).

طففت الأوساط البرجوازية الإقطاعية، التي وصلت إلى الحكم، تقاوم الإجراءات التقدمية، أيًا كانت، لكنه تحت ضغط الحركة الإضرابية المتواصلة، اضطرت الحكومة السورية، في عام ١٩٤٦ إلي شن أول تشريع للعمل، وهو قانون العمل رقم (٢٧٩)، ومع أن القانون لم يحقق الكثير من مطالب العمال، إلا أن إقراره من قبل البرلمان كان انتصاراً

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) سيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.

كبيراً للطبقة العاملة السورية. ولكن الميول الرجعية الموالية للإمبريالية أخذت تتبدى بدرجة متزايدة في سياسة (الكتلة الوطنية) الحاكمة (١).

وظفت السلطات السورية تحد من الحريات الديمقراطية. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، فتم حظر الحزب الشيوعي. ولم تطبق أحكام قانون العمل، ولم يحقق الإصلاح الزراعي الضروري، فائق الضرورة للبلد، ولم تتخذ الحكومة أي إجراءات للتغلب على المصاعب الاقتصادية (٢).

القوتلي.. رئيساً لسورية:

بعد انتخابه رئيساً للجمهورية، في عام ١٩٤٣، كان سجله الوطني، وصيته الذائع، ومنصبه الحكومي، واجهة جليلة مجيدة، فكانت عاطفته الوطنية فوق الشبهات ولتسامحه مع زلات زملائه، يمكن أن يعتمد عليه (٣).

لقد أبان الفرنسي جاك بيرك، عالم الاجتماع الفرنسي، أن الاندفاعية الوطنية في أي قطر عربي تميل إلى إيجاد تجمع عريض غير متجانس، مثل " الكتلة الوطنية " في سوريا، و " الوفد " في مصر، فقد تألف رجال بماضي ومشارب متباينة، وراء هدفٍ وحيد، هو الاستقلال، ولكن النجاحات الأولى، سواءً أتت عن طريق التفاوض مع الدولة المحتلة، أو الكفاح المسلح ضدها، كانت تشق هذه التجمعات، لقد كانت الانشقاقات

(١) تاريخ الأقطار العربية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٣) سيل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

الأيدولوجية والشخصية تثور، وتحل التمايزات الحادة مكان الوطنية الأصلية الطوعية^(١).

لقد انتخب المجلس الجديد فارس الخوري رئيساً له، في جلسته الأولى، المعقودة يوم ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧، وفي اليوم التالي تقدم جميل مردم باستقالة حكومته، ولكنه كُلف، ثانية، بتشكيل حكومة أخرى، إن المفردات السياسية الرصينة من أمثال كلمات " نائب "، و " معارضة " و " رئيس المجلس " و " لجنة الشؤون الخارجية " لم تفلح في منع الفوضى الفاجعة، التي حكمت البرلمان السوري^(٢)، وفي " ذكريات نائب " كتب " حبيب كحالة، ما يلي:

" نظرت حولي، وكان ما رأيته فقط.. رجالاً لا يوجد بينهم شيء، ولا يشتركون في أية مبادئ، ولا يربطهم تنظيم حزبي، قد وصلوا إلى البرلمان بأساليب خادعة مقنعة، من انتخابات فوضوية تحت ستار الحرية، فكان بعضهم أمياً، وآخرون أدباء مرموقين، وكانت لغة بعضهم الكردية، أو الأرمنية، ولم يعرف آخرون سوى اللغة التركية فقط، وبعضهم ارتدى الطربوش، وآخرون اعتمروا الكوفية، وكان بينهم رجال البادية، أو المدينة، ولم يزد الأمر عن مسرحية وتمثيل أدوار^(٣)."

وسعيًا إلى إيجاد مخرج من الوضع الاقتصادي العصيب، أعدت الحكومة مشروع اتفاقية مع " شركة التابلاين "، " وشركة نفط العراق "،

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٣.

بشأن مد خطين لانايب البترول عبر أراضي سورية، كما أعدت مشروع إتفاقية نقدية مع فرنسا. ولكنها، نظرًا للمظاهرات والاضرابات المستمرة في سوريا ضد الإمبريالية، لم تعتمد إلى طرح مسألة عقد هذه الاتفاقيات على بساط البحث أمام البرلمان^(١).

في الوقت نفسه، كان الإستياء، والتناقضات تتفاقم في قلب البرجوازية الوطنية نفسها. وفي ١٩٤٧، حدث انشقاق في " الحزب الوطني " الحاكم. وسحب قسم كبير من الحزب ممثليه من الحكومة، وشكل المعارضة البرلمانية. ونشأ في البلد وضع سياسي قلق للغاية^(٢).

في الذكرى السنوية الأولى لتصويت الأمم المتحدة، عام ١٩٤٧، على قرار تقسيم فلسطين، اخرج البعث الطلاب إلى الإضراب، وأغلقت الأسواق، وطالب المتظاهرون الحكومة باستئناف القتال، حالاً، مع الدول الأجنبية، وإلغاء مرسوم، صدر مؤخرًا، بزيادة أسعار الخبز، وكان المجلس نفسه في حالة هيجان، حيث تضارب أحمد الشرباتي، وزير الدفاع السابق، مع أحد النواب الآخرين، بينما سُمع رئيس الوزراء، وهو يصرخ مقدمًا استقالته، وخارج المجلس استعمل رجال الشرطة يعززهم رجال الدرك، قنابل الغاز المسيلة للدموع، لتفريق الجماهير، التي هددت باحتلال المجلس بالقوة^(٣).

إن فكرة تشكيل " جيش الإنقاذ " كانت فكرة قد تكون طيبة، في

(١) تاريخ الأقطار، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) سيل، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥ - ٥٦.

جوهرها، من قبل الجامعة العربية، لأنها كانت محاولة لدفع الدول العربية، أمثلتها الحكومات العربية، التي لا ترد أن تدخل الحرب، رسمياً، ولا ترغب أن تصرح برأيها أمام أفراد شعبها العربي، أو هي لا تجرؤ على أن تحارب، وتريد أن تحرر فلسطين، وتري فيها انعكاسات لضعف عزيمة السياسيين، وغموض أفكارهم أو من الواجب أن تقول إن حماس الشعوب العربية لقضية فلسطين كان يتعارض مع تراخي الحكومات العربية (١).

أخيراً، لم يجد بقية العرب حماسة كبيرة، لمساعدة المقاتلين الفلسطينيين، في وقت عرف ممثلو مصر، والعراق، ولبنان، والعربية السعودية، وسوريا، وشرقي الأردن، واليمن، والخبراء العسكريون لهذه الاقطار، المجتمعون في عالية (لبنان)، بتقدير لجنة "اليونسكو"، حتى قرروا بأن مهمات الدفاع تقع على عاتق الفلسطينيين، وحدهم، أما دولهم، فتتعهد بتقديم الأسلحة، وبالسماح للمتطوعين المحتملين بالذهاب للقتال في فلسطين (٢).

أما رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، أمين الحسيني الذي لم يُدعَ حتي للاجتماع، فدخل مع ذلك عنوة، وطلب من ممثلي الدول العربية دعم مشروع دولة فلسطينية، فقول اقتراحه بالرفض الشديد. وفي الختام أوصت لجنة عسكرية، ترأسها اللواء العراقي إسماعيل صفوت، بدعوة

(١) محمد فائز القصري، حرب فلسطين عام ١٩٤٨، الجزء الثاني، مرحلة النضال والجهاد، المطبعة العمومية بدمشق، ط ١ نيسان ١٩٦٢، ص ٢٣٩.

(٢) إلياس صنبر، فلسطين ١٩٤٨ التغيب، ترجمة كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١ ١٩٨٧، ص ١٤٣.

المتطوعين، وتسليحهم، وبحشد القوات عند الحدود الفلسطينية، وتكوين قوة عربية موحدة، وإرسال ١٠٠٠ بندقية، ومليون جنيه إسترليني إلى الفلسطينيين، ومراقبة السواحل للتصدي للمساعدات التي تنهمل على الصهاينة، بيد أن هذه التوصيات بقيت حبراً على ورق (١).

ثم اجتمع رؤساء وزراء الدول العربية، الأعضاء في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر، وانتهت مناقشتهم، التي دامت عشرة أيام، بإدانة قرار التقسيم، كما اتخذت قرارات سرية بتأمين ١٠٠.٠٠٠ بندقية، ٣٠٠٠ متطوع للجنة العسكرية، التي اجتمعت في عالية، بما يضمن تشكيل " جيش الإنقاذ ". وتم التفاوض مع الحكومة التشيكية لتسليحه، إلا أنها أعلنت في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، عن رفضها تصدير الأسلحة، وكان مجموع الأسلحة التي توافرت للمتطوعين قد بلغ في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٤٨، ٩٠٠٠ بندقية. هذا هو كل ما استطاعت الدولة العربية، مجتمعة، تأمينه. قدم العراق ٣٨٦٠ بندقية، وشرقي الأردن ١٠٠٠، ومصر ٨٠٠، والسعودية ٧٩٠ وسوريا ٢٠٠٠، ولبنان ٥٥٠، وإلى تباين هذه الأسلحة تضاف حقيقة أنها جميعاً كانت قديمة أو تالفة (٢).

لقد كانت فكرة " جيش الإنقاذ "، لتتلخص الجامعة العربية من هذا الوضع الشاذ، فقد أوجدت فكرة " جيش الإنقاذ " لتحرر به فلسطين، أو لتدخل الجيوش العربية الحرب، بصورة غير نظامية، إرضاء لصداقة بريطانيا، صاحبة " وعد بلفور "، أو دافعاً لكافة الجيوش العربية،

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

لتشارك في الحرب، وتستمد العون من نفوذ بريطانيا، صاحبة الوعد المشؤم (ولكن دون جدوى)، لأن الدول العربية قيدت نفسها، دون إعلان، بقرار هيئة الأمم المتحدة، القاضي بتقسيم فلسطين، رغم تصويتها ضده في العلن^(١).

القوات السورية التي اشتركت في الحرب:

١- جيش الانتقاذ:

إنشئ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، من متطوعين سوريين، ولبنانيين، وعراقيين، وأردنيين، وسعوديين، ويمنيين، ويوغسلاف، وألمان، وإنجليز. وقد تمركز هذا الجيش في المنطقة الوسطى والشمالية من فلسطين، حتى أوائل حزيران/ يونيه ١٩٤٨، عندما عاد وتجمع في الشمال. وتولى قيادته فوزي الدين القاوقجي^(٢).

وقد بلغ حجم هذا الجيش نحو ٤ آلاف مقاتل، نصفهم من المتطوعين السوريين، و ٨٠٠ فلسطينيين، ومثلهم عراقيين، بالإضافة إلى جماعات قليلة من جنسيات أخرى. ومن الواضح أنه نظرًا لاختلاف الجنسيات في هذا الجيش، فإن تنظيمه، وتركيبه، كان غير متجانس، من حيث الأفراد، والتسليح والتدريب، وأسلوب العمل^(٣).

(١) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠.

(٢) نظرات على انتصارات العسكرية الوطنية المصرية، الهيئة العامة للاستعلامات، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

٢- القوات السورية النظامية:

أرسلت سورية إلى الميدان قوى وحدات جيشها الناشئ: اللواء الأول (١٨٧٦ من الضباط والجنود)، المعزز بـ ٦ دبابات (تعطلت منها اثنتان وهي في الطريق إلى الجبهة)، و ٣٢ مدرعة، و ١٢ مدفع (٧٥ مم). وتشكلت القوة الجوية السورية من ٤ طائرات تدريب (هار فارد)، وقيل ١٠ طائرات^(١).

يشكو الزعيم عبد الله عطفة، رئيس الأركان السوري السابق، في مذكرة قدمها إلى رئيس الحكومة، جميل مردم بك، بتاريخ ١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨، من الترتيبات الإدارية التي فرضها وزير الدفاع المستقيل، أحمد الشرباتي، على وزارة الدفاع، بموجب مرسوم اشتراكي صدر في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦، تأسست بموجبة ١٣ مديرية في الوزارة^(٢).

يضيف عطفة: " وكل هذه المديريات مستقلة بسلطة موحدة، من قبل الوزير، لتنسيق أعمالها، وارتباطها مع بعضها، ولم يكتف المرسوم بفصل المصالح عن الأركان، وجعل رئاسة الأركان كإحدى، هذه المديريات الثلاث عشرة، بل مُنح وزير الدفاع جميع الصلاحيات التي تعود إلي قيادة الجيش، وبذلك سلب رئاسة الأركان كل سلطة ونفوذ^(٣).

(١) وليد الخالدي، خمسون عامًا على حرب ١٩٨٤، أول الحروب العربية الصهيونية، دار النهار، بيروت، ط ١، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣.

قرار الحرب النظامية (عربياً) :

حينما أعلن ملك شرقي الأردن، عبد الله بن الحسين، أنه سيدخل فلسطين مقاتلاً، تنفست الدول العربية الصعداء ^(١).

في الأسبوع الأول من أيار/ مايو، وبعد إلحاح من اللجنة السياسية للجامعة العربية (التي اتخذت قراراً بغزو فلسطين فور انتهاء الانتداب في ١٥ مايو)، اجتمع رؤساء أركان الجيوش العربية، في دمشق وأقروا خطة الغزو، وكان الملك عبد الله قائداً للجيوش العربية، لكنه كان منصباً سورياً ^(٢).

ففي الواقع، عزم كل جيش على أن يعمل وفق مصالحه الوطنية، وأن يتلقى الأوامر من قيادته العامة. والحقيقة أن الخطة لم تتجاوز تنسيق الهجوم، وتقسيم فلسطين إلى أقسام تحتلها الجيوش العربية، كل ما فيها يخصه. فكان على اللبنانيين أن ينطلقوا بطول الساحل الشمالي نحو نهاريا، وعلى السوريين أن يعبروا إلى شمال بحر الجليل وجنوبه، والتقدم نحو سمخ بهدف إحتلال الجليل، وكان على العراقيين أن يعبروا نهر الأردن، وجنوبي بحر الجليل، والتحرك خلال المثلث العربي، والتقدم نحو نتانيا، على ساحل البحر المتوسط، لشق الدولة اليهودية إلى قسمين ^(١).

(١) خيرية قاسمية، مذكرات فوزي القاوقجي «١٨٩٠ - ١٩٧٧»، ط٢، ١٩٩٥، ص٣٣٢.

(٢) حاييم هرزوغ، الحروب العربية - الإسرائيلية ١٩٨٤ - ١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، ط١، ١٩٩٣، سينا للنشر، القاهرة، ص٥٢ - ٥٣.

(١) المصدر نفسه، ص٥٢ - ٥٣.

إرهاصات دخول الحرب:

وجه " شكري القواتلي "، رئيس الجمهورية السورية، الأنظار، في اجتماع دعا إليه، يوم ١٣ أيار/ مايو ١٩٤٨، إلى ضرورة الالتزام بخطة دخول الجيش السوري إلى فلسطين، من اتجاه بنت جبيل، نحو الناصرة، ثم العفولة، حيث يلتقي بالجيش العراقي في جنين، لعزل كافة المستعمرات الإسرائيلية الواقعة في الغور^(١).

لكن الملك عبد الله أصر على أن يدخل الجيش السوري إلى فلسطين من منطقة سمخ، وطبرية، رغم وقوع الكثير من الاستحكامات المعادية، المرتكزة على تحصينات خط إيدن المنيع، على هذا الاتجاه، وما يترتب على ذلك من صعوبة التوغل داخل الجليل الشمالي^(٢).

إضطر السوريون للرضوخ، فأقتحم العقيد عبد الوهاب الحكيم منطقة مليئة بالتحصينات، ليهاجم سمخ، طبقاً للخطة الجديدة^(٣).

الاستعداد على الجبهة الإسرائيلية :

ناقشت القيادة الإسرائيلية، مسألة وجوب إعلان الاستقلال، في ١٤ أيار/ مايو، موعد الانسحاب البريطاني، ومورست ضغوط شديدة على ممثلي اليهود في واشنطن، وفي كل مكان آخر، لتأجيل ما يمكن أن يكون عملاً متهوراً، وتحاشي دفع الجيوش العربية لخوض حرب، لكن بن

(١) لواء حسن البدر، الحرب في أرض السلام، «الجولة العربية الإسرائيلية الأولى ١٩٤٧ - ١٩٤٩»، دار الوطن العربي «القاهرة - بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر القاهرة - بيروت»، ١٩٧٦، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

غوريون الذي كان يرأس، في ذلك الوقت، ما يعرف، بمجلس الشعب، (الذي أصبح، فيما بعد، حكومة إسرائيل المؤقتة)، قرر أنه ينبغي استغلال الفرصة التاريخية التي أتاحت. انتصرت وجهة نظره على معارضيها، في المجلس، وفي يوم الجمعة، ١٤ أيار/ مايو، جمع بن غوريون المجلس المؤقت (الذي سيصبح الكنيست، أو البرلمان، فيما بعد) بالمتحف البلدي لتل أبيب، بشارع روتشيلد (وكانت القدس، بالطبع، محاصرة، ومعزولة تماماً) ^(١).

أعلن بن غوريون قيام الدولة اليهودية، في فلسطين، وأسماها " دولة إسرائيل ". وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، أذاع على الولايات المتحدة، أثناء حديث له صوت طائرة مصرية، وهي تقصف تل أبيب، حيث كان الصوت واضحاً للغاية ^(٢).

بعد رفض العرب لفكرة إقامة دولة عربية على جزء من فلسطين تكتلوا من أجل " تدمير " دولة إسرائيل ^(٣).

بدء المعركة السورية :

بدأ السوريون هجماتهم، في ١٤ أيار/ مايو، بقصفٍ شديدٍ بالمدفعية على المستوطنات الواقعة جنوب الجليل، وعلى مستوطنة عين جيف، وكانت الوحدة الوحيدة باستثناء " الفلاحين * "، المتاحة للدفاع عن المنطقة، هي الكتيبة الثانية من لواء " جولاني "، كتيبة واحدة عليها أن

(١) هرزوغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١ - ٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(*) المقصود المستوطنين اليهود.

تتولى الدفاع عن وادي الأردن الأعلى، في مواجهة جيشين عربيين**، والأسوأ من ذلك، أن إحدى سرايا الكتيبة مكلفة بمهام أخرى في منطقة (جبل طابور)، على مسافة ما يقرب من ٢٠ ميلاً إلى الغرب^(١).

كان الهدف الأول لقوة الهجوم السوري، والمؤلفة بالأساس من لواء مشاة، تدعمه سرية دبابات، وكتيبة عربات مدرعة، وفوج مدفعية، هو قرية سمخ حيث قامت اثنتان من سرايا المشاة باحتلال معسكر مهجور جنوبي القرية، بينما توجهت قوة مختلطة من المدرعات والمشاة نحو مستوطنتي شاعر هجولان ومسادة، وبعد معركة يائسة، توقف الاندفاع السوري الأول، ولكن بعد إبادة جميع أفراد القوة المدافعة، باستثناء فرد واحد^(٢).

لجأ المستوطنون إلى الحيلة، لكي يصيبوا السوريين بالحيرة، والارتباك، ويكسبوا الوقت اللازم لاجلاء الأطفال والنساء عن المنطقة. إذ قاموا بحشد جميع لورياتهم وجراراتهم، تصعد الجبل، غربي بحر الجليل ليلاً، وهي مطفأة الأنوار، ثم تعود، وهي مضاءة. وتكررت العملية على مدى عدة ليال، لخلق الانطباع لدى السوريين، بتدفق النجادات^(٣).

(**) اصطلاح الصهاينة كلمة جيش، على القوات العربية الرمزية المشاركة في الحرب، لحشد رأى عام متعاطف معهم.

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٢) لم يذكر الكاتب عدد القوة المدافعة، أغلب الظن لتحويل الخسائر على الجانب الصهيوني.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦ - ٥٧.

(١) المصدر نفسه، ص ٥٧.

يؤكد الزعيم عبد الله عطفه، رئيس الأركان السوري، آنذاك، أنه نصح حكومته، ألا تورط جيشها في حرب، لقلّة السلاح والرجال، مما لا يصح معه خوض حرب، فيما يؤكد العقيد عبد الوهاب الحكيم، قائد اللواء السوري في فلسطين، أن قواته لم تكن مستعدة للحرب، وكان ينقصها الرجال والعتاد والتدريب^(١).

في ١٨ أيار/ مايو، قام اللواء السوري الأول، بقيادة الزعيم (العميد) حسني الزعيم، الذي قدر له بعد ذلك بعام، أن يقود عددًا من الانقلابات العسكرية بسوريا، بهجوم (حاسم) على سمخ، وحاول المدافعون المسلحون برشاشين ٢٠ مم (م / د) أن يتصدوا لهجوم بحوالي ٣٠ سيارة مصفحة، ٤ دبابات (رينو) تولت قصف مواقع الهاغاناه، وأصابتها، إصابات مباشرة، وفي الوقت نفسه قامت قوة مشتركة من المشاة والمدركات الإسرائيلية بتطويق سمخ^(٢).

عندما تعطل أحد المدفعين المضادين للدبابات، بفعل القصف السوري، ترك جزء من القوة موقعة، وانسحب من سمخ، مخلفين ورائهم عددًا من القتلى، حيث أبيدت معظم القوة المدافعة، في آخر الأمر. وبذلك نجحت القوة السورية في فتح الطريق إلى وادي الأردن، وبدا الموقف بالنسبة للمستوطنين الإسرائيليين، والقوات المدافعة عن المنطقة ميئوسًا منه. وأصبحت قريتا دجانيا (أ)، ودجانيا (ب)، هي الخط الدفاعي^(٣).

(١) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠.

(٢) هرزوح، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦ - ٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧.

بدأ الهجوم العربي منصّباً على دجانيا (أ)، التي بلغ إجمالي المدافعين عنها ٧٠ رجلاً، واستخدم في الهجوم سرية مشاة، يتقدمها خمس دبابات، ووحدة عربات مدرعة. وفتحت العربات المدرعة النار، بهدف إبادة المدافعين، وتوفير غطاء من النيران للمشاة. بينما أطلقت الدبابات نيران مباشرة على معقل المدافعين، ومواقعهم، لإجبارهم على الخروج منها، ومن خنادق المواصلات. وأصيب إحدى العربات المدرعة السورية، كما أصيبت دبابة رينو، وأنسحبت القوات السورية، لكن الهجوم استمر، وأصيب دبابة القيادة، لكن مدفعها ظل يطلق نيرانه، حتى دمرته عبوة مولوتوف أخرى^(١).

عند منتصف النهار، انسحب السوريون من دجانيا (أ)، بعد أن خسروا سيارتين مدرعتين أخريتين، وانتقلوا بالهجوم على دجانيا (ب)^(٢).

جاء الهجوم على دجانيا (ب) بـ ٨ عربات مصفحة، و ٣ دبابات، وتقدمتها هذه المرة سريتان من المشاة. ونجح الإسرائيليون في وقف تقدم المشاة، ومرةً أخرى تقدمت قوة مدرعة سورية كبيرة، يساندها المشاة، لكنها ردت على أعقابها^(٣).

في ٢١ أيار/ مايو شن اللواء الإسرائيلي/ جولاني هجوماً مضاداً، لاستعادة سمخ، وبعد قتالٍ بالغ العنف، أجبر السوريون على إخلائها، ثم احتل لواء جولاني كلاً من مسادة، وشعار هجولان. وإزاء هذا الفشل،

(١) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.

قامت القيادة السورية بتغيير قائد القوات في فلسطين، وعينت مكانه الزعيم (العميد) حسني الزعيم، الذي قام بإعادة تقدير الموقف، وتوزيع قواته التي وحدها، يوم ١١ حزيران/ يونيه، لتتمركز في منطقة الغور، وجناحها الجنوبي مكشوف تمامًا، ومعرض للهجمات، الإسرائيلية بعد إنتقال الجيش العراقي من منطقة العفولة الإسرائيلية، إلي منطقة نابلس^(١).

كان ذلك مع ظهور أول مدفعية إسرائيلية، وقد كان تأثير قذائفها الأولى على السوريين (الذين كانوا حتى تلك اللحظة، يحتكرون استخدام المدفعية في ميدان المعركة) فوريًا، إذ انسحب السوريون، تاركين سمخ وشعار هجولان ومسادة التي أعادت القوات الإسرائيلية، احتلالها على الفور^(٢).

حسم الإسرائيليون معركة وادي الأردن، في ٢٣ أيار/ مايو، ولم يحاول السوريون، على الإطلاق، دخول فلسطين، مرةً أخرى، من جهة الجليل الأردني، وبدلاً من ذلك وجهوا مجهودهم الرئيسي نحو الشمال، عند منطقة مشمارهايردين، وذلك بهدف قطع الإمدادات^(٣).

في يوم ١٠ حزيران/ يونيه، قامت كتيبة سورية، مدعمة بالمدفعية، بمهاجمة عين جيف، المعزولة، على الشواطئ الشرقية لبحر الجليل*، والتي كانت قوة الدفاع عنها مؤلفة من مائة من المقاتلين والمقاتلات

(١) تاريخ الأقطار، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨.

(٢) هرزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المسحليين. كان الهجوم على ثلاثة محاور. لكن المدافعين أمكنهم صد الهجوم، وقد أسفر الهجوم عن خسائر في الأرواح على الجانب الإسرائيلي^(١).

بعد نجاح القوات السورية في إكمال هذا الهجوم، عمدوا إلى السيطرة على شمالي بحيرة طبرية، قبالة مستعمرة، مشمارهايردين، التي اقتحمتها، قبل الهدنة بيوم واحد، وأقامت رأس جسر غربي النهر، واحتفظت بها إلى نهاية الحرب، على الرغم من محاولات إسرائيل المتكررة لاسترداد هذه المستعمرة^(٢).

لعل ذلك ما جعل الأمم المتحدة تتبنى خيار الهدنة، لكبح هجوم سوري متوقع، ولإعطاء إسرائيل مزيداً من الوقت، لترتيب أوراقها، لتتمكن من صد أي هجوم مضاد متوقع من قبل الجيوش العربية، و " جيش الإنقاذ".

بحيرة طبرية... الجبهة الشمالية:

يعتبر الهجوم الذي شنه السوريون على منطقة الأردن - بيسان العليا، أكبر هجوم عربي على منطقة تجمع استيطاني يهودي كثيف. وهناك ثلاث مزايا تكتيكية وراء اختيار السوريين لمفتح كهذا: الأول، وجود المرتفع المتحكم في ميدان المعركة، المخطط لها داخل حدودهم، والثاني أن عددًا من المستوطنات الزراعية اليهودية يقع شرقي نهر الأردن، الأمر الذي لا يستدعي عملية خاصة لعبور النهر، يبقى الأمر الثالث،

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ - ٧٤.

مؤداه أن اختراقًا في تلك المنطقة يمكن القوات السورية من الاتصال بالأهالي العرب في الجليل، حول مدينة الناصرة العربية^(١).

كما أن هذا يمكن من إقامة قاعدة صلبة، ونقطة انطلاق نحو حيفا، وهو ميناء رئيسي، وأحد نهايات خط أنابيب البترول القادم من العراق إلى البحر المتوسط^(٢).

لخص بن غوريون، في ختام اجتماعه مع القادة العسكريين، في ١٨ حزيران/يونية، خطة الهجوم العام، ومركز ثقله، بقوله: " يجب تثبيت الجبهتين في الشمال والجنوب، بقدر الإمكان وإعداد خطة لتحطيم (الفيلق) (أي الجيش) الأردني. واحتلال نابلس إلا أن بن غوريون عاد، كما يذكر في "يوميات الحرب"، بتاريخ ٤ تموز/يوليو، فأدخل بعض التعديل في هذه الخطة، بحيث أصبح احتلال مدينتي اللد والرملة، المرحلة الأولى وبعدها نتفرغ، كما يقول بن غوريون، للطرون، تمهيدًا لاحتلال رام الله، وبعدها نابلس، على أن يتزامن مع هذا هجومان في الجبهة الشمالية: أولهما باسم عملية بروش، لتصفية رأس الجسر السوري، عند مشمارهايردين، والهجوم الثاني باسم عملية ديكن، لتصفية جيش الإنقاذ، بقيادة فوزي القاوقجي، في الجليل الأوسط، الذي كانت قاعدته مدينة الناصرة^(٣).

تضمنت عملية بروش معاودة إقامة جسر على نهر الأردن، وعبور

(١) هرزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٣) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠ - ٩١.

النهر بالقوارب والأطواف، وصعود الجولان، لقطع الطريق إلى القنيطرة، على القوات السورية، غرب النهر. واستمرت معركة عنيفة ضارية، خلال أربعة أيام من (١٠: ١٣ تموز/ يوليو)، فشلت جميع محاولات الجيش الإسرائيلي لاسترداد مشمارهايردين، أو صعود الجولان، على الرغم من إرساله لقلاع طائفة، كما يذكر التاريخ الرسمي الخاص به، لقصف رأس الجسر السوري^(١).

بعد فشل القوات الإسرائيلية في الاستيلاء على بيت الجمر، قبل طلوع الشمس، صدرت الأوامر بالانسحاب إلى الضفة الغربية، وألغيت خطة تطويق المواقع السورية^(٢).

في الفجر، شنت القوات السورية هجوماً مضاداً ساندته الطيران بقوة. في الوقت نفسه، قام اللواء السوري المتمركز فوق المرتفعات الواقعة، شرق النهر، بمهاجمة القوات الإسرائيلية، التي كانت لا تزال على الضفة الشرقية. وليومين متتاليين، ظلت تلك القوات تقاوم الهجمات السورية، قبل أن تجري عملية الانسحاب إلى الضفة الغربية^(٣).

دار قتال عنيف، حول عدد من المواقع بالمنطقة، ووقعت إصابات كثيرة، عندما تقدم السوريون لتهديد مناحيميا، وروش بينا. وعلى مدى يومين، دارت الحرب سجلاً بين الطرفين، وهناك بعض المواقع تبادلتها الأيدي لأربع مرات، وفي ١٤ تموز/ يوليو، قامت قوات ماكليف الإسرائيلية بمحاولة أخرى ضد رأس الجسر، على السوريين من جهة

(١) المصدر نفسه، ص ٩٢ - ٩٤.

(٢) سيل، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٠ - ٩١.

الجنوب هذه المرة، لكن هذه المحاولة فشلت هي الأخرى^(١).

عندما بدأت الهدنة الثانية، بعد تسعة أيام من القتال، كان الجيشان المنهكان، في موقف بالغ الحرج، يواجه أحدهما الآخر، من نفس المواقع التي انطلقت منها الهجمات المتتالية قبل عشرة أيام من هذا التاريخ^(٢).

عندما تحركت جيوش العرب النظامية، لإنقاذ فلسطين من براثن الصهاينة، بدأت المرحلة الثالثة للحرب، التي تمتع فيه العرب بالمبادأة، لمدة ٢٧ يومًا، تمكنوا خلالها من شن ١٩ معركة، ما بين هجوم أو إحباط ضربة مضادة، وإن تمت جميعًا بلا تنسيق، أو تعاون إستراتيجي بين جبهاتهم المختلفة، أو حتي تعبويًا في الجبهة الواحدة. ثم أصدر مجلس الأمن قراره، بفرض الهدنة الأولى على المتحاربين فتحولت المبادأة عن العرب، وظلت مع إسرائيل حتى نهاية الجولة^(٣).

فيما يتعلق بحجم الإنجاز، نجد أن العرب قد حرروا ألفي كيلو متر مربع من أرض فلسطين فقط، خلال المرحلة الثالثة، في حين اغتصب الإسرائيليون ١٠ آلاف كيلومترًا مربعًا، في المرحلة الرابعة فكان حجم إنجازها يزيد عن العرب، خمس مرات^(٤).

نجح الإسرائيليون في حشد نحو ٢٠٠ مثل ما حشده العرب للقتال، في بداية الجولة الأولى، أما في مراحلها المتقدمة، والختامية، فكانت النسبة أسوأ من ذلك بكثير^(١).

(١) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٣) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

بين القوات العربية والإسرائيلية^(١) :

السمة الواضحة كانت امتلاك إسرائيل لنظرية قتال وأسلوب عمل مستمد من خبرة طويلة لأغلب جنودها، سبقت في مسارح الحرب العالمية الثانية، ومعرفة بفوائد المعركة الحديثة للأسلحة المشتركة، وذلك بفضل اشتراك الفيلق اليهودي، مع الجيش الثامن البريطاني، في مسرح بريطانيا، وتجنيد الكثير من اليهود، في مختلف جيوش الشرق والغرب، وخاصة في مسرح روسيا، فما أن وضعت هذه الحرب أوزارها، حتي سارعت إسرائيل إلي تطوير ما اكتسبه جنودها من خبرات، لتناسب ظروف القتال في مسرح فلسطين، وبالإضافة إلي ذلك، فقد كانت إسرائيل تمتلك، أيضاً خطة عمل، تم رسمها مبكراً، وحددت فيها الأهداف المنشودة، بدقة، ووضوح. أما العرب، فلم تكن لديهم نظرية قتال متفق عليها، ولا أسلوب عمل موحد بينهم، يلائم خصائص القتال في أرض المعركة أو الأحوال السائدة فيه، كما لم يكن لهم هدف واضح.

عادت الهزيمة العربية في حرب ١٩٤٨ إلي جملة من الأسباب، في مقدمتها:

الفقر في القيادات المشرفة على الحرب، وصعوبة المواصلات، والنقص في السلاح، والذخيرة، والخدمات الطبية، فضلا عن افتقار الجيوش العربية إلي قيادة مركزية موحدة، فعالة، بل أن التنسيق بين هذه الجيوش كان غائباً في الأغلب الأعم. أما القوات الإسرائيلية فتمتعت بالعمل على خطوطها الداخلية، ما مكنها من التنسيق بين الوحدات

(١) لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع لكل من: سيل والقصري، مصدران سبق ذكرهما.

المقاتلة، مع تطور القتال، بحيث أمكنها تحريك الاحتياطي من منطقة لأخرى.

أما السياسيون العرب، فقد ألقوا خطابًا عصماء وعنترية، ضلّلوا بها الشعب العربي، ووعدوه بنصر قريب، إلا أن الحرب كشفت عن افتقارهم إلى الاستعداد، السياسي، والعسكري، في آنٍ، ناهيك عن اتسام العلاقات العربية - العربية، بالتعارض والتردي.

* * *

الفصل السادس:

الجيش العراقي في الحرب

و. عبد الكريم العلوي

كانت نتائج الحرب في فلسطين قد قوبلت برد فعل شعبي ساخط في العالم العربي، أما في العراق. فقد ألقت الأحزاب السياسية باللائمة علي بريطانيا، ونادت الأحزاب بقطع العلاقات مع السلطات، وإنهاء معاهدة التحالف معها (١٩٣٠). وشددت الصحافة العراقية علي أن السبب الرئيسي لهزيمة العرب في فلسطين ينحصر في الرفض البريطاني تزويد العرب بالسلاح والعتاد، وباتت المصالح البريطانية في العراق أكثر عرضةً للمخاطر. وبدأ الموظفون البريطانيون في العراق يظهرون علامات الخوف، من أن تسفر الأحداث في فلسطين عن تحرك شعبي عراقي يصحبه تحرك الجيش العراقي ضد الحكومة العراقية. كما أن هزيمة البلاط، ومن ورائه النخبة الحاكمة في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، أو ما أطلق عليها (بالوثية) دفعتهما للعمل معًا، من أجل تشكيل جناح معارض من الأحزاب السياسية، والقوي المعارضة للنظام الحاكم، التي أصبحت أكثر عداوةً من ذي قبل، خاصة أن العداء لبريطانيا تصدر نشاط هذه الأحزاب، وانتقل إلى صفوف الجيش الذي أظهر تذرره من بريطانيا، علانيةً، محملاً إياها نتائج الحرب، وأظهر الجيش تصميمًا جادًا علي التخلص من الوجود البريطاني، والنظام الحاكم في بغداد، على حدٍ

سواء. وكانت بعض الوحدات العسكرية في العاصمة، وفي المعسكرات المحيطة بها، تشعر بالظلم والألم مما جري في فلسطين، وربما تمكنوا من تمهيد السبل للوصول إلى مبتغاهم بقيام انتفاضة شعبية، تظهر العداء الشديد للحكومة، والغرب، عمومًا.

وإزاء التذمر الشعبي العراقي، وخاصةً من شباب الجيش العراقي، الذين اعتبروا هذه الهزيمة مسؤولية الحكومة العراقية، وبريطانيا، والجنرال جلوب، قائد القوات العربية! وقائد الجيش الأردني! الذين أسهموا في هزيمة الجيش العراقي، ما مثّل إهانةً قاسيةً للعسكرية العراقية.

فكان لابد من العمل لإسقاط النظام، وطرد الاحتلال البريطاني من العراق، وإعادة الكرامة للجيش العراقي، الذي قدم الكثير أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨، ولكن خيانة قادته المرتبطين بالمخطط الصهيوني الدولي، حالت دون انتصاره، وكي لا تذهب دماء شبابه وشهداءه هدرًا، كان لابد من عملٍ ينتقم لكرامة الجيش العراقي.

وحان العمل في ثورة ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨، وأسقط النظام العميل، وأعلنت الجمهورية العراقية، وعاد للجيش العراقي دوره في الساحة العربية، جيشًا مقاتلاً قويًا ذا توجهاتٍ وملامح عربية وطنية.

حقيقة مقولة "ماكو أوامر" :

خرج العراق من حرب فلسطين مثقلًا بالجروح، التي لم يشف منها، وبما لصق به من جملة "ماكو أوامر"، هذه المقولة التي ارتبطت به، منذ انتهاء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، وقد روج لها الأعداء، من

أجل إضاعة الانتصار، والمعارك التي خاضها ضد العصابات الصهيونية، وإهدار جهود الجيش وتضحيات شهدائه في فلسطين، ومما يؤسف له أن الكثير في العراق من العرب أخذوا بتلك المقولة، وأصبحت إهانةً للعسكرية العراقية، فترددت تنذرًا وسخريةً.

وللأسف لم يتحدث الجيش العراقي، وينفي هذه المقولة عنه برغم مرور العقود الستة الماضية، منذ انتهاء الحرب العربية ضد المشروع الصهيوني.

ولقد حاولت من خلال هذا البحث أن أصل لحقيقة هذه المقولة، ولم نجد أي وثيقة أو كلمة، تؤكد أو تنفي ذلك إلا من خلال بعض العسكريين العراقيين، الذين اشترك قسم منهم في الحرب، وهم ضباط صغار، أو الذين عايشوا هذه الفترة، أو الذين درسوا في كلية الأركان للجيش العراقي، والجميع قال: لم نقرأ أو نطلع علي مثل هذه التعليمات، وخلال يوميات الحرب العراقية الصهيونية، لم تذكر هذه الكلمة.

بل وجدنا بسالة الجيش العراقي، الذي قاتل قتالاً شرساً في العديد من المعارك المسجلة، وكل المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحرب لم يذكروا هذه الكلمة، ومن خلال متابعتنا للأوامر الصادرة للقوات العراقية، التي كانت برئاسة الجنرال جلوب، قائد الجيوش العربية، لاحظنا أنه طلب من الجيش العراقي الانسحاب من بعض المواقع العسكرية، فكان الرد " ماكو أوامر " من قيادة الجيش العراقي، وتكرر الطلب عدة مرات، فكان الجواب " ماكو أوامر لدى القوة العراقية من قيادتها بالانسحاب ".

هذه هي حقيقة المقولة التي ارتبطت بالجيش العراقي دون توخي الدقة، بل العكس هو الصحيح، حيث كان الجيش العراقي يتجاوز تعليمات رئاسة الأركان العربية، مما سبب الإزعاج للجنرال جلوب، الأمر الذي تأكد في الوثائق، ومن يوميات الحرب.

مواقف الحكومة العراقية تجاه القضية الفلسطينية:

لقد تأثرت مواقف العراق حيال القضية الفلسطينية، خلال تلك المرحلة، بعاملين أساسيين،

الأول: مواقف الحكومة البريطانية والتي كانت تربطها بعرش العراق وحكومته روابط قوية مؤثرة.

الثاني: مواقف الشعب العراقي، المؤيد لنضال الشعب الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني وسلطات الانتداب البريطاني، المتواطئة مع الحركة الصهيونية. ويمكن رؤية تأثير هذين العاملين في مواقف الحكومة العراقية المتعاقبة.

العراق يعارض التقرير:

إثر ظهور تقرير اللجنة الملكية البريطانية (١٩٣٧/٧/٧)، والقاضي بتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية، وأخري عربية بها. أعلن العراق موقف المعارض من التقرير. وقد استنكر حكمت سليمان، رئيس وزراء العراق، حينذاك، موقف المعارض من التقرير، وأرسل برقية إلى اللجنة العربية العليا عارض فيها مشروع التقسيم، كما أعلن استعداد العراق لمناصرة قضية فلسطين، حتى النهاية، وأعلن سليمان أنه قدم إلى

الحكومة البريطانية احتجاج حكومته علي التقرير وتم الإعلان عنه.

تغير موقف الحكومة العراقية من أمين الحسيني :

كانت مواقف العراق وحكومته قد بدأت تتغير في سنوات الثلاثينات، فمع مواقف العراق الملكي وحكومته من جهة، ومواقف الزعامة الفلسطينية التي كان يمثلها الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا، والذي أيد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد السلطة الملكية الهاشمية من جهة أخرى، حدثت تغييرات في مواقف العراق نحو القضية الفلسطينية في اتجاهين.

الأول: دعم القيادات المعارضة للزعامة الفلسطينية.

الثاني: إقامة تقارب سياسي بين النظام الملكي في العراق وبين الأردن بصدد الموقف من القضية الفلسطينية.

العراق يطلب حشوداً عسكرية علي الحدود الفلسطينية :

اتخذت الجامعة العربية قراراً كان العراق اقترحه، كان أساسه موقفه المتشدد تجاه القضية الفلسطينية. وقد أضاف صالح جبر، رئيس الوزراء العراقي آنذاك جوانب أخرى لموقف حكومته، عندما عقدت اجتماعاً جانبياً مع بعض ممثلي فلسطين للبحث في الوسائل والتدابير لتموين (الكثائب العراقية) معها.

العراق يرفض مشروع التقسيم ويطالب بقطع النفط :

عُرض مشروع التقسيم علي الأمم المتحدة في أواخر عام ١٩٤٧. وخلال مشاركة اجتماعات مجلس الجامعة العربية في القاهرة في كانون

الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، عاد رئيس وزراء العراق، لإثارة موضوع استخدام النفط من أجل القضية الفلسطينية.

كيف شارك العراق بحرب فلسطين؟

ظهرت مشاركة العراق في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ من خلال نشاطات المتطوعين العراقيين اللذين انخرطوا إلى جانب غيرهم من المتطوعين العرب، في جيش الإنقاذ، فضلاً عن القوات العراقية النظامية.

العراق يقبل الهدنة الأولى:

أعلن العراق قبوله الهدنة الأولى في حزيران/ يونيو ١٩٤٨، وذلك في إطار قبول الدول العربية الأخرى، والتي لها جيوشها في فلسطين. وأكد بيان عراقي صدر عقب الهدنة، تصميم العراق علي حل القضية الفلسطينية، حلاً عادلاً، يحفظ حق العرب كاملاً.

انسحاب الجيش العراقي من المواقع المرتبطة فيها:

عندما استؤنف القتال في فلسطين، في شهر تموز/ يوليو ١٩٤٨، وفي ظل غياب أي تنسيق بين الجيوش العربية، انسحب الجيش العراقي من المحاور التي كان يربط فيها، بحجة انسحاب القوات الأردنية من المواقع القريبة من اللد - والرملة، وقدم طه الهاشمي، أحد رجال العراق السياسيين والعسكريين، ما قامت به الجيوش العربية في فلسطين بقوله:

”إن القوات العربية لم تحارب، بالمعني الصحيح، حتى يقال إنها خسرت المعركة... وإذا كانت النتيجة بعد القتال الذي جري بين العرب واليهود، أن هؤلاء نجحوا في تأسيس دولتهم، فإن مرد ذلك، في نظري، إلى أسباب سياسية، ولأسباب عسكرية. وعلى الرغم من أن الجيوش

العربية لم تشترك في قتال في فلسطين بقوات كافية، فإنها لو استخدمت في الأغراض العسكرية البحتة، من دون أن تصبح الأغراض السياسية هي المسيطرة، لكانت تلك القوات، على قلتها، حالت دون تأسيس تلك الدولة.

العراق يوقف ضخ النفط إلى ميناء حيفا :

أصر العراق علي إيقاف النفط إلى ميناء حيفا الفلسطيني الذي وقع تحت السيطرة الصهيونية،

أما الحكومة البريطانية فقد طلبت من الحكومة العراقية تنفيذ بعض النقاط، وهي:

١- عدم إرسال قطعات عسكرية عراقية إلى فلسطين، أو تشجيع الحكومات العربية على أن تفعل الشيء نفسه.

٢- عدم التشجيع علي تشكيل حكومة فلسطينية، تحت قيادة مفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني، أو أي شخص آخر.

٣- عدم تشجيع المتطوعين العرب للوصول إلى فلسطين، قبل ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨.

٤- عدم إيقاف ضخ النفط العراقي إلى مصفاة حيفا.

٥- مواصلة الجهود الدبلوماسية لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية.

غير أن الحكومة العراقية التزمت بهذه الإرشادات خلال شهري نوفمبر/ تشرين الثاني، وديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧، ويناير/ كانون الثاني من عام ١٩٤٨.

القوات الصهيونية تهاجم وتحتل المدن الفلسطينية:

إن الأحداث المتسارعة في فلسطين وقيام الهاغاناه وبقية القوات الصهيونية بالهجوم على المدن الفلسطينية، في نيسان/ أبريل ١٩٤٨. واحتلالها لأغلب المدن العربية ومنها طبرية، وحيفا، وصفد، ويافا، وبيسان، وإبعاد العرب منها، بطريقة وحشية، كمذبحة دير ياسين استفزت المشاعر العربية بشكل كبير، وولدت سخطاً كبيراً ضد الصهاينة، مما أجبر القادة العرب على إرسال جيوشهم إلى فلسطين، بهدف امتصاص النقمة الشعبية الغاضبة.

تغيير القائد العام للجيش العربية:

لم يمثل اللواء إسماعيل صفوت لأوامر الملك عبد الله. خلال الأسبوع الأول من مايو/ أيار، ولم يظهر اللواء إسماعيل أي تعاون مع الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق والملك عبد الله، لذلك لم يعين بصفة رئيس أركان القوات العربية. وصدر قرارٌ بتعيين ضابط عراقي آخر، هو اللواء نور الدين محمود، وأيدت اللجنة السياسية في الجامعة العربية تعيينه، وجاء القرار مشفوعاً بموافقة الوصي والملك عبد الله. وبذلك ضربا عصفورين بحجرٍ واحدٍ، إذ حال ذلك دون تدخل اللواء صفوت أو الفريق صالح الجبوري رئيس الأركان العراقي في شؤونهما. وقد وصف الآخر في كثير من التقارير البريطانية: بأنه " واحدٌ من أعداء بريطانيا في العراق ".

الملك عبد الله لا يرغب في ذهاب القطعات العراقية:

أضيف التغيير في خطة الهجوم الأصلية، التي كان يعتقد بأنها

ستحرز النصر، وفق تعليمات الملك عبد الله، الذي لم يكن يرغب بذهاب القطعات العراقية، إلى ما وراء المناطق التي عينتها الأمم المتحدة للعرب، وفق قرار التقسيم.. وقال الفريق الجبوري إن المعارك كانت تسير وفق خطط الملك عبد الله، التي لا تطابق الخطة الأصلية.

القوات العراقية تغادر فلسطين:

في ١٦ أبريل/ نيسان ١٩٤٩ غادرت القوات العراقية فلسطين، وكان تعدادها ثمانية عشر ألف مقاتل بعد أن قررت الحكومة العراقية سحب هذه القوات بسرعة. وكان الضباط العراقيون الشباب متأكدين من تصرف بعض ملوك المنطقة بسوء نية في فلسطين، وأن العرب قادرون علي كسب الحرب، وأن غدر السياسيين العرب كان السبب الرئيسي في خسارة فلسطين، فقد لوحظ أن الجيوش العربية علي رغم قتلها وقلة استعدادها وتسليحها، نجحت خلال الأيام الأولى للحرب في السيطرة على أقسام كبيرة من الأراضي الفلسطينية.

الخبراء العسكريون يعارضون استخدام القوة:

أما عن الإجراءات العسكرية التمهيدية التي بادرت بها الحكومة العراقية، فقد بدأت بإرسال وفد عسكري في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، برئاسة اللواء الركن نور الدين محمود، إلى شرقي الأردن، للتباحث في أمور عسكرية تخص البلدين، وحين عاد الوفد قدم تقريراً، أوضح فيه بأن الأمر سيكون في غاية العسر والشدة، وأن الوفد يعارض استخدام القوة.

إصدار الأوامر لتحرك القوة العراقية:

رغم ذلك، وحسب تطور الموقف، فقد صدرت الأوامر إلى " القوة

الآلية ” وغادرت بغداد، في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٨، للتجمع في شرقي الأردن (المفرق).

وفي ١٩٤٨/٥/٦، صدرت الأوامر، بتشكيل جحفل اللواء الأول. الذي وصل إلى المفرق ظهر يوم ١٩٤٨/٥/١٤. فعسكر في العراق، شمال الطريق العام، متخذًا تدابير الحماية الأرضية والجوية، كما هبطت يوم ١٢ من أيار/ مايو، طائرات القوة الجوية العراقية في مطار ” المفرق ”.

أرض المعركة:

تمر الحدود الأردنية - الفلسطينية بين بحيرة طبرية والبحر الميت، بصفة عامة، في وسط نهر الأردن، حين تقترب من بحيرة طبرية، وعندئذ تسير شرقًا إلى العدسية، ثم إلى نهر اليرموك.

يحيط بنهر الأردن وادٍ عميق ينخفض مئات الأمتار، تحت سطح البحر. وتقع على جانبيه سلسلة من الجبال العالية المنحدرة بشدة، وخاصة جهة فلسطين نحو الوادي. أما السفح الغربي للسلسلة، فينحدر ببطء، ويصلح لسير العربات، وفيه شبكة جيدة من الطرق. أما في شرق الأردن، فتمر طريق واحدة من الشرق إلى الغرب، وعندما تقترب الطريق من وادي الأردن، وتسير إلى منطقة المضيق شرقي النهر، تسيطر عليها الجبال الواقعة غربي الأردن.

أما مياه النهر في ذلك الموسم، فكان ارتفاعها، يقارب القدمين ونصفًا، ويجتاز الطريق العام النهر علي جسر حديدي، هو ” جسر المجامع ”.

مشروع الكهرباء "مشروع روتنبرغ" :

في هذه المنطقة يقع مشروع الكهرباء (مشروع روتنبرغ) لإمداد المستعمرات بالكهرباء والمياه، وهو مبني في أراضٍ أردنية، تقع عند ملتقى نهر الأردن باليرموك، وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: (ريجانبا - A)، قبل سمنح، عند مخرج نهر الأردن من بحيرة طبرية، وعليه مغالق حديد فولاذية، وآلات رافعة لرفع السد وإغلاقه، عند اللزوم.

الباب الثاني: على الطريق الغربي الغربي "أجدوت" ويوجد مغالق فولاذي، أصغر من الأول لقياس المياه.

الباب الثالث: عند مدخل الشريعة، على سد اليرموك، وعليه جسر حديدي، وجسر الطريق الرئيسي، ويفتح عند اللزوم فحسب، لاستكمال مياه الخزان.

يقع الخزان في الناحية الشمالية وجدرانه من الأسمنت المسلح، ويوجد على مخرج الخزان جسر "نهر ايم" الواقع على الطريق الرئيسي (بيسان - سمنح)، ويمر بجانبه خط السكة الحديد، وتمر القناة من تحته بانحدار تدريجي، فتصل إلى المنحدر الرئيسي لمحطة التوليد - تلك المحطة التي تديرها محركات كبيرة - ويوجد إلى جوار المشروع مطار فرعي، محاط بأسلاك شائكة.

وفي غربي نهر الأردن توجد نقطة دفاعية أنشأها الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، عرفت باسم خط إيدن، حيث اعتبر نهر الأردن

مانعًا في وجه الدبابات، وكان المقصد من إنشاء الخط تجهيز مواقع دفاعية لإيقاف الزحف النازي، الذي كان منتظرًا فيما بين عام ١٩٤١ و١٩٤٣.

منطقة (غيشر) الدفاعية:

تألفت منطقة " غيشر " الدفاعية من حصن كبير مربع تقريباً طول ضلعه نحو ٢٠٠ متر، وقد بني بالأسمنت المسلح، ولا يقل سمك الجدار عن المترين، لتخزين السلاح والذخيرة، والاحتماء فيه من القصف الجوي، وأحاطت بالحصن ثلاثة خطوط من الأسلاك الشائكة، وقدمت رجال الهاغاناه فيما بينهما عددًا من الألغام المضادة للأفراد وللدبابات.

أما أبواب الحصن فهي من صفائح فولاذية، سمكها نحو ٣ - ٤ سم. وعلى التلال، خارج الحصن، مسافة من ١ - ٨ كم ثمة دشم مبنية بالأسمنت المسلح، بارتفاع قليل عن الأرض، بها رشاشات وهاونات، وقد أخفيت بزرع الحشائش، فوقها وحولها، وأشرفت تلك الدشم على ميادين واسعة، لضرب النار، وتحكمت تمامًا بالأرض والمحيطه بها، وتعاونت فيما بينها بخنادق عميقة تصل بين بعضها البعض.

وكانت تشوينات العدو من الطعام، والأسلحة، والذخائر، في الحصن تيكفي للقتال لمدة شهر ونصف.

مجل الخطة العراقية:

قررت القيادة العامة، بعد الاستطلاع، أن تقوم القوات العراقية، بعبور نهر الأردن من منطقة المجامع (في مواجهة بيسان)، في عملية

متنقلة، وأن يتقدم رتلٌ أردنيٌّ من جسر الشيخ نحو (بيارة)، لمساندة القوة العراقية، في تقدمها من جسر الجامع.

وكان هدف الخطة:

- احتلال منطقة مشروع روتنبرغ (لتوليد الكهرباء والمياه).
- عبور نهر الأردن وإنشاء رأس جسر.
- تطويق قرية (غيشر)، واحتلال المواقع على التلال، لإخضاع القوات الصهيونية المقاتلة في القرية.
- تطويق حصن غيشر، والانقضاض عليه.

الأردن أنذر العمال اليهود بمغادرة "مشروع روتنبرغ" خلال ٤ ساعات:

في الساعة الثانية بعد الظهر يوم ١١ أيار/ مايو ١٩٤٨، تقدم متصرف إربد الأردني بهجت باشا طيارة، وقائد المنطقة نديم السمان، فأنذرا اليهود العاملين في محطة توليد كهرباء (مشروع روتنبرغ) بمغادرة المكان، باعتباره يقع في أراض أردنية خلال ٤ ساعات، وسمحا لهم بإبقاء الموظفين والعمال اللازمين لإدارة المشروع فحسب، على أن يكونوا غير مسلحين، وهدداهم بالاحتلال العسكري للمشروع، وإيقافه عن العمل، في حالة عدم الموافقة. وبعد مداولات استمرت نحو ساعتين رضي اليهود بالشروط المفروضة، وغادر المسلحون من " الهاغاناه " مشروع روتنبرغ، ورحلوا مع أسلحتهم إلى مستعمرة " غيشر " غرب نهر الأردن، بينما بقي أربعون صهيونيًّا غير مسلحين في المشروع لإدارته.

القوات العراقية تعتقل أفراد المشروع:

تحركت القوة الآلية العراقية من " المفرق " في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ١٤/٥، على طريق " إربد - وادي عربة "، وعندما وصلت مقدمتها إلى مخفر شرطة الجامع، دخلت سرية مشاة آلية منطقة مشروع روتنبرغ، واعتقلت الصهاينة الأربعين.

أمر القوات العراقية وجه إنذاراً إلى الصهاينة بحصن " غيشر " :

وقد قام أمر القوة الآلية العراقية بتوجيه إنذاراً إلى القوة الصهيونية، في حصن " غيشر " طالباً فيه باستسلام المسلحين المتحصنين في الحصن، مع أسلحتهم، وأعتدتهم، وأذر بدك الحصن بالقنابل إذا لم يجاب إلى طلبه.

القوات الصهيونية بالحصن تستعد لصد الهجوم العراقي وتنسف الجسور:

- وفي اليوم نفسه توافدت نجدات " الهاغاناه " إلى منطقة " غيشر "، وتسليح صهاينة المنطقة والمناطق المجاورة، واتخذوا الاستعدادات لمواجهة الهجوم العراقي المتوقع. ولكن يوم ١٤ أيار/ مايو انقضى دون اشتباك بين العراقيين والصهاينة، وبعد حلول الظلام نسفت فرق صهيونية الجسر التركي القديم بين " نهرايم "، ثم نسفت جسر روتنبرغ على نهر الأردن.

- وبعد منتصف الليل نسف الإسرائيليون جسر السكة الحديد على الأردن، وانقطعت جميع المواصلات التليفونية بين " غيشر " وباقي مستعمرات وادي الأردن.

الانتفاض على حصن " غيشر " :

- ١- اقتضت العوامل السياسية عدم القيام بأي عمل حتى الواحدة من صباح ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨.
 - ٢- لما كان الإسرائيليون يتوقعون تقدم القوات العراقية، كان من الطبيعي أن يقوموا بنسف الجسور، قبل وصولهم إليها. وهكذا فقد كان واضحاً أن فرصة عبور نهر الأردن ودخول فلسطين بسهولة من هذا الاتجاه (إربد - الجامع - غيشر) أمر غير ممكن.
 - ٣- كان واضحاً أيضاً، للأسباب المتقدمة، أن العدو لابد أن يفتح أبواب خزانات المياه في مشروع روتنبرغ أو ينسفها، ليرفع مستوى مياه النهر، فيمنع المجال لعبور القوات العراقية خوفاً.
 - ٤- لذا كان من الضروري إحضار مواد إقامة الكباري والجسور، حتى يمكن إقامة كوبري عسكري بسرعة، ولكن ذلك كان يتعارض مع مبدأ المفاجأة، لأن جلب هذه المواد مبكراً يفضح نية القيادة في التقدم من هذا المحور، بينما كانت القيادة العراقية تريد كتمان جهة التقدم.
- لهذا السبب نفسه " كتمان جهة التقدم " ظلت القوات العراقية معسكرة في المفرق حتى صباح ٥/١٤، إذ أن المفرق بمثابة عقدة مواصلات تلتقي فيها عدة طرق، وبإمكان القوات المحتشدة فيها أن تتقدم باتجاه الشمال، فتسلك الطريق التي تخترق القطر السوري، أو أن تتجه على طريق " إربد - جسر الجامع "، أو أن تتقدم على محور " عمان - جسر النبي " أو جسر دامية، فتدخل فلسطين.

اجتياز نهر الأردن:

انتخبت المخاضة القريبة من شركة النفط، جنوب جسر غيشر بحوالي ٤ كم، للعبور وفي الساعة الخامسة صباح ٥/١٥، بدأت سرية مشاه من الفوج الآلي وسرية مدرعات من كتيبة خالد، بعبور النهر الذي كان منسوب المياه فيه يرتفع تدريجيًا، نتيجة قيام العدو بنسف السدود.

سريق عبور المدرعات:

كانت المدرعات تعبر النهر بأن تُربط بحبلٍ أو سلكٍ طويل ويسحبها أحد الجرارات التابعة لشركة النفط من الجانب الآخر، بينما كان المشاة يعبرون خوضًا.

إنشاء رأس الجسر:

في خلال ساعتين أقامت سرية المشاة رأس جسر على التل الأحمر، جنوب غيشر غربي النهر، ونظرًا لوجود عدة طرق تتجه نحو الشمال إلى مستعمرة " غيشر " ونحو الغرب باتجاه بيسان، وإلى الجنوب نحو بيت يوسف، فلم يتمكن العدو من معرفة وجهة زحف وتقدم القوات العراقية.

بدء الاشتباك:

لم يتلق أمر القوة الآلية جوابًا من حسن غيشر على إنذاره حتى صباح ٥/١٥، وفي الخامسة والنصف بدأت القوة الآلية تفتح النار بأسلحة وهاونات الفوج الآلي، ورشاشات المدرعات، وقصف حصن غيشر بمواقع كتيبة الصحراء الثالثة (٢٥ رطلاً)، كما اشتركت القوة الجوية العراقية في القصف. بينما قام سربٌ آخر من الطائرات باستطلاع منطقة

جسر الجامع، والطرق المؤدية إلى غيشر.

خسائر العدو:

دمر قصف المدفعية والهاونات بعض مزاغل (المزغل ثغرة صغيرة في الحصن، يطلق فيها النيران من رشاشات أو بنادق تكون داخل الحصن) وجناحاً صغيراً، إدعى الصهاينة في بلاغهم بأنه الجناح المعد للعمليات الجراحية والإسعاف.

العدو يروج:

قام العدو بفتح نيرانه على القوات العراقية، ومدركاتها، الموجودة في مشروع روتنبرغ وتلك التي كانت تعمل بجوار مخفر شرطة الجامع.

تطور القتال يوم ١٦ مايو:

١- شنت القوات العراقية صباح ١٦ أيار/ مايو هجماتها على حصن " غيشر " من اتجاهين^(١).

الاتجاه الأول: من غربي الأردن جنوب المستعمرة، حيث عبرت يوم ٥/١٥ سرية مشاة من الفوج الآلي وتمركزت في التل الأحمر. وكذلك عبرت معها سرية مدرعات، ثم عبر الفوج الثاني من اللواء الأول ليلة ١٦/٥/١٩٤٨.

الاتجاه الثاني: جهة مخفر شرطة " الجمرك - المنشية " يمين ويسار طريق إربد - غيشر العام، حيث كانت باقي وحدات القوة الآلية.

(١) محمد فيصل عبد المنعم، أسرار ١٩٤٨، دار الهنا للطباعة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١١٧.

٢- في الرابعة فجر يوم ١٦ أيار/ مايو تقدم الفوج الثاني من اللواء الأول منتشراً في منطقة عبوره مع سرية مدرعات، تقدم نحو الشمال باتجاه قلعة غيشر من غربي الأردن، واستطاع الاقتراب منها إلى ٨٠٠ متر تقريباً، حيث توقفت السريتان الأماميتان من نيران الرشاشات والهاونات المعادية، وانفجار بعض الألغام، ورغم استخدام نيران المدفعية (٢٥ رطلاً) من ضفة الأردن والشرقية، فإن السرايا لم تستطع التقدم إلا لمسافة ضئيلة، حيث لم تؤثر نيران المدفعية على استحكامات ومواقع العدو والحصن.

احتلال محطة غيشر والهضاب الغربية:

١- استخدم أمر الفوج الثاني السرية الاحتياط باتجاه محطة قطار غيشر، لتي كانت السرية اليمنى قد تمكنت من احتلال التلال المشرفة عليها، وعلى قرية الجامع المجاورة للمحطة.

٢- بعد قتال دام ثلاث ساعات، استبسل فيه أمر السرية الثانية نهاد شاكر، ووكيل أمر الفصيلة الرابعة، العريف سلمان عبود، الذي جرح مع عدد من جنوده في هذا القتال، استطاعت السرية احتلال محطة قطار غيشر في الثانية بعد ظهر ١٦/٥.

٣- أما السرية الثالثة من الفوج الثاني، فقد كانت تتقدم من اليسار، واستطاعت باستخدام نيرانها والأسلحة المساعدة من الفوج والمدرعات، أن تحتل التلال (تل باب المنظار) شمال غرب الحصن بمسافة ٦٠٠ متر.

وقد قوبلت هذه السرية، بنيرانٍ كثيفةٍ جدًّا، من العدو مما تعذر معه، تمامًا، على المجاهدين اختراق هذا السد الناري الكثيف. وقد تكبدت السرية خسائر فادحة مما اضطرها إلى التوقف، والاحتفاظ بالتلال.

محاصرة قرية وحصن غيشر:

حتى عصر ٥/١٦ لم يستسلم حصن غيشر، وكان المعتقد أن حامية الحصن قد تكبدت خسائر فادحة، فأصدرت القيادة العراقية أمراً في الرابعة والنصف، بمحاصرة قرية غيشر " من جميع جهاتها، لمنع العدو من الهرب أو وصول نجدات إليه.

مهاجمة تلّال وحصن غيشر:

١- عقد وكيل قائد القوات العراقية، الزعيم طاهر الزبيري، مؤتمرًا ليليًا في قصر القيادة، في وادي عربة ليلة ١٦ - ١٧ أيار/ مايو، حضره العقيد الركن نجيب الربيعي، آمر الجحفل الأول، وبعض القادة الآخرين، للبحث في القتال الذي جري يوم ١٦ أيار/ مايو، وتبادل الرأي بخصوص يوم ١٧ أيار/ مايو، وانتهى المؤتمر منتصف الليل، بقرار استئناف الهجوم صباح اليوم التالي، على قرية غيشر بجحفل اللواء الأول، وتحت قيادته سرية ومدركات، مع طلب قصف مستعمرات: كوك - بيسان - بيت يوسف، بالطيران بقنابل خفيفة ومتوسطة.

في السادسة من صباح يوم ١٧/٥ بدأ الفوج الأول من اللواء ١٥ بالتقدم إلى المخاضة، ثم بدأ بالعبور من المنشية. وفي العاشرة بدأ التقدم منتشرًا نحو الشمال، كما بدأ العدو في قصف الفوج بقنابل الهاون وبالطيران، وقد جرح آمر الفوج الثاني، المقدم رفيق أحمد، وضابط الإسناد الملازم كاظم عبد الكريم، كما أصيب آمر سرية الإسناد الرئيس أول نافع سيد احمد.

في هذا الوقت كان ملك الأردن عبد الله، والوصي على العرش العراقي الأمير عبد الإله، قد حضرا مع عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية، وبعض ضباط القيادة العامة إلى شرق نهر الأردن للاطلاع على القتال الدائر.

يقول اللواء الركن خليل سعيد - وكان من حضور هذه المعركة - بالحرف الواحد " ويظهر أنه قد راق لهم (يقصد الملك عبد الله والأمير

عبد الله ومرافقيهم) تسلق الضباط والجنود للتلال في غربي الأردن، واحتلالهم لبعض السفوح والقمم الواقعة غرب الطريق، واعتقدوا أن الفرصة سانحة لاحتلال قرية كوكب الهوي الموجودة أعلا المنطقة".

وعلى ذلك فقد صدرت الأوامر بجهاز لاسلكي القيادة العراقية (من الضفة الغربية)، إلى أمر الفوج الأول من اللواء ١٥، المقدم الركن عادل أحمد راغب، بأن القائد الأعلى للجيش يطلب توجيه سرية من اللواء نحو قرية كوكب الهوى واحتلالها.

اعترض أمر الفوج مبيناً الصعوبة في تنفيذ هذا الأمر، إلا أن تأكيد القيادة عليه أدى إلى أن يصدر أمره لواحدة من سرياته بالتوجه إلى القرية المذكورة لتحتل البساتين والقرية نفسها، بينما استمر الفوج (عدا السرية التي أرسلت) في التقدم نحو الشمال حسب الخطة الأصلية.

تعزيز الهجوم على كوكب الهوى:

ما أن حانت الساعة الثانية بعد الظهر، حتى كانت السرية المذكورة قد اضطرت إلى التوقف، نتيجة وعورة المنطقة وشدة نيران العدو. فعززها الفوج بسرية أخرى بقيادة الرئيس الأول طالب جاسم العزاوي، التي تسلقت المرتفعات، بكل حماس حتى وصلت إلى حافة البساتين، وأطلقت في عصر اليوم نفسه، إشارة احتلال الهدف وطلبت إرسال المياه والتعيينات، في حين تبين فيما بعد أنها لم تكن قد أتمت احتلال الهدف.

هجوم المدرعات على حصن غيشر:

في حوالى الخامسة عصر يوم ١٧ أيار/ مايو كان ضباط المدرعات

على أجهزتهم اللاسلكية يتلقون أمراً مباشراً من مقر القيادة، على نفس الطريقة السابقة في تعديل الخطة، بأن القائد الأعلى للجيش العراقي يطلب القيام بالهجوم على قلعة غيشر واحتلالها، وأن تكون السريتان تحت قيادة أقدم ضابط فيهما.

معركة الليل:

عند حلول الظلام كانت المدرعات تتقدم بحذر، السرية الأولى في اليمين والثانية في اليسار، وتحت قيادة الضابط الأقدم بالسريتين، الرئيس الأول طاهر يحيى.

تقدمت المدرعات في نظام حربي دقيق على الحصن، وكانت في زحفها تشبه نقل الأحجار من رقعة الشطرنج (كما جاء في مذكرات صهيوني أسير في معارك وادي الأردن).

وانصبت على السريتين نيران العدو المتحصن في القلعة، فأجابتها المدرعات بنيران الرشاشات الخفيفة والثقيلة لإسكاتها. واندفعت السريتان بجرأة بالغة نحو القلعة، يتسابق أفرادها لنيل شرف السبق في الجهاد، وعلى مسافة ٥٠٠ متر من القلعة، بدأت المدرعات تقليل من سرعتها لوعورة الأرض، ثم أخذت المسافة تتناقص تدريجياً حتى بلغت ٢٥٠ متراً، وأصبحت إحدى المدرعات بلغم واضطر طاقمها إلى تركها. ورغم شدة النيران كان المدرعات استطاعت الإحاطة بالقلعة من جهتين، حتى أصبحت على مسافة لا تزيد عن ١٠٠ متر من إحدى الجهات، بينما تناقصت المسافة إلى حوالي ٧٠ متراً من الجهة الأخرى.

صب العدو أشد ما أمكنه من النيران على المدرعات. وفي المساء أصيب الرئيس يحيى عكاشة بطلق ناري في رأسه، وبعد نصف ساعة أصيب الرئيس الأول طاهر يحيى.

بينما قام الرئيس صفاء محمود، أقدم ضابط في السريتين، بإبلاغ القيادة بأنه سيحاول فتح باب القلعة مهما كلفه الأمر.

المدرعات العراقية تتحدى القلعة :

هكذا وقفت المدرعات أمام حصن غيشر متحدية عنيدة، كأنها النمر المتحفزة للانقضاض على فريستها. وكان يسمع من قرع الرصاص على الدروع قرقرة شديدة متواصلة. بينما واصلت المدرعات الرمي برشاشاتها على القلعة.

وبدأ القتال القريب بالقنابل اليدوية :

استمر التضيق على الحصن باستمرار حول الظلام، واقتربت المشاة والمدرعات أكثر، وبدأ القتال بالقنابل اليدوية، واستطاعت المفارز الأمامية للفوج الثاني من اللواء الأول، الوصول قبل منتصف الليل إلى أبنية مستعمرة غيشر، وتطلب الموقف نفس الأسلاك الشائكة والسياح المحيط بالقلعة، تمهيداً لنسف الباب.

عمل بطولي :

تبرع لهذا الواجب الخطير نائب العريف محمد عبد الله، وسائق المدرعة، ونائب العريف شهاب أحمد، من مدرعات خالد. وانقضا بمدرعتهما، ورصاص العدو ينهمر عليهما، في الحادية عشر والرابع

مساءً، وفتحا النار على سياج القلعة والأرض المحيطة بها، لتفجير ما يحتمل وجوده من ألغام، ثم اقتحما بمدرعتهما سياج الأسلاك الشائكة، وانطلقا إلى الأمام نحو باب الساحة الداخلية للقلعة من ناحيتها الجنوبية والشرقية المواجهة للأردن.

عندما أصبحت المدرعة ملاصقة للباب، لم يعد بإمكان الصهاينة إطلاق النار عليها من نوافذ الحصن، لشدة النيران الساترة من جهة، ولأن الأسلحة المضادة للدبابات لا يمكن استخدامها من زاوية حادة من نوافذ الحصن من جهة أخرى. وإزاء هذا الوضع، فقد استعد اثنان من جنود الحصن يحملان قنابل مولوتوف المحرقة، لاستقبال المدرعة عند اقتحامها الباب الحديدي للحصن.

الدبابات تحاول كسر باب الحصن:

حاولت المدرعة أن تفتح الباب بالنيران فعجزت. وأخيراً توصلت المدرعة لوسيلة اتسمت بالمجازفة والجرأة والشجاعة، فقد تراجعت قليلاً إلى الوراء، وبسرعة جنونية تقدمت ونطحت الباب الحديد بصدمة عنيفة لكن الباب صمد للصدمة ولم ينكسر. وتعطلت المدرعة نتيجة النيران والأسلاك الشائكة والألغام، وهي تبعد أقل من ٣٠ مترًا من الباب. وكان لابد من سحب المدرعة وإنقاذ طاقمها، فتطوع الجندي أول (قرياقور عبد الله) ونزل من مدرعته، وربط سلك السحب، رغم رهبة الموقف تحت النار، حتى أتم واجبه، وسحب المدرعة العاطلة نحو ٤٠ مترًا، حتى استقرت خلف الأبنية.

المعركة تستمر:

استمرت المعركة الليلية، وكانت نيران الرشاشات، والهاونات، والقنابل اليدوية، تنهمر من الجانبين، حتى انقضى في حوالى الثالثة بعد منتصف ليلة ١٧ - ١٨ أيار/ مايو نائب العريف عبد الرازق عبد الله، ونائب العريف عبد الله حسن، على باب الحصن وفي منطقة كانت مضروبة بالنيران الكاسحة، فوضعا البارود تحت الباب الحديد وأشعلا الفتيل ثم عادا، وصعدا إلى المدرعة، التي لم تكد تنسحب قليلاً إلى الخلف حتى انفجر البارود، وتم نسف جزئي لباب القلعة، أسفر عن ثغرة في الباب.

حينئذ عاد الصهيونيون حاملين القنابل المولوتوف، وربضاً بجوار الثغرة المفتوحة في الباب، واقتربت المدرعة العراقية من الباب ثانية، فالتقيا عليها قنابل المولوتوف، واندلعت النار في المدرعة. فحملها ذلك على العدول عن اقتحام المدخل، وانسحبت والنار مشتعلة فيها، بينما المدرعات الأخرى تسترها بإطلاق النيران على القلعة.

القائد الصهيوني يتفقد حالة الحصن:

عندما تفقد أمر منطقة غيشر الإسرائيلي حامية الحصن ليلاً، وجد رجالها لا يستطيعون حراكاً من شدة التعب والإعياء، ووجد القلعة قد كثرت فيها الثغرات، وشاهد عند السياج أربع مدرعات تجثم بدون حراك، بينما راحت بعض المدرعات الأخرى تستر على بعد ٩٠ متراً، محاولة جر المدرعات المعطلة.

المؤتمر الليلي وخطة الغارة على بيت يوسف:

عقد في مؤتمر القيادة العراقية ليلة ١٧ - ١٨ أيار/ مايو، مؤتمرًا عن أعمال وواجبات اليوم التالي، وبالنظر لورود برقية أمر الفوج الأول من اللواء ١٥ في الثامنة والنصف مساء ٥/١٧، بإخلاء قرية كوكب الهوى، وطلب عدم قصفها بالطائرات، صباح يوم ٥/١٨، فقد جرى الاتفاق في المؤتمر على الإغارة على مستعمرة بيت يوسف بجحفل فوج من اللواء الأول، مع استمرار محاصرة حصن غيشر بالفوجين (ف٣ ل ١ - ف ١ ل ١٥) ودخوله عنوة.

ملخص الخطة:

تلخصت الخطة في أن يتقدم الفوج الأول من اللواء الأول بالسيارات، متخذًا تدابير الحماية بمساعدة المدرعات حتى نقطة الترجل (على بعد ١ كم من المستعمرة) حيث يتقدم الفوج مترجلاً لحرق المستعمرة وتدميرها والانسحاب.

في السادسة وأربعين دقيقة، قصفت القوات الجوية العراقية مستعمرة بيت يوسف حسب الخطة.

موقف كوكب الهوى:

اعتقدت سريتا الفوج الأول، في اللواء الخامس عشر - كما سبق الإشارة - أنهما احتلتا الهدف. وعندما اكتشفتا أنهما لم تحتلاه بعد، تقدمتا فجر ٥/١٨، عبر البساتين لدخول القرية، فانصببت عليهما نيران كثيفة فجأة، من أبنية القرية. ويبدو أن الصهاينة أحضروا نجدات إلى القرية ليلاً. ونتيجة للنيران الشديدة على

السرية، استشهد أمر السرية الرئيس أول طالب جاسم العزاوي وثلاثة وعشرون من الرتب الأخرى، كما جرح أربعون آخرون. وحوالي الساعة السادسة تفهقرت السرية بدون انتظام، عائدةً إلى أماكنها الأصلية.

العدول عن الغارة:

في الصباح الباكر اتضحت جسامة الخسائر التي تكبدتها القوات العراقية التي هاجمت كوكب الهوى، وخطورة موقفها، ما قد أجبر القيادة العراقية على أن تأمر بصرف النظر عن الإغارة على مستعمرة بيت يوسف، وتقرر وضع خطة جديدة لمهاجمة كوكب الهوى بقوة فوج، هجومًا مدبرًا.

تغيير محور الهجوم:

نظرًا لتطور الموقف العام، والمتمثل في رغبة الملك عبد الله في احتلال القدس القديمة بالجيش الأردني، فقد اتجهت النية إلى تكليف الجيش العراقي بالعمل في قطاع لواء السامرة - نابلس، وأقضيتهما (جنين وطولكرم)، على أن يظل محتفظًا بمحور " إربد - الجامع "، وبناء عليه، فقد صدرت تعليمات القيادة العراقية العامة، كالآتي:

- ١- تهيئة جحفل لواء مشاة، ليتحرك من بغداد إلى لواء السامرة الفلسطيني، ليصل بسرعة، قبل فرض الهدنة الدولية المحتملة.
- ٢- تحريك القوة الآلية، مع فوج مشاه إلى لواء السامرة، بسرعة فائقة.

٣- إبقاء جحفل اللواء الأول ناقصًا فوجًا في قطاع الجامع.

الملك عبد الله يقول ساحتل القدس غدًا وتل أبيب بعد أسبوع:

اجتمع الملك عبد الله، في ١٩ أيار/ مايو مع رئيس الجمهورية السورية، شكري القوتلي، في درعا على الحدود السورية الأردنية، وحضر الاجتماع كل من رئيس وزراء لبنان، رياض الصلح، ونظيره السوري، جميل مردم، والأمين العام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام، والأميرالاي سعد الدين صبور، رئيس هيئة الارتباط المصري في القيادة العامة بالزرقاء، وقد صرح الملك عبد الله في هذا الاجتماع: " ساحتل القدم غدًا وتل أبيب بعد أسبوع".

معركة جنين:

أخذ رتل " أسد " مسؤولية مدينة جنين، وبدأ في تنظيم دوريات استطلاع، للإغارة على خط زرعين - اللجون، في ٣٠ أيار/ مايو ١٩٤٨، أما القوات الإسرائيلية فقد وضعت الخطة على أساس احتلال جنين، وباشرت التجهيز ليلة ٣٠ - ٣١ أيار/ مايو لتنفيذ الخطة.

المعركة:

في العاشرة والنصف مساء الأول من حزيران/ يونيو، استطاعت القوات الإسرائيلية الالتفاف واحتلال أهدافها قبل فجر ٢ حزيران/ يونيو، أما القوة الإسرائيلية المتقدمة على الطريق العام، فقد لاقى مقاومة عنيفة حين صمدت سرية المشاة الآلية العراقية في التل رقم ١٥٢، ودار قتال عنيف تسبب في تأخير تنفيذ الخطة الإسرائيلية. ووقعت خسائر كثيرة في قوات العدو ومركباته طيلة يوم ٢ حزيران/ يونيو، ولكنه استمر في التقدم

فاضطرت سرية المشاة الآلية الثالثة أن تنسحب بعد الظلام من التل رقم ١٥٢، في الثامنة من مساء ٦/٢.

رتل أسد يتحصن في قلعة جنين:

بذلك التجأ رتل " أسد " إلى قلعة جنين، في القسم الغربية من البلدة، وأبرق أمر الرتل إلى القيادة بأنه اضطر إلى قبول الحصار في قلعة جنين، في مواجهة قوات تفوقه بثلاثة أضعاف، وأن لديه موارد إعاشة تكفيه ثلاثة أيام، وطلب إرسال نجدات وقصف القوات المعادية بالطيران.

تبادل الترشق بالمدفعية:

استطاع العدو دخول بلدة جنين ببعض قواته ليلة ٢ - ٣ يونيو/ حزيران، وقام بنسف بعض المباني، في حين اضطر الكثير من الأهالي إلى ترك بيوتهم والالتجاء إلى القلعة تحت حماية القوة العراقية.

بينما استمرت هاونات ورشاشات العدو في قصف القلعة فضلاً عن إغارات الطيران ليلة ٢ - ٣ ويوم ٣ حزيران/ يونيو، فتكبد رتل أسد بعض الخسائر، حيث استشهد الملازم أول عبد اللطيف مسيري وبعض الجنود، وتعطلت ٣ مدافع (٣٧ بوصة).

القوات العراقية تقرر الهجوم المضاد لاستعادة جنين:

- ١- قررت القيادة العراقية شن هجوم مضاد لاستعادة جنين، وبناءً عليه أصدرت القيادة تعليماتها إلى بعض القوات للتحرك إلى جنين في سبيل طرد العدو من البلدة، ومن منطقة الفوج الأول المحاصر بالقلعة.
- ٢- وصلت قيادة الجحفل الرابع إلى المنطقة، وكان الفوج الثاني قد

تشكل للقتال، واشتبك مع العدو على التلال المشرفة على مدخل المضيق المؤدي إلى جنين، وعند الظهر أرسل الفوج الثاني برقية يقول فيها " نحن على الجبال، نحتاج إلى المدرعات على الطريق لستر الجناح الأيمن ."

أمر القوات المحاصرة بالقلعة يطلب معاونة المدفعية :

في الحادية عشرة والنصف، طلب أمر الفوج الأول بالقلعة معاونة المدفعية، لأن العدو أخذ يقصف مواقعه بالهاونات بشدة. وبعد أن حدد مكان هاونات العدو، قامت بطارية مدفعية (٢٥ رطلا) باقتحامها تماماً.

العدو يتكبد خسائر فادحة :

صب الفوج الثاني نيران هاوناته على العدو بشدة، ومن رسائل العدو اللاسلكية، التي تم التنصت عليها، قدرت خسائر العدو حتى الظهر، باثنين وأربعين قتيلًا وثمانية وأربعين جريحًا، وقد قدرت قوات العدو في هذه المعركة بنحو أربعة آلاف مقاتل.

واستمر القتال بعد الظهر، بالعنف والشدة نفسها، وقام الفوج الثاني، بعد ظهر اليوم نفسه، بهجوم على العدو، بمعاونة بطارية مدفعية (٢٥ رطلا)، وذلك بقصف العدو على السفوح المحيطة بالبلدة. واستمر الهجوم نحو ساعتين، وتم استخدام نيران جميع مدافع الهاون وبطارية ٢٥ رطلاً على خنادق العدو، فأصيبت مواقعه بإصابات مباشرة، بعدد هائل من قتابل المدفعية والهاون، واضطرت بعض وحداته للانسحاب، إلا أنه دفع بوحدات جديدة إلى الجبهة.

الموقف بعد ظهر يوم ٦/٣ :

في الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، أرسل الجحفل الرابع تقريرًا بالموقف:

- ١- احتلت وحداتنا الوادي والقمم المسيطرة على جنين، ولم يبق أحد من العدو في تلك التلال.
- ٢- بسبب تعب وحداتنا تقرر أن يعسكر كلٌّ في مواقعه التي احتلها.
- ٣- خسائرنا طفيفة، وخسائر العدو تقدر بأكثر من مائة قتيل، وأكثر من سبعين جريحًا.
- ٤- استمر القتال ليلاً حتى الساعة الحادية عشرة بنيران الهاونات والأسلحة الخفيفة، وتقرر قيام الفوج الثاني من اللواء الخامس فجر يوم ٦/٤ بالإجهاز على آخر مقاومة للعدو في (التل الأجرد).

هجوم الفجر:

- ١- قام الفوج الثاني، في الثانية والنصف ليلة ٦/٣ بهجوم على (التل الأجرد)، بمعاونة مدافع الهاون، فتمكن من احتلاله، في الثالثة وبذلك انهارت آخر مقاومة للعدو، وقد اشتركت بطارية المدفعية في تعقب العدو بنيرانها.
- ٢- اشترك الفوج الآلي برشاشاته في الرمي على العدو، فانقلب انسحاب العدو إلى هزيمة ساحقة، تاركًا وراءه أسلحته وقتلاه، وكانت إصابات القنابل على مواضع هاونات العدو ورشاشاته

الثقيلة إصابات مباشرة. وتساقط عدد كبير من العدو قتلى في هذا الانسحاب.

٣- وهكذا تم في الساعة الثالثة من صباح يوم ٦/٤ الاستيلاء على التلّول، وفك الحصار عن الفوج الآلي في قلعة جنين.

خسائر العدو:

قدرت خسائر العدو بـ ٢٠٠ قتيل، وعدد كبير من الجرحى، الذين ظل العدو ينقلهم طوال الليل (حوالي ١٥٠ جريحاً).

كما استولى الفوج الثاني على ١٥ بندقية (برتو)، و٣ مدافع هاون (٣ بوصة)، ومدفع هاون (٢ بوصة)، و٢ قاذفات (بيات)، و٢٤ قنبلة يدوية، و٣ رشاشات خفيفة، ورشاش برن، و٤ أجهزة لاسلكي. علاوة على كمية كبيرة من ذخيرة الهاونات والطلقات وأدوات الحفر.

خسائر الجانب العراقي:

٥ شهداء و٢٥ جريحاً من الجحفل الرابع، و١٣ شهيداً و٢٢ جريحاً من الفوج الآلي.

صد الهجوم المضاد:

قام العدو، في منتصف ليلة ٤ - ٥ حزيران/يونيو بهجوم مضاد، مستخدماً فيه المشاة بأعداد كبيرة، تعاونهم نيران الهاونات والرشاشات في محاولة للوصول خلف أجنحة الوحدات العراقية، من الشرق والغرب. ولكن الجحفل الرابع صب نيرانه وأحبط الهجوم المعادي، كما استخدمت نيران المدفعية للنجدة، مما اضطر العدو إلى الارتداد فجر ٥ - ٦

حزيران/ يونيو إلى مواضعه في التل رقم ١٥٢، وكانت خسائره جسيمة. فقد عثرت المدرعات العراقية، عندما كانت تقوم بدورياتها، في اليوم التالي، على ٣٦ من جثث الأعداء قريبة من الجسر على الطريق العام.

دور القوة الجوية العراقية :

١- قصفت قلعة غيشر يوم ٥/٢٤ بالقنابل الثقيلة.

٢- قصفت مستعمرة أشدوت يعقوب في ٥/٢٤ وأحدثت بها خسائر فادحة.

٣- قامت في ٢٧ - ٢٨ أيار/ مايو بقصف مستعمرة بونا، وتجمعات العدو على الطريق العام، الواقع شرقها. كما هاجمت أرتال العدو المتنقلة على طريق حاضرة - بن يهودا، وقصفت مستعمرة أبو شوشة بقنابل ثقيلة أحدثت فيها عدة حرائق وتدميرا شديدا.

٤- قصفت في ٢٩ - ٣٠ - ٣١ أيار/ مايو مستعمرة خلدة وأبو شوشة، واستطلعت منطقة نيهان، فقصفت الخيام والعربات على الطريق المؤدي إليها. وقصفت الاستحكامات والخنادق المحيطة بها. كما قصفت العفولة بقنابل محرقة، وهاجمت أربع عربات على الطريق، جنوبي العفولة، فأصابها إصابات مباشرة.

٥- اقتصررت في ١٩٤٨/٦/١ على قصف العفولة وهاجمت أرتال العدو والآلية ومدرعاته ودفاعاته الأرضية لمقاومة الطائرات، في منطقة العفولة - طولكرم وأصابها، ودعمت القوات في منطقة طولكرم.

٦- واقتصرت أعمال القوة الجوية على دوريات الاستطلاع، حتى هجوم يوم ١٠ يونيو/ حزيران في جميع القطاعات.

نتائج الحرب:

كانت نتائج الحرب الفلسطينية العربية عام ١٩٤٨ هي هزيمة العرب جميعاً، وتشريد الشعب الفلسطيني إلى خارج أرضه، وهي نتيجة يحملها العرب جميعاً لأنهم فشلوا في تحقيق النصر علي الصهاينة.

ومن أهم أسباب فشل العرب في هذه الحرب:

- ١- عدم إشراك السياسيين للقادة العسكريين في أي نقاش حول الحرب، مما جعل هؤلاء الآخرين في وضع غريب، فهم لم يطلعوا علي قرار دخول الحرب، إلا قبيل اندلاعها، ولم يتح لهم الوقت الكافي لاتخاذ الاستعدادات اللازمة لتعبئة القوات.
- ٢- ضحالة المعلومات المتوافرة في أجهزة قيادات الجيوش العربية عن القوات المعادية في الوقت الذي كان فيه الصهاينة يعرفون أموراً وأشياء كثيرة عن العرب.
- ٣- رجحان ميزان القوي لصالح (إسرائيل) رغم الكثرة السكانية العربية، وذلك بسبب تفهم الصهاينة الأعمق لمعنى الحرب ومتطلباتها. وإشراكهم كل القوى المتوافرة، وإعلانهم التعبئة العامة، في حين اقتصرَت الدول العربية علي زج جزء من قواتها ونسبة لا تذكر من سكانها.
- ٤- ضعف القدرة والخبرة العسكرية لدي القوات العربية، فبعضها كان حديث التشكيل، وبعضها كان بقيادة أجنبية، وكلها لم يسبق لها الاشتراك الفعلي في القتال. في حين توافرت للقوات

الإسرائيلية خبرات قتالية اكتسبها بعض قوادها وأفرادها من الحرب العالمية الثانية.

٥- افتقار العرب إلى قيادة عسكرية موحدة جادة قادرة علي التخطيط والتنسيق بين الجيوش والإشراف علي سير العمليات، مما أدي إلى إصدارها أوامر تفتقر إلى الدقة في تحديد الأهداف والمهام. بل لقد أدي تعدد القيادات وتضارب المصالح القطرية إلى تبديل القيادة قراراتها فجأة، خالقة فوضى وبلبلة بين القوات. في حين كانت القوات الإسرائيلية كلها، من نظامية وغير نظامية، ذات قيادة واحدة، أحكمت سيطرتها علي العمليات الحربية، ووجهتها وفق الخطة العامة.

٦- عجز الدول العربية عن استغلال فترات توقف القتال لتحسين أوضاع قواتها المسلحة، وتأمين السلاح والعتاد اللازمين كما فعلت (إسرائيل).

٧- قصور الدول العربية عن فهم استراتيجيات الدول العظمي المتحكمة في السياسة العالمية. واطمئنانها للوعود. وتقبلها المماطلات التي تقدمها. في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية العالمية قد حشدت كامل طاقاتها المحلية والدولية، لخدمة أهدافها الإستراتيجية بالتعاون مع الدول العظمي.

أخيرًا لقد توفرت مجموعة من العوامل مساعدة ومؤيدة للصهيونية، في حين لم يتوفر مثل هذه العوامل للدول العربية. بل يمكن القول إن

الدول العربية سعت إلى شراء السلاح من بعض الدول فلم يقبل طلبها. في حين استطاعت الصهيونية أن توفر السلاح والمال والرجال بمساعدة من الدول الاستعمارية، التي كانت تحتل الدول العربية.

إن هزيمة العرب في فلسطين أثرت على الجيوش العربية التي ذهبت للقتال من أجل قضيتنا القومية، ولكن الأنظمة العربية، في ذلك الوقت، كانت جزءاً من الاحتلال الذي أدار المعركة لصالح إسرائيل وهزيمة العرب.

لذلك عندما عادت الجيوش العربية من فلسطين، وهي مكسورة ومطعونة في كرامتها، فكر الضباط في القيام بثورة للتخلص من هذه الأنظمة. فكانت ثورة ١٩٥٢ في مصر، في ٢٣ يوليو/ تموز. وتبعها ثورة العراق، في ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨.

في عام ١٩٤٨ كانت بريطانيا تستعمر كلاً من مصر، والعراق. ولقد ضرب ضباط وجنود البلدين، رغم ضعف العتاد والأسلحة وندرتها، أروع الأمثلة لنكران الذات والتضحية بالروح، ولئن كان الجيش المصري غير معد للقتال، في ذلك الحين، فلم يكن الذنب ذنب هؤلاء الشباب الأبطال، الذين رووا بدمائهم أرض فلسطين الطاهرة، وآمنوا بالهدف وبعدالة القضية التي كانوا يقاتلون في سبيلها، وسارعوا إلى الجهاد، واستهانوا بالموت في سبيل أداء الواجب.

ولم يكن الوضع بالنسبة للجيش العراقي بأحسن حال، من شقيقه الجيش المصري، ورغم ذلك كان رجال الجيش العراقي البواسل على

أحر من الجمر لدخول فلسطين، وتخليص أشقائهم عرب فلسطين من الإرهاب الصهيوني، وإنقاذهم من المصير التعس الذي ينتظرهم علي أيدي الصهاينة.

لكن الاستعمار البريطاني جعل من الجيش العراقي جيشا غير مهيا للقتال، ويكفي أن نعرف أن الجيش العراقي، حتى عام ١٩٤٨ (عام دخول الحرب)، كان نصفه يستخدم الدواب والبغال للنقل! وحينما اشتبكت قواته، للمرة الأولى، مع القوات الإسرائيلية، فوجئت القوات العراقية بعدم معرفتها استخدام الأسلحة المضادة للدبابات، مما أدى إلى أن يشترك بعض الضباط العراقيين وصف الضباط مع الجيش الأردني، في تعلم استخدام القاذف المضاد للدبابات.

يقول اللواء الركن خليل سعيد: " لم تكن هناك لائحة حرب، ولا خطة تحرك في دائرة الأركان العراقية تعالج اشتراك الجيش العراقي في القتال في فلسطين ... ولم ترصد في ميزانيات ١٩٤٧ و ١٩٤٨ مبالغ غير اعتيادية للجيش، كما لم ترصد، عام ١٩٤٨، (ميزانية حرب) للنهوض بأعباء نفقات القتال".

المراجع والمصادر:

- الزمان - بغداد ١٥/٣/١٩٥٢.
محمد مهدي كبه، مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨ - ١٩٥٨، مطابع دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨، بغداد.
هيثم الكيلاني - الموسوعة الفلسطينية - المجلد الخامس، دراسات فلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٩٠.
محمد حمدي الجيفري، إنقلاب الوصي في العراق، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠.
خلدون ساطع الحصري، مذكرات طه الهاشمي ١٩٤٢ - ١٩٥٥ القضية الفلسطينية،

بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٨.

صالح صائب الجبوري، محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية، بغداد، دار الكتب، ١٩٧٠.

محمد فيصل عبد المنعم، أسرار ١٩٤٨، دار الهنا للطباعة، القاهرة، ١٩٦٨.

مذكرات يهودي أسير في معارك وادي الأردن، أسرار ١٩٤٨.

* * *

الفصل السابع:

الجيش الأردني في الحرب

ياسمين حلمي (العايري)

لعل من أهم المعايير العسكرية لدراسة الحروب، هي مضاهاة حجم القوة العسكرية للأطراف المتحاربة، مع الأخذ في الاعتبار تقدير كل طرف من الطرفين حسابات المكسب والخسارة في إدارة العمليات الحربية، قبل البدء في المواجهة العسكرية. فبدخول القوات العربية، ومن بينها الجيش الأردني في حرب ١٩٤٨، من أجل تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني، والذي أعلن قيام دولته، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، واجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في دمشق، لتقرر إرسال الجيوش العربية، في سبيل إنقاذ الشعب الفلسطيني، وعلى أن الملك عبد الله قائدًا عامًا للقوات العربية.

أولاً: تعداد وخطط الجيش الأردني بالمقارنة بالجيش الإسرائيلي

بالرجوع إلى ميزان القوة العسكرية، إبان الحرب، وذلك من خلال قياس حجم القوات الأردنية، ومقارنتها بحجم وقوات المنظمات الصهيونية، وكذلك الخطط العسكرية التي وضعها الطرفان، قبل بدء المعارك، وما تحقق منها. وعن نشأة الجيش الأردني، فترجع إلى عام ١٩٢٨، بدعم من القوات البريطانية، حيث تلقى الجيش الأردني تدريبات عسكرية، لذلك كان الجيش الأردني عند اندلاع الحرب، يعد من أفضل

الجيش العربية، فأغلبها يفتقر إلى الكفاءة القتالية في الحرب، وقاد الجيش الأردني الفريق جون باجوت جلوب، الضابط البريطاني.

عن الجيش الإسرائيلي، والذي كان يضم المنظمات الصهيونية (الهاغانة، الأرغون، شتيرن)، غير وحدات الشرطة اليهودية التي أنشأتها ودعمتها قوات الاحتلال البريطاني، وكان عددها، في عام ١٩٣٧، حوالي ٣٨٠٠ يهودي، ووصل تعدادهم إبان الحرب إلى ما يقرب من عشرين ألف، مكلفون بأعمال الحراسة على المستعمرات. غير أن نشأة المنظمات العسكرية الصهيونية، على رأسها " الهاغانة "، التي أنشئت عام ١٩٣٦، أي الفترة التي شهدت الثورة الفلسطينية، حينئذ، ثم انشأت منها منظمة

" الأرغون "، عام ١٩٣٧، وفي عام ١٩٤٠ انشقت مجموعة عسكرية عن الأرغون، سميت منظمة " شتيرن "، وكل منظمة منها كانت تمثل تشكيلاً عسكرياً قائماً بذاته. أما عن العنصر الثاني في الجيش الإسرائيلي، والذي كان يضم " الفيلق اليهودي " في الجيش البريطاني، كذلك العسكريين اليهود، والذين كانوا في أوطانهم الأصلية، مشاركين في الحرب العالمية الثانية، حيث منهم من خدم في الجيش الأمريكي، ومنهم من الجيش السوفييتي والبولندي وغيرها. ويرجع تأسيس " الفيلق اليهودي " في الجيش البريطاني إلى الحرب العالمية الأولى، حيث شارك مع القوات البريطانية في العديد من المعارك، إلى أن أعلن رئيس الوزراء البريطاني، ونستون تشرشل، في ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤، أن " الفيلق اليهودي أصبح تشكيلاً عسكرياً قائماً بذاته ". وكان لواء مشاة

تعداده ٥٥٠٠ مقاتل، ووصل " الفيلق اليهودي " إلى فلسطين في أواخر ١٩٤٧، ليحارب مع " الهاغاناة " ^(١).

حينما اندلعت الحرب، كان الجيش الأردني يضم ثلاثة ألوية، بقيادة جون باجوت جلوب، حيث ضم اللواء الأول، وكتائبه، ما يقرب من ٢٢٥٠ جندي، علاوة على اللواء الثالث، الذي ضم ٢٣٠٠ جندي، وكان اللواء الرابع عدد جنوده ٢٣٠٠، غير أن قيادة الفرقة، بكتائبها المدفعية، حوالي ٧٥٠ ضابطاً، وقد شارك المناضلون الأردنيون بحوالي ١٢٠٠ مقاتل ^(٢). واختلفت الآراء عن الحجم الفعلي للقوات الأردنية، فلم يذكر جلوب في كتابه " جندي مع العرب " سوى تعداد لوائين فقط، والذي قدرهم بقرابة ٤٥٥٠ جندي فقط. فيما تناول عبد الله التل تعداد الجيش والمناضلين الأردنيين بحوالي ٩٠٥٠ جندي ومقاتل، غير أن محلاً عسكرياً إسرائيلياً، أكد على أن الجيش الأردني كان يضم ثلاثة ألوية، فتوافق في ذلك مع مذكرات التل. وبالنسبة للجيش الإسرائيلي، والذي كان معداً بشكلٍ نظامي، من قبل دخوله الحرب مع العرب، علاوةً على أن حجم قواته كانت، تقريباً، أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش العربية مجتمعة، فضم من داخل فلسطين (منظمة الهاغاناة، الأرغون، وشتيرن، غير قوات الشرطة اليهودية). وتناول بن غوريون، في مذكراته، تشكيل " الهاغاناة "، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، حيث كانت تضم عشر لواءات، فيها ثلاثة للبالماخ، بـ ٦٠٠٠ مقاتل، ولواء كرملي ٢٢٣٨ مقاتل، ولواء

(١) محمد حسنين هيكل، العسكرية الصهيونية، القاهرة، مؤسسة الأهرام، مركز الدراسات السياسية، ١٩٧٢، ص ٩٨.

(٢) عبد الله التل، كارثة فلسطين (مذكرات عبد الله التل)، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨.

غولاني ٣٥٨٨ مقاتل، لواء إسكندروني ٣٥٨٨، لواء كريات ٢٥٠٤، لواء جعفاتي ٣٢٢٩، لواء شيفع ثمانمائة مقاتل، لواء عتسيوني ٣١٦٦، وشكل لواء الكوماندوز بعد ذلك، بقيادة موشى ديان، هذا بالإضافة إلى ٤١٦١ مقاتلاً من أسلحة الخدمات، ما بين مدفعية وهندسة وطيران^(١). في الواقع كانت قوات الهاغاناة الأصلية والاحتياطية (ما بين ٤٠ إلى ٥٠ ألف مقاتل)، على الرغم من أنها كانت عنصرًا واحدًا من ثلاثة عناصر للقوات المسلحة الإسرائيلية. كما أن عدد أفراد الشرطة الصهيونية (حرس المستعمرات) بلغ قرابة إثني عشر ألف مسلح، أما القوات من خارج فلسطين، فكان عدد الفريق اليهودي في الجيش البريطاني قرابة عشرة آلاف جندي، ومن ضمن أهم عناصر القوة في الجيش الإسرائيلي، العسكريين الصهاينة، الذين كانوا يخدمون في القوات المسلحة في أوطانهم الأصلية، وشاركوا في الحرب العالمية الثانية. فمن الجيش الأمريكي حوالي ٦٠٠ ألف جندي صهيوني، الجيش السوفييتي ٥٠٠ ألف جندي صهيوني*، الجيش البريطاني سبعين ألف جندي، ١٥ ألف جندي صهيوني في القوات البولندية، أما عدد الضباط من الخارج فحوالي ٥٢٩ ضابط، منهم ستين ضابطاً من "الفرقة اليهودية"^(٢)

(١) وليد الخالدي، خمسون عاماً بعد حرب ١٩٤٨، بيروت، دار النهار للنشر، ص ٣٢-٣٣.

(*) ويردف هيكل، ص ٨٢: بأن تلك الأرقام وفقاً للادعاءات الصهيونية، وهي مبالغ فيها إلى درجة كبيرة، وأنه تضخيم إعلامي لدور اليهود في الإجهاد على هتلر والقوات النازية، إذ أنه من غير المعقول أن يضع يهود العالم ١٥% من عددهم تحت السلاح، في حرب عالمية إثنائية ضروس!

(٢) محمد حسنين هيكل، أزمة العروش صدمة الجيوش، ط ٥، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٧، ص ٨٠، ٨١، ٨٢.

وامتلك هؤلاء الضباط كفاءة قتالية عالية، خاصة في التخطيط المباشر، والبعيد المدى للعمليات، وفي إدارة الحرب النفسية، والكيمياوية، والبيولوجية. هذا على عكس ما كانت عليه الجيوش العربية في الحرب، حيث كانت تفتقر إلى التدريب على العمليات القتالية، واعتبر الجيش الأردني من أفضل القوات العربية، لأنه تلقى تدريبات عسكرية على يد الضباط البريطانيين، ولكنه لم يكن يمثل أداء القوات الإسرائيلية في إدارة العمليات القتالية.

فيما يتعلق بالأسلحة المستخدمة في الحرب، فقد أمدت القوات البريطانية المنظمات الصهيونية بالأسلحة، حينما قررت بريطانيا الجلاء عن فلسطين، وكانت بنادق إنجليزية، ومدافع عيار ٦ رطل، ومدافع بيات وصواريخ، ودبابات تشرشل، هذا غير الذخائر التي اشترتها المنظمات الصهيونية من الضباط الإنجليز، المسئولين عن المستودعات الخاصة بالأسلحة، إلى حد بيع مستودعات كاملة لهم، هذا عدا كميات المواد الحربية التي سرقت من مستودعات الخدمة البريطانية في منطقة القناة، في الفترة بين ١٥ مايو/ أيار و٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٨، وتمثلت في ثمانية قنابل، عيار ٥٠٠ رطل، وقنابل شظايا، عيار ٢٠ رطل، وبلغ عددها ثمانية وستين، وقذائف عيار ٥.٢٥ بوصة، وقذائف عيار ٤ بوصات، وقذائف ثقيلة مضادة للطائرات، عيار ٣.٧ بوصة، وعددها ٩٩٣، وكذلك قنابل دك شديدة الانفجار، عيار ٢٥، وقنابل هاون، وقذائف مدافع، وأيضًا مركبات من مختلف الأنواع، وقنابل يدوية، هذا إلى كميات

مختلفة من المتفجرات، والمواد الحربية^(١).

في الوقت الذي كان عملاء الصهيونية في فرنسا والولايات المتحدة، وألمانيا يجمعون مختلف الأسلحة، ويقومون بإرسالها، ومن بينها طائرات C48، مقابل آلاف الدولارات، فقد أقيمت هيئة للطيران الحربي، في ١٩٤٧، وضمت سبعة وثلاثين طيارًا، وكان لدى هذه الهيئة طائرتين، تايجر موت، وأربع طائرات بولندية، وثلاث طائرات، أوستر، من مخلفات الجيش البريطاني بفلسطين، وغيرهم^(٢).

لقد حرص ديفيد بن غوريون، منذ ١٩٤٥، على أن يتوفر لدى الصهاينة مصانع أسلحة محلية، فعقدت صفقات ضخمة مع الولايات المتحدة، من أجل صناعة الذخيرة بفلسطين، وتمكن الصهاينة من إنتاجها، في ذلك الوقت، ومنها القنابل اليدوية، وذخيرة الأسلحة الصغيرة، وقنابل الهاون، من عيار ٣ بوصة، والمفرقات^(٣). وقام قادة منظمة الهاغاناة بالتفاوض مع الاتحاد السوفييتي، لتأمين الحصول على أسلحة ومعدات حربية حديثة. أما عن الجيش الأردني، والذي استخدم مدرعات ثقيلة، وعليها مدفع عيار رطلين ورشاشين، وعددها ٧٢ مدرعة، إثنان وخمسين مدرعة كشافة، عليها رشاشات، ومدافع عيار ٢٥ رطل، وبلغت أربعة وعشرين، مدافع عيار ستة أرتال، وعددها ثمانية وثلاثين مدفع، أربعين مدفعًا هاون، ٣ بوصة، تسعة وعشرون مدفع، إثنين بوصة،

(١) محمد حسنين هيكل، العروش والجيش، ط٧، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢، ص ٩٧، ٩٨.

(٢) اللواء حسن البدر، الحرب في أرض السلام، القاهرة، دار الشعب، ١٩٧٦، ص ١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨ - ٧٩.

وعدد ٣٥٤ رشاش برن، وبلغ عدد البنادق قرابة ٧٣٥٩ بندقية (١).

في بداية الحرب من ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨ وحتى الهدنة الأولى، ضم الجيش الأردني أربع كتائب مشاة، أما القوات الإسرائيلية فكان لديها اثنان وثلاثون كتيبة مشاة، وبعد الهدنة وحتى نهاية الحرب، ازداد عدد الكتائب، فالقوات الأردنية احتوت خمس كتائب مشاة، أما الجيش الإسرائيلي، فإزداد عدد كتائب المشاة فيه إلى إثنين وأربعين كتيبة.

فيما يخص الخطط العسكرية، وتوزيع القوات، فإن الخطة العربية للجيش عامة، نصت على أن تقسم مناطق فلسطين إلى المنطقة الشمالية، المحاذية للبنان وسوريا، ووضعت تحت مسؤولية الجيش السوري وجيش الإنقاذ، المنطقة الوسطى، فكانت من مسؤولية الجيشين العراقي والأردني، أما المنطقة الجنوبية، فتمتد من الخليل، واتبعت للجيش المصري، على أن تلتقى جيوش سوريا ولبنان والعراق في حيفا، وفيما يلتقى الجيش المصري مع نظيره الأردني، في تل أبيب. وصرح عبد الله التل أن الفريق جون باجوت غلوب أوكل له، بصفته قائد الكتيبة السادسة في الحرب، على أن يبقى في منطقة الغور، والتي اعتبرها بمثابة الجناح الأيسر للجيش العربي، ولكي تحول دون قطع خطوط الرجعة من قبل الصهاينة في منطقتي بيسان والقدس. وذلك من خلال حفر الخنادق، والاستحكامات، خاصة على التلال في الخان الأحمر، ومن ثم بناء أبراج ضد الدبابات، وتحضير ألغام لنسف طريق القدس - أريحا، خاصة الجسور المهمة، وعلى أن تتوزع سرية من الكتيبة في الخان الأحمر،

(١) عبد الله التل، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦، ٨٧.

مدعمة بسرية أخرى، لكي تتمكن من تعويق تقدم الصهاينة إلى أريحا، فيما تعسكر إحدى السرايا، في جسر داميا، على نهر الأردن، وأن تقوم بنسف الجسور الواقعة على طريق بيسان - الجفتلك، مع بقاء فئة في المواقع الحربية الهامة، وسرية أخرى احتياطية في أريحا، وفئة منها تحرس جسر اللبني^(١).

في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، تحركت القوات الأردنية إلى مواقعها، التي حددت لها، فاللواء الأول وكتائبه تمركزوا في (النبي صموئيل - الشمال الغربي من القوس - رام الله)، أما اللواء الثالث وكتائبه (في باب الواد - اللطرون - تل أبيب)، فيما اللواء الرابع وكتائبه (رام الله - أريحا - النبي صموئيل - الخان الأحمر) ووزعت قيادة الكتيبة المدفعية، بحيث أصبحت البطارية الأولى في النبي صموئيل، لمساندة اللوائين الأول والرابع، والبطارية الثانية ببيت نوبا، لمساندة اللواء الثالث، وإن بقيت مستودعات الذخائر بالسلط وأريحا، وتمركزت السرية الخامسة عشر في اللد والرملة، والسرية الخامسة في نابلس، السرية الثانية عشرة في الخليل، أما السرية الثالثة عشر فبجسر المجامع^(٢). أما استراتيجية القوات الإسرائيلية أثناء الحرب فتمثلت في:

- ١- المحافظة على أرواح أكبر عدد ممكن من الصهاينة.
- ٢- معاونة أعمال القتال في الجبهات الأخرى، وذلك للعمل على إرباك العدو.

(١) المصدر نفسه، ص ٧٨ - ٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤ - ٨٥.

كما أن قيادة الهاغاناة، سبق وحددت خططها العسكرية لخوض الحرب، ومهامها:

١- أثناء خوض المعارك مع قوات غير نظامية، حيث ركزت على سمات وتنظيم الجيوش التي تحاربها، وكيفية التعامل معها، من خلال القيام باحتلال مناطق دفاعية، والقيام بأعمال دفاعية تعظيمية، وتوسيع نطاق الهجمات المستمرة على العدو.

٢- أثناء الحرب ضد قوات العدو النظامية، التعاون مع القوات النظامية الصديقة^(١).

هذا ما وضع في سير العمليات القتالية في ١٩٤٨، ولجأت قوات الجيش الإسرائيلي إلى جذب تأييد القوى العظمى في أثناء حروبها مع الدول العربية، ولتميرير ما تجده مناسباً مع مصالحها، كفرضها للهدنة من خلال الأمم المتحدة، ووضعت القوات الإسرائيلية خطتين، أثناء الحرب (خطة يوشع، خطة دالت)، وذكرت خطة دالت "د"، والتي بها أولاً "الشق الدفاعي"، وحدد على أن تقوم كل مستعمرة بالدفاع الذاتي، وأن تنشأ ثلاثة خطوط دفاعية، الخط الأول، ويمر بالهيئات في للظروف - قلقيلية - طولكرم - جنين - الناصرة - بحيرة طبرية - بحيرة الحولة - رأس النافورة، أما الخط الدفاعي الثاني (بيننا - رحوبوت - ريشيون لزيون - بيت دجان - ولهما - رأس العين - العفولة - حيفا)، وخط الدفاع الثالث (يافا - رامات غان - هرتزليا - الخضيرة - عتليت - حيفا)، على

(١) هيكل، العسكرية...، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣، ١٤٤.

أن تقوم قوات الهاغاناة والمنظمات الصهيونية الأخرى على امتصاص الهجوم العربي، واستنزاف قدراته في المعارك، والاحتفاظ بالطرق الرئيسية بين المدن، ثانيًا " الشق الهجومي "، والتي أوصت بالسيطرة على خطوط المواصلات والهيئات الاستراتيجية والاستيلاء على مناطق واسعة، بأسلوب الضرب والحركة والاستيلاء على القدس، من خلال تأمين ممر باب الواد، والذي يربطها بتل أبيب، مع احتلال المواني والمطارات الرئيسية، ثالثًا " النسق الإرهابي "، وذلك من خلال بث الذعر بين العرب الفلسطينيين، وهذا الشق من خلال استخدام الحرب النفسية تجاه القوات العربية. وأخيرًا " الشق الانتقالي "، حيث قامت الحكومة الإسرائيلية المؤقتة بالتنسيق مع الاستعمار البريطاني، وذلك قبل إنهاء حكومة الانتداب بفلسطين^(١).

علاوة على ذلك فإن " خطة نحشون "، التي وضعتها الهاغاناة خاصة في منطقة الرملة، على درجة عالية من الأهمية وحسب هذه الخطة، أن تقوم على فتح ثغرة، بعرض حوالي ستة أميال في السهل الساحلي، وبعرض حوالي ميلين في الجبال، ومن أجل تأمين ذلك، باحتلال المرتفعات، والقرى العربية المحيطة بالطريق، حتى تتاح للمقاتلين حرية الحركة على الطرق الرئيسية، ولتحقيق هذا الغرض فقد تم إعداد قوة لواء، بلغ تعدادها حوالي ألف وخمسمائة رجل، مقسمة على ثلاث كتائب، كتيبة تتولي مسؤولية المنطقة من خلدة إلى اللطرون في السهل الساحلي، وأخرى من اللطرون إلى كيريات عافيم، أما الكتيبة الثالثة فكاإحتياطي^(١).

(١) البدرى، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥.

(١) حاييم هارزوج، الحروب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي،

ثانياً: المعارك :

قبل الإعلان عن الحرب، رسميًا، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، شاركت قوات من الجيش الأردني في رفع معاناة الفلسطينيين من الانتهاكات التي ارتكبتها العصابات الصهيونية المسلحة بحقهم، خاصة بعد صدور قرار التقسيم عن الأمم المتحدة (١٩٤٧)، برز ذلك فيما ارتكبته العصابات الصهيونية، والتي تمثلت في الأرغون وشيترن، أبشع مذبحه عرفها التاريخ، وهي مذبحه دير ياسين، في ٩ إبريل/ نيسان ١٩٤٨، تلك القرية العربية بضواحي القدس الغربية، والتي راح ضحيتها أكثر من ثلاثمائة شهيدًا، أغلبهم من النساء والأطفال، وعقب هذه المذابح التي أظهرت مدي عنصرية تلك المنظمات الصهيونية، تدخلت الجيوش العربية، آنذاك، ولكن لم تكن معدة بشكل نظامي، وكان من بينها قوات من الجيش الأردني، ودخلت في ١١ إبريل/ نيسان ١٩٤٨م في معركة كفار عتسيون، بين الخليل والقدس، نشبه معركة عند مستعمرة النبي يعقوب، والتي كانت تبعد أربعة كيلو مترات، شمالي القدس، على طريق رام الله^(١) ثم كانت معركة قطمون، والتي دارت بين اللواء عتسيوني بالهاغاناة، معزًا بثمانية سرايا إضافية، وكذلك اللواء هارئيل من ناحية وبين القوات الأردنية، من ناحية أخرى، وذلك في أواخر إبريل/ نيسان ١٩٤٨، والواقعة في الحي العربي من القدس. ونظرًا لما يجعله هذا الحي من كونه بعدًا حربيًا، وذلك لأنه يشرف على أغلب الأحياء العربية

القاهرة، سينا للنشر، ١٩٩٣، ص ٢٩.

(١) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.

واليهودية في القدس. لذا حرصت المنظمات الصهيونية على أن تتمكن من السيطرة عليه، ومن أجل أن تؤمن الإتصال المستمر بين المستعمرات اليهودية، المنتشرة حول القدس، وتمكن اللواءان هارئيل وعتسيوني من الاستيلاء على حي القطمون العربي.

في ٨ مايو/ أيار ١٩٤٨ بدأت عملية (مكابي)، حيث استولى لواء جعفاني بالهاغاناة على الطريق التلال المطلّة على باب الواد. وفي محاولة لصرف انتباه الفريق العربي عن العملية انسحبت قوات هارئيل من المرتفعات التي كانت قد احتلتها. ولكن بمجرد انسحاب قوات هارئيل، تحركت القوات الأردنية نحو المواقع التي أخليت، وفشلت وحدات هارئيل في استعادة تلك المواقع^(١).

في ٩ مايو/ أيار ١٩٤٨، أعيد تشكيل الجيش الأردني، المشارك في الحرب، بشكل أفضل مما كان عليه سابقاً. ثم وقعت معركة كفار عتسيون الكبرى، في ١٢ مايو/ أيار، والتي شاركت فيها السرية الثانية عشر من الكتيبة السادسة في الجيش الأردني، وتمكنت من التغلب على المنظمات الصهيونية، فأوقعت في صفوفها ما يقرب من خمسمائة إصابة، وفي المقابل فقد الجانب الأردني قرابة ستة وثلاثين جندياً^(٢) فمستعمرات كفار عتسيون، والتي منها ريفاديم وعين تسوريم وما سووت اسحق، كانت تعد مناطق ذات موقع استراتيجي لأنها بمثابة شوكة داخل المناطق العربية حينئذ.

(١) البدري، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨.

(٢) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٣١.

قبيل انتهاء الانتداب البريطاني، أجبرت سلطات الانتداب البريطاني القوات الأردنية على الانسحاب من فلسطين إلى شرق الأردن، إن ظلت بعض العناصر منها ترابط في حيفا، والخليل، ورام الله، بعد يوم ١٤ مايو/ أيار.

اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية، حيث اتخذت قراراً بغزو فلسطين، فور انتهاء الانتداب. وسرعان ما اجتمع رؤساء أركان الجيوش العربية، في دمشق، وذلك لإقرار الخطة العربية، والتي حددت لكل فريق عربي المناطق المخولة إليه، فكان على اللبنانيين أن ينطلقوا بطول الساحل الشمالي، نحو نهاريا، وعلى السوريين أن يعبروا إلى شمال وجنوب بحر الجليل، والتقدم إلى سمخ، بهدف احتلال الجليل، أما العراقيين أن يتواجدوا جنوبي بحر الجليل، وذلك للتحرك خلال المثلث العربي، بهدف الوصول إلى نطنيا، على ساحل البحر المتوسط، من أجل شق الدولة اليهودية. وكان مناطاً بالجيش الأردني نابلس، ومنطقة السامرا، وهما من مسئولية اللواء الأول، أما اللواء الثاني فموقعة مدينة الرملة، عند مشارف تل أبيب، ويظل اللواء الثالث كاحتياطي، غير أن الجيش المصري كان عليه أن يتحرك ضمن كتلتين هما القوة الرئيسية، وعلى أن تنطلق من العريش، وإلى أن تستولي على غزة، ثم تتوجه جنوباً، نحو تل أبيب، والقوة الثانية مدعمة بمتطوعي الإخوان المسلمين، على أن تتحرك صوب الشمال الشرقي، مروراً بالعوجة، وبئر السبع، والخليل، كما تؤمن المداخل الجنوبية من القدس، وأوكل إلى جيش الانقاذ

من عرب فلسطين مهمة الدفاع المحلي^(١). وتم الإقرار على ما توصل إليه مؤتمر رؤساء الأركان العرب، في عمان، في ٣٠ إبريل/ نيسان ١٩٤٨، برئاسة الملك عبد الله. كان، في تلك الفترة، بن غوريون برأس مجلس الشعب، والذي أصبح، بعد ذلك، حكومة إسرائيل، وقرر استغلال فرصة انتهاء الانتداب البريطاني، وانتصرت وجهة نظر بن غوريون على معارضيه في المجلس ففي ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨، جمع بن غوريون المجلس المؤقت - الذي أصبح البرلمان أو (الكنيست) - وأعلن قيام الدولة اليهودية في فلسطين وسميت "دولة إسرائيل" ^(٢) ثم دخلت الجيوش العربية فلسطين، في تمام الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨م، ودخل الجيش الأردني إلى فلسطين عن طريق جسر اللبني - أريحا - الجفثك - نابلس، علاوة على القوات الأردنية التي كانت مرابطة في الخليل، وحيفا، ورام الله.

المواجهة العسكرية في القدس

في ١٦ مايو/ أيار ١٩٤٨، أتمت قوات الاحتلال الصهيوني سيطرتها على منطقة القدس القديمة، باستثناء الأحياء الشرقية. وأصدر جلوب، قائد الجيش الأردني، أوامره بإرسال سرية واحدة للقدس، وفي اليوم الذي تلاه وصلت الكتيبة السادسة، وتمركزت في الخان الأحمر، وجسر النبي، وأريحا، وانتقلت إلى القدس. غير أن "جيش الإنقاذ" الذي كان في اللطرون فقد أكمل مهمته، يغلق الطريق المؤدي إلى القدس، وانسحب من

(١) محمد فايز القصري، مأساة العالم العربي، ط ١، دمشق، مطبعة التعاونية، ١٩٥٩، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) هارزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

مواقعه، بغرض إعادة تنظيم قواته، لكن بسبب عدم تنسيق الموقف الحربي بين " جيش الإنقاذ "، والقوات الأردنية، في بادئ الأمر، أدى ذلك إلى أن المناطق المحورية في القدس لم تكن تحت سيطرة القوات العربية ^(١). ثم اتفق الجيشان، بعد ذلك، على توحيد القيادة العسكرية، في القدس، وأوكل إلى عبد الله التل أن يكون مركز قيادته بالروضة، داخل أسوار القدس، كما وحدت قيادة السريتين الأمن الأولى والسادسة، فوصلت فنتان، برئاسة نواف الجبر، إلى باب النبي داود، والذي كان يعد من أخطر الأبواب، فهو الطريق الرئيسي بين القدس والحي اليهودي في القدس القديمة، وبقية السريتين في الطور. غير أن السرية الثامنة تمركزت في الباب الجديد، وباب الخليل، حيث كان قائدها، عبد الرازق عبد الله، وفي رأس العامود والطور، حينذاك، كانت السرية المساندة، بقيادة غالب رضيمن، ترابط في تلك المناطق الحيوية. والسرية الثانية بقيت في منطقة الغور ^(٢). وقد خطط الجيش الأردني، وكثف جهوده من أجل إحكام السيطرة، عسكرياً، على المنطقة. وبالفعل تمكن الجيش الأردني من عزل الحي اليهودي في القدس، وذلك عند الهجوم الأردني على بوابة دمشق، عند سور المدينة القديمة، وباتجاه دير نوتردام، واستخدمت القوات الأردنية، حينها، مدافع الهاون، عيار ٦ أرطال، وبعض المدرعات، ثم تقدم الفوج الثالث مع عربات مصفحة، عند حي المصراة والذي يمتد من بوابة دمشق إلى دير نوتردام، مروراً بسور

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٢) التل، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩ - ١١١.

البلدة القديمة (١).

في ١٨ مايو/ أيار، حاولت المنظمات العسكرية الصهيونية اقتحام القدس القديمة لكن انهالت عليها نيران القوات الأردنية، وفقد الجيش الأردني، في يوم ٢٣ مايو/ أيار، نصف رجاله من أصل مائتين، ما بين جريح وقتيل، وذلك نتيجة للمواجهة العنيفة مع القوات الصهيونية، التي استخدمت في هذه المعركة أسلحة مولوتوف، وقذائف "بيات"، المضادة للدبابات، والمدعمة بالعربات المصفحة، وذلك عند البوابة الجديدة بسور البلدة القديمة، مما تسبب في انفجار سور دير نوتردام، وغطى الحطام الطريق الذي يصل بين الدير وسور المدينة القديمة (٢).

أدى ذلك إلى إعاقة تقدم الجيش الأردني، وقد وصف أحد القادة العسكريين في منظمة الهاغاناة، آنذاك، أن هذه المعركة كانت من أشرس المعارك، وحارب فيها الجانبان، باستماتة (٣). وفي ٢٤ مايو/ أيار، أمر غلوب قواته بوقف الهجوم، نظرًا للخسائر الفادحة التي تكبدها الفوج الثالث من الجيش الأردني، في هذه المعركة (باب الواد).

نشبت معركة باب النبي داوود في ٢٤ مايو/ أيار مع جنود (البالماخ)، التابعة للهاغاناة، واستخدمت فيها القنابل اليدوية من جانب القوات الأردنية، غير أن عددًا من المقاتلين الصهاينة كانوا يحملون لغمًا، اقتربوا من موقع الجيش الأردني، لكي ينسف عددًا من قواته، على حد

(١) هارزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠ - ٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٦.

تعبير عبد الله التل، ولكن سرعة الهجوم على جنود البالماخ بثت لذر في نفوسهم وفقدوا ستين قتيلًا صهيونيًا. وفي ٢٦ مايو/ أيار تمكنت قوات عبد الله التل من تطويق الحي اليهودي المقابل لباب الخليل بالقدس، حيث استسلم موشي روزنك، قائد الهاغاناة في القدس، ومعه ١٥٠٠ يهوديًا، من أصل ما يقرب من ١٨٠٠ يهوديًا، وتم أسر أربعمئة جندي، وسقط في هذه المعركة ٣٠٠ إسرائيلي، منهم مائة وستة وثلاثين من "الأرغون"، وثمانين جريحًا^(١)، وذلك في ٢٨ مايو/ أيار حيث عانت قوات الاحتلال الصهيوني من نفاذ الذخائر والمؤن، فلم يكن، حينها، سوى ٣٠٠ شريط ذخيرة وستة وعشرون رجلاً، واستجاب المقاتلون الصهاينة لمناشدة الحاخامات، للجلوس على مائدة المفاوضات مع القوات العربية. وأحكم الجيش الأردني السيطرة على الطرق المؤدية إلى القدس، وذلك من خلال نشر قواته حول القدس، فمن جهة الشرق تمركزت الكتيبة السادسة في النبي داود، وحي الثورة، أما في الشمال فتواجدت الكتيبة الثالثة عند باب العمود، والشيخ جراح، وفي الشمال الغربي، الكتيبة الأولى في النبي صموئيل، وبدو، والرادار، ومن الناحية الغربية الكتيبة الخامسة، في مركز شرطة الشيخ جراح، وتل شعافاط، وكذا الكتيبة الثانية في باب الواد، والكتيبة الرابعة في اللطرون^(٢)، بسبب قوة المدفعية الأردنية، والتي تسببت في تحطيم معنويات الصهاينة، وأرسلوا، في ٨ يونيو/ حزيران للقيادة العامة الإسرائيلية، على أن لا مفر لديهم سوى

(١) التل، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١، ١٣٥

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

التسليم، وردت القيادة الإسرائيلية، في ٩ يونيو/ حزيران، طالبة منهم المزيد من الصبر والثبات^(١)، وما لبثت أن وصلت النجدة، متمثلة في الهدنة، التي فرضها مجلس الأمن على كافة الأطراف المتحاربة بعد ثلاثة أيام من استغاثة القوات الصهيونية في هذه المعركة، الذي حقق فيها الجيش الأردني تقدمًا على حساب الجانب الإسرائيلي.

المعارك التي دارت في اللطرون:

أيقن بن غوريون ضرورة نجدة قواته في القدس، ودفع قوات من الهاغاناة لفتح الطريق عن عنق الزجاجة، الذي قبض عليه العرب في اللطرون، حيث أمر بن غوريون بتشكيل اللواء شيفع والمزود بكتيبة مدرعة، وكلف شلومو شامير، بقيادة هذا اللواء، وفي ٢٢ مايو/ أيار تمركز حول مستعمرة ناعان، وذلك استعدادًا للهجوم على اللطرون، ودخل شامير المدينة، في ٢٤ مايو/ أيار، وذلك حتى يتمكن من الاستيلاء على اللطرون، والتقدم نحو الجبال، على طول الطريق إلى رام الله، حيث استخدم لواء شيفع، الذي سبق له الاستيلاء عليها، أثناء القتال مع القوات الأردنية، مزودًا بعربات نصف مجنزرة، وتشكلت كتيبة لتعاون اللواء شيفع، حيث ضمت مهاجرين يهود من معسكرات بقرص، غير أن تدريب هذه القوات العسكري كان محدودًا، نسبيًا. وأدركت قيادة الهاغاناة مدى ضعف هذا الفريق، وأمرت إحدى كتائب اللواء السكندوني الالتحاق به، والتي كانت متمركزة في منطقة ناعان، وخلدة^(٢). غير أن الكتيبة

(١) البدرى، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣.

(٢) هارزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.

الرابعة في بالجيش الأردني، تدخلت في اللطرون، بقيادة حابس المجالي، يساعده محمود الروسان، وترجع أهمية هذه المنطقة إلى احتوائها على قلعة بوليس اللطرون، وكذلك تل اللطرون، عند دير الفرنسيسكان، ومن يتمكن من التمرکز والسيطرة على هذه المناطق، يتحكم في طريق القدس - تل أبيب، وكان مخولاً للكتيبة الرابعة أن تقوم بمهام دفاعية، واقتصر أدائها على صد هجمات المنظمات الصهيونية المتكررة، لاحتلال قلعة البوليس، والتلال المحيطة بدير اللطرون. وظلت هجمات قوات الاحتلال الإسرائيلي مستمرة، واشتدت نيرانها الموجهة للقوات الأردنية،^(١) كي تخفف من حدة المعارك في القدس، ولرفع الحصار المضروب على صهاينة القدس، آنذاك. ورغم وقوع العديد من القتلى في صفوف الهاغاناة، فإنها ظلت في مواقعها، وفي الوقت ذاته، لم يسمح للكتيبة الرابعة من الجيش الأردني القيام بأي هجمات معاكسة، وبقيت في مواقعها الأولى. وتتالت عمليات الهجوم المباغت على القوات الأردنية، إلى يوم ٣٠ مايو/ أيار، حيث شن الصهاينة هجومًا ليليًا على قلعة اللطرون، بالمدفعية، وطلبت الكتيبة الأردنية الرابعة النجدة، حيث كان الملازم عبد المجيد عبد النبي مسئولاً عن القلعة، وطلب الاستغاثة، نظرًا لأن عدد قواته قرابة الخمسة عشر جنديًا، ولكن دبابت العدو (شيرمان) اقتحمت القلعة، وصعد الجنود الأردنيين على سطح القلعة، وقذفوا قوات الهاغاناة بالقنابل اليدوية، ورغم محدودية عددهم، وافتقارهم للأسلحة المدرعة، إلا أن هذه الكتيبة نجت من بطش الصهاينة، فكانت المدرعات

(١) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

في اللواء الثالث المرابط في باب الواد واللطرون، تابعة للكتيبة الثانية، ذات القيادة البريطانية^(١). وفي اليوم التالي ألقت قوات الهاغاناة قنابل على ساحة القلعة، مما أسفر على وقوع قتلى في صفوف القوات الأردنية، ومنهم الضابط عبد النبي، أما في صفوف العدو فبلغ عدد القتلى نحو الخمسين، وتمكن الجيش الأردني من الاستيلاء على أربع دبابات تابعة للهاغاناة، غير أن أحد العسكريين الصهاينة، ذكر أنه في هذه المعركة استخدمت قوات الهاغاناة أربعة مدافع عيار ٦٥ مم، وعدداً من قذائف الهاونات، من عيار ١٢٠ مم، وأكد أنه استخدمت في هذه العملية قاذفات اللهب. وكانت معلومات الأركان العامة الإسرائيلية تشير إلى أن حجم القوات الأردنية في اللطرون كان قليلاً، رغم ذلك فشلت منظمة الهاغاناة في السيطرة على المنطقة، في الهجوم الأول^(٢).

أما في معركة اللطرون الثانية فقد تفقد بن جوريون سير العمليات القتالية في ٢٧ مايو/ أيار، ووجد القوات الإسرائيلية المرابطة في اللطرون تحتاج إلى تعزيز من ذوي الخبرة في فنون القتال، من لواء جعفاتي بالهاغاناة، وعين العقيد ميكى ماركوس، الذي خدم بالجيش الأمريكي من قبل، فأصبح قائداً لجبهة الهجوم الجديد في المنطقة، ووضعت خطة للقتال على أن يقوم حاييم لاسكوف باقتحام قلعة الشرطة، وذلك للتمويه، حتى تقع الكتيبة الرابعة بالجيش الأردني في الخديعة، وتتمكن الهاغاناة من هزيمتها. ونفذت الخطة، وشاركت فيها الكتيبة ٥٢

(١) التل، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨، ١٤٨.

(٢) هارزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.

من لواء جعفاتي، ثم وقع هجوم آخر، بقيادة برولوف، لمحاولة السيطرة على منطقة دير أيوب، بالهجوم على مواقع الكتيبة الأردنية، إلا أن هذه المحاولة فشلت، وأوقعت في صفوف الهاغاناة نحو ١٣٧ قتيلاً^(١).

في ٩ يونيو/ حزيران، اندلعت معركة اللطرون الثالثة، وشارك فيها لواء هرنيل، بقيادة يشخار شادمي، فهاجمت تل يالو، وحدثت اشتباكات ضارية مع الجيش الأردني، ولكن قوات هارنيل لم تتمكن من الاستيلاء إلا على مناطق صغيرة من التل. وفي تلك الأثناء كانت الكتيبة الثالثة يفتاح، وعلى رأسها موشي كيلمان، مرابطة في باب الواد، في الجهة الغربية من تل يالو. وقد بلغت الخسائر في صفوف الهاغاناة ما يقرب من نصف قوة الكتيبتين^(٢).

أما منطقة باب الواد، فكانت تابعة للكتيبة الثانية المدرعة الأردنية، والتي تولى قيادتها المقدم هنري سليد، والذي نشر جنوده قرب القدس، عند قرية دير أيوب وتمكنت القوات الأردنية من إحكام السيطرة على تلك المنطقة، خاصة مع تركيز منظمة الهاغاناة قواتها في اللطرون حيث نقلت اللواء يفتاح لتعزيز منطقة اللطرون^(٣) وذكر إرنيل شارون، في مذكراته، أن فصيله أبيد في معركة اللطرون، وقد كان تابعاً للواء إسكندروني، فنصف فصيله كان من القتلى، وما تبقي من الجرحى^(٤).

(١) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٤) محمد علي شاهين، قراءة في مذكرات أرييل شارون، ٢٠٠٨/٣/٤ من موقع

إعلان الهدنة في ١١ يونيو/ حزيران ١٩٤٨:

فرض مجلس الأمن الهدنة على كافة الأطراف المتحاربة، وتم الإعلان عن بدئها يوم ١١ يونيو/ حزيران، إستجابة للمطلب الصهيوني، فيما كانت الفترة الأولى من الحرب قد شهدت تقدماً عربياً في العديد من المناطق الفلسطينية، على الرغم من محدودية القوات العربية التي شاركت فيها، إلا سيطرة القوات الأردنية على القدس، والتي كانت ستحكم سيطرتها عليها، لولا البدء بالهدنة العسكرية، والتي كانت تقتضي عدم إمداد القوات العسكرية لأي طرف، سواء عربياً أم يهودياً، ووقف التسلح، غير أن المنظمات الصهيونية، ومن بينها الأرغون، لم تلتزم بشروط الهدنة، واستطاعت القوات الإسرائيلية حشد قواتها، والتزود بالمؤن والأسلحة، وذلك بالتعاون المشترك مع حلفائها البريطانيين. ومع بدء الهدنة، تحرك اللواء السابع (شيفع) بالهاغانة نحو القدس، بعد قيامه بدوريات متواصلة، وذلك للاستطلاع باتجاه القدس، ولأن الجيش الأردني - بتواجده في القدس - أغلق الطرق المؤدية إلى تل أبيب، وأصدر بن غوريون تعليمات من أجل شق طريق يربط بين القدس وتل أبيب، ولتخفيف الحصار الذي مثلته القوات الأردنية عن الحي اليهودي في القدس^(١). غير أن قوات الاحتلال استغلت فترة الهدنة، من أجل الحصول على الذخيرة، فاستطاعت سرقة بعض المستودعات البريطانية، علاوة على الدعم العسكري من الخارج، وأيضاً الدعم المادي الأكبر من الولايات المتحدة للمنظمات الصهيونية. وانتهت الهدنة في ١٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨.

(١) هارزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

معارك اللد والرملة :

عقب انتهاء الهدنة الأولى، كان الجيش الأردني، في اللد والرملة، ما مثل تهديداً لتل أبيب، أكبر تجمع سكاني يهودي، علاوة على ذلك ففي اللد المطار الدولي، واللد الملتقى الرئيسي لخطوط السكك الحديدية. وكانت اللد والرملة محصنتين، حيث أحكم الجيش الأردني سيطرته عليهما قبل الهدنة.

في مذكرات موشي ديان، والتي تناول فيها المعارك التي حدثت في اللد، وباعتباره قائد لواء الكوماندوز، الذي أعده، وشارك في الحرب في هذه المنطقة مع القوات الأردنية، يذكر ديان أن مدينة الطيرة، والتي تبعد ثلاثة أميال شمال مطار اللد الدولي، كانت تحت احتلال قواته. كما ذكر ديان بأن لحظة الهجوم عليها استخدم القصف المدفعي، فقد قررت قوات الهاغاناة شن هجمات مباشرة وسريعة، لمفاجأة الفريق الأردني، غير أن الإسرائيليين تعرضوا لنيران شديدة في اللد ^(١).

تناول عبد الله التل في مذكراته المعارك في مدينتي اللد والرملة، ولكن التل أكد أن المدينتين سلمتا للقوات الصهيونية، دون قتال ^(٢). هذا يتعارض مع ما صرح به ديان، ووصفه سير الحرب في تلك المناطق، ويتفق في ذلك معه حاييم هرزوغ، على أن الجيش الإسرائيلي واجه مقاومة من القوات الأردنية، وذكر ديان أنه تمكن من الدخول إلى مدينتي

(١) شوقي إبراهيم، ديان يعترف، القاهرة، مؤسسة دار التعاون للطباعة والنشر، مركز الدراسات الصحفية، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٢) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

كلا والطيرة، ثم تقدم بفرقته واحتل دير طريف، على بعد ميلين من اللد، وأنه بالتنسيق مع لواء القيادة من الهاغاناة، انسحبت الفرقة ٨٢ مدرعة بالهاغاناة من عملية دير طريف، وحلت محلها وحدة سيارات جيب، ولواء القيادة، بقيادة أكيفا سار، واحتلوا الجزء الغربي والشامي من المنطقة، وكان الجيش الأردني مسيطراً على الجزء الشرقي. ذكر ديان أن في هذه العملية، تجلّى مدى تفوق المدفعية الأردنية^(١). حيث أن السيارات المدرعة، التابعة للهاغاناة، عجزت عن التحرك أمام نظيرتها الأردنية، ولكن فريق ديان يساعده لواء القيادات تمكن من الاستيلاء على إحدى المدرعات التابعة للجيش الأردني، وبعد ساعات تمكن ديان من تدريب رجاله على كيفية استعمال المدافع التي كانت في المدرعة. عن طريق هذه المدرعة استطاع لواء الكوماندوز السيطرة على دير طريف، وفي اتجاه مدينة اللد، قرر ديان أن يسلك طريقاً لا يتوقعه الجيش الأردني، وهو الطريق القادم من الشرق، لأنه الطريق نفسه الذي سبق وسلكته القوات الأردنية. في الوقت الذي كان يتمركز لواء القطاع الأوسط التابع للهاغاناه بقيادة ملاح كوهين، وقد أوكل إليه العمل على الجانب المقابل للواء الكوماندوز، حيث كان اللواءان يشكلان فكي كماشة حول مدينة اللد، وعندما اقتربت قوات كوهين من المدينة، تعرضت لمواجهة عسكرية عنيفة مع القوات الأردنية،^(٢) ثم استنجد اللواء الأوسط بفريق ديان، للمساعدة، خاصة وأن المنطقة كانت محصنة وغاصّة

(١) إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

بالأهالي، وتوجهت فرق من لواء الكوماندوز إلى ضرب بيت ناب الله، وفي ذات الوقت أرسل ديان مجموعة شتيرن، التابعة للواء الكوماندوز، للهجوم على طريق كلا - اللد، باستخدام السيارة الأردنية المدرعة، ذات المدفعين، والتي مكنتهم من اختراق مواقع كان من الصعب اختراقها من قبل. وأجبرت وحدات الجيش الأردني على الابتعاد عن بيت ناب الله، وواصل لواء الكوماندوز تقدمه، إلى مستعمرة بيت شمين. واتفق ديان، قائد لواء الكوماندوز، مع كوهين، قائد لواء القطاع الأوسط، على خطة للهجوم على مدينة اللد، وباستخدام ممر يربط بين بيت ناب الله واللد، وقد اعتبر ديان هذا الممر هو النقطة الوحيدة التي لا يتوقع الجيش الأردني أي هجوم منها^(١).

لم يكن لدى الجيش الأردني في ذلك القطاع سوى كتيبتين من اللواء الثالث، ولم تكن قواتهما تتعدى ١٢٠٠ مقاتل، يفتقرون إلى الذخائر، خاصة بعد الهدنة، ثم نشبت معركة البرج، يوم ١٦ يوليو/ تموز حيث أمر قائد اللواء الأردني الثالث جورج إستون، قائد الكتيبة الرابعة بأن يجهز سرية مشاة أخرى مدرعة، للهجوم على قرية البرج، ونتج عنها ثلاثين شهيداً، وما يقرب من أربعين جريحاً، وفقدان عدد من المدرعات والأسلحة^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٢) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٦.

المعارك في القدس بعد الهدنة:

تصاعدت حدة المعارك في القدس، وقامت القوات الإسرائيلية بالهجوم على القدس في ١٠ يوليو/ تموز، وعلى أحيائها العربية واستخدمت القوات الإسرائيلية مدافع الهاون والرشاشات، غير أن الكتيبة السادسة الأردنية قصفت منطقة " الوكالة اليهودية "، وكذلك مقر الأركان العامة الإسرائيلية. في ١٢ يوليو/ تموز قامت وحدات من لواء عتسيوني، المدعمة بحرس المستعمرات، بشن هجوم مفاجئ على الكتيبة الثالثة الأردنية، في منطقة باب العمود، واستطاع لواء عتسيوني تأمين الاتصال بجبل المكبر، ومستشفى هداسا، والجامعة العبرية^(١). وفي يوم ١٦ يوليو/ تموز قام لواء عتسيوني بالزحف تجاه " حائط المبكى "، المسجد الأقصى، وزاد عدد القتلى في صفوف الجانبين، ما بين قتيل وجريح. وسقطت كل من مدينة اللد والرملة في يد الاحتلال الإسرائيلي.

ثالثاً: أثر الدبلوماسية الأردنية على سير المعارك العسكرية

تلعب الدبلوماسية دوراً محورياً في العلاقات بين الأطراف المتحاربة، بما يمليه عليها الوضع العسكري، حيث تضغط الدولة، طرف الصراع على الأطراف الأخرى، بنسبة إلى ميزان قوتها العسكرية، فهو المحدد الأساسي في عملية التفاوض، خاصة وإن كان موقفها العسكري أفضل من غيرها.

كانت هناك علاقات بين الأردن والوكالة اليهودية، وذلك قبل البدء في الحرب رسمياً في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، حيث عرضت قوات

(١) البديري، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

الاحتلال الإسرائيلي مشروع لتوليد الطاقة الكهربائية " مشروع روتنبرغ " وعلى أن يقام على الحدود الفلسطينية الأردنية، ^(١) وقبل انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين، حاولت القيادة الصهيونية الضغط، دبلوماسياً، على الأردن، للحيلولة دون دخوله الحرب ^(٢). غير أن مشروع روتنبرغ، والذي كانت ترجع فكرته إلى عام ١٩٢٨، لكي يمول أغلب المناطق الفلسطينية وكذلك المدن الأردنية على الحدود بالكهرباء اللازمة لها، وتعهدت الأردن بالمحافظة على هذا المشروع، في زمن السلم، وبعد ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، طلب الجانب الأردني وضع خطة للمحافظة على المشروع، وكانت المنشآت التابعة له (مستعمرة نهرايم) داخل الحدود الأردنية، ولكن بموجب هذا الاتفاق على مشروع روتنبرغ، فإن مياه نهر الأردن، لا يحق للمملكة الهاشمية الاستفادة منها إلا بموافقة الصهاينة، غير أن (أبو يوسف)، مدير المشروع، والذي يدعى دسكر، ظهر بعد هذا الاتفاق أنه أحد القادة في منطقة الهاغاناة ^(٣).

عندما تقدم المندوب البريطاني لمجلس الأمن، بإقتراح يوصي بوقف إطلاق النار في فلسطين، والذي أقره المجلس في ٢٩ مايو/ أيار ١٩٤٨، على أن يتوقف القتال لمدة أربعة أسابيع، وعين الكونت فولك برنادوت وسيطاً منتدباً من قبل الأمم المتحدة، ليقوم بالتوفيق بين العرب واليهود ^(٤) بعد صدور القرار اجتمعت الدول العربية في عمان لدراسته، ووافقت

(١) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧١، ٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٢، ٩٣.

(٤) التل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١.

الدول العربية على قرار الهدنة، تحت ضغط نقص الذخائر والمعدات لدى بعض الجيوش العربية المشاركة ومن بينها القوات الأردنية، علاوة على الحرب النفسية التي اتبعتها الوكالة اليهودية، بإرسال طائرة يهودية، أغارت على عمان، وبالأخص على قصور الملك عبد الله، وألقت بعض القنابل، بعد إيهام الأردن بأنها طائرة مصرية، القنابل التي استخدمتها الطائرة الإسرائيلية ترجع للجيش المصري، استولت عليها القوات الإسرائيلية، التي اختارت وقت اجتماع اللجنة العربية، لكي تؤكد على قراراتها، وتضطر بقبول الهدنة، وفي أواخر أيام الهدنة الأولى، طلب برنادوت تمديد الهدنة، فوافق الصهاينة على طلبه، فيما رفضه العرب، لتعود مرحلة الحرب، في ٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨^(١).

تمت محادثات مشتركة بين الأردن وإسرائيل في ردوس في ٤ مارس/ آذار ١٩٤٨، ولكن بن جوريون واصل غزو صحراء الثقب المخصصة لإسرائيل وفقًا لقرار التقسيم، وذلك على الرغم من أن تلك المنطقة كانت لا تزال، رسميًا، تحت سيطرة الأردن، وقدمت الحكومة الأردنية شكوى رسمية إلى لجنة الهدنة، في ٨ مارس/ آذار، وبعد أربعة أيام وقّع الإسرائيليون اتفاق وقف إطلاق النار مع الأردن.

في أواخر سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، اجتمع الملك عبد الله وحكومته بقنصل بلجيكا في القدس، وعقد هذا الاتفاق بباريس وحضره المندوب الرسمي لمفاوضة الإسرائيليين في باريس، واستمرت المفاوضات قرابة الشهر ونصف. وقد سبقه اجتماع مجلس الأمن الدولي، والذي أصدر

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

قراراً، في ١٥ يوليو/ تموز ١٩٤٨، قضى بفرض الهدنة، دون قيد أو شرط، على فلسطين، ولمدة ثلاثة أيام، وقبله العرب، وكذلك إسرائيل. وفي ١٨ يوليو/ تموز، طلبت الولايات المتحدة من الحكومة الأردنية تنفيذ أمر وقف إطلاق النار، وفي أغسطس/ آب وافقت الحكومة الأردنية على تجريد القدس من السلاح، حيث أن لجنة الهدنة القنصلية في القدس، وضعت مقترحاتها لتجريد المنطقة، ثم اجتمعت جامعة الدول العربية، في سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، وأقرت تشكيل حكومة عربية، تمثل عرب فلسطين، وفي ٣١ يناير/ كانون الثاني عقد مؤتمر عروبة فلسطين، في عمان وذلك للتأكيد على عروبة القدس، وحضرته شخصيات يهودية^(١). وطلب الجانب الأردني إعادة منطقة اللد والرملة، ومع السماح للاجئين العرب بالعودة، وإعادة الأحياء العربية في القدس، وفي ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٤٩ تمت قمة ردوس بين الجانبين الأردني والإسرائيلي، وطلب الأخير أن يتم إيصال السهل الساحلي اليهودي، بسهل برج عامر، بواسطة طريق وادي عرعر، وأن تشمل حدود إسرائيل من ناحية المثلث العربي، على مواقع استراتيجية، تساعد على حماية السهل الساحلي اليهودي^(٢).

وقعت اتفاقية في ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني بين الجانبين، الإسرائيلي والأردني، وألحقت بالاتفاقية خريطة تبين مواقع وقف إطلاق النار، والمنطقة المحرمة بين الجانبين، وسمحت الاتفاقية بعبور قافلة إلى جبل المكبر، مرة كل إسبوعين، حاملة المؤن والأفراد، واتفق الجانبان على أن يتم تبادل أسراهما^(٣).

* * *

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩٥، ٤٩٦.

(٣) إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩٠.

الفصل الثامن:

الحرب على الجبهة اللبنانية

آمال الخزالي

ظلت القضية الفلسطينية هاجسًا لبنانيًا، منذ كانت تلك القضية، مطلع
عشرينات القرن العشرين، وخلال الحركات الثورية الفلسطينية (١٩٢٠/١٩٢١
/١٩٢٤ /١٩٢٩ /١٩٣٣ /٣٦ - ١٩٣٩)

فقد قرر " اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية "، في جلسته،
بتاريخ ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٧، إرسال مذكرة إلى وزير
الخارجية البريطانية، إرنست بيفن، حدد فيها الاتحاد موقفه من مؤتمر
لندن، المنعقد في ذلك الوقت، لدراسة الوضع في فلسطين. أكدت المذكرة
على رفض استمرار الانتداب البريطاني، ووجود الجيش البريطاني في
فلسطين، وعدم قبول استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وأشارت
المذكرة إلى أن المؤتمرات ولجان التحقيق، التي تعقد من أجل قضية
فلسطين، مجرد محاولات لكسب الوقت، وإضاعة الفرص على العرب
(١).

كما أرسل " اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية " مذكرة إلى الوزير المفوض البريطاني، في بيروت، في ٢٣ آذار/

(١) موقع هيئة الاستعلامات الفلسطينية الإلكتروني، " ملف النكبة ".

مارس ١٩٤٧، احتجاجًا على قرار الأمم المتحدة بتعيين لجنة جديدة لبحث المسألة الفلسطينية، بناءً على إصرار المندوب البريطاني في فلسطين على ذلك، وتضمنت المذكرة أن هذا القرار لا مبرر له، خصوصًا وأن قضية فلسطين لم تعد في حاجة للدرس والتحقيق^(١).

إلى ذلك شارك لبنان رسميًا في الدورة العادية لمجلس جامعة الدول العربية في آذار/ مارس ١٩٤٧، ورغم انشغال الوفد اللبناني في خلافاته الشخصية، فإنه استطاع أن يشارك في اجتماعات مجلس الجامعة، وعاد إلى لبنان، معلنًا في أول نيسان/ إبريل ١٩٤٧، تأييد الحكومة والشعب في لبنان للشعبين، الفلسطيني والمصري، في نضالهما من أجل الاستقلال^(٢).

دعت لبنان إلى عقد مؤتمرات عربية عدة، من أجل القضية الفلسطينية، وكانت الدول العربية حريصة على تلبية الدعوة. ففي بيروت اجتمع وزراء خارجية الدول العربية، مع لجنة التحقيق الدولية، في ١٧/٧/١٩٤٧، مؤكدين على ما ورد في المذكرة المقدمة من " الهيئة العربية العليا"، الممثلة للشعب العربي الفلسطيني، ورئيسها، الحاج محمد أمين الحسيني، وهي أن فلسطين جزء لا يتجزأ من البلاد العربية، ولا سبيل لحل القضية بدون الاستقلال التام، وأن الصهيونية تستهدف البلاد

(١) حسان حلاق، موقف لبنان في القضية الفلسطينية (عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال ١٩١٨-١٩٥٢)، ط ١، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٢، ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

العربية، ما بين النيل والفرات وأن التساهل لا يفيد في حل القضايا الوطنية^(١).

وكان الإضراب العام المنظم قد أعلن، في ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، احتجاجاً على توصيات لجنة التحقيق الدولية بتقسيم فلسطين، وأغلقت مدينة بيروت، تماماً، بدون مظاهرات^(٢).

لبت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية دعوة رئيس الجمهورية اللبنانية بشارة الخوري، لعقد اجتماعها في صوفر بلبنان، في الفترة من ١٦ - ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧، ورفضت اللجنة توصيات لجنة التحقيق الدولية، وقررت جمع الأموال للدفاع عن فلسطين، ودعم شعبها، وإمداده بالسلاح، وأوصت اللجنة الدول العربية بإيواء أطفال ونساء عرب فلسطين، إذا ما وقع في فلسطين ما يستدعي ذلك. كما بحثت اللجنة كيفية تنفيذ المقاطعة ضد بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية^(٣).

كما صادق المجلس اللبناني، في ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، على تخصيص مليون ليرة لبنانية، للدفاع عن فلسطين، وتبرع النواب بشهر من راتبهم. وأسهم المجلس البلدي، أيضاً، بمبلغ مئة ألف ليرة، واستنكر المجلس قرار التقسيم، واعتبر قيام الدولة اليهودية يهدد أرض لبنان، وحرية، بصفة خاصة، والكيان العربي ككل^(٤).

(١) هيئة الاستعلامات الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

(٢) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٣) هيئة الاستعلامات الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

(٤) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.

وقد جاءت ردود الفعل اللبنانية الشعبية، على قرار تقسيم فلسطين عنيفة وقوية، بداية من التظاهر، وصولاً إلى الهجوم على المحلات اليهودية، في مختلف المناطق اللبنانية، كما أعلن الإضراب العام وجمعت التبرعات من أجل فلسطين^(١).

دور لبنان في الحرب:

تعد حرب ١٩٤٨، الجولة العسكرية الأولى التي خاضها العرب ضد الغزوة الصهيونية لفلسطين، وشاركت فيها الجيوش النظامية لخمسة دول عربية، هي: مصر، وسوريا، والأردن، والعراق، ولبنان، وقد بدأت الحرب كما هو معروف في ١٥/٥/١٩٤٨.

معروف أن الجامعة العربية كانت عقدت اجتماعاتها، بتاريخ ١٦/٩/١٩٤٧، في صوفر (لبنان)، وفيه قررت تقديم أقصى ما يمكن من الدعم العاجل لشعب فلسطين، في حال إقرار التقسيم، ثم قررت الجامعة، في اجتماع آخر، عقد في عاليه (لبنان)، بتاريخ ١٥/١٠/١٩٤٧، تقديم ما لا يقل على عشرة آلاف بندقية، مع ذخائر إلى أهل فلسطين، واختيار نخبة عسكرية، لإعداد الدفاع عن عروبة فلسطين^(٢).

أ- الدور السياسي:

انطلقت الحكومة اللبنانية للدفع عن فلسطين من مبادئ عدة، سياسية وعسكرية، منها الخطر الصهيوني على لبنان، ومشاركة الدول العربية في الدفاع عن فلسطين، فضلاً عن إرضاء الفئات الشعبية اللبنانية،

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، ط١، القسم العام، المجلد الثاني، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٥٠.

المطالبة بدعم القضية الفلسطينية.

حرصت الحركة الصهيونية، مع بداية عام ١٩٤٨، على إمداد يهود بيروت بالسلاح، ليتمكنوا من حماية أنفسهم، ولتنفيذ ما يطلب منهم من أعمال تخريبية في لبنان. وقد اكتشفت الشرطة اللبنانية أسلحة متنوعة، مخبأة في حديقة بالحي اليهودي في بيروت، مما دفع السلطات اللبنانية إلى ملاحقة العصابات الصهيونية، التي كانت وراء هذا العمل^(١).

في الوقت نفسه قامت الجمعيات والهيئات الإسلامية في لبنان بالعمل، والحث على الدفاع عن فلسطين، وأثناء الاحتفال بالمولد النبوي، حرص الرئيس بشارة الخوري على حضور الاحتفال، وأكد، في كلمته التي ألقاها بهذه المناسبة، تأييده للقضية الفلسطينية^(٢).

في تصريح لرئيس الوزراء اللبناني، رياض الصلح، أمام لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان اللبناني، قرر بأن لبنان سوف يقدم المال والعتاد والرجال لفلسطين، في "حدود إمكانياته، وفق هذه الإمكانيات، إذا لزم الأمر" ! كما سمح الصلح للقوات العربية غير اللبنانية بالدخول إلى فلسطين، عبر أرض لبنان الجنوبية^(٣).

في الوقت نفسه صرح رئيس أركان حرب الجيش اللبناني، اللواء فؤاد شهاب، بأنه يعارض فكرة الهجوم، وأن الجيش اللبناني لا يستطيع القتال، وإذا كان لابد لهذا الجيش من الاشتراك في حرب نظامية، فعليه

(١) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

أن يتخذ لنفسه خطة الدفاع عن حدوده، وقد حسم رئيس الجمهورية اللبناني، آنذاك، بشارة الخوري الموقف، بتأييد شهاب، ووقف الجيش اللبناني عند حدود بلاده، مدافعاً^(١).

على صعيد آخر، كان هناك بعض القوى المناهضة لحقوق الشعب الفلسطيني، وتقدم المساعدات للصهاينة، فضلاً عن بعض المتعصبين دينياً، الذين أيدوا إسرائيل، آملاً في أن تصبح قضية " الوطن القومي المسيحي " في لبنان سهلة التحقيق، بقيام دولة إسرائيل^(٢).

ب - الاستعداد للحرب :

أعدت الخطة الرسمية الأولى للدفاع العربي لفلسطين، في مركز قيادة الجنرال طه الهاشمي، في دمشق، قبل بدء شهر آيار/ مايو، وعرضت على القادة العرب، عندما اجتمعوا في دمشق، في الأسبوع الأول من آيار/ مايو ١٩٤٨، وتمت الموافقة على الخطة^(٣).

كان مجموع الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين، حوالي ٢٤.٠٠٠، مقسمة كما يلي:

مصر ١٠.٠٠٠، الفليق العربي ٤.٥٠٠، سوريا ٣.٠٠٠، العراق ٣.٠٠٠، لبنان ٣.٠٠٠، بما في ذلك ٢.٠٠٠ من قوات " جيش الإنقاذ العربي ". واشترك الجيش اللبناني بالزحف من الشمال، في الهجوم

(١) محمد فائز القيصري، حرب فلسطين عام ١٩٤٨ الصراع السياسي بين الصهيونية والعرب، الجزء الأول، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦١، ص ١٥٧.

(٢) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.

(٣) جون، ديفدكميس، من كلا جانبي التل بريطانيا والحرب الفلسطينية، الترجمة العربية، لندن، سيكرواربرج، ١٩٦٢، ص ١٥٠.

النهائي على حيفا^(١).

في منتصف ليلة ١٥/٥/١٩٤٨، دخلت الجيوش العربية أرض فلسطين، ورغم كثرة المعوقات والنواقص في التسلح، فإن هذه الجيوش، حققت في الأيام الأولى من عملياتها العسكرية، نجاحاً، دفع الولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن تطلب من مجلس الأمن (١٩٤٨/٣/١٩) التدخل لوقف إطلاق النار^(٢).

امتدت المرحلة الأولى للحرب، من ١٥/٥/١٩٤٨-١١/٦/١٩٤٨، وكانت خطة الدخول إلى فلسطين تبدأ بدخول الجيشين، السوري واللبناني، في شمال فلسطين، وهدفهما الأول مدينة حيفا، فيما يدخل الجيشان العراقي والأردني، من الشرق، وهدفهما العفولة - حيفا، أولاً. أما الجيشان، المصري والسعودي، فيدخلان من الجنوب، واعتبرت تل أبيب هدف الجيوش العربية جميعاً^(٣).

ج - الحرب:

بلغ عدد الجيش اللبناني حوالي ١٠٠٠ مقاتل، بقيادة رئيس الأركان اللبناني، فؤاد شهاب، الذي سبق أن أكد على عدم قدرة جيشه على خوض حرب حديثة، وأن أكثر ما في استطاعته هو الدفاع عن لبنان، قرب

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٢) مذكرات القاوقجي، ط١، د. خيرية قاسمية، دمشق، دار التحرير، ١٩٩٥، ص ٤٠٣.

(٣) حسن البدر، الحرب في أرض السلام - الجولة العربية والإسرائيلية الأولى (٤٧-١٩٤٩)، بيروت، دار الوطن، المؤسسة العربية، للدراسات والنشر، ١٩٧٦، ص ١١٧.

اشترك الجيش اللبناني في الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام (١٩٤٨) بأربعة أفواج من المشاة، والمدفعية، والمدرعات، وسرية خياله، وقد تمركزت هذه القوات على طول الجبهة اللبنانية - الفلسطينية (٢).

دخلت القوات اللبنانية فلسطين، باتجاه ما يسمى إصبع الجليل، الممتد شمالاً من نهر الأردن ووادي الحولة نحو دان، وتعد هذه المرة الوحيدة التي سارت فيها العمليات الحربية العربية، وفق خطة عامة، ووضعت القوات الصهيونية بين فكي جبهتين عربيتين، في آن، إذ عبر السوريون نهر الأردن، نحو شرق الجليل، واتجهت القوات اللبنانية نحو عربة (٣).

سيطر " جيش الإنقاذ " على المالكية، والتي تقع عند مفترق الطرق التي تصل فلسطين بلبنان، في القطاع الأوسط من الجبهة اللبنانية، وتعتبر المالكية مفتاح حوض الحولة، والطرق المؤدية إلى عكا، وصفد، والناصرية، وتسيطر على طريقي عيترون - بنت جبيل، وبليدا - ميس الجبل. وفي ليلة ١٥-١٦ أيار/ مايو ١٩٤٨، حاول الصهاينة احتلال المالكية، لكنهم أخفقوا، وتكبذوا خسائر فادحة (١).

تقدم الصهاينة من الشمال، واستولوا على عكا، ولم يكن فيها أي دفاع

(١) الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨.

(٢) القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ط١، بيروت، وزارة الدفاع الوطني، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣، ص ٥٥٣.

(٣) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤.

(١) القضية الفلسطينية....، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٤.

من القوات النظامية العربية، واقتربت القوات الصهيونية من الحدود اللبنانية، وقد كانت المنطقة الساحلية خالية من المقاومة العربية^(١).

في يوم ١٩ أيار/ مايو ١٩٤٨، أطلقت قافلة مدرعة، تابعة اللواء "يفتاح"، التابع للعدو، وتوغلت نحو ١٥ كيلو مترًا داخل الأرض اللبنانية، ووصلت إلى المالكية من الخلف، وقامت باحتلالها^(٢).

وبذلك قطعت قوات الاحتلال الطريق الموصل من الناصرة إلى المالكية، ومفرق عيترون - بنت جبيل، وحاصروا ٣٠٠ من المجاهدين العرب، لذا قرر الجيش اللبناني مهاجمة قرية المالكية، وتخليصها من أيدي الإسرائيليين، لفتح الطريق ومساعدة المجاهدين ومدهم بالعتاد^(٣).

قام الجيش اللبناني بهجوم على هضبة المالكية، بدءًا الهجوم، يوم ٥ حزيران/ يونيو، مهدت له المدفعية، والطيران السوريون، ثم انطلقت السريتان، الأولى والثالثة، وتبعتهما المدرعات، وقد صادفت القوات اللبنانية مقاومة عنيفة من العدو، ورغم ذلك لم يستطع وقف تقدمها، ودارت معركة شرسة، وجهًا لوجهة، بالسلاح الأبيض، أسفرت عن دحر العدو، وتخليه عن جميع مواقعه القتالية، بعد خسائر فادحة، وتمكنت القوات اللبنانية من المالكية، وتابعت التقدم إلى قدس، ودخلتها، بعد انسحاب قوات العدو منها إلى النبي يوشع^(٤).

(١) القاوقجي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٠.

(٢) حرب فلسطين ٤٧ - ١٩٤٨/ الرواية الإسرائيلية الرسمية، ط ١ ترجمة أحمد خليفة، مراجعة سمير جبور، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤، ص ٤٩٣.

(٣) القضية الفلسطينية...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٦ - ٥٥٧.

فقدت القوات اللبنانية في هذا الهجوم شهيدين، وأصيب خمسة من القادة، وواحد وثمانون جنديًا، وعطلت دبابة واحدة، دون تدميرها، وكانت خسائر العدو ثمانية عسكريين، بينهم ضابط، وعدد من الجرحى (١).

قال قائد جيش الإنقاذ، فوزي القاوقجي، في مذكراته: " قررت معركة المالكية مصير الحدود اللبنانية، ومصير جبل عامل كله، فأصبح في أمانٍ مؤقت، على الأقل، كما قررت مصير القوات اليهودية، التي كانت تهدد من المالكية بالخطر الشديد، كل ما جاورها. وفتح أماننا، بعد هذا الانتصار، مجال أوسع للاتصال بالجيش السوري، بحركة متقابلة، فيما إذا أقدم على عملية ما، وكان له صدى كبير في الأوساط العربية والأجنبية " (٢).

قرر الإسرائيليون الهجوم، بعد أسبوع من ثبات الجيش اللبناني، وعدم تحركه، فشن الجيش الإسرائيلي هجومًا مخادعًا على النبي يوشع، وقدس، من الجنوب، في حين جاء الهجوم الرئيسي على المالكية، عبر الأراضي اللبنانية، حيث أرسل الإسرائيليون قوة من السيارات المدرعة، والمشاة، المحمولة على عربات نقل، عبر الحدود، انطلاقًا من المنارة، حتى الحدود غرب المالكية، تصدت لها وحدة لبنانية صغيرة، ولكنها عادت، وانسحبت، لعدم قدرتها على الصمود في وجه القوة الإسرائيلية المتفوقة في العدد والعتاد، وهي التي هاجمت القوات اللبنانية في الخلف، قبل أن تتمكن من اتخاذ الاستعدادات اللازمة، فسقطت المالكية، بعد

(١) المصدر نفسه، ص ٥٥٨.

(٢) الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨.

معركة قصيرة، وتبعها قدس، التي أخلاها اللبنانيون، وانسحبوا إلى ما وراء حدود بلادهم مع فلسطين^(١).

انسحبت معظم القوات العربية، بدعوى " إعادة تنظيم الصفوف والتخطيط لاستئناف العمليات"، في ضوء ما تلقوه من دروس من قوات الصهاينة، ثم التنسيق للهجمات بين القوات اللبنانية والسورية و " جيش الإنقاذ"^(٢). حيث شنت وحدات من الجيشين اللبناني والسوري، وجيش الإنقاذ، هجومًا مشتركًا مفاجئًا على المالكية، فاستردوها، رغم كثرة الحواجز، الألغام، التي وضعها العدو حول القرية، واستولت القوات العربية على رامات تفتالي، و قدس، وفتحت الطريق نحو سهل الحولة، والجنوب^(٣).

استمرت الهدنة الأولى، من ١١/٦-١٩٤٨/٧/٩، ثم استؤنفت المرحلة الثانية للحرب، في ٧/٩ حتى ١٨/٧/١٩٤٨، على الجبهات، الأردنية، والمصرية، والسورية، فحسب، ولم يشترك لبنان في هذه المرحلة من الحرب^(١).

جاءت الهدنة الثانية، في ١٥/٧/١٩٤٨، بقرارين من مجلس الأمن الدولي رقمي ٤، ٥، وفي هذه الأثناء ذهب القاوقجي إلى بيروت، على أمل أن يقدر لبنان مدى خطورة الموقف على حدوده، فيحاول أن يدافع

(١) حرب فلسطين.....، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢١.

(٢) الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ١٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(١) القاوقجي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٣.

عن أرضه، وبذلك يمكن أن تمد الحكومة اللبنانية جيش الإنقاذ ببعض الأسلحة، لمنع إلحاق الهزيمة به. ورغم قلة إمكانيات لبنان الحربية، فقد استلم القاقوجي كمية من الأسلحة الفرنسية، وعاد إلى الجبهة، التي كانت لا تزال هادئة، والصهاينة على الصعيد الآخر، يراكمون استعداداتهم. فاجتمع القاقوجي بضباطه، وأطلعهم على ما حدث، وقرر الاستمرار في القيام بواجبه بالدفاع عن فلسطين، حتى النهاية^(١).

عند قبول الهدنة الثانية، انطلقت في لبنان الاحتجاجات، والتظاهرات الحاشدة، التي ذكرت الملوك والرؤساء العرب، بما قرره مؤتمري أنشاص، وبلودان، كما ردد المتظاهرون الهتافات المعادية لبريطانيا، والولايات المتحدة، والصهاينة، وطالبوا بقطع النفط عنهم. كما تظاهر ٥٠٠ لاجئي فلسطيني في بيروت، مطالبين بحقوقهم في الخبز، فضلاً عن تقديم استجوابين للحكومة اللبنانية في البرلمان، بسبب تقصيرها في حرب فلسطين. كما تولت لبنان إدارة المكتب، الذي تم إنشاؤه للدعاية لقضية الفلسطينية في أوروبا، إبان قبول الهدنة الثانية^(٢).

لم يحدد مجلس الأمن الدولي للهدنة الثانية زمناً معيناً، على أمل أن تتحول إلى هدنة دائمة، ويحل الصراع سلمياً، بمعاونة الكونت فولك برنادوت، وسيط الأمم المتحدة، الذي وضع خريطة جديدة لفلسطين، وقرر تعديل قرار التقسيم، بشكل يحقق بعض العدل، من وجهة نظره، فأعد مشروعاً، عرف باسم "مشروع الكونت برنادوت"، وقدمه إلى

(١) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢) الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

الأمين العام للأمم المتحدة. غير أن الصهاينة لم يوافقوا على المشروع، فاغتالوا برنادوت، في القدس، يوم ١٧/٩/١٩٤٨، وفي هذه الأثناء تابعت إسرائيل عدوانها، وأخذت في تنفيذ مخططاتها التوسعية الاستعمارية، خارقة بنود الهدنة، وتمكنت من احتلال مساحات أخرى من الأرض، وانتزعت المبادأة من أيدي العرب^(١).

عقد في لبنان اجتماع، في تشرين/ أكتوبر ١٩٤٨، بعد خرق القوات الصهيونية الهدنة الثانية، ضم كلاً من جميل مردم، وزير الدفاع السوري، ونظيرة اللبناني مجيد أرسلان، فضلاً عن فؤاد شهاب، وفوزي القاوجي، وقائد الجيش السوري حسني الزعيم، ورئيس ركن في الجيش المصري المقدم ناصر، وعضو اللجنة العسكرية العربية العقيد محمود الهندي، للبحث لمساعدة الجيش المصري، وأسفر الاجتماع عن سفر الزعيم، وشهاب، إلى مصر، ليطلعوا المسؤولين هناك على ما أسفر عنه الاجتماع، ووافق الزعيم على السفر، في حين رفضه شهاب، قائلاً: " ماذا عسانا نعمل في مصر؟! فإذا كلفتنا المراجع المسؤولة بشيء لا يستطيع الجيش اللبناني القيام به، فماذا يكون موقفنا ". فرد عليه مردم: " يا جماعة هي مسألة رفع عتب " ! وعلق القاوجي على هذا الجواب، بقوله: " وكانت المؤتمرات كلها، من قبل وبعد كما بدا لي - رفع عتب " !^(١).

في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، قام الطيران الصهيوني بغاراتٍ

(١) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤١.

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

جوية على جنوب لبنان، لاحتلال بعض القرى اللبنانية الحدودية، مثل ميس الجبل، وحولا، سحب على أثرها فؤاد شهاب الجيش اللبناني المرابط في المالكية، وحل محله بعض المتطوعين بما يوازي نصف القوة النظامية فحسب، الأمر الذي اضطر جيش الإنقاذ إلى البقاء متفرّدًا في شمال فلسطين، متعرضًا للقصف المدفعي، دون مساعدة من أي من الجيشين، اللبناني أو السوري (١).

رغم أنه لم يكن لدور لبنان في حرب ١٩٤٨، أي فاعلية، غير الدفاع، فإنه لم يكن بأسوأ من مواقف الدول العربية الأخرى، فقد أسهمت كل الدول العربية، إسهامات متواضعة حيّثًا وسلبية أحيانًا، والجدير بالذكر أن شعب لبنان قدم قائدًا جسورًا هو فوزي القاوقجي، ابن طرابلس، الذي مثل ظاهرة لبنانية مشرقة، حيال القضية الفلسطينية، فعندما شارك في جنازة الشهيد بهاء الدين الطباع، في بيروت، التف حوله الشباب، وطالبوه بإتقاد فلسطين، واستئناف الجهاد، على غرار جهاده، في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، الوطنية الفلسطينية، فأجابهم بأن حياته فدى لفلسطين، وأنه كان ولم يزل ينتظر الوقت المواتي لهذا الجهاد! (١) ٢٢٢ (٢).

* * *

(١) خليفة، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠٥.

(١) المصدر نفسه، ص ٧٠٥.

(٢) حلاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.

الباب الثاني: الأبعاد والروايات

الباب الثاني الأبعاد والروايات

الفصل التاسع:

البعد الدولي لحرب ١٩٤٨

نعيمة عبدرية (أبو مصطفى)

اندلعت الاشتباكات المسلحة بين المناضلين العرب الفلسطينيين، والعصابات الصهيونية المسلحة الثلاث، (الهاغاناه/ الأراغون/ وشتيرن)، بمجرد صدور قرار تقسيم فلسطين، عن الأمم المتحدة (١٩٤٧/١١/٢٩)، ومالت كفة القتال لصالح المناضلين، رغم تواضع سلاحهم وندرة ذخيرتهم، حتى أن مندوب الولايات المتحدة، في الأمم المتحدة "أورين أوستين"، طالب مجلس الأمن، في ١٩٤٨/٣/١٩، بإلغاء قرار التقسيم، حتى تحمي الولايات المتحدة صنيعتها من الهزيمة الكاملة. هنا تفتق ذهن القادة الإرهابيين الصهاينة، عن حلٍ فريد يعمل على ترجيح كفة القتال لصالحهم، ويرغم الولايات المتحدة على تعديل وجهة نظرها، أيضاً، فكانت مذبحة دير ياسين في ١٩٤٨/٤/٩. والمستهجن أن أجهزة الإعلام العربية أسهمت، أغلب الظن دون أن تعي، في ذرع الرعب في نفوس العرب، بترويجها لأنباء تلك المذبحة مراراً وتكراراً، بدلاً من أن تتجه تلك الأجهزة بدعاياتها، إلى الرأي العام الغربي.

من المهم لنا، اليوم، أن نعود إلى حرب ١٩٤٨، ونستعرض البعد الدولي، إبان تلك المرحلة، لنلتمس منها الدروس والعبر، التي قد تنفعنا في الوقت الراهن من الصراع العربي - الصهيوني، ونحاول تقييم

الأدوار الاستعمارية للدول العظمى، والتي يستمر نشاطها منذ ١٩٤٨ حتى يومنا هذا، ودور المؤسسات الدولية، وموقفها من حرب ١٩٤٨.

لقد تجلّى الموقف الدولي، قبل قيام الحرب، نحو إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، لأسباب اقتصادية، وسياسية، واستراتيجية، فسارعت الدول الغربية بتأييد هذا الموقف، وكان لكل دولة صورة مختلفة عن الأخرى في شكل التأييد، ومشاركة معها في الهدف.

١- بريطانيا والدول الأوروبية:

انطلقت الشرارة الأولى من بريطانيا، حينما صدر " وعد بلفور "، في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧^(١)، لتنفيذ ما وعدت به اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانهزام الدولة العثمانية، الذي أدى إلى تقسيم الوطن العربي إلى عدة دويلات، كان نصيب بريطانيا منها فلسطين والأردن والعراق. بذات سُنحت الفرصة، لبريطانيا، من أجل تحقيق وعدّها لليهود، ساعيةً، في سبيل تحقيق ذلك، إلى موافقة الدول العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وفرنسا حليفاتها في الاستعمار، آنذاك، التي لم تخذلها في تحقيق ذلك.

سبق لفرنسا أن قدمت عدة وعود لليهود " بإعادتهم " إلى " أرض الميعاد "، وبدأ النشاط الفعلي للإرساليات الفرنسية في القدس وضواحيها، منذ عام ١٨٤٠، وكانت الدولة العثمانية تعارض هذه الإرساليات، إلا أن

(١) إبراهيم الإبراشي، البعد القومي للقضية الفلسطينية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٣٤.

فرنسا استطاعت أن ترسخ وجودها بجانب الجاليات اليهودية في فلسطين، عن طريق إنشاء المدارس، ونشر الثقافة الفرنسية، وتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين^(١).

قدم موسوليني، زعيم إيطاليا، وعودًا أخرى لليهود، بتقديم المساعدة لهم في بناء اقتصادهم، وأعرب موسوليني، أيضًا، عن تأييده وحماسته للمشروع الصهيوني. حيث تمكنت إيطاليا من تأسيس أول قنصلية لها في عام ١٨٧٢، في القدس^(٢)، وكانت تمارس السياسة الفرنسية نفسها، وهي الوقوف إلى الجانب اليهودي، و دعمه، وقد رحبت إيطاليا بوعد بلفور، عندما عرض على " عصابة الأمم " في جنيف.

كما وجهت الحكومة الألمانية خطابًا إلى رئيس المنظمة الصهيونية، تيودور هرتسل، سنة ١٨٩٨ أكد فيه قيصر ألمانيا استعداداه لمناقشة توطين اليهود في فلسطين مع السلطان العثماني حليف ألمانيا^(٣)، في ذاك الوقت، وأن القيصر أبدى استعداداه لاستقبال وفد يهودي، يحمل اليه معلومات مهمة لتوصيلها إلى سلطان اسطنبول.

ساعدت ألمانيا، عن طريق فرق " الجستابو "، و " الصاعقة "، في تهريب اليهود إلى فلسطين، وذلك أثناء الحرب العالمية الثانية، وسمح لليهود بالاتفاق مع الحكومة الألمانية على أخذ بضائع و سلع ألمانية بقيمة

(١) أحمد ذكي الدجاني، مأساة فلسطين بين الانتداب البريطاني ودولة إسرائيل، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٩٩، ص ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

(٣) الصفحة نفسها، ص ٢٤٨.

ما يملكون في ألمانيا (مقايضة الهعفرا) ^(١)، وقد هاجر من ألمانيا، خلال الفترة ١٩٣٣ - ١٩٤١، أكثر من ٣٥ ألف يهودي إلى أرض فلسطين ^(٢)، معظمهم من الأطباء، والمحامين، والمهندسين، والصناع المهرة، الذين أحضروا معهم الخبرات، والبضائع، والسلع. وكانت ألمانيا تدفع للوكالة اليهودية تكلفة استقبال اليهود المهاجرين للإقامة في فلسطين، وبناء المستوطنات لهم.

أما التعويضات الألمانية التي دفعتها الحكومة الألمانية لليهود، تعويضاً عن اضطهاد هتلر لليهود، فقد أسهمت هذه التعويضات، في بناء اقتصاد اليهود أثناء حرب ١٩٤٨، وبعدها وحتى يومنا هذا.

عارض ممثل الهند المسلم، في لجنة التحقيق الخاصة، التي عقدتها الأمم المتحدة، قرار تقسم فلسطين، وانضم إليها، ممثل إيران وهو مسلم أيضاً، وممثل بلدية يوغوسلافيا - آنذاك - ولم تجد هذه المعارضات، حيث أن المخطط البريطاني يسير كما تم رسمه، لتسليم فلسطين إلى اليهود تحت غطاء عالمي.

اعتبر الانتداب البريطاني على فلسطين، بمثابة مخطط عالمي لتنفيذ " وعد بلفور "، واستمراراً لدعم بريطانيا المستمر للدولة " اليهودية "، المتمثل في صور عديدة، منها إصدار القوانين واللوائح التي فتحت أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين تحت تنظيم الوكالة اليهودية ذات التوجه والارتباطات الصهيونية، ونقل ملكية مساحات واسعة من أراضي

(١) الصفحة نفسها، ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

الفلسطينيين إلى تلك الوكالة^(١)، كما تعمدت السلطات البريطانية اغراق فلسطين بسيل من المهاجرين "اليهود"، الذين أخذوا يزاحمون الفلسطينيين في مجالات العمل المحدودة، ضمن إطار محدودية الطاقة الاقتصادية لفلسطين، في ذلك الحين، وذلك للتخلص من المهاجرين "اليهود" المتدفقين إلى الدول الأوروبية الغربية من شرق أوروبا، كما اعتمدت السلطات البريطانية سياسة إرهاب الفلسطينيين بالضرائب الباهظة على الواردات، وعلى الفلاحين، وذلك لدعم الصناعات "اليهودية" الناشئة في فلسطين، آنذاك، فقد بلغ عدد العرب في فلسطين، عام ١٩٤٦، ما مجموعه ١.٢١.٩٣٠، واليهود ٥٥٣.٦٠٠، بإجمالي عدد سكان ١.٧٦٤.٥٣٠، وبنهاية حرب ١٩٤٨، سيطرت الحركة الصهيونية عبر "الوكالة اليهودية" على ٢٠.٨٥٠ كم^٢، من مساحة فلسطين الكلية، البالغة ٢٧.٠٢٧ كم^٢^(٢). بالرغم من جميع أشكال المقاومة التي قام بها الفلسطينيون على مدار قرن من الزمان، فإن، "اليهود" استمروا يتمتعون بما أهده لهم بريطانيا، من سياسة وثقافة الاحتلال حتى يومنا هذا.

لم تكن بريطانيا في حاجة إلى قرار من الأمم المتحدة لتسليم مقاليد الحكم لليهود، متجاهلة الانتداب الدولي لها على أرض فلسطين، وكان من

(١) محمد عبد الرؤوف سليم، العرب وتقسيم فلسطين، القاهرة، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٤، ص ١٥٤.

(٢) الأوضاع والامكانات الاقتصادية والاجتماعية للشعب العربي الفلسطيني في منطقة آسيا، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، نيويورك، الأمم المتحدة، ١٩٨٥، ص ١٣.

الطبيعي أن تسلم مقاليد الحكم لحكومة فلسطينية، ولكن بريطانيا طبقت سياسة الأمر الواقع، الذي فرضته من قبل على أرض فلسطين، فما كان إلا أن سلمت القوات البريطانية معسكراتها، ومواقعها للعصابات الصهيونية، بالرغم من ملاحظة الكثيرين في المنطقة العربية، للإرهاب الممارس من قبل الحركة الصهيونية على البريطانيين، ففرضت الحركة الصهيونية سياسة الأمر الواقع على بريطانيا، في تنفيذ ما وعدت به، وأعدت له بريطانيا، سلفاً، لخلق كيان ذا طبيعة استعمارية تحت لافتة " يهودية " في فلسطين.

سلمت بريطانيا مناطق الجليل، ابتداءً من شهر مارس/ آذار، وأوائل إبريل/ نيسان، لعام ١٩٤٨، ولم تنتظر موعد انتهاء الانتداب، وذلك بموجب قرار التقسيم، الذي أعلنت بريطانيا موافقتها عليه، والاستعداد للقيام بتنفيذه^(١). أما أجزاء الأراضي المقترضة تسليمها للعرب، فتمسكت بها بريطانيا، للحظة الأخيرة من نهاية الانتداب، فكانت القوات البريطانية لا تسمح لأي قوات عربية من الاقتراب من معسكراتها، في الوقت الذي كانت تقوم ببيع الأسلحة، والذخائر، والمعدات، ومهمات عسكرية أخرى، للجانب اليهودي.

٢- الولايات المتحدة الأمريكية:

تشجيع المصالح التجارية الأمريكية، واحتواء التهديد السوفييتي، والحد من تدخله في الشرق الأوسط، والحد من التفوق البريطاني في

(١) محمد عزة دروزة، الحركة العربية الحديثة، صيدا، المكتبة العصرية، ج ٤ و ٥، ١٩٦٠، ص ١٣٤.

الشرق الأوسط، لهذه الأسباب أجمع المسؤولون الأمريكيون على أهمية الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط عامة، وفي فلسطين خاصة. قبل الحرب العالمية الثانية، انتهجت الولايات المتحدة الأمريكية، سياسة خاصة بها لحماية هذه المصالح، وكانت تتجنب التورط سياسيًا، أو تحمل تبعات سياسية، خاصة أن هذه المنطقة كانت منطقة صراع للقوى الأوروبية الكبرى، إلى أن دخلت الولايات المتحدة الأمريكية، الحرب العالمية الثانية مع حلفاءها، فازدادت التزاماتها، واهتماماتها السياسية والعسكرية^(١)، وهي مدركة سلفًا الأهمية الاستراتيجية للمنطقة العربية.

وصل التعاطف الأمريكي، مع الحركة الصهيونية درجة كبيرة، جعلت الكونجرس الأمريكي، يؤيد إنشاء " وطن قومي لليهود " على أرض فلسطين في عام ١٩٢٢، وسُجل هذا التعاطف بقرار رسمي وقعة الرئيس الأمريكي وارن هاردينج، في ٢١ سبتمبر/ أيلول ١٩٢٢^(٢). كما صدر بيان لوزارة الخارجية الأمريكية، في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٨، يعرب عن أمل الولايات المتحدة الأمريكية، في التعاون مع بريطانيا حول انتداب الأخيرة على فلسطين، والتعديلات الخاصة بذلك، وفي عام ١٩٣٩، رفض الرئيس الأمريكي روزفلت، لما جاء في " الكتاب الأبيض " في ١١ مايو/ أيار ١٩٤٢، أقرت المنظمة الأمريكية،

(١) رؤوف عباس حامد، التطلعات الأمريكية تجاه المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الثانية، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد ٢٧، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٨١، ص ٣١٢: ص ٣٤٠.

(٢) محمد خيرى طلعت، القضية الفلسطينية (دراسة في الوثائق الأمريكية ١٩٢٢ - ١٩٥٦)، المنيا، م مؤسسة الأفراد، ١٩٩٧، ص ١.

(٣) الكتاب الأبيض: أصدرته الحكومة البريطانية، في ١٧ مايو/ أيار ١٩٣٩، لامتناس

في اجتماع لها في نيويورك ببرنامج " بلتيمور " لإنشاء " الدولة اليهودية "، وفي عام ١٩٤٤، وقعت اتفاقية النفط الأنجلو أمريكية^(١)، والتي هدفت إلى استغلال موارد الشرق الأوسط النفطية، عن طريق تمكين الشركات النفطية الأمريكية من نفط العرب، حيث أن شركات النفط الأمريكية، آنذاك، هي المسؤولة عن إمدادات النفط إلى أوروبا، واليابان. كما كان روزفلت في حاجة ماسة إلى مساعدة الشخصيات اليهودية الأمريكية لإعادة انتخابه، للمرة الرابعة، وهنا كانت بداية تدخل اللوبي الصهيوني، في السياسة الأمريكية. فالبرغم من أن العديد من المستوطنات اليهودية التي أنشئت خلال القرن التاسع عشر، في فلسطين بأموال يهودية أمريكية، فإن عدد الأمريكيين العاملين فيها كان قليلاً^(٢)، بالدرجة التي تسمح بالتدخل الأمريكي المباشر، في شؤون فلسطين لحماية هذه المصالح، فاعتمدت الإدارة الأمريكية على الوجود البريطاني، حليفها للقيام بهذه المهمة.

أعد اليهود أنفسهم لإقامة دولتهم المزعومة على أرض فلسطين، على

الغضب العربي، وتهدة الأوضاع مع العرب الساخطين على قرار تقسيم فلسطين، وجاء في ذاك تراجع بريطانيا التام عن فكرة قرار تقسيم فلسطين، وإقرار بريطاني بأن إقامة دولتين مستقلتين على أرض فلسطين، واحدة يهودية، والأخرى عربية، أمر غير عملي، ولكن الهدف المعلن من وراء هذا الكتاب هو إقامة دولة فلسطينية مستقلة، في غضون عشر سنوات، ترتبط مع المملكة المتحدة بمعاهدة، تضمن حماية المصالح الحيوية والمتطلبات الاستراتيجية والتجارية لكلا البلدين.

(١) المصدر نفسه، ص ٤.

(٢) محمد عبد الرؤوف سليم، فلسطين في العلاقات الأمريكية التركية حتى قيام الحرب العالمية الأولى، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد ٢٧، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٨١، ص ١٧٩: ١٩٨.

أساس وعد بلفور، مستندين في تحقيق ذلك على القوة العالمية الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، التي سارعت بفتح أبواب الهجرة اليهودية لفلسطين، دون أي شرط من سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٧، وذلك بإصدار قرار من الرئيس الأمريكي، آنذاك، هاري ترومان، ^(١) وحين صدور قرار التقسيم، في ١٩٤٧ هرولت الولايات المتحدة الأمريكية تفتح له أبواب التطبيق، سواءً أمام الأمم المتحدة، أو في عواصم العالم، إلا أن الولايات المتحدة لم تغفل الجانب العربي، وذلك للحفاظ على مصالحها لدى الطرفين المتصارعين. فخصص الكونجرس الأمريكي، في سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦، قرصاً بمبلغ ثلاثمائة مليون دولار، لتحسين الأحوال المعيشية للعرب في فلسطين، وكذلك لدعم المصالح الأمريكية الاستراتيجية، والسياسية في الشرق الأوسط. فقام الرئيس الأمريكي، هاري ترومان بإبلاغ الملك عبد العزيز آل سعود، عاهل السعودية، بأنه يؤيد إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وأنها لن تضر بمصالح السكان الأصليين، وأوضح ترومان أن هدف سياسة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحافظ على حقوق السكان العرب، واليهود في فلسطين، وأنها سوف تمنح الفلسطينيين أموالاً لمساعدتهم على الأحوال الاقتصادية المتدنية ^(٢)، واضعةً أصحاب الحق مع مغتصبيه في سلة واحدة، وبالرغم من هذه الخطوة، التي اتخذتها

(١) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، كذلك انفجر الصراع في فلسطين ١٩٤٨ -

١٩٩٨، قراءة في يوميات الحرب، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ص ٢٥.

(٢) فرد لوسون، إدارة ترومان والفلسطينيون، في، ميخائيل سليمان (محرراً)، فلسطين

والسياسة الأمريكية من نيلسون إلى كلينتون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،

١٩٩٩، ص ٨٦.

الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنها ماطلت في إرسال هذه الأموال.

قلل جورج مارشال، وزير الخارجية الأمريكية، في عام ١٩٤٧^(١)، من أهمية الموقف الأمريكي المؤيد لقرار التقسيم، والضغط التي مارسها الولايات المتحدة الأمريكية، على بعض الدول كي تؤيد قرار التقسيم، وذلك لطمأنة الدول العربية الراضة لقرار التقسيم، على وعدٍ بأن السياسة الأمريكية سوف تتغير، في القريب العاجل، لصالح الفلسطينيين، حيث يتم وضع فلسطين تحت وصاية دولية لعدة سنوات، كي يتاح لكل الأطراف المعنية مراجعة الحقائق، والمواقف من جديد، وهو نفس الموقف الذي نراه على الساحة السياسية، الآن، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على السياسة الأمريكية، عند صدور قرار التقسيم، فهي لم تتغير في مضمونها، ولكنها ترتدي أثوابًا متعددة، لتبعد الأنظار عن حقيقة نواياها، وهي التحيز التام للصهيونية العالمية، كما فرضت الولايات المتحدة الأمريكية حظرًا على التجهيزات العسكرية والأسلحة للمقاتلين العرب، قبل وأثناء حرب ١٩٤٨^(٢).

خشي الرئيس الأمريكي، ترومان، من أن الإنسحاب البريطاني، في ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨ عن أرض فلسطين قد يخلق فراغًا عسكريًا يملأه الاتحاد السوفييتي، تحت شعار الحفاظ على السلام الدولي، لذلك، الوجود اليهودي على أرض فلسطين، سيحقق الأمن الأمريكي في المنطقة. كانت المخابرات الأمريكية يقظة، طوال الوقت، تتابع عن كثب التحركات

(١) هيكمل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.

(٢) فرد لوسون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

العربية، سواءً السياسية منها، والعسكرية، وتؤكد لليهود بأن الجيوش العربية في حالة تردد، ولن تدخل أرض فلسطين، إلا بعد انسحاب القوات البريطانية، وفي ذات الوقت، كان اليهود على أهبة الاستعداد لاستلام مقاليد الحكم من الانتداب البريطاني.

صرح مستر إالوسون السفير الأمريكي في إسرائيل، وهو يقدم أوراق اعتماده إلى رئيس دولة إسرائيل، وقال " لا يسعني إلا الفخر بما قامت به بلادي، في سبيل إنشاء بلادكم، وجدير بنا نحن الأمريكيين الذين ندين بحضارتنا إلى الكثير من إلهام أبناء إسرائيل، أن نعمل متحدين مع أحفادهم في المهمة العظمى، وهي بناء أمة حديثة في الأراضي المقدسة " (١).

حاولت الولايات المتحدة الأمريكية، التخفيف من تأمرها، وانحيازها لليهود، فقامت بتخصيص برنامج معونه للأهالي الفلسطينيين، الذين هجروا من أراضيهم، وساءت أوضاعهم، وفي محاولة أخرى لكسب رضا الشعوب العربية! فقدمت الولايات المتحدة الأمريكية، عدة مقترحات لإسرائيل للموافقة على منح تعويضات للمهجرين الفلسطينيين، وبذلت الولايات المتحدة الأمريكية، محاولات لإقناع إسرائيل بالموافقة على إعادة بعض العائلات الفلسطينية إلى الأراضي، التي احتلتها إسرائيل، ولكنها محاولات فحسب، ولم تستطع الولايات المتحدة الأمريكية إقناع إسرائيل بأي من الحلول العادلة للفلسطينيين الذين اغتصبت أراضيهم.

(١) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٥.

هدفت السياسة الأمريكية، خلال فترة الأربعينيات، إلى ترسيخ الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط، في محاولة لمنع الاتحاد السوفييتي من بسط سيطرته على هذه المنطقة، وحماية المصالح التجارية والاقتصادية الأمريكية، والتظاهر بإرضاء اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية، أيضاً، حفاظاً على المصالح السياسية والاستراتيجية داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، والحد من الدور البريطاني في المنطقة العربية.

٣- الاتحاد السوفييتي:

تسرب النفوذ السوفييتي إلى المشرق العربي، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، مستغلاً التناقضات التي كانت سائدة حينذاك، بين أهالي المنطقة، والاستعمار البريطاني لفلسطين^(١)، اتضحت الرؤية السوفييتية، عندما وافق ستالين في مؤتمر بالتا، في فبراير/ شباط ١٩٤٥، على تقرير الوطن القومي لليهود في فلسطين، وعلى فتح أبواب الهجرة اليهودية. كما وافق الوفد السوفييتي في مؤتمر نقابات العمال العالمي، الذي عقد في لندن، فبراير/ شباط ١٩٤٥، على قرار يقضي بأن الشعب اليهودي، يجب أن يمكن من مواصلة إعادة بناء فلسطين كوطن قومي لليهود^(٢).

امتنع الاتحاد السوفييتي عن التصويت على أي قرارات تتعلق

(١) محمد كمال يحيى، التأييد السوفييتي لإسرائيل، جذوره ودوافعه، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٧، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٨١، ص ٣٤٢: ٣٦١.

(٢) محمد نصر مهنا، مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥ - ١٩٦٧، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١٢٣.

بالقضية الفلسطينية، وذلك لمساندة قيام الدولة اليهودية، والسماح للهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، ولم يسهم الاتحاد السوفييتي بالدعم المالي لوكالة غوث اللاجئين، ولم يكن متحمساً للحديث عن حق عودة اللاجئين، أو التعويضات^(١)، وعند طرح قضية فلسطين لأول مرة على الأمم المتحدة (ربيع ١٩٤٧)، أعدت الخارجية السوفييتية " مشروع جروميكو "، لتسوية القضية، وقضى بتكوين دولة اتحادية، بنسبة الثلثين للعرب، والثلث لليهود لكن الرؤساء العرب رفضوا هذا المشروع، بمجرد تسلمه^(٢). فما كان إلا أن عبر السوفييت رسمياً، عن موقفه هذا أمام الأمم المتحدة، في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، عندما أيد الاتحاد السوفييتي قرار التقسيم، زاعماً أن في هذا القرار حل لمشكلة فلسطين، فالإتحاد السوفييتي كان الدولة الثانية في العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية، من حيث عدد اليهود الموجودين فيه^(٣). كما كانت هناك آراء سوفييتية ترى في يهود فلسطين تقدميين، و ثوريين، و بروليتاريين في مقابل أنظمة الحكم الرجعية في المشرق العربي، وهو ما يعكس اهتمام السوفييت بالشأن اليهودي على حساب الجانب الفلسطيني، متذرعين بوجود الإقطاعيين العرب المتخلفين، مقابل اليهود المتقدمين في الأعمال الاقتصادية، وبالتالي، فإن الحكم اليهودي سوف يتناسب مع مصالحهم، و طموحاتهم في المنطقة، وتسهيل نشاط الشيوعية في المشرق العربي،

(١) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٢) عبد القادر ياسين، السوفييت وحركة التحرر الوطني العربية، رؤيه، تشرين أول/ أكتوبر، العدد ٢٤، فلسطين، الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠٠٣، ١٧٦: ١٨٢.

(٣) يحيى، المجلة التاريخية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٢: ص ٣٦١.

التي تضطهد الشيوعيين. وقد وضع السوفييت في اعتبارهم الروابط الوثيقة بين اليهود الأمريكان، و اليهود في فلسطين، وأدركوا احتمال أن تسعى الولايات المتحدة الأمريكية، لتحل محل بريطانيا في هذه المنطقة، وبالتالي استقطابهم لليهود السوفييت، سوف يقلل من تأثير الدور الأمريكي على المنطقة، خاصةً وأن هناك عدد كبير من اليهود الروس لهم ولاء للاتحاد السوفييتي.

أصر المندوب السوفييتي في الأمم المتحدة، على إنشاء دولة يهودية في فلسطين، متجاهلاً آمال العرب، وحقهم في فلسطين، بل أن السوفييت استغلوا قضية اليهود المشردين على حساب العرب، للإعلان عن موافقتهم على قرار التقسيم، هادفة من ذلك - أيضاً - ضرب بريطانيا، وإبعادها عن المشرق العربي، لتدخل هي، وتنتشر نفوذها في المنطقة. ظل الاتحاد السوفييتي في التغاضي عن موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل ومؤيداً لها، حيث ظهر التأييد الرسمي للشيوعيين، في بولندا، التي كانت تضم وزراء شيوعيين في حكومة الاتحاد الوطني، أبلغت اليهود داخل حدودها أن من يرغب في الهجرة إلى فلسطين فليتفضل، وكذلك خصصت السلطات التشيكية، تسع قاطرات لنقل اليهود من الحدود البولندية إلى الحدود النمساوية، وأسهمت في إقامة معسكرات مؤقتة للمهاجرين اليهود. كما قدمت السلطات الرومانية، واليوغوسلافية مساعدات استثنائية، لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين^(١).

زود الاتحاد السوفييتي العصابات الصهيونية، العاملة في فلسطين

(١) الصفحة نفسها، ص ٣٤٢: ص ٣٦١.

بالمعدات العسكرية، إلى أرسلت عن طريق تشيكوسلوفاكيا، والتي استمر إمدادها لهم حتى بعد حرب ١٩٤٨، حيث بلغت قيمة هذه المعدات ١٦.١ مليون دولار، في الفترة الأولى من النزاع المسلح بين العرب واليهود. وكانت ترسل عبر المرافيء، في يوغوسلافيا تحت حراسة ميليشيات الحزب الشيوعي اليوغوسلافي، وشملت هذه المعدات، كميات من الأسلحة، والطائرات المائية من طراز " مرشميدت "، وطائرات بريطانية من طراز " سبيتفاير "، و " موسكيتو "، ودبابات، ومدفعية ميدان مضادة للطائرات، وقاذفات لهب، ومدافع مضادة للدبابات، بالإضافة إلى ذلك، قامت وزارة الدفاع التشيكية، بموجب اتفاق عقده مع منظمة " الهاجاناه " الإرهابية، بتدريب عدد من ضباط الجيش اليهودي، في تشيكوسلوفاكيا، ومن بينهم ضباط طيران. كما قدم إلى فلسطين، خبراء من مصانع " سكودا " التي تمتلكها الحكومة التشيكية، لمساعدة اليهود على تحويل الطائرات المدنية إلى طائرات حربية، وذكرت وزارة الخارجية البريطانية، أن أسطولاً صغيراً من الطائرات يحمل علامة دولة غير أوروبية، كان يشترك في نقل العتاد من تشيكوسلوفاكيا، إلى إسرائيل، بعد قيامها مباشرة^(١).

أعلن المندوب السوفيتي في الأمم المتحدة، في ٤ مايو/ أيار ١٩٤٨ أي قبل إعلان دولة إسرائيل بعشرة أيام، أعلن أنه توجد دولة يهودية، بالرغم من محاولات بلاد معينة إعاقة تنفيذ قرار التقسيم^(٢)، قاصداً بذلك

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) محمد نصر منها، السوفييت والقضية الفلسطينية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص

التلميح لمعارضة الدول العربية.

قدم الاتحاد السوفييتي اعترافًا قانونيًا، و مباشرًا بالدولة اليهودية، فور قيامها، واعتبر أول دولة تقدم هذا الاعتراف القانوني، فقد سبقت الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك. وفي خلال شهري أغسطس/ آب، و سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٤٨، تم تبادل البعثات الدبلوماسية بدرجة مفوضية بين الاتحاد السوفييتي، وإسرائيل، وتم افتتاح مقر البعثة السوفييتية، في أغسطس/ آب ١٩٤٨، في تل أبيب، وفي ٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨، وصلت جولدا مائير، ومعها أعضاء البعثة الدبلوماسية إلى موسكو، كأول مبعوث دبلوماسي لإسرائيل، وتم اعتماد أوراقها في الكرملين، في ١٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٨^(١)، وتم بعدها الاتفاق على التعاون الاقتصادي، وإمداد إسرائيل بالمواد الغذائية اللازمة، وأيضًا، باليهود المهاجرين إلى إسرائيل.

غاب دور السوفييت المؤيد للعرب، قبل أو خلال أو بعد حرب ١٩٤٨، ولكن كل المواقف السوفييتية أيدت قيام الدولة اليهودية، وساندت اليهود السوفييت للهجرة إلى فلسطين، ونشر الفكر السوفييتي داخل الوطن العربي، ولم يشارك السوفييت حتى في لجان الهدنة عام ١٩٤٩، ولا في " لجنة التوفيق الدولية "، التي تكونت لكي تعمل على تنمية العلاقات الحسنة بين إسرائيل، والعرب، ووضع الأماكن المقدسة، تحت إشراف الأمم المتحدة، والسماح لمن يرغب من اللاجئين الفلسطينيين، في العودة

(١) محمد كمال يحيى، السوفييت والقضية الفلسطينية (١٩٤٨ - ١٩٦٧)، القاهرة، دار الطباعي، ١٩٨٦، ص ٥٩.

إلى ديارهم، أو دفع التعويضات لهم.

٤- الأمم المتحدة ومجلس الأمن:

أنشئت الأمم المتحدة، في سان فرانسيسكو، في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٥، وكانت فلسطين - حينذاك - تحت الانتداب البريطاني، بموجب "صك الانتداب"، الصادر عن "عصبة الأمم"، في عام ١٩٢٢^(١)، وأثناء سريان الانتداب، كانت فلسطين تتمتع بمركز دولي مستقل، وتملك السيادة على أراضيها، وكانت إرادتها بيدها من الناحية النظرية، فحسب، وفي الواقع العملي فهي بيد بريطانيا^(٢)، ولكن الأمم المتحدة لم تمنحها هذه الاستقلالية لفترة طويلة، فكان الغرب يحث الخطى لإقامة إسرائيل مع إنشاء الأمم المتحدة، ليكون هناك مشروعية، وتصديق دولي على قرار التقسيم، فما كان للغرب إلا ماسعى نحوه!

طالبت بريطانيا بعقد دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة، بين ٢٨ إبريل/ نيسان و ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٧، وإنشاء لجنة تابعة للأمم المتحدة معنية بفلسطين، تسمى "لجنة فلسطين"، لدراسة المشكلة الفلسطينية، عهدت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى لجنتها الأولى بمهمة تحديد نطاق المشكلة، وقامت اللجنة بزيارة فلسطين، والاستماع إلى ممثلي "الوكالة اليهودية"، الذين طالبوا بالتصريح لهم بالهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، وإقامة دولة لهم في فلسطين، كما استمعت اللجنة إلى ممثلي "الهيئة العربية العليا"، الذين طالبوا بوضع حد للانتداب، فوراً،

(١) الأمم المتحدة وقضية فلسطين، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٧، ص ٧.

(٢) الوضع القانوني للضفة الغربية وغزة، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٨٢، ص ٣.

وإقامة حكومة ديموقراطية ذات سيادة على فلسطين^(١). قدمت اللجنة تقريرها بالاقترح على الجمعية العامة للأمم المتحدة، بإنشاء لجنة تحقيق خاصة، توضع تحت تصرفها جميع الوسائل اللازمة، لتقديم مقترحات لحل القضية الفلسطينية، وبالفعل وافقت الجمعية العامة على تكوين لجنة تحقيق خاصة، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٧^(٢)، وتم تشكيل اللجنة من ١١ دولة، استبعد منهم الدول العربية والدول الكبرى، ولعب اللوبي الصهيوني دوره في التأثير على هذه اللجنة بأن أقحم اليهود الموجودين خارج فلسطين، في نطاق المشكلة، وأنهت اللجنة أعمالها، في ٣١ أغسطس/ آب ١٩٤٧، باتفاق أعضائها على مسألة إنهاء الانتداب، ومبدأ الاستقلال، وعلى دور الأمم المتحدة في الوصول إلى قرار بشأن تسوية القضية الفلسطينية، وأوصت غالبية أعضاء اللجنة (أورجواي، وبيرو، وتشيكوسلوفاكيا، والسويد، وجواتيمالا، وكندا، وهولندا) بتقسيم فلسطين دولة عربية، ودولة يهودية، على أن يكون لمدينة القدس مركز دولي تحت السلطة الإدارية للأمم المتحدة، ويربط الكيانات الثلاثة إتحاد اقتصادي، كما اقترحت خطة الأقليات التي قدمتها إيران، والهند، ويوغسلافيا، إقامة هيكل فيدرالي مستقل، مكون من دولة عربية ودولة يهودية، وتكون القدس عاصمة الإتحاد، وامتنعت استراليا عن التصويت^(٣). فجاء التقرير بما لا يرضيه العرب، وهو قرار تقسيم فلسطين إلى دولة

(١) الأمم المتحدة، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٣.

(٢) محمد نصر مهنا، مشكلة فلسطين أمام الرأي العام العالمي ١٩٤٥ - ١٩٦٧، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١٣٧.

(٣) الأمم المتحدة، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٧.

عربية وأخرى يهودية، وفي ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، إعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة، القرار ١٨١ (د. ٢) ب ٣٣ صوتاً، مقابل ١٣ صوتاً، وامتناع ١٠ دول، وغياب دولة على قرار التقسيم^(١)، ومن ثم اندلع القتال بين المقاومين العرب والمسلحين الصهاينة في فلسطين، واحتدم الصراع في الربع الأول من عام ١٩٤٨، فعقد مجلس الأمن دورة استثنائية، استمرت من ١٦ إبريل/ نيسان، إلى ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨، وطالب فيها بوقف جميع الأنشطة العسكرية في فلسطين، وفي ٢٣ نيسان/ إبريل ١٩٤٨، أنشأ مجلس الأمن " لجنة الهدنة "، للإشراف على وقف إطلاق النار^(٢)، والمساعدة في تحقيق الهدنة في فلسطين، وقررت تعيين وسيط مهمته التشجيع على الوصول إلى تسوية سلمية، بالتعاون مع لجنة الهدنة، وطالب مندوب الولايات المتحدة بوضع فلسطين تحت الوصاية، وكان الرئيس الأمريكي، ترومان، يسعى لتهدئة الأمور في فلسطين، لمدة عشرة أيام، من ٥ مايو/ أيار حتى إعلان الدولة الإسرائيلية في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨^(٣). والذي بموجبه وضعت إسرائيل يدها على الأراضي التي خصصت لها، بموجب قرار التقسيم، وعلى الفور تجدد القتال بين العرب، والمنظمات الصهيونية المسلحة، حيث دخلت القوات العربية للدفاع عن فلسطين، في اليوم التالي لإعلان قيام الدولة الصهيونية، ودعا مجلس الأمن، في ٢٩ مايو/ أيار ١٩٤٨، إلى هدنة لمدة أربعة أسابيع، عن طريق هيئة الأمم المتحدة، ثم اشتعل القتال مرة

(١) خيرى طلعت، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٣٣.

(٢) الأمم المتحدة، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٧.

(٣) طلعت، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٤١.

أخرى، في ٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨، وفي ١٥ منه قرر مجلس الأمن وقف إطلاق النار، وفي ذلك الوقت، سيطرت إسرائيل على أجزاء من الأراضي العربية - بموجب قرار التقسيم، وكذلك الجزء الغربي من القدس، وفي مارس/ آذار ١٩٤٩، استولت إسرائيل على أراضي أخرى، وفي ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، عقدت الأمم المتحدة دورتها الثالثة، واعتمدت القرار رقم ١٩٤ (د. ٣)^(١)، والذي يسمح للاجئين الفلسطينيين، بالعودة إلى ديارهم، والعيش في سلام مع جيرانهم اليهود، وتعويض من يختارون عدم العودة عن ممتلكاتهم، كما دعا القرار إلى جعل مدينة القدس منزوعة السلاح، ودعا إلى تدويلها، وحماية الأماكن المقدسة في فلسطين، وضمان حرية الوصول إليها، كما نص القرار ١٩٤، على إنشاء لجنة توفيق لفلسطين تابعة للأمم المتحدة، ومؤلفة من ثلاثة أعضاء، تتولى مهام وسيط الأمم المتحدة، حسب ما تراه ضرورياً.

حاولت " لجنة التوفيق " حل ثلاث قضايا، وهي حجم الأرض، اللاجئين، وضع مدينة القدس، وخلال مفاوضات مع كل من الأردن، وسوريا، ولبنان، ومصر، وإسرائيل في مؤتمر عقد في لوزان، في إبريل/ نيسان عام ١٩٤٩، تم التوصل إلى بروتوكول وقع عليه كل طرف بصورة منفصلة، واتفقوا على استخدام الحدود التي حددها قرار التقسيم كأساس للبحث، إلا أن دورة اللجنة لعام ١٩٤٩، انتهت دون التوصل إلى نتائج، إذ أصرت الدول العربية على عودة اللاجئين، وأصرت إسرائيل على إعطاء أولوية لمسألة الأرض، وفي خطوة لحماية

(١) الأمم المتحدة، مصدر سبق ذكره، ١٩٩٧، ص ٧.

بأقي الأراضي الفلسطينية، قام الأردن، في عام ١٩٥٠، بوضع الضفة الغربية، والقدس الشرقية تحت سلطته^(١).

رفضت الأمم المتحدة أول طلب لإسرائيل، بالانضمام إليها، في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٨، بالرغم من تأييد الولايات المتحدة الأمريكية لهذا الطلب، والاتحاد السوفيتي، وأوكرانيا والأرجنتين، وكولومبيا، واعتضت سوريا، فيما امتنعت بريطانيا، فرنسا، الصين، بلجيكا، وكندا، عن التصويت، بحجة عدم وجود حدود للدولة الإسرائيلية^(٢). ثم أعادت إسرائيل الكرة مرةً أخرى، وأصبحت عضواً في الأمم المتحدة، في ١١ أيار/ مايو ١٩٤٩.

تُكون " حلف شمال الأطلسي "، الذي عرف بـ " الناتو "، في ١٤ إبريل/ نيسان ١٩٤٩، وقعت عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وعشر دول أوروبية أخرى، ونصت المادة الخامسة منه على " أن أي هجوم مسلح على أي دولة من دول الحلف يعتبر هجوماً عليها جميعاً " ^(٣)، والغرض من تكوين هذا الحلف إرهاب الدول العربية التي تفكر في الهجوم على إسرائيل.

٥- الحركات الصهيونية:

اعتبر هرتسل، المؤسس الحقيقي للحركة الصهيونية المنظمة، وهو أول من أطلق اصطلاح " أرض إسرائيل "، وكلمة " القومية اليهودية "،

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها، ١٩٩٧، ص ٧.

(٢) يحيى، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.

كما دعا هرتسل إلى المؤتمر الصهيوني الأول، الذي انعقد بسويسرا، في أغسطس/ آب ١٨٩٧^(١)، ومنذ ذلك التاريخ تم إنشاء المؤسسات المالية الصهيونية، التي هدفت إلى شراء الأراضي في فلسطين، وتهجير اليهود إلى أرض فلسطين.

أعدت الدوائر الاستعمارية الفرنسية، في عام ١٧٩٨، خطة لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين، في مقابل تقديم اليهود قرضًا لحكومة فرنسا التي كانت تعاني ضائقة مالية، آنذاك، على أن يقوم اليهود بإشغال الفتن، والفوضى في المناطق التي يرتادها الجيش الفرنسي، بقيادة نابليون بونابرت، لتسهيل احتلالها من جانب فرنسا^(٢).

مارست الشخصيات اليهودية المقيمة في الاتحاد السوفييتي نفوذها لجعل ستالين يسمح لهم بالذهاب إلى بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والتضامن مع اليهود الموجودين بها، والتصريح بأن الصهيونية فكرة عظيمة، وإن لم تصلح للتطبيق على يهود السوفييت، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٤، كتب رئيس اللجنة اليهودية المناوئة للفاشية، أن الشعب اليهودي له الحق في الاستقلال السياسي في فلسطين، وتطوير وطنهم الذي أقاموه، من خلال العمل الشاق على أساس الحكم الذاتي^(٣). كما مارس الصهاينة الأمريكيون ضغطًا سياسيًا على حكومة العمال، في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ لكي تفعل دورها في فلسطين، وذلك

(١) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٩.

(٢) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٧.

(٣) مهنا، السوفييت، مصدر سبق ذكره، ص ١٠.

من خلال دعمهم للرئيس الأمريكي ترومان، في حملته الانتخابية لرئاسة الجمهورية، وحمل بريطانيا على الضغط على العرب في قبول مطالب الصهاينة^(١).

في تصريح للزعيم الصهيوني، حاييم وايزمن - أول رئيس لدولة إسرائيل - سنة ١٩٤٨، قال " إن مقاومة الفلسطينيين، ومواقف الحاج أمين الحسيني ضد إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، هي التي أخرت تنفيذ البرنامج اليهودي إلى عام ١٩٤٨، بينما كان مقرراً له أن يتحقق في عام ١٩٣٤ " ^(٢). كما أن وايزمن مارس ضغوطاً على الرئيس الأمريكي ترومان، لكي يرفض أي قرار يتخذه المسؤولون الأمريكيون الموالون للحركة الصهيونية، ضد إقامة دولة صهيونية في فلسطين. حيث كان ٤٧% من اليهود يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، و ١٧% منهم لهم أصوات قوية في الانتخابات الأمريكية^(٣). وهذه القوة السياسية الداخلية لليهود في الولايات المتحدة الأمريكية لا يستهان بها في تحديد اتجاه السياسة الخارجية الأمريكية، وتوجيه التأييد نحو إقامة الدولة اليهودية، على حساب مصالح العرب وحقوقهم.

أعلن وكيل وزارة المستعمرات اليهودية في فلسطين، في ٢٦ سبتمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، موافقة حكومته على إنهاء الانتداب البريطاني في أسرع وقت. بلغ عدد الفلسطينيين ١٥٦ ألف، عندما قامت

(١) مايكل آدمز وكريستوفر مايهيو، لا تبشروا، إخفاء حقائق الشرق الأوسط، القاهرة، مكتب مترجمة ٧٢١، الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٧٨، ص ٢١.

(٢) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٣.

(٣) فرد لوسون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

الدولة الإسرائيلية، وهو ما تبقى منهم في فلسطين، وبلغ عدد اليهود ٦٥٠ ألفاً، بينما القوة الاقتصادية لليهود تفوق القوة الاقتصادية للفلسطينيين، حيث تلقى اليهود مليارات الدولارات من الدول المؤيدة للدولة الإسرائيلية^(١)، وخاصة الجاليات اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، ولولا مؤازرة هذه الدول العظمى لإسرائيل ومد يد المساعدة لها في جميع المجالات لما كانت إسرائيل ليومنا هذا!

لم يتغير موقف الدول الغربية، بعد الحرب، إلا بزيادة التأييد للحفاظ على أمن الدولة اليهودية الجديدة، وترسيخ قواعدها، واستمرار وجودها وأمنها، وفي ذات الوقت، التصدي لأي طموحات عربية في الاستقلال، والحرية، والوحدة العربية لضمان وحماية مصالح هذه الدول الاستعمارية، في المنطقة الحيوية من العالم، والتي تضم معظم الدول العربية، والذي حرصت الدول الغربية الاستعمارية، على بقائها مشتمة، وممزقة داخلياً، عن طريق إشعال الفتنة الداخلية، والخلاف على الحدود، والسعي وراء المصالح الخاصة بكل دولة، والبعد عن أي مشاركة عربية، وعدم الالتفات حول قضية واحدة، وهذا ما هدفت إليه السياسة الاستعمارية الغربية، حتى يومنا هذا.

* * *

(١) محمد نصر مهنا، مشكلة فلسطين، مصدر سبق ذكره، ١٩٧٩، ص ١٥٥.

كما تم الاستعانة بالمراجع الآتية:-

١ - إبراهيم شقيب، حرب فلسطين ١٩٤٨ رؤية مصرية، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦.

٢ - ميخائيل سليمان (محرراً)، فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلينتون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

الفصل العاشر:

الرواية الإسرائيلية للحرب

خالد سعيد

صوّتت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، بأغلبية ٣٣: ١٣ صوتاً (وامتناع ١٠ أصوات، وغياب صوت واحد)، على تقسيم الأراضي الفلسطينية إلى دولتين، الأولى عربية، والأخرى يهودية، مع وضع مدينة القدس تحت الإدارة الدولية.

وقد استقبلت الطائفة اليهودية، القرار بالفرح والسعادة، واحتفلت، علناً، بما اعتبرته يوماً تاريخياً في حياتها، لكن البلاد العربية لم تبتهج للقرار ورفضته، وأعلنت تصميمها على قتال العصابات الصهيونية، للحيلولة دون تنفيذ القرار الأممي.

أرّخت المصادر العبرية بداية حرب ١٩٤٨، أو حرب " الاستقلال " أو " التحرير " (كما يطلق عليها الإسرائيليون) بصدور القرار الأممي رقم ١٨١، والخاص بتقسيم فلسطين إلى دولتين، إذ اعتبرت تلك المصادر الهجوم العربي على الأتوبيس رقم ٢٠٩٤، والذي كان في طريقه من نتانيا إلى القدس، وحاملاً مسافرين يهود، ومقتل خمسة من ركابه، بدايةً لحرب فاصلة، اعتبرت الحرب الأولى للصراع العربي -

مع اندلاع الحرب، تمخضت أمور مهمة عدة، وهي أجزاء هذه الدراسة، ومن بينها، المواجهات الدامية بين الجيوش العربية، كطرفٍ أول، والعصابات الصهيونية، كطرفٍ ثانٍ، ومدى استعدادهم للحرب، وكيف ينظر الإسرائيليون إليها، بعد مرور ما يقرب من الستين عامًا، على إقامة دولتهم، أو تجمعهم المزعوم، فضلاً عن الطرق الخداعية، التي احتالت بها العصابات الصهيونية لزيادة رقعة الأراضي التي سُلِبت من أيدي الفلسطينيين، وذلك من خلال الرواية الإسرائيلية للحرب.

منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، بمدينة بازل السويسرية، صيف عام ١٨٩٧، بقيادة تيودور هرتزل، وانتهاءً بإنشاء الدولة اليهودية، في الخامس عشر من مايو/ أيار عام ١٩٤٨، ومرورًا بتصريح بلفور، عام ١٩١٧، والقاضي بتأييد بريطانيا لإقامة وطن قومي لليهود على الأراضي الفلسطينية، ومن بعده اندلاع ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، فضلاً عن العديد من المواجهات اللاحقة بين الأهالي الفلسطينيين والعصابات اليهودية.

بيد أن الإسرائيليين، اعتبروا الصدمات، التي اندلعت، في الثلاثين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، بمثابة تصعيد للصراع المتقطع بين الطرفين (٢)، وبداية " حرب الاستقلال " كما يطلقون عليها.

(١) دائرة المعارف باللغة العبرية (ويكيبيديا)، حرب الاستقلال.

انظر الموقع الإلكتروني www.wikipedia.co.il

(٢) حاييم هرتزوج، الحروب العربية - الإسرائيلية (٤٨ - ١٩٨٢)، ترجمة بدر الرفاعي،

تؤكد غالبية المصادر الإسرائيلية، أن العصابات الصهيونية، والمستوطنين اليهود، الذين كانوا موجودين قبيل إنشاء الدولة العبرية، بأنهم لم يكونوا مستعدين للحرب، كلية، كما اعتبروا أن القوات البريطانية، كانت على عداٍ سافر، للمستوطنين اليهود ^(١).

لم تكن هناك خطوط فاصلة بين العرب واليهود، وغالبية المستوطنات الصهيونية كانت بمعزل عن بعضها البعض (خاصة مستوطنات النقب بالجنوب الفلسطيني المحتل)، فضلاً عن ضعف طرق المواصلات، بينها وبين التكتلات اليهودية، بالمدن الساحلية، ومدينة القدس ^(٢).

فعلى سبيل المثال، كان بصحراء النقب، عشية اندلاع الحرب، ٢٥ مستوطنة يهودية فقط، و ٤٠٠ شخصاً في ١٤ مستوطنة (بمعدل ٢٥ - ٣٠ شخصاً في المستوطنة الواحدة)، و ٤٥٠ شخصاً آخرين، في ١١ مستوطنة، مقابل ما يزيد عن المائة ألف عربي بالمكان نفسه ^(٣).

القوات العسكرية بين الطرفين:

أولاً: الصهيوني:

اختلفت الروايات الإسرائيلية، حول عدد القوات اليهودية، أو العصابات الصهيونية، التي أمكن حشدها، عند اندلاع القتال، إذ تشير

ط١، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص٧.

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢) إيلان بن يعقوب، النقب في حرب الاستقلال، جامعة بن جوريون، ب. ت (بالعبرية).

(٣) المصدر نفسه.

دائرة المعارف العبرية (ويكيبيديا باللغة العبرية) إلى أن تعدادهم تخطى الـ ٣٠ ألفاً، فيما يرى حاييم هرتزوج، في كتابه (الحروب العبرية - الإسرائيلية

٤٨ - ١٩٨٢)، أن القوة اليهودية الذي أمكن حشدها من بين إجمالي تعداد اليهود، آنذاك (٦٥٠ ألف نسمة)، هو حوالي ٤٥ ألفاً، بينهم ٣٠ ألفاً من الرجال والنساء كان عملهم قاصراً على الدفاع المحلي (على حد وصفه)، معتبراً أن القوة الفاعلة الذي أمكن حشدها ١٥ ألفاً، عند اندلاع القتال.

تشكلت العصابات الصهيونية من عدة تنظيمات، أو تشكيلات عسكرية، كان أهمها تنظيم " الهاغاناه " * ويتكون من ٢٥ ألفاً من الرجال، وتنظيم " البلماخ " من ثلاثة آلاف، و " إيتسل " ** ويتكون من ثلاثة آلاف رجل وإمرأة، وتنظيم " ليحي " ***، ويتكون من بضع مئات من الرجال والسيدات ^(١).

في الثامن عشر من مايو/ أيار ١٩٤٨، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق ديفيد بن غوريون، عن إنشاء الجيش الإسرائيلي،

(*) الهاغاناه: نواة الجيش الإسرائيلي، وهي عبارة عن مجموعات مسلحة، أو ميليشيا إسرائيلية، تشكلت بهدف الدفاع عن المستوطنات الصهيونية، قبل إنشاء الدولة الصهيونية، وتعني بالعبرية " قوات الدفاع ".

(**) إيتسل: تعرف بالهاغاناه (ب)، لانشقاقها عن تنظيم الهاغاناه، عام ١٩٣٧، وتعني الهاغاناه القومية، أو المنظمة العسكرية القومية.

(***) ليحي: هي اختصار لثلاث كلمات عبرية، تعني (المقاتلون من أجل حرية إسرايل)، تأسست عام ١٩٤٠، وهدفت إلى إقامة " المملكة العبرية من النيل إلى الفرات ".

(١) ويكيبيديا، مصدر سبق ذكره.

وتوحيد العصابات الصهيونية، تحت إمرته، وكانت منظمة " إيتسل " أول من انضم للجيش، ولحقته منظمة " ليحي " بأربع وعشرين ساعة^(١)، مع التأكيد على أن تنظيم الهاغاناه كان نواة الجيش الإسرائيلي.

كان إجمالي تسليح الهاغاناه، عشية الحرب، ١٠.٥٠٠ بندقية، و ٣٥٠٠ رشاش، و ٧٧٥ مدفع خفيف، و ٣٤ مدفع هاون عيار ٣ بوصة، و ٦٧٠ هاون عيار ٢ بوصة، مع ذخيرة لا تكفي إلا لثلاثة أيام فقط من القتال. وكان لدى القوات الجوية للبلماخ ١١ طائرة خفيفة، ذات المحرك الواحد، يعمل عليها ٤٠ طيارًا، فضلاً عن ٣٥٠ بحارًا سبق لهم العمل في البحرية الملكية البريطانية، وفي عمليات الهجرة غير الشرعية، بجانب عدد من القوارب البخارية والضفادع البشرية، بيد أن المدفعية، والأسلحة المضادة للدبابات، كانت مجرد حلم، فلم يكن بيد القوات الصهيونية أيًا منها^(٢) عشية اندلاع الحرب.

أثناء الحرب العالمية الثانية، تطوع عدد من اليهود للخدمة في صفوف القوات البريطانية، تشكلت مجموعة منهم بقوة لواء، للعمل ضد الألمان في إيطاليا، وكانت الخبرة القتالية التي اكتسبها ٣٠ ألفًا من المتطوعين، في جميع أسلحة الجيش البريطاني، كان لها الأثر الكبير، عند قيام الجيش الإسرائيلي.

اعتمدت العصابات الصهيونية في تسليحها، قبل إنشاء الدولة الإسرائيلية، على سرقة مخازن الأسلحة البريطانية، والتهريب المستمر

(١) بن كسبيت وآخرون، أرشيف صحيفة معاريف الإسرائيلية، ١٩٤٨/٥/١٨.

(٢) هرتزوج، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

من الخارج، وتقدر بعض المصادر العبرية بأنه في الأول من إبريل/ نيسان ١٩٤٨، وصلت شحنة أسلحة تشيكية، مهربة وبكميات كبيرة، وقدرت بـ ٢٠٠ بندقية، و ٤٠ رشاش خفيف، وذلك على متن طائرة واحدة، في حين وصلت السفينة التشيكية الأولى محملة بالبنادق والرشاشات الخفيفة، التي جرى تفريغها وتوزيعها، سرًا، على الوحدات العسكرية الإسرائيلية، دون إزالة الشحم عنها، في كثير من الأحوال، وقدرت البعض هذه الشحنة بأنها كانت دفعة معنوية كبيرة للعصابات الصهيونية، خاصة وأن بعض هذه المصادر العبرية أشارت إلى وجود الآلاف من البنادق والرشاشات، وألفين من القنابل الموقوتة، وعدد كبير من الطائرات، (ولم تذكر العدد تحديدًا) ^(١).

حاولت منظمة "إتسل"، في الثاني والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٤٨، الاستيلاء على سفينة أسلحة قادمة من أوروبا، وتدعى "ألتنا"، على متنها تسعمائة متطوع وأسلحة وذخيرة، قدرت بالآلاف وأمرهم بن غوريون بتسليم هذه الأسلحة للجيش الإسرائيلي، إلا أن نزاعًا نشب بين منظمة "الهأغاناه"، التي تشكل منها الجيش الإسرائيلي، ومنظمة "إتسل"، اشتعلت النيران في السفينة، على إثره، وغرقت، وقتل ١٣ رجلاً، وأصيب ٤٨ آخرين ^(٢).

(١) مائير باعيل، حروب إسرائيل (حرب الاستقلال)، ١٩٩٨، انظر الموقع الإلكتروني

www.lib.cet.ac.il

(٢) بن كسبيت وآخرون، معاريف، ١٩٤٨/٧/٢٢.

ثانياً: العربي؛

عندما اقترب الموعد الذي حددته بريطانيا للإنسحاب من فلسطين، كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارها بتدخل دولها الأعضاء، عسكرياً، حيث اشتركت مصر، في بداية الحرب، بـ ١٠ آلاف رجل، وبمرور الوقت، وصل العدد إلى ٢٠ ألف جندي، وكان الجيش المصري أقوى الجيوش العربية، وسوريا اشتركت، في البداية، بـ ٢٥٠٠ جندي، وصلوا إلى

٥ آلاف، بمرور الوقت، أما الجيش العراقي فكان يتكون في مطلع الحرب من ٥ آلاف جندي، وصلوا، نهاية الحرب إلى ١٧ ألف جندي (١).

تشكل الجيش اللبناني في البداية من ألف جندي، وصلوا مع مرور الوقت إلى ألفي جندي، بيد أن " الفيلق العربي " كان القوة العسكرية الأفضل بين القوات العربية، تدريباً وأكثرها فاعلية، حيث تولى قيادته الضابط البريطاني " جون باغوت غلوب باشا " أحد محاربي الحرب العالمية الأولى المحنكين. وضم الفيلق أكثر من ١٠ آلاف مقاتل، منظمين في ثلاثة ألوية، وعدد من كتائب الدبابات، وعناصر المدفعية. فيما شكّل " الجهاد المقدس " وحدتين تابعتين لأمين الحسيني مفتي القدس، والذي تألف من ألفين من الرجال الأشداء، وتشكلت قوة عسكرية أخرى سميت " جيش الإنقاذ العربي "، بقيادة الضابط اللبناني ابن طرابلس الشام فوزي القاوقجي.

(١) ويكيبيديا، مصدر سبق ذكره.

على اعتبار أن بعض الجيوش العربية تملك عددًا كبيرًا من الدبابات والطائرات، وأنها، في الأساس، جيوش نظامية، تفتقر إليها القوات أو العصابات الصهيونية، فإن الإسرائيليين رأوا، في ذلك، دفعة معنوية كبيرة سجلت لصالح اليهود، آنذاك، فقد ذكروا أن الفارق الضخم بين الجيوش العربية، عدة وعتادًا، وبين القوات الإسرائيلية، التي تشكلت قبيل إنشاء الدولة، وكانت بمثابة حربًا من أجل البقاء.

المواجهة العسكرية:

اندلعت الحرب بين الطرفين، في شكل سلسلة من اشتباكات المدن، مواجهات دموية، عمليات "اضرب واهرب"، تخلف وراءها قتلى ومشوهين وجرحى من أهالي المدن، عند كلا الجانبين، هجمات على خطوط المواصلات بين المدن، ومحاولات لقطع طرق الإتصال بين المدن الرئيسية، ومحاولة عزل العرب للمستعمرات الصهيونية النائية، وعلى الرغم من أن المنطق العسكري الإسرائيلي كان يرى تقصير خطوط المواصلات عن طريق هجر مثل تلك المستوطنات، فإن الهاغاناه اتخذت قرارًا، من حيث المبدأ، بعدم هجر أي منها طواعية.

فقد كانت القيادة الإسرائيلية تقدر جيدًا أن ترك القرى، حتى لأسباب استراتيجية بحتة، يمكن أن تكون له نتائج خطيرة على المدى البعيد، فقد رأى الإسرائيليون أن الحدود النهائية للدولة اليهودية الجديدة سوف تتحدد، قبل أي شيء، على أساس التواجد الفعلي ومواقع المستوطنين اليهود، وهكذا، وبرغم شدة المعارك بين الجانبين، لم تهجر مستوطنة

يهودية واحدة، حتى دخول الجيوش العربية الحرب ^(١).

بنهاية عام ١٩٤٧، وصل إلى صحراء النقب مئات المتطوعين من تنظيم " الإخوان المسلمين " المصريين، والذين حاولوا الهجوم، أكثر من مرة، على المستوطنات الصهيونية بالنقب ^(٢).

في الوقت الذي أعلن فيه البريطانيون عن نقل ١٤ مستوطنة صهيونية، الواقعة جنوب خط غزة - بئر السبع، رفض ممثلو اليشوف اليهودي إخلاء المستوطنات، وقرر بن غوريون إقامة لجنة " النقب " (وشملت ممثلين من " الكيرين كيمت " *، والمركز الزراعي)، للدفاع عن المستوطنات ومن فيها، وتوفير المؤن، وبناء دُشم وتحصينات ميدانية، ومحاولة السيطرة على طرق النقب ^(٣).

كان المجهود العربي الرئيسي موجهاً في تلك الأثناء نحو تعطيل خطوط المواصلات الصهيونية، ونجحت القوات العربية، في البداية، في قطع الطرق التي تربط مدن الساحل بالقدس، وعزلت منطقة النقب، تمامًا، والوسيلة الوحيدة للاتصال كانت طائرة " بايبركب "، وكان قائدها عزيزا فايتسمان، والذي أصبح، فيما بعد، الرئيس السابع لإسرائيل.

على الرغم من هذا الحصار، نجح المستوطنون، في صحراء النقب في تدشين المستوطنة رقم (٢٦)، أثناء الحصار نفسه، حيث استطاعوا

(١) هرتزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(٢) بن يعقوب، مصدر سبق ذكره.

(*) الكيرين كيميت: بنك إسرائيل، وخصص لشراء وسلب الأراضي من الفلسطينيين، والاحتفاظ عليها، وتخصيصها لليهود.

(٣) المصدر نفسه.

اختراق بعض القوات المصرية فيها، وإنشاء قواعدا بسرعة مذهلة.

بنهاية مارس/ آذار ١٩٤٨، نجحت القوات العربية في كسب الجولة الأولى من الحرب، نتيجة لأسباب عدة، من بينها نجاح عزل مناطق رئيسية، كالقدس، والنقب، وأجزاء من الجليل الغربي، وكذا لقلّة العتاد العسكري الصهيوني.

بعدها بدأت جولة جديدة من الصراع العسكري بين الطرفين، خاصة مع وصول الأسلحة المهربة من تشيكوسلوفاكيا إلى إسرائيل، إذ تبادل الجانبان العربي والصهيوني، الإستيلاء على العديد من القرى العربية، والمرتفعات والمواقع الاستراتيجية، وتبادل الطرفان السيطرة عليها، أكثر من مرة.

نجحت العصابات الصهيونية في إحتلال بعض القرى العربية، باستغلال عنصر المفاجأة، خلال ساعات الليل، وتحت جنح الظلام، فكان أسلوبهم المعتاد، خلال الأشهر التي سبقت إنشاء دولتهم، هي الإحتلال ليلاً، وتدمير البيوت، ومن ثم الإنسحاب في الصباح، فيما استطاعت قوات " القاوقجي "، بشكل خاص، إستغلال تفوقها العددي والتسليحي في إستعادة هذه القرى والمواقع التحصينية، نهائياً^(١).

في هذه الأثناء، تمكنت وحدة كوماندوز من تنظيم الهاغاناة من نسف مقر حسن سلامة، أحد القادة العسكريين الفلسطينيين البارزين، خلال

(١) مذكرات رفائيل إيتان، شخصيات صهيونية، ط١، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٦، ص١٧.

الحرب، بالقرب من مدينة القسطل، غرب القدس، والذي ترك أثرًا معنويًا بالسلب على بقية القوات العربية^(١).

استكمل هذا الأثر السلبى بقيام العصابات الصهيونية بالعديد من المذابح بحق الشعب الفلسطيني، كان أشهرها مذبحة دير ياسين، التي اعتبرت انطلاقةً قوية نحو إنشاء الدولة الصهيونية، نتيجةً لميل الكفة في صالح العصابات الصهيونية.

روت صحيفة "دافار" الإسرائيلية، في التاسع من يونيو/ حزيران ١٩٧٩، حول مذبحة قرية "دويمة"، عام ١٩٤٨، قائلةً: "قتل ما يتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ من العرب، نساء وأطفالاً، كانوا يهشمون رؤسهم بالعصي، ولم يبق منزل واحد بلا جثث فيه، نسفت منازلهم بالديناميت،... جندي كان يفخر بنفسه لأنه اغتصب امرأة عربية، قبل أن يطلق النار عليها، واستخدمت هذه المذابح كطريقة للطرْد والإبادة"^(٢).

"لقد حدثت معجزة مزدوجة، في عام ١٩٤٨، إذ أنقذ الله اليهود الذين كانوا، في (دولة إسرائيل) من العرب، ومن أنفسهم، إن أكبر بركة حظي بها اليهود، مع قيام دولتهم، كانت الهروب العشوائي الذي جاء نتيجة للرعب الذي تملك العرب، وجعلهم يهربون من "دولة اليهود" الجديدة، وبهذه الطريقة تخلصت "الدولة" من أقلية كبيرة كان من شأنها

(١) بن كسبيت وآخرون، معاريف، إبريل/ نيسان ١٩٤٨.

(٢) ليفيا روكاش، الإرهاب الإسرائيلي المقدس، دراسة مبنية على مذكرات شاريت الشخصية، ص ٢٥.

تخريبها من الداخل " (١).

الخطوة (د) :

تيقنت العصابات الصهيونية، قبيل إنشاء الدولة الإسرائيلية، من أن الجيوش العربية ستهاجم، لا محالة، على تلك العصابات، وستطردها، وتلقي بهم في البحر، لذلك قاموا بإعلان الخطوة (د)، التي تدعو إلى تأمين كافة القرى والمواقع الحصينة التي استولوا عليها، ومحاولة احتلال أجزاء كبيرة من الأراضي الفلسطينية الأخرى، والسيطرة على طرق المواصلات الحيوية، وسقطت بعدها عدة مدن عربية رئيسية، مثل طبرية، وصفد، وحيفا، ويافا، بالإضافة إلى فك حصار مستوطنات النقب بالجنوب (٢).

تكوين الدولة الإسرائيلية "التجمع الصهيوني" :

في تلك الأثناء، كان الجلاء البريطاني يتم حسب خطته المقررة، فقد انسحبت القوات البريطانية، تبعاً، من عدد من المناطق بفلسطين، دون أن تنتقل سلطاتها الإدارية إلى أي جهة أخرى، تاركة خلفها فراغاً، وحالة من الفوضى الشاملة، حيث رأت بريطانيا أن انسحاب الـ ١٠٠ ألف جندي بريطاني من فلسطين، سالمين، هو نجاح كبير لها، مع عدم التدخل بين الطرفين العربي والإسرائيلي (٣).

(١) مائير كاهانا، شوكة في عيونكم، ترجمة غازي السعدي، ط١، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٩٥، ص ٢٠٥.

(٢) بن يعقوب، مصدر سبق ذكره.

(٣) حرب الاستقلال، الموقع الإلكتروني للكنيست الإسرائيلي، انظر الموقع الإلكتروني

www.knessit.co.il

جاء هذا في الوقت الذي كانت القيادة الإسرائيلية تناقش فيه مسألة وجوب إعلان ما يسمى "بالاستقلال"، في الرابع عشر من مايو/ أيار ١٩٤٨، موعد الانسحاب البريطاني، من عدمه، لتحاشي دفع الجيوش العربية لخوض حرب بين الطرفين، لكن بن غوريون، الذي كان يرأس، في ذلك الوقت، ما يعرف بحكومة إسرائيل المؤقتة، قرر أن يستغل الفرصة التاريخية، التي سنحت للإسرائيليين، ليعلن قيام دولة إسرائيل ليلة، الخامس عشر من مايو/ أيار ١٩٤٨.

في الوقت الذي أعلن فيه عن قيام دولة للتجمع الصهيوني، عبرت الجيوش العربية الخمسة الحدود، لتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة من العصابات الصهيونية، حيث عزم كل جيش أن يعمل وفق مصالحه الوطنية، على حد زعم حاييم هرتزوج^(١).

فكان على اللبنانيين أن ينطلقوا بطول الساحل الشمالي، نحو مدينة نهاريا اليهودية، وعلى السوريين أن يعبروا إلى شمال وجنوب بحيرة طبرية، والتقدم إلى مدينة سمخ، بهدف السيطرة على الجليل، وكان على العراقيين أن يعبروا الأردن جنوبي بحيرة طبرية، والتحرك، خلال المثلث العربي، والتقدم نحو مدينة نتانيا، على ساحل البحر المتوسط، لشق ما استولى عليه اليهود، إلى قسمين.

فيما كان الهدف المحدد للفيلق العربي الأردني السيطرة على نابلس، "الضفة الغربية"، أو السامراء، بلواء واحد، بينما يستولي اللواء الآخر

(١) هرتزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

على الرملة، عند مشارف تل أبيب بالسهل الساحلي، ويظل اللواء الثالث كاحتياطي.

أما المصريون فكان عليهم أن يتحركوا بقوتين: الكتلة الرئيسية، تنطلق من العريش، وتتقدم بطول السهل الساحلي، لتسيطر على غزة، ثم تتقدم، شمالاً، نحو تل أبيب، وعلى القوة الأخرى، والتي يدعمها متطوعو الإخوان المسلمين، التوجه صوب الشمال الشرقي، مروراً بمدن العوجة، وبئر السبع، والخليل، ومواجهة القوات اليهودية، المدافعة عن المداخل الجنوبية للقدس.

في حين أوكل إلى " جيش الإنقاذ العربي " مهمة الدفاع المحلي.

ويبدو أن التنسيق بين القوات العربية كان مفتقداً، فقد كانت منقسمة أكثر منها موحدة، حتى أنه عندما اقترب الموعد، الذي حددته بريطانيا للإنسحاب من فلسطين، كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارها بالتدخل، لكن الإعداد للحرب في مواجهة العصابات الصهيونية تم على أرضية الخلافات العربية، المتعذر تجنبها، ومكائد ومناورات العديد من الحكام العرب، ضد بعضهم البعض.

فالملك فاروق، على سبيل المثال، قد توصل إلى استنتاج مؤداه القيام بمغامرة عسكرية كبيرة، في ظل ما تخيله فرصة لصالحه، من أجل صرف الرأي العام المصري عن المشاكل الداخلية، قد يمكن أن تسهم في تدعيم مركزه، وأنه بمساهمته بقوة كبيرة، يمكنه أن يفشل نوايا الملك عبد

الله في استغلال الموقف وإحكام سيطرته على الأراضي الفلسطينية^(١).

على العكس، كان الإسرائيليون على وعي بأنهم يقاتلون حماية لأرواحهم، وأرواح أطفالهم ونسائهم، وكانوا يتمتعون بقيادة بارعة، يولونها ثقتهم، وثمة تنسيق بين وحداتهم المقاتلة، بحيث تمكنوا من تحريك احتياطي قواتهم من جهة لأخرى، أثناء الحرب.

فيما كانت القوات الإسرائيلية، آنذاك، تتكون من تسعة ألوية للعمليات، مقسمة بطول وعرض المدن الفلسطينية.

في السادس من صباح الخامس عشر من مايو/ أيار ١٩٤٨، ومع طلوع أول فجر لتجمع صهيوني، شكّل دولة إسرائيل، شن سرب من ٦ طائرات مصرية غارات جوية على مدينة تل أبيب، وفجّر الميناء، والمطار فيها، وأسقط العشرات من الإسرائيليين، ما بين قتيل وجريح، في حين سقط أحد الطيارين المصريين الستة في الأسر، بعد أن نجح في الهبوط من طائرته، التي تصدت لها نيران المدفعية الإسرائيلية، من سلاح الطيران اليهودي " الإسرائيلي"، الذي تشكل في اليوم الأول من الحرب^(٢).

في الوقت نفسه، تقدم الجيش المصري في الجنوب، حيث اتجهت قوته الأولى عن طريق الشاطئ، من رفح باتجاه تل أبيب، واستطاع السيطرة على مدينة غزة، وحاول التقدم نحو أسدود. بيد أن الإسرائيليين

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٢) بن كسبيت وآخرون، معاريف، ١٩٤٨/٥/١٥.

استطاعوا تدمير الجسور المؤدية إلى المدينة، في حين تقدم الجيش المصري بقوته الثانية، بتدعيم قوي من جماعة الإخوان المسلمين، نحو العمق الفلسطيني، وتمكن من السيطرة على خط: المجدل - الفالوجة - بيت جبرين - الخليل، وخط: أسدود - القسطينة، واستطاع المصريون عزل المستوطنات الصهيونية في النقب، بيد أن كل هذه النجاحات كانت في بدايات الحرب الحقيقية، التي تلت إعلان الدولة، ودخول الجيوش العربية للأراضي الفلسطينية^(١).

ألقت بعض الطائرات المصرية على مستوطني النقب لافتات باللغة العبرية، تحض الصهيونيين على الاستسلام، إذ كتب فيها: " عليكم إخلاء المستوطنات، وإلقاء السلاح، بهدوء، ورفع العلم الأبيض، وذلك خلال ساعة واحدة، ومن لم يلتزم بالتعليمات، فليخرج لمحاربتنا " ^(٢).

تحرك الجيش الأردني في الشرق، ليركز قطاعاته في وسط فلسطين، في مناطق القدس، ورام الله، واللد والرملة، على بُعد ١٠ كم من تل أبيب، بينما حقق الجيش العراقي بعض النجاحات، في مناطق جنين، ونابلس، وطولكرم، ووصل إلى مسافة ١٠ كم شرق نتانيا اليهودية، في حين سيطر الجيش السوري في الشمال على مدينة سمخ الإستراتيجية.

في هذه الأوقات، لجأ المستوطنون الصهاينة إلى الحيلة والخداع، فكانوا يقومون على سبيل المثال، بحشد جميع لورياتهم وجراراتهم،

(١) د. محسن محمد صالح، فلسطين (دراسات منهجية في القضية الفلسطينية)، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٩٤.

(٢) بن يعقوب، مصدر سبق ذكره.

لتصعد الجبل غربي بحيرة طبرية، ليلاً، وهي مظفأة الأنوار، ثم تعود، وهي مضاءة، وتكررت العملية على مدى ليال عدة لخلق الإنطباع بتدفق المساعدات^(١).

في المقابل، أرسل بن غوريون خطابات تهدئة وتحفيز لمستوطني صحراء النقب، حثهم فيها على الصبر، ووعدهم بأنه سيقدم العون والمؤن، في أقرب وقت، وأنهم بصبرهم سيحصدون النجاحات، حتى أنه وعدهم بأن مدينة أم الرشراش "إيلات"، ستكون ميناءً دولياً، وقد كان!^(٢)

بيد أن سلاح الطيران اليهودي قد استطاع تدمير الجسور، والطرق الرئيسية، المؤدية إلى مدن الشمال الساحلية، بداية من أسدود، لقطع الطريق على القوة المصرية، وهو ما كان سبباً رئيسياً في عدم تقدم تلك القوة باتجاه الشمال نحو تل أبيب.

كما أن عملية فتح طرق صحراء النقب، قد سميت باسم "أن - فار"، وتعني "أنتي فاروق" أو ضد الملك فاروق الأول، ملك مصر والسودان، كنوع من التحفيز والحشد المعنوي للمستوطنين الصهاينة^(٣).

وكحافز آخر للإسرائيليين في استبسالهم ضد الجيوش العربية، أعلنت بلدية تل أبيب أنها ستطلق أسماء الميادين العامة، والشوارع الكبيرة، في المدينة بأسماء الذين سقطوا أثناء الحرب، كنوع من التحفيز والتشجيع

(١) هرتزوج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.

(٢) بن يعقوب، مصدر سبق ذكره.

(٣) المصدر نفسه.

المعنوي بأنهم سيخلدون، بعد مماتهم^(١).

في هذه الأثناء، استطاعت غولدا مائير، وزيرة العمل، آنذاك، (ورئيس الوزراء الأسبق فيما بعد) أن تجمع ما يزيد عن الـ ١٥ مليون دولار، خلال رحلتها للولايات المتحدة، التي حُوت، في الحال، للجيش الإسرائيلي لشراء الأسلحة من أوروبا، وذلك رغم إصابتها في حادث سيارة بنيويورك، في الرابع من يوليو/ تموز ١٩٤٨^(٢).

في الإطار نفسه، أعلنت الحكومة الإسرائيلية، برئاسة ديفيد بن غوريون، عن فرض التأمينات على العائلات، التي ينضم أحد أبنائها للجيش، حيث ضمت كدفعة أولى منهم ما يزيد عن الـ ٩٠٠٠ عائلة، بكلفة ٢٢٠ ألف ليرة^(٣).

الهدنة:

وافق الطرفان، العربي والإسرائيلي، على الهدنة، التي اقترحتها الأمم المتحدة، وبدأت في الحادي عشر من يونيو/ حزيران، وانتهت، في التاسع من يوليو/ تموز، نظراً لأن القتال كان عنيفاً وشرساً، فقد رحبت الجيوش الميدانية من الجانبين بفترة الاستراحة تلك " شهر من الراحة دون مقابل"، على حد تعبير غلوب باشا.

وكان الإسرائيليون، بشكلٍ خاص، أحوج ما يكونوا إلى مثل تلك الفترة، لإعادة التنظيم، وترتيب الصفوف، وتعويض الخسائر، فضلاً عن

(١) بن كسبيت وآخرون، معاريف، مايو/ أيار ١٩٤٨.

(٢) جولدا مائير، حياتي، ترجمة دار الجليل للنشر، ط١، عمان، ١٩٨٩، ص ٩٠.

(٣) بن كسبيت وآخرون، معاريف، ١٠ / ٦ / ١٩٤٨.

جلب واستيعاب سبل المعدات الذي تراكم في الخارج، بالإضافة الى التدريب المكثف لإستيعاب العتاد الحربي الذي وصل من تشيكوسلوفاكيا، بوجه خاص.

حتى تلك اللحظة، كانت تحركات الجيش الإسرائيلي تأتي ردًا على الهجمات العربية، لكن بعدما انتهت الهدنة الأولى، بدأ الجيش الإسرائيلي في الإمساك بزمام المبادرة، واستطاع أن يحقق بعض النجاحات.

في خضم الهدنة الأولى بين الطرفين، ادعت إسرائيل أن سلاح الجو الأردني استخدم قنابل محرمة دوليًا، حيث أشارت صحيفة " معاريف " الإسرائيلية إلى أن قوات الأردن كانت تستخدم قنابل ألمانية الصنع تسقط من الجو، وتنفجر فور سقوطها بدقائق، مؤكدة أنها قنابل محظورة دوليًا (١).

لم تحسن الجيوش العربية استغلال الفرصة المواتية لهدنة ثانية، بدأت في الثامن عشر من يوليو/ تموز، وانتهت في الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول، حيث أحسن الإسرائيليون استغلال هذه الفرصة، بالتنظيم الجيد، وترتيب الصفوف، وجلب الأسلحة من الخارج، وتحقيق المزيد من النجاحات، فيما تلاها من أيام على كل الجبهات، خاصة في منطقتي الجليل والنقب.

لقد أدرك الإسرائيليون أهمية صحراء النقب بالنسبة إليهم، كزيادة في رقعة حدودهم، رغم اقتراح الكونت فولك برنادوت، وسيط الأمم المتحدة،

(١) المصدر نفسه، يوليو/ تموز ١٩٤٨.

إعطاء النقب للعرب، مقابل الجليل لليهود، لكن الإسرائيليين أرادوا السيطرة على النقب، كما أرادوا السيطرة على مناطق شاسعة من الأراضي الفلسطينية الأخرى، لذلك زادوا من هجماتهم على القوات المصرية الموجودة بالنقب، بهدف إرغامهم على الانسحاب.

تحقق الهدف الإسرائيلي بإجبار المصريين على الانسحاب، إلى الجنوب، واستطاع الجيش الإسرائيلي تفريق ألويته، وإخضاع ما يزيد عن ٤ آلاف مصري تحت الحصار، في "جيب الفالوجا"، وقطع خطوط الاتصال عنهم.

نجحت القوات الإسرائيلية في إحداث العديد من الثغرات بين القوات المصرية في الجنوب، وصارت هذه القوات في المنطقة ما بين فار أو أسير، وذلك لإجبار المصريين على سحب بقايا قواتهم من جنوب غربي فلسطين، وتحديداً غزة، وذلك بعد أن تعمقت قوات إسرائيلية في قلب سيناء المصرية، ولولا التحذيرات البريطانية بالتدخل إلى جانب المصريين، بموجب معاهدة ١٩٣٦، لوقعت القوات المصرية، التي كانت قد بدأت انسحابها، بالفعل، من غزة، في الثاني من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، في الفوضى والهلاك! (١)

استغلت القوات الإسرائيلية ترهل وتفكك الجيش المصري وهزيمة الجيوش العربية، بشكل عام، في التعمق جنوباً، باتجاه البحر الأحمر، خاصة مع موافقة الأطراف العربية على وقف إطلاق النار، حيث

(١) هرتزوج، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠.

استطاعت توسيع أراضيها جنوبًا، حتى "أم الرشراش"، أو إيلات، ورفعت عليها العلم الإسرائيلي^(١)، وكان احتلال إيلات إيذانًا بنهاية حرب ١٩٤٨، أو حرب "الاستقلال".

قبيل احتلال أم الرشراش المصرية، وبسريان وقف إطلاق النار، وافقت مصر على مفاوضات لتوقيع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل، والتي بدأت في ١٣ يناير/كانون الثاني ١٩٤٩، ووقعت، في ٢٤ فبراير/شباط ١٩٤٩، بجزيرة رودس في البحر المتوسط. وكان على رأس الوفد المصري العقيد محمد إبراهيم سيف الدين، في حين ترأس الوفد الإسرائيلي مدير عام وزارة الخارجية، إيجال يادين، ومعه إسحاق رابين، الذي أصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل لاحقًا^(٢).

ووقعت لبنان على الاتفاقية ذاتها، في ٢٣ مارس/آذار ١٩٤٩، في حين وقع الأردن (الدولة العربية الثالثة) في ٤ إبريل/نيسان ١٩٤٩، وترأس الوفد الأردني الملك عبد الله، في حين ترأس الوفد الإسرائيلي وزير الدفاع الأسبق، موشيه دايان.

أما سوريا (الدولة الرابعة والأخيرة) فقد وقعت على اتفاقية الهدنة مع إسرائيل، في ٢٠ يوليو/تموز ١٩٤٩.

فقدت إسرائيل ما يزيد عن ٦٣٧٣ إسرائيليًا، من بينهم ٤٠٠٠ جنديًا وحوالي ٢٤٠٠ مستوطنًا، في حين فقد العرب ما يزيد عن الـ ١٥

(١) بن يعقوب، مصدر سبق ذكره.

(٢) بن كسبيت وآخرون، معاريف، ١٩٤٩/١/١٣.

ألف جندي، وعدد غير معروف من الفلسطينيين^(١).

استنتاجات

١ - تعتمد الإسرائيليون عدم ذكر " الفلسطينيين "، والحديث عن جيوش عربية غازية، وتصويرها على أنها اعتدت على حقوق اليهود، وبالتالي ليس لها حق في الحرب.

٢ - ارتكزت الآلة العسكرية الإسرائيلية على عنصر المرونة والمفاجأة، والابتكار، وأصبح القتال الليلي بمثابة طبيعة عادية، على عكس القوات العربية، التي لم تستطع مجاراة الإسرائيليين في القتال الليلي، فكانا يتبادلان الأدوار، العرب يسيطرون على مكان ما، نهاراً، ثم يعاود الإسرائيليون، السيطرة عليه، أو احتلاله، ليلاً.

٣ - المرونة والسرعة في التفكير، والتكيف مع المواقف المختلفة، وغير المتوقعة، أثناء مجريات الحرب.

٤ - لم يستفد العرب من تفوقهم العددي والتسليحي، واعتبروا أنفسهم في نزهة حربية، أو جولة استطلاع، على عكس الإسرائيليين، الذين اعتبروا هذه الحرب بمثابة حياة أو موت، إما الحياة على أرض اعتبروها وطناً لهم، أو إلقائهم في البحر.

٥ - عدم استغلال طبيعة الأرض الفلسطينية لصالح العرب، وذلك لعدم معرفتهم الجيدة بها.

٦ - استخدام المذابح الصهيونية في الدعاية لترويع الأهالي

(١) ويكيبيديا، مصدر سبق ذكره.

الفلسطينيين، ودفعهم لمغادرة أراضيهم، وتعتمد نشر هذه المذابح، لزيادة المخاوف لدى الغير.

٧ - استغلال حالة الضعف والوهن، التي بدت على الجيوش العربية، نهاية الحرب، في توسيع رقعة الأراضي الإسرائيلية.

٨ - تحفيز القيادات الإسرائيلية للمستوطنين، باستمرار، وإطلاق أسماء الجنود القتلى على الميادين العامة والشوارع الرئيسية في مدينة تل أبيب.

* * *

الفصل الحادي عشر:

الذات والآخر في حرب ١٩٤٨

محمد حسني

لقد كانت حرب ١٩٤٨ نقطة تحول في التاريخ العربي المعاصر، فقد أفضت إلى نشوء دولة الكيان الصهيوني (إسرائيل)، وطرد معظم الشعب الفلسطيني من أراضيه. ولا شك أن الاستهانة بالعدو الصهيوني كانت إحدى أسباب الهزيمة،^(١) وهو ما استتبع، بالضرورة، تضخيم صورته عقب النكبة، ولكن التهويل، أو التهويل في تصوير الذات أو الآخر أمر ممجوج، فالصورة الذهنية للذات، وللآخر (العدو) أمرٌ غير بسيط، أو هامشي، وهو ما سنتناوله بالدراسة فيما يلي.

يعد مصطلح " الصورة الذهنية " مقابلاً للمصطلح الإنجليزي image، ويمكن تعريفها بأنها: " الأفكار والمعتقدات والمشاعر والأحاسيس، التي تتكون في عقل ووجدان الفرد أو الجماهير تجاه قضية معينة، أو فكرة أو شخص، أو جماعة. وهي تتبادر إلى الذهن بمجرد ذكر اسمها، لتعطي فكرةً معينةً، أو مفهوماً، قد يكون سلبياً أو إيجابياً ". ترتبط الصورة الذهنية بعواطف الأشخاص واتجاهاتهم، بغض النظر عن صحة المعلومات التي تتضمنها خلاصة هذه التجارب، وتتكون الصورة

(١) راجع أسباب نكبة ١٩٤٨، على سبيل المثال لدى: عبد القادر ياسين، الحركة الوطنية الفلسطينية، القاهرة، دار الكلمة، ط١، ٢٠٠٠، ص٣١.

الذهنية، وتتطور، خلال التفاعل بين نوعين من العوامل، الأول هو العوامل الشخصية، أي التي تتعلق بالفرد، مثل السن والنوع ومستوى الذكاء، والثاني هو العوامل الإجتماعية، التي تتعلق بالتنشئة الإجتماعية (١).

تتسم الصورة الذهنية بالذاتية، حيث أنها هي التفسير المفترض للحقيقة، وما نعتقد أنه الواقع، كما تتسم الصورة الذهنية، في كثير من الأحيان، بعدم الدقة، وهو ما يؤدي إلى تشويه معالم الصورة. والفرد يقوم بعملية إعادة تنظيم، وترتيب لعناصر الصورة، فتترسخ بعض تلك العناصر، بينما تُهمل عناصر أخرى في الصورة، وقد تتمحي، تمامًا. ويميل الإنسان، في أغلب الأحوال، إلى التمسك بالصور التي تشكلت في ذهنه، حتى أنه يتعصب لهذه الصور، ويحيز لها (٢).

وبالرغم من أن الصورة تميل، بطبيعتها، إلى الثبات فإنها أساسًا، تعد عملية ديناميكية، وليست استاتيكية، فهناك مجموعة من العوامل، قد تؤدي إلى تغييرها، مثل الأحداث العسكرية، والسياسية، والكوارث الطبيعية، أو مرور فترة زمنية طويلة (٣).

(١) نرمين زكريا: صورة الولايات المتحدة الأمريكية لدى الجمهور المصري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، قسم الصحافة، ٢٠٠١، ص ١٠.

(٢) مي إبراهيم حمزة: صورة القضايا العربية في الكاريكاتير السياسي، وتأثيرها على الصورة الذهنية لدى الشباب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، قسم الإعلام، ٢٠٠٦، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) إسلام شفيق عواد: صورة مصر في الصحافة اليومية لدى دول مجلس التعاون الخليجي ١٩٨٩ - ١٩٩١، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم الصحافة، ٢٠٠١، ص ٦٢، ٦٣.

يتعلق مفهوم الصورة الذهنية بعدة مفاهيم، من أهمها الصورة النمطية stereotype، والأخير أكثر خصوصية في دلالاته على الصورة الذهنية الثابتة التي تتسم بالجمود^(١). والصورة القومية، وهو يشير إلى الكيفية التي يتصور بها شعبٌ ما شعباً آخر، عبر مجموعة من السمات أو التصنيفات التي يسبغها على الشعب موضوع الصورة^(٢). والصورة الإعلامية، و هي الرؤية الخاصة للواقع التي تقدمها وسائل الإعلام في إطار مجتمع معين، بكل ما يتضمنه من أنظمة، ومؤسسات، تؤثر على وسائل الإعلام^(٣).

الآخر/ العدو

الآخر هو تعبير أشمل من أن يحصر بصفات معينة، فهو يعني أي صفة عدا الذات، وبالتالي فإن تعريفي للآخر، ينطلق من تعريفي لذاتي، ولأن تعريف الذات غير ثابت، فالذات قد تعبر عن الفرد، أو الجماعة، على اختلاف مضمونها، وبالتالي فإن تعريف الآخر يختلف، بالضرورة. وبالرغم من أن كل "عدو" هو "آخر"، فليس بالضرورة كل "آخر" هو "عدو".

أما صورة العدو، فهو مصطلح يرتبط بمصطلح "الصورة القومية"، المشار إليه، ويمكننا أن نعرفها بأنها: "صورة مشتركة بين أعضاء جماعة معينة، تجاه العدو، تتسم بنزع الطابع الإنساني عن هذا الآخر،

(١) حمزة: مرجع سبق ذكره، ١٤٦: ١٥٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٥٠: ١٥٢.

(٣) حمزة: مرجع سبق ذكره، ١٥٣، ١٥٥.

علاوة على ما يشوب الصورة الذهنية عامة، من التتميط، والاختزال، والتضخيم، والتحيز، والتعميم، وعادة ما تشتق من مزيج من أفعال وتصرفات هذا العدو وإدراكات المتلقي. صورة العدو تقوم على مشاعر الكراهية والتهديد، وتقوم صورة العدو على وجود جماعة ذات هوية تهددها جماعة أخرى، خارجة عنها، ونحن عادة ما نجد نزعة للربط بين الصفات الجسدية والنفسية للعدو، بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما. وتعد صناعة صورة العدو جزءًا من علم النفس السياسي، نظرًا للدور الذي تلعبه صياغة هذه الصورة من قبل أجهزة الإعلام والاستخبارات في تماسك الجماعات ضد التحدي الخارجي، ودورها في تفكك الدعم لهذا العدو، وتاريخيا كانت لصناعة صورة العدو دور بارز، وخاصة في الحروب، وكانت الصورة التي صاغها قوات دول الحلفاء للنازية دور بارز في تماسك الجبهة الداخلية، أثناء الحرب العالمية الثانية، تلك الجبهة التي سرعان ما انقسمت بعد الحرب وبدأت صياغات جديدة لتصوير " العدو الشيوعي " مقابل " العدو الرأسمالي ". وفي الشرق الأوسط وفي خضم الحرب الباردة وصلت صناعة صورة العدو إلى مرتبة الحرفية، فصورة إسرائيل كانت عبارة عن خنجر أو إسفين في قلب الوطن العربي، وصورة العرب كانت عبارة عن تهديد إسلامي، يلقي مساندة من الاتحاد السوفيتي، ويهدف الي إبادة إسرائيل، والشعب اليهودي.

يذكر إدوارد سعيد، أن أزمة الهوية، وهي إحدى أكثر العلاقات تجسيدًا للآخر، في العصر الراهن، لا تظهر إلا في المجتمعات التي تدخل في ديناميكية الحداثة. وتعني الأزمة هنا مجرد بدء الجهد المؤلف

أو المفرح في تحديد الذات، وهي لم تبدأ إلا بالحادثة، أو باكتشاف الغرب. وترى الأستاذة في علم الاجتماع السياسي " دلال البرزي " أن هذه الوظيفة للآخر تظهر لدى طرفي العلاقة، رغم عدم التكافؤ، أي لدى الغالب والمغلوب، لكن الفرق يكمن في كون الغالب هو المبادر، والقادر على طرحها، جاعلاً من هذه الوظيفة لدى المغلوب " أزمة "، تدوم بدوام غلبته. مصطلح " الآخر " قد يوظف لتعريف الهوية، وبناءها، فحسب، بينما مصطلح " العدو " يستخدم لتوجيه اللوم إلى الأحداث السيئة في الحياة. فالعدو ينشأ فقط لدى الاعتقاد بوجود اختلافات جوهرية " بيننا " و " بينهم "، مع ربط هذه الاختلافات بتمييز موازٍ بين الخير (نحن)، والشر (هم)، وهو ما يؤدي عادةً إلى نزع الطابع الإنساني عن الآخر (العدو)، وبالتالي سيادة النمط العدائي العنيف في التعامل مع الآخر في هذه الحالة.

تتعد الأهداف من وراء رسم صورة العدو، ومن أهمها:

- إنها مصدر لإضفاء الشرعية على السياسة، أو السلوك تجاهه.
- مواجهة أزمات المجتمع، ومواجهة أزمة الهوية، حيث تساعد صورة الآخر، العدو تحديداً، على تغذية التشابه بين العناصر المكونة للجماعة القومية.
- مواجهة الأزمات الاقتصادية وأزمات التهميش: حيث يساعد الآخر (العدو) في إيجاد كبش فداء لتفسير تردّي الأحوال الاقتصادية، وتحييد الصراع الطبقي، بتمكين المضطهد من التماثل مع سيده، دون أن يتحمل هذا الأخير تكاليف باهظة.

- مواجهة الأزمت السياسية والعقيدية الأيديولوجية، إذ تتوحد الجبهة السياسية الداخلية في مواجهة خطر العدو، الذي يهدد الوجود. وربط العدو بالتهديد الدائم هو ما يؤدي إلى تضخيم صورة العدو، لأنه لا وجود لعدوٍ إلا وكان قويًا^(١).

الصفحات التالية تحاول تلمس ملامح الصورة الذهنية لكلٍ من الذات، والآخر، لدى طرفي الصراع الصهيوني - العربي، بكل تناقضاتها وتشابكاتها، مع محاولة تناول المصطلحات، حسبما وردت في مصادرها، لأن ذلك أمرًا جوهريًا، في رسم ملامح الصورة.

الجانب الصهيوني

صورة الذات:

صورة الذات لدى الجانب الصهيوني، أمر ليس من السهل اختزاله، ولكننا سوف نحاول تحديد الملامح الرئيسية له:

- اليهودي:

يهودي: في القاموس العبري: يهودي، عبري، عبراني، ٢ - من سبط يهودا، ٣ - الشيء الذي يخص اليهود^(٢).

لذا فإن المصطلح لا يقتصر على المفهوم الديني فحسب، بل يتعداه إلى مفهوم تاريخي أو عرقي، حتى وإن كان مزعومًا، فالأدبيات

(١) انظر مقال "صورة العدو" بالموسوعة الحرة ويكيبيديا، بقلم هيئة التحرير.

<http://ar.wikipedia.org/wiki/>

(٢) دافيد سغيف، قاموس عبري - عربي، إصدار شوكن، القدس، وتل أبيب، ط٣، ١٩٩٠، الجزء الأول، ص٦٧١.

الصهيونية تخطأ، ونعتقد أن ذلك عمداً، بين المصطلح التاريخي والديني والسياسي، وتستفيد، قدر استطاعتها من هذا التعميم في عرض مشروعاتها داخلياً، أي بين اليهود، وخارجياً، بين الأطراف الدولية، وحتى لدى الآخر (العدو). فالمفهوم الديني للمصطلح، يسمح بترويجيه بين معتنقي اليهودية، كما يسمح بتحويل الصراع على الأرض إلى صراع طائفي، بين يهود ومسلمين ومسيحيين. بينما المفهوم القومي يعطي الحق للمطالبة بالحصول على وطن قومي، اقتضاء بالقوميات الأخرى.

مناحم بيجن، الإرهابي (باعترافه الضمني) سابقاً، ورئيس الحكومة، فيما بعد، يستهل مذكراته بقوله: " كتبت هذا الكتاب أولاً لشعبي (اليهودي) لنلا ينسى... إنه توجد أشياء أؤمن من الحياة، وأفزع من الموت... لكنني كتبت هذا الكتاب لغير اليهود، أيضاً... " (١). فهو يعتبر أن اليهودية عرق وقومية. إلا أن الطابع الديني يبقى مسيطراً، فعندما خطط بيجن لنسف فندق الملك داود بالقدس، كان منشغلاً بمسألة، كيف ينسف فندقاً يحمل اسم الملك اليهودي، لكنه أدعى بعد ذلك، أن الملك داود زاره في منامه، وقال له " لا تتردد في صنع مجد إسرائيل، إن اسمي لا يعرف الطمأنينة إلا إذا كانت قلوبكم مطمئنة " (٢).

كما تقول جولدا مائير، في معرض حديثها عن إضراب المهاجرين وممثلين عن الحركة الصهيونية، احتجاجاً على رفض السفن الإيطالية

(١) معين أحمد محمود، يوميات الإرهابي مناخم بيجن، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص ١٥٨٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٧.

السماح لسفن المهاجرين بالمغادرة: ” لقد واجهتنا صعوبة واحدة، كانت في اليوم الثالث للإضراب عن الطعام، فقد صادف بداية عيد الفصح اليهودي، وأخبرنا الحاخام بأن علينا أن ننهي إضرابنا. وتوصلنا إلى أن يأكل كل منا قطعة الماتساه^(١) توازي حجم الزيتون^(٢).”

وعندما ننظر إلى بيان إعلان الدولة، أوما يُسمى ” وثيقة الاستقلال ”، التي تلاها دافيد بن جوريون، أول رئيس وزراء إسرائيلي، نجدها تفتتح بالعبارة التالية: ” في أرض إسرائيل قام الشعب اليهودي، وفيها تشكلت شخصيته الروحانية، والدينية والسياسية، عاش فيها حياةً مستقلةً وطنية، أنتج فيها كنوز ثقافة قومية وإنسانية، وأعطى العالم سفر الأسفار الأبدي ”^(٣). وهو بذلك يضع كل العناصر الدينية والتاريخية والقومية كمرادفات لمصطلح ” يهودي ”.

وفي موضع آخر: ” دولة إسرائيل ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية، وجمع يهود المنفى، تعمل على تنمية البلاد لصالح كل سكانها، وتكون قائمةً على أسس الحرية والعدل والسلام في ضوء رؤية أنبياء إسرائيل ”. وهو تأكيد على الطابع الديني للدولة.

وينتهي الإعلان بعبارة: ” إننا ندعو الشعب اليهودي، في كل

(١) الماتساه: فطيرة يتناولها اليهود في عيد الفصح، وقد ورت خطاً في المصدر (ماتزاج).

(٢) جولدا مئير، حياتي، ترجمة دار الجليل، عمان، ط١، ١٩٨٩، ص٧٧

(٣) د. تامار بروش: خطاب لكل العصور، الجامعة المفتوحة، وحدة الدراسات الخارجية، نشر مسكال، ١٩٩٣. نسخة إلكترونية. مركز تكنولوجيا التعليم، وزارة التعليم والثقافة

الإسرائيلية. <http://lib.cet.ac.il/Pages/sub.asp?item=7187>

الأشتات، أن يجتمع حول الاستيطان، بالهجرة والبناء ومؤازرته في معركته الكبرى من أجل تحقيق حلم الأجيال لخلاص إسرائيل. من منطلق الإيمان بصخرة إسرائيل، فإننا نضع توقيع أيدينا كشهادة على هذا الإعلان. " وعندما عارض أهرن تسيزلنج (مبام)، ذكر تعبير " صخرة إسرائيل ومخلصها " وهي كناية عن الرب، تم رفض اقتراحه، وظل التعبير ليعطي قوة دينية للدولة الجديدة ^(١).

- العبري:

والمصطلح، في حقيقته، أقدم من مصطلح، يهودي "، وليس هناك رأي حاسم في أصله، فهناك من يربطه بأحد أجداد الساميين، وهو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام، فيما يرى آخرون بأن الاسم هو كناية عن إبراهيم - عليه السلام، لأنه عبر نهر الأردن، أو لأنه كان يعبر من وطن لآخر ^(٢). فضلاً عن آراء عدة، لكننا نقصد هنا المصطلح في ثوبه الجديد، أي شخصية " العبري الجديد ".

لقد كان هناك اتفاق بين الصهاينة، على اختلاف أطيافهم، على رفض شخصية يهودي الشتات، وتاريخ الشتات، بما يحمله من ذل ومهانة، فارتبطت الحركة الصهيونية بخلق نمط يهودي جديد على أرض فلسطين. وبذلك ظهر مصطلح " العبري "، كنقيض لليهودي المرتبط بالشتات، وتم رفض لغة اللويدش المرتبطة بمجتمع الشتات، وحلت

(١) المصدر نفسه.

(٢) رشاد الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ٢٢٤، أغسطس/آب ١٩٩٧. ص ٥٧.

محلها، ولو إسماء في البداية، اللغة العبرية، رغم أن الأولى كانت أنسب للحياة المعاصرة. وتم تصوير يهودي الشتات بنفس الملامح التي رسمها المعادون لليهود: الظهر المقوس، والأنف المعقوف، والجبن والبخل، والانعزال، والإيمان بالخرافات^(١)...

كانت الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) صاحبة الفضل في طرح الهوية العبرية، فقد كان معظم تلك الهجرة من روسيا، وحملت الكثير من الشبان المؤمنين بأفكار الثورة الاشتراكية، ويحلمون بخلق طبقة عاملة عبرية، والسيطرة على الإنتاج والحراسة، وليس مجرد شراء الأراضي، وقد أسس هؤلاء المستوطنات الجماعية " الكيبوتس "، والأحزاب العمالية، هبوعيل هاتساعير (العامل الفتي)، وبوعالي تسيون (عمال صهيون)^(٢).

جاءت الهجرة الثالثة (١٩١٩ - ١٩٢٤) لتعطي دفعة لهذا الاتجاه، وزاد الاتجاه الرافض للدين، إلى درجة فجّة، تمثلت في انتهاك الشعائر علنا. وقد حاول الأدباء رسم صورة للعبري الجديد، مستوحاة من أبطال " العهد القديم "، وهي صورة أقرب للعربي البدوي ابن البلاد، جريء، قوي، شجاع، صلب، منتج.

في هذه التربة ولد جيل جديد من أبناء المهاجرين، وهو جيل لم ير

(١) يهوشافاط هركابي، ساعة إسرائيل المصيرية، الهيئة العامة للإستعلامات، سلسلة كتب مترجمة ٧٩٤، ١٩٩٠، ص ١٧٤.

(٢) حامد ربيع، من يحكم تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص ٤٤٠.

الشتات، ونشأ على إيديولوجيات مجتمع المستوطنين، وهو ما يُطلق عليه "الصبار"، الجيل الذي حمل عبء خلق كيان جديد، على الأصعدة المختلفة. لكن هذا الاصطلاح لا يعني، فعليا، كل من ولد في فلسطين، حيث يستثني اليهود ذوي الأصول الشرقية، ويضم من ولدوا في أوروبا، وهاجروا إلى فلسطين^(١). هذا الصبار، الذي نجد صورته في المصقات والمنشورات الصهيونية، يحمل وجهها أوروبيا. إلا أن التحولات التي تلت إقامة الدولة، لم تستطع شخصية الصبار أن تصمد أمامها، ونحن نعتقد بأن وجود هذا الطرح للصورة الذاتية الصهيونية، اعتمد على الاصطناع، أكثر من اعتماده على الواقع، فمحاولة التوليف، بين الشخصية التاريخية، والحاضر الاستيطاني، بين التراث الديني والعلمانية، أليق بالكتابات النظرية، والأعمال الأدبية، التي كانت تنتمي إلى الأدب المجدد.

يعلق د. أورتسيون برتتا، على الأدب العبري، في تلك الفترة: "جيل الأدباء الذي يمتد إنتاجه خلال الأربعينيات والخمسينيات، هو جيل البالماح^(٢)، مثل موشيه شامير، وحاييم جوري، وهو مؤمنٌ بالوعي الجمعي، وقد نمت، في تلك الفترة صورة اليهودي الصبار، شخصية جميلة وطيبة، خلقت من عدم، بين خرائب الماضي السلبي، ويصور الصبار على أنه فتى، صحيح البدن، علماني، يخلق عالما جديداً، نما في كنف النور والدفء في "أرض إسرائيل"، خلاف البرد والضباب الذي

(١) بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة: محمد عودة الدويري، دار الجليل، عمان، ١٩٩٦، ص ٣٨٦.

(٢) اختصار بالعبرية لعبارة سرايا الانقضا، والتي خدم فيها عدد كبير من أدباء هذا الجيل، حتى عُرفوا باسمها.

عاش فيه يهود المنفى.

لعل ومن أهم موضوعات هذا الجيل موضوع التضحية بالنفس، فالموت من أجل مجتمع الاستيطان أصبح موضوعاً رئيسياً في أدب هذا الجيل، وقد أراح موضوع " الناجون " من أحداث النازية، كعلامة على طي صفحة من تراث الخنوع والذل. وقد تم تصوير الاستيطان اليهودي كمكان مثالي مستقل، منفصل عن واقع يهود أوروبا، وذلك بتأثير الحركة الكنعانية، التي تزعمها الأديب يوناثان راطوش، ودعت للانفصال عن هوية يهود المنفى، واعتبار المجتمع الاستيطاني مجتمع شرقي، ينتمي إلى أرض كنعان^(١).

اليهودي المضطهد:

لقد كانت أحداث النازية، بغض النظر عن حقيقتها، موضوعاً مركزياً في الأدبيات الصهيونية، وقد تم استخدامها كمقدمة لتبرير حق اليهود في وجود وطن، وابتزاز المجتمع الغربي، وكذلك استغلالها كذريعة لاستخدام القوة، ضد البريطانيين وضد الفلسطينيين أبناء البلاد. بالرغم من عدم صمود الأطروحة أمام أي منطق، فإنها كانت مطروحة بقوة.

يقول مناحم بيجن، في يومياته: "... إنه من خلال الدم والنار والدموع والرماد قد ولد نوع جديد من الكائنات البشرية، نوع لم يعرفه العالم على الإطلاق خلال ١٨٠٠ عام هو (اليهودي المحارب). وفي فقرة تالية: " منذ

(١) د. أورتسيون برتتا، الأدب العبري في أرض إسرائيل، ضمن كتاب شخصيات وأعمال في إسرائيل، تحرير: سارا أهروني، ومئير أهروني، مكسار، ١٩٩٨، نسخة إلكترونية، مركز تكنولوجيا التعليم، وزارة التعليم والثقافة الإسرائيلية.

طفولتي، علمني والدي الذي قتله الألمان، وهو ينشد هاتكفاه، أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل... ” (١).

يضيف، في موضعٍ لاحقٍ: ” إن العالم لا يشفق على المذبوحين، إنه يحترم الذين يحاربون فحسب. هذه هي الحقيقة ” (٢).

تتجلى محورية هذا الطرح في احتلاله فقرتين من نص ” إعلان الدولة ”: ” الكارثة التي حلت بشعب إسرائيل، في الآونة الأخيرة، حيث تعرض ملايين اليهود في أوروبا لمذبحة، أثبتت، مجدداً، وبالبرهان الواعي بحل مشكلة الشعب اليهودي بعدم وجود الوطن، والاستقلال عن طريق تجديد الدولة اليهودية في أرض إسرائيل، والتي ستفتح أبواب الوطن على مصراعيها لكل اليهود، وتعطي للشعب اليهودي وضع أمة متساوية في الحقوق بين المجتمع الدولي ”.

” إن بقية اللاجئين الذين نجوا من المذبحة النازية الرهيبة في أوروبا، ويهود بلدان أخرى، لم يتوقفوا عن الهجرة الجسورة إلى أرض إسرائيل، رغم الصعوبات، والمنع والخطر، ولم يكفوا عن المطالبة في العيش بكرامة وحرية، والكد الشريف في وطن شعبهم ” (٣).

اليهودي جزء من العالم المتقدم:

ربط الكيان الصهيوني نفسه، من البداية، بالقوى الاستعمارية، على الصعيد العملي. وعلى الصعيد النظري، فإنه يطرح نفسه، كجزء من

(١) محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٣) بروش، مرجع سبق ذكره.

العالم المتقدم، وهو ما يفيد في طرح نفسه سياسيًا كذراع للاستعمار، وفي الوقت نفسه يستند إلى المبرر الاستعماري التقليدي، وهي تحكم الأقلية المتحضرة في مجتمع بدائي متخلف.

وقد ورد في إعلان قيام الدولة: " في ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيوني بناءً على دعوة نبي الدولة اليهودية، تيودور هرتسل، وأعلن عن حق الشعب اليهودي في النهضة الوطنية في بلاده... تم الاعتراف بهذا الحق بتصريح بلفور في الثاني من نوفمبر - تشرين الثاني ١٩١٧، وتم التصديق عليه من عصبة الأمم، التي أعطت سند دولي للعلاقة التاريخية بين الشعب اليهودي وبين أرض إسرائيل، لإعادة إقامة وطنه القومي".

" في الحرب العالمية الثانية، أسهم الاستيطان العبري في البلاد بدوره كاملاً في نضال الأمم الطامحة في الحرية والسلام ضد قوات الشر النازية. وبدم جنوده وبجهوده الحربية، أخذ الحق في أن يعد من بين الدول التي وضعت ميثاق الأمم المتحدة... إن هذا الاعتراف، من الأمم المتحدة، بحق الشعب اليهودي في إقامة دولته، لا يمكن مصادرتة". ويُذكر أن مثير فلنر، من الحزب الشيوعي، قد طالب بشجب حكومة الانتداب الاستعمارية، إلا أن طلبه قوبل بالرفض القاطع^(١).

إسرائيل تمتد يدها بالسلام:

يقدم إعلان قيام الدولة، إسرائيل على أنها دولة سلام، متجاهلاً

(١) المرجع نفسه.

الاعتداءات المسلحة قبل ذلك اليوم، والقوات المتأهبة في مواقعها. ” إننا ندعو - بالرغم من الاعتداء الدامي الذي نتعرض له منذ شهور - أبناء الشعب العربي من سكان دولة إسرائيل، أن يحافظ على السلام وأن يسهم في بناء الدولة، على أساس المواطنة الكاملة... ”

” إننا نمد يد السلام والجيرة الحسنة إلى كل الدول المجاورة وشعوبها، وندعوهم بالتعاون وتبادل المساعدة مع الشعب العبري المستقل في بلاده. دولة إسرائيل مستعدة للإسهام في الجهد المشترك لتقدم الشرق الأوسط كله ” (١)

صورة الآخر (العربي)

كانت أهم المقولات التي تستند إليها الصهيونية هي مقولة ” أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ”، وهي تعكس نية مسبقة لتجاهل الوجود العربي. إلا أن التجاهل التام، وليس الجهل، ما كان ليصمد أمام الواقع، فأخذت صورة العرب في الأدبيات الصهيونية منحى آخر.

لقد كان مصطلح ” المسألة العربية ” مصطلحاً مركزياً في الفكر والحوار الصهيونيين حتى ” حرب الاستقلال ”، ولكن في دولة إسرائيل، يبدو أنهم توقفوا عن استخدامه، وتحولوا بشكل حاد، في منتصف ١٩٤٨، لاستخدام مصطلح ” الصراع الإسرائيلي - العربي ”، كما زاد استخدام مصطلح ” الخطر العربي ”، وأصبح استخدام المصطلح القديم قليلاً. ويقول شبتاي طيفت، في كتابه ” بن جوريون وعرب أرض إسرائيل ” :

(١) المرجع نفسه.

” نظرياً أو عملياً انزاحت المسألة العربية التي أثارها الصهيونية من الساحة، وحلت محلها في دائرة الاهتمام الصهيوني مسألة أمن إسرائيل^(١). ففي الفترة التي سبقت قيام الدولة، قل النقاش حول المسألة العربية، وكلما دنت أيام الحسم، قل التطرق إليها، وأصبح وجود الخطر العرب في أرض إسرائيل والدول المجاورة، ليس هو المشكلة السياسية والأخلاقية الحاسمة، ويرجع ذلك إلى سيادة الوعي بأن الحل إما دولة يهودية على كل ” أرض إسرائيل ”، أو تقسيم وفرض وصاية دولية على العرب^(٢).

التعميم:

من خلال قراءتنا المتأنية لمذكرات مناحم بيغن، يتضح لنا في مقابل التحديد الدقيق للأناء، بذكر أسماء الأشخاص والكيانات السياسية والعسكرية للجانب الصهيوني، والأمر نفسه مع الآخر البريطاني، نجد تعميماً تاماً عند الحديث عن ” العرب ” فلا ذكر لأسماء أشخاص أو كيانات أو مؤسسات، والتحديد الوحيد عند التحدث عن الجيوش العربية، وهو يصب في مصلحة تصوير الأمر كاعتداء من دول لها حدودها، وبالتالي فليس لها حق في الحرب، بينما لم يذكر مصطلح ” الفلسطينيين ”، أو ” الشعب الفلسطيني ” أبداً. ففي أحد المواضع على سبيل المثال: ” في الأشهر التي سبقت الغزو العربي، وبينما كانت الدول العربية الخمس (مصر، العراق، سوريا، لبنان، وشرق الأردن) تستعد للهجوم، أكملنا نحن هجماتنا على الأحياء والمناطق

(١) ش. ن. أيزنشتدت وموشيه ليسكي: الصهيونية والعودة إلى التاريخ، لإعادة تحرير. يد

يتسحاك بن تسيفي، القدس نسخة إلكترونية k12.il، amalnet.

(٢) ي. جوراني: المسألة العربية والمشكلة اليهودية. تل أبيب ١٩٨٥، ص ٣٥٦، ٣٥٧.

العربية" ^(١). كما أن الانطباع نفسه يأتينا لدى قراءة ذكرات شخصيات صهيونية أخرى، مثل جولدا مائير، رئيسة الوزراء فيما بعد ^(٢).

وصم العرب بصفات سلبية:

تم وصم العرب بصفات سلبية، كالبدائية، والتخلف، والحمق، سواءً على لسان رموز الصهيونية، أو من خلال التعبير الأدبي.

يقول الجنرال رفائيل إيتان في مذكراته: " اقترب عربي منا، يحمل بندقية إنجليزية... كانت خطتنا تتمثل في أن يستتر قائد المجموعة خلفنا، وأن نخدع العرب بالكلام... " ^(٣). وفي موضع آخر، يقول إنهم التقوا بمجموعة من البدو في الصحراء، وقد نصحهم زميلهم بألا يبدو لهفتهم على الماء " لأنه إذا شعر البدو بعطشنا سيدركون ضعفنا، ويسهل عليهم التغلب علينا، بدأنا نشرب بينما ظل " فوزا " يتحدث إلى البدو ويلقي إليهم بالنكات... " ^(٤).

لقد اعتُبر العرب في مرتبة أدنى من اليهود، حتى وإن كانوا يقومون بنفس العمل، تقول جولدا مائير، في مذكراتها: " الآلاف من يهود فلسطين (أرض إسرائيل) الشبان الذين منعوا من الخدمة في الوحدات البريطانية، عملوا، خلال الحرب، كسائقين في الجيش، وفي ورش الصيانة، وفي الوحدات الطبية، لقد عُرفوا، لا حاجة للقول، " كفلسطينيين " وليس كيهود،

(١) محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٢) جولدا مائير، مرجع سبق ذكره.

(٣) شخصيات صهيونية: رفائيل إيتان، ترجمة غازي السعدي، دار الجليل، عمان ١٩٨٩، ص ١١.

(٤) المرجع السابق ص ١٣.

وعوملوا كعمال عاديين.... واليهود المدنيون... لم يعاملوا فقط كعمال عاديين، وإنما كانوا يتقاضون أجورًا بمستوى العمال المصريين، حيث لم يكن مقبولاً بالنسبة للهستدروت^(١). والغريب أن هنا كان أول موضع تذكر فيه كلمة "فلسطينيين".

ومن بين الصفات التي أُلصقت بالعرب صفة الجبن، حيث يقول بيجن: "عند تنفيذ عملية نسف فندق الملك داوود: تقدمت الفرقة الأولى، عن طريق مقهى لريجنس، فأسروا موظفي المقهى، وسجنوهم في غرفة مجاورة، ولم يُبد هؤلاء الخمسة عشر موظفًا عربيًا أية مقاومة، وكان ذلك منظرًا منهم... وقد أمر موظفي المقهى العرب أن يهربوا، فهربوا بدون أي تردد" (٢).

وقد طالت تلك النظرة الوطن العربي كله، على المستوى الشعبي، وعلى مستوى الأنظمة الحاكمة، فتقول جولدا مائير، تعليقًا على موقف بريطانيًا: "... لم يستطيعوا، أو يشاءوا أن يقفوا أمام العرب، مع أن غالبية العالم العربي كان مؤيدًا للنازية. إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا وجد البريطانيون أنه من المستحيل أن يقولوا للعرب لا... قليل من الزعماء العرب سيصدرون تهديدات كلامية، وربما تكون هناك مسيرة احتجاجية أو اثنتين، أو بعض أعمال التخريب في انحاء متفرقة من الشرق الأوسط" (١).

(١) جولدا مئير، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤.

(٢) محمود، مرجع سبق ذكره، ١٠٦.

(١) مئير، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

نجد مضمون هذه الصورة أيضًا، في معظم الأعمال الأدبية المكتوبة عن تلك الفترة، حتى وإن كان ذلك في لهجة مغلفة بالإعجاب أو التعاطف. فعلى سبيل المثال، لم يظهر العرب على خشبة المسرح الإسرائيلي، تقريبًا، قبل سنوات الستينات، اللهم إلا في عروض ساخرة، وفي شخصيات ثانوية. لقد ظهرت شخصية العربي في الأعمال المسرحية العبرية، قبل قيام الدولة، باعتبارها " آخر "، فهو إما عدو، أو شخص يستحق بعض التعاطف. ويظهر اللقاء بين اليهودي والعربي في مواقف صدامية، عبر نظرة احتقار وسخرية وتخوف من العربي. ومع وقوع المصادمات، زاد تصوير العرب بالهمجية، والعدوانية، وتنميط الشخصية العربية في قالب " الشرير "، مقابل " الطيب " اليهودي. ومن مظاهر الصورة الدونية الموصوم بها العربي، عدم قدرته على التحدث بطلاقة. ورغم التعاطف الذي تظهره بعض الشخصيات مع العربي، فإنها تضعه في قالب " البدائي "، حتى وإن كانت عقول المفكرين والأدباء تبحث فيه عن جذور لشخصية يهودية جديدة، بعيدة عن يهودي الشتات. ودائمًا ما يوضع العربي في مقارنة مع اليهودي، أو العبري الجديد، عبر نظرة استعلاء من الأخير. وهو يظل شخصية تابعة ثانوية، ليس لها ملامح درامية خاصة، وأحيانًا لا يكون لها حتى أسماء^(١).

لقد رسم الأدب العبري للعربي صورة معينة، هي صورة البدوي والفلاح، وتجاهل العربي في المدن الفلسطينية، إلى جانب حشد الصفات

(١) المنهج الأداء التمثيلي والإخراج لدى ي. جروتوفسكي ٢٠٠٥/٢/١٢، موقع ستورادج

الأخلاقية والجسدية، التي تعطي مبرراً ضمناً، لأعمال الطرد والقمع، وتُحقر من شأن العدو في نظرة المتلقي الصهيوني^(١). وللشخصيات العربية في الأدب العبري دور أساسي، فهي شخصيات غير رئيسية، تتضح من خلال تعامل الشخصيات الرئيسية معها، أو حتى مجرد انطباعها الداخلي عنها، تمثل التخطيم والضياع، والموت، والرغبة الجنسية العارمة^(٢).

يمكننا أن نلمس التوجه نفسه، حتى في اللوحات الفنية، التي تنتمي إلى فترة ما قبل قيام الدولة، فالرسام ناحوم جوتمان، على سبيل المثال، يصور فلاحاً عربية تعمل بيديها في الحقل، ويصور رجل عربي في طريقه إلى الحقل يسوق أغنامه، على خلفيات طبيعية، غير محددة الملامح. في مقابل تصوير المستوطنين على خلفية بيئة تل أبيب الحضرية^(٣).

إلقاء اللوم على الضحية :

طريقة غير مبتدعة من قبل الصهاينة، وهي إلقاء اللوم على الضحية، أو على بعض عناصرها، فقد ادعت الصهيونية، أيضاً، أن العرب هم الذين هاجروا طواعية، بناء على تحريض من زعمائهم، تقول جولدا

(١) محمود صميده، استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، مؤسسة الاتحاد، أبو ظبي، طبعة دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٨.

(٢) درورا برجر، صورة العربي في الأدب القصصي العبري، صحيفة ٧٧، رابطة الأدباء والفنانين، مجلد ١٦٨، ١/١٩٩٤، ص ٢٤، ٢٥، نسخة إلكترونية، سنوئيت.

(٣) فن الرسم في أرض إسرائيل، الانتقال من القدس إلى تل أبيب، نسخة إلكترونية.

ماتير: " وأينما سمعت عن عرب بأننا، على نحو مزعوم، قد عاملناهم بوحشية فإن دمي يغلي، إنني نفسي في عام ١٩٤٨، وقفت على شاطيء حيفا لساعات وأنا أتوسل إلى سكان المدينة العرب بعدم مغادرتهم لها. فعندما استولت الهجاناه مباشرة على حيفا، بدأ السكان العرب بالفرار من المدينة - لأن زعماءهم أكدوا لهم بأن ذلك كان أسلوبًا حكيمًا بالنسبة لهم... لقد صمموا على الرحيل " (١).

اتهام العرب بالوحشية والبدء بالاعتداء:

إنه مبرر قوي للاعتداءات المسلحة ضد العرب، فيقول رفائيل إيتان في مذكراته: " بقي المصابون، طيلة يوم وليلة، وهم بأيدي العرب، وقال أحد السائقين أنه شاهد العرب وهم يعذبون الجرحى اليهود، ومن ثم يصبون عليهم الوقود ويحرقونهم... " وفي موضع آخر: " سقط في أيدينا بريطاني، يدعى تايلور، كان يعمل مع العصابات العربية " (٢).

ويقول مناحم بيجن في يومياته: " وهكذا توقفت المقاومة الرسمية المسلحة في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، عندما بدأ العرب يقتلون اليهود "... " فبعد أسبوعين من الهجمات العربية، قامت " الإرجون " بأول هجوم مضاد للقوات اليهودية، ومن ١١ إلى ١٣ ديسمبر/ كانون الأول هاجمت وحدتنا مراكز القتل في حيفا ويافا والطيرة والياحور... وهاجمنا مراكز لعصابات القتل (١).

(١) المصدر نفسه.

(٢) شخصيات صهيونية: رفائيل إيتان، ص ١٦.

(١) محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

الجانب العربي

رؤية الذات:

لقد كان ظهور فكرة القومية العربية، محاكاة للحركات القومية في أوروبا، في القرن التاسع عشر الميلادي، وما قبله، وفي الوقت نفسه وسيلة للتعبير عن مناوأة العسف العثماني. وقبل ذلك بقليل كانت الحركات الانفصالية عن السلطنة العثمانية تأخذ إما الطابع الديني، مثل الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، وإما طابعاً فردياً، مثل محمد علي وابنه إبراهيم، فقد كان الهدف منها هو إرساء قاعدة قوية ضد السلطنة العثمانية، فلقد غداً إبراهيم باشا فكرة القومية العربية، بإشارته إلى أمجاد العرب، في خطابهات العسكرية، فكتب بذلك تأييد كل من المسلمين والمسيحيين في الشام، على حدٍ سواء، ورغم فشل الحركة، إلا أنها خلفت وراءها نظام تعليم يرمي إلى ترسيخ مبادئ القومية العربية. وقد أخذت مدارس الإرساليات التبشيرية تروج لهذه الفكرة، وتتادي بإحياء التراث القومي العربي، وكان سفر الطلاب العرب إلى الغرب رافداً لتغذية الفكر القومي^(١). وهي الفترة نفسها التي ظهر فيها دعاة الإحياء الإسلامي (أمثال جمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، والكواكبي).

بالرغم من موجات الهجرات الصهيونية، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فإننا لم نجد أثراً للوعي القومي العربي في مجابهة

(١) د. مهنا يوسف حداد، أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل، مركز دراسات الوحدة العربية، أغسطس/آب ١٩٩٩. انظر: طاهر لبيب (محرراً)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص ٣٣٧، ٣٣٨.

الاستيطان، فقد كانت المشكلة التي واجهت اليهود هي موقف الباب العالي من الهجرات وشراء الأراضي من أجل الاستيطان^(١). ولكن، في تلك الفترة، انتكبت المجتمع العربي بالخضوع، والإذلال للحاكم الأجنبي وشيوع الدجل والشعوذة، والنزعات العرقية، والقبلية، والطائفية، وسيادة اللهجات المحلية، كل تلك العوامل هي عوامل واقعية، وأسباب للفرقة في مقابل الفكر القومي النظري. فلقد كانت الأفكار القومية العربية تستند إلى المحتوى التاريخي القائل بأمجاد العرب، واستعلاء العنصر العربي، أو التي تتلفح أحياناً باسم الدين، مصورة المثالية الدينية عن المسلمين الأوائل وكأنها يُمكن أن تكون سمات للواقع المعاصر.

وربما كان عنصر اللغة، وهو أهم مقومات القومية العربية، هو أحد أسباب الخلط أو الدمج بين الفكر القومي والفكر الديني^(٢).

بعد الحرب العالمية الأولى طُبقت معاهدة سايكس - بيكو، التي أفضت إلى تقطيع الوطن العربي وتقسيمه بين القوى الاستعمارية، ثم ظهور أنظمة حاكمة، وفقاً لخريطة الاستعمار، دون مراعاة للواقع العرقي، أو الطائفي، أو غير ذلك^(٣).

أما مواقف هذه الذوات من الصهيونية وإسرائيل، فقد اتفق كل منها مع مسيرتها، حتى عام ١٩٤٨، لكن أيّاً منها لم تكن قادرة على الحركة لاتخاذ أي إجراء عملي حيال الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فالدول التي تكونت

(١) د. مهنا يوسف حداد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٨

(٢) إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

(٣) د. مهنا يوسف حداد، مرجع سبق ذكره ص ٣٤٣

عقب الحرب العالمية الأولى عانت كلها، تقريباً، من الآفات ذاتها، الأمية والتخلف وعدم وجود الثقة بين الدولة وبين المجتمع، وكذلك الاعتماد الكلي والخضوع للدول الاستعمارية^(١).

لقد ارتدت كل من الذوات الوطنية القومية في الوطن العربي ثوبين: الأول تقدم به نفسها للخارج، كدولة مؤسسية، لكنها تتقبل الأمر الواقع وسيطرة القوى العظمى، والثاني: لتقدم به نفسها إلى مجتمع الداخل وتستمد منه شرعية وصايتها على الذات القومية، والتتديد بأية أنظمة أخرى تنافسها في إدعاء الوصاية على تلك الذات القومية. لقد كان لصورة الذات وجهان، الأول مثالي والثاني واقعي، وكانت الذات المثالية نوعاً من الاستراتيجية، وضعتها الأنظمة العربية لنفسها، وأصبحت مصدراً للخداع الذاتي. وقد نشأ التعليم في الوطن العربي متشابكاً مع التعليم الديني واقتصر محتوى التعليم الأدبي، خاصة، على مثاليات تناقض الواقع الذي يعيشه الفرد، وهو ما يؤدي إلى أن تكون لشخصيته وجهين، أحدهما للداخل والآخر للخارج^(٢).

وحتى الذوات الوطنية، التي نشأت عقب حرب ١٩٤٨، خدمت دولة إسرائيل، بطريقة أو بأخرى، بدفع اليهود المقيمين فيها للهجرة إلى إسرائيل، بل إنها كانت ترغمهم على التوقيع بعدم العودة. فالواقع يقول إنه بالرغم من الدساتير التي تنص على المساواة الكاملة للمواطنين، فقد بقيت

(١) خلدون حسن النقيب، الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١. ص ٩٨.

(٢) السيد ياسين، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر. ص ٥٧، ٥٩.

الهوية تتأرجح بين الهوية القومية والهوية الدينية، فقد كان اليهود يعاملون باعتبارهم رعايا أو أهل ذمة، وفقاً لوضعيتهم التاريخية^(١).

صورة الآخر (الصهيوني)

في عام ١٩٤٨ قررت الأنظمة العربية، مع تباين الملابس، والتوقيتات، والأهداف الحقيقية، الدخول في حرب مع المنظمات الصهيونية التي أعلنت قيام إسرائيل، وأخذت الخطابات تصور للمواطنين بأن هؤلاء الصهاينة إنما هم عصابات لن تستطيع الصمود أمام القوى العربية والإسلامية، ولكن النتيجة أظهرت عكس ما يروجونه. فلقد كانت الصورة التي رسمت لدولة إسرائيل مستمدة، لا عن معرفة حقيقية بالصهيونية، ولكن بناءً على الصورة التراثية لليهودي، كما جاءت في المصادر الدينية، سواء الإسلامية، أو المسيحية، أو الأدب العربي^(٢).

وبرغم وجود اليهود على أرض فلسطين، قبل وعد بلفور، فإن صورتهم لم تظهر في الأدب الفلسطيني كأقلية مختلفة، لأن الكاتب الفلسطيني لم يكن ير فيهم خطراً، إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، ومع تزايد الهجرة إلى فلسطين، ومقاومة أهلها لهذا الخطر القادم، أخذ الأدب الفلسطيني يرسم صوراً لليهودي، الذي بات عدوًا، فالكُتّاب الفلسطينيون اختلفوا في تناولهم لشخصية اليهودي، باختلاف مراحل الصراع معه، فعندما كان اللقاء معه ممكناً، وجدنا من ميز بين يهودي وصهيوني، وبين

(١) د. مهنا يوسف حداد، مرجع سبق ذكره ص ٣٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

عربي، ويهودي، ومهاجر قادم عبر البحار، كما فعل وديع البستاني في بعض أشعاره، وفي مقابل ذلك، هناك من اتخذ موقفًا معاديًا من كل اليهود، معتبرًا إياهم أعداءه^(١).

تأثرت الكتابة الفلسطينية عن اليهود بما كتب عنهم في الأدب العالمي، وفي "العهد القديم" و "القرآن الكريم"، إضافة إلى الاحتكاك المباشر معهم، فخليل بيدس، في روايته "الوارث"، ١٩٢٠ "تأثر بشخصية (شايوك) في "تاجر البندقية"، فصور في روايته شخصيات يهودية جشعة، تفعل أي شيء للحصول على المال، كذلك فعل محمد العدناني، في روايته "الشرير"، لكننا في تلك الفترة لا نعدم وجود كتاب حاولوا رسم صورة حقيقية للآخر اليهودي، كما هي على أرض الواقع، دون أن يسقطوا رؤاهم الفكرية عليها، لذا بدت صورهم إيجابية تارة وسلبية تارة أخرى، ويبدو ذلك في قصتي نجاتي صدقي "شمعون بزاجلو" و "العابث". وبعد إعلان الدولة، نجد الكتاب في الخمسينات، والستينات، لا يزالون أسرى الصراع القومي بين العرب واليهود، فلم يستطيعوا خلق شخصيات يهودية واقعية، بل صوروا اليهودي كجندي في جيش العدو، بلا ملامح فردية، فاليهودي في بعض القصص، وإن تخلص من قالبه النمطي، إلا أنه ظل يمثل العدو^(٢).

إن اليهودي السمسار، واليهودية العاهرة، نمطان سائدان للشخصية

(١) أمل أحمد عبد اللطيف أبو حنيش، مرايا الذات والآخر في روايه مقامات العشاق والتجار، ديوان العرب، نسخة إلكترونية: ١٢، كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article2909>

(٢) المرجع نفسه.

اليهودية. و دارس الأدب الفلسطيني في ثلاثينات القرن العشرين وأربعينياته، يعثر على نصوص برز فيها هذا (الموتيف) بروزًا لافتًا. الفتيات فيها يرسلن من الحركة الصهيونية للإقطاعيين العرب، حتى يبيع هؤلاء أرضهم لليهود. ولعل مسرحية محمد عزة دروزة " الفلاح والسمسار"، وفي روايات أخرى " الملاك والسمسار"، من أبرز تلك النصوص، ومثلها، أيضًا، مسرحية برهان الدين العبوشي " وطن الشهيد " (١).

تكشف لنا المادة الصحفية، التي تنتمي إلى فترة الحرب، عن الصورة التي رسمها الإعلام العربي للآخر الصهيوني (٢). وهي صورة نمطية، تنتمي إلى نفس التوجه الذي تحدثنا عنه:

تحت عنوان " الثروة أغلى من الحياة"، عرضت مجلة أكتوبر القاهرية، قصة اختطاف العرب ليهودي ألماني، كان يعمل خبير لصناعة الأسلحة في مستعمرة נתانيا، " وعندما طلب العرب من الدكتور فيرمن أن يشرف لهم على صنع الأسلحة، رفض، فهددوه بالقتل، فأصر على الرفض، وأخيرًا عرضوا عليه مبلغًا كبيرًا من المال، فقبل على شرط أن يدفع العرب المبلغ مقدمًا، أول كل شهر (١).

(١) عادل الاسطة، ذاكرة وصورة اليهود، الكرمل، ٢٠٠٧/٨/١٧، نسخة إلكترونية

<http://www.elkarmel.com/index.php?option=com-content&task=view&id=360&Itemid=155>

(٢) في السطور التالية سوف نعتمد على المادة الأرشيفية التي تنشرها مجلة أكتوبر القاهرية، في باب ثابت، تحت عنوان كانوا من ٥٠ سنة

(١) لمياء أبو المجد (إعداد): كانوا من ٥٠ عامًا، أكتوبر، القاهرة، دار المعارف. ١٩٩٨/١/١٨، ص ٧٢.

وفي خبرٍ عن المعتقلين في السجون المصرية بتهمة النشاط الصهيوني، نجد التعليق التالي: "إنهم لا يعتبرون رعايا دولة معادية، لأننا لا نحارب دولة، ولكن نحارب عصابة غير معترف بها دوليًا، كما أنه لا يمكن اعتبارهم أسرى حرب، فهم إما يهود من رعايا دول أجنبية، فيطبق عليهم قانون التجسس، وإما يهود مصريون فيطبق عليهم قانون الخيانة العظمى" (١)

في كاريكاتير يعرض مشهد لجنديين عربيين، يقتربان من مُستوطنة صهيونية، توليهم ظهرها، وهي تظهر في الصورة شديدة البدانة، وذات شعر أشقر، وتحمل على ظهرها بندقيّة، ويعلق أحد الجنود "دي لازم تكون بيت لحم"، ونرى أن مثل هذا الكاريكاتير يعكس نوعًا من السطحية والاستخفاف بالقضية. وفي العدد ذاته نجد تعليقًا على موقف بريطانيا المنحاز ضد العرب "... شيء واحد يمكن أن يعيد لبريطانيا بعض ثقتنا فيها وهي أن تظهر أراضينا من جيوشها، وأن تعترف بوحدة وادي النيل، وتشترك معنا فعليًا في تأديب يهود فلسطين". وهو استخفاف بحجم العدو (٢).

وفي كاريكاتير يصور الكونت فولك برنادوت، وفي المقابل جثة شخص عربي، يقف على رأسها، شخص آخر (يهودي) يحمل الملامح النمطية لصورة اليهودي، الأنف المعقوف، واللحية والحواجب الكثيفة، والقبعة والمعطف الطويل. والتعليق على لسان برنادوت "ياترى مين

(١) المصدر نفسه، ١٩٩٨/٦/٧، ص ٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩٨/٨/١٦، ص ٧٤.

فيهم اللي اعتدى على الثاني!! ” (١).

في خبر عن تعيين شيخ جديد لحارة اليهود، يقول إنه بعد استقالة شيخ الحارة القديم لكبر سنه، تقدم ثلاثة مرشحين، اثنين من اليهود، والثالث مسلم، هو الحاج إبراهيم، وأن إدارة الشياخات بوزارة الداخلية استبعدت المرشحين اليهوديين، وبذلك لم يبق إلا الشيخ إبراهيم، ثم تعلق المجلة ”... كان أهل الحارة، دائماً، ما يلجأون إليه دائماً لفض منازعاتهم، ويحتفظون لديه بالوثائق المالية، بعد أن اتضح أنه الشخص الأمين الوحيد في الحارة ” (٢).

وتظل صفة اليهودي البخيل مركزية، رغم احتدام الأحداث السياسية والعسكرية، ففي كاريكاتير يأتي مواكباً لحادث انفجار وقع في حارة اليهود في مصر، يصور مشهد لرجال الإسعاف يحملون مصاباً على المحفة، وهو كثيف الحواجب وذو أنف معقوف، وتبدو ملامحه كمن يستشيط غضباً، ويسأل أحد المارة ” ده انفجرت فيه قنبلة؟ ” فيرد المسعف: ” لا انفجرت في الخزانة بتاعته ” (٣). وفي كاريكاتير مدون تحته التعليق ” كيف يحارب المصري أفندي في أربع جهات، يصور الكاريكاتير، شخصية المصري أفندي مشهراً سيف، بينما يدور حوله أربعة شخصيات، نميز بينهما شخصية جندي إنجليزي، وشخصية الملك

(١) المصدر نفسه، ١٩٩٨/٨/٢٣، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩٨/٩/٢٧، ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٩٩٨/١٠/٤، ص ٨٤.

عبدالله، وشخصية اليهودي بالملامح والملابس، التي ذكرناها سابقا^(١).
كما نجد صورة المرأة اليهودية، كمن تبيع جسدها، ففي كاريكاتير
مدون تحته التعليق " استعراض المشاكل الدولية في اجتماع هيئة الأمم،
يصور الكاريكاتير مشهدا لعرض ملكات الجمال، ويجلس زعماء الدول
الكبرى في مقاعد المتفرجين، وتقف الفتيات من جنسيات مختلفة، من
بينهم فتاة محجبة، وأخرى ترتدي أسمالاً ممزقة، وعليها وشاح (مس
فلسطين)، وفي مقدمتهم فتاة تستعرض جسدها، وتعرض صدرها تماماً،
ويحمل وشاحها (مس إسرائيل)^(٢).

* * *

(١) المصدر نفسه، ١٩٩٨/١٢/٦، ص ٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩٨/١١/١، ص ٩٠.

الفصل الثاني عشر:

الرؤية الإسرائيلية للنكبة

رضوى عبد القاور

مثلت نكبة ١٩٤٨ الفلسطينية منعطفًا تاريخيًا هامًا، في الوطن العربي، حيث تم زرع الورم الصهيوني داخل الجسم العربي، ليتمكن منه، شيئًا فشيئًا، ويحوّله إلى جسمٍ مريضٍ هزيل، تستطيع من خلاله الامبريالية تحقيق مطامعها.

كلُّ من موقعه رأي للنكبة أسبابها، وسنحاول هنا إلقاء الضوء على الرؤية الإسرائيلية، في هذا الصدد.

بعد أن أعطت بريطانيا " وعد بلفور "، في ١٩١٧/١١/٢، للصهاينة، جاءت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، لتغير ميزان القوى داخل المعسكر الاستعماري، لصالح الولايات المتحدة، التي أرادت بدورها أن تزيد من مناطق نفوذها، ومستعمراتها، خاصة في المنطقة العربية. غدت الولايات المتحدة هي الداعمة للصهيونية، في حين حاولت بريطانيا التراجع عن إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وإدارة الظاهر لوعد بلفور، مما أثار غضب الصهاينة، فقاموا بعدة عمليات عسكرية انتقامية، ضد الجيش البريطاني، ليعجلوا بإنهاء الانتداب.

رؤى الصهاينة:

لقد تعاون الانتداب البريطاني مع الصهاينة، للمحافظة على انتظام

حركة المواصلات في طرق فلسطين، فانقلب هذا الآخر إلى عنصر غير ثابت، ومعاد، ومشاغب، كما نظر الانتداب البريطاني باستياء إلى كل محاولة من جانب الصهاينة للسيطرة على جزء من أي طريق حيوي للبريطانيين، كان يمر بمنطقة عربية، ولم يكن بدافع من حرص الإنجليز على العرب، بل لأن ظهور الصهاينة كان يحوّل الجزء إلى مكان مرشح للتحريشات، ولزراع الأغنام، ولإغلاق الطريق. وعندما لا يعود الطريق يخدم أغراض البريطانيين، فإنهم كانوا يتخلون عنه لمن كانت له الغلبة، والسيطرة عليه، وكانت أهم التدابير التي اتخذتها حركة النقل اليهودية، ضد الهجمات العربية: البحث عن طرق أكثر أماناً، وأطول مسافة، لكن تمر عبر مناطق أكثر خطورة، وموكابة حرس مسلح لسيارات الصهاينة، ولمصفحات القوافل، فضلاً عن الأعمال الانتقامية الصهيونية^(١).

الضيافة العربية:

بعد أن طوت ثورة ١٩٣٦ راياتها، في ربيع ١٩٣٩، كانت الحاجة الصهيونية ملحة إلى تخطيط منهجي، من أجل المعرفة الشاملة حول القرى الفلسطينية، وهذا ما أتى على أثره تدمير أكثر من ٤٠٠ قرية، وتهجير أهلها، واعتقال شبابهم، مما أفضى إلى احتلال أكبر قدر من الأراضي الفلسطينية، وخاصة الزراعية منها، خلال حرب ١٩٤٨.

اقترح موظف في الدائرة التعليمية، التابعة للوكالة اليهودية - وهو مؤرخ شاب من الجامعة العبرية، يدعى بن تسيون لوريا - إعداد سجل

(١) حرب فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٤٨، ترجمة: أحمد خليفة، بيروت، مؤسسة دراسات الفلسطينية، ١٩٨٤، ص ٣٠٨.

مفصل للقرى العربية، وأن يقوم " الصندوق القومي اليهودي " بإعداده، ليساعد في " التطهير العرقي " للعرب الفلسطينيين، وبلغت حماسة مدير دائرة الاستيطان، آنذاك، يوسف فايتس، الذروة، عندما بلغه خبر ملفات القرى، واقترح، على الفور، تحويلها إلى " مشروع قومي " !، وكانت المهمة الرئيسية رسم خرائط القرى العربية الفلسطينية، لذا تم تجنيد خبير طبوغرافي صهيوني، من الجامعة العبرية، اقترح القيام بمسح فوتوغرافي - جوي لتلك القرى. وفي أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، أصبح الأرشفة مكتملاً، وقد تضمن ملف كل قرية تفاصيل دقيقة، عن موقعها الطبوغرافي، وطرق الوصول إليها، ونوعية أراضيها، ونباتات المياه، ومصادر الدخل الرئيسية، وتركيبها الاجتماعية - الاقتصادية، والانتماءات الدينية للأهالي، وأسماء المخاتير، والعلاقات بالقرى الأخرى، وأعمار الرجال (من سن ١٦ إلى ٥٠). ومن فئات المعلومات المهمة ثمة مؤشر يحدد درجة " العداء " للمشروع الصهيوني. وكانت المشكلة الملحوظة في كثير من ملفات القرى، هي كيفية إيجاد نظام تعاون استخباراتي مع أناس يعتبرهم الصهاينة " بدائيين وبرابرة " !. فيما تضمنت الملفات، في فترة ما بعد سنة ١٩٤٣، وصفاً مفضلاً للزراعة، وتربية الحيوانات، والأراضي المزروعة. ومع حلول سنة ١٩٤٥، جاء المزيد من التفاصيل، حول وصف المساجد، وأسماء الأئمة فيها، وصفاتهم. ومع نهاية الانتداب، أصبح جمع المعلومات موجهًا، بصراحة، نحو المعطيات ذات الطابع العسكري. ولم تكن هذه المهمة خطيرة جدًا، لأن القائمين بها استغلوا أصول الضيافة العربية التقليدية، حتى أنهم حلوا

ضيقاً في بيت مختار القرية نفسه، وعندما لم ينجحوا، خلال يوم واحد، في جمع المعلومات طلبوا استضافتهم، مرة أخرى! كما ركزوا على أمرين: كيفية الدخول إلى القرية، ومعرفة الممتلكات. وروى يغئيل يادين، بأن هذه المعرفة الدقيقة والتفصيلية، بما كان يجري في كمل قرية عربية فلسطينية على حدة، هي التي مكّنت القيادة العسكرية الصهيونية، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، من الاستنتاج بأنه " لم يكن لدى الفلسطينيين العرب من ينظمهم، التنظيم الصحيح ". وكانت المشكلة الجدية الوحيدة، التي واجهتها القيادة الصهيونية هي البريطانيون: " لولا البريطانيون لكنا اخمدنا الاضطرابات العربية، خلال شهر واحد " !^(١).

ضعف وصراع وحماسية ظاهرة:

رأى الإسرائيليون بأن حركة الشبيبة احتلت مكانة قليلة الشأن في حياة العرب، وكانت أهمها حركة الكشافة، التي قامت بأدوار معينة، في مدن عربية فلسطينية عدة، خاصة يافا. وفي ١٩٤٦ برزت منظمات شبه عسكرية للراشدين، واتضح، في أثناء حرب ١٩٤٨، بأن نشاط جمعيات الشبيبة العربية كان متواضعاً جداً، فهي لم تجمع سلاحاً كثيراً، ولم تقم بنشاط تدريبي يستحق الذكر، ولم تنجح في تغيير النمط العربي، الذي كان السلاح، بموجبه، ملكاً خاصاً للمقاتل، يستخدمه وفقاً لإرادته وفهمه^(٢).

(١) إيلان بابيه، التطهير العرقي في فلسطين، ترجمة: أحمد خليفة، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تموز/ يوليو ٢٠٠٧، ص ٢٦ - ٣١
- إيلان بابيه، في حديث معه، الجزيرة، فيلم تسجيلي " النكبة "، ج ٢، الجمعة ٢٣/٥/٢٠٠٨، الساعة ٨ م.

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ - ١٣.

وجد الصهاينة بأن " الانطباع الأول، الذي يمكن أن يخرج به الدارس لفترة الصراع ببشأن مجريات الأمور في الوسط العربي، هو انطباع بالهدوء، إلا أنه انطباع ظاهري، خاطيء، ومضلل. بدليل الانفجار الكبير للأحداث الدامية"، الذي أعقب صدور قرار التقسيم (١٩٤٧/١١/٢٩)، مباشرة، وأبرز الصهاينة أربعة أسباب رئيسة لضبط النفس، الذي أبداه العرب، في سني ١٩٤٦ - ١٩٤٨، وهي: السياسة البريطانية المتمسكة بسياسة " الكتاب الأبيض" (*) المعادية للصهيونية، والدعم المكشوف والخفي من جانب الدول العربية، والتخوف من إثارة ردة فعل يهودية قوية، قبل حلول أوان الحسم، فضلاً عن الصراع الداخلي في المجمع العربي الفلسطيني، وقد اعتبر موقف العرب في فلسطين من حركة الهجرة اليهودية السرية، نموذجاً لسلوكهم، في تلك السنوات، فكانت معارضتهم حادة، إلا أنها لم تكتسب، في تلك السنوات، أي تعبير علمي^(١).

رأى رأس الحركة الصهيونية، أول رئيس لدولة إسرائيل، حاييم

(*) الكتاب الأبيض: أصدره وزير المستعمرات البريطاني، مالكوم ماكdonالد، في آيار / مايو ١٩٣٩، وفيه تناول عزم بريطانيا على عدم إقامة دولة يهودية في فلسطين، وغرمها على أن تقيم دولة فلسطينية، بعد عشر سنوات، يتقاسم فيها العرب واليهود المسؤولية والسلطة، كما حدد الكتاب الهجرة اليهودية، منع انتقال الأراضي لليهود، بعد خمس سنوات!

(*) الكتاب الأبيض: أصدره وزير المستعمرات البريطاني، مالكوم ماكdonالد، في آيار / مايو ١٩٣٩، وفيه تناول عزم بريطانيا على عدم إقامة دولة يهودية في فلسطين، وغرمها على أن تقيم دولة فلسطينية، بعد عشر سنوات، يتقاسم فيها العرب واليهود المسؤولية والسلطة، كما حدد الكتاب الهجرة اليهودية، منع انتقال الأراضي لليهود، بعد خمس سنوات!

(١) المصدر نفسه، ص ٧.

وايزمان، كغيره من الصهاينة، بأن العرب، عنصر آخر ومتمدن من البشر، يجب أن يكون هناك عنصر مساعد لحياتهم. فقال وايزمان، أمام لجنة فلسطين المنبثقة، عن هيئة الأمم المتحدة، في ليك سيكس، في تشرين الأول وتشرين الثاني / أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٧: "إن ما هنا لك من تفاوت، وعدم تساوى، بيننا وبين العرب، إنما هو أقل بكثير من مثله بين الطبقة المتأخرة والعنصر السيد، في كثير من البلدان المتمدنة المتحضرة القوية، فأحرى بالمرء أن يسأل تلك البلدان الفتية القوية، ما الذي فعلته من أجل المتأخرين المنحطين من سكانها؟، إن شر مظهر اجتماعي للبقعة العربية، هو تلك الفجوة المنكرة القائمة بين طبقة ضئيلة من الأثرياء المفرط ثراؤهم، وبين أهل الحضيض الطويل العريض، سواء السكان المتفرقين المغمورين، بؤساً وشقاءاً" (١).

وكان تقدم اليهود يعطيهم الحق في اغتصاب حقوق الآخرين، خاصة إذا ما كان الآخرين متأخرين!

في ١٩/٣/١٩٤٨، أبلغ المندوب الأميركي، في ليك سيكس، ولرين راوستن، مجلس الأمن الدولي، بأن الولايات المتحدة لم تعد تؤيد مبدأ تقسيم فلسطين، وأوضح أوستن أن هذا التغيير في وجهات النظر يرجع إلى أن الولايات المتحدة أصبحت مقتنعة، الآن، بأن التقسيم لن يتحقق بدون استخدام العنف. وأرفق هذا التملص الأميركي، باقتراح يقضي بفرض وصاية مؤقتة على فلسطين. ورأت كاتبة صهيونية بأنه كان "من

(١) حاييم وايزمان، ملخص كتاب لتعربة والخطأ، ترجمة: دويغ البستاني، الناصرة، مطبعة الحكيم، ١٩٦٤، ص ٣٠٢.

الطبيعي أن يفسر العرب المحاولة الأمريكية بأنها دليل على أن هجماتهم العربية تؤتي ثمارها، على الجبهة الدبلوماسية، إن لم يكن على جبهة القتال، فضلاً عن أنها أفضت إلى تشجيع رجال (العصابات العرب) على أعمال العنف، التي يقومون بها، مما أودى بالزعماء السياسيين والعسكريين للطائفة اليهودية إلى تشكيل جاز لمواجهة أعباء الحرب الحديثة^(١).

في ١٩٤٧/١٢/٨، اتخذ ممثلو الدول العربية، الذين اجتمعوا في القاهرة، عدة قرارات سرية، ذات طابع عسكري وسياسي، أهمها: إحباط مشروع التقسيم، والعمل على أن تكون أرض فلسطين " عربية ومستقلة وموحدة"، وحدد أولئك الممثلون حصص السلاح والمتطوعين لكل الدول العربية، وعين فوزي القاوقجي، قائداً لجيش المتطوعين، أو كما دعي باسمه الرسمي " جيش الإنقاذ". لكن سرعان ما اتضح بأن وحدة الدول العربية الحماسية هذه لم تكن أكثر من تظاهر إزاء الخارج! وعملياً، دار من وراء الستار صراع على مستقبل فلسطين بعد جلاء البريطانيين عنها، كان بطلاها الرئيسيان: مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، وملك شرق الأردن، الملك عبد الله. وقامت معارضة مصر لإمكان ضم أرض فلسطين إلى دولة عبد الله، بدور كبير حاسم في جميع مخططاتها لنجدة أهل فلسطين، فساندت المفتي بالأموال والسلاح، ونظرت بتحفظ شديد إلى " جيش الإنقاذ " العام التابع للجامعة العربية. وفي دورة انعقاد المجلس

(١) ماري سيركين، جولدا مائير، القاهرة، وزارة الإعلام، هيئة الاستعلامات، كتب مترجمة، ١٩٦٥، ص ١١٩.

السياسي لـ " الجامعة العربية "، في شباط / فبراير ١٩٤٨، التي شارك فيها وفد فلسطين برئاسة المفتي، كشفت العلاقة السيئة، بين أعضاء الجامعة، واتضح بأن مصر " غير متعاونة "، وأن الأموال والسلاح الذي أرسلته إلى فلسطين سلمته إلى رجال المفتي، لا إلى القوة المشتركة التي أقامتها الجامعة، واتسمت العلاقات بين رجال المفتي، و " جيش الإنقاذ " بالعداء الصريح. وعندما جاء القاقوجي إلى فلسطين، في بداية آذار / مارس ١٩٤٨، نشرت " الهيئة العربية العليا "، بياناً، بأن " من يتعاون مع الغرباء سيُعتبر خائناً، ويطرد من البلد (فلسطين) " !، فلم يعترف رجال المفتي بالقاقوجي، وعينوا في جميع الأمكنة قادة من قبلهم، وفي إثر هذه المشاحنات قُسم فلسطين، عملياً، إلى ثلاث مناطق: المنطقة الشمالية (الجليل)، ووضع تحت قيادة " جيش الإنقاذ؛ المنطقة الوسطى (بين جبال القدس والنقب) تحت سلطة رجال المفتي؛ المنطقة الجنوبية، أُتبعت بمصر، وإن أشرفت على كل هؤلاء وحدات " الفيلق العربي "، المعسكرة في فلسطين، منتظرة موعد انتهاء الانتداب البريطاني^(١).

تباؤ:

ركزت هيئة الأركان العامة الصهيونية، قبيل نهاية شباط / فبراير ١٩٤٨، على إعداد خطة استعداد ليوم " الغزو العربي "، المتوقع حدوثه بعد الجلاء البريطاني، فوراً. وأرادت الهيئة إنشاء جيش من ٣٠ كتيبة، في كل كتيبة ٧٥٠ رجلاً، أي ما مجموعه ٢٢.٥٠٠ رجل، وسُلمت

(١) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ - ٢١٤.

الخطّة، التي عرفت " خطّة د " (*)، إلى الأوليّة في ١٠ آذار / مارس، وقد أقيمت على فرضيات ثلاث: لن تبقى قوات بريطانية في فلسطين؛ لن تدخل قوة دولية، وستعمل القوات العربية جميعها، نظامية وشبه نظامية ومحلية، بصورة منسقة^(١)

في الجهة الأخرى، اتخذت اللجنة السياسية في الجامعة العربية (١٢/٥/١٩٤٨) - أي قبل الانسحاب البريطاني بيومين اثنين - القرارات التالية^(٢):

- ١- إعلان حالة الطوارئ في الدول الأعضاء في الجامعة العربية.
- ٢- استيعاب الدول العربية النسوة والأطفال والشيوخ، فحسب من اللاجئين الفلسطينيين.
- ٣- تحمل كل دولة عربية نفقات قواتها في فلسطين.
- ٤- تبادل وزراء الخارجية العرب المعلومات، فيما يختص بجميع نواحي حرب فلسطين.

رأت القيادة الصهيونية بأن " الجامعة العربية " هي مكتب لاتحاد

(*) الخطّة د: هي الخطّة العسكرية الصهيونية الرئيسية، للسيطرة على فلسطين، أو على أكبر مساحة منها خلال حرب ١٩٤٨، وتحويل فلسطين إلى دولة يهودية، بعد طرد أهاليها العرب منها.

(١) غيرشون ريفيلين، الجاتان أورن (محرران)، ديفيد بن غوريون/ يوميات الحرب ١٩٤٧ - ١٩٤٨، ط١، ترجمة: سمير حبور، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) ديفيد بن غوريون، إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الأول، القاهرة، مركز البحوث والمعلومات، د. ت.، ص ٢٥٨،

- حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

فدرالي ضعيفاً جداً بين عدة دول، فضلاً عن أنها هيئة قائمة، في حد ذاتها، سعت إلى زيادة نفوذها، وتقليص الاتجاهات الانفصالية، التي نبعث من المصالح المتناقضة للدول المشاركة فيها. ولم تظهر الخلافات التي كانت قائمة في شأنها، بين دول الجامعة، إزاء الخارج، مادامت مشكلة فلسطين تصل إلى مرحلة الحل الفعلي^(١).

وإن اتضح للإسرائيليين بأن الدول العربية لن تبقى مكتوفة الأيدي، وأنها ستحاول تنفيذ تهديداتها، وفي البداية أملت الدول العربية بأن يقوم بهذا العمل العرب الفلسطينيون، بمساعدة متطوعين عرب مختلفين، لكن عندما اتضح لتلك الدول، في نهاية نيسان / أبريل ١٩٤٨ (بعد احتلال الصهاينة طبرية، وحيفا، وتطويق يافا) انهيار القوات العربية المحلية، تماماً، وأن كفة الميزان بدأت تميل لصالح الصهاينة، اتخذت الجامعة قراراتها، السابق ذكرها. ومنذ ١٤/٥ (إعلان قيام دولة "إسرائيل")، ودخول القوات العربية إلى أرض فلسطين، تغير تماماً، طابع المعركة، السياسي، والعسكري، سياسياً، أصبحت الحكومات العربية تتحمل كامل المسؤولية السياسية، والمالية، والعسكرية، التي ستترتب على ذلك، وعسكرياً، وضع الغزو جيوش الدول العربية، وقادتها في موضع الاختبار^(٢).

كانت محطات الإذاعة العربية، قد بشرت في نهاية تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٧، بإنشاء جيش الجامعة العربية، كما وصلت أنباء عن

(١) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨٨، ٥٠٣.

تمركز قوات عسكرية، مصرية، وسورية، ولبنانية، على حدود فلسطين، ووجد الصهاينة بأن الهدف من هذا النشاط، ممارسة ضغط سياسي على مجرى النقاش، في الجمعية العامة للأمم المتحدة. كما اتضح لهم بأن وضع الدول العربية، السياسي والعسكري، في تلك الأيام، لم يكن يسمح لها بأي إمكان للمساس بسيادة بريطانيا في فلسطين، فإن كان من الممكن التخوف من عمل متسرع، يقدم عليه هذا القائد أو ذاك، بموافقة خفية من البريطانيين، أو دون موافقتهم^(١).

عملاء ورداءة جيش

روى الضابط الكبير في " الهاغاناة "، آنذاك، موشي ديان، عن عمله في هيئة الأركان العامة " الهاغاناة "، ضابطاً للشئون العربية، هو تجنيد العملاء، لتزويد الطرف الصهيوني بمعلومات عما يحدث بين القوات العربية غير النظامية في فلسطين، وعاونه كل من جيورازيد، وعوديد ياناي، وكانت لهما اتصالات ممتازة مع العرب والدروز في حيفا، وفي الشمال، كما حاول ديان، في مهمة سياسية وعسكرية - حسب قوله - تحويل العدو إلى محايد أو صديق. فطمأن الضابط الدروز، وعند انتهاء المفاوضات معهم، " وافقوا على عدم الاشتراك في الحرب، في المستقبل، بل إن بعضهم انضموا إلينا، وحاربوا إلى جانبنا! كان ديان مشوقاً إلى ترك العمل في المخابرات، والاشتراك عملياً في المعارك، فقام بتشكيل كتيبة من الكوماندور، على إثر اقتراح عضو القيادة العليا للهاغاناة، اسحق صادق. وكانت الأهداف الأساسية للكتيبة طرد العرب

(١) المصدر نفسه، ص ١٩.

الفلسطينيين، واحتلال قُراهم، وأمام دفاعات أهل القرى، طلبت من مَنْ معي: " التوقف عن استخدام الهوادة واللين " كما " أننا لن نضيع وقتًا في العناية بالجرحى، إلا بعد الوصول إلى الوادي، وإذا عجزت عربية عن التحرك، فيجب أن نتركها، وهناك قاعدة واحدة تتم، وهي: (اختراق، وتقدم، أطلق النار، وتقدم) " (١).

رأت إسرائيل بأنه لم يكن هناك نقص في عدد المتطوعين في " جيش الإنقاذ "، لكنها لمست نقصًا في الضباط والرقباء. وكان كثيرون من أصحاب الرتب، الذين تم تجنيدهم، من نوعية غير جيدة، " إن مستوى تدريب وحدات المتطوعين - ذكر تقرير صادر عن القيادة العربية، في نهاية آذار / مارس ١٩٤٨ - أدنى من المتوسط، وقدرتهم القتالية منخفضة، ورجع هذا الأمر إلى قلة عدد الضباط، وتسليم القيادة في الوحدات إلى ضباط متقاعدين، أو ضباط صغار، وحتى رقباء، والنظام العسكري مهمل جدًا ". وكان سلاح " جيش الإنقاذ " من نوعية رديئة، ومعظمه تشكيلة متنافرة من البنادق، وقطع الأسلحة الأخرى، مصدرها بقايا مستودعات سلاح الحرب العالمية الثانية (٢).

فيما قال إسحاق رابين: " كان العرب قد بدأوا في استخدام الرصاص، الذي صنعهو محليًا، والذي كان يستطيع اختراق الدروع " (٣).

(١) موسى ديان، قصة حياتي، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات، سلسلة " كتب مترجمة "

(٧٣٠)، القسم الأول، ص ٩٠، ١٠٧، ١٣٠.

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٣) منكرات إسحاق رابين، جمهورية مصر العربية، الهيئة العامة للاستعلامات، فبراير ١٩٧٩، ص ٣٧.

هذه دلائل صهيونية بحثة، على سوء السلاح العربي، وعدم التدريب الجيد، فيما يناقض الإسرائيليون أنفسهم، في غير موضع، بأن العرب امتلكوا أسلحة ضخمة، مدربين عليها، من عشرات السنين!

رغم ذلك رأى رئيس الوزراء الإسرائيلي، آنذاك، بن غوريون بأن شهر المعارك، بداية من قدوم القوات العربية إلى الهدنة الأولى (١٩٤٨/٦/١١)، أشق وأخطر فترة في " حرب الاستقلال "، فقد احتفظ العرب بالمبادأة، معظم الوقت، ولم تكن - حسب بن غوريون - العمليات التي بدأها موقفة، دائماً. وبدأت الأسلحة المشتراة من الخارج تصل، في ببطء شديد. واستغرق وصول الأسلحة الثقيلة، التي كان للعرب فيها الميزة الكبرى، وقتاً كبيراً^(١).

مبالغة في الإعلام:

في بداية نيسان / أبريل ١٩٤٨، شنت وحدات " جيش الإنقاذ "، بقيادة القاوقجي هجوماً قوياً على مستوطنة " مشما هعميك "، وبعد أن انتهت المعركة بهزيمة القاوقجي، لن تستطع أن تغطي عليها برامج " الكذب والتبجح " - حسب الرواية الإسرائيلية - التي كانت تبثها محطة إذاعة " صوت الإنقاذ "، حيث كان الأسلوب الدعاوي، الحافل بالمبالغات سمة مشتركة، لكل القوات العربية المحاربة، حيث كان " اعتياداً على التزييف والمبالغة " (ويلسون). وظهرت في المطبوعات " أوصاف المعارك، وانتصارات وهمية، لا أساس لها في عالم الواقع " ^(٢).

(١) بن غوريون، إسرائيل... مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٧.

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

الموقف المصري:

رأى الإسرائيليون بأن مصر اتخذت موقفًا قاترًا جدًّا من فكرة التدخل في الحرب، لأنها ترددت في إرسال قوات حقيقية من جيشها الصغير، الذي كانت في حاجة إليه لضمان أمنها الداخلي. وصدرت المبادرة للتطوع، لنجدة العرب، في مصر، أولاً، عن منظمة " الإخوان المسلمين" و " المكروهة " من جانب الحكومة، وانتظموا، في شباط / فبراير ١٩٤٨، في كتبية، وفي فجر ١٠/٤/١٩٤٨، حاول " الإخوان " مهاجمة مستوطنة " كفار داروم " المنعزلة. وانتهى الهجوم بهزيمة، وأدرك " الإخوان " أن أفضل السبل هي عدم مهاجمة نقاط يهودية منعزلة، وإنما إرغام الصهاينة على الدخول في معركة خارج مستعمراتهم، في ساحة مكشوفة. فإنقسمت الوحدات إلى عصابات صغيرة. وبحلول منتصف نيسان / أبريل، كان قد دخل منطقتي غزة، والنقب آلاف المتطوعين المصريين، من كل الأنواع. وفي الوقت نفسه، توصل " الإخوان " إلى اتفاق مع الحكومة المصرية عُين بموجبه ضباط مصريين لتدريب وحدات " الإخوان " (١).

استغلال صهيوني للهدنة :

ابتداء من قيام دولة إسرائيل، إلى يوم الهدنة الأ، لى ١١/٦/١٩٤٨، قُتل - حسب الاحصائيات الإسرائيلية - ٨٧٦ محاربًا إسرائيليًا، وحوالي ٣٠٠ مدني، لكن الموقف العسكري الصهيوني تغير، وفي ذلك الشهر،

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٣ - ٢٢٤

فحصلت إسرائيل على مزيد من العتاد، وتدريب الجنود، وتوسعت وتطورت صناعة الأسلحة، في إسرائيل. وذكر بن غوريون، أنه في ٦/٣، أحرزت إسرائيل أول انتصار على القوة الجوية المصرية، باستخدام طائرات الداكوتا، مرشميت، التي وصلت، مؤخراً، إلى الصهاينة، " ووضعت نهاية لتطوق العدو الجوي " (بن غوريون)، كما أكد بن غوريون بأن " خبراء العسكريين كلهم يؤيدون قيام الهدنة، لأنها ستتيح لنا فرصة لتدريب جيشنا " (١).

جاءت الهدنة الأولى، في الوقت الملائم لصالح الصهيونية. قال أحد القادة الإسرائيليين: " نزلت علينا كالندى من السماء " !، فقد كانت الوحدات متعبة، وخائفة القوى، وكانت الخسائر في كتائب سلاح المشاة عالية جداً، وكان من الضروري منح الرجال فترة استجمام، لاسترداد القوى، وإرسال تعزيزات للكتائب، ولخص رئيس الحكومة، آنذاك، بن غوريون، الخطط لاستغلال الهدنة، في الجلسة التي عقدتها الحكومة المؤقتة، بتاريخ ٦/١٤، وتوقف بين أمور أخرى، عند عدد من المشكلات: مشكلة إرسال المواد الغذائية والمؤن إلى القدس، وتحسين " طريق بورما "، وتوسيعه، مشكلة إيقاف نزوح اليهود عن القدس، مشكلة رفع مستوى التدريبات والانضباط في الجيش، وإعادة تنظيم بنيته؛ مشكلة رفع مستوى الجهد القتالي للييشوف برمته، فضلاً عن زيادة الهجرة، وإقامة المستعمرات الجديدة بأسرع ما يمكن. وأكد الإسرائيليون بأنهم

(١) بن غوريون، إسرائيل... مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٣٠.

استغلوا الهدنة الأولى على أفضل ما يمكن، عسكرياً وسياسياً^(١).

قال رابين، إنه " بحلول أوائل حزيران / يونيو ١٩٤٨، كانت جهودنا للحصول على السلاح قد بدأت تؤتي أكلها، ولولا وجود الأسلحة التي أتت من تشيكو سلوفاكيا، والتي زودتنا بها بتوصية من الاتحاد السوفييتي، دون جدل، لكان من المشكوك فيه جدًا أن يكون بوسعنا المضي في حربنا للاستقلال. وتحسنت كذلك عملية التطوع، كما هيأت لنا الهدنة فرصة إدماج القادمين من معسكرات الاحتجاز في قبرص، في الوحدات المحاربة، كما هيأت لنا أن نقوم بتنظيم تشكيلات منفصلة " ^(٢).

ذكر بن غوريون، في أواخر حزيران / يونيو ١٩٤٨، " كانت قد أحبطت مؤامرة تدمير إسرائيل، (فالغزو) العربي أبعد اليوم من النجاح، عما كانت عليه، منذ ثلاث أسابيع مضت، وتحتل جيوش إسرائيل مناطق متصلة أكبر مما كانت تحتله قبل الهجوم ". فيما شكا المصريون - والحديث لبن غوريون - للدكتور رالف بانس الأمريكي، المرافق لممثل الجمعية العامة للأمم المتحدة، السويدي الكونت فولك برنادوت، من تدخلنا في مشترياتهم من الأسلحة، والأعمال التخريبية للهاغاناة، في طائرات أعدت في ورشة تصليح إيطالية، لنقل شحنة إلى مصر، كما استولينا على سفينة حملت أسلحة تشيكية كانت مباحة لسوريا، وأحضرناها إلى يافا، وأفرغنا شحنتها "، وأكمل بن غوريون، وقال

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩٣ - ٢٩٤،

- حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧١ - ٥٧٢.

(٢) مذكرات...، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

- وأيضًا: بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٦.

باتش: " إن العرب يخشوننا، وأنا نغالي في كمية الأسلحة الموجودة تحت تصرفهم " (١).

قصة تلك السفينة أن سمسارًا سوريًا اشترى هذه الأسلحة، وعرفت " الموساد " بذلك، فأرسلت له فتاة لعوب، واستطاعت أن تحول السفينة إلى إسرائيل، بدل اللاذقية!

مع بداية الهدنة، شعر بن غوريون، بأنهم أحبطوا نية العرب القضاء على الدولة، بحملات خاطفة، وبحسب معلومات، كان من المفروض على العرب الوصول إلى حيفا، وفي ٢٠ أيار / مايو، وإلى تل أبيب، والقدس، في ٢٥ من الشهر نفسه. ويوم ٦/١٠ أذاع بن غوريون على المستوطنين اليهود رسالة، بشأن الهدنة، وشرح بأن حكومته وافقت على الهدنة، لاعتبارين أساسيين: الاستعداد لوقف القتال، لحظة توقف العدو عن القتال، ومبدأ العمل " عبر تفاهم متبادل وتنسيق " مع الأمم المتحدة (٢).

وقد أكد الإسرائيليون بأن تاريخ الأشهر الأربعة الأولى للحرب هو تاريخ تكون تشكيلات عسكرية، وتدريبها، بصورة مكثفة، وشراء أسلحة، قلبت الوضع، في ربيع ١٩٤٨، رأسًا على عقب، وأدت إلى إلحاق هزيمة كاملة بالقوات العربية، المحلية، وغير النظامية (١).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧٤،

بن غوريون، إسرائيل...، مصدر سبق ذكره، ص ٣١١ - ٣١٦.

(٢) بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(١) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩.

في تقرير لبن غوريون، أمام الحكومة المؤقتة (١)، في اجتماعها الأول، في ١٦/٥، تحدث عن اتفاقات في أوروبا لشراء أسلحة، قيمتها ١٩ مليوناً من الدولارات، وعن رحلة غولدا مائير (رئيسة الإدارة السياسية بالوكالة اليهودية) إلى الولايات المتحدة، لجمع الاعتمادات اللازمة (جمعت ٥٠٠ مليون دولاراً)، "لقد اشترينا، بالفعل، ٨٠% من الأسلحة التي تحتاج إليها، إلا أننا سنواجه وقتاً عصيباً، إلى أن تصل إلى أيدينا. وغرضنا الأساسي، الآن، ليس الدفاع عن قرية أو أخرى، بل تدمير قنصوات العصابات" (١) (بن غوريون). كما تطور سلاح الطيران الإسرائيلي، فضلاً عن اتساع نشاط "الهاغانة" (٢).

نفسية العرب:

إلى ذلك، لعب الإسرائيليون دوراً فعالاً في الناحية النفسية للعرب، داخل فلسطين وخارجها، ففي ليل ١٠/٦، أي قبل الهدنة الأولى، تماماً، - حسب الرواية الإسرائيلية - أقلعت في اتجاه دمشق طائرة "داكوتا"، حملت قنابل، فاق وزنها ٢.٥ طن، وحلقت فوق المدينة، مدة تزيد على ٣٠ دقيقة، القت خلالها قنابل، وكان التأثير النفسي على اهالي دمشق "هائلاً". وقد خسر العرب، في شهر المعارك طائرتي "داكوتا"، وأربع

(١) بن غوريون، إسرائيل...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٣ - ٢٤٤،

- وللمزيد عن رحلة جولدا لأمریکا، لجمع المال، انظر:

- سيركين، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٥.

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٣،

- وعن الصناعة العسكرية ومشتريات السلاح: المصدر نفسه، ص ٤٠١ - ٤٣٠.

طائرات "سبيتفاير"، وطائرة "هارفارد" واحدة، ووقع في الأسر ثلاثة طيارين مصريين^(١). كالنت ٣ طائرات إسرائيلية قصفت، في ٦/١، العاصمة الأردنية عمان، حيث ألقت ٣/٤ طن من المتفجرات^(٢). فقد اعتبر الإسرائيليون، وعلى لسان بن غوريون، "الحرب بالنسبة لنا حربًا هجومية"، لذا ضربوا العرب في سوريا، ولبنان، وشرق الأردن. أضاف بن غوريون بأن وزير الخارجية البريطانية، آنذاك، إرنست بيفن، منع اليهود، ممن في سن التجنيد، من مغادرة قبرص إلى إسرائيل، إلا أن "رأيه لا يلزمننا بشيء، وسوف نرفض الحظر على شحنات الأسلحة"^(٣).

فيما حاول الصهاينة اللعب على نفسية العرب، قال بن غوريون: "ينبغي لي أن امتدح العدو، فالفيلق العربي، قوة عسكرية مدربة، شديدة الضبط والربط، تتحلّى بالشجاعة، وتحظى باحترام رجالنا، فأفراد الفيلق يعرفون ماهية الجيش، فهم لا يولون الأدبار، كما أنهم قادرون على اقتحام الموقع، كلما كان ذلك ضروريًا. والجندي المصري مقاتل، أيضًا، قائده لا يفتأ يدفعه للقتال، ولكنه يقاتل باستبسال"^(٤). أردف بن غوريون: "المصريون منضبطون، لكن نجاحهم في استخدام الأسلحة الخفيفة ليس كبير، فعندما يكابدون إصابات تنخفض معنوياتهم، تنظم الإمداد ليس

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦٥ - ٥٦٦

(٢) بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٦.

(٣) بن غوريون، إسرائيل...، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٨، ٣٢١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٣.

جيدًا”^(١). كما تحدث آخرون عن تدهور معنويات ” الإخوان المسلمين “، بعد إيقاع خسائر كبيرة لهم، مما أحدث تأثيرًا سيئًا في نفوسهم، وبعث فيهم الكآبة^(٢).

فضلاً عن ذلك، أشاع الإسرائيليون، بأن رجال ” جيش الإنقاذ “ لم ينجحوا، في كسب ود العرب المحليين، ” الذين رأوا فيهم عزباء، يتصرفون بعنجهية، وأنهم تصرفوا مع الأهالي تصرف الغزاة مع المحتلين، فجمعوا الأسلحة، وباعوها، وفرضوا الغرامات، وصادروا السيارات، ووصل الوضع إلى حد أن السكان باتوا يخشون حمايتهم، أو مخلصيهم، أكثر مما يخشون اليهود أعدائهم “^(٣)!

تشنت واستهانة :

عمومًا، رأى بن غوريون، بأن العرب دخلوا حرب ١٩٤٨ منقسمين، ومختلفين، ولا يجمع بينهم هدف واحد، وكان انقسامهم واختلافهم مصلحة إسرائيلية، نجح الصهاينة في توظيفها، إلى أقصى حد ممكن. مما يؤرق بن غوريون ” الوحدة العربية “. وفي يومياته اعرب، غير مرة، عن خشيته من قيام زعيم عربي، بقيادة العرب في طريق العرب. وكتب: ” الويل لنا إذا كنا لا نعرف كيف نستغل هذا الوقت، كي ننمو ونتحصن، ونمتلك مكانة في العالم، ونقترب من الشعب العربي “. فقد دأب الصهاينة، منذ بداية حركتهم، على الاتصال بالقوى العربية المختلفة

(١) بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٥

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٥.

(٣) للمزيد، المصدر نفسه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

خارج فلسطين، واستطاعوا أن يضعوا أصابعهم على الخلافات والصراعات بين هذه القوى، ووظفوها لخدمة أهدافهم. إن من يراجع كتاب أهرون كوهين، عن إسرائيل والعالم العربي، لا يجد إلا الإتصالات والحوارات واللقاءات مع العرب في فلسطين، وفي خارجها، بحثًا عما سماه الصهاينة "الوفاق" أو "الاتفاق"، وكان بن غوريون لا يعارض ذلك، الذي رأى أن القوة وحدها أداة لتحقيق هذه الأهداف، ولكن القوة المطلقة كذبة مطلقة، وحدود القوة كما قال بن غوريون "الوحدة العربية" (١).

كانت الاستهانة العربية بقوة العدو الصهيوني، أحد أسباب النكبة، فمثلاً، في ٥/٢٨، تم استرداد البلدة القديمة لمدينة القدس، على أيدي الفيلق العربي، وكان ذلك النجاح الأول للفيلق، بعد أن شاهد عدد المقاتلين، وكمية الأسلحة - حسب الرواية الإسرائيلية - "لو عرفنا بأن هذا هو الخصم الذي نقاتله، لكنا هاجمناكم بالعصى، لقد ابتزرت منا، عملياً، شروط (استسلام)، بعد أن تم احتلال الحي" (٢).

كما أشار الصهاينة إلى صعوبة لفظ حرف الـ P على العرب، مما أحبط نواياهم في بعض العمليات، رغم وجود حالات اكتشف فيها العرب الشيفرة التي وردت بها حرف الـ P (١).

(١) عبد العال الباقوري، "إسرائيل" في الستين، مفترق مصيري، العربي (القاهرة)، ٢٠٠٨/٥/١١.

(٢) حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٣.

(١) المصدر نفسه، ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

ماذا لو؟:

في فترة الهدنة، سأل بن غوريون، في حال تجدد الحرب - وإنها ستتجدد - كيف ننتصر؟ علينا أن نقرر أين نستطيع إنزال الضربة المهلكة وبمن^(١). وأكد، في اجتماع، تم يوم ١٨/١٢/١٩٤٨، بأن "هدفنا الرئيسي، الآن، هو السلام". "وَحَذَرُ مِنْ أ، "نَعْتَزُ بِاتْتِصَارَاتِنَا". وأضاف أن الهجرة تتطلب وضع حد للحرب، وأن ما نحتاج إليه، في المستقبل، هو السلام والصداقة مع العرب^(٢).

لقد تمت اتفاقيات الهدنة، في رودس، مع كل من مصر (١٩٤٩/٢/٢٤)، ولبنان (١٩٤٩/٣/٢٣)، والأردن (١٩٤٩/٤/٣)، وسوريا (١٩٤٩/٧/٢٠)^(٣).

فيما اعتبر رابين أنه "بانتهاؤ عملية (يوآف)^(*) أصبحت (حرب الاستقلال) حرباً إسرائيلية - مصرية، بالفعل، نظراً لأن الوحدة بين العرب كانت قد تحمت، كما أن بقية الجبهات ظلت مستكينة^(١).

في أيار / مايو ١٩٤٩ قُبِلت إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة، قبيل

(١) بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) ديان، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.

(٣) عن الاتفاقيات، انظر:

- حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠١، ٧٠٥ - ٧٠٧.

- بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٣، ٥٦٣، ٥٧١، ٦١٩ - ٦٢٠، ٧٠٧ - ٧١٠.

(*) يوآف: كان الهدف الأول والأساسي لإسرائيل، لهذه العملية، شق ممر إلى النقب وحمايته، وتحطيم القوات المصرية. (انظر: حرب...، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢٩.

(١) مذكرات...، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.

مرور عام على إعلان قيام الدولة. وفي هذه المناسبة تساءل بن غوريون، لو قبل العرب قرار الأمم المتحدة، الصادرين يوم ١٩٤٧/١١/٢٩، بشأن التقسيم، كما قبلتها إسرائيل؟ وبموجب الأمم المتحدة، كانت إسرائيل ستحصل على مساحة تبلغ نحو ١٥ ألف كم، وكان فيها يوم إعلان الدولة، نحو ٦٥٠ ألف يهودي، و ٤٥٠ ألف عربي، لكن " في الواقع تسبب العرب " زيادة المساحة لتتجاوز ٢٠.٥ ألف كم، وبقي داخل حدود " الدولة " نحو ١٧٠ ألف عربي فقط، أما عدد اليهود، فقد ارتفع، بفعل موجات الهجرة التي تلت الحرب إلى أكثر من ٩٥٠ ألفاً^(١).

وبعد،

فقد اتفق الإسرائيليون، في رصد أسباب نكبتنا، على ضعف العرب، داخل فلسطين وخارجها، وصراعهم، وتورط أحد القادة العرب فضلاً عن أناس آخرين، مع الصهيونية. غير تمويل العرب في قدراتهم، وتهوينهم في قدرات العدو. فيما ناقض الإسرائيليون أنفسهم، بشأن سلاح العرب، وقوتهم، ومدحهم للعدو. وبقي سؤال بن غوريون، للرد عليه، هو ما وصلنا إليه الآن، فسواء رضي العرب بقرار التقسيم، أم لم يرضوا، فإن إسرائيل كانت ستقوم بكل أعمالها العدوانية، لتحقيق حلمها الصهيوني " من النيل إلى الفرات "، مع ملاحظة أن القيادة الصهيونية تظاهرت بقبول قرار التقسيم، وإن ضمرت رفضه!

* * *

(١) بن غوريون، يوميات...، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥١

الفصل الثالث عشر:

من اليشوف إلى الدولة

أحمد منصور (سماعيل)

مثلت حرب ١٩٤٨ نقطة الانطلاق الأساسية لأهم مراحل المخطط الصهيوني، في فرض وإثبات السيادة اليهودية على أرض فلسطين، كما اعتبرت تلك الحرب انقلاباً ونقطة تحول في تنفيذ المشروع الصهيوني، وفي تطبيق سياسة الاستيطان اليهودي؛ حين اندفعت القيادة الصهيونية الجديدة، بزعامة بن غوريون - زعيم صهيوني الداخل - إلى حرب عام ١٩٤٨، وأعلنت قيام دولة إسرائيل، بعد أن فصلت هذه القيادة المشروع الصهيوني عن المشروع الإمبريالي البريطاني. حيث انتهزت فرصة ترتيبات ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتنافس بين مراكز القوى العالمية، ونشطت القوى الصهيونية في السعي نحو تحقيق هدفها وغايتها المرحلية؛ فتولى حاييم وايزمان العمل السياسي الخارجي، وتزعم بن غوريون العمل السياسي والعسكري في الداخل.

في أعقاب إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ظروف غاية في السوء، قرارها القاضي بتقسيم فلسطين، في نهاية عام ١٩٤٧، وإعلان بريطانيا انسحابها من فلسطين، في أقرب وقت ممكن؛ بادر المجلس الصهيوني العام - السلطة التشريعية الصهيونية العليا - بإعلان تشكيل (المجلس الوطني)، وإنشاء (الإدارة الوطنية)، وبعد أقل من شهر واحد أعلن بن غوريون - رئيس كل من اللجنة التنفيذية الصهيونية

واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والإدارة الوطنية - قيام دولة إسرائيل، في ١٤ مايو/أيار ١٩٤٨. كما سيطرت اللجنة الصهيونية للوكالة اليهودية على الحكومة المؤقتة، وتولى بن غوريون رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع، في آن، وتم استدعاء وايزمان ليصبح أول رئيس للدولة الجديدة^(١). وهذا يوضح مدى سيطرة بن غوريون وتياره - والذي تزعم الحركة الصهيونية منذ العشرينيات - على مؤسسات اليشوف، التي تعتبر (الدولة الصهيونية في طور التكوين) كخطوة أولى، فدولة إسرائيل ما هي إلا (يشوف متطور)، سعى من خلالها بن غوريون إلى التحول من (مركزية اليشوف) إلى (مركزية دولة إسرائيل).

كان النظام السياسي لليشوف يتكون من هيتين رئيسيتين:

(١) - المجلس القومي اليهودي، والذي أنشئ عام ١٩٢٨، بناء على تشريع صدر في عهد الانتداب، وكان يتولى الشؤون الداخلية التي تهم "اليشوف".

(٢) - الوكالة اليهودية، وتحددت مهمتها بإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، بجانب تولي الشؤون الخارجية "اليشوف"، فيما يتعلق بالاتصال بين اليهود في فلسطين، وبين حكومة الانتداب، واليهود في الخارج^(٢). وكانت الوكالة اليهودية مكونة من ممثلين للحركة الصهيونية

(١) أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، البدايات والمؤسسات والنشاطات و الصراعات ١٨٨٢ - ١٩٨٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط- ١، ١٩٨٥، ص- ١٣٠.

(٢) د. عبد الحميد متولي، نظام الحكم في إسرائيل، الكلام عن الأحزاب ومبادئها وآثار حرب أكتوبر عليها، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط- ٢، ١٩٧٩، ص- ٣٦.

العالمية.

كانت عصابة الأمم أقرت مشروع " صك الانتداب " على فلسطين، في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٢٢، اعترفت فيه بوعد بلفور، ونصت بصورة خاصة على إنشاء وكالة يهودية تسدي المشورة والمساعدة للحكومة البريطانية، فيما يتعلق بعملية الإنماء اليهودي وحاجاته، ثم خولت هذه الوكالة صلاحية القيام بتنفيذ المشاريع العامة، مما جعل طبيعة تلك المشاريع تضي على الوكالة المذكورة صفة هيئة عامة شاملة السلطات وتعمل إلى جانب الإدارة البريطانية^(١).

دشن الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، مرحلة جديدة في تاريخ سياسة الاستيطان اليهودي في فلسطين، كمّا ونوعاً، تحول فيه النشاط الصهيوني من مرحلة الإستيطان، كقاعدة إقتصادية تحاول اكتساب الاعتراف السياسي، إلى دولة مؤسسات ذات سيادة، تحاول تحصين ما قد تم إنجازه، حتى الآن، وإيجاد المدى الحيوي للدولة، باعتبارها كائناً عضوياً، سواء من الناحية السياسية، أو الإجتماعية، أو الإقتصادية.

أولاً - من ناحية البنية السياسية :

عقب إعلان قيام دولة إسرائيل، في مايو/أيار ١٩٤٨، تكونت أول إدارة سياسية لهذه الدولة، من ثلاث هيئات: (أولها)، مجلس الدولة المؤقت، والذي تكون من ٣٨ عضواً، ١٢ من أعضاء المجلس التنفيذي السابق، ١١ عضواً من الوكالة اليهودية للجنة التنفيذية، ١٢ عضواً من

(١) أنجيلينا الطلو، عوامل تكوين دولة إسرائيل، السياسية والعسكرية، والاقتصادية، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، أغسطس/آيار ١٩٦٧، ص ٣٣.

الأحزاب والجاليات التي لم تمثل في هذه الأجهزة، كانوا يمثلون في عهد اليشوف، المجلس الوطني، (ثانيها)، الحكومة المؤقتة (مجلس الوزراء)، ويتكون من ١٢ وزيراً انتخبهم المجلس من بين أعضائه، برئاسة ديفيد بن غوريون، والذي كان في عهد اليشوف يمثل اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، (ثالثها)، رئيس الجمهورية، ينتخبه مجلس الدولة^(١).

أما عن المنظمة الصهيونية العالمية في علاقتها مع دولة إسرائيل، فسجد أن الشخصيات البارزة في تلك المنظمة الصهيونية، قد احتلوا، بعد إعلان قيام دولة إسرائيل، المراكز الرئيسية في تلك الدولة الجديدة، وأصبح القسم السياسي للوكالة اليهودية قد تحول، بعد إنشاء دولة إسرائيل، ليصبح وزارة خارجية إسرائيل، كما اختفى القسم الخاص بالشؤون التجارية والصناعية، وكذلك قسم الشؤون المالية، ولكن المنظمة الصهيونية العالمية استمرت، وظلت الأقسام الأخرى في الوكالة اليهودية، مثل الأقسام الخاصة بمسائل الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، والمستعمرات الزراعية بإسرائيل، والعمل على امتصاص البلاد للمهاجرين، استمرت كذلك^(٢).

ويوضح هذا أن التشكيل الذي تكونت به السلطة المؤقتة، بفرعيها التشريعي والتنفيذي في الدولة الصهيونية، منسجماً مع مخططات وأيديولوجية بن غوريون، فبعد أن سيطر على مؤسسات "اليشوف"،

(١) علي محمد علي، في داخل إسرائيل، دراسة كيانها السياسي، والاقتصادي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت، ص ٢٩.

(٢) الحلو، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢: ٤٣.

كخطوة أولى، قام بتوظيف تلك المؤسسات في عملية التحكم بالمؤسسات الصهيونية في الداخل والخارج، كخطوة ثانية، " إن مصير الدولة يرتبط بمصير يهود العالم، والعكس بالعكس.... ومن المشكوك فيه أن تستطيع إسرائيل البقاء على قيد الحياة، وألا ينقرض يهود الدياسبورا بواسطة قتل الرحمة أو الاختناق، دون الأواصر المتبادلة التي تشد إسرائيل إلى مجتمعات الدياسبورا " (١). بعدها انتقل بن غوريون، إلى استخدام كل تلك البنى المؤسساتية، من أجل إقامة الدولة الصهيونية، والاستيلاء على صناعة القرار فيها كخطوة ثالثة، تمهيداً للخطوة الرابعة، والتي حاول فيها بن غوريون، إخضاع المنظمة الصهيونية العالمية، رسمياً وقانونياً هذه المرة، لسلطة " إسرائيل " التي بيد بن غوريون كل مرافقها، بما فيها منصب رئيس الدولة؛ فعندما عرض بن غوريون على وايزمان منصب رئيس الدولة، وجد الأخير أن منصبه خال من أية سلطات حقيقية، ولا يوجد سوى ممارسة سلطات تمثيلية، كما رئيس الجمهورية الفرنسية وقتها، وصلاحيات وايزمان تجعله " ملك الصهيونية " الشكلي، ليس إلا (٢). وقد أدى هذا إلى تباين شديد بين الجناح الإسرائيلي، وبين الجناح الصهيوني في الخارج، حول من يخضع للآخر، وتميزت السنوات القليلة التالية لقيام إسرائيل بصعود حاد في التوتر السياسي، بين القيادة الإسرائيلية، والقيادة الصهيونية في الخارج، حتى امتد الصراع ليشمل الجاليات والمنظمات اليهودية غير الصهيونية. لكن برغم هذا، أكدت

(١) د. أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، جـ(١)، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٩١، ص٤٦٦.

(٢) أسعد عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره، ص١٣٠.

الدورة الرابعة للمجلس الصهيوني العام، على بقاء أنشطة للمنظمة تدخل في صلب مهمات الحكومة، وهي: الهجرة، استيعاب المهاجرين، الاستيطان الزراعي، هجرة الأحداث والشباب، الشؤون الاقتصادية، إنماء القدس وتطويرها، أمانة الصندوق، العلاقات العامة، التنظيم والإعلام، النشاطات التربوية في الشتات، الدائرة الفرعية للشؤون اليهودية في الشرق الأوسط^(١).

وهذا يفسر أن دولة لدى إسرائيل، الإصرار على إشراك يهود العالم أجمع في تدعيم الدولة الصهيونية، ومدها بالأموال والمساعدات والموارد البشرية، على أساس أنها تعتبر نفسها نتاج اليهود جميعًا وصنيعتهم، بينما هي، في الأصل، صنعة الاستعمار والفكر الصهيوني المتطرف.

لذلك يعتبر الحكم في إسرائيل، بعد قيامها، امتدادًا للحكم الذاتي الذي منحه الانتداب البريطاني، للمستوطنين اليهود في فلسطين، بموجب "صك الانتداب"، وحكومة إسرائيل الأولى، التي تشكلت فور "إعلان الاستقلال" (١٩٤٨)، ولم تكن تلك الحكومة سوى الوكالة اليهودية (فرع فلسطين)، بمؤسساتها المختلفة، مع تغيير الاسم، وحل محل حكم الانتداب، الحكم الذاتي للمستوطنين اليهود في فلسطين، معلناً قيام دولة إسرائيل، وأخذ يطور ذاته، بما يتوافق مع الواقع الجديد، المتشكل، أخذًا في الاعتبار الطبيعة الاستيطانية لإسرائيل، كونها دولة مستوطنين، فاتخذ نظام الحكم فيها النظام البرلماني الرئاسي، الذي يمارس الديمقراطية، ويفصل بين السلطات الثلاث الرئيسية في الدولة: التشريعية، والتنفيذية،

(١) المصدر نفسه، ص١٣٧.

والقضائية؛ لكنه، من جهة أخرى، ميّز ضد الفلسطينيين العرب في الأراضي المحتلة، ومارس ضدهم التفرقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، على حد سواء.

واجهت إسرائيل، أيضاً، في تحولها من نظام " اليشوف " إلى نظام " الدولة "، النظام القانوني الذي ستستند إليه في إعلان الدولة. رسمياً اتخذت إسرائيل شكل الدولة، بعد صدور قرار الأمم المتحدة، في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، القاضي بإقامة دولتين في فلسطين، أولهما يهودية والأخرى عربية، مع إبقاء القدس تحت نظام دولي خاص. لكن، فعلياً، استند مؤسسو دولة إسرائيل، في إقامة هذا الكيان، إلى ما أسموه " الحق الطبيعي والتاريخي للشعب اليهودي "، بجانب قرار التقسيم. فضلاً عن اعتراف الدول بها، ومنحها حقوق الدولة والسيادة على القسم المخصص لها في قرار التقسيم^(١). وعقب إقرار " بيان الاستقلال "، أعلن بن غوريون تشكيل " مجلس الدولة المؤقت "، وكذلك " الحكومة المؤقتة "، وتم الإبقاء على القوانين التي كانت سارية قبل إعلان الدولة، وهي قوانين الانتداب البريطاني على فلسطين، والتي شملت:

١- القوانين التي سنّها البرلمان البريطاني، والمراسيم الملكية البريطانية المفروضة على فلسطين.

٢- القوانين التي سنّها المندوب السامي على فلسطين، بما فيها الأمظمة والأوامر الفرعية كافة.

(١) د. إلياس شوفاني، إسرائيل في خمسين عاماً، المشروع الصهيوني من المجرّد إلى الملموس، دمشق، دار جغرافيا للدراسات والنشر، ج٣، ط١، ٢٠٠٢، ص٤٦.

٣- القوانين العثمانية التي كانت سارية المفعول على فلسطين، في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٤، والقوانين العثمانية اللاحقة، حتى بدء الحكم البريطاني فيها.

٤- الشرائع الدينية السماوية الثلاث، المعنية بشئون الأحوال الشخصية.

٥- مبادئ القانون العام وأسس العدالة الدارجة في بريطانيا، في حال عدم وجود قانون صريح بشأن الموضوع في فلسطين^(١).

كما تم وضع نظام (القانون والإدارة) للدولة المعانة، في ١٩ مايو/أيار ١٩٤٨، الذي نقلت بموجبه صلاحيات حكومة الانتداب إلى حكومة إسرائيل، والذي تضمن النظام القانوني للدولة، والقضايا المتعلقة بفرض الضرائب، وتنظيم قروض الدولة، وميزانياتها، وتنظيم القوات المسلحة، وتسجيل المؤسسات التجارية والجمعيات التعاونية، مع ضرورة نشرها في الجريدة الرسمية (رشروعات). ووضعت الحكومة الإسرائيلية المؤقتة، بجانب هذه القوانين، بعض القوانين الأخرى اللازمة، لتثبيت كيانها، وخدمة أهدافها الصهيونية؛ مثل قانون العودة (١٩٥٠)، قانون أملاك الغائبين (١٩٥٠)، قانون أملاك الدولة (١٩٥١)، قانون الجنسية (١٩٥٢)، قانون امتلاك الأراضي (١٩٥٣)، فضلًا عن الشرائع العبرية

(١) للمزيد انظر:

Dan Horowitz, Moshe lissak: Origins of the Israeli polity, Palestine under mandate. Chicago univ press. 1978. PP186: 212.

واليهودية، مع تقليص الاعتماد على المفاهيم الإنجليزية^(١).

واجهت إسرائيل، عقب قيامها، مشكلة دستورية، وحتى الآن لا تملك إسرائيل دستوراً مكتوباً كاملاً، يضع حدوداً للدولة جغرافياً، وبشرياً، وسياسياً، ويضع الأساس للعلاقة بين السلطات، بشكل محدد، كما يوضح علاقات الأفراد بالدولة، وحقوقهم، وواجباتهم. وقد بينت المحكمة العليا في إسرائيل " أن إعلان الاستقلال، هو إشهار قيام الدولة، على الصعيد الدولي، لكنه ليس قانوناً دستورياً، يمكن من خلاله وضع معايير لدستورية القوانين والتشريعات الأخرى ".

بتاريخ ٣٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٧، نوقشت مسألة وضع دستور الدولة، وكلفت الوكالة اليهودية لجنة من القانونيين بوضع مشروع للدستور، وقدم المشروع للحكومة المؤقتة، التي أدخلت عليه تعديلات، ونشرته، في ٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، لكنه أثار جدلاً بين مختلف الاتجاهات السياسية والدينية المختلفة، وذلك بسبب الخلافات الحادة التي نشأت بينهم في موضوعات مهمة، مثل: الدين، القومية، الحدود، الحقوق الأساسية للمواطن، حقوق الأقلية العربية، ومكانتها، لهذا لا تزال إسرائيل، بلا دستور ثابت ودائم^(٢).

لكن يبدو أن مسألة عدم وضع الدستور، ليس، في جوهرها، ما

(١) صبري جريس، أحمد خليفة: دليل إسرائيل العام، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٢، ١٩٩٦، ص ٤٤.

(٢) انظر:

أحدثه مشروع الدستور من خلافات بين مختلف الأحزاب والتيارات، ولكنه تعمد من القيادة الصهيونية؛ ويتضح هذا في مقدمة الكتاب التي كتبها بن غوريون في (الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل)، عام ١٩٥٢، " إن دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل"، ليأتي هذا بمثابة إعلان على التأكيد، لكون التوسع الصهيوني في طليعة الأهداف التي تجاهر بها ((دولة إسرائيل الصغرى))، فالدولة لا تشكل هدفاً، في حد ذاته، وليست تجسيدا كاملاً " للرؤيا الصهيونية"، بل هي مجرد الهدف الأسمى (الصهيونية)، " إنني اعتبر المقدمة الكبرى، الرئيسية التي تحتل مركز الصدارة في تفكيرنا بأسره، لا بل توجه حركتنا وسياستنا بأجمعها، هي التالية: بأن الدولة ليست هدفاً في حد ذاته، بل هي وسيلة إلى الهدف، والهدف هو الصهيونية" ^(١). وهذا يتعارض مع وضع دستور يقيد الدولة اليهودية، ويحد من تنفيذ أهدافها التوسعية، على اعتبار أنها دولة لم تأت مطابقة لأرضها أو شعبها، وأنها قامت فوق جزء من " أرض إسرائيل".

بعدما أثارته مسألة وضع الدستور، حسم هذا المشروع بالتجميد، بواسطة حزب "مباي"، الذي كان يتزعمه بن غوريون، والذي رأى تأجيل المناقشة " لعدم استكمال المشروع الصهيوني"!. وعقب الانتخابات العامة، في ٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، دعت الجمعية التأسيسية - مجلس الدولة المؤقت في السابق - للانعقاد من أجل مناقشة مشروع الدستور، في ١٦ فبراير/ شباط ١٩٤٩، إلا أن حكومة بن

(١) انظر: شوفاني، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

غوريون طرحت مشروعًا آخر، هو " قانون الانتقال "، بديلاً لمشروع الدستور، واقتُرحت، أيضًا، تأجيل البحث فيه إلى أجل غير مسمى؛ وتمت الموافقة على إقرار " قانون الانتقال "، الذي جاء مكملاً " لنظام القانون والإدارة " (١٩٤٨) ^(١).

في ٨ مارس/ آذار ١٩٤٩، أُعيد طرح مشروع الدستور، واستمر النقاش دون نتيجة، حتى ١٣ يونيو/ حزيران ١٩٥٠، حينما تقدمت الحكومة بحل وسط، أقرته الكنيست، بأغلبية ٥٠ صوتاً ضد ٣٠ صوتاً، وامتناع ٤٠ عن التصويت، ونص القرار على وجوب وضع دستور مكتوب لإسرائيل، مع عدم ضرورة الإسراع بإصداره، وأن يتم ذلك تدريجياً، عبر صياغة قوانين عادية، تتضمن الأحكام الدستورية للدولة، وتعرض تباعاً على الكنيست لإقرارها، ويمكن جمعها، لاحقاً، في وثيقة واحدة ^(٢).

كما أقر الكنيست عدداً من القوانين الأساسية ذات الطابع الدستوري، والتي تعتبر بمثابة الدستور، ومن أهم هذه القوانين الأساسية: قانون الكنيست، قانون أراضي إسرائيل، رئيس الدولة، الحكومة، الجيش، أملاك الدولة، القضاء، مراقبي الدولة، قانون نقل رفات هرتسل (١٩٤٩)، قانون العودة (١٩٥٠)، القوانين التي تحدد العلاقة بين كل من المنظمة الصهيونية العالمية، وإسرائيل (١٩٥٢)، الصندوق القومي اليهودي (١٩٥٣)، الصندوق التأسيسي (١٩٥٦)، وقانون التعويض عن الاضطهاد النازي (١٩٥٧)، ومحركة الهولوكوست (١٩٥٩)، وأكثر من

(١) انظر: أسعد رزوق، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٨.

(٢) انظر: شوفاني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.

١٤٠٠ قانون ولائحة، تم إقرارها ضمن قوانين التشريع^(١).

السلطة التنفيذية في إسرائيل:

فتتألف من رئيس الدولة، ومجلس رئاسة الوزراء، وعقب " إعلان الاستقلال"، وقيام دولة إسرائيل، انتخب حاييم وايزمان، رئيساً للدولة بتاريخ ١٦ فبراير/شباط ١٩٤٩، وفي اليوم التالي عهد وايزمان إلى بن غوريون، رئيس حزب " المباي"، بتأليف الوزارة، بعد أن حاز المباي - سلف " العمل" - على أغلبية المقاعد التأسيسية^(٢). وقد حدث خلاف بين وايزمان وبن غوريون، حول مسألة النظام الرئاسي، حيث كان يؤيد وايزمان نظاماً رئاسياً، يتمتع فيه الرئيس بسلطات واسعة، كالنظام الأمريكي، بينما كان بن غوريون يؤيد النظام الرئاسي، الذي يعتمد على رئاسة الحكومة، مع بقاء منصب رئيس الدولة، كمنصب إداري، مثله مثل النظام الفرنسي، قبل عهد ديغول، ومع رؤية بن غوريون في فرض " مركزية إسرائيل"، نجح في فرض رؤيته.

معروف أن منصب رئيس الدولة في إسرائيل، منصب شرفي، ويجب أن يكون مترفعاً عن الانشاقات الحزبية بمجرد انتخابه، بالاقتراع السري، وهذا يجعله مفتقراً إلى المشاركة الشعبية، حيث لا يدخل للشعب في انتخابه. وتقتصر صلاحيات رئيس الدولة، على تعيين رئيس الوزراء الحائز على أغلبية مقاعد الكنيست، وتكليفه بتشكيل الوزارة، لكن لا يحق له

(١) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢) انظر:

حضور اجتماعات مجلس الوزراء أو الاشتراك فيها، إلا إذا طلب منه رئيس الوزراء ^(١).

أما البرلمان الإسرائيلي:

فيمثل السلطة التشريعية في نظام الحكم في إسرائيل، ومصدر سلطة الحكومة المسئولة أمامها. وعليه فالكنيست هي الهيئة المركزية في النظام السياسي الإسرائيلي؛ ومنذ عهد اليشوف، وحتى قيام دولة إسرائيل، مر الكنيست بمرحتين: الأولى، حيث كان في عهد الانتداب البريطاني يسمى (مجلس الشعب)، وقد تأسس، في ١٩ إبريل/ نيسان ١٩٢٠، عبر انتخابات عامة للمستوطنين اليهود في فلسطين، وفي الاجتماع الأول أعلن أنه المؤسسة العليا، وممثل الكيان الصهيوني الوحيد في الشؤون الخارجية والداخلية، ما أصبح يملك الصلاحية التشريعية والقانونية في جميع الأعمال. والثانية، بعد أن تم " إعلان الاستقلال "، حيث تحول إلى (مجلس الدولة المؤقت)، عندما اتخذت اللجنة الوطنية، بالتشاور مع اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية (فرع فلسطين)، قرارًا بتشكيل حكومة مؤقتة، ومجلس دولة مؤقت، بمجرد أن ينتهي الإنتداب البريطاني، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، وتشكل المجلس من ٣٧ عضوًا، ١٤ من اللجنة الوطنية، ١٢ من الوكالة اليهودية، ١١ من منظمات وهيئات مختلفة، وبعد إعلان قيام دولة إسرائيل، تركزت الجهود في وضع التشريعات الرئيسية اللازمة لتسيير شؤون الدولة، وبدأ بإلغاء شروط الكتاب الأبيض

(١) انظر:

Krains, Oscar: Government and politics in Israel. Boston. Houghton Mifflin Company. 1971. P. 26

(١٩٣٩)، الذي يقيد هجرة اليهود إلى فلسطين، وامتلاكهم الأراضي فيها، ثم وضع قانون التنظيم والإدارة (١٩٤٨)، الذي نقل صلاحيات الحكم إلى حكومة إسرائيل، كما وضعت إجراءات الانتخابات العامة، وبالتالي عمل إحصاء عام للسكان ^(١). وعقب الانتخابات العامة، في ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩٤٩، اجتمعت الجمعية التأسيسية، في مبنى الوكالة اليهودية بالقدس، في ١٤ فبراير/شباط ١٩٤٩، وافتتحها حاييم وايزمان، رئيس الجمعية التأسيسية، حيث أقرت الجمعية "قانون الانتقال" الذي جاء مكملاً "لنظام القانون والإدارة" (١٩٤٨). ونص على أن "الهيئة التشريعية لإسرائيل تشكل من مجلس برلماني واحد، يدعى (الكنيست)، ويضم ١٢٠ عضواً، يجري انتخابهم على أساس التمثيل النسبي، وانتخب الكنيست في تلك الجلسة حاييم وايزمان كأول رئيس لإسرائيل، وظل الكنيست يعقد جلساته في تل أبيب، حتى ١١ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٩، ثم انتقلت إلى القدس، بشكل دائم، حتى عام صيف ١٩٦٦، عندما انتقل إلى مقره الجديد الحالي، والذي أقيم بمنحة مالية من اليهودي الفرنسي جيمس دي ووتشيلد ^(٢).

أما السلطة القضائية:

فقد كان عدم وجود دستور محدد، سبباً في حدوث إشكال بالنسبة لتأسيس السلطة القضائية، ومصادر القانون في إسرائيل، لهذا شددت "وثيقة الاستقلال" على استمرار العمل بالقوانين التي

(١) د. كامل أبو جابر: نظام دولة إسرائيل، إطار القرار السياسي، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

كانت سائدة في فلسطين، طالما أنها لا تتعارض مع أهداف " وثيقة الاستقلال "، وأجازت تطوير القوانين الموروثة، أو سن قوانين جديدة تماشيًا مع النظام الجديد، وبما أن " وثيقة الاستقلال " ليست مصدرًا دستوريًا قانونيًا، أصدر مجلس الدولة المؤقت، بتاريخ ١٩/٥/١٩٤٨، بعد خمسة أيام من " إعلان الاستقلال "، " قانون الإدارة "، الذي أكد على استمرارية القوانين التي كانت سائدة قبل ١٤/٥/١٩٤٨، مالم تتعارض مع القوانين التي قد تسن بعد ذلك. وتمثل محكمة العدل العليا، أعلى سلطة قضائية في إسرائيل، وتتمتع بصلاحيات إستثنائية في جميع القضايا، المدنية والجنائية، التي ترفع من المحاكم الابتدائية^(١).

وفيما يتعلق بالمجال العسكري:

فقد ضاعفت العناصر الصهيونية من نشاطها الإجرامي في فلسطين، واستعداداتها العسكرية، بعد صدور قرار التقسيم (١٩٤٧)، حيث رفض العرب قرار التقسيم، وأعلنوا ثورتهم، بعد هدوء دام أكثر من ثمانية سنوات، نشطت خلالها الصهيونية، وبلغت ذروتها من الناحية العسكرية، استعدادًا " ليوم الاستقلال "، وكانت القوات التي حاربت في (١٩٤٨)، يوم إعلان قيام " الدولة الصهيونية "، تتألف من الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني، ومجموعة " اللواء اليهودي "، الذي حارب على المسرح الإيطالي، وقوات الهاغاناه، ووحداتها الضاربة " البالماخ "، بجانب المتطوعين اليهود القادمين من الخارج، وبلغ قوام هذه القوات ما

(١) انظر: Israel pocket library: Op. Cit. PP. 50.

يقرب من ١٢٠ ألف، وهي التي ألقت، فيما بعد، قيام الدولة " جيش الدفاع الإسرائيلي"، وقد تم تسريح هذه القوات بعد اتفاقية " رودس " لوقف القتال (١٩٤٩)؛ وكانت قوات غير نظامية، وكان على وزير الدفاع أن يختار بين جيش نظامي، وبين تكوين قوة غير نظامية، يمكن استدعاؤها عند اللزوم، واختير التنظيم الثاني، وتم العمل على تطويره، بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، وأنشئ جيش إسرائيل الجديد في عام ١٩٥٠، ليتكون من ١١٥ ألف جندي، على كفاءة قتالية عالية^(١).

ثانياً - من الناحية الاجتماعية:

قبل بداية اليشوف في فلسطين المحتلة، كان ٩٠% من يهود العالم يعيشون في أوروبا وحدها، وكان أغلب هذه النسبة تحديداً تتمركز في أوروبا الشرقية، ونتيجة لسوء الأحوال الصحية والاقتصادية للطبقة الفقيرة من يهود أوروبا، بدأت الهجرات إلى فلسطين، مع بداية انتشار (الأفكار الصهيونية) في " أرض الميعاد"، و " أرض الخلاص ليهود العالم".

وتكون اليشوف على أرض فلسطين المحتلة، من خلال تدفق خمس هجرات، مثلت نواة الكيان الصهيوني، وبداية دولة إسرائيل في (طور التكوين)؛ الهجرة الأولى (١٨٨٢-١٩٠٣)، والتي أتى معظمها من شرق أوروبا، وتحديداً من روسيا، الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤)، ثم الهجرة الثالثة (١٩١٩-١٩٢٣)، وجاءت هذه الهجرة، عقب قيام الحرب العالمية الأولى، وكانت هذه الموجة هي أولى الهجرات التي أحدثت تغييراً جذرياً

(١) انظر: Dan Horowitz، Moshe Iissak: Op. Cit. PP. 197:200.

في البنية الديموغرافية لمجتمع اليشوف، الهجرة الرابعة (١٩٢٤-١٩٣١)، الهجرة الخامسة (١٩٣٢-١٩٣٩)، الهجرة السادسة (١٩٣٩-١٩٤٨)؛ هذه الهجرات الستة هي التي تعتبر الأساس الذي بني عليه (المجتمع الإسرائيلي الجديد) ^(١).

كان لكل هجرة من هذه الهجرات، دورها في بناء مجتمع اليشوف، فقد مثلت الهجرة الأولى التي بدأت عام ١٨٨٢، الخطوة الأولى في بناء حركة الاستيطان، والتي سميت (بيلو)، وهو مصطلح يجمع الأحرف الأولى من الجملة العبرية، "هيا يا بيت يعقوب نمضي معاً"، أما الهجرة الثانية، التي بدأت في عام ١٩٠٤، وسميت بهجرة "أحباء صهيون"، وكان أغلبهم من سن الشباب، ومن أبناء الطبقة الوسطى، وأخذوا العمل في المستوطنات، بدلاً من العمال العرب المأجورين، ونشروا شعار ((العمل العبري))، وغطوه بالمبادئ والمقولات "الاشتراكية"؛ وحمل أفراد هذه الهجرة فكرة العنف المسلح، وكانوا نواة التنظيمات الصهيونية المسلحة، والتي كان أولها منظمة (الهاشومير) أو الحارس. وخلال هاتين الهجرتين ازداد عدد المستوطنين في اليشوف، من ٢٤.٠٠٠ إلى ٨٥.٠٠٠، من مجموع ٧٠٠.٠٠٠، هم مجموع سكان البلاد الأصليين؛ أما الهجرة الثالثة، والتي بدأت تزامناً مع وعد بلفور (١٩١٧)، لإقامة وطن قومي لليهود، وبها ارتفع عدد المستوطنين إلى ٨٩.٦٦٠، حتى جاءت الهجرة الرابعة، والتي بدأت عام ١٩٢٤ ^(١). ويلاحظ أن هذه

(١) النعماني أحمد السيد: التركيب الاجتماعي للمجتمع الإسرائيلي، القاهرة، مكتبة النهضة الشروق، ١٩٨٠، ص ١٣٠.

(١) انظر: شوفاني: مصدر سبق ذكره، ص ١١٣: ١٣٦.

الهجرة أحدثت طفرة كبيرة، من حيث العدد والنوع، في مجتمع اليبشوف، حيث كان أغلبهم من بولندا، نتيجة تردي الأوضاع الاقتصادية هناك، والقيود التي فرضتها الحكومة البولندية على النشاط الاقتصادي لليهود، وكانت فلسطين خيارهم الثاني، بعد محاولة هجرتهم للولايات المتحدة نتيجة القيود التي فرضتها الولايات المتحدة على قوانين الهجرة.

وتميزت عن سابقتها من الهجرات الثلاث، من الناحية الطبقية، والأيدولوجية، والاجتماعية، فكان أغلبهم من أبناء الطبقة الوسطى، واستوطنوا المدن، ولم تكن لديهم دوافع الهجرات الثلاث السابقة نفسها، في حدة ودرجة الاضطهاد، وبالتالي لم يحملوا شعارات " الاشتراكية "، و " العمل العبري "؛ وحملوا معهم أموالاً كبيرة، قدرت بحوالي ١٧ مليون استرليني، مع عام ١٩٢٤، مقارنة بـ ١١ مليون في الأعوام الثلاثة السابقة. وتضاعف عدد السكان، مع بداية ازدهار اقتصاد المستوطنين، أما الهجرة الخامسة، والتي بدأت عام ١٩٣٢، والتي تزامنت مع صعود النازيين إلى السلطة في ألمانيا، حيث جلبت ما مجموعه ٢٢٤.٧٨٥، مستوطنًا يهوديًا، وعرفت باسم (الهجرة الألمانية)، وكان لهم أثر كبير في تغيير مجتمع اليبشوف، من الناحيتين الاجتماعية والثقافية، فمعظمهم كانوا أطباء، ومهندسين، وصناعيين، فضلاً عما حملوه من أموال قدرت بحوالي ٣٥ مليون استرليني. أما الهجرة السادسة والأخيرة في مرحلة اليبشوف، والتي بدأت عام ١٩٣٩، و تزامنت مع نشوب الحرب العالمية الثانية، وصل عدد المستوطنين في فلسطين إلى ٥٩٢.٠٠٠ نسمة، أي أكثر من ٣١% من مجموع سكان القطر، وكان التركز الأكبر في تل

أيبب (١).

بعد نشوب حرب ١٩٤٨، كان عدد المستوطنين اليهود في فلسطين، وفق تقديرات الوكالة اليهودية، حوالي ٦٥٥.٠٠٠ مستوطن، مقابل ١.٣٥٠.٠٠٠ عربي. ومع نهاية العام ١٩٤٨، وصل عدد المستوطنين بحسب الإحصاء الرسمي الإسرائيلي إلى ٧٥٨.٧٠٠ نسمة، أي زادت بحوالي ١٠٣.٠٠٠ خلال حرب ١٩٤٨، تحديداً، معظمهم من المهاجرين والقادمين تطوعاً للقتال. ومع نهاية الحرب لم يبق سوى ١٥٦.٠٠٠ فلسطيني، على المساحة التي احتلتها إسرائيل في الحرب، والتي تمثل نحو ٨٠٪ من مساحة فلسطين. مما يعني حدوث انقلاب ديموغرافي في فلسطين المحتلة، حيث أصبحت الأقلية اليهودية هي الأغلبية الكبيرة، بينما الأغلبية العربية انقلبت إلى أقلية ضئيلة تمثل ١٨٪ من مجموع سكان إسرائيل (٢).

عقب الإعلان عن دولة إسرائيل، ظهرت مرحلة جديدة في تاريخ الإستيطان اليهودي في فلسطين، من حيث الكم والنوع، وهذا ماورد في " إعلان الاستقلال"، من أن دولة إسرائيل ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية وجمع " الشتات والمنفيين"، وكان أول تشريع لمجلس الدولة المؤقت إلغاء شروط " الكتاب الأبيض"، فيما يتعلق بتقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وامتلاك الأراضي بها، ثم أقر بعدها " قانون العودة"، للسماح

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٠

(٢) انظر: حمدي طاهري: اليهود ودولتهم، المؤامرة، ج ٢، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠١، ص ٢١٥.

لكل يهودي بالهجرة إلى إسرائيل والاستيطان فيها.

وأكد بن غوريون، بعد ما يقرب من مرور عشرة أعوام على إعلان قيام إسرائيل، " أن مستقبل هذه الدولة رهن الوصول إلى هدفين نص عليهما (إعلان الاستقلال)، تم التأكيد عليهما في القوانين الأساسية، وطالما لم يتم تنفيذ هذين القانونين كلياً، فلا يمكن اعتبار مهمة الدولة منجزة وعملها تاماً " ^(١). وهذين القانونين هما " قانون العودة " وهدفه تجميع المنفيين، وقانون " التعليم الحكومي "، الذي تتبناه الدولة في سبيل تقوية الثقافة اليهودية في البلد الأم. وقد شهدت السنوات الثلاث الأولى لقيام إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٥١)، هجرة جماعية، على نطاق واسع، ضاعفت من عدد المستوطنين. فقد اقتلعت جماعات سكانية يهودية بكاملها من بلدان محددة، وتهجيرها إلى إسرائيل، مثل يهود اليمن، ليبيا، ويوغسلافيا، وبلغاريا، تبعثها هجرات جماعية من رومانيا، وبولندا، وبلدان شمال إفريقيا (المغرب، تونس، الجزائر)، فضلاً عن يهود تركيا، وإيران، والعراق. حيث بلغ عدد المهاجرين في خلال الثلاث سنوات الأولى ٦٨٦.٧٣٩ شخصاً، منهم ٢٣٧.٧٠٤ من آسيا، ٩٣.٢٨٢ من أفريقيا، ٣٣٢.٨٠٢ من أوروبا، ٣.٨٢٢ من أمريكا، ١٩.٢٨٢ مجهولي الأصل ^(١).

وقد مثل هذا التطبيق رؤية بن غوريون، من أن " قانون العودة "

(١) شوفاتي: إسرائيل في خمسين عاماً، المشروع الصهيوني من المجرّد إلى الملموس، دمشق، دار جغرافيا للدراسات والنشر، ج١، ط١، ٢٠٠٢، ص١٧١.

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

أصبح قانون " الديمومة التاريخية "، والذي يعمل على استمرار الصلة القائمة بين " شعب إسرائيل " و " أرض إسرائيل "، ويضع المبدأ الأساسي الذي تم بفضل إحياء " دولة إسرائيل "، وأنه يعود إليه الفضل في بقائها، ونموها، وتحقيق رسالتها في الخلاص القومي.

وعن نظرة عامة إلى معدلات الهجرة ومصادرها، يتضح أن غالبية المهاجرين الجدد، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى أواخر خمسينيات القرن العشرين، جاءت من آسيا وإفريقيا، ثم تقلصت بنحو ٥٠% في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وفي فترة الثمانينيات وصلت إلى ٢٠%، ومع أوائل التسعينيات وصلت إلى نسبة ٦، ٥%. مع تضائل نسبة المهاجرين من آسيا وإفريقيا، وانحصرت في " يهود الفلاشا " من إثيوبيا، فضلاً عن ما حققته إسرائيل من عمليات تهجير لمعظم يهود الاتحاد السوفياتي (السابق)، مع فشلها في حمل يهود أوروبا وأميركا على الهجرة لإسرائيل^(١). أما التعليم، فقد اعتبره بن غوريون، بأنه يضع الخطوط الرئيسية للتعلق " بالشعب اليهودي " في جميع أنحاء العالم وبثقافة الإنسانية، وبذلك يصبح (التهويد) عملاً متمماً للتهجير، أو تجميع " المنفيين "، ومكملاً له. لأن الدولة تجمع " منفييها "، في الوقت الذي تبحث فيه عن ثقافة مشتركة لهؤلاء " العائدين "، كي يتسنى لها دمج العناصر المتنافرة بثقافتها المختلفة في " وعاء الأمة الواحدة، ذات الطابع اليهودي، الذي يميزها عن سائر الأمم ".

(١) راجع النص الكامل لقانون العودة، (١٩٥٠)، في رزوق: مصدر سبق ذكره، ص ٣١.

ثالثاً - من الناحية الاقتصادية :

الاقتصاد الإسرائيلي، مثل الدولة نفسها، فهو نتيجة تطور مدروس مسبقاً، وليس نتيجة مبادرات فردية. كما أنه مر بفترات ازدهار، نتيجة موجات الهجرة الست، التي أنعشت " اقتصاد مجتمع اليشوف "، في فترات الكساد الاقتصادي العالمي. كما أن ذاك الاقتصاد لا يعتمد على التخطيط المركزي، والرقابة اللاحقة، كما كان الحال في عهد الاتحاد السوفياتي، وليس ناشئاً عن قوى السوق، مثل ما هو متبع في الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى قبل قيام دولة إسرائيل، كانت هناك مجموعات ومنظمات تقوم ببناء قاعدة صناعية، من شأنها توفير العمل لليهود لتعزيز الأمل من أجل قيام وطن قومي ثم دولة يهودية، وهو ما يشكل عاملاً مركزياً بالنسبة للاقتصاد الإسرائيلي.

في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، كانت مشاعر القلق تتزايد داخل أوساط العمال اليهود في فلسطين، حول ظروفهم، مما أدى إلى اتحاد أكثر من أربعة آلاف عامل يهودي، وأقاموا الاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين، وهو المعروف باسم " الهستدروت "، واختير بن غوريون ليكون أول سكرتير عام للهستدروت. وقد قام الهستدروت، بتوسيع نشاطاته تلبية لاحتياجات الجالية اليهودية الجديدة، وجرى تقديم الخدمات الصحية عن طريق البرنامج الصحي للهستدروت، وفي خلال سنوات قليلة، أسس الهستدروت بنكاً تجارياً، وشركة تعمير، وشركة شراء وتسويق، ومنظمة للتسويق الزراعي، وشركة تأمين وجريدة يومية

(١). وبذا تحول هذا المجتمع النقابي العمالي إلى كارتل احتكاري.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، اكتسبت الهستدروت نفوذًا كبيرًا وظهرت زعامات جديدة "للجالية اليهودية"، نشأت من طبقة العمال، وأصبح ثلاثة أرباع العمال اليهود في فلسطين ممثلين في الهستدروت، الذي أصبح يمثل أكبر هيئة صناعية رأسمالية في عهد اليشوف.

وكانت العلاقات بين العمال والإدارة خاضعة لهيمنة الهستدروت، الذي اهتم بهدفين رئيسيين: أولهما، قيام دولة يهودية، والآخر، إدخال أيديولوجية "اشتراكية"، حيث كانت المشاريع التجارية التابعة للهستدروت، والمشاريع الخاصة، لم تكن تقام بهدف الربح، بقدر ما كانت بهدف توفير عمل، للعمال اليهود، وتطوير اقتصاد الوطن القومي اليهودي، حيث كان الهدف هو تعزيز البرنامج الصهيوني، في استصلاح الأرض واستعادة الحياة والثقافة للمستوطنين اليهود. وهنا كان دور "الصندوق القومي اليهودي"، الذي أسسه الصهيوونيون في عام ١٩٠١، حيث كان هدفه، ابتياع الأراضي، على أنها "ملك جماعي للشعب اليهودي"، وتأميم "العمل اليهودي"، وهنا كان "الصندوق القومي اليهودي"، يقوم بدور هام في إقناع اليهود الموجودين في فلسطين، بتحويل ملكيتهم الخاصة إلى ملكية عامة، بجانب الامتناع عن استخدام الطاقة العمالية العربية. وبعد الاعتراف بالدور الرسمي للوكالة اليهودية في فلسطين، كشريك في الإدارة مع حكومة الانتداب، أصبح الصندوق القومي اليهودي أداة واحدة بين أدوات متعددة أخرى، في خدمة الوكالة

(١) شوفاتي: مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.

اليهودية، وأصبح الصندوق القومي متدخلًا في جميع نشاطات القومية اليهودية^(١).

وعقب إعلان قيام دولة إسرائيل، تعرض الاقتصاد الإسرائيلي إلى أزمة مالية شديدة، وذلك بسبب التدفق الهائل من المهاجرين الجدد، مما أجبر الحكومة المؤقتة على فرض رقابة اقتصادية شديدة، وضرائب مرتفعة على السكان، فاضطر أصحاب المصانع والمشاريع التجارية إلى تقديم تنازلات إلى العمال، بسبب وجود نقلة قليلة يمكن دفعها كأجور، بالإضافة إلى أن الأيديولوجية "الإشتراكية" الشكائية، في السنوات الأولى لقيام دولة إسرائيل، وشعر وقتها أصحاب المصانع بأنهم أصحاب عمل، وقرروا إشراك العمال في عملية إدارة المصانع. أيضًا عندما جاء المهاجرون اليهود عقب حرب ٤٨، إلى إسرائيل، كان يجب توفير فرص عمل لهم، في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تعتمد على استيراد المواد الخام، ثم تقوم بتصنيعها وتصديرها إلى الخارج، كمنتج نهائي، وهذا كان معاكسًا لما حدث في الولايات المتحدة، في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث كان تدفق المهاجرون بسبب توافر فرص العمل.

كما يمكن ملاحظة دور "الهستدروت"، في دولة إسرائيل؛ فبرغم أنها، لم تمارس سيطرة تامة على جميع النشاطات الاقتصادية في دولة إسرائيل الحاضرة، بسبب تنافس القطاعين، العام والخاص، فإن هناك تأثير للهستدروت على القطاع الخاص في إسرائيل، خصوصًا فيما يتعلق بسيطرتها على سياسة الأجور، كما أن سياسة الهستدروت في الأجور

(١) طاهري: مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.

هي التي يتبعها القطاع الحكومي، بصورة مباشرة، على رفع شأن الحركة الصهيونية، ودفعها إلى الأمام. والفجوة الناشئة بين الطاقة المستثمرة، وحصيلتها في المرافق والمشاريع العامة، تسخر كأداة لجمع الأموال، بقصد توسيع القطاع الحكومي، الذي يرتبط بشكل ما مع قطاع الهستدروت^(١).

هنا يمكن القول بأن إسرائيل هي ييشوف متطور، أي يمكن اعتبارها قاعدة اقتصادية، تتقدم في تحقيق الإنجازات الجمعية الصهيونية. فهي تطبيق للصهيونية العملية، التي تطور عملها بمقدار الدوافع الجديدة التي تقابلها، لإيجاد المدى الحيوي، للدولة باعتبارها كائناً عضوياً.

وهنا، ومن خلال ما سبق، يمكن القول إن القاعدة الحقيقية والأساسية التي يستند إليها المشروع الصهيوني، من أجل "حقهم" في وطن خاص بهم، هو اليشوف العبري، الذي يمثل ثمرة مجهود مدة أكثر من سبعين عاماً من الاستيطان، وأن حدود الدولة اليهودية تقرر وفق ما يحدده الاستيطان من إنجازات. وأنه سيظل يسعى، دائماً، إلى توسيع هذه الحدود، حسب الإمكانيات المتوفرة، لاستيعاب الأراضي الجديدة، معتمدة على القوة العسكرية الخاطفة، لفرض الأمر الواقع. فضلاً عما مزجته من خليط (اشتراكي عنصري) يقوم على العمل الجماعي، وفق معايير عنصرية لخدمة اليهود دون غيرهم، في إطار عنصري يهودي، لخدمة المشروع الصهيوني، وتحقيق كيان إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل. فضلاً عن ما اعتمدت عليه القيادة الصهيونية في بناء دولة إسرائيل، من التعليم والخبرة ورأس المال اليهودي القادم من الخارج.

* * *

(١) أنجلينا: مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩: ١٤١.

الفصل الرابع عشر:

ملابسات تأسيس " جيش الدفاع الإسرائيلي "

رضوى عبد القاور

ما كان السرطان الصهيوني أن يتواجد، لو لم تسلك الصهيونية سبل الإرهاب، إذ يستحيل الحفاظ على ما أغتصبته، من أراضي وحقوق، بدون توسع الصهيونية، وكيانها في أعمال القتل والتدمير. ما جعل تكوين جيش الدفاع الإسرائيلي، أمر بالغ الإلحاح، بمجرد قيام دولة إسرائيل، أما قبل ذلك فكانت العصابات الصهيونية المسلحة الثلاث.

نشأة العصابات:

في ربيع ١٩٢٠، اتخذ مؤتمر أحدوت هعفوداه(*) قراره بشأن " الهاغاناه"، وكان نصه: " قرر أحدوت هعفوداه تنظيم مشاركة الشغيلة في الدفاع الشعبي عن البلاد، بخلقها مجموعة مخصصة، متأهبة، دائماً. إن في إطار الكتائب العسكرية الإنجليزية أو في الشرطة، سيتم تنظيم الدفاع، ليكون تحت تصرف الذين سيشتركون فيه ". وكانت سنة ١٩٢١، سنة تأسيس وتدريب وتسليح " الهاغاناه"، وتزعمها إياهو غولمب، الذي صرح: " لن نسمح بدخول روح العسكرية إلى المدارس اليهودية ". فيما كان رأي المسئول عن تدريب الضباط، حينذاك، إسحاق ساديه، بأنه " نحن من أنصار مواجهة مباشرة مع العدو، لكننا ضد اغتيال الناس العزل

(*) أحدوت هعفوداه: حزب العمال المتحد، تأسس عام ١٩١٩، وانضم إلى الهستدروت (الاتحاد العام لعمال اليهود في إسرائيل)، عام ١٩٢٠.

وصدر دستور ” الهاغاناه ”، في العام ١٩٢٤، الذي عرفها بأنها ” منظمة عسكرية سرية ”، استهدفت الحفاظ على اليبشوف*، بواسطة الميليشيا الشعبية، ونص الدستور على أن أبواب الهاغاناه ” مفتوحة لكل عبري، وعبرية، يبلغان من العمر سبعة عشر عامًا، وما فوق ”. أي أن ” الهاغاناه ” أخذت بمبدأ الشمولية، في حين خضعت لإشراف الهستدروت، الممثلة لمصالح شريحة معينة في اليبشوف اليهودي (٢).

في أيار/ مايو ١٩٣٨، تمت الموافقة على إنشاء ” المفارز الليلية الخاصة ”، المشكلة من يهود الشرطة الإضافية الخاصة، والمدعمة بضباط ورجال بريطانيين، على أن تتخذ هذه المفارز قواعدها في المستعمرات اليهودية، وذلك لمقاومة أعمال دخول السلاح، ومنع دخول الفدائيين إلى فلسطين. وكان إنشاء تلك المفارز، وعقد الدورة التدريبية لضباط ” الهاغاناه ”، و” الأراغون ” حول قضية الالتزام السياسي، وهذا الاختلاف خدم المخطط الصهيوني، دون شك، فيما يتعلق بتوزيع الأدوار

(١) جاك بينودي (تعريب: فارس عضوب)، تساحال، القوات الإسرائيلية، من الميليشيات الفلاحية إلى القوة النووية، بيروت، شركة المطبوعات الشرقية، دار المروج، ١٩٨٥، ص٣٣-٣٥.

(*) اليبشوف: كلمة عبرية تعني مستوطنة، أو استيطان، وكان هذا التعبير يُطلق، مجازًا، على المستوطنين الصهايين في فلسطين، قبل قيام الدولة الصهيونية، وعلى مؤسساتهم، وتنظيماتهم كافة.

(٢) عبد الحفيظ محارب، هاغاناه، إتسل، ليحي، العلاقات بين التنظيمات الصهيونية المسلحة ١٩٢٧-١٩٤٨، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، آب/ أغسطس، ١٩٨١، ص٢٧.

بين المنظمات العسكرية المختلفة. فقد شكّلت " الأراغون " على أساس إنشاء جيش صهيوني، أكثر تخصصًا، بعيدًا عن تيارات السياسة.

أما " الهاغاناه "، فقد ظلت تابعة للصهيونية (الاشتراكية)، تتلقى أوامرها من اليبشوف، وترتبط عملياتها بالقرارات السياسية المعلنة. وهكذا، تحقق التوازن بين مطالب السياسة الصهيونية الخفية، ومطالب السياسة الرسمية. فبينما اندفعت " الأراغون "، بحجة التخصص العسكري، نحو العمل الإرهابي^(***)، وغير المسئول، صارت " الهاغاناه "، تحت سيطرة الجهاز السياسي الصهيوني، أداة منفذة للسياسة الصهيونية، على الصعيد الرسمي.

وقد استتبع ذلك توزيع الأدوار بين المنظمين. فمذ صدور الكتاب الأبيض ١٩٣٩، تولت " الأراغون "، شن الحملات الإرهابية ضد القوات البريطانية، وكانت هذه الحملات عطاء للأعمال الخطيرة " الهاغاناه "، في الوقت نفسه. كما تولت " الأراغون "، إرهاب العرب، لمنعهم من ممارسة حقهم في الدفاع عن أرضهم، وممتلكاتهم.

فيما كلفت " الهاغاناه "، في هذه الفترة، بثلاث مهام أساسية، هي: تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإقامة المستعمرات، وشن العمليات العسكرية^(١). إن أنطوت العلاقة بين " الهاغاناه "، و " الأراغون "،

(***) تبنت " الأراغون "، سياسة كسر " الهفلغاه " : ككلمة هي المرادف لـ(ضبط النفس)، وكإصطلاح سياسي، هي المفهوم العام للسياسة، التي قيدت بها الوكالة اليهودية " الهاغاناه "، أثناء مواجهة الأخيرة مع العرب في فلسطين، وإن كسرت " الهاغاناه "، " الهفلغاه " في غير مرة. للمزيد: محارب، مصدر سبق ذكره، ص٤٤:٤٦، ص٥٩:٦٢. (١) للمزيد انظر: محمد حسنين هيكل (محررًا)، العسكرية الصهيونية، المجلد الأول،

على فوارق كبيرة، في النواحي التنظيمية، والعقائدية، والسياسية، فهناك نقطة اللقاء، والمفهوم المشترك، بينهما، وهي " دور القوة المسلحة الصهيونية في إقامة الدولة وبنائها " ^(١).

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، وفي حزيران/ يونيو ١٩٤٠، تحديدًا، حدث انشقاق خطير في " الأراجون "، تمخض عن ولادة منظمة جديدة، حملت في بداية تكوينها، اسم " إيسل في إسرائيل "، ثم ما لبثت أن تغير الاسم إلى " ليحي "، (اختصار الكلمات العبرية الثلاث " لوحامي حيروت إسرائيل "، أي " المقاتلون من أجل حرية إسرائيل "). وقد تمردت ليحي ^(*) على واقع تنافس " الهاغاناه "، و " الأراغون "، في التعاون مع السلطات الاستعمارية، ودعا " ليحي "، إلى التعاون مع دول المحور النازية، وقد عمدت مجموعة القيادة لتلك المنظمة إلى إصدار البيان رقم واحد، وفيه أعلنت إبعاد المسؤولين عن الانهزامية والفشل "، وأن " ليحي "، الممثل الوحيد لليهودية المقاتلة. " وهدفها أن تشكل، بأسرع وقت ممكن، وبجميع الوسائل، عاملاً يكون بمقدوره السيطرة على البلاد، بقوة السلاح " ^(٢). وبذا انتهجت " ليحي "

المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، النشأة والتطور ١٨٨٧-١٩٧٧، القاهرة، مؤسسة الأهرام، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٧٢، ص١٣٩-١٤٣.

(١) المصدر نفسه، ص١٥٠.

(*) أسس " ليحي "، إبراهيم شتيرن، فأطلق عليها عصابة شتيرن، وبعد اغتياله تزعمها ناتان فريدمان بيلين. وقد حُلّت هذه الجماعة في انتخابات الكنيست الثانية (١٩٥١).

(٢) بن تسيون دينور، ويهود سلوتسكي (رئيساً التحرير)، سيفرتولدوت هاغاناه (كتاب تاريخ الهاغاناه)، ٣ كتب (٨ أجزاء)، تل أبيب، معرخوت وعام عوفيد، ١٩٥٤-١٩٧٢، ط٣، ١٩٧١، الجزء الأول، المجلد الخامس، ص٤٩٤. أورده: محارب، مصدر سبق ذكره، ص١١٣-١١٤.

أيديولوجية " الصهيونية المقاتلة "، فيما اعتنقت " الهاغاناه " أيديولوجية " الصهيونية العملية "، وسارت " الأرغون "، وفق أيديولوجية " الصهيونية السياسية " (١).

تعددت الأسباب لقيام العصابات الثلاث، كما تعددت أساليبها، إلا أن جميعها خدمت الهدف الصهيوني، بشكل أو بآخر، فكانت رغم تناقض سياستها، تكمل بعضها الآخر. كما اتفقت العصابات الثلاث على أن الإرهاب والوحشية، أفضل الطرق لتحقيق الحلم الصهيوني. فحتى إقامة " الدولة الإسرائيلية "، على جزء من أرض فلسطين، لا يمثل تحقيقاً للحلم، لأن الصهيونية تريد أن تكون أرض إسرائيل " من النيل إلى الفرات ".

من العالمية الثانية إلى التقسيم:

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، بأشهرٍ معدودة، شهدت العلاقات بين العصابات الثلاث انعطافاً حاداً في مسارها، وقد انعكس هذا الانعطاف في انضواء هذه التنظيمات تحت لواء حركة واحدة، أطلق عليها اسم " حركة العصيان العبري "، التي لفظت أنفاسها الأخيرة، في أواخر يوليو/ تموز ١٩٤٦. وعادت العلاقات بين التنظيمات الثلاث إلى ما كانت عليه، فكثفت كل من " إتسل "، و " ليحي "، من نشاطهما العسكري، ضد سلطات الانتداب البريطاني، وعملتا على توزيع نفوذهما، في الوسط اليهودي، بينما ركزت " الهاغاناه " نشاطها في مجالي: الهجرة، والاستيطان، كما عادت إلى تعاونها التقليدي مع سلطات

(١) المصدر نفسه، ص ٩٨، ١١٣ - ١١٤.

الانتداب، دون أن تتخلى عن حركة العصيان، وشعاراتها (١).

تأرجحت سياسة الوكالة اليهودية، في فترة ما قبل التقسيم، بين قبول التعاون بين التنظيمات العسكرية المختلفة، ورفضه، فكانت فئة، ترأسها مسئول أمن الهاغاناه*، ووزير الدفاع، آنذاك، ديفيد بن غوريون، من المعارضين للفكرة، باعتبارها عاملاً سوف يثقل على كاهل العمل الصهيوني، في سبيل إنشاء الدولة الصهيونية. بينما كان الجانب الآخر، من زعماء الصهيونية (أي من زعماء "الهاغاناه")، أمثال إياهو غولمب، وإسرائيل غاليلي، وآخرون رأوا أن هذا التعاون سوف يحقق نفعاً عسكرياً ضرورياً، وتوازناً مطلوباً، بين أنواع المهام، التي تنفذها كل من تلك المنظمات (٢).

اشتعل الصراع بين العصابات الثلاث، وارتدى أشكالاً مختلفة، كالاشتباكات بالأيدي، والاختطاف، والسطو على مخازن السلاح، وكان يمكن أن تصل إلى حرب أهلية، لولا تطور القضية الفلسطينية، وطرحها على بساط البحث في أروقة الأمم المتحدة، الذي نتج عنه قرار التقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩. وكانت "الهاغاناه"، قد وجدت أن أفضل وسيلة لإطفاء الحريق في الوسط اليهودي، هو إشعال حرائق في الوسط العربي، على شكل جرائم بشعة إقترفها بحق عدد من العائلات العربية. وإن ركزت

(١) للمزيد عن حركة العصيان العبري، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٠٧-٢٦٧.
(*) تمخض المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين، عن قرار تسليم حقيبة الأمن لرئيس الوكالة اليهودية، ديفيد بن غوريون، وبهذا بدأت عملية فصل السلطات بين الجناحين السياسي والعسكري. للمزيد انظر: محارب، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩: ٢٨١.

(٢) هيكل، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠-١٥١.

" الأراغون "، و " ليحي "، على تغييب التناقض القائم بين المشروع الصهيوني، وسكان البلاد الأصليين، وعزّ سبب الخلافات بين الطرفين إلى الطرف الثالث، المتمثل بـ " الإدارة البريطانية "، بالنسبة لـ " الأراغون "، وبـ " الاستعمار البريطاني "، بالنسبة لـ " ليحي "، بسبب انتهاجه سياسة " فرق تسد ". في حين قلدت الأخيرة " الهاغاناه "، في مسلسل الجرائم البشعة ضد العرب، فيما تلقفت " الأراغون " تلك الجرائم من " الهاغاناه " دون أن تشجبها، أو تؤيدها، مستخدمة إياها كسلاح في حربها ضد " الهاغاناه " ^(١).

كما رفض الطرف العربي قرار التقسيم، رفضته، أيضا " الأراغون "،

و " ليحي " وإن اختلف سبب كل طرف لهذا الرفض، وكان هذا سبباً جديداً لتوتر العلاقات بين هاتين العصابتين من جهة، و " الهاغاناه " من جهة أخرى. قبلت " الهاغاناه " قرار التقسيم، بعد ترويجها لفكرة التقسيم " الجيد "، والتقسيم " السيء "، فيما ميزت " الأراغون " بين فرحة الجمهور اليهودي، وبين القرار، معتبرة أن تلك الفرحة تعود إلى التبشير بقيام الدولة، وليس إلى التقسيم، الذي هاجمته بعنف، كما شجبت " ليحي "، القرار، في بيان لها، أدانت فيه قادة " الوكالة اليهودية ". و مما جاء في البيان: " أن الشعب العبري الساعي للحرية لن يوافق على تقسيم وطنه، وسلب حقه في استقطاب جماهيره في أرضه. إن البلاد لا تتحمل تقطيع أوصالها.

(١) للمزيد: محارب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٦-٣٢٠.

إن المؤسسات والقادة، الذين انبهرت عيونهم بالسلطة المزعومة، في الدولة المجزأة، لا يمثلون مصالح الشعب في الحاضر، ولا تلزم الشعب في ترابطه التاريخي. وعسكرياً، أخضعت " الهاغاناة " نشاطها العسكري، في الفترة التي تلت قرار التقسيم، لخدمة تنفيذه، بينما هدف التنظيم الآخران إلى توسيع حدود الدولة المقترحة، مستعينين بالأسلوب الإرهابي، المتمثل بزرع القنابل الموقوتة، وإلقاء المواد المتفجرة، بين التجمعات العربية.

ولم تكن " الهاغاناه " بعيدةً عن هذا الأسلوب، وإن انتقدته، فقد نفذت عمليات كثيره مشابهة^(١) فلقد وضعت الصهيونية استراتيجية محددة، انحصرت في النقاط التالية^(٢):

(١) الاحتفاظ بالمستعمرات، مما يتطلب الحفاظ على خطوط المواصلات الطويلة.

(٢) تركيز الدفاع عن المستعمرات النائية.

(٣) تجنب أي صدام مباشر مع القوات البريطانية، حتى لا يؤدي ذلك إلى إعاقة خطط جلاء هذه القوات، وتأخرها.

(٤) العمل على خلق اتصال أرضي، داخل كل منطقة يسيطر عليها اليهود، وبين هذه المناطق، وبعضها البعض. وتكفلت قوات " الهاغاناه "، و " البالماخ " (*)، وحرس المستعمرات، بتنفيذ هذه الاستراتيجية العامة.

(١) للمزيد: المصدر نفسه، ص ٣٢٨ - ٣٣٨.

(٢) هيكلم، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.

(*) " البالماخ "، قوة " الهاغاناه " الضاربة، أو صاعقة " الهاغاناه "، أسسها اسحق ساديه،

فيما تكفلت " الأرغون "، و " شيترن " بشن الحرب الإرهابية.

دير ياسين (١٩٤٨/٤/٩)، في هذه القرية الصغيرة، تآلفت العصابات الثلاث سرًا، لتحقيق أولى أبشع المجازر، في حق الشعب العربي، وخاصة المدني منه، فمسلسل الجرائم الصهيونية، لا يزال مستمرًا.

نظمت هذه المجازر قوات " الأرغون "، بقيادة، مردخلي كوفمان، وقوات " ليحي "، بقيادة، يهوشع زيتلر، وعندما تسربت نوايا العصاباتين، كتب قائد " الهاغاناه "، ديفيد شاليتل، إلى قادتيهما، الرسالة المؤرخة، في ٧ نيسان/ أبريل (قبل يومين من المجزرة): " أريد أن ألفت انتباهكم إلى أن الاستيلاء على دير ياسين، هو من ضمن خطتنا العامة. ليس لدي أي معارضة بأن تقوموا أنتم بهذا العمل، شرط أن تتمكنوا من السيطرة على الموقع، وإذا كان لديكم نقص في الوسائل، فأطلب منكم ألا تنسفوا القرية بالديناميت، لأن ذلك يؤدي إلى هجرة سكانها، واحتلال القوات الأجنبية للمنازل المدمرة، وإن مثل هذا الاحتلال سيرغمنا على التضحية بالعديد من رجالنا، لاستعادة القرية. وإذا ما احتلتها قوات أجنبية، فذلك يفشل مشروعنا، بإنشاء مطار في قطعة أرض مجاورة لها ".*.

وبعد أن قُبرت دير ياسين حوالي نصف سكانها، وسارع الصحفيون إلى المكان، بدأ شاتيل نفسه، بالتفكير، بكل المناورات الممكنة، لكي يحمل " الأرغون "، و " ليحي "، مسؤولية الأحداث، واستحصل بن غوريون، على حرم بحق " المنشقين "، من أكبر حاخامات إسرائيل، مؤكدًا إن "

عام ١٩٤١، وحلت عام ١٩٤٩، عندما تم تنظيم " تساحال " (جيش دفاع إسرائيل).

(*) بالفعل فيما بعد، أصبحت دير ياسين موقعًا لمطار " الهاغاناه ".

الهاغاناه " لاعلاقة لها بهذه " المجزرة الكافرة " ! على أن المفارقة تجلت، عشية إعلان قيام " الدولة اليهودية "، إذ شرعت " الهاغاناه "، و " ليحي "، في إجراء مباحثات، استهدفت تحقيق الوحدة بينهما. واستحوذ على المفاوضات موضوعان إجرائيان، (الأول)، تعلق بنصيب ضباط " ليحي " من المناصب العسكرية، في الجيش، عقب قيامه. أما (الثاني)، فاختص بإعفاء خمسين عنصرًا من عناصر " ليحي "، من الخدمة العسكرية، بغرض تفرغهم لمهام إنشاء حزب سياسي. ولم يغفر أحد قادة " ليحي "، في مذكراته، موقف ليفي أشكول، بخصوص تخفيض عدد المفرغين، " على الأقل خمسة "، بوصفه إياه " كتاجر صغير في سوق ".

وكان قرار الحل، والانضمام إلى " الهاغاناه "، صعبًا على " ليحي " وفي غضون ذلك، صدر الأمر بتشكيل " الجيش الإسرائيلي "، فوجدت " ليحي "، الطريق ممهجة أمامها لدخوله، عقب اتفاقها مع " الهاغاناه " ^(١). وكانت " الأرغون " توصلت بعد مفاوضات، إلى اتفاق وحوي مع " الهاغاناه "، وانضمت إليه " ليحي "، ولن يتحقق ذلك الاتفاق، إلا بعد قيام الدولة، وإعلان قيام الجيش الإسرائيلي، الذي وحد بين صفوفه التنظيمات الثلاث ^(٢).

(١) للمزيد عن مجزرة دير ياسين، وعلاقتها بالولايات المتحدة:

- بينودي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣-٦٥.

- محارب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٦-٣٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

تساحال:

إن أول عمل قامت به القيادة الإسرائيلية، عند نشوب الحرب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨، هو توحيد التنظيمات، والجماعات العسكرية، والإرهابية، تحت رئاسة واحدة، فأنشئ " تساحال "، رسميًا ١٩٤٨/٥/٢٧، (جيش الدفاع الإسرائيلي)، الذي تألف من جيش بري، وقوات بحرية، وطيران. وفي حالة الطوارئ، يتم التجنيد إجباري، تحدد الحكومة عمر المواطنين، الذين يلتحقون بالخدمة العسكرية، ومن المرسوم الذي يتم بموجبه تأسيس " تساحال " : " يمنع، منعًا باتًا، قيام أية قوة مسلحة، خارج جيش الدفاع، يكلف وزير الدفاع بتنفيذ هذا المرسوم ". وقد ترتب على ذلك، أن الجيش الإسرائيلي، جمع بين عدة قيادات مختلفة، من القادة العسكريين، تأثرت كل فئة منها بطبيعة المنظمة، أو الجماعة، التي انحدرت منها.

وعلى سبيل المثال، فغن القادة الذين خدموا في وحدات، وتشكيلات " البالماخ "، والعصابات الإرهابية، اتصفوا بالجرأة، والإقدام، واللامبالاة، مع اتفانهم لفنون حرب العصابات، بينما افتقدوا الخبرة، والدراية العسكرية الكاملة. بينما اتصف القادة، والضباط العاملين في " الفيلق اليهودي "، الذي كان يخدم مع الجيش البريطاني، أثناء الحرب العالمية الثانية، بمميزات القيادة الحقيقية، إلى جانب إمامهم التام بالنواحي الإدارية، وشئون الضبط، والربط العسكري، مع القدرة على التصرف والتفكير. ونجد الفئة الثالثة، من القادة والضباط، وهم الذين هاجروا غلى إسرائيل، وكانوا يعملون في جيوش الدول التي وفدوا منها،

وغاليلية هؤلاء من الفنيين، عملوا في السلاح الجوي الإسرائيلي^(١).

أفضت فترة ما بعد التقسيم، إلى إنتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، إلى زيادة تشكيل القوة العسكرية الإسرائيلية، بالطرق التالية: (٢)

(١) - دخلت " البالماخ " الحرب، بأربع كتائب معبأة، تمامًا، منظمة داخل إطار لواء، ما لبثت أن ازدادت بسرعة إلى عشر كتائب، مقسمة إلى ثلاث ألوية، خضعت لقيادة مركزية، اتخذت مقرها بالقرب من القيادة العليا " للهاغاناه "، لتسهيل الاتصالات.

(٢) - انفصلت البحرية، والقوة الجوية الإسرائيلية، الوليدة عن " البالماخ "، وأخذت تتطور تدريجيًا، إلى أسلحة متميزة بفدائيتها، وإن ظلت تابعة للقيادة العامة للجيش.

(٣) - كان عد كبير من الكتائب، التي تم سحبها من قوات الميدان، التابعة " للهاغاناه "، في حالة تعبئة عامة دائمة.

(٤) - تم تعبئة حرس داخلي، ضم الرجال والنساء الأكبر سنًا، والشبان، الذين قلت أعمارهم عن ١٨ عامًا.

(٥) - أقيمت الخدمات المختلفة، مثل النقل، والمساعدة الطبية،

(١) - بينودي، مصدر سبق ذكره، ص٧٣-٧٤.

- عقيد: فاروق حامد العريزي، صفات ومقومات الجيش الإسرائيلي، القاهرة، وزارة الحربية، إدارة التوجيه المعنوي، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، د. ت، ص٥٧-٥٨.

(٢) إيجال ألون، بناء الجيش الإسرائيلي، القاهرة، وزارة الإعلام، هيئة الاستعلامات، د. ت، ص٣٥.

والدفاع المدني، والهندسة.

وكانت عقيدة " البالماخ "، التي تلقاها المتطوعون، في برامج التدريب، والتي ورثها جيش الدفاع الإسرائيلي، ويمكن تلخيصها، فيما يلي: ^(١)

١ - الافتخار بالأمة.

٢ - الموالاة لمبادئ الاشتراكية وحركة الكيبوتس.

٣ - الضبط والربط والالتزام.

٤ - المساواة.

٥ - التدريب على القيادة.

٦ - الدراسات الفكرية والثقافية.

أنشئت رُتب الضباط، وضباط الصف، أرفعها رتبة " لواء "، لم يشغلها غير شخص واحد، هو ياكوف دوري، رئيس هيئة الأركان الجديد، ورئيس هيئة أركان " الهاغاناه ". وكان تحويل " الهاغاناه "، إلى جيش نظامي لدولة مستقلة إسمًا، وليس مضمونًا، من ناحية معينة، ولكن من ناحية أخرى، كان التغيير في الواقع حقيقيًا، لأنه مثل " التحول التاريخي لفلسطين لدولة يهودية مستقلة، والطائفة اليهودية إلى أمة ". وقد استغلت إسرائيل فترة الهدنة الأولى (١٩٤٨/٦/١١)، التي دامت لمدة

(١) عاموس بيرلموتر، العسكريون والسياسة في إسرائيل، ط١، دمشق، ترجمة: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، (صدرت ط١ من الكتاب العبري، في لندن، ١٩٦٩)، ١٩٧٥، ص٤٥.

شهر، وفرضتها الأمم المتحدة، فراحت "تساحال"، تستولي على مدن فلسطينية أخرى، بهدف توسيع الرقعة الاستيطانية، وإيجاد عمق جغرافي، يعطيها الوقت الكافي لتعبئة فرق الاحتياط، ويمنحه الشعور بالأمن، وفي فترة الهدنة الثانية (٧/١٩ - ١٠/١٠/١٩٤٨)، تمكنت الصهيونية من تزويد وحداتها بقوة بشرية جديدة، وتوزيع المزيد من المعدات الأفضل، التي زودتهم بها كل من تشيكوسلوفاكيا، وفرنسا. كما عملت "تساحال"، على إعادة تنظيم التسلسل القيادي داخلها^(١).

لقد تشكل الجيش، فور تأسيسه، من قوات عامله، بلغ عدد أفرادها، نحو ثلاثين ألفاً، انتظمهم تسعة ألوية، ثلاثة منها ألوية ضاربة متحركة، وستة موزعة على المناطق العسكرية. وأضيف إلى هذه التشكيلات، القوات الاحتياطية، المؤلفة من مجموعات المستوطنين اليهود، والعاملين في المستعمرات، الذين كانوا يتولون الدفاع عن مستعمراتهم، ريثما تتمكن قوات جيش الدفاع من اللحاق بهم. وإلى جانب هذه الألوية، تم تشكيل ثلاثة أسراب جوية، وقوة بحرية صغيرة. وكانت أول مهمة حددها وزير الدفاع للجيش، هي: "السيطرة على كل المنطقة المخصصة للدولة اليهودية، والدفاع عن حدودها، وتأمين الحماية للتجمعات، والمنشآت اليهودية، بواسطة المستوطنين اليهود، حتى لو كانوا خارج تلك الحدود، وذلك ضد قوات الأعداء، النظامية وغير النظامية، التي تعمل من قواعد

(١) - ألون، مصدر سبق ذكره، ص٣٦-٤٠.

- كميل منصور (رئيس التحرير)، فوز عبد الهادي (مساعد رئيس التحرير)، إسرائيل: دليل عام ٢٠٠٤، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، أيار/مايو ٢٠٠٤، ص٥٠٠.

خارج حدود الدولة اليهودية، أو خارجها". وقد بنت القيادة الأسرائيلية، الجيش على اساس التنظيم اللوائي، فجعلت اللواء وحدة مقاتلة، ذات اكتفاء ذاتي، ضمت مختلف صنوف الاسلحة ن كالمدرعات، والمدفعية، والهندسة، ووحدات الدعم والخدمات. ولقد حددت القيادة للواء صفة رئيسية، يجب أن تتوفر فيه، هي القدرة على التحرك والقتال، وحده. ولهذا سعت القيادة إلى تنمية روح المبادرة، واتخاذ القرار، والتصرف الذاتي، لدى قادة اللواء، وأركانه، وضباطه. وقد تألف الجهاز الدفاعي، في إسرائيل من: جيش نظامي محترف، قوامه الرئيس، والضباط، والاختصاصيون، خدمة إجبارية، يجند فيها الفتيان والفتيات (من عمر ١٨ سنة)، قوات احتياطية تشكل القسم الأعظم من الجيش، في زمن الطوارئ والحرب، نظام دفاعي للمستعمرات. وفي اطار هذا الجهاز، تم تحديد الوظائف الرئيسية للجيش ^(١).

تحقق للجيش الإسرائيلي وفرة من الخبرات المكتسبة، إذ أمدته " الهاغاناه"، و " البالماخ" بالخبرة الواسعة، في حرب العصابات، والمعرفة الطبوغرافية بالأرض، فضلاً عن ترسيخ المفاهيم الأيديولوجية، والعقائد الصهيونية، بين أفراد القوات الإسرائيلية. أما ضباط " الفيلق اليهودي"، والمتطوعون الأجانب، فأمدوا الجيش بالمبادئ والنظم، وبنظريات، وتعاليم المدارس العسكرية الأجنبية، وأخصها البريطانية، بالإضافة إلى الخبرة العربية المستخلصة من القتال المنظم، خلال

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، دمشق، هيئة الموسوعة الفلسطينية،

ط١، ١٩٨٤، ص١٢٧-١٣٢.

الحرب العالمية الثانية ^(١).

كما وضع الإسرائيليون أهدافًا محددة، وثابتة، ليحققها نظام التربية العسكرية، في دولتهم، تتلخص فيما يلي ^(٢):

(١) تنمية عقيدة القتال الإسرائيلية، في نفوس الإسرائيليين كافة.

(٢) بث روح الكراهية، والحق في نفوس الإسرائيليين على المواطنين العرب.

(٣) الوصول إلى التفوق النوعي للمقاتل الإسرائيلي، من ناحية التدريب، والتنظيم، والتسليح، والروح المعنوية.

أما عن العصابات الثلاث، والجيش، فبقدر ما عجل إنشاء الجيش في تحقيق وحدة العصابات، فإنه أثار امتعاض "الأرغون"، و "ليحي" لما اتسم من اسم الجيش. فقد حرص المسؤولون عن إطلاق التسمية على الاحتفاظ باسم تنظيم "الهaganah" (الدفاع) كصفة للجيش الإسرائيلي. وأصحاب التسمية، هم من أوساط "الهaganah"، الراغبين في رؤية الجيش الإسرائيلي، وريثًا لمنظمتهم.

ومما زاد من امتعاض التنظيمين الآخرين، خاصةً "الأرغون"، الأمر اليومي، الذي أصدره بن غوريون، بخصوص إقامة "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وفيه حاول رفع مكانة "الهaganah"، في الجيش على حساب العصابتين الأخريين، فقد جاء في الأمر: "مع إقامة دولة

(١) هيكل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٢) العيزي، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

إسرائيل، خرجت (الهاغاناه) من العمل السري، وتحولت إلى جيش نظامي". وقد جاء في الأمر، أيضاً، سرد لتاريخ " الهاغاناه"، ونضالها، وتطرف إلى الهجرة الثانية، وإلى منظمة هاشومير^(*)، والكتائب العبرية، إلى قيام " الهاغاناه" وأسلحتها المختلفة، وإشادة بها، دون ذكر لأي من " الأرغون"، أو " ليحي"، وإن أشير إليهما، بشكل عام^(١). ومع ذلك، فإن الامتعاظ لم يكن بوسعه الوقوف أمام وحدة التنظيمات، فقد توافر الشرطان الأساسيان، اللذان لطالما طالبت بهما كل من " الأرغون"، وتفاقم الحرب العربية - الإسرائيلية، الأمر الذي دفع بالتنظيمات إلى الوحدة والاندماج. وفي الأول من حزيران/ يونيو ١٩٤٨، أعلن عن الاتفاق الشهير، بين قائد " الهاغاناه"، إسرائيل غاليلي، وبين قائد " الأرغون"، مناحم بيغن، الذي تم بموجبه دخول الأخيرة الجيش الإسرائيلي، المشكل أساساً من " الهاغاناه". وقد استمر وجود التنظيمات الثلاث، بعد هذا الاتفاق، في القطاع اليهودي من القدس، باعتباره خارج السلطة الرسمية للدولة اليهودية. وبسبب من هذا الواقع، إلى جانب رواسب الماضي، وتبعاته، شهدت التنظيمات فصلها الأخير، عقب قيام الدولة بفترة، على حساب الجيش الإسرائيلي، المنصوبة تحت كنفه^(٢).

(*) هاشومير: الحارس، منظمة يهودية لحماية النفس، تأسست سنة ١٩٠٩.

(١) دافيد بن غوريون، هيلاحم عام (في نضال الشعب)، ط٣، تل أبيب، إصدار مباني، ١٩٥١، ص١١٣ - ١١٤ (بالعبرية). أوردته: محارب، مصدر سبق ذكره، ص٣٦١. للمزيد، انظر: المصدر نفسه، ص٣٥٩ - ٣٦٢.

(٢) دافيد نيف: معروخات هأرغون هتسضاني هلينومي: تاريخ المنظمة العسكرية القومية (إتسل)، ج٦، ص٢١٤، أوردته: محارب، مصدر سبق ذكره، ص٣٦١: ٣٦٢.

ميزانيات "تساحال"، وإمكاناته

كان عدد " الهاغاناه"، في عام ١٩٤٦، حوالي ٤٥٠٠٠ رجلاً، وإمراة، أي ٧% من مستوطني اليشوف. وكانت ميزانية " الهاغاناه" أقل من ٤٠٠.٠٠٠ جنيه فلسطيني (مساوٍ للاسترليني)، وكان لدى وحدات الميدان التابعة " للهاغاناه"، ٧٠٠ ضابط مدرب، مسئولين عن ٧٠٠٠ رجل جميعهم متطوعون، وبلغ عدد ألوية الشباب ١٠.٠٠٠^(١). وفي حزيران/ يونيو ١٩٤٧، عندما تسلم بن غوريون منصب الدفاع، سعى لتحقيق مهمتين: الأولى: إعادة تنظيم " الهاغاناه"، لجعلها مسؤولة تجاه السلطات الوطنية فحسب، والثانية: التعبئة السريعة والشاملة للرجال، والموارد، حتى يكون لليشوف جيش جاهز للتصدي للجيش العربية المتوقعة. ومع حلول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، ارتفعت ميزانية " الهاغاناه" إلى ٣، ٣ مليون جنيه، وهي أعلى ميزانية في تاريخ " الهاغاناه" ^(٢) كما ارتفعت حصيلة حجم الأسلحة، لدى التنظيم المذكور، فأصبحت حوالي ١٠ آلاف بندقية، و ٢٠٠٠ رشيش، و ٢٠٠ رشاش ثقيل، و ٥٠٠ رشاش خفيف، و ٨٠٠ هاون، بينما تكاد تنعدم المدافع، والدبابات، والطائرات الحربية، والسفن^(٣).

عند بداية الحرب، كانت القوة البشرية " لتساحال"، تزيد عن ٥٠

(١) ديفيد بن غوريون: من المفكرات، نيسان/ أيار ١٩٤٨، معريب، ٣٠ نيسان/ إبريل ١٩٦٨، ص ٢٥، (بالعبرية). أورده: بيرلموتر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢) دينور وسلوتسكي: مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ج ٣، (تل أبيب، معراقت، ١٩٥٩)، ص ٤٤.

(٣) بينو دي: مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

ألف جندي، ارتفعت، في نهاية الهدنة الأولى، إلى ٦٠ ألف، وجاءت معظم هذه الزيادة، في ألوية المشاة، والخدمات، والقوات الجوية، التي تضاعفت قوتها البشرية. واهتمت القيادة العامة للجيش بإنشاء الإدارات اللازمة لتنظيم القوى البشرية، واهتمت القيادة العامة للجيش بإنشاء الإدارات اللازمة لتنظيم القوى البشرية، خدمة للتجنيد، والتعبئة، وتسجيل المجندين، وتوزيعهم. كما أنشأت نواة لإدارة " الخدمة الفنية السيكلوجية "، لفرز الحرفيين، والقادة، والوقوف على كفاءاتهم، ومهاراتهم، و للمساعدة في تصنيف القوى البشرية، المعبأة من مصادر عديدة متباينة. وجاء قسم كبير من الجنود على شكل متطوعين من الخارج، ممن تدفقوا على فلسطين، من دول غرب أوروبا والأمريكتين، ووصل عددهم، أثناء الحرب، إلى حوالي ٢٤٠٠ متطوع من المحترفين، وأصحاب التخصصات الهامة. وأطلق على فئة المتطوعين الأجانب اسم " محل "، التي لم تنحصر أهمية رجالها في عددهم فحسب، بل أيضاً، في خبرتهم القتالية العالية. لذلك كان معظم أفراد القوات الجوية من " محل "، خاصة طياري مسرشميث، والقلاع الطائرة، وكذا كل أسراب القاذفات، والنقل، كما أنهم قاموا بتدريب من خلفهم، من يهود فلسطين. وشغل أفراد " محل " وظائف رئيسية، في البحرية كرؤساء أركان، وقادة للسفن، ورؤساء للأفرع. أما في الجيش، فلم يزد عددهم عن ٣٠٠ فرد، خدموا جميعاً في اللواء السابع المدرع، وهؤلاء أطلق عليهم اسم " جل " (كتاب المهاجرين المحاربين)، ووصل هؤلاء المجندين إلى فلسطين، بعد منتصف عام ١٩٤٨. ولم تقتصر مصادر القوى البشرية "

لتساحال " على ذلك، فحسب، بل إن الصهيونية لجأت إلى استئجار المحاربين المرتزقة، من هنا وهناك، طبقاً لعقود خاصة، الذين عادوا إلى بلادهم، بعد انتهاء الحرب (١).

خلال الهدنة الثانية للحرب، تدفقت الأسلحة على الصهاينة في فلسطين، واشتملت على الطائرات، ودبابات الشيرمان، والمدافع، وكافة أنواع الأسلحة، والمعدات. وقد تنوعت أساليب الحصول على الأسلحة، بين الشراء، والتهريب، والسرقة، والقرصنة، أيضاً. فقد حدث أن اشترت سوريا، في مطلع ١٩٤٨، صفقة أسلحة من تشيكوسلوفاكيا، وأثناء شحنها، في ميناء باري بإيطاليا، تمكن عملاء " ريجيش " (إدارة الأسلحة الصهيونية) من تخريب السفينة، وإغراقها. وأرسل ضابط سوري، لإنقاذ الشحنة، فتمكن من انتشال ٨٥٠٠ بندقية، وبينما كانت السفينة في عرض البحر، اعترضها سفن البالماخ، واستولت على الأسلحة، و السفينة، بعد أن تمكن بعض العملاء من التسلل إليها (٢).

عشية حرب ١٩٤٨، كان لدى القوات الإسرائيلية: ٨٠٠ هاون، من عيارات مختلفة، و ٧٥ مدفعاً مضاداً للدباب، و ٤ مدافع ميدان. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، أصبح لديهم ٢٠٠ مدفع هاون، بين خفيف ومتوسط، و ١٢٠ مدفع هاون ١٢٠ ملم، و ٦٧٥ مدفع م/دو،

(١) هيكل: مصدر سبق ذكره، ص ٦١: ٦٢.

(2) Lorch, Netanel: The Edge of the Sword. NY. Potman. 1961.

أورده: هيكل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦: ١٧٧.

و ٢٥٠ مدفع ميدان (١).

تشكلت أول وحدة مدرعة إسرائيلية، أثناء الهدنة الأولى لحرب ١٩٤٨، وأسسها الجنرال، إسحق ساديه، وكانت هذه الوحدة المدرعة الأولى، هي الكتيبة المدرعة المسماة أس/١٠، وتألّفت، في البداية، من ٦ سرايا، إثنان منها فقط من الدبابات، ضمت واحدة ١٠ دبابات فرنسية، من طراز " هوتشكيس "، وعرفت بالسرية الروسية، لأن غالبية أفرادها انحدروا من أصول يهودية روسية، أو بولندية، فكانت تتحدث الروسية. أما السرية الأخرى، فضمت ٣ دبابات(*)، إحداها أمريكية، من طراز " شيرمان "، والأخريتان بريطانيتان، من طراز " كرومويل "، وقد حملت هذه السرية اسم " السرية الإنجليزية "، حسب اللغة السائدة فيها. وكانت باقى سرايا الكتيبة، من المصفحات (معظمها مصفح محليًا)، و عربات الجيب المسلحة (٢) إلا أن عمليات المدرعات الإسرائيلية، خلال حرب ١٩٤٨، لم يكن دورها هامًا، أو فعالاً، وأن المشاة، والعربات المصفحة، وعربات الجيب، والهاونات، كانت هي الأسلحة الأساسية للقوات الإسرائيلية، في هذه الحرب، وذلك لعدم توفر سدنة دبابات مدربين، وعدم تمتع ضباط " الهاغاناه " بفهم تكتيكي، وتقني كافٍ. لذا استخدمت الدبابات المحدودة، التي توفرت لدى الجيش الإسرائيلي، بواسطة أطقم

(١) د. كيلاني هيثم: المذهب العسكري الإسرائيلي، دمشق، وزارة الدفاع، ١٩٩٩، ص ٨٥:٧٨.

(*) أخذت " الهاغاناه " الدبابات الثلاث من الجيش البريطاني، عشية انسحابه من فلسطين.
(٢) أمين محمود عطايا: الجيش الإسرائيلي ١٩٤٨ - ١٩٩٥، التطور - العتاد - الاستخدام القتالي، ط ١، بيروت، المنارة، ١٩٩٥، ص ٨٦:٩٠.

أجنبية. فلم تخرج كل المعارك التي اشتركت فيها الدبابات الإسرائيلية، عام ١٩٤٨، عن كونها محاولات تجريبية أولية، للتعرف على الدبابة، كأداة قتال من جانب الجيش الإسرائيلي^(١).

أما سلاح المشاة الإسرائيلي، فقد نما قبل ١٩٤٨، ضمن سلاح الميدان، وسرايا "البالماخ"، وشاركت القوات الصهيونية، في حرب ١٩٤٨، بـ ١٢ لواء مشاة، وفي أواخر الحرب تم تنفيذ عدة عمليات، اشتركت فيها مجموعات من ألوية ضمن تشكيل واحد، ومعركة واحدة، حيث كان التنسيق العملياتي بينهما وثيقاً جداً. وفي تلك الحرب، والفترة التالية المباشرة لها، فإن وحدات المشاة ظلت تشكل القوات الرئيسية في القوات البرية الإسرائيلية، التي وقع على عاتقها، بصورة أساسية، تحقيق أهداف الحرب، في ميدان القتال. وأصبح المفهوم الإستراتيجي الإسرائيلي، بعد حرب ١٩٤٨، إذا ما نشبت حرب بمبادرة عربية، يقوم على مبدأ الرد والصد، بواسطة القوات النظامية، والاحتياطية الإسرائيلية، ومن ثم نقل الحرب إلى أرض "الخصم". وحمل هذا المفهوم في المصطلحات العسكرية الإستراتيجية، اسم "المفهوم الدفاعي الهجومي" ^(٢).

جويًا، خاضت إسرائيل حرب ١٩٤٨، ولم يكن لديها، في البداية، أكثر من ٩ طائرات خفيفة، و ٢٥ طيارًا، ولم تمض ستة أشهر، حتى

(١) محمود عزمي: القوات المدرعة الإسرائيلية عبر أربع حروب، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، حزيران/يونيو ١٩٧٥، ص ٩٠.

(٢) عطايا: مصدر سبق ذكره، ص ٤٠: ٤٣.

أصبح لدى " إسرائيل "، أسراب من الطائرات المقاتلة، إلا أنه لم يكن لأعمال الطيران الإسرائيلي نتائج هامة، وإن انفردت إسرائيل، فيما بعد، بميزة السيطرة الجوية على مسرح العمليات^(١).

هزل وتواضع دور البحرية الإسرائيلية، منذ قيام " الدولة الصهيونية "، وحتى أواخر الستينات، بسبب إعطاء الأولوية للقوتين البرية والجوية، فضلاً عن أن القوة البحرية العربية، وقتذاك، لم تكن تشكل تهديداً حقيقياً، إلا في النصف الثاني من الستينات. فلم يكن لدى إسرائيل، خلال عام ١٩٤٨، إلا ١٧١ بحاراً، وقطعة حربية أساسية واحدة، هي السفينة " إيلات "، إضافةً إلى سفن الشحن، التي تم تأهيلها، لتصبح سفن قتال، زودت بمدافع قديمة، لا يزيد عيارها عن ٦٥ ملم^(٢).

عمد بن غوريون إلى إرساء أفكار محددة، لتنظيم العلاقة بين الجيش، والمستوى السياسي، وهي^(٣):

- (١) أن يكون الجيش وطنياً، رسمياً، وغير مُسيّس.
- (٢) أن تكون السلطة العليا في تقرير الحرب والسلام، في إسرائيل، هي للمستوى السياسي.
- (٣) أن يكون وزير الدفاع، هو الحكم النهائي للنزاعات بين المدنيين،

(1) Lutt Work, Dan Horowitz: The Israel Army, Pub Allen Lone, 1975, PP. 81:99.

أورد: عطايا، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢:١٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٥:٢٦٨.

(٣) بيرلموتر: مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

والعسكريين.

(٤) أن يشرف وزير الدفاع، مباشرة، ودائمًا، على الشؤون المتعلقة بالأخلاق والمعنويات، والمستوى المهني، لضباط الجيش.

(٥) إتباع أسلوب مركزي متقدم في اتخاذ القرارات المتعلقة بأمور الدفاع، وقضايا السياسة الخارجية.

كما سعى بن غوريون، لتحقيق الآتي^(١) :

(١) تجميع جميع الوظائف، والمهام المتعلقة بالأمن، والتي كانت تتولاها، في السابق، منظمات سياسية، أو عسكرية مستقلة، جمعها في سلطة مركزية، تحت إمرته.

(٢) تحديد، وفصل وظيفتي رئيس الأركان، ورئيس الحرب، التي كانت قبل ذلك وظيفة واحدة، تحت إمرة رئيس " الهاغاناه ".

فيما سعت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، إلى تنمية اتجاهات أساسية، يشكل عن طريقها المقاتل الإسرائيلي: الاتجاه الأول: اعتبار إسرائيل دولة عسكرية، أو منطقة تجمع للشباب اليهودي، القادر على حمل السلاح، من أجل القتال، حفاظًا على بقاء إسرائيل. معتمدة بذلك على مبدأ " اضرب أولاً، ثم برر بعد ذلك أي شيء من موقف القوة "، والاتجاه الثاني: رأى أن " الحروب هي محاصيل اليهود "، فالحرب بالنسبة لليهود باب مفتوح، عن طريقها يستجدون المعونات، والهبات، والمنح، سواء من الدول التي

(١) المصدر نفسه: ص ٧١.

تساندهم، أو من التنظيمات الصهيونية العالمية، أو من الأفراد اليهود الأثرياء، في جميع أنحاء العالم، الذين يكسبون هم أنفسهم، من هذه الحروب، فيما أكد الاتجاه الثالث: على ضرورة نسيان اليهود خلافاتهم الشخصية، واتحادهم في وجه العرب، رغم الصراع الحقيقي، بين اليهود الغربيين، واليهود الشرقيين، بينما كان الاتجاه الرابع: حول كون إسرائيل هي العدو الأول للوطن العربي الكبير ^(١).

"التالينا" :

" التالينا "، اسم سفينة اشترتها " الأرغون "، في صيف ١٩٤٧، من بحرية الولايات المتحدة الأمريكية، لنقل خمسة آلاف مقاتل مدربين، للشواطئ الفلسطينية، فضلاً عن نقل كميات كبيرة من الأسلحة، حصلت " الأرغون " على جزء بسيط منها، عن طريق شرائها، من أوساط مختلفة، من فرنسا، والجزء الأساسي منها، من حكومة فرنسا بالذات. وقد أبحرت تلك السفينة، في ليل التاسع من حزيران/ يونيو ١٩٤٨، (فترة الهدنة الأولى)، من باريس، وكانت المخاوف من إجراءات التفتيش، في تل أبيب، فاستعدت الحكومة للتعاون، بإنزال الحمولة، في كفر فنيكين، شمال ناتانيا (على بعد ٥ كم من تل أبيب)، بشرط أن تكون حصّة " تساحال " ٢٠% من الأسلحة، والباقي يكون للقوات التي تحارب في القدس، إلا أنه نشب خلاف على كيفية التوزيع، فأراد بيغين أن يتأكد من تسليم الأسلحة، أولاً، إلى مقاتلي " الأرغون "، في القدس، وراح بن غوريون يقول، حتى يستفيد من الوضع: " لا شيء لبيغين، ستسلم كل الأسلحة إلى هيئة

(١) للمزيد، انظر: العزيري، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦: ٨٠.

الأركان. تأخذ كل وحدة حسب حاجتها". وفيما حضر بيغين ومقاتلوه لاستقبال "التالينا"، في ٦/٢٢ رد بن غوريون: "يعتقد بيغين خطأ أن في هذه البلاد مكاناً لجيشين، يجب أن نمنعه عن عمل ما يروق له". وبالنتيجة، تلقى "تساحال" الأمر بإطلاق النار على عصابة بيغين، إذا لم تدعن للأوامر! وبدأ إطلاق النار، وانفجارات القنابل، بين الجهتين "الأرغون"، و"ليحي"، من جهة و"البالماخ"، من الجهة الأخرى، إلى أن تم إحراق "التالينا"، وقفز طاقم السفينة إلى الماء، ووصل أفرادها سباحة إلى الشاطئ، وترك الجميع "التالينا"، وعلى رأسهم بيغين، بواسطة الزوارق الصغيرة، ولفظت تلك السفينة أنفاسها على شاطئ تل أبيب، في ٢٣ حزيران/يونيو^(*)، فيما استغل بن غوريون تلك الحادثة، متسلحاً "بالشرعية والقانون" ووجه ضربة موجعة إلى "الأرغون"، فنشرت الحكومة المؤقتة مرسومًا، وضع "الأرغون"، و"ليحي" خارج القانون، وتم توقيف أعضائها، تمهيداً لمحاكمتهم^(١).

وجد بن غوريون، في حادث اغتيال وسيط الأمم المتحدة، لحل النزاع العربي - الإسرائيلي، السويدي الجنسية، الكونت فولك برنادوت (١٧/٩/١٩٤٨)، مبرراً قوياً لتصفية "ليحي"، في القطاع اليهودي بالقدس. فرغم إعلان منظمة أطلقت على نفسها اسم "حازيت هموليدت"

(*) بلغت حصيلة الاشتباكات أحد عشر قتيلًا (عشرة من "الأرغون"، وواحد من الجيش)، وعشرات الجرحى (انظر: محارب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٨ - ٣٧٩).

(١) للمزيد عن "التالينا"، انظر:

- بينودي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩:٧٥.

- محارب، مصدر سبق ذكره، ٣٦٧:٣٨١.

(جبهة الوطن) مسؤوليتها عن اغتيال برنادوت، بحجة أنه " عميل مكشوف للعدو البريطاني، مهمته تحقيق المشاريع البريطانية لتسليم بلادنا إلى الحكم الأجنبي ". فإن هذا البيان متفق، تمامًا، مع اتجاهات " ليحي " (من وجهة نظر مختلف التيارات الإسرائيلية) تجاه برنادوت. ومساء يوم الاغتيال، عقد بن غوريون اجتماعًا، مع عدد من وزرائه، شرع في نهاية الاجتماع، بتنفيذ حملة شملت اعتقال أعضاء ليحي جميعهم، ومصادرة أسلحتهم، وإطلاق النار على كل من يتصدى لذلك. وبناءً على جملة من القرارات، استولت قوات من الجيش والشرطة الإسرائيلية على قاعدتي ليحي، في الجزء اليهودي، من القدس. وهكذا، كانت نهاية " ليحي "، مثل ولادتها، وسط أجواء المحاصرة والاعتقال^(١).

ورغم كون " الأرغون " غير مشتركة في عملية الاغتيال، فإن يد بن غوريون قد طالتها، أثناء تضيق الخناق على عناصر ليحي، فقدم رئيس شعبة العمليات في الجيش، يغئال يادين، إلى قائد " الأرغون "، في القدس، شموئيل كاتس، أمرًا، في ١٩٤٨/٩/٢٠، نص على^(٢):

(١) تمثيل جماعة اتسل، في القدس، لقوانين دولة إسرائيل، فيما يتعلق بالجيش، والتعبئة، والأسلحة.

(٢) انضمام جميع أعضاء اتسل، في سن التجنيد، إلى جيش الدفاع الإسرائيلي.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨٢: ٣٩٠.

(٢) ديفيد بن غوريون: إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثاني، القاهرة، المخابرات العامة، مركز البحوث والمعلومات، د. ت، ص ١١٢: ١١٣.

(٣) تسليم جميع أسلحة اتسل إلى جيش الدفاع الإسرائيلي.

(٤) كل شخص ينضم للجيش يؤدي يمين الولاء المعتاد.

(٥) يعامل أعضاء اتسل المعاملة نفسها، التي يلقاها كل يهودي

آخر.

(٦) في حال قبول اتسل هذه الشروط، في ظرف ٢٤ ساعة، يتم حل

إتسل، وتسليم أسلحة مقاتليها، والانتظام في سلك جيش الدفاع، " فلن يضر أحد منكم، ولسوف تعاملون بالطريقة نفسها التي يعامل بها كل يهودي آخر " .

(٧) إذا لم تنفذ الشروط المذكورة، آنفًا، بتمامها، في ظرف الـ ٢٤

ساعة، فسيخذ الجيش الإسرائيلي جميع الإجراءات اللازمة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ. وبالفعل امتثلت " إتسل " لمطالب الحكومة الإسرائيلية.

لم يكن من الميسور، على بن غوريون التصدي للبالماخ، بالأسلوب نفسه، الذي عامل به " الأرغون "، في بداية الحرب، باعتبار البالماخ الجيش النظامي الفعلي، الذي تعتمد عليه الصهيونية، في هذه المرحلة الحاسمة من العمل، لذلك أجل أمرها إلى مرحلة تالية ^(١).

حُلت قيادة " البالماخ "، وأنشئت وحدة جديدة سميت " نحال " (١٩٤٨/٩/٢١) (الحروف الأولى للكلمات العبرية، التي تعني " الشباب المقاتل الرائد ") هدفتم، جزئيًا، لتحل محل " البالماخ "، لذلك تم على

(١) هيكل: مصدر سبق ذكره، ص ١٧١: ١٧٢.

أساس جماعي، وفردى، تنظيم حركات الشباب الوليدة، جميعها. بحيث ضمت كل فصيلة وحدة عسكرية، ومجموعة من المستوطنين، المنتظرين، في آن واحد ^(١).

وبعد، فلم ينجح " جيش الدفاع الإسرائيلي " من سمات أسلافه العصابات المسلحة الصهيونية الثلاث، فيما ترك ذاك الجيش بصماته على الحركة السياسية الإسرائيلية، ولهذا دراسة أخرى.

* * *

(١) آلون: مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

الفصل الخامس عشر:

اتفاقيات الهدنة

لحرمة عزوم

ظلت الهدنة سلاحًا يشهره أعداؤنا لكسب الوقت، ولإعادة تنظيم صفوفهم، فضلاً عن بث الفرقة في صفوف الجيوش العربية، واتخاذ الهدنة فرصةً لجمع قوات العدو، وتجميع صفوفه، فضلاً عن إنتظار المساعدات، وشحنات الأسلحة، والطائرات القادمة لأعدائنا من تشيكوسلوفاكيا. إنتهت الحرب العربية - الصهيونية في فلسطين عام ١٩٤٨، بعقد اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية المعنية، والدولة الصهيونية، حيث رسمت بموجبها حدود الهدنة، التي خلقت منطقةً سياسيةً فلسطينيةً، ذات شكلٍ مجزأ، وحدودٍ طويلةٍ لا تتناسب مع مساحة هذه المنطقة. فقد تكونت المنطقة السياسية الفلسطينية من جزئين متباعدين، هما الضفة الغربية وقطاع غزة، تفصل بينهما أراضي دولة معادية.

خَلَقَ رَسْمُ خُطُوطِ الْهُدْنَةِ بَيْنَ كُلِّ مِنَ الضَّفَةِ، وَالْقَطَاعِ، وَإِسْرَائِيلَ، عَلَى أَسَسٍ عَسْكَرِيَّةٍ بَحْتَةٍ، مُشَاكِلَ وَعَيُوبَ كَبِيرَةٍ، تَتَعَلَقُ بِالنَّوَاحِي الْإِسْتِرَاتِيْجِيَّةِ، إِضَافَةً إِلَى مَا عَكَسَتْهُ هَذِهِ الْخُطُوطُ عَلَى حَيَاةِ السَّكَّانِ، الْإِقْتِسَادِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَخَاصَّةً لَدَى الْجَانِبِ الْعَرَبِيِّ الْفِلَسْطِينِيِّ، مِمَّا كَانَ لَهُ أَثَارٌ سَلْبِيَّةٌ عَلَى شَتَّى نَوَاحِي الْحَيَاةِ، وَالتِّي مَا تَزَالُ تَفَاعَلَاتُهَا قَائِمَةٌ

حتى الوقت الراهن.

إن الهدنة لا تعني في القانون الدولي إنهاء الحرب بين الأطراف المعنية، أو إلغاء الحقوق التي تترتب على استمرار حالة، ومنها، المقاطعة، والحصار، وزيادة السفن المعادية، وتفتيشها، لا يجوز أن يفسر خط الهدنة بأي معنى من المعاني بأنه حد سياسي، أو إقليمي، أو أنه يمس بحقوق المدنيين الموقعين على الهدنة، ومطالبهم الأساسية، فيما يتعلق بالتسوية النهائية لقضية فلسطين^(١).

الاتفاقيات

طبقًا للقرار ١٨١، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، أعطيت الدولة العربية ما مساحته 870.589.11 دونمًا، أي ما يعادل ٤٢% من مساحة فلسطين، حيث شملت هذه المنطقة ١٧ مدينة، و ٥٧٤ قرية، أما الدولة اليهودية، فقد ضمت ١٥.٢٩١.٦٤٩ دونمًا، أي ما يعادل ٥٦.٦٧% من مساحة فلسطين، وقد شملت ١٩ مدينة و ٤٥٨ قرية فلسطينية، كما جعل مشروع التقسيم ما يعرف بمنطقة القدس منطقة دولية، بلغت ٠.٦٥% من مساحة فلسطين، وضمت ٤ مدن و ١٩ قرية. حيث شكلت المناطق الخاصة بالعرب أشباه جزرٍ تتصل ببعضها من خلال خنادق أرضية ضيقة، يسهل غلقها وقطعها، بسهولة، كما أن حدود الدولتين جاءت من التعقيد والتداخل، بحيث جعلت عملية تنفيذ المشروع تتطلب عمليات تبادل، وإحلال، وتعويض بين العرب واليهود، الأمر

(١) نصوص الأمم المتحدة وملحقاتها، بيروت ١٩٦٨، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ٧٠.

الذي كان يعتمد، بالدرجة الأولى، على الطوعية والإستجابة الذاتية من جانب الطرفين، وهو ما لم يتوفر، بأي حالٍ من الأحوال. وعلى الرغم من انتهاء المشروع الدولي إلى طريقٍ مسدودٍ، فإنه وضع قاعدةً قانونيةً لإنشاء دولتين في فلسطين، واحدةً عربيةً وأخرى يهودية^(١).

على مدى السنوات التي سبقت حرب عام ١٩٤٨، استطاع اليهود تركيز مستوطناتهم في عدة مناطق من فلسطين، وبخاصة في منطقة السهل الساحلي (من يافا حتى حيفا)، بالإضافة إلى منطقة الجليل، حيث سيطر اليهود على ٣٦% من أراضي قضاء يافا، و ٣٥% في قضاء حيفا، و ٣٤% في قضاء بيسان، و ٢٨% في قضاء الناصرة. أما المناطق الجبلية الداخلية وصحراء النقب، فقد بقيت عمليات الاستيطان اليهودي فيها متعثرة، بسبب الكثافة العربية، وبُعد هذه المناطق عن الساحل.

كان الهدف الأساسي للعمليات العسكرية التي قامت بها العصابات الصهيونية المسلحة في عام ١٩٤٨، هو خلق اتصال أرضي بين الخلايا الإستيطانية داخل المناطق التي تنتشر فيها، وبالتالي فإن وجود هذه الخلايا الإستيطانية قد أثر، تأثيراً كبيراً في توجيه وسير العمليات العسكرية، أثناء الحرب، في ظل هذه الظروف كانت الحكومة البريطانية قد أعلنت بأن الإنتداب في فلسطين سينتهي يوم ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، وقبل هذا الموعد بيومٍ واحدٍ أعلن ديفيد بن غوريون عن قيام دولة

(١) غازي السعدي، الأحزاب والحكم في إسرائيل، دار الجليل للنشر، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص ١٣٠ - ١٤٥.

إسرائيل.

على الجانب الآخر، كانت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية قد قررت، في اجتماعها بدمشق، في ١٢ إبريل/ نيسان ١٩٤٨، الزحف على فلسطين ودخولها في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، فور الجلاء البريطاني عنها، وأخذت كتائب مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان في التحرك نحو فلسطين في وضع عسكري عام مائل لصالح اليهود، الذين استولوا على السلاح والعتاد والمعدات العسكرية البريطانية، كما احتلوا الثكنات العسكرية، وأغلب المواقع التي انسحب منها الجيش البريطاني، بترتيب مسبق، شبه متفق عليه، مع القوات البريطانية قبيل رحيلها.

في الأيام الأولى من سير المعارك، استطاعت الجيوش العربية، وبمساعدة المتطوعين الفلسطينيين " وجيش الإنقاذ "، السيطرة على معظم الأراضي التي كانت مخصصة للدولة العربية، طبقاً لقرار التقسيم، ثم أخذت القوات العربية تأخذ شكل المواقع الدفاعية، نظراً لاختلال الميزان العسكري لصالح القوات الصهيونية. على أنه بعد مرور أسبوع واحد من بدء القتال في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، بدأت الضغوط من أجل وقف إطلاق النار، وبالفعل قبلت الدول العربية وقف القتال، أو ما يعرف بالهدنة الأولى في صباح ١١ يونيو/ حزيران ١٩٤٨، ولمدة أربعة أسابيع متصلة.

لكن المعارك استؤنفت في ٩ يوليو/ تموز، حيث استطاعت القوات الصهيونية أن تحقق بعض المكاسب في الجليل الغربي، وفي مناطق اللد، والرملة اللتين سلمهما إليها الجنرال (جون باجوت جلوب) دون قتال بعد

نزع سلاح المقاومين العرب من أبنائهما، بوعِدِ بدخول القوات الأردنية إليهما، إلا أنه لم يَفِ بهذا الوعد، فدخلتهما القوات الصهيونية دون مقاومةٍ تذكر. ثم عاد القتال إلى التوقف، مرةً أخرى في ١٨ يوليو/ تموز، وهو ما يعرف بالهدنة الثانية. ثم استؤنف القتال من جديد في خريف عام ١٩٤٨، واستطاعت القوات الصهيونية أن تحتل النقب في الجنوب من القوات المصرية. وفي الشمال استطاعت إحتلال الجليل الغربي بأكمله، كما طردت الجيش الأردني من جنوب النقب ومعابر العقبة^(١).

لقد أكدت اتفاقيات الهدنة أن خطوط الهدنة المتفق عليها لا تحجف بحقوق الطرفين في الحل الدائم للصراع في فلسطين، وأن رسم هذه الخطوط تم لإعتباراتٍ عسكرية صرفة. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الخط الحدودي عكس، بشكلٍ قاطع، مصالح الجانب المنتصر في الحرب، وهو الجانب الإسرائيلي، حيث سمح لإسرائيل بالاحتفاظ بما خصص لها في قرار التقسيم، إضافةً إلى مساحاتٍ جديدةٍ من الأراضي التي كانت مخصصةً للدولة العربية.

الهدنة الأولى:

قرر مجلس الأمن، يوم ٢٣ أبريل/ نيسان ١٩٤٨، إعادة القضية إلى الجمعية، العامة وقبول اقتراح الهدنة، قبل ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، ودعوة كل من العرب إلى التقيد بها، وتشكيل لجنة من قناصل الولايات المتحدة، وبلجيكا وفرنسا في القدس، للإشراف على تنفيذها، ولكن أثناء الهدنة،

(١) سامي حدادي ويوسف صايغ، ملف القضية الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية، ص ٣٤ - ٤٤، مركز الأبحاث، ١٩٦٨.

استطاع الصهاينة أن يستوردوا الطائرات، والدبابات، والرجال، من بريطانيا والولايات المتحدة، وواصلوا التدريب العملي الشاق، ليجعلوا من عصاباتهم جيشاً منظماً. إلا أن قرار الهدنة ظل حبراً على ورق، فقد أرسلت اللجنة القصلية إلى مجلس الأمن في ٢٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٨، تقول إنها عجزت عن أن تفعل شيئاً، وأن الجيوش العربية ستغزو فلسطين، قريباً^(١).

كانت نصوص الهدنة الأساسية لبنود الهدنة، تحتم على أن أيًا من الجانبين لن يحاول تحسين وضعه العسكري، وعلى عدم تحريك القوات، أو العتاد، وعلى عدم إدخال قوات مقاتلة جديدة، من جانب أي من الفريقين، وعدم السماح بدخول مهاجرين جدد، قادرين على حمل السلاح إلى فلسطين، إلا بناءً على مواقف خاصة من الوسيط الدولي^(٢).

لم يتقيد الصهاينة بشروط الهدنة، مما أدى إلى تحقيقهم مكاسب في المرحلة الثانية من القتال.

ولقد سميت هذه الهدنة بعد ذلك بالهدنة الأولى، والتي بدأت من ١١ حزيران/ يونيو - ٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨^(٣).

إزاء النجاحات العسكرية العربية الفلسطينية استتجدت السلطات الصهيونية بالولايات المتحدة، التي سارعت إلى مجلس الأمن في

(١) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، بيروت ١٩٦٠، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، ١٩٨٤، ص ٥٢٦.

(٢) أمل خليفة، ماذا حدث في فلسطين ١٩٤٨، الإسكندرية، دار المدائن، ٢٠٠٣، ص ١٧١.

(٣) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٦.

٢٢ مايو/ أيار ١٩٤٨، اتخذ مجلس الأمن قراراً، وجه فيه نداءً إلى المتحاربين، بوقف القتال خلال ست وثلاثين ساعة، في منتصف ليلة ٢٢ - ٢٣ مايو/ أيار، ولكن الحكومات العربية رفضت الإستجابة لهذا النداء، فتقدمت بريطانيا إلى مجلس بمشروع يدعو الطرفين إلى وقف القتال مدة أربعة أسابيع، مع التعهد بعدم إرسال محاربين، ومواد حربية إلى الشرق الأوسط^(١).

الهدنة الثانية:

إن أيام القتال، بعد الهدنة الأولى، لم تطل، لأن مجلس الأمن فرض هدنة جديدة، بعد سقوط اللد، والرملة، والناصرية، في أيدي الصهاينة، حيث تسارعت الأحداث، انحداراً، في النصف الثاني من عام ١٩٤٨، ورفع الستار عن مظاهر التماسك الزائف بين العواصم العربية، وازداد العدو صلفاً وجبروتاً، بتحقيقه السيطرة الجوية التامة، ونمو ترسانته من الأسلحة الثقيلة، وإنفضاح غياب أدنى درجات التنسيق بين الجيوش العربية.

كان مجلس الأمن قد قرر سريان هدنة، تبدأ في ١٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨، تحت طائلة العقوبات، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، ومن دون تحديد مهلة زمنية لها، خلافاً لما حدث عند إقرار الهدنة الأولى، في ١١ يونيو/ حزيران - ٨ يوليو/ تموز، على أن يقوم الوسيط الدولي الكونت فولك برنادوت بمساعٍ، للوصول إلى تسوية دائمة

(١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢٧.

بين الطرفين المتحاربين^(١).

قدم برنادوت مشروعه المعدل، قبيل وفاته، والذي انطوى على تعديلات إقليمية، لصالح العرب، والذي نص على وضع القدس تحت إدارة الأمم المتحدة، مع إتاحة الحكم الذاتي لكل من العرب واليهود، وأكد حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، في أقرب فرصة، وتعويض هؤلاء الذين لا يرغبون في العودة، على أن تتولى لجنة الوساطة بحث تفاصيل هذا الموضوع. وكان تأسيس لجنة الوساطة هو التوصية الرابعة الأساسية الواردة في "مشروع برنادوت"، كذلك اقترح المشروع ضم القسم العربي من فلسطين إلى الأردن، لعدم إمكان الاتحاد الاقتصادي بين هذا القسم وبين إسرائيل. وكان برنادوت يرى في هذه التعديلات أن إسرائيل صارت أمرًا واقعًا^(٢).

تضمنت الهدنة، المستمدة من ميثاق الأمم المتحدة، أن الوضع في فلسطين يهدد السلام، وبالتالي أمر مجلس الأمن في ١٥ يوليو/ تموز بوقف الأعمال العسكرية في فلسطين، خلال ثلاثة أيام، تحت طائلة العقاب، مع حماية الأماكن المقدسة، وإشراف وسيط الأمم المتحدة على سير الهدنة، إلى أن يتم التوصل إلى تسوية سلمية للصراع.

لم يكن هناك أمام العرب من سبيلٍ إلا قبول الهدنة، فقد أدركوا مدى

(١) وليد الخالدي، خمسون عاما على حرب ١٩٤٨ أولى الحروب الصهيونية العربية، دار النهار، للنشر بيروت ١٩٩٨، ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٢) الدكتور صلاح العقاد، ١٩٦٨ قضية فلسطين، المرحلة الحرجة ١٩٤٥ - ١٩٥٦، ص ١٣١.

عمق المأساة في قيادة غلوب، الإنجليزي وعمقت لديهم آلام تسليم اللد والرملة، أما الصهاينة فقد كانوا يستفيدون من كل هدنة، يعدون ويستعدون، وتوالي الدول الأمبريالية الغربية إمدادهم بالعتاد والسلاح، وكثيراً ما ضرب الصهاينة بالهدنة عرض الحائط، وزحفوا، فاحتلوا قرى ومساحات، بينما مجلس الأمن الدولي لا يحرك ساكناً، ولا يسمع لشكوى العرب، ولا يشغل باله بها^(١).

من الملاحظات الهامة على اتفاقيات الهدنة، بالإضافة إلى أنها أعطت لإسرائيل السيطرة على أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين، ما يلي: ^(٢)

سلم العرب بسيطرة الصهاينة على النقب الجنوبي، حتى خليج العقبة، رغم أن القوات الصهيونية احتلته أثناء أوقات فرض الهدنة، ولم يبق للعرب موضع قدم في جنوب فلسطين.

نصت الاتفاقية على إجراء تعديلات في الخطوط التي تقف عندها القوات، وتحديداً على خط الهدنة بين الأردن وإسرائيل، وأهم هذه التعديلات ما يعرف بقضية المثلث. يقع المثلث في الشمال الغربي للضفة الغربية بمساحة تقدر بنحو ٣٥٠ ألف دونم، من أخصب الأراضي، وتضم عدة قرى عربية، وبدأت القضية عندما صرح إيتان، نائب وزير الخارجية الإسرائيلي، في رسالة إلى الملك عبد الله أنه " إذا غادرت

(١) نصوص الأمم المتحدة وملحقاتها ومنشوراتها، منشورات الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٤.

(٢) إتفاقية الهدنة العربية - الإسرائيلية، فبراير - يوليو ١٩٤٩، منشورات مؤسسة الدراسات العربية، بيروت، ١٩٦٩، ص ٥١ - ٦٣.

القوات العراقية منطقة المثلث، حُلّت محلها قوات إسرائيلية". وأن "حلول القوات الأردنية محل القوات العراقية يعتبر ضد اتفاقية الهدنة". وبعد موافقة الجانب الأردني على إجراء مفاوضات استثنائية، حول منطقة المثلث مع الجانب الإسرائيلي، جرى الإجتماع لبحث القضية، في مدينة الشونة الأردنية يوم ١٩٤٩/٣/٢٣، بحضور المندوبين الأردنيين والإسرائيليين، حيث حاول الجانب الأردني إستثناء قرى الطيبة وأم الفحم، وباقة الغربية من المنطقة التي يطالب الجانب الإسرائيلي بضمها إلى إسرائيل، ولكن الجانب الأردني لم ينجح في ذلك، واستطاع الجانب الإسرائيلي إنتزاع موافقة أردنية على أن تتم عملية سيطرة إسرائيلية على منطقة المثلث (كل المثلث)، على ثلاث مراحل. وأن تتم المرحلة الأولى بعد خمسة أسابيع من توقيع اتفاقية الهدنة العامة، المرحلة الثانية بعد ذلك بسبعة أسابيع، والثالثة بعد خمسة عشر أسبوعاً من توقيع اتفاقية الهدنة، وخلال هذه الفترة يحل الجيش الأردني محل الجيش العراقي، كي يكون في وضع يمكنه من تسليم المثلث للقوات الصهيونية تنفيذاً للاتفاق.

خط الهدنة بين قطاع غزة وإسرائيل:

تحدد خط الهدنة في قطاع غزة بناءً على تقديرات عسكرية صرفية، دون الأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الجغرافية للمنطقة، التي سوف يسير فيها خط الهدنة، أو احتياجات السكان المحيطين بها، أو مدى تأثيره عليهم، حيث حاول الجانب الإسرائيلي أن يضمن لنفسه أكبر قدر ممكن من الأرض، بصفته الجانب القوي، ومن ثم جاء خط الهدنة بين قطاع غزة وإسرائيل علي الشكل التالي:

يبدأ خط الهدنة بين قطاع غزة، والأراضي التي احتلتها إسرائيل في الشمال، بالخط الممتد من شاطئ البحر الأبيض المتوسط على مجرى وادي الحسى (وادي شكمة)، متجهًا شرقًا، نحو دير سنيد، قاطعًا طريق غزة - المجدل، حتى يصل إلى نقطة تبعد ٣ كيلو متر شرق ذلك الطريق، ومن ثم يتجه جنوبًا بمحاذاة طريق غزة - المجدل، حتى يلامس الحدود المصرية، في نقطة تبعد نحو ١٢ كيلو مترًا عن شاطئ البحر المتوسط. لقد تم تحديد هذا الخط من قبل لجنة عسكرية مصرية - إسرائيلية، واعتبر بمثابة الخط الفاصل بين قطاع غزة وإسرائيل. ورغم أن هذا الخط تم رسمه على الطبيعة فإنه لم يتطابق في بعض القطاعات، تمامًا، على ما تم الاتفاق عليه. ففي الشمال لم يبدأ الخط بمصب وادي الحسى (وادي شكمة)، بل إلى الجنوب منه بنحو كيلو متر واحد، لصالح إسرائيل، وكذلك لم يمر الخط من دير سنيد، بل على بعد اثنين كيلو متر إلى الجنوب منها، لصالح إسرائيل أيضًا، ومر خط الهدنة لقطاع غزة مع إسرائيل بمنطقة سهليه مكشوفة، تعلوها سلسلتان من تلال الحجر الرملي الموازية تقريبًا لخط الساحل، والتي ترتفع في بعض الأحيان إلى نحو مائة متر ويسير خط الهدنة على طول السلسلة الشرقية أو بالقرب منها^(١).

١ - إتفاقية الهدنة بين مصر - إسرائيل :

بقرارات مجلس الأمن القاضية بوقف القتال، وبدء مفاوضات علنية،

(١) جمال البابا، خطوط الهدنة بين الضفة العربية وقطاع غزة وإسرائيل، صفحة الكترونية،

بغية الوصول إلى هدنة دائمة، والاتفاق على الحدود الفاصلة بين الأطراف المتحاربة، بدأت المفاوضات المصرية - الإسرائيلية في ١٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، جرت مفاوضات الهدنة في جزيرة رودس، برعاية نائب الوسيط الدولي، رالف باتش، ولكنها تحولت، بالتدريج، إلى مفاوضات مباشرة بين الطرفين، من دون وساطة دولية^(١).

بعد توقف المعارك، قامت كل من مصر وإسرائيل في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩، بتوقيع اتفاقية الهدنة، وفيها أنه على كل من الفريقين، بمقتضى قرارات مجلس الأمن، عدم القيام بأي عدوان ضد الآخر، ويوافقان على إقامة خطوط للهدنة، يتعهد الطرفان بعدم السماح لقواتهما باجتيازها.

تنص الاتفاقية كذلك على انسحاب الحامية المصرية في الفالوجة، وهي الحامية التي صمدت أمام الهجمات الصهيونية المتتالية، مع عتادها إلى ما وراء الحدود المصرية^(٢).

كان مطلب مصر الأول، العودة إلى ما وراء حدوده في ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول، أي الحدود، التي كانت قائمة، قبل عملية يواف، عملاً بقرار مجلس الأمن القاضي بذلك. كما رفضت مصر الإقرار بشرعية الاحتلال وإسرائيل لبئر سبع الواقعة داخل الدولة الفلسطينية، بموجب قرار التقسيم، وطالبت مصر بإجلاء قواتها التي كانت مازالت محتصرة

(١) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) جورج طعيمة، قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي - الإسرائيلي

١٩٤٧ - ١٩٧٤، بيروت، ١٩٧٣، ص ٥٣٠.

في الفالوجة^(١).

يدون بن غوريون في "يوميات الحرب"، "بتاريخ ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩، وهو يوم توقيع إتفاق الهدنة مع المصريين، بعد إقامة الدولة، وانتصار اتنا في ميدان القتال، فإن هذا هو الحدث الأعظم، خلال عام الأعمال المجيدة أي سنة ١٩٤٨" ^(٢).

٢- إتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل ١٩٤٩/٣/٢٣:

جرت مفاوضات الهدنة في رأس الناقورة، وكانت إسرائيل تمسك بيدها ورقة كبرى، وهي احتلال ١٤ قرية لبنانية، احتلتها في أثناء عملية "حiram"، وتم توقيع الاتفاقية، وتحدد خط حدود الانتداب خطأ للهدنة، وكان الهدف الرئيسي من الإتفاق، هو وضع خط لا يجوز للقوات العسكرية للفريقين أن تتجاوزاه في تنقلاتهما.

بدأت المحادثات بين الطرفين، في ١٤ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، ولكن إسرائيل أثرت أن تؤجل المحادثات إلى ما بعد توقيع الاتفاق الإسرائيلي - المصري، واستؤنفت المفاوضات في آذار/ مارس ١٩٤٩، في مركز رأس الناقورة، على الجانب الفلسطيني من الحدود، الذي كان الجيش اللبناني قد احتله عند بدء القتال.

أصرّت إسرائيل، عند إستئناف المفاوضات، على ربط الإتفاق بين الطرفين، بإنسحاب الجيش السوري، من رأس الجسر، الذي أقامه عبر

(١) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.

(٢) الخالدي، المصدر نفسه، ص ١٤٢.

نهر الأردن، جنوبي الحولة، عند احتلال الجيش السوري مستعمرة " مشمار هيرودين ". وعند تعثر المفاوضات، تدخل نائب الوسيط الدولي " رالف بانش "، وأخذ يضغط على إسرائيل، لتوقيع إتفاق الهدنة مع لبنان.

في ١٦ مارس/ آذار، بحث بن غوريون الأمر مع قادته العسكريين ومستشاريه في الخارجية، وحسمه لفك الربط بين الإتفاق مع لبنان، وانسحاب الجيش السوري من " مشمار هيرودين "، شرط إعادة لبنان لمركز رأس الناقورة الحدودي، وخروج كتيبة سورية كانت مرابطة في لبنان.

يذكر بن غوريون يوميات الحرب، في التاريخ ذاته، الأسباب التي دعت به إلى اتخاذ هذا القرار، على النحو التالي:

- ١ - يقوي هذا الإتفاق موقفنا في إيلات (أي العقبة).
- ٢ - يعزز موقفنا في المحادثات مع شرق الأردن.
- ٣ - يسهل لنا العملية في المثلث (جنين - طولكرم - نابلس) إذا كنا سنضطر للتحرك بهذا الإتجاه.
- ٤ - وسنؤيد يعزز مطلبنا من السوريين، كما أننا لا نريد أن نربط دولة عربية بأخرى.

هكذا تم في رأس الناقورة، في ٢٣ مارس/ آذار ١٩٤٩، الإتفاق على الهدنة الدائمة، بين إسرائيل - لبنان، وأصبحت الحدود الانتدابية الدولية

الحد الفاصل بين الطرفين^(١).

٣- إتفاقية الهدنة بين الأردن - إسرائيل (١٩٤٩/٤/٣) :

وقعت اتفاقية الهدنة بين الأردن وإسرائيل، في ٤ إبريل/ نيسان ١٩٤٩، والتي كرست الوضع العسكري، بحسب تعديلات الحدود المتفق عليها بين الجانبين، في الطرفين الشمالي والجنوبي من الضفة الغربية، وبينما كانت محادثات الهدنة دائرة بين الأردن وإسرائيل في رودس، تابعت القوات الإسرائيلية عملياتها العسكرية التوسعية جنوب النقب، واحتلت قرية أم الرشراش المصرية على رأس خليج العقبة، لتقيم مكانها مدينة إيلات، وميناءها، وترجع أهمية هذا الميناء من كونه بوابة إسرائيل البحرية على قارتي آسيا وإفريقيا^(٢).

لقد تضمن الاتفاق الذي وقع صباح ١٩٤٩/٣/٢٤، بنّاء هاماً، يتضمن وعداً من الصهيانية، أنهم سيبادلون المثلث (جنين - طولكرم - نابلس) بمساحة مساوية له من الأرض، التي يسيطر عليها اليهود، وبالخصوصية نفسها، وهو ما أكدته إتفاقية الهدنة، حيث جاء في المادة السادسة من الاتفاقية ما يلي: ^(٣)

١ - من المتفق عليه أن القوات الأردنية ستحل محل القوات العراقية، في القطاع الذي تسيطر عليه هذه الأخيرة، إذ أن نية حكومة العراق بهذا

(١) الخالدي، المصدر نفسه، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) فلسطين تاريخها وقضيتها، ط٤، بيروت، ١٩٨٣، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٣) إتفاقية الهدنة العربية - الإسرائيلية، صفحة الكترونية،

<http://nakba.sis.gov.ps/nakba48/nakba1948-6.html>

الصدد قد أبلغت إلى الوسيط بالوكالة، في الرسالة المؤرخة في ٢٠ مارس/ آذار من وزير خارجية العراق، مجيزةً تفويض المملكة الأردنية الهاشمية، بأن تفاوض عن القوات العراقية، ومصرحة بأنه سيجري سحب تلك القوات.

٢ - يكون خط الهدنة للقطاع الذي تسيطر عليه الآن، القوات العراقية كما هو.

٣ - يتعلق هذا البند بكيفية دخول القوات الإسرائيلية إلى أرض المثلث (جنين - طولكرم - نابلس).

٤ - إن خط الهدنة في قطاع الخليل - البحر الميت. والذي يشكل إنحرافاً كبيراً عن الخطوط العسكرية الحالية، لمصلحة القوات الأردنية، إنما حدد مقابل تعديلات الخطوط العسكرية الحالية في القطاع العراقي.

ورغم وجود هذا النص الواضح في اتفاقية الهدنة بخصوص التبادل، في الاتفاقية لم تحدد الوقت لتنفيذ هذا البند، الذي لم يلتزم الجانب الإسرائيلي تنفيذه، وبذلك أصبحت هذه القضية درباً من الماضي.

كما أن الاتفاق كان يقضي بأن يعطى القرويون بعض الحماية، وأن يبقوا في قراهم، ويعيشوا على أرضهم، لكن هذه المادة، أيضاً، لم تنفذ، وطرد الجزء الأكبر من العرب من منطقة المثلث، كما انتزعت ملكية كل أهالي المدن في المنطقة العربية، الذين كانوا يملكون أراضي في المثلث، ومنعوا من الوصول إلى ممتلكاتهم، لأنهم اعتبروا من الغائبين^(١).

(١) عزت طنوس، الفلسطينيون - ماضي مجيد ومستقبل باهر، مركز الأبحاث، م. ت.

٥ - كان من ضمن التعديلات التي حدثت في الحدود، وهي لصالح إسرائيل، أيضًا، إقراراً بالأردن لإسرائيل بحقوقها في منطقة عين جدي، وهي منطقة حيوية تقع على البحر الميت.

هكذا كانت النقطة الرئيسية، التي حددت الخط الحدودي بين الأردن وإسرائيل، في اتفاقية الهدنة، عام ١٩٤٩، هي المواقع والإستحكامات، التي تحصن خلفها كلٌّ من طرفي النزاع، هذا بالإضافة إلى الدور الأساسي الذي لعبته طرق المواصلات الرئيسية في تحديد هذا الخط الحدودي. وباستثناء هذين العاملين - أي البعد العسكري، وطرق المواصلات، فإن واضعي الخط الحدودي تجاهلوا جميع العوامل، الطبيعية، والبشرية، والفيزيائية، فضلاً عن الحدود التي وضعها قرار التقسيم ذاته، في إقرار الخط الحدودي، إلا إذا كان لهذه العوامل بعداً عسكرياً، والسبب الرئيسي في ذلك أن الذين قاموا بتخطيط الحدود هم من العسكريين، وتركز اهتمامهم على النواحي العسكرية دون سواها، الأمر الذي لا ينطبق على الطرف الإسرائيلي، الساعي نحو زيادة مساحة الرقعة المحتلة من فلسطين.

طبقاً لاتفاقية الهدنة، يبدأ " الخط الأخضر " من نقطة قرب عين جدي، على البحر الميت، ويتجه نحو الغرب، ماراً جنوب جبل الخليل، حتى المنحدرات الشرقية لجبال الجلبوع، ثم يمر عبر مرتفعات وسط فلسطين حتى يصل إلى طريق الخليل - بئر السبع، وبعد قطعه للطريق، ينحرف نحو الشمال الغربي، ثم نحو الشمال حتى يصطدم بطريق الخليل

- بيت جبرين. ينحرف الخط نحو الشمال الشرقي، أي نحو بوابات القدس الجنوبية، ومع هذا الإنحراف تبدأ الحدود الجنوبية للمنطقة المسماة "ممر القدس"، هذا الممر الذي يعتبر بروزاً إسرائيلياً داخل الضفة الغربية كي يصل القدس بالعمق الإسرائيلي، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الخط في هذه المنطقة عُذِّل لصالح إسرائيل، بحيث أبقى خط السكة الحديد، الذي يربط القدس بالقطاع الساحلي، تحت السيطرة الإسرائيلية. ثم يسير الخط الحدودي بالقرب من قرية بتير، وحتى القدس، قاطعاً سهل وادي شورك، بمحاذاة السكة الحديدية المذكورة من الناحية الجنوبية. وباستثناء قطاع صغير من وادي شورك، فإن الخط الحدودي لا يستند إلى أي معلم طبيعي، خاصةً أثناء مروره بممر القدس، وتجاهل كذلك انتشار أراضي الأهالي الفلسطينيين، وموارد رزقهم، حيث فصل الخط الحدودي بين المواطنين الفلسطينيين، وأراضيهم الزراعية. وحال وصول خط الهدنة إلى بوابات القدس الجنوبية، ينحرف نحو الشمال، ثم نحو الغرب، باتجاه المرتفعات الجبلية، والقطاع الساحلي. وبدءاً من قرية قطنة، وحتى قرية بودروسي، ينقسم خط الهدنة إلى خطين، تاركاً بينهما منطقة خالية، دون سيادة (المنطقة الحرام في اللطرون)، يتراوح عرضها ما بين ٥٠٠ متر إلى ٣ كيلومتر، ويسير الخطان الحدوديان في هذا القطاع باتجاه الغرب، حتى يصلا قرب كنيسة اللطرون، ثم يتجهان نحو الشمال الشرقي، حيث يشكلان منطقة عربيةً عازلةً داخل الأراضي الإسرائيلية، قبل أن يتجه الخطان نحو الشمال، وينحدر خط الهدنة في القطاع الواقع بين القدس وكنيسة اللطرون من رأس الجبل على إرتفاع ٨٠٠ متر إلى مناسب

أقل، لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠ متر قرب كنيسة اللطرون. وإثر قطع خط الهدنة للمنطقة شبه السهلية في منطقة قلقيلية، يتجه نحو الشمال حتى بوابة سهل عارة. وقد روعي في خطي الهدنة بالقرب من مدينتي قلقيلية وطولكرم، أن تظل هاتان المدينتان، ضمن الأراضي العربية، وبعد أن يتجاوز خط الهدنة هاتين المدينتين ويقطع قرية برطعة، يتجه الخط نحو الشمال الشرقي، بمحاذاة وادي عارة، والطريق الرئيس الذي يمر به، ويواصل الخط سيره عبر جبال أم الفحم، لمسافة تتراوح بين ٣ - ٤ كم جنوب سهل عارة، حتى يصل إلى سهل مرج بن عامر، بجوار قرية زبوبة. وينحرف خط الهدنة بالقرب من قرية زبوبة، وعلى مداخل مرج بن عامر، إلى الجنوب الشرقي، ثم إلى الشرق على منحدرات أم الفحم قاطعاً الطرف الجنوبي لمرج بن عامر، مقابل جنين، ثم يتسلق المنحدرات الغربية لجبال الجلبوع، وعلى ظهر الجبال يتجه الخط في البداية، نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الشرق، ويسير على المنحدر المتجه نحو الشمال والشرق، بمحاذاة الجرف، تمامًا. وبالقرب من قرية المغير يمر الخط الحدودي أعلى قمم الجلبوع (٥٢٣ مترًا) متجهًا نحو المنحدرات الشرقية للجلبوع، حتى يصل إلى مجرى نهر الأردن، وتسير الحدود على هذا المنحدر، بمحاذاة وادي بزق، مسافة ٣ كم تقريبًا، ويعتبر هذا الجزء من خط الهدنة هو الجزء الوحيد بين الضفة الغربية وإسرائيل الذي يسير فيه مع معلم طبيعي، غير أن الخط يتخلى عن مجرى وادي بزق، بجوار قرية كعون قاطعاً منطقة سنجة حتى يصل إلى مجرى نهر الأردن، في المكان الذي يصل فيه ارتفاع ضفته إلى ٢٥٢

مترًا، حيث يلتقي الخط، في هذا المكان، مع الحدود الدولية لفلسطين والأردن، التي تم تحديدها عام ١٩٢٢^(١).

٤- إتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل ١٩٤٩/٧/٢٠:

لقد تأخرت اتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل عن سائر الإتفاقيات، لأن القوات السورية كانت قد احتلت مستعمرة " مشمار هايردن "، وهي واقعة في أرض فلسطين المخصصة للصهيانية، وفقًا لقرار التقسيم، حيث أصرت السلطات الإسرائيلية على انسحاب القوات السورية منها، لتكون الحدود الدولية بين فلسطين وسورية، هي حدود الهدنة، وتمسك السوريون بها وأخيرًا جعل خط الهدنة، منتصف خط القتال وأخلى السوريون " مشمار هايردن "، كما أخلى الصهاينة بعض المواقع، وجعلت بينهما منطقة عزلة، تحت إشراف المراقبة الدولية، لا تدخلها قوى عسكرية سورية، أو يهودية، ووقعت الاتفاقية في ٢٠ يونيو/حزيران ١٩٤٩، وسرت على جميع اتفاقيات الهدنة هذه الأحكام المستوحاة من الاعتبارات الوارد ذكرها أعلاه، بالنسبة إلى اتفاقية الهدنة الإسرائيلية المصرية^(٢).

اختراق إسرائيل للهدن والاتفاقيات:

كان هناك اختراق دائم من الكيان الصهيوني على اختراق جميع الهدن التي أبرمتها مع الدول العربية، كان هناك الجان دوليه لمراقبة

(١) موشيه برافر، حدود أرض إسرائيل، ترجمة بدر عقيلي، دار الجليل للنشر، ١٩٨٢، ص ٦٧ - ٨٨.

(٢) السلطة الوطنية الفلسطينية، الهيئة العامة للاستعلامات، النكبة، صفحة الكترونية،

<http://nakba.sis.gov.ps/nakba48/nakba1948-6.html>

الهدن الاربعة على ان تختص كل لجنة بمراقبة الاتفاقيات بين اسرائيل وكل من الدول العربية الموقعة للهدن لكنها كلها باءت بالفشل وذلك نتيجة اختراق اسرائيل الدائم للهدن. جاء خط الهدنة به العديد من العيوب وجوانب القصور، نوجزها فيما يلي:

أ - تعيين خط الهدنة:

تمت عملية تعيين خط الهدنة على أرض الواقع، بصعوبة بالغة، وإن كانت هذه الصعوبة قد اختلفت في مداها من منطقة لأخرى، فهناك مناطق كانت تنتم بالحساسية، إما لموقعها الإستراتيجي أو لكثافة سكانها، أو أهميتها في السيطرة على بعض الموارد الطبيعية، وبخاصة مصادر المياه. لقد تم تعيين قطاعات طويلة من خط الهدنة في أعقاب توقيع اتفاقية الهدنة مباشرة (١٩٤٩ - ١٩٥١) غير أن هناك قطاعات أخرى تم تعليمها في فترة لاحقة، واستمرت حتى منتصف الخمسينات، إما بسبب صعوبة التحديد، أو بسبب الرغبة في إدخال بعض التعديلات الحدودية التي تخدم أمد طرفي الصراع. ومن أهم هذه التعديلات ما حدث في خط الهدنة في منطقة جلبوع، حيث تم تحريك الخط شرقاً إلى ما بعد أراضي قرية جلبوع، كذلك التعديل الذي أجري بالقرب من قرية فقوعة، والتعديل الذي أجري في وادي عارة، حيث تبادل الطرفان بعض الأراضي. لم يكن الجانب الإسرائيلي نزيهاً في عملية وضع العلامات لدرجة أن الجانب الأردني اتهم الجانب الإسرائيلي بأنه استولى على أراضي خلال عملية وضع العلامات، وتم تشكيل لجنة توصلت إلى أن هناك خطأ في الحدود، لمصلحة إسرائيل، في منطقة بيت جبرين، حيث تم تصحيح

الوضع بتحريك خط الهدنة ناحية الغرب لصالح الضفة الغربية. وحسب بعض المصادر فإن الجانب الإسرائيلي استولى على آلاف الدونمات في منطقتي الخليل وجنوب القدس وكانوا يقدمون كل مرة خرائط جديدة يقولون إنها وقعت في رودس، وقد أجرت السلطات الأردنية تحقيقاً في ذلك تبين وجود مطابقة بين هذه الخرائط وبين الخرائط الموجودة مع الجانب الأردني^(١)

ب - خط الهدنة والسكان :

ألق سیر خط الهدنة بين الضفة الغربية وإسرائيل أضراراً كبيرة بالسكان، وبخاصة السكان على الجانب الشرقي من الخط، وليس أدل على ذلك أن الخط الحدودي قطع أثناء سيره أراضي ٧٥ قرية، وبلغ عدد السكان المتضررين على الجانب الشرقي للخط نحو ٩٦ ألف نسمة من العرب، إضافة إلى عشرات الآلاف من السكان من سكان القدس وقلقيلية وطولكرم.

اختلف الضرر الذي لحق بالسكان والقرى العربية من جراء رسم خط الهدنة من منطقة إلى أخرى. فقط كان أبلغ الضرر في منطقة السهل الساحلي، بسبب الكثافة السكانية العالية نسبياً، وأصاب بأضرار أقل منطقة صحراء الخليل، التي كانت مأهولة فقط بالبدو الرحل. ففي منطقة السهل الساحلي لم تكن الأضرار التي أصابت القرى العربية وسكانها مقتصرة على إقطاع أجزاء من أراضي هذه القرى، بل تعدى ذلك إلى التأثير وبشكل مباشر، على مصادر الرزق، وحياة السكان الاجتماعية،

(١) الدولة الفلسطينية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٣.

والإقتصادية. فخط الهدنة منع القرويين في المنطقة الحدودية من الوصول إلى أراضيهم السهلية الموجودة في مرج بن عامر والسهل الساحلي، واضطروهم للجوء إلى المنطقة الجبلية، والتي لم يكن بإمكانها الحلول محل أراضيهم. ورغم تطور العلاقة بين قرى المناطق الحدودية في الجانب الشرقي من الحدود وبين المدن الجبلية البديلة، إلا أن هذه العلاقة اختلفت تمامًا عن العلاقة التي كانت قائمة بين هذه القرى والمدن الساحلية، فقد كانت هذه القرى على اتصال مباشر بمدن السهل الساحلي حيث تقوم بتصريف منتجاتها، إضافة إلى الأيدي العاملة الزائدة عن حاجة الزراعة التي كانت تجد لها فرص عمل في المدن الساحلية الكبيرة نسبيًا.

كل هذا أدى إلى أن تعيش هذه القرى في ضائقة إقتصادية مفاجئة، دفعت العديد من سكانها، ودفع الشباب منهم للهجرة إلى دول النفط العربية، ووصلت هذه الهجرة إلى ذروتها خلال فترة الخمسينات والستينات، هذا رغم أن الزراعة في القرى الحدودية أخذت تنتعش، في هذه الفترة، بعد أن وجدت منفذًا لتصدير منتجاتها إلى الدول العربية عبر الأردن. كذلك فإن المناوشات الحدودية التي كانت تنشب، بين الحين والآخر بين إسرائيل من جهة، والأردن والفدائيين الفلسطينيين من جهة أخرى، في الفترة ١٩٤٩ - ١٩٦٧، كان لها وقع شديد على قلة إزدهار القرى الحدودية القريبة من خط الهدنة، حيث ساعدت على هجرة الشباب إلى الخارج، إضافة إلى عزوف رأس المال عن الإستثمار في هذه المناطق^(١).

(١) برافر، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.

ج - الحدود ومصادر المياه والتربة:

إن مساحة فلسطين المحدودة نسبيًا جعلت من الصعوبة بمكان تقسيم مصادر ها المائية، بالإضافة إلى التشابك الشديد بين هذه المصادر، وإعتماد بعضها على البعض الآخر، ومما زاد من هذه الصعوبة أيضًا تركز الغالبية الساحقة من مصادر المياه في الجزء الشمالي والأوسط منها، أما الجنوب فهو شحيح في مصادره المائية. ولما فرضت الظروف السياسية والعسكرية رسم خط الهدنة أصبحت القضية أكثر تعقيدًا، حيث أوجب ذلك تقسيم مصادر المياه في فلسطين بين العرب واليهود. لقد جاء خط الهدنة في مكان شديد الحساسية من الناحية المائية، حيث يسير هذا الخط مع السفوح الغربية لجبال الضفة الغربية، وإن كان في بعض المناطق يمر في كتنورات مرتفعة نسبيًا، بمعنى أن خط الهدنة يمر بين منطقة جبلية مرتفعة في الشرق ومنطقة سهلية منخفضة في الغرب. وتتراوح كمية الأمطار في المنطقة الجبلية ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ ملم سنويًا، هذه الكمية من الأمطار يتسرب جزء كبير منها داخل الصخور، ليستقر في باطن الأرض على هيئة مخزون من المياه الجوفية. هذه المياه الجوفية لا تستقر كلها داخل الضفة الغربية، بل ينساب جزء منها عبر خط الهدنة باتجاه الغرب صوب السهل الساحلي في الجانب الغربي من الخط، وتقدر كمية المياه الجوفية المتجددة في الضفة الغربية بنحو ٦٥٠ مليون متر مكعب سنويًا.

إن إهتمام إسرائيل بمياه الضفة الغربية، لا ينحصر في مصادر المياه داخل الضفة الغربية فحسب، ولكن الإهتمام الرئيسي مُركّز على

المياه الجوفية التي تنساب من الضفة الغربية عبر الأحواض الجوفية، إلى السهل الساحلي، حيث تقدر كمية إستهلاك إسرائيل السنوية من هذه الأحواض، بنحو ٤٥٠ مليون متر مكعب، تمثل نحو ٢٥% من إستهلاك إسرائيل المائي، وهي المصدر الرئيسي للمياه في منطقة السهل الساحلي، ومن ثم فإن هذا التعقيد في شبكة المياه الجوفية، يخلق نوعاً من الارتباك الشديد للسلطات المسؤولة على جانبي خط الهدنة.

أما فيما يتعلق بالتربة، فإن مرتفعات الضفة الغربية، تعتبر المصدر الرئيسي الذي يمد السهل الساحلي على الجانب الغربي لخط الهدنة، بالتربة، حيث تقوم الأودية الموسمية، بحمل الطمي من المرتفعات إلى السهل الساحلي، ومن ثم فإن خططاً تنموية فلسطينية، تستدعي إقامة سدود، على هذه الأودية، للاستفادة من مياهها، سوف يمنع وصول الطمي إلى السهل الساحلي، مما قد يتسبب في تقليل كفاءته، في الإنتاج الزراعي^(١).

د - خط الهدنة داخل مدينة القدس :

لقد كانت مدينة القدس قبل عام ١٩٤٨ بمساحتها البالغة نحو ٢٠ كم مربع، تشمل بالإضافة إلى مدينة القدس نفسها بعض القرى والبلدات المحيطة بها، والتي تعتبر أبو ديس أقصاها من الشرق، وبيت لحم أقصاها من الجنوب، وعين كارم أقصاها من الغرب، بما في ذلك المساحة المبنية من موتا، وكانت شعفاط أقصاها من الشمال. وبعد حرب عام ١٩٤٨ وإستيلاء كل طرف على جزء من المدينة تمت عملية رسم

(١) برافر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢ - ١١٥.

وتعيين الحدود داخل المدينة، وكان وقع خط الهدنة داخل المدينة مغايرًا تمامًا لوقعه في أي مكان آخر من الخط الأخضر، حيث قسم المدينة إلى قسمين انفصل كل منهما عن الآخر انفصالًا تامًا.

إن قيام الحدود بتقطيع إحدى العواصم، وفصلها إلى جزئين هو أمر نادر الحدوث، ويؤدي إلى خلق أوضاع جديدة، وقد إعتاد الكثيرون على تشبيه التقسيم الذي حدث لمدينة القدس بالتقسيم الذي أجري في مدينة برلين عاصمة ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، غير أن الوضع يختلف اختلافًا جوهريًا بين المدينتين، فالتقسيم في مدينة برلين لم يكن عرقيًا أو طائفيًا كما هو الحال في مدينة القدس، بالإضافة إلى أن طبيعة المدينة المقدسة أضفت على التقسيم طابعًا فريدًا، ساعد في عزل قسمي المدينة عن بعضهما البعض بصورة أكثر سهولة عما هو الحال في برلين. مع العلم أن التقسيم في مدينة القدس أرغم كل قسم من قسمي المدينة على إعادة تنظيم وتشكيل أجهزته بما يتناسب والوضع الجديد الذي طرأ على المدينة. ويتكون خط الهدنة الفاصل في مدينة القدس من خطين حدوديين متوازيين، كانا في أصلهما خطا الجبهة المجمدين حينما توقف الإقتال داخل المدينة، وتوجد بين هذين الخطين منطقة حدودية فاصلة تركت خربة بعد أن هجرها سكانها أثناء القتال، ولم يتم تقسيم هذه المنطقة أثناء إتفاقية الهدنة، حيث تركت كم منطقة فاصلة مغلقة بين جزئي المدينة، وقد قطع خط الهدنة المدينة من الجنوب إلى الشمال بشكل أبقي البلدة القديمة وأسوارها والأحياء الشرقية والشمالية منها في الجانب الشرقي منه (الضفة الغربية) وظلت البلدة الجديدة بإستثناء بعض المناطق

الجنوبية والشمالية في الجانب الغربي من الخط (إسرائيل).

ونشأت منطقتان فاصلتان في إطار بلدية القدس، الأولى في الجنوب، وكانت تحت سيطرة الأمم المتحدة، وهي منطقة غير مأهولة، والثانية في الشمال الشرقي فوق جبل المكبر.

لقد أدى تقسيم المدينة بهذه الصورة إلى سيطرة الجانب الأردني على الطرق المتجهة من القدس نحو الجنوب والشمال والشرق، في حين سيطر الجانب الإسرائيلي على الطرق المتجهة نحو الغرب.

تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الخدمات في المدينة (قبل رسم خط الهدنة والتقسيم) من كهرباء، ومياه، وطرق، والعديد من المؤسسات كانت مشتركة بين القسمين، أما بعد التقسيم، فقد اضطرت السلطات في كل قسم إلى إنشاء خدمات خاصة بقسمها منفصلة عن القسم الآخر، وهذا ساعد على تثبيت تقسيم المدينة، في الفترة من ١٩٤٩ - ١٩٦٧. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العمليات العسكرية التي دارت عام ١٩٤٨ داخل المدينة أحدثت عمليات تبادل سكاني واسعة بين قسمي المدينة.

حيث انتقل الفلسطينيون، الذين كانوا يعيشون في الأحياء الغربية من القدس إلى الأحياء الشرقية، وحدث العكس للعدد المحدود من اليهود في القسم الشرقي من المدينة، مما أدى إلى تقسيم واضح بين قسمي المدينة.

تحليل الهدن؛

إن خطوط الهدنة لا تعتبر من الناحية القانونية حدودًا تفصل بين كيانتين على اعتبار أنها خطوطًا مؤقتة، مع ضرورة أخذ المصالح العربية

بالإعتبار وليس المصالح الإسرائيلية وحسب. وكان الموقف الإسرائيلي بأنه على إستعداد لإدخال تعديلات متبادلة على الحدود تلبي حاجات الطرفين مع تأكيده على أن خط الهدنة هو الخط الوحيد المتفق عليه بين الأطراف. ولذلك فإن أي تعديلات تتم عليه يجب أن تتال موافقة الطرفين.

يرتكز الموقف الفلسطيني من حدود الهدنة على قرارات الشرعية الدولية والمنطلقات الأساسية لإقامة كيان فلسطيني، قادر على الحياة والاستمرار، وفي بالحد الأدنى من متطلبات الشعب الفلسطيني. ولكن قبل الحديث عن المتطلبات الفلسطينية، لابد من الإشارة إلى أن القراءة الإسرائيلية لنصوص القرار ٢٤٢ مليئة بالمغالطات القانونية، وهي تستند أساساً إلى مبدأ القوة، إضافة إلى التلاعب بالألفاظ وتفسيرها تفسيراً مغايراً لمحتواها. تدعي إسرائيل بأن القرار ٢٤٢ إقتصر في نصه الإنجليزي على طلب " إنسحاب قوات إسرائيلية مسلحة من أراضي احتلت في النزاع الأخير.

إن الموقف الفلسطيني من القرار ٢٤٢ واضح وصريح وهو تمسكه بالنص الفرنسي للقرار، الذي يؤكد على وجوب الإنسحاب من كافة الأراضي التي أحتلت في النزاع الأخير، والذي يتفق بما لا يدع مجالاً للشك مع مقدمة القرار التي تنص على عدم جواز إكتساب الأراضي بالقوة.

خاتمة

وفقا لما ذكر بالنسبة للهدنة في القانون الدولي، ما مدى تطابق التعريف، مع الهدن التي تمت على أرض الواقع؟، أنتجت حدودًا معينة ما بين دول الجوار العربية وإسرائيل. وأخذت أراضي وأدخلتها للدولة الإسرائيلية، مخالفة لقرار التقسيم، وما كان من الهدن إلا أن ثبتت وضع تلك الأراضي، بما يخالف القانون الدولي، وقرار التقسيم.

أعطت من لا يملك في الأراضي حق التصرف، مصر والأردن ولبنان وسورية، حقوقًا في تقرير شكل، وحدود، وعلاقة تلك الدول بإسرائيل، علي حساب أراضي الفلسطينيين، وحقوقهم.

لبنان: جعلت النقطة رأس الناقورة حدًا سياسيًا وإقليميًا بينها وبين إسرائيل، الأمر الذي يمس حقوق الفلسطينيين في أي تسوية قادمة (انظر إلى التقسيم الإقليمي البريطاني لفلسطين في الأربعينيات)

مصر: إقامة منطقة منزوعة السلاح ما بين رفح وشمال غزة، الأمر الذي ينتهك حق الشعب في الكفاح والدفاع عن النفس ضد أي هجوم وفقًا للقانون الدولي.

الهدن الأربعة مع دول الجوار كانت تأكيدًا للحدود، التي طبقها الاستعمار البريطاني والفرنسي في حدود عام ١٩٢٣، بإيعاز من اليهود، حتى تشمل المياه مما يخالف القانون الدولي، للهدنة في تعريف القانون.

* * *

الباب الثالث: النكبة

الباب الثالث النكبة

الفصل السادس عشر:

الحرب المزعومة

(أسمهان شريع)

لا عجب في أن رئيس هيئة أركان الفيلق العربي، الإنكليزي غلوب باشا، سمى حرب ١٩٤٨ بـ "الحرف المزيفة". "إيلان بابيه".

لقد غدا متاحًا بعض الشيء، الآن تتناول مجريات النكبة، بعد المحاولات الجادة التي قام بها مؤرخون أكاديمون فلسطينيون مرموقون لكتابة تاريخ النكبة بهدف مواجهة الرواية الإسرائيلية المضللة، وبعدها أفرج الإسرائيليون، بعد خمسين عامًا على الإعلان عن قيام كياناتهم، عن بعض الوثائق التي بحوزتهم والتي تتناول وقائع النكبة ومجرياتهما. وقد عزز هذا التوجه، بروز ظاهرة "المؤرخين الجدد" الإسرائيليين الذين بدأوا بالكتابة عن النكبة استنادًا إلى الوثائق الإسرائيلية المفرج عنها، حيث أخذت روايتهم بمقاربة الرواية الفلسطينية.

أورد المؤرخ الما بعد صهيوني إيلان بابيه هذه المقولة في كتابه "التطهير العرقي في فلسطين"، في إطار إيضاحه أن الحرب التي قامت بها الجيوش العربية في فلسطين عام ١٩٤٨، كانت حربًا مزيفة، وتعزز الرواية الفلسطينية للنكبة ما ذهب إليه بابيه.

فما الذي دعا الفلسطينيين، وبابيه، إلى إطلاق هذا الحكم على الحرب

التي خاضتها الجيوش العربية في فلسطين ردًا على تقسيم فلسطين بين أصحابها الشرعيين والغزاة اليهود القادمين من أوروبا؟ هل هو انعدام إرادة القتال؟ أم عدم توافر الاستعداد للحرب؟ أم عدم التكافؤ بين الطرفين، أو الأطراف التي خاضت الحرب؟ هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه من خلال سرد أسباب الحرب، والأطراف التي شاركت فيها، وبالتالي رصد مجريات الحرب.

وستعتمد هذه الدراسة التقسيم الزمني والمنهج النقدي التحليلي، والأسلوب العلمي لمعالجة هذا الموضوع.

تمهيد:

وصفت اليهودية حنة أرندت الاتجاه السائد في الرأي العام اليهودي سنة ١٩٤٨، بالقول: " إن يهود أميركا ويهود فلسطين، متفقون أعمق الاتفاق على المقترحات التالية التي جرى الإعراب عنها بصورة فظة بعض الشيء: لقد أنت اللحظة التي ينبغي لنا أن نربح فيها كل شيء؛ النصر أو الموت؛ إذ أن المطالبين العربية والمطالبين اليهودية لا تقبل التوفيق، فوحده الحل العسكري هو القادر على تسوية القضية. والمسألة واضحة: العرب، كل العرب هم أعداؤنا؛ وليس سوى الليبراليين الذين ولى عصرهم بمؤمنين بميزة التسوية، والجهلة هم وحدهم المؤمنون بالعدالة " (١).

وهذا يؤكد أن حرب ١٩٤٨، لم تكن حربًا خاطفة، بل كانت حربًا

(١) جان إيف أولييه، لجنة الأمم المتحدة للتوفيق بشأن فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٥١ حدود الرفض العربي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١، ص ١.

مخطط لها، كما جرى الاستعداد لها بشكل جيد من قبل الغزاة اليهود على الأقل. ففي إطار البحث عن حل لما اعتبرته الحركة الصهيونية " المشكلة العربية " في فلسطين، أي الوجود الفلسطيني، جرى منذ وقت مبكر على نشوء الحركة الصهيونية الإعداد لتفريغ فلسطين من أصحابها الشرعيين، وهم الفلسطينيون. لأن مجرد وجود الفلسطينيين على أرضهم يقوض الفكرة الصهيونية القائلة بخلو فلسطين من السكان من أساسها. لذلك " وفي الواقع، لم تكن فلسطين في سنة ١٨٨٢، حتى أرضاً " محتلة "، وإنما " أرضاً خالية من البشر ". أما الفلسطينيون، السكان الأصليون الذين كانوا يعيشون هناك، فكانوا في نظرهم، إلى حد كبير، كائنات غير مرئية، أو - إن لم يكونوا كذلك - كانوا جزءاً من عقبات الطبيعة التي يجب التغلب عليها أو إزالتها. لا شيء، لا الصخور ولا الفلسطينيون، كانوا يجب أن يشكلوا عائقاً في الطريق إلى " استرداد " الأرض التي اشتتها الحركة الصهيونية وطناً قومياً لها ^(١).

بين الأستاذ نور الدين مصالحة من خلال كتابه " طرد الفلسطينيون: مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨ " من خلال الوثائق، أن فكرة ترحيل الفلسطينيين عن أرضهم، كانت قد رافقت ظهور المشروع الصهيوني، وإن كانت مناقشتها قد اتخذت في البدايات طابعاً سرياً، إلا أنها، منذ ثلاثينيات القرن العشرين، أخذت طابعها العلني. وكان الحديث يدور عن ترحيل الفلسطينيين بطرق الإغراء وعلى مراحل. وعندما تبين للقيادة الصهيونية أن الفلسطينيين،

(١) إيلان بابيه، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٢٠.

ومعظمهم من الفلاحين، متمسكون بأرضهم، بدأ التفكير باقتلاعهم بالقوة. فقد أعلن بيرل كاتسnelسن، وهو أهم زعيم عمالي معارض للتقسيم، في خطاب متشدد في ٢ آب/ أغسطس ١٩٣٧، أثناء النقاشات التي دارت بشأن اقتراح لجنة بيل البريطانية بتقسيم فلسطين: "إن موضوع ترحيل السكان قد أثار النقاش في صفوفنا.. وفي التحليل الأخير، فإن هذا عمل سياسي واستيطاني يخدم مصلحة الطرفين. ولطالما اعتقدت أن هذا أفضل الحلول. وفي أيام الإضطرابات [الثورة الفلسطينية]، ازداد اقتناعي بأن هذا الحل لا بد أن يأتي في يوم من الأيام، لكنني ما ظننت أن الترحيل إلى خارج أرض إسرائيل، يعني مجرد الترحيل إلى ضواحي نابلس، كنت ولا أزال أعتقد أن قَدَرَهُم الترحيل إلى سوريا أو العراق" (١).

ومنذ سنة ١٩٢٤، بدأ التخطيط للخطة (د)، التي شكلت الأساس للحملة العسكرية التي تعيّن على الهاغاناه أن تشنها، وقد اعتمدتها قيادة الهاغاناه العليا في ١٠ آذار/ مارس ١٩٤٨.

وبذلك في طرد الفلسطينيين من ديارهم، كان سبباً رئيسياً من أسباب حرب ١٩٤٨. أي أن هذه الحرب قد خطط لها سلفاً وتم الإعداد لها من قبل القيادة الصهيونية قبل صدور قرار التقسيم، الذي تشير أدبيات النكبة، في الروايتين الفلسطينية والإسرائيلية، أنه كان سبب نشوب الحرب سنة ١٩٤٨، وذلك خلافاً لما حدث في الجانب الآخر.

(١) نور الدين مصالحة، طرد الفلسطينيين مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٥٨.

أسباب الحرب واستعداداتها:

ذهب بعض مؤرخي النكبة، مثل د. عبد الله عبد الدائم، إلى أن احتلال فلسطين، بدأ بعدما استقر رأي الحركة الصهيونية على أن تكون فلسطين المكان المنشود لتحقيق الهدف الصهيوني بإنشاء دولة لليهود، حيث بدأت الخطوات التمهيدية بإقناع القوى النافذة في ذلك الحين، بأهمية وصوابية الهدف الصهيوني والفوائد التي يمكن لهذه القوى جنيها جراء تحقيقه، وبالتالي الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية واستعمارها بشتى السبل.

وهكذا، أفضى التقاء المصالح بين القوى الاستعمارية التي كانت تسعى للاستيلاء على تركة السلطة العثمانية، خصوصًا في المشرق العربي، مع المشروع الصهيوني، إلى تعاون وثيق بين هذه القوى وبين الحركة الصهيونية؛ ما يمكن معه تحميل مسؤولية حرب ١٩٤٨، وبالتالي ما نجم عنها من كارثة وقعت على الشعب الفلسطيني، اصطلاح على تسميتها بـ " النكبة "، إلى أكثر من طرف حيث ساهمت هذه الأطراف في وقوع الحرب، بل اشتركت فيها.

كانت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والحركة الصهيونية، وهيئة الأمم المتحدة والأنظمة العربية والزعامة الفلسطينية التقليدية مسببًا في حرب ١٩٤٨، وقد تفاعلت هذه المسببات وتداخلت بحيث غدت هذه الحرب أمرًا واقعًا لا محالة.

رغم أن الجنود الفلسطينيين في الجيش التركي أتوا بأعمال باهرة في الحرب العالمية الأولى، كما يورد فوزي القاوقجي، الذي قضى فترة من

حياته مساهماً في المقاومة الفلسطينية ضد البريطانيين واليهود، حيث شارك في الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ وحرب ١٩٤٨، كما جاء في مذكراته، إلا أنهم انقطعوا عن التدريب العسكري منذ ذلك الوقت، ولم يتح لهم تأليف جيش، كما أن عدد ضباطهم كان قليلاً جداً، بخلاف سوريا والعراق، الأمر الذي أثار شكوك القاوقجي^(١). أما تفسير ما أثار شكوك القاوقجي، فيتلخص بأن البريطانيين الذين تعهدوا بتنفيذ المشروع الصهيوني، كانوا قد دخلوا فلسطين منذ سنة ١٩١٨، أي قبل انتدابهم من قبل عصبة الأمم عليها، وبالتالي، فإنهم منعوا الفلسطينيين من تكوين أي شكل من أشكال العسكرية أو التسلح أو المقاومة؛ كما أن الفلسطينيين، في ذلك الوقت، لم ينظروا إلى فلسطين باعتبارها كياناً مستقلاً عن سوريا، ما يؤكد د. عبد الوهاب الكيالي في كتابه "تاريخ فلسطين الحديث"، عند الحديث على ردة الفعل الفلسطينية على مقررات مؤتمر السلم في باريس، الذي أبرز مطامع بريطانية وفرنسية في السيطرة على المشرق العربي؛ فيذكر أن الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس ارتأت، قبل وصول لجنة كنغ - كرين بأسبوع، إصدار منشور يتضمن وجهات نظرها التي تعترزم عرضها على اللجنة. وأكد المنشور أن فلسطين - سوريا الجنوبية - هي جزء لا يتجزأ من سوريا^(٢). والأمر نفسه أكدته الوفد الفلسطيني إلى المؤتمر السوري الأول (تموز، يوليو ١٩١٩) في البند الثامن من

(١) خيرية قاسمية: إعداد وتقديم، مذكرات فوزي القاوقجي، دار النمير، دمشق الطبعة الثانية، ١٩٩٥، ص ١٨٤.

(٢) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة السابعة ١٩٧٩، ص ١٣٨.

برنامج دمشق، الذي نص على: "إننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين والمنطقة الساحلية التي من جملتها لبنان، عن القطر السوري، ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان (١).

ولما تضمن البند الثاني من صك الانتداب البريطاني على فلسطين تنفيذ وعد بلفور، فإن سلطات الانتداب، أخذت على عاتقها تهيئة البنية التحتية لإنشاء الدولة اليهودية. فـ "منذ البداية، سمحت السلطات الانتدابية البريطانية للحركة الصهيونية بإنشاء كيان مستقل لها في فلسطين ليكون بمثابة بنية تحتية للدولة العتيدة" (٢). وهو أمر أقره المؤرخون الجدد الإسرائيليون. هذا في الوقت الذي كانت فيه قوات الانتداب تضيق على الفلسطينيين، وتطبق نظامًا عرقيًا جائرًا بحقهم، فتمنعهم من اقتناء السلاح، وتواجه مقاومتهم لها بقسوة بالغة. كما كانت تقف إلى جانب المهاجرين اليهود أثناء المواجهات بينهم وبين الفلسطينيين، بل إن ضابطًا بريطانيًا ساعدوا المهاجرين اليهود في إنشاء منظمة عسكرية فعالة، وهي منظمة الهاغاناه، أثناء "التحضيرات الصهيونية للتمكن من الاستيلاء على البلد بالقوة" (٣).

وكان الضابط البريطاني أورد تشارلز وينغيت قد جعل القادة الصهيونيين يدركون، بصورة أفضل، أن فكرة إقامة دولة يهودية يجب

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٢) بابيه، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

أن تقتصر بشكل وثيق بتحضيرات عسكرية، وإنشاء جيش، لأن الأعمال المسلحة الهجومية من شأنها أن تشكل رادعاً فعالاً ضد المقاومة المحتملة للفلسطينيين، ومن هنا إلى التفكير في طرد جميع السكان الأصليين بالقوة، بات الطريق، كما برهنت التطورات اللاحقة، قصيرة جداً^(١).

تنبه الفلسطينيون إلى الدور الذي تلعبه قوات الانتداب في تنفيذ وعد بلفور، من خلال فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية، والتسهيلات التي تقدمها للمهاجرين اليهود. فيذكر المؤرخ الفلسطيني محمد عزة دروزة:

" إن الإنكليز أخذوا في تنفيذ المنهج اليهودي بكل حماس وقوة منذ البدء. فقد فتحوا أبواب فلسطين للهجرة اليهودية.. واستقبلوا وايزمن وزعماء اليهود الآخرين بالحفاوة، وسمحوا لهم بإعلان آمالهم وأهدافهم منذ وقت مبكر، ثم عينوا في سنة ١٩٢٠ هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني مندوباً سامياً، كبرهان على أنهم متفقون مع اليهود على دمج الفلسطينيين بدمغة الحكم اليهودي منذ أول الحكم المدني، حيث صرّح بهذا أمام كبار موظفي الحكومة من الإنكليز قائلاً: " إن سياسة حكومة جلالة الملك التي جاء لتطبيقها هي تشجيع اليهود إلى أن تصبح السيطرة لهم على البلاد ويمكن إنشاء حكومة يهودية " ^(٢).

ويوضح القاوقجي في مذكراته أن الصهيونية كانت تستخدم جيش

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، الجزء الأول، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٤٨، ص ٣١.

بريطانيا في فلسطين، ورجالات الإدارة فيها " تسمح بجلب المهاجرين من اليهود بصورة شرعية وغير شرعية، أضعاف ما هو مقرر، ويستوردون الأسلحة سرًا وعلانية " (١).

وفي هذا تدليل على النية المبيتة للحرب على الفلسطينيين من قبل المهاجرين اليهود، وعلى موافقة قوات الانتداب البريطاني.

أتاحت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الفرصة لأعضاء الهاغاناه كي يطبقوا، في المناطق الريفية الفلسطينية، التكتيكات التي تعلموها من ويغنت، والتي اتخذت على الأغلب شكل عمليات انتقامية ضد أهداف محدّدة، كالقناصة الكامنين بجانب الطرقات. وكما يبدو، كان الهدف من وراء هذه العمليات زرع الخوف في قلوب الفلسطينيين القاطنين قرب المستعمرات اليهودية.

وقد نجح ويغنت في ربط الهاغاناه بالقوات البريطانية خلال الثورة الفلسطينية، كي تتعلم بصورة أفضل، " ماذا يجب أن تتضمن مهمة تأديبية " ضد قرية فلسطينية.

ويتذكر أماتسيا كوهين، الذي شارك في أول عملية من هذا النوع عام ١٩٨٣، عندما هاجمت وحدة تابعة للهاغاناه وسرية بريطانية معًا قرية على الحدود بين فلسطين ولبنان، الرقيب البريطاني الذي شرح لهم كيف يستخدمون حربة البندقية عندما يهاجمون القرويين الفلسطينيين العزل. " ولو كان هذا الرقيب موجودًا في فلسطين سنة ١٩٤٨ لكان شعر بالفخر لدى رؤية السرعة التي أتقنت فيها القوات اليهودية فن مهاجمة القرى "

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣.

أما الدور المباشر الذي لعبته بريطانيا، والذي أدى إلى نشوب الحرب فكان إعلانها الجلاء عن فلسطين في آب / أغسطس من عام ١٩٤٨، وانسحابها الفعلي منها قبل هذا التاريخ (١٥ أيار / مايو ١٩٤٨)، دون أن تقدم أي حل للمشكلة التي بلغت ذروة تأزمها. بل ساعدت اليهود بتسليمهم المعسكرات والتحصينات والمطارات ومستودعات الذخيرة، مقابل وقفها ضد استعدادات الفلسطينيين العسكرية، ومقاومتها إدخال الأسلحة والمتطوعين الشعبيين من الأقطار المجاورة إلى مناطق تواجدهم. كما غرض الجيش البريطاني الطرف عن المجازر والفظائع التي ارتكبتها اليهود بحق الفلسطينيين، بل سهلوا لهم مهماتهم.

وتجلى الدور الأميركي في اندلاع الحرب في موقفين: تمثل الأول في نسف الكتاب الأبيض الذي طالب بتحديد هجرة اليهود إلى فلسطين؛ فيما تمثل الموقف الثاني في الجهد الذي بذلته الولايات المتحدة لإقرار التقسيم.

فيما شكل انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين فرصة لإطلاق يد العصابات الصهيونية لتحقيق حلمها وتنفيذ مخططها القاضي بتفريغ فلسطين من أصحابها الشرعيين بالقوة؛ مستخدمة أبشع الأساليب دموية وعنفاً لتحقيق غايتها، فاعتمدت الإرهاب المسلح نهجاً في تطهير فلسطين عرقياً.

(١) بابه، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.

ساهمت منظمة الأمم المتحدة في الحرب بإقرارها قرار التقسيم أولاً، ثم بعدم إشرافها على تطبيقه ثانياً، وبحياديتها إزاء الإرهاب اليهودي بحق الفلسطينيين ثالثاً.

وكان للجانب الرسمي العربي دوره السلبي الذي تسبب في الحرب: ففي حيث قدرت اللجنة العسكرية لمجلس الجامعة العربية القوات اليهودية بستين ألف شخص مدرّب ومسلّح بأحدث الأسلحة، ورغم معرفة مجلس الجامعة بحقيقة قوات جيش " الهاغاناه " و " البالماخ "، و"عصابة" شتيرن"، وبوليس المستعمرات، وقوى سكان المدن والمستعمرات، فقد اتخذ قرارات هزيلة للتصدي للخطر المحدق بفلسطين، حين قرر تقديم عشرة آلاف بندقية إلى أهل فلسطين، وثلاثة آلاف متطوع. ومع ذلك تمكنت هذه القوة الهزيلة، بالتعاون مع الفلسطينيين، من تسجيل بطولات كبيرة، أجبرت اليهود على التقهقر، ما اضطر مجلس الأمن، إزاء تدهور أوضاع اليهود، إلى إهمال قرار التقسيم^(١).

ويرى د. عبد الله عبد الدائم، أن قرار الجامعة العربية بدخول الحرب إنما حدث، ظاهرياً، بفعل نقمة الجماهير العربية إزاء صمتها وجمودها، واكتفائها بالتصريحات والاجتماعات؛ لكن الأحداث والوثائق كشفت بعد ذلك عن أن هذا القرار لم يتم فعلاً إلا بعد موافقة بريطانيا عليه، وبعد أن قيّدت بشرط أفقده معناه، وهو أن يقتصر هدف هذه الجيوش العربية على حماية الأراضي التي خص قرار التقسيم العرب بها، وألا تغزو هذه

(١) د. عبد الله عبد الدائم، نكبة فلسطين، دار الطليعة، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٦٦ - ٦٧.

الجيش بحالٍ من الأحوال الأراضي التي هي من نصيب اليهود، وقد عبرت عن ذلك بوضوح المفاوضات التي جرت بين المستر بيغن وزير الخارجية البريطاني، وبين وفيق أبو الهدى، رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع عام ١٩٤٨ (١).

وعن استعدادات الجانب العربي بما فيه الفلسطيني، يذكر القاوقجي: أنه عرف، أثناء زيارته للبنان عشية حرب ١٩٤٨، (آذار / مارس ١٩٤٧)، أن التسليح الشعبي غير قليل، وأنه تأكد أن هناك إمكانيات واسعة لتشكيلات مسلحة قوية، يمكن الاستفادة منها إلى حد بعيد، في معركة فلسطين التي كان يحس أنها تقترب منه بسرعة فائقة. فكتب إلى الحاج أمين الحسيني في مصر، شارحاً له الحالة بوضوح، كما خبرها، ومبيناً له قيمة الاستفادة من الإمكانيات الشعبية، إذا عمل على تنظيمها، ووضع نفسه تحت تصرفه من أجل فلسطين. وسلم الكتاب إلى السيد عز الدين الشوا، الذي سلمه إلى سماحة المفتي، لكن القاوقجي لم يتلقَ جواباً، وقد عُلِمَ فيما بعد، أن المفتي كان يعتمد على تشكيلات شعبية فلسطينية باسم " الخلايا " منتشرة في أنحاء فلسطين كلها، وهي من القوة بحيث تستطيع أن تحل قضية فلسطين، وأن كل ما يطلبه من الدول العربية، هو أن تمّونه بالمال والسلاح والعتاد. ويضيف القاوقجي، أنه كان يخالف سماحة المفتي في رأيه واعتقاده، رغم عدم توافر معلومات موثوقة تمكنه من إثبات خطأ رأي المفتي، ويتابع القاوقجي أنه كان يدرك نية اليهود

(١) شفيق رشيدات، فلسطين: تاريخاً وعبرة ومصيراً، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، ١٩٦١، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

وتصميمهم على إقامة دولة يهودية بالقوة في فلسطين، حيث ستكون محاطة بدول وشعوب رافضة وممانعة لوجودها؛ واليهود على ما هم عليه في أمريكا وأوروبا " علمًا، وفكرًا ونفوذًا وغنى وحيلة ومثابرة، لا يمكن إلا أن يكونوا هياؤا لإنشاء دولتهم، ما تقتضيه مغامرة كهذه، من أسلحة وعتاد وأموال وقوى مدربة وتحصينات واتفاقات مع بعض دول غربية لهذا الغرض، مما لا ينفع معه إلا ما يماثله، أو ما يقرب منه على الأقل " (١).

وكانت الإعتداءات اليهودية، خصوصًا على الجيش البريطاني، في فلسطين، تدل دلالة واضحة على مقدار تنظيمهم، وتسليحهم، ومدى استعدادهم العسكري وكثرة ما يملكون من مواد متفجرة وأسلحة أوتوماتيكية، بحيث بدا الجيش البريطاني حيال هذه الإعتداءات ضعيفًا ومترددًا. وهو أمر، كما يقول القاوقجي، كان يجب أن " يحملنا على أن نحسب لهم حسابًا.. على أنني وإن كنت حتى ذلك الحين، غير مطلع اطلاعًا حقيقيًا على مبلغ ما في فلسطين من استعداد، لدى العرب، من ناحية التنظيم والتشكيلات والتسلح، فقد كنت أميل إلى الاعتقاد بأن الحالة حسنة من هذه الناحية، كلما تذكرت ما قاله لي سماحة المفتي " (٢).

ويتضح من خلال سرد القاوقجي لمجريات ووقائع عشية حرب ١٩٤٨، أنه كان مطمئنًا إلى أقوال المفتي؛ وأنه إذا حدث ما من شأنه أن يصدع هذه الاطمئنان، فإنه كان يبادر إلى تذكر ما كان يتمتع به المفتي

(١) قاسمية مصدر سبق ذكره، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

من نفوذ وسلطان في ألمانيا وإيطاليا، ما كان يحمل على الاعتقاد أن الأوساط الألمانية والإيطالية، وهي تسعى للتقرب من العالم العربي والإسلامي، فإنها لابد أن تزوده بالأموال التي يحتاجها، إضافة إلى ما كان يرد إلى سماحته من الخارج (١).

إن ما يقدمه القاقجي من معلومات، يستدعي الكثير من التأمل والتدقيق، بل والبحث والتركيز؛ أولاً: لجهة الدعم الألماني والإيطالي للمفتي؛ فمع الأخذ بالاعتبار ما تبين من التعاون بين النازية والصهيونية، يمكن اعتبار أن المفتي وقع ضحية مكيدة. وهو ما يمكن الاستدلال عليه من خلال ما أورده غرهرد هُـب في كتابه "العرب في المحرقة النازية ضحايا منسيون؟! " حيث يرى أن التكهّنات المتعلقة بحقيقة زيارة المفتي أثناء إقامته في ألمانيا لمعسكرات الاعتقال النازية، أمر متنازع عليه، وبإساءات أخرى صادرة من المفتي، تبدو بالنظر إلى تعاونه الثابت الذي لا يشك فيه، مع النازيين، فائضة عن الحاجة على نحو كامل في الحقيقة، إلا إذا كانت تتابع الهدف المتمثل في إضفاء صفة الشيطان على أمين الحسيني، واتخاذ، على هذا النحو، في حلبة الصراع الدائر في تلك الأيام حول فلسطين، أداة سياسية، في صورة "هراوة عقّدية" (٢).

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية التي أثارها القاقجي عن المعونات التي كانت تتدفق على المفتي من الخارج، ففيها غمز من قناة المفتي، إن لم

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) غرهرد هـب، العرب في المحرقة النازية ضحايا منسيون!، ترجمة محمد جديد، دار قدّمس، دمشق الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٧.

تكن اتهامًا صريحًا، خاصة أن القاقجي يعلن، عند التقديم لمذكراته، أنه يرغب في إظهار الكثير من الحقائق التي لم تكن معروفة حول ما حدث في حرب ١٩٤٨. وليس ثمة ما يجلو هذه الحقيقة في المتوفر من المصادر التي تناولت النكبة، رغم أن مصادر التاريخ الشفوي أشارت بإصبع الاتهام مباشرة للزعامات التقليدية الفلسطينية، والأنظمة العربية، متهمة إياها بالتقاعس ومحملة مسؤولية النكبة لها.

على أية حال فإن ثلاثة ممن عايشوا النكبة وأرخوا لها وهم: الفلسطيني محمد عزة دروزة، واللبناني فوزي القاقجي، والإسرائيلي إيلان بابيه، يلتقون حول نقطة واحدة، مفادها أن الاستعدادات العربية لمواجهة الهدف الصهيوني المدعوم من الغرب، والمتمثل بإقامة دولة لليهود على حساب الحقوق الوطنية الفلسطينية، تركزت على الاستعدادات اللفظية؛ ففي حين كتب دروزة حول أثر عدم جدّ العرب وتبعته قائلاً: أن العرب كانوا يندرون بمقاومتهم للتقسيم بالقوة ويقولون أنه سيثير اضطرابات دموية في فلسطين والشرق الأدنى. وعلى صواب الإنذار وتحققه بعد التقسيم، وعلى أن له طابع المؤثر الأقوى في الموقف، فقد كان استعداد العرب لتحقيقه ضعيفًا بطيئًا مرتجلًا، بالرغم مما كان يجيش في نفوسهم من حماس وغيره ورغبة صادقة، وبالرغم من أن النضال المسلح كان المصير المحتوم والمتوقع منذ اجتماع مجلس الجامعة في بلودان في حزيران / يونيو ١٩٤٦ على الأقل. فلم يكن في فلسطين، إلى يوم قرار التقسيم، من وسائل النضال والمقاومة، ما يمكن أن يوجد في

ذهن الملاحظين احتمالاً بقدرة الفلسطينيين وحدهم عليهما^(١).

ذكر القاوقجي أن: حمى المؤتمرات والاجتماعات أخذت تسري بشكل غريب، حتى كاد لا يسلم منها رأس سياسي ولا عسكري، وأخذ نشاط الرسل والوفود بين الأقطار العربية يشتد، حتى ليخيل إلي المرء أن عواصم البلدان العربية كلها، غارقة في مؤتمر واحد لا ينقطع. واسم فلسطين على كل لسان، والحرب مع اليهود حديث كل فرد كأنما الأقطار العربية في حالة "نفير عام". لقد كانت حماسة حقيقية فعلاً، لا يعوزها إلا أن يستغلها استغلالاً شريعاً منظماً لمصلحة الصفوف ويضعوا الخطط ويعدوا العدة لقتال عملي جدي، وإنها لجولة أو جولات حربية قليلة، بعد ذلك، مع اليهود في فلسطين، ويحل العرب قضية فلسطين، ويضعون العالم أمام الأمر الواقع^(٢).

ولا يخفي القاوقجي ارتياحه من عدم جدية الاستعدادات للحرب، من قبل الأنظمة العربية، رغم أن ما كان يظهر عليهم يبدي خلاف ذلك. ويذكر القاوقجي أنه في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ عقد في قصر الجمهورية في دمشق وبحضور فخامة الرئيس الأول شكري القوتلي اجتماعاً من أجل فلسطين، حضره رئيس الحكومة السيد جميل مردم والعميد طه الهاشمي، ومن الفلسطينيين السيدان معين الماضي وعزة دروزة. وقد لمس القاوقجي في حديث هؤلاء السادة، ما يدل على أنهم ينحون نحواً، يختلف اختلافاً تاماً، عما كان قائماً في ذهنه بشأن فلسطين،

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.

(٢) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢١.

نحوًا لعله يبدو لأول وهلة بمظهره المنطقي الخارجي، أنه لا غبار عليه، وهو يتلخص بما في هذه العبارة من دلالات.. " إن قضية فلسطين لا تحل إلا بالقتال، تقوم به الجيوش العربية النظامية، ولكن يجب أن يسبق القتال نشاط سياسي قوي شامل في دوائر هيئة الأمم المتحدة، ولدى دولها كلها، فلعل هذه الدول تتهيب الموقف وتبادر إلى حل القضية بطرق سلمية، فإن هي لم تفعل، فإننا نقذف إلى الميدان بجيوشنا النظامية ونحطم اليهود " (١).

وقد أدرك القاوقجي بحسه العسكري أن " وراء هذه الأقوال أمرًا، وكأنما يقولونها وكل واحد منهم يعتقد - دون أن يفضي إلى الآخر - أن بريطانيا وأمريكا ستحولان حتمًا دون وقوع حرب في فلسطين... وبالنتيجة، فإنهم لن يحاربوا " (٢).

ويؤكد بابيه ما توصل إليه القاوقجي من عدم نية الأنظمة الرسمية خوض الحرب، فيذكر أن التغيير الوحيد، الذي يمكن ملاحظته، في السلوك العربي العام فور انتهاء الإنتداب كان في الخطاب البلاغي. " طبول الحرب أصبح ضجيجها أعلى وأكثر صخبًا من ذي قبل، لكنها فشلت في تغطية النقاعس والارتباك والفوضى التي كانت سائدة. قد يكون الوضع اختلف من عاصمة إلى أخرى، لكن الصورة العامة كانت واحدة " (٣).

(١) المصدر نفسه، ٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) بابيه، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.

وهكذا، لم تتوفر للفلسطينيين، فرصة الدفاع عن وطنهم في وجه المخطط الصهيوني الذي قضى بالاستيلاء على أراضيهم وترحيلهم بعيداً عنها. وقد كان تقاعس الأنظمة الرسمية العربية من أبرز مسببات النكبة، لأنها لم تخض حرباً فعلية في فلسطين لإنقاذها من المصير الذي كان يهددها. ما دفع شهود هذه الحرب إلى اعتبارها حرباً مزيفة.

الحرب المزيفة:

من المفارقات المثيرة للتأمل والجديرة بالبحث، أن بريطانيا، التي رأت في زرع كيان، في الزاوية الواصلة بين المشرق العربي ومغربه، معادٍ لسكان المنطقة وصديقاً لها، هو الحل الأمثل للسيطرة على هذا الجزء من العالم المتمتع بالثروات الهائلة، الذي يمتلك من أسباب الوحدة والقوة ما يؤهله لأن يكون قوة عظمى منافسة لها، وبالتالي مجابهة إمكانية توحيد العالم العربي، هي التي أيدت قيام شكل من أشكال الاتحاد بين أقطار العالم العربي، والغريب في الأمر أن هذا التوجه البريطاني انطلى على بعض زعماء العالم العربي. فكتب نجيب صدقة عام ١٩٤٦: "وبعد دخول البريطانيين إلى سوريا ولبنان وتقلص النفوذ الفرنسي، ظهرت في جميع البلدان العربية نزعة إلى التفاهم والتضامن تركز على ما بين هذه البلدان من صلات وثيقة ومصالح مشتركة، ويشجعها ما بدا من الحكومة البريطانية من العطف عليها" (١).

ويؤيد صدقة ما ذهب إليه بالاستشهاد بتصريح للمستتر إيدن وزير الخارجية البريطانية في ٢٩ آذار / مارس ١٩٤١: "إن كثيرين من

(١) نجيب صدقة، قضية فلسطين، دار الكتاب، بيروت ١٩٤٦، ص ٢٦٧ - ٢٧١.

مفكري العرب يرغبون في أن تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة أكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن... وستعاضد حكومة جلالته معاضدة تامة أي مشروع ينال الموافقة العامة".

ويتابع صدقة، أن النحاس باشا (رئيس الحكومة المصرية في حينه) بادر إلى إجابة هذه الدعوة الصريحة، التي أفضت إلى عقد مؤتمر في الإسكندرية عام ١٩٤٤، حضره إلى جانب مصر، مندوبو كل من اليمن والمملكة السعودية وسوريا ولبنان وشرقي الأردن والعراق، ووضعت فيه مقررات أشهرها " البروتوكول " الذي يسجل اتفاق الدول العربية على مبدأ التعاون والتضامن والانضمام إلى هيئة تدعى " جامعة الدول العربية ". وقد مثلت فلسطين في مؤتمر الإسكندرية بالسيد موسى العلمي، الذي عرض قضية فلسطين على المؤتمرين، ودعاهم إلى المساهمة في إنقاذ أراضيها وخدمة قضيتها العامة. فأسفر المؤتمر عن قرار يطالب بتنفيذ الكتاب الأبيض ويرجى بحث قضية الأراضي إلى موعد آخر. والجدير ذكره، في هذا الصدد، أن ميثاق الجامعة العربية خص فلسطين بملحق خاص أقر بموجبه: أنه نظرًا لظروف فلسطين الخاصة، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله^(١).

أخذ صدقة على الجامعة العربية لإحالتها قضية الأراضي إلى اللجنة الاقتصادية، التي لم تسفر المناقشات الطويلة التي أجرتها حول هذه القضية عن شيء، معتبرًا أن " ليس هذا البطء المؤسف هو المظهر

(١) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الوحيد لتهامل الجامعة العربية في قضية فلسطين بل إن هناك دلائل أخرى أشد خطورة على هذا التهامل " (١).

وفي هذا دليل على أن الجامعة العربية لم تكن جدية في التصدي لنكبة فلسطين. ويبدو أن الحاج أمين الحسيني كان مدرِّكًا لهذا الأمر، لذلك فقد عارض خطط الجامعة العربية في الحرب، ويظهر هذا واضحًا في مذكرات القاوقجي حيث يقول: " كان سماحة المفتي في خلال هذه المدة [تجهيز الجيوش العربية النظامية خريف ١٩٤٧]، يعلن أمام الرجال الرسميين أنه لا يقبل أن أتسلم قيادة جيش المتطوعين، وكان هؤلاء الرجال، وغيرهم من الرجال غير الرسميين، يحاولون إقناعه بضرورة تسلمي القيادة من أجل فلسطين، فيصرّ على الرفض.. فصارحوه بأن الأفضل والأليق أن يعلن قبوله، من أن يفرض عليه الأمر فرضًا (٢).

ويورد نجيب صدقة في كتابه عن قضية فلسطين، أن إنكلترة، أوفدت الكولونيل نيو كومب إلى بغداد عام ١٩٤٠ فعقد مشروع اتفاق بين السيدين جمال الحسيني وموسى العلمي لتقريب أجل الإستقلال وتقصير فترة الإنتقال التي حددها الكتاب الأبيض بعشر سنوات (٣).

وربما يفسر هذا الاتفاق تقاعس هذه الزعامات عن الاستعداد للحرب. ويذكر القاوقجي أن رئيس الحكومة المصرية السيد فهمي النقراشي

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٢) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٨.

(٣) صدقة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٦.

باشاء، أطلق تصريحًا في أحد اجتماعات مجلس الجامعة العربية في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٧، جاء فيه، "إن مصر لن تشترك في (مظاهرة عسكرية) مع الدول العربية من أجل فلسطين، ويجب أن تعلم هذه الدول مقدمًا، أن الجيش المصري لن يشترك في القتال، وذلك لأسباب مصرية داخلية بحتة، فلتعمل الجيوش العربية حسابها على هذا الأساس". ويعلق القاوقجي قائلاً: هكذا كان موقف الدول العربية وهي تستعد لإنقاذ فلسطين، وهذا ما كان يشغلها في الدرجة الأولى، وبعد هذا بمراحل بعيدة جدًا، تأتي قضية فلسطين (١).

وبذلك فإن مصر ترغب في خوض حرب من أجل فلسطين، ويبدو أنها كانت على دراية بعدم جدية الآخرين في الحرب، ما دفع رئيس حكومتها إلى اعتبارها مظاهرة عسكرية. ولذلك، فإنه عندما قررت مصر، في اللحظة الأخيرة فقط، وقبل يومين من انتهاء الانتداب، المشاركة فيما اعتبرته مظاهرة عسكرية فإنها أرسلت قوة تكونت من ١٠.٠٠٠ جندي؛ واشتملت هذه القوة، التي أفرزتها الحكومة أداء المهمة، على فرقة كبيرة، بلغ نحو ٥٠ % من عددها من الإخوان المسلمين المتطوعين الذين كانوا معتقلين، وقد أفرج عنهم في أيار / ١٩٤٨ كي ينضموا إلى الحملة العسكرية المصرية، غير أنهم لم يكونوا مدربين على القتال (٢).

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٢) بابيه، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.

حالة الجيوش العربية عشية النكبة يشرحها القاوقجي ^(١) فيذكر أنه: تسلم قيادة جيش الإنقاذ رسميًا يوم ٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧، وبدأ بتشكيل هيئة القيادة والمقر، وقد كان مراقبًا بدقة من قبل المفتش العام لجيش الإنقاذ العميد طه الهاشمي، بسبب شكوك القيادة السورية من إمكانية تعاون القاوقجي مع الملك عبد الله، أو إعلانه إدارة مستقلة في فلسطين تقود إلى انقلاب في سوريا، وكان اللواء إسماعيل صفوة ينقل للقاوقجي خبر هذه المخاوف، قائلاً أنه كان يحاول أن يحوها من نفوسهم، بقوله لهم، مادام المال والعتاد في أيدينا، فلا مجال للتخوف، لأننا قادرون في كل وقت، أن نقضي على كل حركة قد يخطر له القيام بها. وكأنه يريد إفهام القاوقجي، بأنهم قادرون في كل وقت أن يقضوا على كل حركة قد يخطر له القيام بها. وبالفعل فقد طبق هذا التهديد تدريجيًا، حتى جاء وقت لم يكن فيه لجيش الإنقاذ، من العتاد ما يكفيهِ للدفاع عن نفسه، إذا هو هوجم. وفوق ذلك فقد نشطت القيادات المحلية في فلسطين، المرتبطة رأسًا بسماحة المفتي، إلى العمل لعرقلة حركات جيش الإنقاذ، وبذر بذور التفرقة بينه وبين الفلسطينيين. بالإضافة إلى أن جيش الإنقاذ، كما يقول القاوقجي، كان يجهل تمامًا وضع اليهود، من حيث عدد المقاتلين، ومقدار أسلحتهم، ومدى استعدادهم، وكانت المعلومات التي ترددهم حول هذا الموضوع من مصادر متعددة متناقضة: فتارة تصل المبالغة في وصف قوة اليهود إلى حد يدخل الذعر في النفوس، وتارة كانت الأخبار تصورهم من الضعف بحيث يخيل للسامع أن العرب

(١) اعتمدت إسماً، على: قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٤ - ٣٣٩.

سيصلون في سباق إلى تل أبيب وبدون توقف.

وقد حاول القواقجي الحصول على معلومات يمكن الركون إلى صحتها عقلياً، فاجتمعت لديه المعلومات التالية:

أولاً: - جيش الهاغاناه - قيادته الدائمة - عدد الضباط ٥٠٠.

ثانياً: جنود الهاغاناه - عددهم ستون ألفاً، مقسمون كما يلي:

أ- خمسة عشر ألفاً تحت السلاح.

ب- خمسة وعشرون ألفاً مدربون، احتياط.

ج- عشرون ألفاً مسلحون، يستطيعون الاشتراك في القتال حين الطلب.

ثالثاً: قوى بوليس نظامية وإضافية خمسة آلاف (الإيرغون، وشتيرن عشرة آلاف).

السلاح:

١- كان لديهم مائة وخمسون مدفع هاون.

٢- مائة سيارة مصفحة تصفيحاً محلياً.

٣- دبابات إنكليزية وألمانية من بقايا العلمين وطبرق (لم يعرف عددها).

٤- متفجرات، حوالي خمسين طنّاً.

٥- عتاد يكفي لخمس أشهر قتال.

وفيما كانت لدى اليهود خطة محكمة للحرب، فإن المفتي أفسد الخطة التي وضعها جيش الإنقاذ، واستطاع تحويل كميات من مخصصات جيش الإنقاذ إلى ناحيته ليوزعها على جماعات معينة مرتبطة به.

وعند الخطوة العملية الأولى فوجئ القاوقجي، كما يقول، بتصريحات جديدة، على جانب كبير من الخطورة، وهي أن الجيش السوري نفسه غير مستعد للقتال، وأنه ينقصه السلاح والعتاد... وأن معارك أسبوعين أو ثلاثة تكفي لتستنفذ منه آخر طلقة... وبمثل هذا أخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها.

لقد أبدى القاوقجي خيبة أمله بسبب التصريحات الطنانة للزعامات العربية، التي كانت بهدف التضليل والتحذير والتجهيل ليس إلا، وكان العميدان طه الهاشمي ومحمود الهندي اللذين آلت لهما قيادة جيش الإنقاذ، بسبب انشغال القائد العام اللواء إسماعيل صفوة، يرفضون طلبات الكثير من المتطوعين الذين يأتون عن طريق القاوقجي.

كما يذكر القاوقجي، في تلميح يغني عن التصريح، محاولة كل من الهاشمي والهندي لتحميله مسؤولية أي تقصير في المعركة، حيث كانا يفرضان عليه الضباط والجنود الذين يختارونهما، ويقومان بتدريبهم وإعدادهم على طريقتهما، بحيث لا يتم الإتصال بينهم وبين القاوقجي إلا في ساعة المعركة، حيث لا يكون سواه مسؤولاً عنهم وعن حركاتهم وتصرفاتهم في ساحة القتال.

ويصف القاوقجي العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الإنقاذ

بأنه ضابط ركن جيد، ولكنه ليس قائداً. ومن هنا، كما يرى القوافجي، جاءت النظرية التي شكّلت سبباً من أسباب تأخر النجدة عن فلسطين، فقد كان المفتش العام يحب أن يسير في تدريب المتطوعين على أسلوب يتفق مع أسلوب تدريب الجنون، الذين جندتهم الخدمة الإجبارية. في حين أن دقة الظرف وخطورته في فلسطين تتطلب اختصار الوقت، والإسراع في النجدة، والاعتماد في إتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به، من جهة، وطبيعة المعارك التي سيخوضونها من جهة أخرى.

وكان سماحة المفتي ماضياً من بعيد في تأليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق، يسمي لهم قادة، أفراداً قد يكونون شجعاناً ولكنهم جهلاء، يحتفظ بهم للمستقبل. وأخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا (جنوب سوريا)، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه المجموعات التي تنتمي إلى سماحة المفتي، وقد عمل بهذه " النصيحة " كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين.

* * *

الفصل السابع عشر: جامعة الدول العربية والنكبة

هري فاروق

جاء تأسيس جامعة الدول العربية مع استفحال المعضلة الفلسطينية، وبداية العد التنازلي لإقامة دولة إسرائيل. وفي هذا البحث نتناول مواقف الجامعة في حرب ١٩٤٨، وأهم قراراتها، وأثر ذلك على القضية الفلسطينية.

نشأة الجامعة :

لقد كانت الجامعة العربية هدفًا تدعو لتحقيقه مختلف الروابط، والتنظيمات الشعبية القومية، خلال فترة كان فيها التيار القومي العربي تيارًا نشطًا، ولم يكن مفهوم الدولة القطرية قد ترسخ، وكان التركيز القومي على مفهوم الأمة العربية الواحدة، الممتدة من المحيط إلى الخليج. وأمام تزايد هذا الضغط، خلال الحرب العالمية الثانية، على حكومات المنطقة وكانت كلها تستند بشكلٍ أو بآخر على النفوذ الأوربي أقدمت بريطانيا على تشجيع الحكومات العربية على تبني فكرة إنشاء الجامعة^(١). حيث أعلنت الحكومة البريطانية تصريحًا، على لسان وزير

(١) د/علي الدين هلال، جميل مطر، النظام الإقليمي العربي/ دراسة في العلاقات السياسية العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، القاهرة، دار المستقبل العربي، ط٤، ١٩٨٣، ص١٣٩.

الخارجية، أنتوني إيدن، في ٢٩ مايو/ أيار ١٩٤١، بأنها تعطي كامل موافقتها لأية حركة تلقى التأييد العام، ويكون مقصوداً منها دعم الروابط الثقافية، والاقتصادية التي تربط البلاد العربية. وكان التصريح البريطاني الثاني، في ٢٤ فبراير/ شباط سنة ١٩٤٢، بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة تنشأ بين العرب، بغرض دعم وحدتهم السياسية، والاقتصادية.

بطبيعة الحال لم يكن غرض الحكومة البريطانية إرضاء التيار القومي العربي، أو تحقيق أهدافه، وإنما كانت محاولة لنقل المبادرة من الشارع العربي إلى الحكومات العربية، بحيث تكون الجامعة، في شكلها ومضمونها، جامعة دول وحكومات، تحرص على سيادة كل عضو فيها، وليس الجامعة التي دعا إلي تحقيقها التيار القومي العربي^(١).

تم التوقيع على ميثاق الجامعة العربية، في ٢٢ مارس/ آذار ١٩٤٥، وأصبح نافذ المفعول، ابتداء من مايو/ أيار ١٩٤٥. وذكر الميثاق الغرض الذي من أجله أنشئت الجامعة، وهو إيجاد أداة تهيئ للدول العربية إمكانية توحيد جهودها في سبيل تأمين مستقبلها، وتحقيق أمانها في البلاد العربية الأخرى^(٢).

فرز الأوراق:

ما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها (صيف ١٩٤٥)، حتى

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) وحيد الدالي، أسرار الجامعة العربية وعبد الرحمن عزام، مكتبة روز اليوسف، القاهرة، يناير/ كانون الثاني ١٩٨٢، ص ١٥.

دلفت القضية الفلسطينية إلى مرحلة فرز الأوراق، وبدء العد التنازلي لإخراج المشروع الصهيوني إلى العلن.

في المجال الدولي كان أول عمل شغل الجامعة التعامل مع لجنة التحقيق الأنغلو - أمريكية، التي بدأت عملها، في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٦. والسبب في إرسال هذه اللجنة هو مقابلة الصهيونية التلكو البريطاني إزاء المشروع الصهيوني، بشن هجمات مسلحة ضد الجند البريطانيين في فلسطين، وإنزال خسائر بشرية في أولئك الجند. ورضخت لندن، جزئياً، للضغوط الأمريكية، فشكّلت هذه اللجنة، التي أخذت على عاتقها النظر في دخول مائة ألف يهودي إلى فلسطين، وتسهيل انتقال الأراضي لليهود^(١). وتلقت الأمانة العامة للجامعة العربية، في ١١/٢/١٩٤٦ دعوة من اللجنة الأنغلو - أمريكية، للإدلاء بوجهة نظر الجامعة في قضية فلسطين، فضلاً عن سماع شهادات أهالي فلسطين العرب، وكذلك شهادات اليهود.

غادرت اللجنة فلسطين، في ٢٨ آذار/ مارس إلى لوزان في سويسرا، لوضع تقريرها النهائي. ورفضت اللجنة حل تقسيم فلسطين، لأنه غير عملي، كما رفضت الاقتراح بأن تكون فلسطين دولة عربية أو يهودية، وذلك بعد نقاشٍ دام ثلاثة أسابيع، ثم أصدرت اللجنة تقريرها، وتوصياتها، بالإجماع، وعندما نشرت اللجنة الأنغلو - أمريكية تقريرها، الذي أوصى بفتح أبواب فلسطين لمئة ألف مهاجر يهودي، فوراً، وبإلغاء

(١) عبد القادر ياسين، الحركة الوطنية الفلسطينية المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة، ط١، دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٦

القيود المفروضة على الاستيطان. تفجرت مشاعر الغضب في سائر أرجاء الوطن العربي، وعم الإضراب مدن فلسطين، وقراها^(١).

على إثر ذلك دعا فاروق، ملك مصر، إلى عقد مؤتمر قمة عربي، فالتأم المؤتمر المذكور، في أنشاص، يومي ٢٧، ٢٨ مايو/ أيار ١٩٤٦، وعرف باسمها. وبعد المداولة وجد العرب أنفسهم " متفقين، تمام الاتفاق، على أن البلاد العربية المشتركة في جامعة دولهم ترغب، رغبة أكيدة، في السلم الدائم بينها، وبين جميع دول العالم ". أما عن قضية فلسطين " هي قضية العرب جميعًا، وأن فلسطين عربية، ويجب على دول العرب وشعوبها صيانة عروبتها، وأنه ليس في إمكان هذه الدول أن توافق، بوجه من الوجوه، على أي هجرة جديدة، ويعتبرون ذلك نقضًا صريحًا للكتاب الأبيض(١٩٣٩)، الذي ارتبط به الشرف البريطاني " (٢). لم تمض عشرة أيام على مؤتمر أنشاص، حتى اجتمع مجلس الجامعة، في دورة استثنائية، للبحث في تقرير اللجنة الأنغلو - أمريكية، والرد عليه، وذلك في الثامن من حزيران/ يونيو ١٩٤٦، في بلودان بسوريا. كان للمجلس مجموعة من التعليقات على توصيات اللجنة، منها: تحيز عدد من أعضاء اللجنة الأنغلو - أمريكية إلى الجانب الصهيوني، وأن اللجنة جاءت لإقرار سياسة مرسومة سلفًا، مثل إقرارها هجرة مائة ألف يهودي، في ذلك العام، وأن اللجنة لم تعر الجامعة العربية ومصالح دولها أي اهتمام.

(١) مروة جبر، جامعة الدول العربية وقضية فلسطين (١٩٦٥، ١٩٤٥)، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٩، ص ١٧ - ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢ - ٢٣.

وكانت أهم القرارات:

- إرسال كتاب إلى الحكومة البريطانية، يطلب المفاوضة، طبقاً لميثاق الأمم المتحدة.

- إرسال مذكرة من كل دولة عربية إلى الحكومتين، البريطانية و الأمريكية، لإبلاغها خطورة الموقف في فلسطين.

فضلاً عن قرار باتخاذ التدابير الآتية:

أ - تأليف لجنة تدعى " لجنة فلسطين "، ممثلةً لجميع الدول العربية، ومقرها القاهرة، للإشراف على جميع الأعمال في فلسطين.

ب - دعوة الفلسطينيين إلى جمع كلمتهم، لتأليف هيئة عربية عليا، تعتمد الجامعة، للقيام بجميع الأعمال التي تهم عرب فلسطين.

ج - تأليف لجنة سياسية، لتنسيق العمل السياسي، وتوحيد الخط في السياسة الخارجية بين البلاد العربية.

د - قرار طلب تجريد اليهود من السلاح.

هـ - قرار العقوبات فيما يتعلق ببيع الأراضي لليهود في فلسطين.

و - توصية الحكومات والشعوب العربية بمساعدة المشاريع القومية لانقاذ أراضي فلسطين، ومساعدة عرب فلسطين.

أما القرارات السرية فكانت كما يلي:

١ - عدم السماح لبريطانيا والولايات المتحدة أو إحداهما، أو رعاياهما، بأي امتياز اقتصادي جديد.

٢ - عدم تأييد مصالحهما الخاصة، في أي هيئة دولية ومقاطعتهما،
مقاطعة أدبية.

٣ - إلغاء ما يكون لهما من امتيازات في البلاد العربية.

٤ - شكواهما إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة.

ذكر الدكتور فاضل الجمالي، وزير خارجية العراق، وعضو الوفد العراقي في تلك الدورة، أن فلسطين انتهت في مؤتمر بلودان، وأن قراراته كانت كالطبل الأجوف، وأنه حين اقترح استخدام سلاح النفط، قوبل بالرفض، وشطب الاقتراح من مضبطة الاجتماع، لأن ذلك كان مشروطاً باشتراك جميع الدول المنتجة للنفط^(١).

يتضح مما سبق أن القرارات كانت نظرية، كباقي قرارات جامعة الدول، وأنها لم تصل إلى حيز التنفيذ، وبقيت حبراً على ورق، ولم ترق إلى مستوى القضية، التي وصلت إلى مرحلة حادة، شددت فيها العصابات الصهيونية المسلحة معاركها ضد الجيش البريطاني، مطالبةً بمغادرته فلسطين، معلنةً تصميمها على إقامة الدولة اليهودية^(٢). وقد نتج عن هذه الحالة أن أصبح نشاط الدول العربية وقائياً سلبياً، فكلما أظهر الصهاينة وأعوانهم من البريطانيين نشاطهم، كانت تقوم ثورة كلية عربية في فلسطين، وتحتج البلاد العربية، ويقاطع العرب الحكومة المنتدبة، وتسارع الجامعة العربية للاستنكار، والاحتجاج، وتساعد الحكومات

(١) د. فاضل الجمالي، مقابلة معه في منزله بتونس، بتاريخ ١٠/٣/١٩٨٠. أوردته: جبر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥ - ٢٦.

العربية، ومجالسها النيابية، وهيئتها السياسية على أن هذه المساعي لم تخرج عن نطاق البلاد العربية ذاتها، بشكل واضح^(١).

الهيئة العربية العليا :

في منتصف عام ١٩٤٦، كانت الجامعة العربية تسعى لتكوين لجنة تمثل فلسطين، بدلاً من الاكتفاء بعضو واحد يمثلها في مجلس الجامعة، وكانت القوى السياسية الفلسطينية منقسمة إلى كتلتين كبيرتين: بقايا "اللجنة العربية العليا" و "الجبهة العربية العليا"، التي تكونت حديثاً. وعلى سبيل التسوية، دعا أمين عام الجامعة العربية كلا الفريقين، وبعد مشاورات تم التوافق على تأليف هيئة جديدة، نواتها أربعة أشخاص فقط، نصفهم من اللجنة العربية، والنصف الآخر من الجبهة العربية، وعرفت اللجنة الجديدة باسم "الهيئة العربية العليا".

تقدمت "الهيئة العربية العليا" باقتراح إلى دول الجامعة العربية، لتأسيس حكومة لفلسطين، يلتف حولها الشعب الفلسطيني، وبعد أن أعلنت بريطانيا عن رغبتها في إنهاء الانتداب، طلبت "الهيئة" من جامعة الدول العربية ودولها دعم قرارها، لتشكيل حكومة فلسطينية، ومساعدتها على تنفيذه. ورغم عرض الفكرة، ومناقشتها مراراً، في الجامعة العربية، إلا أن الدول العربية لم توافق، يومئذٍ على إنشاء حكومة فلسطينية^(٢).

(١) العميد محمد فائز القصري، حرب فلسطين عام ١٩٤٨ - الجزء الأول الصراع السيا سي بين الصهاينة والعرب، ط١، دار المعرفة، القاهرة، يوليو/ تموز. ١٩٦١.
(٢) أمل خليفة، ماذا حدث في فلسطين ١٩٤٨، الجزء الثاني، ط١، الإسكندرية، دار المدائن، ٢٠٠٣، ص ١٠٧ - ١١٠.

الادارة المدنية:

صدر قرار إنشاء الإدارة المدنية الفلسطينية من جامعة الدول العربية، في ٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨، وقد نص القرار على أن تتكون من مجلس للإدارة، قوامه تسعة أفراد، كما نص القرار على أن تكون مهمتها الشؤون الإدارية المدنية العامة، من غير أن يسمح لها بالتدخل في الشؤون السياسية أو العسكرية للبلاد، على أن تكون هذه الإدارة تابعة للجامعة العربية، تبعيةً مطلقة، فالجامعة هي التي تعين أفرادها، وتحدد صلاحياتهم، وتمول نشاطها. وقابلت " الهيئة " هذا القرار بعدم الارتياح، إذ أن هذه الإدارة مقيدة الصلاحيات، وتابعة للجامعة العربية، ودولها، المشاركة في حرب فلسطين.

بعد اجتماع بلودان، أخذت لجنة فلسطين - المشكلة بناءً على أحد قرارات بلودان - اجتماعها في القاهرة والاسكندرية. وفي هذه الأثناء، قبلت الحكومة البريطانية الدخول في المفاوضة مع الدول العربية، استجابةً لطلب الأخيرة. وبتاريخ ١٩٤٦/٨/١ أبرقت الأمانة العامة للجامعة إلى الدول الأعضاء لإبلاغها بضرورة اجتماع ممثلها في " لجنة فلسطين ".

عقد اجتماع وزراء خارجية الدول العربية، في مدينة الاسكندرية، بتاريخ ١٩٤٦/٨/١٢. وقرر الوزراء أن توفد كل دولة عربية إلى لندن مندوبين عنها للمفاوضة، مفاوضةً حرة غير مقيدة، إلا بقرارات مجلس الجامعة، ودورته الاستثنائية في " بلودان "

سافر ممثلو الدول العربية إلى مؤتمر لندن، الذي افتتح في

١٠/٩/١٩٤٦، حيث عرض الجانب البريطاني تصوره لحل المشكلة، فيما سمي "مشروع موريسون" الذي تضمن الاتجاه السريع نحو إقامة الحكم الذاتي، وانحصر في صياغة دستور للبلاد، بشكل يعطي كلاً من الفريقين أعظم قسط ممكن من السلطة لإدارة شؤونه.

نجد في هذا المشروع أنه يوقع بالعرب أضرار فرض التقسيم، وحرمان العرب من النقب، دون وجه حق، والسماح بهجرة مائة ألف يهودي، فوراً، وسلب عرب فلسطين خيرة أراضيهم، ثم تراجع بريطانيا عن سياستها المتمثلة في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، ورفض العرب المشروع، رفضاً قاطعاً^(١). وعند ذلك أعلن أرنست بيفن، وزير الخارجية البريطانية، أن حكومته، لا تتمسك بمشروع موريسون، وهاجم "الكتاب الأبيض"، الذي سبق أن أصدرته الحكومة البريطانية، عام ١٩٣٩، وطلب بيفن من العرب أن يضعوا حلاً بديلاً. وقد اجتمعت الوفود العربية بدار السفارة المصرية، في ١٦ أيلول/ سبتمبر، وقررت تأليف لجنة فرعية، للرد على الوفد البريطاني، وأعدت اللجنة الفرعية مقترحاتها، التي عرضتها على الوفود العربية، في ١٩ أيلول/ سبتمبر فوافقت الوفود عليها بالاجماع. وعند عرض هذه المقترحات على المؤتمر، تقرر أن تتشكل لجنة فرعية من الجانبين، العربي والبريطاني، وأتمت اللجنة تقريرها، وعرضته على المؤتمر في ٢/١٠/١٩٤٦.

رفض الصهاينة "مشروع موريسون"، كما رفضه العرب، فيما اتصل بعض زعماء الصهاينة بالحكومة البريطانية، بصورة غير رسمية،

(١) جبر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧ - ٢٩.

وتقدموا بمشروع بديل، على أساس دولة مستقلة، على ٦٥% من مساحة فلسطين، تشمل الجليل، وصحراء النقب، والسهول والمناطق الغربية والساحلية^(١).

ابتدأت الدورة الثانية لمؤتمر لندن، بتاريخ ١٩٤٧/١/٢٧، وقد حضر من الجانب العربي ممثلو دول الجامعة العربية السبع، إلى جانب وفد يمثل عرب فلسطين. وعندما تكلم بيفن، رفض المشروع العربي على أنه مستحيل التنفيذ، كما بين بيفن أنه يرفض المطلب الصهيوني بأن تكون فلسطين بأكملها يهودية. إلا أنه لم يستبعد إمكانية التقسيم. كذلك ألح بيفن على إمكان عرض الموضوع على الأمم المتحدة.

بتاريخ ١٩٤٧/٢/٧، قدم الوفد البريطاني مذكرة، أرفق بها مشروع كأساس للمفاوضات بشأن مستقبل فلسطين عرف بمذكرة بيفن، ورد العرب على مذكرة بيفن بأن الوفود العربية مقتنعة بأن المشروع الذي قدمته هو الأكثر عدلاً، وهو الممكن عملياً، وأن الوفود العربية ترفض التقسيم، بالإجماع وستقاومه بكل قوة، وإن لم يوجد حلّ عادل للمشكلة، فمن العسير على الحكومات العربية أن تصون السلام.

في ٤ شباط/فبراير، أعلن بيفن أن الحكومة البريطانية تعترف، لأول مرة، في تاريخها، بأنها تخفق في الوصول إلى حل مشكلة كهذه، وفي ١٩٤٧/٢/١٨، أعلن وزير الخارجية البريطانية في مجاس العموم البريطاني: بأنه يواجه مشكلة نزاع مبادئ غير قابل للتسوية، وأنه خلص

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣٢.

إلى نتيجة أن الطريق الوحيد هو طرح المشكلة على الأمم المتحدة^(١).

لم تر الدول العربية أي مبرر لرفع القضية إلى الأمم المتحدة، إلا لإعلان فلسطين كبلدٍ عربيٍّ مستقلٍّ، وفي حالة الإخفاق فإن الجامعة العربية مضطرة إلى تنفيذ قرارات بلودان السرية، وبدأت الوفود العربية بإنشاء لجنة ومكتب في نيويورك لإعداد الوثائق والدعاية، وقامت باتصالاتٍ رسميةٍ، وصحفيةٍ، من أجل قضية فلسطين. إلا أن النشاط الإعلامي لم يكن يقاس بنشاط الصهيونية في هذه الدورة للأمم المتحدة، فقد أخفق المندوبون العرب في محاولة تفادي تأليف لجنة تحقيق دولية، كما أخفقوا في جعل إعلان استقلال فلسطين من مهمات اللجنة. قامت لجنة التحقيق الدولية بزيارة فلسطين، والأقطار العربية المجاورة، وأوصى أكثر أعضاء اللجنة بتقسيم فلسطين إلى دولتين، وجعل منطقة القدس دولية، واستنكرت الحكومات والشعوب العربية، ما جاء في التقرير.

اجتمعت اللجنة السياسية العربية في صوفر بلبنان، في أيلول/سبتمبر ١٩٤٧، وحضر الاجتماع رؤساء الوزارات العربية. وتكمن أهمية هذا الاجتماع في انعقاده قبل بضعة أيام من انعقاد دورة الأمم المتحدة. وأسفر الاجتماع عن تأكيد عزم الدول العربية على تأييد عرب فلسطين، وإرسال مذكرات إلى حكومتي بريطانيا، والولايات المتحدة، تحذرهما من أن أي قرار لا ينص على قيام دولة عربية في فلسطين يهدد بإثارة اضطرابات خطيرة في الشرق الأوسط. كما أسفر الاجتماع عن قرارات بتقديم معونة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٣٤.

لأهل فلسطين، وتألّف لجنة فنية لدراسة حاجات فلسطين، ووسائل دفاعها، وعرض التقرير على مجلس الجامعة. وقد تألّفت اللجنة من مندوبين عن الحكومات العربية، برئاسة اللواء اسماعيل صفوت.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، اجتمعت الوفود العربية في عاليه، ولم تتخذ قرارات أبعد من قرارات صوفر. إلا أنه في الجلسة الأخيرة، قدمت اللجنة الفنية تقريرها، الذي تضمن تحليلاً عسكرياً عن فلسطين، جاء فيه:

- للصهيونية في فلسطين منظمات وتشكيلات عسكرية وسياسية وإدارية على درجة من التنظيم، مما ييسر لها أن تنقلب فوراً إلى حكومة صهيونية.
 - اللجنة تقترح المبادرة حالياً بدعوة المتطوعين، وتسليحهم، وتدريبهم، بواسطة الدوائر الحكومية والهيئات، المنظمات الشعبية.
 - الدول العربية تقوم بحشد قواتها في المناطق القريبة من حدود فلسطين.
 - قيادة عربية عامة تشكل فوراً.
 - عرب فلسطين يزودوا بكميات كافية من الأسلحة.
 - اليهود يجابهوا بقوات نظامية مدربة.
- كما عقد مؤتمر ضم رؤساء أركان حرب الجيوش العربية، للمداولة،

وبعد أن ناقش مجلس الجامعة تقرير اللجنة المشار إليه، اتخذ قرارًا يتضمن تأكيد قرارات بلودان، ووجوب تنفيذها، وأن الحالة في فلسطين تستلزم قيام جامعة الدول العربية باتخاذ احتياطات عسكرية على حدود فلسطين، وأن تيسر الدول المتاخمة لفلسطين سبيل الاشتراك والتعاون في هذا الواجب بالاتفاق فيما بينها.

في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة توصية لجنة التحقيق الدولية بتقسيم فلسطين دولتين، وقد شهدت القاهرة اجتماعات عديدة للجنة السياسية للجامعة العربية فيما بين ٨ - ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧. واستنكرت تلك الاجتماعات التقسيم، وأعلنت العزم على مقاومته^(١).

اضطرت لجنة الأمم المتحدة لفلسطين، والتي ضمت ممثلين عن (بوليفيا، تشكوسلوفاكيا، الدنمارك، بنما والفلبين) التي نص عليها قرار التقسيم، أن تعلن عن يأسها من قدرتها على تنفيذ قرار الأمم المتحدة، ما لم تسندها قوة دولية.

وكان لشهادة رئيس لجنة التقسيم، وللوضع الخطير الذي تردت فيه الأوضاع في فلسطين أثر بالغ في تراجع بعض الدول المؤيدة لقرار التقسيم عن موقفها السابق، وأهمها قرار الولايات المتحدة، الذي طرحت اقتراح وضع فلسطين تحت الوصاية، وإعادة القضية إلى الأمم المتحدة، ودعوة الطرفين إلى هدنة في فلسطين.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦ - ٣٩.

رفضت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، في اجتماع عقدته، في نيسان/ إبريل ١٩٤٨، اقتراح وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية، وجاء في قرارها: "إن الوصاية الدولية نظام مؤقت سيزيد اليهود خلاله قوة، ويعطيهم وقتًا لتأمين تفوقٍ لهم على تفوق العرب الحاضر". وكذلك رفضته "الوكالة اليهودية".

نتيجة لذلك أكد مجلس الأمن، في الأول من نيسان/ إبريل ١٩٤٨ قرار إعادة القضية إلى الجمعية العامة، ودعوة العرب واليهود إلى هدنة، ودعوة الجمعية العامة إلى دورة استثنائية، كما اتخذ في ١٩٤٨/٤/٢٣، قرارًا بإنشاء لجنة هدنة مكونة من ممثلين لأعضاء مجلس الأمن، الذين لهم قنصل في القدس. كما عقدت الجمعية العامة، في ١٩٤٨/٤/١٦، دورة استثنائية، واتخذت في ١٩٤٨/٥/١٤ - حيث لم يبق على نهاية الانتداب إلا ساعات - قرارًا تضمن تعيين وسيط مفوض من هيئة الأمم المتحدة، يشمل نشاطه جميع فلسطين، ويختاره ممثلو الدول الخمس الكبرى^(١).

وقع قرار التقسيم:

لقد اختلفت الحكومات العربية بين رأيين: بين القبول بالتقسيم، وبين استخدام القوة لرفض التقسيم، وكانت الجامعة العربية ترفض التقسيم. لقد كان أصحاب الرأي الأول يرون بأن إمكانات العرب لا تكفي لكسب حرب حقيقية يخوضون غمارها، وسيخسر العرب، لأن الدول الكبرى، وفي مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة، قد تمد يد المساعدة للصهاينة

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠ - ٤١.

وتزودهم بالسلاح، إذا طلبوه، كما تمدهم بالمال. وبأن الحكمة تقضي أن يقبل عرب فلسطين التقسيم، وأن يترشوا، ويتشاوروا مع الحكومات العربية، لمعالجة القضية دبلوماسيًا، ولكن القائلين بهذا الرأي لم يستطيعوا أن يجاهروا برأيهم، كي لا يتهمون بالخيانة والانهازمية. والقسم الآخر كان يرى أنه لا بد من خوض المعركة، على الفور، لأن الغرب يخضع للأمر الواقع، أكثر مما يصغي لصوت الحق، والضمير. والوقت ثمين، لا يجوز إضاعته بالمناقشة والتصاريح. الصهاينة بحاجة إلى سلاح ورجال، فلا بد من مباغتتهم، قبل أن يستعدوا، وأن الانتظار خمسة أشهر، حتى يجلو الإنجليز خطأ جسيم، وأن الكفاح يجب أن يركز على أهل فلسطين الذين ينالون الإمداد من الجيوش العربية^(١).

الدول العربية عشية الحرب:

كانت الظاهرة الأساسية لهذه العلاقات انقسام الحكومات العربية الفاعلة إلى كتلتين: الأولى الكتلة الهاشمية، التي ضمت العراق، وشرق الأردن، والثانية الكتلة التي ضمت كلاً من سوريا، ولبنان، ومصر، والسعودية. وكانت عواصم كلا الكتلتين تنظر بعين الشك والريبة إلى عواصم الكتلة الأخرى، علماً بأن العراق كان يتنازعه تياران: أحدهما مال إلى التعاون المحكم مع الشقيقة (الأردن)، وثانيهما كان أميل إلى مد الجسور إلى العواصم غير الهاشمية، وخصوصاً فيما يتعلق بفلسطين. وكان مصدر الشك والريبة الأكبر في عواصم الكتلة الثانية، "مشروع سوريا الكبرى" لضم كل من سوريا، ولبنان، وفلسطين، وشرق الأردن

(١) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩ - ١٠٠.

في كيانٍ واحد يدخل في اتحاد مع العراق تحت الرعاية الهاشمية، بالتفاهم مع بريطانيا^(١).

الجامعة والاعداد للحرب:

ليس هناك ما يبرر القول بأن الدول العربية، حين دخلت الحرب، لم تكن على معرفة، ودرايةٍ بقدرة الصهاينة، بعد أن أوضح تقرير اللجنة العسكرية، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧. تفوق الصهاينة في جميع المجالات، إلا إذا كانت تلك الدول قد اعتبرت أن المقارنة في التقرير بين الصهاينة، وعرب فلسطين فحسب، فكانت الاستهانة بالصهاينة وتنظيماتهم، واعتبروا قرار حشد الجيوش العربية مجرد تظاهرة استعراضية، سوف ترهب الصهاينة. حيث كان رأي رئيس الحكومة المصرية آنذاك، محمود فهمي النقراشي: " أريد ان يكون معلوماً من الجميع أن مصر، إذا كانت توافق على الاشتراك في هذه المظاهرة العسكرية، أي الحشد على الحدود، فإنها غير مستعدة قط للمضي إلى أكثر من ذلك."

وبالرغم من أن اللجنة العسكرية قد قررت، في ١٠/٦ / ١٩٤٧، تشكيل " جيش الإنقاذ"، فإن هذا القرار النظري لم يطبق، عملياً، بالسرعة المطلوبة، ولم يعين قائد " جيش الإنقاذ" إلا في ١٢/٧ / ١٩٤٧، أي بعد مرور شهرين، شهد كل يوم منهما تقدماً لصالح العدو. فقد كانت تلك الفترة من أدق وأحرج الفترات التي أثرت، تأثيراً سيئاً، في الموقف العربي بفلسطين، وعلى موقف الجامعة التي دخلت بقرار اللجنة

(١) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

العسكرية، المعركة في فلسطين، وأصبحت تلك اللجنة تشرف على القوات غير النظامية العاملة في كافة ميادين القتال هناك، قبل انتهاء الانتداب البريطاني.

أما مسألة دخول الجيوش النظامية الحرب، فقد بدأت الدول العربية، الأعضاء في الجامعة، تتخذ الاستعدادات في شهر نيسان/ إبريل ١٩٤٨، لدخول قواتها فلسطين، بعد أن تنسحب القوات البريطانية منها، بتاريخ ١٥/٥/١٩٤٨. وفي ١٢/٤/١٩٤٨، عقدت اللجنة السياسية للجامعة اجتماعاتها في القاهرة، وقابل الملك فاروق رؤساء الوفود في قصر عابدين، وطلب من رئيس ديوانه أن يتلو البيان، الذي جاء فيه: " إذا دخلت جيوش عربية فلسطين يجب النظر إلى هذا التدبير كحل مؤقت خالٍ من صفات الاحتلال أو التجزئة لفلسطين، وأنه بعد تمام تحريرها تسلم إلى أصحابها يحكموها كما يرون ". وإلى جانب هذا أقرت اللجنة السياسية، في الوقت عينه، عددًا من الإجراءات، لضمان سلامة الجيوش الزاحفة منها، ما يلي (١) :

- ١- إعتبار الجيوش العربية هي الوسيلة الوحيدة الصالحة لحماية عرب فلسطين، وإنقاذ عروبتها.
- ٢- حل جميع المنظمات الشعبية في فلسطين، وتوقف نشاطها، وإبعادها عن ميدان المعركة.
- ٣- عزل جميع الأحزاب والهيئات السياسية الفلسطينية عن مباشرة

(١) خليفه، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤ - ص ١١٣.

القضية، أو الاشتراك في العمليات العسكرية.

٤- وضع خطة عسكرية مشتركة لجميع الجيوش العربية في فلسطين، وتكوين قيادة عامة، واختيار القائد الأعلى للجيش الأردني رئيساً لهذه الهيئة.

رافق هذا القرار إعلان حالة الطوارئ، والأحكام العرفية في الدول العربية، بحجة حماية المجهود الحربي.

موقف الجامعة من قيام الكيان الصهيوني:

في ١٤ - ١٥ آيار/ مايو ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين، وأعلنت الهيئة التنفيذية " منهلت هعام " الصهيونية في تل أبيب قيام دولة عبرية باسم " إسرائيل " ^(١)، واعترف الرئيس الأمريكي، هاري ترومان، بدولة إسرائيل خلال ١١ دقيقة من إعلانها، وتبعته العديد من دول العالم، واعترفت بالكيان الصهيوني. واستقبل ترومان الزعيم الصهيوني، حاييم وايزمن، في البيت الأبيض، في ٢٥ آيار/ مايو، وبحثاً، فيما بحثاً، تقديم قرض من واشنطن الى تل أبيب، بقيمة ١٠٠ مليون دولار ^(٢).

موقف الجامعة من الهدن:

في ٢٩ مايو/ آيار ١٩٤٨، طلب مجلس الأمن وقف جميع أعمال القوات المسلحة (أربعة أسابيع)، وكان ذلك بعد استسلام الحي اليهودي

(١) وليد الخالدي، خمسون عاماً على حرب ١٩٤٨، أولى الحروب الصهيونية - العربية، ط، ١، دار النهار، بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر، ١٩٩٨، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧.

في القدس للقوات الأردنية. وقد وافقت مصر على قبول الهدنة، وامتنع عبد الرحمن عزام، الأمين العام لجامعة الدول العربية، عن حضور اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة التي عقدت في عاليه بلبنان، احتجاجاً على قبول الدول العربية الهدنة، واتصل عزام باللجنة، وأوضح وجهة نظره، وبالرغم من تحذير الأمين العام فإن الدول العربية قد قبلت الهدنة، وكانت الأمم المتحدة قد عينت، يوم ٢٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، الكونت فولك برنادوت وسيطاً دولياً لحل الخلاف بين العرب واليهود، ولقد انقسم العرب على أنفسهم، بسبب قبول، أو رفض الهدنة، وكان من نتيجة ذلك أن ظل كل جيش في موقعه، يعمل لحسابه، منفرداً، وانحلت " القيادة العربية المشتركة "، وبدأت الذخيرة في التناقص بشكل متواتر، وتغير الموقف.

في ٢٧ يولية/ حزيران ١٩٤٨، اجتمع برنادوت بممثلي العرب والصهاينة، كل على انفراد، وعرض عليهم عدة مقترحات، رفضتها جامعة الدول العربية، في مذكرة بعث بها الأمين العام. وفي ٨/٧/١٩٤٨، اجتمعت اللجنة السياسية في الجامعة العربية، وقررت رفض اقتراح الوسيط الدولي بمد أجل الهدنة. وفي هذا الجو العربي المضطرب، بدأت الجولة الثانية من القتال، والتي استمرت من ٨ - ١٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨، وانتهت بتقهقر الجيش المصري إلى غزة وهو الخط المتفق عليه، كمشروع للتقسيم، وكانت الهدنة الثانية، في ١٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨، وفقاً لقرار مجلس الأمن الدولي، وبصدور هذا القرار اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية في بيروت، وصدر قرار بقبول

الهدنة^(١).

شهادات على حرب ١٩٤٨:

يروى الفريق أول صالح الجبوري، رئيس أركان الجيش العراقي، وأحد الحاضرين في أول مؤتمر عسكري لرؤساء أركان حرب الجيوش العربية، الذي عقد في عمان، في ٣٠ نيسان/ إبريل ١٩٤٨، في مذكراته ما يلي: (٢)

” اجتمعنا بعد ذلك مع السياسيين، وبيننا لهم القوات الجاهزة للعمل في كل جيش، كما ذكرها ممثلو الجيوش، وكذلك ذكرنا القوات المطلوبة للقيام بالواجب، كما يتطلبه الوضع القائم.

واستنكر السياسيون هذه القوات، ولم ترق لهم النتائج التي توصل إليها العسكريون، وقال بعضهم: ” بأن العسكريين يعطون أهمية زائدة إلى قوة الصهاينة، ويبالغون في تقدير القوات المطلوبة ”.

” وأوضح العسكريون بأن الموقف، من الوجهة العسكرية، يجعل القوات التي اتفق عليها العسكريون ضرورية، إذا ما أريد تطهير فلسطين حقيقة، والوصول إلى نتائج إيجابية مرضية ”، ” وبين العسكريون بأنه لا أمل في القيام بحركات سريعة وناجحة، بدون وجود هذه القوات، وأن الزمن ليس في جانب العرب، وأن العدو يزداد قوةً وشدةً، بمرور الزمن، وكلما عجل العرب بإنزال ضربتهم، كان الأمل بالحصول على نتائج

(١) الدالي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٢) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢.

حسنة ومستمرة.

” وصرح أحد المسؤولين عن السياسة العربية العامة، بأن علينا أن نقاتل بضعة أيام، ثم لا بد وأن تتدخل بعدها هيئة الأمم المتحدة في الموضوع، وهكذا سوف لا يستمر القتال طويلاً، وتحل القضية سياسيًا.

” ورد أحد العسكريين بأن من يقدم على القتال يجب أن يحسب كافة الحسابات، وأن لا يعلق مصير ونتائج الحركات العسكرية على الاحتمالات السياسية، وماذا تكون النتيجة لو دخلنا القتال غير متخذين له الأهمية الكافية، معتمدين على تدخل هيئة الأمم المتحدة، ولم يتحقق تدخل هيئة الأمم المتحدة المنتظر؟ هذا بصرف النظر عن القول بأن مثل هذا التدخل قد لا يكون لصالح العرب.

” وعليه يجب أخذ أسوء الاحتمالات بنظر الاعتبار، وإشراك جميع الجيوش العربية با لقتال يوم ١٥ مايو/ أيار ” على أن الاجتماع مع السياسيين انتهى على أساس ” أن تباشر قوات الجيوش العربية المتيسرة القتال، وتستمر فيه، وأن هذه القوات ستزداد تدريجيًا ”.

ولم يكن رأي الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين ورأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك دخول الجيوش العربية فلسطين، ” بل كان رأيي أن يقوم أهل فلسطين أنفسهم بالدفاع عن بلادهم، مؤيدين بمساعدة الأقطار العربية بالأسلحة والذخائر والأموال والخبراء العسكريين والمتطوعين ”. أردف الحسيني: ” لم أعلم بعزم الجيش المصري على التدخل إلا قبيل دخوله بوقتٍ قصيرٍ جدًا، فقد كنت في دمشق في شهر

مايو/ آيار ١٩٤٨، بمناسبة اجتماع اللجنة السياسية لجامعة الدول، فسمعت ذلك من الإذاعة وقرأت الخبر في الصحف هناك ” (١)

أما عن رأي عزام فكان: ” نحن العرب دخلنا فلسطين، ونحن أقوى عددًا وعدة من اليهود، بل أنا واثق أنه فيما يتعلق بالمدفعية، مثلاً، كانت مدفعية أي جيش عربي من الجيوش الكبيرة الزاحفة، أقوى وحدها من مدفعية اليهود كلها ” وأستطرد عزام: ” ولقد أيقنت أن الجيش الأردني، مثلاً، سوف يدخل، ولكن الذي لم يخطر بخيالي أن الجيش الأردني سوف يلزم نشاطه حدود التقسيم، ولا يتعداها، ثم ترتب على ذلك أخطر النتائج ” (٢)

مما سبق من حديث نستنتج التالي، عن الطرف العربي في حرب ١٩٤٨:

في المجال السياسي كان الخلل القاتل في تغيرات القيادة الموحدة، والرؤية الموحدة، والهدف الواحد، والتنسيق العسكري، والتكامل في العمليات الحربية، وتفرغها من مضمونها، وضياع أثرها. وبالنسبة للحكومات العربية لم يكن ثمة هدف واحد، وإنما أهداف، على نقيض بعضها البعض ” (٣)

على المستوى الشعبي لم يكن في فلسطين، وفي البلاد العربية، هيئات قومية توجهها، التوجيه الصحيح، وتستطيع أن تقود الرأي العام،

(١) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش - كذلك انفجر الصراع في فلسطين - (١٩٤٨ - ١٩٩٨) قراءة في يوميات الحرب، ط١، القاهرة دار الشروق، ص ٤٣٩ - ٤٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٨ - ٤٥٠.

(٣) الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

وترشده بصراحة، وإنما كانت الصحافة تتولى هذا الواجب، وتقوده، باتجاه يخالف الواقع، والحقائق الراهنة^(١).

وبينما كان الصهاينة يعملون بقوة، وتصميم، بوحي من مصالحهم العامة، وتنفيذاً لبرنامجهم الصهيوني الخطير، كان بعض المسؤولين في بعض الدول العربية يعملون إما بوحي من الاستعمار الأجنبي، أو بتأثير مصالحهم الخاصة. وقد نتج عن تضارب الأهواء والمصالح، وتباين الغايات، والأهداف، والتخاذل بين دول الجامعة، وقوع هذه الكارثة الأليمة. إن الضغط الاستعماري الأجنبي على بعض الأقطار العربية جعل قيادتها السياسية في معركة فلسطين في يد عددٍ من الساسة البريطانيين، كما جعل قيادتها العسكرية الحقيقية في يد الجنرال الإنجليزي جلوب، أيضاً! فكيف النصر لمن سلم مقاليد أموره لخصومه؟! (٢)

المتتبع لنشأة الجامعة يجد أن القضية الفلسطينية، آنذاك، كانت أهم ما يشغل بال الاستعمار البريطاني في المنطقة العربية، كما ساء حال العرب في فلسطين، وتردت أوضاعهم السياسية، خلال تلك الفترة نتيجة اعتقال، وتشريد معظم قادة الحركة الوطنية، وبسبب الإجراءات البريطانية التعسفية ضد العرب، كما أن النشاط الصهيوني في تلك الفترة، أصبح واضحاً في كل الميادين. كل هذه العوامل واجهت تأسيس الجامعة، فخلقت لقيامها شتى التفسيرات والأسباب من جهة، ووضعتها وجهاً لوجه

(١) القصري، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.

(٢) هيكل، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٠ - ص ٤٤٦.

أمامها، فظهرت الجامعة وكأنها خلقت لقضية فلسطين. ومنذ إعلان ميثاق الجامعة أصبحت الجامعة هي الناطقة باسم فلسطين، وهي المسيطرة، والموجهة لحركة الكفاح العربي، سواء على الصعيد الدولي أو العربي، وسواء في الميدان السياسي أو العسكري^(١).

إن المتتبع لقرارات الجامعة، في تلك الفترة يجد أن حماسة الملوك والرؤساء، التي بلغت الذروة في أنشاص، وقراراتهم الخطيرة، التي تجاوزت مع رغبات الشعب العربي وشعوره، وحملت بريطانيا وأمريكا على التظاهر بالرجوع عن محاولتهما لتقسيم فلسطين، لم تحافظ تلك القرارات والحماسة التي رافقتها على مستواها الصحيح طويلاً، حيث جاءت قرارات بلودان مفاجأة للرأي العام العربي فكانت سياسية، وعامة، ولا تختلف عما سبقها في شيء، إن لم تكن قد أضعفت الموقف الشعبي في فلسطين. أما القرارات السرية، فلم يكن أثرها بأحسن من أثر القرارات العلنية، فقد ظهر، فيما بعد، أنها كانت معروفة من قبل المخابرات البريطانية، والأمريكية، والصهيونية بعد اتخاذها مباشرة، على الرغم من احتياطات الأمن، والسرية التي أحاط بها مجلس الجامعة اجتماعاته، وكيف لا تعرفها بريطانيا، وأكثر من دولة من الدول المجتمعة مرتبطة بها، عسكرياً، وسياسياً، ومن غير المعقول، قطعاً، أن لا تتخذ بريطانيا كل الاحتياطات اللازمة لاحباط هذه القرارات، سواء بواسطة أصدقائها من العرب، أو عن طريق شريكها الصهيونية، وحليفها أمريكا.

(١) شفيق الرشيدات، فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً، ط ٢، القاهرة، دارالكاتب العربي، ١٩٦٨، ص ٢٣١ - ٢٣٣.

في مؤتمر فلسطين في لندن سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦، رفضت بريطانيا المشروع العربي، وأصرّت على تبني مبدأ تقسيم فلسطين، وقيام دولة إسرائيل، على الرغم مما في هذا المشروع من تنازلات من قبل العرب. وكان الرأي العام العربي ينتظر رد فعل من قبل الجامعة، ولكنه لم يتخذ أي إجراء اقتصادي، أو سياسي، واستمر البترول العربي يتدفق لحساب الدولتين، واستمرت الامتيازات الاقتصادية تمنح لهما.

وبينما كانت بريطانيا تدرب العصابات الصهيونية المسلحة في فلسطين، بينما أمريكا تغذي تلك العصابات بالمال، والسلاح، والمهاجرين لم تتدخل الجامعة حيال ذلك الأمر بأي إجراء إلا بالخطب والتصريحات المخدرة لشعب فلسطين^(١).

أما قرارات مؤتمر صوفر، التي جاءت على الرغم من تأخرها مطمئنة بعض الشيء، ولكن رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين أعلن عدم ثقته بنوايا بعض الحكام العرب، وبخططهم الرامية إلى تجريد الحركة الوطنية الفلسطينية من حقوقها في قيادة الكفاح الوطني، وربط بين ذلك، وبين خطط الاستعمار، والصهيونية، التي تسعى لعزل الفلسطينيين عن قضيتهم، وتسليمها للجامعة العربية، لما في مثل هذا الإجراء من إضعاف لحركة الكفاح، وسهولة توجيهه بحكم العلاقات القائمة بين بريطانيا، وبعض الحكام العرب، ولقد أثبتت الأحداث بأن الحركة الوطنية الفلسطينية كانت على حق في تقديراتها.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٤ - ص ٢٤١.

كان قرار التقسيم صدمةً عنيفةً للعرب في فلسطين وفي كل البلاد العربية، وكان الاجتماع، الذي عقد في القاهرة، في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨، وكان النداء الذي جاء فيه نص استعراض تقليدي لحقوق العرب في فلسطين، والذي لم يشر إلى اتخاذ أي قرار من القرارات التي هددت الجامعة باتخاذها ضد بريطانيا، وأمريكا في اجتماعاتها السابقة في صوفر، وعاليه، وبلودان، وكان القرار العملي الوحيد هو معونة عاجلة لأهل فلسطين من سلاح، ومال. وكانت تلك قرارات سابقة في صوفر، وعاليه، فكان كل ما زاده مجلس الجامعة هو تقدير عدد الرجال الذين يجب إرسالهم إلى فلسطين، بثلاثة آلاف متطوع، تتولى لجنة الجامعة العسكرية توزيعهم في جبهات فلسطين. وبالرغم من أن مجلس الجامعة درس تقرير لجنته، الذي كان في أيلول/سبتمبر ١٩٤٧، والذي قدر القوات الصهيونية، وبالرغم من معرفة مجلس الجامعة بأن ليس في فلسطين، آنذاك، أية منظمات عسكرية عربية، وبالرغم من معرفة الجامعة بأن بريطانيا دأبت من ثورة ١٩٣٦ العربية في فلسطين، على جمع الأسلحة من الأهالي العرب، تحت طائلة الحكم بالإعدام، والأشغال الشاقة، إزاء هذا كله ماذا كانت تفيد (١٠ آلاف بندقية، وثلاثة آلاف متطوع) لعرب فلسطين في المقاومة، ومجابهة القوات الصهيونية المدربة، والمسلحة من قبل بريطانيا، وأمريكا؟! وحتى هذه المساعدة بالأسلحة ليست سوى بنادق قديمة، ومن عيارات مختلفة، لا تصلح لأن تكون سلاحاً لقوات محاربة، تواجه جيشاً منظماً، ومسلحاً بأحدث الأسلحة. ونتيجةً للأوضاع في فلسطين، وأمام مقاومة العرب، صرح

مندوب أمريكا " وارن أوستن " في ١٩ مارس/ آذار ١٩٤٨، سحب حكومته لتأييدها قرار التقسيم، لعدم إمكان تنفيذه إلا بالقوة. واقترح وضع فلسطين تحت الوصاية، وإعادة القضية للأمم المتحدة، ودعوة الطرفين إلى هدنة في فلسطين، ورفضت الجامعة هذا القرار كما رفضته " الوكالة اليهودية ". لقد كان قرار مجلس الأمن انتصارًا للعرب، ولكفاحهم، وعلى الرغم من وقوف الجامعة العربية في مركز القيادة، التي أدت إلى هذا النصر فإن مؤتمرات بريطانيا وأمريكا، وانسياق الأنظمة العربية، في فلك سياسة " الدولتين الصديقتين " ! حالت دون ذلك، وانحرفت بكل كفاح العرب، وبكل تضحيات شعب فلسطين عن أهدافها الحقيقية، ووضعتها كلها في خدمة خطط ومصالح " الدولتين الصديقتين " ! بريطانيا، وأمريكا، والمتعاونين مع الصهيونية العالمية، والمتأمرين على عروبة فلسطين^(١).

* * *

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٢ - ص ٢٩٥.

الفصل الثامن عشر:

السيرة الذاتية للنكبة

كيف نُسجت النكبة الفلسطينية؟!

عبد القادر ياسين

لم تهبط القضية الفلسطينية بالمظلة، كما لم تنبت شيطاناً في الأرض، بل وُلدت القضية بملابسات وحيثيات، في غير قطر، وعلى مدى عقود وعقود.

١- الخلفية التاريخية

فقد تأسست الصهيونية، صيف ١٨٩٨، حين انعقد المؤتمر الصهيوني الأول، في بال بسويسرا، في ذاك الصيف^(١)، لكن الحركة الصهيونية لم تستقر على فلسطين موقعاً لمشروع دولتها، إلا بمشورة لندن، الأمر الذي أقره المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) ^(٢).

في ١٩١٧/١١/٢ أصدر وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، تصريحه، الذي عرف باسم " وعد بلفور "، وفيه وَعَدَ بلفور الحركة

(١) أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية/ تنظيمها وأعمالها (١٨٩٧ - ١٩٤٨)، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، سلسلة " دراسات فلسطينية " (١٥)، تموز/ يوليو ١٩٦٧، ص ٢٩ - ٣٥.

(٢) د. محمود حسن صالح منسي، تصريح بلفور، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠، ص ٣٠.

الصهيونية بإقامة " وطنٍ قومي " لليهود في فلسطين^(١). وفي العام التالي استكملت القوات البريطانية احتلال فلسطين، وسرعان ما اجتزأتها من الجسد السوري. وفي يوليو/ تموز ١٩٢٢ انتدبت " عصابة الأمم " بريطانيا على فلسطين^(٢)، وحثت الصهيونية خطاها من أجل إقامة مشروعاتها الاستعماري في فلسطين، فيما حابت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين المستوطنين اليهود ومؤسساتهم، على حساب الشعب العربي الفلسطيني، في شتى المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية. وفي هذا السياق فتح الانتداب أبواب فلسطين لليهود، الذين تدفقوا في موجاتٍ متتالية، كما عمد الانتداب إلى نقل الأراضي الأميرية إلى المستوطنين اليهود ومؤسساتهم^(٣).

لم يقف الشعب العربي الفلسطيني مكتوف اليدين، فبدأ بالصدامات المسلحة مع المستوطنين اليهود، وسلطات الانتداب، في استمرار متقطع، سنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٤ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ و ١٩٣٥، وتوجت هذه الهبات والانتفاضات بثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية المسلحة، التي استمرت ثلاث سنواتٍ متصلة.

(١) المصدر نفسه، ص ٧٧ - ١٠١.

(٢) د. كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩، ط١، طرابلس الغرب، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص ٢٨٤.

(٣) للمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عادل حامد الجادر، أثر قوانين الانتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بغداد، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٧٦.
- وليم فهم، الهجرة اليهودية إلى فلسطين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

في مطلع ١٩٣٩ دعت حكومة لندن إلى مؤتمر، بزعم إيجاد حل للقضية الفلسطينية، وبدأ " مؤتمر لندن " أعماله في ١٩٣٩/٢/٧، بحضور وفد عربي فلسطيني، وآخر عن " الوكالة اليهودية "، فضلاً عن الحكومة البريطانية، ووفود عن حكومات مصر، والسعودية، والعراق، واليمن، وشرقي الأردن، واستمرت أعمال المؤتمر حتى ٣/١٧، ولكن دون أن يتوصل إلى حلٍ ما^(١).

لأن نذر الحرب العالمية الثانية قد ظهرت في الأفق، فقد سعت بريطانيا لتهدئة الشعب العربي في فلسطين، شأن شعوب بقية المستعمرات البريطانية، حتى تتفرغ بريطانيا للخطر النازي، والحرب القادمة، لذا أصدرت الحكومة البريطانية، في ١٧ مايو/ أيار ١٩٣٩، " الكتاب البريطاني "، الذي وعدت فيه منح فلسطين الاستقلال، بعد عشر سنوات، بعد تقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وانتقال الأراضي للمستوطنين اليهود ومؤسساتهم، ولكن بعد خمس سنوات من صدور هذا الكتاب^(٢)!

لوعي القيادة الوطنية الفلسطينية بغرض لندن من " الكتاب الأبيض "، رفضته تلك القيادة، فيما انزعجت الصهيونية، من هذا الكتاب.

اندلعت الحرب العالمية الثانية، في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩، ولم تضع أوزارها إلا بعد ست سنوات متصلة، حيث بدأت مرحلة فرز الأوراق في

(١) إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ط٣، دمشق، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، ودار الجليل، ١٩٨٤، ص١٨٧ - ١٨٨

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٨ - ١٩٥.

القضية الفلسطينية.

التقطت الصهيونية انتقال مركز الصدارة في المعسكر الاستعماري من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، خلال سني الحرب العالمية الثانية، فنقلت الصهيونية مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن^(١)، ما جعل الأولى تتكأ في أمر إقامة المشروع الصهيوني في فلسطين، خاصة بعد أن تمخضت الحرب العالمية الثانية - ضمن ما تمخضت عنه - عن تلهف الولايات المتحدة لورثة بريطانيا وفرنسا في مستعمراتها.

سرعان ما تجلّى التحيز الأمريكي للصهيونية عبر مؤتمري الحزبين الأمريكيين الكبيرين - الديموقراطي والجمهوري - غداة الحرب العالمية الثانية، وقد شدد المؤتمران علي ضرورة تهجير مئة ألف يهودي إلى فلسطين، الأمر الذي رفضته حكومة لندن، وأخيرًا تم التوصل إلى تشكيل " اللجنة الأنجلو - أمريكية " (١٩٤٥/١٢/١٠) للبحث في أمر القضية الفلسطينية عمومًا، وفي أمر الهجرة اليهودي إلى فلسطين خصيصًا^(٢).

بعد نشاط استمر نحو خمسة أشهر، أصدرت اللجنة توصياتها القاضية بإدخال مئة ألف يهودي إلى فلسطين^(٣)، الأمر الذي رفضته

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٧ - ١٢٨،

- عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص ٢٠٧.

- د. فلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩ - ١٩٤٨، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية، ١٩٨٠، ص ١٥٧ - ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨١ - ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠ - ٢٣٠.

لندن.

تفجر الإرهاب الصهيوني ضد الجنود الإنجليز في فلسطين، فمن
نسف القطارات، ومراكز الشرطة، إلى خطف الجنود والضباط،
وإعدامهم، في سياق الضغط على لندن^(١).

فيما اكتفى العرب بعقد قمة عربية، في مزارع الملك فاروق
بأنشاص، ٢٨ و ٢٩ مايو/ أيار ١٩٤٦. وفيه أعلنوا أن فلسطين " قضية
كل العرب "، وعليهم " صوت عربيتها " !^(٢).

من جانبه أعلن رئيس مجلس اللوردات البريطاني، هربرت
موريسون، مشروعه لحل القضية الفلسطينية، عبر تقسيم فلسطين بين
العرب واليهود، وعلى ضوء هذا المشروع انعقد " مؤتمر لندن "، بوفود
مؤتمر ١٩٣٩ نفسها، مضافاً إليها وفد الجامعة العربية هذه المرة.
واستمرت الدورة الأولى لمؤتمر لندن، من ٩/١٠ - ١٠/٢/١٩٤٦، دون
أن تنتهي إلى نتيجة. الفشل الذي أعيد إنتاجه في الدورة الثانية للمؤتمر
(١/٢٨ - ١٩٤٧/٢/٢٤). وأعاد وزير الخارجية البريطاني، إرنست
بيفن، فشل المؤتمر إلى ازدواجية تعهدات الانتداب البريطاني، وتدخل
واشنطن^(٣).

(١) علي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١ - ١٥٦.

(٢) مروة جبر، جامعة الدول العربية وقضية فلسطين (١٩٤٥ - ١٩٦٥)، نيقوسيا،
منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٩، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) - توما، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ - ٢١٣.

- علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠ - ٢٤١.

٢- تدشين القضية الفلسطينية

• في ١٩٤٧/٤/٢ أدرجت لندن قضية فلسطين ضمن جدول أعمال الجمعية العمومية للأمم المتحدة في دورتها العادية. بعد أن نصح خبراء وزارة الخارجية البريطانية، بيفن، بتحويل القضية إلى الأمم المتحدة، التي ستعجز عن حلها، بسبب حرص الكتلة الاشتراكية على الوقوف في الموقع المضاد لموقف الولايات المتحدة وحلفائها، عند التصويت على أي قضية، مما يفقد قضية فلسطين الحصول على ثلثي الأصوات اللازمة، فتعود القضية إلى لندن، بعد أن تكون لندن قد قامت بما عليها، ورفعت عنها العتب^(١).

انعقدت دورة طارئة للجمعية العمومية للأمم المتحدة، أواخر إبريل/ نيسان ١٩٤٧، وقررت تشكيل لجنة دولية، وصلت فلسطين، في ١٤ و ١٥ / ٦ / ١٩٤٧^(٢)، وامتتعت " الهيئة العربية العليا " في فلسطين عن لقائها، فيما تصاعدت أعمال الإرهاب الصهيوني في فلسطين. وفي ٧/٢٢ قابلت اللجنة الدولية، ممثلي الدول العربية، في صوفر (لبنان)، فقدم وزير الخارجية اللبنانية، حميد فرنجية مذكرة بإسم أولئك الممثلين، دعت إلى مناصرة الحق العربي، وتبعت " الهيئة العربية العليا " فرنجية فيما فعل^(٣).

(1) Nicholas bethel, the Palestine triagle - the struggle between the British, the Jews, and the Arabs (1935 - 1948), London, the trinity press, 1979, p. p. 310 - 313.

(٢) علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤١ - ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥١ - ٢٥٤.

• وضعت اللجنة تقريرها، في ٨/٣١، وعرض على الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وتضمن التقرير ضرورة إنهاء الانتداب، ومنح فلسطين الاستقلال، بعد مرحلة انتقالية، وتقسيم فلسطين إلى دولتين، عربية ويهودية. فيما رأت أغلبية اللجنة التقسيم السياسي مع الاتحاد الاقتصادي بين الدولتين. ورأت أقلية اللجنة قيام حكومتين مستقلتين، تتألف منها دولة اتحادية مستقلة^(١). ورفضت " الهيئة العربية العليا " المشروعين، دفعة واحدة^(٢).

• تسارعت الأحداث، حتى كان التصويت على مشروع الأكثرية، الذي نال ٣٣ صوتاً، ضد ١٣ صوتاً، وامتناع ١٠ عن التصويت، بينها بريطانيا نفسها، حيث غادر مندوبها في الأمم المتحدة القاعة عند التصويت^(٣).

• كانت المفاجأة أن السوفييت استداروا ١٨٠ درجة، وأعطوا صوتهم لتقسيم فلسطين، وهم الذين طالما أعطوا صوتهم لفلسطين مستقلة وديموقراطية. فما الذي حدث حتى غير السوفييت موقفهم هذا؟!.

لقد اتكأ السوفييت هنا، أولاً، على ما ادعاه كبار المسؤولين العرب من استحالة تعايش العرب واليهود في فلسطين، كما تؤكد السوفييت، ثانياً، من

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٦ - ٢٦٠.

(٢) محمد أمين الحسيني، حقائق عن قضية فلسطين، ط ٢، القاهرة، مكتب الهيئة العربية العليا، ١٩٥٦، ص ١٦٧ - ١٧٠.

(٣) علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

- مصطفى عبد العزيز، التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٨، ص ٢٦٧ - ٢٩١.

أن ميزان القوى، آنذاك، لم يكن يسمح للعرب بأكثر من التقسيم فضلاً عن أن التقسيم، ثالثاً، سيفضي إلى انسحاب القوات البريطانية من فلسطين التي ستنتال استقلالها، فيما رجَّح السوفييت، رابعاً، أن يفضي الاتحاد الاقتصادي بين الدولتين، العربية، واليهودية، إلى اتحادهما السياسي. دون أن ينفي هذا كله تأثر السوفييت، سلّماً، من وقوع الدول العربية تحت النفوذ الاستعماري، حتى أن وفودها في الأمم المتحدة نأت بنفسها عن الوفد السوفييتي وتحاشت الحديث معه، خشية إغضاب الدول الاستعمارية، بل إن تلك الوفود رفضت مشروعاً لوكيل الخارجية السوفييتية، آنذاك، أندريه جروميكو، ينحاز، إلى حدٍ بعيد، للعرب. كما أن تلك الوفود قاطعت حفل شاي أقامه لها وكيل الخارجية السوفييتية، فشنسكي. وزاد الطين بله تصويت الوفود العربية ضد احتلال أوكرانيا لمقعد في مجلس الأمن الدولي^(١).

مع هذا كله، يؤخذ على هذا الموقف للاتحاد السوفييتي أنه، أولاً، انطلق من موقف تجريبي مبتذل، وثانياً، فإن السوفييت انطلقوا من كون الملمح الأساسي للقضية الفلسطينية هو صراع بريطاني - أمريكي على مناطق النفوذ، وليس قضية تحرر وطني، وثالثاً، فإن السوفييت جانبهم الصواب في تطبيق حق تقرير المصير، إذ أن اليهود ملة دينية وليسوا

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأسباب التي حفَّت بالتحول السوفييتي في هذا الصدد، يمكن الاستعانة بـ:

- عبد القادر ياسين، محطات سوء فهم السوفييت وحركة التحرر الوطني العربية، رؤية (غزة)، العدد الرابع والعشرون، السنة الثانية، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، ص ١٧٦-١٨٣.

قومية لتصبح لهم دولة تخصهم، كما أن ليس من حقهم أن يقرروا مصيرهم فوق أرض شعب آخر اغتصبوها.

• اندلعت الاشتباكات بين المقاتلين العرب الفلسطينيين وعناصر العصابات الصهيونية المسلحة الثلاثة (الهاغاناة/ الأرجون/ وشتيرن)، بمجرد صدور قرار التقسيم رقم ١٨١ بتاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩، ورغم قلة أسلحة المقاتلين الفلسطينيين، وشح ذخائرهم، وتواضع تدريبهم العسكري، فإن الكفة مالت لصالحهم، وحققوا تقدماً ملحوظاً في القتال، جعل المندوب الأمريكي في مجلس الأمن الدولي، وارن أوستن في ٣/١٩ يطالب بالعدول عن التقسيم^(١). فدفغ الاستياء من هذا الموقف الأمريكي القيادة الصهيونية إلى حل إرهابي فريد، فكانت مذبحة دير ياسين ٩/٤/١٩٤٨^(٢)، التي كانت مفصلاً بين النجاحات العسكرية العربية، وإخفاقاتها، خاصة بعد أن كانت قوات " الجهاد المقدس " الفلسطينية قد فقدت قائدها عبد القادر الحسيني ٨/٤/١٩٤٨، مع تناقص الأسلحة والذخائر في أيدي المقاتلين العرب الفلسطينيين.

• ثم دخلت جيوش مصر، وشرقي الأردن، والعراق، وسوريا، ولبنان إلى فلسطين، في ١٥/٥/١٩٤٨، مع آخر جندي بريطاني انسحب من فلسطين، وبعد يوم واحد من قيام دولة إسرائيل^(٣).

(١) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، الجزئين الرابع والخامس، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل ينصح بالعودة إلى:

وليد الخالدي، دير ياسين، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩.

(٣) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، الجزئين الرابع والخامس، صيدا -

• لكن مجموع القوات العربية بالكاد وصل إلى ثلث القوات الصهيونية، وسُدس هذه القوات واحتياطها ^(١). مما يعني هزيمة عربية مؤكدة. مع جهل القوات العربية بالأراضي، وبغموض الهدف الذي تقاتل من أجله هذه القوات، وافتقارها إلى القيادة الموحدة، والتنسيق فيما بينها، وإلى التدريب العسكري الكافي، والسلاح المتقدم، والذخيرة الضرورية، ناهيك عن ضعف البنية الاقتصادية - الاجتماعية العربية وتشوهاها، وخضوعه الأقطار العربية للاستعمار، بهذا القدر أو ذاك، وغياب الديمقراطية، وتوحش القهر الطبقي في الأقطار العربية

٣- مجرى الحرب

• في ١٩٤٧/٩/٦ اجتمعت، في صوفر بلبنان، اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، لدراسة تقرير اللجنة الدولية، ورأت اللجنة السياسية في هذا التقرير خطرًا يهدد السلام والأمن في فلسطين والأقطار العربية، لذا قررت الجامعة مقاومة ذاك التقرير. كما أوصت اللجنة السياسية العربية بمد أهل فلسطين بالمال والسلاح. ووعد رئيس وزراء العراق، آنذاك، صالح جبر بوقف ضخ النفط العراقي إلى الغرب، إذا

بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٠، ص ١٣٧، ١٤٥ - ١٤٧.

(١) للمزيد من التفاصيل حول ميزان القوى بين الطرفين، يمكن الاستعانة بالمراجع التالية:

- حاييم هرزوغ، الحروب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، القاهرة، دار سينما، ١٩٩٣، ص ١٣ - ٢٢.

- لواء حسن البدر، الحرب في أرض السلام، القاهرة - بيروت، دار الوطني العربي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦، ص ٩ - ١٠، ٨٢.

- لواء إبراهيم شكيب، حرب فلسطين ١٩٤٨ / رؤية مصرية، القاهرة، الزهراء للإعلام المصري، ١٩٨٦، ص ١٩٧ - ٢٠٤.

تجاوبت السعودية مع هذا التوجه! (١)

• انعقد مجلس الجامعة العربية، في بيروت، في ١٠/٧، وتابع اجتماعاته في عاليه (لبنان)، حتى منتصف الشهر نفسه. واطلع المجلس على تقرير للجنة الفنية العسكرية، التي قررت اللجنة السياسية للجامعة تشكيلها، جاء فيه أن المنظمات العسكرية الصهيونية تضم ما لا يقل عن ستين ألف مقاتل، جيدي التسليح والتدريب، مع ضباط ذوي كفاءة عالية، بعكس العرب الذين يشكون من قلة السلاح، والتدريب، والضباط. وانتهت اللجنة الفنية بتوصية الدول العربية بحشد قوات لها على الحدود مع فلسطين، مع تشكيل قيادة عربية موحدة، يرصد لها ما لا يقل عن مليون جنية، كدفعة أولى. وعليه قرر مجلس الجامعة تنفيذ مقررات بلودان السرية! في حال المساس بحق فلسطين في أن تكون دولة عربية مستقلة (٢).

• اتخذت اللجنة الفنية العسكرية إياها من دمشق مقرًا لها، وأخذت تجنّد المتطوعين، في معسكر قطنا، قرب دمشق، وتدريبهم.

• في الأسبوع الثاني من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧، عقدت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية جلسات عدة، في القاهرة، انتهت إلى إذاعة بيان، في ١٢/١٧، استنكر قرار تقسيم فلسطين، وأضاف مليون جنية للإنفاق على التعبئة والتطوع، وإرسال ثلاثة آلاف متطوع،

(١) علي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

إلى فلسطين، على وجه السرعة^(١).

• سرعان ما شكلت اللجنة الفنية العسكرية تنظيمين، أولهما حمل اسم " جيش الإنقاذ "، وتولى قيادته ابن طرابلس الشام، فوزي الدين القاوقجي^(٢)، أما التنظيم الثاني فحمل اسم " الجهاد المقدس "، وأشرفت عليه " الهيئة العربية العليا بفلسطين "، وتولى قيادته عبد القادر الحسيني^(٣).

• في ٢/١٧ كانت أول هجمة عربية لجيش الإنقاذ، على مستعمرة نيراب تسيقي (الزراعة)، اخفقت في احتلالها^(٤).

• هنا عمد الصهاينة إلى التوسع في الإرهاب، فنظموا مذبحة دير ياسين الشهيرة (١٩٤٨/٤/٩). وهي التي أساء الإعلام العربي استخدامها، فأوقع الرعب في قلوب العرب الفلسطينيين، في الوقت الذي استشهد عبد القادر الحسيني (٤/٨)، وشحت الأسلحة والذخائر، في أيدي المناضلين العرب؛ فلسطينيين وغير فلسطينيين، فبدأ ميزان القوى في الميل لصالح الصهاينة، بإطراد. وأخذت المدن الفلسطينية تتساقط كأوراق

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

- جبر، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥ - ٥٧.

(٣) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥.

- إميل الغوري، المؤامرة الكبرى/ اغتيال فلسطين ومحق العرب، ط ١، القاهرة،

إصدار خاص، ١٩٥٥، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، ٢٠٤ - ٢٢٢.

(٤) للمزيد من التفاصيل حول هذه المعركة يمكن الرجوع إلى:

- مذكرات فوزي القاوقجي ١٩٧٧ - ١٩٩٠، د. خيرية قاسمية (إعداد)، ط ٢، دمشق،

دار النمير، ١٩٩٦، ص ٣٤٩ - ٣٥١.

- شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦.

الخريف.

• في ١٢/٤ قررت اللجنة السياسية للجامعة العربية دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، بمجرد جلاء القوات البريطانية عنها (٥/١٥). وتم اختيار ملك شرقي الأردن، عبد الله بن الحسين قائداً عاماً لتلك الجيوش.

• نشرت يومية اليافية حديثاً للملك عبد الله، ذكّر فيه بما سبق أن قاله لوفد الجامعة العربية: "... إن جنح القوم - أعني يهود فلسطين - إلى السلم، فسنجنح لها... ولايزال أمر السلم في يد اليهود، إن هم شأؤوا، ونزلوا عن غلوائهم، ورضوا بما يمكن أن يكون مرضياً للعرب" (١).

• فيما أذاع الأمين العام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام باشا، بياناً، أكد فيه أن "كل دور من أدوار هذه المعركة الفلسطينية محسوب للقيادة العسكرية". وحذّر المشككين في أمر النظام السياسي العربي وجامعته، "التي سيتضح، يوماً ما نضالها مع الفلسطينيين، ووراء الفلسطينيين، من الناحية العسكرية والسياسية" (٢).

وقد أوصى رئيس جمهورية لبنان، بشارة الخوري، بالأمل، والصبر، والأناة، وإسعاف اللاجئين، وأكد بأن العرب مجهزون بأحدث السلاح، وأفتك العتاد! وأشار رئيس وزرائه، رياض الصلح إلى "أن الجامعة قد دبرت كل أمر، وأعدت لكل شيء عدته" (٣). أما رئيس وزراء سوريا،

(١) فلسطين (يافا)، ١٩٤٨/٤/٢٢.

أوردها: دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

جميل مردم بك، فشدد على " أن العرب مصممون على المضي في خططهم، وتدابيرهم مستمرة، حتى ينال العرب ما يطلبون من حقوق مشروعة، إلخ.... " (١).

• جزع مستوطنو القدس، وهددوا قيادتهم السياسية بالتسليم للعرب، الذين يحاصرونهم، لكن تلك القيادة وعدتهم خيرًا، بناء على مفاوضات تجري مع أطراف عربية!

• في ٤/١٦ اجتمعت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في نيويورك، في محاولة لفرض الهدنة، وتشكلت لجنة هدنة، في ٤/٢٣ (٢).

• في ٥/١٤ تمت الموافقة على الاقتراح الأمريكي بتعيين وسيط دولي، تختاره الدول الخمس الكبرى، بهدف تنظيم المصالح المشتركة، والتعاون مع لجنة الهدنة، وإدارة وتنسيق المنظمات الاختصاصية التابعة للأمم المتحدة. ما اعتبر - في مجمله - نقضًا لقرار التقسيم.

• ضُتَّ الدولة العربية على المقاتلين العرب - فلسطينيين وغير فلسطينيين - نحو عشرة آلاف مقاتل بالمساعدات المالية والعسكرية.

• في ٥/١٣ اجتمعت وفود الدول العربية ومندوبو جيوشها الخمسة، في قصر رغدان الملكي في عمان، ووضعوا اللمسات الأخيرة في خطة الحرب.

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

• في اليوم نفسه سقطت مستعمرة كفار عتسيون، قرب القدس، وفي اليوم التالي سقطت مستعمرات ريفاديم/عين تسورين/ باب فورت يتسحق، القريبة من كفار عتسيون^(١).

• في ٥/١٣، أيضاً، توجه البكباشي (المقدم) أحمد عبد العزيز من مصر إلى فلسطين، على رأس قوة متطوعين مصرية، بدأت باحتلال العوجة، ووصلت إلى الخليل (٥/٢١)، وبيت لحم (٥/٢٤)، حيث احتلت مستعمرة رامات راحيل، وإن انسحبت منها^(٢).

• في ٥/١١ أعلنت الحكومة المصرية الأحكام العرفية (القانون ٧٣ لسنة ١٩٤٨)، وشنت حملة اعتقالات واسعة ضد المنظمات السياسية المصرية^(٣).

• في منتصف ليلة السبت، (١٤، ٥/١٥)، وقعت ثلاث حوادث بالغة الأهمية، أولاها مغادرة المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا. وثانيها إعلان قيام دولة إسرائيل. وثالثها زحف الجيوش العربية (المصرية/الأردنية/السورية/اللبنانية/العراقية) على فلسطين، "لإنقاذها" ! وأذاع الملك عبد الله بياناً، باعتباره القائد العام لهذه الجيوش، قال فيه: "إننا قد عقدنا الخناصر على أن نخوض المعركة، حتى نهايتها،

(١) - هرزوغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤١ - ٥٠.

- البدرى، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢ - ٢٢٥.

(٢) البدرى، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩، ٢٤٩، ٢٦٤ - ٢٦٦.

(٣) - المصري (القاهرة)، ١٩٤٨/٥/١٢.

- طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

فإما أن نعيش شرفاء، كرامًا، وإما أن تفنى الأمة العربية عن آخرها". ثم توالى تقدم الجيش المصري، وإن بصعوبة^(١).

فقد اجتازت القوات المصرية الحدود الساعة ٢٣٥٩ من مساء يوم ١٥/٥/١٩٤٨، بقيادة الأميرالاي أحمد علي المواوي، واشتبكت، في اثناء تقدمها مع مستعمرتي الدنجور، وكفارداروم.

وفي ١٦ و ٥/١٧ أغارت الطائرات المصرية على مطار تل نوف، ومحطة ريديخ، ومصنع منشي زكي في منطقة تل أبيب، وكفار سيركين، ورامات ديفيد، وميناء تل أبيب، ومعسكر يونا شمالاً. وفي اليوم ٥/١٧ صدر أمر بتعيين المواوي حاكمًا عسكريًا لمنطقة الاحتلال. وفي اليوم التالي جرت عمليات التطهير والغارات الجوية على أهداف عسكرية في تل أبيب، فضلاً عن شن هجمة على مستعمرة بيرري، جنوب شرقي غزة. وفي اليوم نفسه احتلت القوات السورية سمخ، وفي اليوم التالي دخلت القوات المصرية بلدة بيت حانون، ومدينة بئر السبع العربيتين. وهاجمت دير سنيد، التي احتلتها تلك القوات يوم ٥/٢٤.

بعد يومين اثنين دخلت القوات المصرية مدينتي المجدل والخليل العربيتين. في اليوم التالي أغارت الطائرات المصرية، بطريق الخطأ، على مطار رامات ديفيد البريطاني، ففقد اثنان من الطيارين المصريين، وخمس طائرات. وفي اليوم نفسه دخلت القوة المصرية الخفيفة بيت لحم، كما تحركت سرية من الحرس الملكي المصري إلى فلسطين. وفي اليوم

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩ - ١٥٠.

٥/٢٤ ضبطت مباحث القوات المصرية صهيونيين يحاولان تلويث مياه شرب الجيش المصري بميكروب التيفوس والدوسنطاريا. وفي اليوم نفسه تحركت مقدمة القوات السعودية إلى فلسطين. كما دخلت القوات المصرية إلى عراق السويدان. في اليوم التالي احتلت القوات المصرية مستعمرة رامات راحيل. وفي ٦/٧ احتلت القوات المصرية مستعمرة نيتسالم. وبعد يومين احتلت القوات المصرية برينحاس، وترقوميا. كما تحركت قوة من المتطوعين السودانيين إلى فلسطين.

لم يكد يمض إثنا عشر يوماً على الزحف، حتى كانت الجيوش العربية تسيطر على المناطق العربية المخصصة للدولة العربية في قرار التقسيم، مع بعض الاستثناءات. واسترد الجيش الأردني ما كان وقع في أيدي العصابات الصهيونية المسلحة من مناطق في القدس (٥/٢٨)، واستمرت الجيوش العربية تراوح مكانها، إلى يوم ٦/١١، حين قبل العرب بالهدنة، التي فرضها مجلس الأمن الدولي، والتي امتدت حتى ٧/٨، وخلالها ازداد وضع القوات المصرية سوءاً، فيما أعاد الصهاينة تنظيم صفوفهم، وعززوا وحدة جبهتهم الداخلية، ورفعوا مستوى استعداداتهم العسكرية، وتدفقت عليهم الأسلحة، والذخائر من الغرب الاستعماري، الذي حجبها عن العرب!.

الانحدار

ثم كانت الهدنة الثانية من ١٩٤٨/٧/١٨ إلى ١٩٤٨/١٠/١٤، والهدنة الثالثة من ١٩٤٨/١٢/٢١ - ١٩٤٨/١٠/٣١، والهدنة الرابعة من ١/٧ - ١٩٤٩/٣/٦، وفي أعقاب فترات الهدنة سابقة الذكر تأكدت الهزيمة

العسكرية العربية، التي اعتبرها الخبير الاستراتيجي المصري المعروف، اللواء حسن البديري بحق، " بداية النهاية ".

لقد انتهك الإسرائيليون الهدنة الأولى لمئة وخمسين مرة، ما مكنهم من احتلال قرى: بيت طيما، وكوكبا، وبيت دراس.

في ١٤ و ٦/١٥ اجتمع رؤساء الأركان العرب في القاهرة، وفي اليوم التالي التقوا الأمين العام لجامعة الدول العربية، عبد الرحمن عزام باشا، وفيما بين ٢٢ و ٦/٢٤ زار الملك عبد الله بن الحسن مصر.

في يوم ٦/٢٧ قدم الوسيط الدولي، الكونت فولك برنادوت، مقترحاته لحل الصراع العربي - الإسرائيلي، بعد أن كان مجلس الأمن عينه في موقعه هذا، في ٥/٢٠.

وفي ٧/٦ تفقد الملك فاروق الجبهة. وفي اليوم نفسه كانت عملية قرية بيت دراس.

وفي ٨ - ٧/٩ عملية كوكبة، و ٧/٩ عملية تبة الجيش.

في يوم ٩ و ٧/١٠ استولت القوات المصرية على مستعمرة كفار داروم، لكن مدينتي اللد والرملة سقطتا (٧/١٢) في أيدي القوات الإسرائيلية، وفي ٧/١٥ شنت غارة جوية إسرائيلية على القاهرة، وردت الطائرات المصرية بغارة جوية على تل أبيب، في اليوم التالي.

وفي ٧/١٧ احتلت القوات الإسرائيلية العسلوج، وانسحبت القوات الأردنية من بيت لحم، وفي اليوم التالي نجحت القوات المصرية في استرداد العسلوج، وإن أعاد الإسرائيليون احتلالها، في ٧/٢٢.

وخلال يومي ١٧ و ٧/١٨ بدء العمليات في منطقة الفالوجة - كراتية - حنة. وعلى مدى يومي ٢٧ و ٧/٢٨ اندلعت صدامات مسلحة بين القوات المصرية والإسرائيلية، في عراق المنشية والفالوجة.

وغطت أيام ٦ - ١٠/١٥ تحرشات إسرائيلية بالجيش المصري.

وفي ١٠/١٦ فشل هجوم إسرائيلي على عراق المنشية والفالوجة، وعراق سويدان، وثبة الجيش. وهجوم آخر، في ١٠/١٨، على كوكبة، وبيت حانون.

في ١٠/٢٠ استولى الإسرائيليون على حليقات، وفي اليوم التالي على بئر السبع. في الوقت الذي اغرق طوربيد إسرائيلي السفينة المصرية " فاروق ".

وابتداء من ١٠/٢٤ بدأ حصار الإسرائيليين للقوات المصرية بالفالوجة. وخلال ٢٧ - ١٠/٢٨ تم الانسحاب المصري من بيت جيرين إلى الخليل، ومن أسدود ونيتسليم. كما تم ٣ - ١١/٤ الانسحاب المصري من أسدود والمجدل.

واجتمع رؤساء الأركان العرب، في القاهرة (١١/١٠)، لبحث الموقف. وفي اليوم التالي حل اللواء أحمد فؤاد صادق باشا محل الأميرآلي أحمد علي المواوي في قيادة القوات المصرية بفلسطين. وقد رقي الأخير إلى رتبة لواء، في ١٩٤٩/١/١، وعين مديراً لسلاح المشاة!

توالى المعارك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية تبة الشيخ نوران (٥ - ١٢/١٠) / محاولة قطع طريق غزة - رفح (٢٢ - ١٢/٢٥) /

العسلوج والعوجة (٢٥ - ١٢/٢٦) / الهجوم على العريش (٢٧ - ١٢/٣١) / ثلاث هجمات على رفح (١ - ١٩٤٩/١/١١)، بعد أن كانت القوات المصرية أخذت، في ١١/١٥، المجدل، ودير سنيد، وهريبا، فاحتلها الإسرائيليون، بدون أي جهد.

في ١٩٤٩/١/٧ تم وقف إطلاق النار، وأعلنت هدنة جديدة.

المحصلة

استلمت الجيوش العربية فلسطين، وما بين ٨٠ و ٨٢ في المئة من أراضيها مع العرب، وعقدت الدول العربية اتفاقات الهدنة مع إسرائيل، فيما لم يبق للعرب، سوى ٢٢ في المئة، فقط، من أرض فلسطين في أيدي العرب.

وهذا أحد قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، يقرر أنه بعد قبول العرب الهدنة الثانية، وخسر العرب المركز الحربي الحسن، الذي كان لهم قبل استئناف القتال، وخسروا فوقه نحو ربع المنطقة العربية التي كانت في يدهم ^(١).

صحيح أن مدناً عربية فلسطينية قد سقطت، حين أرجأت الجيوش العربية دخولها إلى ١٥/٥/١٩٤٨، وهذه المدن هي: طبريا (٤/١٩)، حيفا (٤/٢٣)، سلحة ويازور (٤/٣٠)، بيسان وصفد (٥/١٢)، تل الجزر (٥/١٣)، برير، يافا (٥/١٤) ^(١).

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢.

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، دمشق، ١٩٨٤، المجلد الأول، ص ٣٩٢، ٤٩٠،

لكن في وجود الجيوش العربية، سقطت أيضًا كل من: دير أيوب واللطرون (١٥ و ٥/١٦)، وعكا (٥/١٦)، وقرى ياسور، والجسير، والعسلوج، وحليقات، وجوليس (٦/١١)، والقطاونة، وعديس، وسمسه، وكوكبة (٦/١٢)، ومدن اللد، والرملة (٧/١٢)، والناصرية (٧/١٥)، وبيت عفة وحليقات (١٠/٢٠)، وبئر السبع (١٠/٢١)، كما نجحت القوات الإسرائيلية في فرض حصار محكم على القوات المصرية في الفالوجة (١٠/١٤).

التسليم بإسرائيل

في ١٩٤٨/٦/٢٧ تقدم الوسيط الدولي، الكونت فولك برنادوت بمشروع يرمى إلى قيام اتحاد عربي - يهودي في شرق الأردن، وفلسطين، على أن تبقى القدس منطقة مستقلة، ذاتيًا، ومعها حيفا واللد. ورفض كل من العرب والصهاينة هذا المشروع^(١). وفي ٩/١٧ اغتالت عناصر من عصابة " شتيرن " الصهيونية برنادوت، ومساعدته الفرنسي، العقيد أندريه سيو. فنكّست الدول العربية أعلامها، حدادًا على برنادوت^(١).

في باريس انعقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في ٩/٢٠، وقرر

المجلد الثاني، ص ٣٦ - ٣٧، ٣٠٨، المجلد الثالث، ص ٢٩، ١٠٢، المجلد الرابع، ص ٦٠٣، ٦٢١.

- شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠ - ١٠٧، ١٠٧.

- الغوري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢ - ٢٦٨.

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

- شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٩.

تعيين " لجنة توفيق " من ثلاثة أعضاء يختارهم الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن. في ٩/٢٣ عمدت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية إلى تشكيل " حكومة عموم فلسطين ". وسرعان ما انعقد، في غزة، المجلس الوطني الفلسطيني، في ١٠/١/١٩٤٨، وأعلن استقلال فلسطين، وإقامة دولة حرة ديموقراطية ذات سيادة، وأقر المجلس دستوراً لهذه الدولة، واختار علماً لفلسطين^(١).

في اليوم نفسه انعقد، في عمان، مؤتمر فلسطيني مضاد، برئاسة الشيخ سليمان الناجي الفاروقي، بهدف سحب الأرض من تحت المجلس الوطني الفلسطيني. تبعه مؤتمر آخر، حمل اسم " مؤتمر أريحا "، في ١٢/١، طالب الملك عبد الله بضم شرق فلسطين إلى شرقي الأردن^(٢).

في ١٩٤٨/١٢/٢٢ أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرارها رقم ١٩٤، وتضمن تشكيل " لجنة الأمم المتحدة للتوفيق بشأن فلسطين "، وأوكلت إليها إعادة اللاجئين وتعويضهم، وتشكلت اللجنة من فرنسا، وتركيا، والولايات المتحدة^(٣).

في ١٩٤٩/١/٨، أعلن، في ليك سكس، أن الحكومة المصرية، وإسرائيل اتفقتا على وقف إطلاق النار، وعلى أن تبدأ محادثات في رودس، في ١/١٢، على يد الوسيط الدولي، رالف بانس. وسرعان ما

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٠ - ١٩٤، ٢١٠ - ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٣) هان - إيف أولييه، لجنة الأمم المتحدة للتوفيق بشأن فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٥١، حدود الرفض العربي، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩١، ص ١ - ٢، ١٠ - ٢١.

عقدت مصر اتفاقية هدنة مع إسرائيل، في رودس، في ٢٤/٢، وتبعها لبنان (٣/٢٣)، فالأردن (٤/٣)، وأخيرًا سوريا (٧/٢٠) ^(١).

في ١٩٤٩/٣/٢١ دعت "لجنة التوفيق" الحكومات العربية، إلى مؤتمر، عقد في بيروت (٣/٢١). حيث عرضت الحكومات العربية آراءها بصدد قضية فلسطين واللاجئين. وأقامت اللجنة مكتبًا لها في نيويورك، ١٩٥٢، وبدأت تسعى لإحصاء أملاك اللاجئين، لكن إسرائيل عرقلت محاولات "لجنة التوفيق" في هذا الميدان ^(٢).

بناءً على دعوة من اللجنة، التأم "مؤتمر لوزان"، يوم ١٩٤٩/٤/٢٦، الذي انتهى بتوقيع إسرائيل "بروتوكول لوزان"، في ١٩٤٩/٥/١٢، مما أسهم في قبول إسرائيل في الأمم المتحدة، بعد أن تعهدت إسرائيل تنفيذ القرار ١٩٤ للأمم المتحدة^{*}، والتقيّد بالتقسيم،

(١) لمزيد من التفاصيل حول مفاوضات الهدنة، والاتفاقات التي تمخضت عنها، يمكن الاطلاع على:

- وليد الخالدي، خمسون عاما على حرب ١٩٤٨، بيروت، دار النهار، ١٩٩٨، ص ١٢٩ - ١٥٢.

- د. محمود متولي، اتفاقية رودس بين العرب وإسرائيل (١٩٤٩)، القاهرة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

(٢) إيف أولييه، مصدر سبق ذكره.

(*) صدر القرار ١٩٤ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، بتاريخ ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، ويتكون من ١٥ بندًا، وهو قرارٌ خاصٌّ بألية تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، فركزت البنود السادس والسابع والثامن منه، على التعامل مع القضايا الآلية، التي نتجت عن الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، ومنها العمل على أن تبقى محاور الوصول إلى الأماكن المقدسة - بما فيها الناصرة - مفتوحة، في القدس وبيت لحم، وإدارة مدينة القدس، التي سوف تكون - وفقًا لقرار التقسيم - واقعة تحت سيطرة الأمم المتحدة. وتم تعريف نطاق إدارة الأمم المتحدة، على أنها تشمل بلدية القدس، والقرى، والمدن المتاخمة لها، والتي تشمل قرية أبو ديس، في الشرق، وبيت لحم في

وتدويل القدس. وإن أدارت إسرائيل لذاك البروتوكول ظهر المجن. وانتهى الأمر بأن أوصى مجلس الجامعة العربية الدول العربية بإبلاغ مبعوث اللجنة، د. جوزيف جونسون بفقدان الأمل في اللجنة. لكن بعد أن كانت الدول العربية قد اعترفت، ضمناً، بدولة إسرائيل^(١). وأرخت النكبة أستارها. وتتالت التداعيات في الدول العربية، فقام حسني الزعيم بانقلابه في سوريا (١٩٤٩/٣/٣٠)، واغتيل رئيس وزراء لبنان، رياض بك الصلح (١٩٥١/٧/١٧)، وبعده بأربعة أيام اغتيل الملك عبد الله، ثم كانت ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ في مصر.

وبذا تكرست النكبة الفلسطينية وأرخت أستارها، وما تبقى مجرد تفاصيل، وذيل، وتداعيات.

* * *

الجنوب، وعين الكرم في الغرب، والشوفات في الشمال. وفي البند العاشر، يطلب القرار من لجنة المصالحة، أن تتخذ الإجراءات التي تكفل تسهيل الحياة الاقتصادية، والوصول إلى الموانئ، والمطارات، واستخدام وسائل المواصلات، والاتصالات. فيما اختص البند الحادي عشر منه، باللاجئين، وحدد أن اللاجئين «الذين يريدون العودة إلى منازلهم، والعيش في سلام مع جيرانهم، يجب أن يسمح لهم بالعودة، في أقرب وقت عملي ممكن، وأن يدفع التعويض عن الممتلكات، لهؤلاء الذين يقررون عدم العودة، أو للضرر في الممتلكات، وفقاً للقانون الدولي». واضطرت إسرائيل، للقبول بذلك القرار، ليكون مسوِّغاً لقبول شرعية وجودها كدولة، في الأمم المتحدة، والمجتمع الدولي، ولهذا السبب، بالتحديد، فقد رفضت الدول العربية، آنذاك، القبول بذلك القرار.

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٨ - ٢٦٠.

الفصل التاسع عشر:

أسباب النكبة من داخلها

عبر (القاور ياسين)

هل يمكن لمن كان ضمن المشرق أن يراه، مثل من كان خارجة؟

لقد كتب الكثير عن أسباب النكبة الفلسطينية، من كتاب عرب، فلسطينيين، وغير فلسطينيين، على أن بعض من شاركوا في الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، من ساسة وعسكر، أسهموا في كشف أوجه القصور، التي أوصلتنا إلى النكبة، والنسبة الأكبر ممن كتبوا في هذا الصدد، حرصوا على تبرئة ذواتهم، وتحميل الآخرين، مسئولية ما آلت إليه الأمور، لذا وجب التحذير.

هذا قومي عربي مستقل من فلسطين، شارك في الشأن السياسي، من خلال ارتباطه الحميم بالمفتي، وعبر الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة (١٩٤٧)، يعيد هزيمتنا في حرب ٤٨ إلى وقوع نسبة كبيرة من الدول العربية، تحت النفوذ البريطاني، فضلاً عن أن القوات العربية، لم تكن مؤهلة، أو مدربة، ناهيك عن أنها لم تكن موحدة^(١).

أما رئيس " النجادة"، فأعاد الهزيمة العربية، في تلك الحرب، إلى

(١) هالة سليمان الأسعد (إعداد)، واصف كمال، شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ص ٢٠٥، ٢٠٤.

(*) النجادة: أسسها وترأسها، محمد نمر الهواري، خريف ١٩٤٥، في سبيل " توحيد

اختلاف حكام العرب، على اقتسام الغنيمة، وتدخل الإنكليز، والأمريكان، وضغط مجلس الأمن، لتوقيع الهدنة الأولى. والارتجال في القتال، وعدم الاستعداد، رغم الوقت الكافي، والإمكانات الواسعة. وغياب قيادة موحدة، والقتال المنفرد في الجبهات، والإقدام في مواطن الإحجام، والإحجام في مواطن الإقدام. وسوء النوايا، والتآمر الدنيء بين الدول العربية، بعضها البعض. وعدم الجد في القتال، والاستهتار بالعدو. وضعف روح الجندية في القوى العربية المقاتلة، وتغلب الساسة، وسيطرتهم على الميدان الحربي. وانهزام السياسة العربية، وانقيادها للإنكليز، وتباين أهدافها، وسيطرة الطبقة الرجعية الإقطاعية على العالم العربي، وتسخير جهود الأمة لمنافع الحكام الشخصية، وأنانيتهم واستئثارهم بالسلطة، وحبهم متاع الدنيا، من إشباع بطون، وإرواء شهوات، ونوم الطبقة الوسطى، وعدم مبادرتها لإنقاذ الموقف، بتحيةة القادة. كل ذلك مقابل قوة الصهاينة، المادية، والمعنوية، والسياسية، والحربية، وروح التضحية، في الأفراد والزعماء^(١).

لذا لم يكن غريباً أن يدفع الغضب إلى إحباط صاحب هذه الرؤية، فيعود إلى فلسطين المحتلة، في ١٠/١٢/١٩٤٩، بتشجيع من الوفد

صفوف العرب، والعمل على نهوضهم"، عبر الرياضة، وإن تم تنظيم " النجادة " في صيغة شبه عسكرية، وحقت انتشاراً واسعاً سريعاً بين الشباب العربي الفلسطيني. ما أشعر المفتي، الحاج أمين الحسيني، بمزاحمتها، فاضطرت " النجادة " إلى الاتحاد مع " الفتوة "، التابعة للمفتي.

سميح شبيب، الحركة الشعبية الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني، شؤون فلسطينية (نيقوسيا)، العدد ٢٠٥، نيسان/ إبريل ١٩٩٠، ص ١٩ - ٣٩.

(١) محمد نمر الهواري، سر النكبة، الناصرة، مطبعة الحكيم، ١٩٥٥، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

الإسرائيلي في مؤتمر لوزان!

فيما أعاد يساري فلسطيني مستقل - كان ضمن أعضاء " الهيئة العربية العليا" - الهزيمة العربية في حرب ١٩٤٨، إلى انجرار السياسات العربية، والقادة، والحكام العرب، وراء الاتجاهات والأزقة المسدودة، التي يزينها، ويدفعهم إليها الغرب، فيتورطون في معارك جانبية مع الصهاينة، مكنت المستعمرين، الإنجليز، والأمريكيين، والفرنسيين، المسيطرين على اقتصاديات البلاد العربية، والطامعين في ثرواتها، وفي المحافظة على هذه السيطرة، من عرض القضية الفلسطينية، وكأنها نزاع بين شعبيين، وصراع بين قوميتين، بدلاً من كونه صراع بين شعب يريد التحرير، وتقرير مصيره بنفسه، وفق حق تقرير المصير، الذي أقرته كل الشرائع الدولية، وبين الاستعمار البريطاني، فيمهدون، بل يحمون قرار التقسيم، وهكذا وقعت الكارثة ^(١). حصيلة الاستعمار البريطاني، وسياسته في فلسطين، وحصيلة الصهيونية، وحصيلة صعود النازية، وتدفق الهجرة، حتى بلغت نسبة اليهود - الصهاينة، ما يقارب ثلث السكان، وحصيلة النكبة التي أصابت اليهود في الحرب العالمية الثانية، وأخيراً، حصيلة الرجعية العربية التي سارت في ركاب الاستعمار البريطاني، وسياسة القيادة العربية الفلسطينية التقليدية. كل هذه العوامل مجتمعة أدت

(**) الهيئة العربية العليا: المؤسسة الجبهوية لأحزاب العربية الفلسطينية، وقد تأسست بتدخل من جامعة الدول العربية، ربيع ١٩٤٦، وإن وقعت هذه " الهيئة " تحت الهيمنة الكاملة لرئيسها، مفتي فلسطين، الحاج أمين الحسيني.

(١) د. خليل البديري، ستة وستون عاماً على الحركة الوطنية الفلسطينية وفيها، القدس، منشورات صلاح الدين، ١٩٨٢، ص ١٥٥ - ١٥٦.

إلى التقسيم، وقيام الدولة اليهودية في القسم الأكبر من فلسطين^(١).

عضو وطني في " الهيئة العربية العليا "، أشار بأسى، إلى وقف تسليح الفلسطينيين، والحيلولة دون تدريبهم، وتنفيذ رغبة الاستعمار، بإقصاء الشعب الفلسطيني، من زمام قضيتة الوطنية، ومنعه من الجهاد في سبيل وطنه، إلى انخداع مسئولين عرب، آخرين، بوعود الإنجليز، وحلفائهم. بل وصل الأمر ببعض الحكومات العربية، حد بث دعاية مغرضة ضد الشعب الفلسطيني، ومجاهديه، فيما حرمت الرقابة على الصحف، في بعض البلاد العربية، الفلسطينيين، من الرد على تلك الدعاية! ناهيك عن منع رئيس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، مفتي فلسطين، الحاج أمين الحسيني من دخول فلسطين، وحجب المال، والسلاح، عن المجاهدين الفلسطينيين^(٢).

عضو وطني عام آخر في " الهيئة العربية العليا "، رأى بأن رضوخ الجيوش العربية، بقبولهم الهدنة، وفر " فرصة الدهر " للصهاينة، " مكنت دولتهم، تمكينًا تامًا "، واستغلوا كل دقيقة في جلب السلاح، والعتاد، والطائرات، والمدافع، والطيارين، والجنود، والضباط، والقواد. أما الحكومات والجيوش العربية، فاكتفت بالاحتجاج والشكوى. إلى نفاق الإنكليز، وتراخى حكام العرب في السير الحربي، وإسرافهم في التطمينات المضللة لشعوبهم، حتى أن أحد هؤلاء الحكام نفى أن يكون

(١) حنا إبراهيم (إعداد)، حنا نقارة، محامى الأرض والشعب، عكا، دار الأسوار، ١٩٨٥، ص ١٥٤.

(٢) إميل الغوري، المؤامرة الكبرى/ اغتيال فلسطين ومحق العرب، ط، ١ القاهرة، دار النيل للطباعة، ١٩٥٥، ص ٢٣٥ - ٢٤٢.

حكام العرب قبلوا الهدنة تحت ضغط إنكلترا، والأمم المتحدة، بل أن الدول العربية - برأيه قبلت الهدنة " وهى عالمة بأنها ستفوز، إن شاء الله، إن سلمًا وإن حربًا "، فيما زاد عليه رئيس وزراء لبنان، رياض الصلح " إن هذا القرار ليس إلا وقفًا لإطلاق النار، مدة معينة... وأن العرب يملكون ناصية الحال في فلسطين، ومركزهم من أمتن المراكز " ! أما جميل مردم، رئيس الوزراء السوري، آنذاك، فرأى أن " الهدنة فرصة جديدة لتسوية صحيحة " ! ولقد قيل - فيما قيل - على السنة مسئولين كبار، عسكريين، وسياسيين، إن العرب مالوا إلى الهدنة تحت ضغط قلة العتاد. وأعاد عضو " الهيئة " نفسه، عدم الاستعداد العسكري العربي، إلى بالغ الغفلة، والاستهتار، والانصراف التام عن فكرة استخدام الجيوش النظامية، في هذه الحرب. لقد دخلوا الحرب، وهم متيقنون من أن دخولهم لن ينقذ إلا الأقسام العربية. أما مابدا من تلكؤ، وتراخ، وارتباك، وارتجال، وغفلة، واستهتار، وضعف إعداد واستعداد، وفقد تضامن، وانسجام، فما هو إلا عَرَض لضعف البنية القومية العربية. لقد ذهب رجال اللجنة السياسية، للجامعة العربية، إلى أن مجرد زحف الجيوش العربية، بقطع النظر عن عددها، وعدتها، كانت لحمل الدول الكبرى على التدخل، وإيجاد حل، يرضى عنه العرب! وكانوا يقولون، صراحة، إنهم قد أعدوا لكل شيء عدة، وحسبوا لكل شيء حسابًا. فضلاً عن تقصير الحكومات العربية، الفادح، في تسليح أبناء الشعب الفلسطيني. ولعل ما يدعو للاستهجان، أن رئيس وزراء مصر، آنذاك، محمود فهمي النقراشي باشا، قال، في اجتماع اللجنة السياسية للجامعة

العربية، في عالية، في ٦/١٠/١٩٤٧: "إنني أريد أن يكون معلوماً من الجميع، أن مصر، إذا كانت توافق على الاشتراك في هذه المظاهرة - أي الحشد على الحدود - فإنها غير مستعدة، قط، للمضي أكثر من ذلك". ولأن النقراشي يتحدث باسم أكبر دولة عربية، فإنه يتحمل مسؤولية أكثر من غيره. وأن كان صاحب هذه الآراء، لم يعف الإنكليز، من حصتهم في الجريمة، حيث استمروا في "دورهم اللئيم، أثناء الهدنة، وتسليمهم ميناء حيفا لليهود... آخر حزيران/يونيو ١٩٤٨"، ناهيك عن "شدة تمسكهم في عدم إمداد الجيوش العربية... ومساعدتهم في عرقلة التسليح العربي" (١).

ما أن استشهد قائد "الجهاد المقدس"، عبد القادر الحسيني، في معركة القسطل (١٩٤٨/٤/٨) حتى بادر رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، الحاج أمين الحسيني، إلى تعيين ذى الكفل عبد اللطيف، صاحب الخبرة العسكرية الجيدة، ليحل محل القائد الشهيد، لكن أبناء عائلة الحسيني، احتجوا على هذا التعيين، مرددين "مات حسيني، يجب أن يحل محله حسيني" ! وحين علم الحاج أمين الحسيني، بالأمر هاج وماج، لكنه - بعد أن التقى أبناء عائلته - رضخ لطلبهم، وعين صلاح الحسيني - المعدم الخبرة العسكرية - محل عبد القادر الحسيني. وكأن المسألة عائلية، أو وراثية، أو خلافة، على حد قول ذى الكفل عبداً

(١) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ط١، الجزئين الرابع والخامس، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦١م، ص ١٦٢ - ١٧٣.

للطيف (١).

أما رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، على مدى ثلاثينيات، وأربعينات القرن العشرين، الحاج أمين الحسيني، فقد رد على سؤال لرئيس تحرير يومية " المصري " القاهرية، أحمد أبو الفتح، مؤداه: ماهي الأسباب الرئيسية لكارثة فلسطين؟ وكان ذلك بعد نحو خمس سنوات من وقوع النكبة، أجاب الحسيني بأن الأسباب منها ما هو خارجي، ومنها ما هو داخلي، وهذه الأسباب بعضها قديم، وبعضها الآخر حديث. أما الأسباب الخارجية الرئيسية، فهي (٢).

١- دوافع التعصب الديني الشديد عند اليهود، وإصرارهم على استعمار فلسطين، والاجتماع في بيت المقدس حول " الهيكل " (المكان الذي يقوم فيه المسجد الأقصى المبارك). ورفضهم إنشاء الوطن اليهودي في غير فلسطين.

٢- الشعور الروحي المتأثر بالتوراة عند الإنجليز، والأمريكيين البروتستانت، خاصة لما ورد فيها من تنبؤات، استغلها اليهود لمصالحهم، عن عودة اليهود إلى فلسطين.

٣- ما خلفته الحروب الماضية بين الشرق، والغرب، المعروفة بالحروب الصليبية، التي أثرت فيها العواطف الدينية، وما تلاها من حملات الجيوش العثمانية، على شرق أوروبا، في نفوس كثير

(١) ذو الكفل عبد اللطيف. مذكراتي، عجمان، دار سندباد للنشر، ٢٠٠٠، ص ٢١٧ - ٢٢٦.
(٢) محمد أمين الحسيني، حقائق عن قضية فلسطين، ط٢، القاهرة، مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، ١٩٥٦، ص ١٦٨ - ١٧٠.

من الشعوب الأوروبية، وغيرها، من أحقاد، وبغض عميق، ضد العرب والمسلمين عامة، مما حملها على الوقوف إلى جانب الحركة الصهيونية المتدثرة سياسيًا بالديانة اليهودية.

٤- توافق أهداف الاستعمار البريطاني، ومصالحه، مع أطماع الحركة الصهيونية في فلسطين، ثم انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها، فيما بعد، وذلك لأن الاستعمار يرمي إلى:

- جعل الدولة الصهيونية في فلسطين، متكأ له، وخنجرًا مسمومًا يشهره في وجوه الدول العربية.

- حاجزًا يفصل الأقطار العربية، في آسيا، عن الأقطار العربية في إفريقيا. وعائقًا دون تقدم الأمة العربية، واحتمالات نهوضها.

أما الأسباب الداخلية، فأهمها ^(١) :

١- وهن في الأخلاق القومية، وضعف في الأيمان بالقضية العادلة، والعزيمة الوطنية، وما انتشر في الأمة من الفوضى، وضعف التنظيم.

٢- الغفلة الشديدة عن تعرف مواطن الخطر المحدق بكيان الأمة العربية، والاستخفاف بالأخطار، استخفافًا ناشئًا عن الإهمال، وخور العزيمة، والغفلة، والأتكال، وعدم معرفة ما تنطوى عليه صدور الصهاينة، والمستعمرين. وقد كانت الدعاية الإنجليزية تعني خاصة بتخدير المقامات العربية.

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣ - ١٨٧.

- ٣- ما نأى بهذه المقامات عن الجد والعزم في معالجة قضية فلسطين.
- ٤- لم يعن العالمان، العربي، والإسلامي، العناية الكافية، بقضية فلسطين.
- ٥- تخاذل بعض الدول العربية، واختلاف سياساتها، أثناء معركة فلسطين، فلم يقاتل العرب، ضعفاً، فأضاعوا الفرصة، بعدم تعاونهم على العدو، الذي لم يكن قوياً، يومئذ.
- ٦- إعداد الإنجليز، طوال مدة انتدابهم على فلسطين، ولاسيما أثناء الحرب العالمية الثانية، كافة الوسائل لتنظيم اليهود، وتدريبهم، وتسليحهم، وتهئنتهم لتسلم فلسطين، يقابل ذلك تجريدهم العرب من السلاح، وإرهابهم، وإضعافهم، ليعجزوا عن الصمود في وجه اليهود.
- ٧- أدى الضغط الاستعماري إلى وضع القيادة العسكرية الفعلية للجيش العربية في تحت قيادة الجنرال الإنجليزي جون باجوت جلوب، والذي أدار دفعة المعارك، بما يوافق أهواء السياسة البريطانية، الضالعة مع الصهيونية.
- ٨- لم تتوفر لأصحاب العقد والحل العرب الدراسات السياسية، والعسكرية، والتاريخية، عن فلسطين، وعن مبلغ الخطر الصهيوني. كما أن بعضهم، فيمن أوكل إليهم أمر القيادة العسكرية، قد برهنوا على إهمال فاضح في الشؤون العسكرية، فضلاً عن أنهم لم يدخلوا فلسطين، ولم يعرفوا شيئاً عن شئونها

الجغرافية، ومواقع الصهاينة العسكرية، وتحصيناتهم، وخطوط دفاعهم.

٩- توقيع الهدنتين، الأولى، والثانية، بين القوات العربية، وتلك الصهيونية، نتيجة ضغط إنجلترا، وأمريكا، على بعض الدول العربية. فيما كان العرب في موقع المنتصر.

١٠- الدعايات المضللة، والأراجيف الكاذبة، التي تغلغت في الأقطار العربية، والتي كانت تذيعها المصادر الاستعمارية، والصهيونية، عن قوة الصهاينة، وضعف العرب، وما روجته دوائر المخابرات، الإنجليزية، والصهيونية، من إشاعات باطلة عن الفلسطينيين، وإصاقها بهم أبشع التهم، تشويها لسمعتهم، ونزاعاً للثقة منهم، ومن عدالة قضيتهم، وإبعاداً لما بينهم وبين إخوانهم العرب، من روح المودة، والتعاون على دفع العدو الغاصب عن فلسطين.

حين نشر رأس الحركة الوطنية الفلسطينية مذكراته، في الشهرية الناطقة بلسان " الهيئة العربية العليا "، " فلسطين "، طور أسباب النكبة، فحمل الجامعة العربية مسؤولية كبيرة في صنع النكبة، بقطع الجامعة المساعدة المالية عن المقاتلين الفلسطينيين، بل إن تلك الجامعة وضعت يدها على ما تبرعت به الشعوب العربية، لهذا الصدد، ومنعته عن المقاومين، وعن القوات غير الحكومية المقاتلة.

كما أوقفت اللجنة العسكرية، التابعة للجامعة العربية، وترأسها العميد

طه الهاشمي، توزيع الأسلحة المقررة. بل إن تلك اللجنة صادرت الأسلحة التي اشتراها شعب لبنان، لشقيقه في فلسطين. كما أقدمت دول عربية على مصادرة مخازن الأسلحة، ومعامل إصلاحها، وتعبئة الذخيرة الخاصة بالمجاهدين الفلسطينيين، ناهيك عن إقدام الجامعة على نزع قضية فلسطين من شعبها. وقد كان الضغط الاستعماري العامل الأكبر في إرسال الجيوش العربية إلى فلسطين، بغرض إبعاد الشعب الفلسطيني عن المعركة، ونزع شوكته الشعبية المقاتلة، وخشية تفاقم حرب العصابات والفداء. وبعد أن يكرر رأس الحركة الوطنية الأسباب التي سبق أن رصدها للنكبة، انتهى إلى " أن قضية فلسطين هي، في حقيقتها، وأساسها، قضية دينية، قبل أن تكون قضية سياسية... فاليهود يعتبرونها قضية دينية " (١).

أسباب العسكر العرب

في مذكراته، أشار القائد العام للجبهة المصرية في حرب ١٩٤٨، اللواء أحمد فؤاد صادق باشا، ما ذكره له سلفه، اللواء أحمد المواوي، عن مظاهر التقصير، والتي حصرها في (٢)

- ١- عدم تدريب جنود المشاة، ما أفضى إلى عجز ظاهر.
- ٢- غياب التسهيلات للقائد من أجل تدريب مشترك للوحدات.
- ٣- عدم إتاحة الفرصة اللواء التدريب، لإتمام تدريبية، بل طلبت

(١) عبد الكريم عمر (إعداد)، مذكرات محمد أمين الحسيني، دمشق، دار الأهالي، ١٩٩٩، ص ٣٩٠-٤٠٣.

(٢) أخبار اليوم (القاهرة)، ١٣/١/١٩٥١.

- وحداته للقيام بأعمال تتعارض مع التدريب.
- ٤- عجز سلاح خدمة الجيش عن إمداد الوحدات بالعربات اللازمة.
 - ٥- تلف عربات الفرسان، والدبابات الخفيفة.
 - ٦- انتزاع العدو الإسرائيلي السيطرة الجوية، بعد الهدنة.
 - ٧- قلة المدافع.
 - ٨- إجبار المواوي على التقدم أكثر مما يجب، ما عرض خطوط مواصالاته للتهديد.
 - ٩- فصل مستعمرات الشمال عن مستعمرات الجنوب، اضطر الجيش المصري إلى احتلال الخط الممتد من أسدود إلى بيت لحم، بقوات غير كافية، ما أطال خطوط التموين.
 - ١٠- ضعف الروح المعنوية عند أكثر الجنود، بسبب النقص الهائل في التسليح.
- أما المفتش العام للجيش العربية، العميد طه الهاشمي، الذي حمل القسط الأكبر في تقصير الجامعة العربية، ولجنتها العسكرية، في إمداد المناضلين الفلسطينيين، وقوات المتطوعين العرب بالسلاح، فقد أدلى بدلوه، بادئاً بالقول " إن القوات العربية لم تحارب، بالمعنى الصحيح " ! وأعاد نجاح الصهاينة في تأسيس دولتهم " إلى أسباب سياسية، لا لأسباب عسكرية " !، مضيفاً " إن السياسة، حينما تتدخل في توجيه القتال في الحرب، يخسر الجيش المعركة ". مستطرداً " إن الجيش العربية لم

تشارك في قتال فلسطين بقوات كافية " ! فضلاً عن أن تلك الجيوش كانت " تحارب منفردة... من دون أن تخضع لقيادة عامة، تديرها حسب الخطة الحربية... من دون قيادة موحدة، من دون الاستناد إلى خطة حربية " ! واختتم الهاشمي تقديمه النقدي بالقول إن " الحركات التي سبقت الهدنة - إذا استثنينا حركات القوات المصرية - لم تكن عمليات تجرى لاستهداف أغراض عسكرية. وإنما كانت السياسة النفعية " (١).

لعل السؤال المشروع، الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا، هو: لماذا كل هذا التقصير المتعمد؟! وما لذي منع من تفادي النقص.

أما القائد الليبي، الذي وفد إلى فلسطين، وتولى قيادة المنطقة الجنوبية فيها، مدة غير قصيرة من حرب ١٩٤٨، فأوضح كيف أن اللجنة العسكرية، التابعة للجامعة العربية، عطلت تدريب أكثر من ألف شاب فلسطيني على السلاح، كانت " الهيئة العربية العليا لفلسطين " أرسلتهم إلى سوريا لتلقى التدريب في معسكر (قطنا) قرب دمشق، وجاء تصرف اللجنة العسكرية المستهجن هذا، بعد احتجاج تقدمت به حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين. كما لم ينس ذاك القائد الليبي التدبير بسياسة الجامعة العربية، الرامية إلى " إقصاء الفلسطينيين عن ميادين المعركة، ومنع الأسلحة، والأموال عنهم " (٢).

في السياق نفسه، أخذ هذا القائد الليبي على القيادة العربية العامة أنها

(١) الزمان (بغداد)، ١٩٥٢/٥/١٥، أوردها: دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨.
(٢) محمد طارق الإفريقي، المجاهدون في معارك فلسطين (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م)، دمشق، دار اليقظة العربية، د.ت، ص ٢٤ - ٢٥.

لم تستلم المواقع، الاستراتيجية والتكتيكية، من المجاهدين، قبل المباشرة بالمعارك، لكي تسيطر تلك القوات على الأعمال العسكرية، لاحقاً، مما أدى إلى استيلاء الصهاينة على هذه المواقع، بمجرد انسحاب المجاهدين منها، مع كل ما فيها من مخازن للأسلحة، والذخائر، فسيطر الصهاينة على الأعمال الحربية، إلى نهاية الحرب. ولم يفت القائد نفسه الإشارة إلى خطيئة فقدان القيادة الموحدة للجيش العربي، لتوحيد أعمالها، وتوجيه خططها، توجيهاً صحيحاً، إلى أهداف معينة. فضلاً عن عدم كفاية الاستعدادات " أمام العدو العنيد المجهز بأحدث الأسلحة، والآلات الحربية الفتاكة، والحائز على تأييد الدول الكبرى ". ناهيك عن إهمال " قيادة الجيش العربي أمر المجاهدين في فلسطين، ولم توجه أعمالهم الحربية، للاستفادة منهم " (١).

قائد عسكري عربي آخر، من لبنان الشقيق، تلقى في صدره وظهره الكثير من الاتهامات، ولا أدري ما إذا كانت أنظمة عربية بعينها قد حاولت أن تجعل منه " كبش فداء "؟! أصدر مذكراته، واتهم الجميع، أغلب الظن ليبرئ نفسه. بدأ هذا القائد بالفرع من حمى المؤتمرات العربية، وكان الأقطار العربية غدت في حالة " نفير عام "، فيما كان أغلب كبار المسؤولين العرب، عسكريين، وسياسيين، مطمئنين " إلى أن حرباً لن تقع ". كما تأسى القائد نفسه من جهود الحاج أمين الحسيني " لعرقلة الأعمال، وتفريق الصفوف " ! فضلاً عن السماح لمراسلي الصحف الأجنبية، بالإطلاع على الأسرار العسكرية، ما شجعهم على بث

(١) المصدر نفسه، ص ٩٨ - ١٠٣.

الرعب في صفوف العرب بتأثير تهويل أولئك المراسلين في قوة العدو الصهيوني. إلى تحيز القوات البريطانية، وغرق العرب في الفساد، والفوضى، وافتقارهم إلى السلاح والعتاد، وغرق رؤسائهم في الأوهام. وأشار هذا القائد إلى ما سبق أن قاله له رئيس اللجنة العسكرية للجامعة العربية، اللواء إسماعيل صفوة: "... ولعل الجامعة (العربية) نفسها غير جادة في كثير مما تقرر وتقول"، كما ينزعج القائد العربي ابن لبنان من " العقلية التوفيرية الرخيصة"، وكان " العتاد أغلى قيمة من الدماء"، "إلى تعدد الرؤوس، والصلاحيات المتناقضة"، فضلاً عن أن الهدنة التي فرضها الأمين العام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام باشا، في ١٩٤٨/٥/٨، وفرت " فرصة لإيصال قوافل المون والذخائر إلى يهود القدس " المحاصرين. كما تلاعب بعض الرؤساء العرب بالخطبة الرئيسية للجيش العربية، قبل بدء المعركة. في الوقت الذي غرقت فيه هذه الجيوش في حالة من الرفاة، لم تعرفها في ثكناتها، أيام السلم، والأمة تلهو، وتطرب، ينتقل القائد نفسه إلى الجامعة العربية، التي شكا أمينها العام من معاناتها من التبعثر، ومن تفرق الكلمة، والتهرب من المسؤوليات، والتخلف عن دفع الدول العربية ما سبق أن تعمدت به من أقساط مالية. وهذا رئيس وزراء العراق، آنذاك، " مزاحم الباجة جى " يوجه غضبة إلى الأمين العام للجامعة: " أنت يا عزام دبستنا بها الوحلة أنت لازم تنشلنا منها ! فيما حاول عزام البحث عن مخرج، فلم يفلح. ثم ما كان من تأسيس " حكومة عموم فلسطين " * وما سببته من حرج

(*) حكومة عموم فلسطين: التقى وجهاء فلسطينيون في غزة، في ١٩٤٨/١٠/١، في هيئة

لمصر، وللجامعة العربية، أمام الإنجليز! ويخلص القائد، نفسه، إلى أن دخول الجيوش العربية، لحرب ١٩٤٨، لم يكن إلا وكأنه مسألة رفع عتب " ! وينتهي القائد العربي المخضرم، إلى أن توقيع اتفاقات الهدنة في رودس " كأنما هو وثيقة ناطقة بأن إسرائيل قامت، واقعياً، لاشرعياً " ! وأن " الحكومات العربية دخلت إليها (فلسطين) ممثلة مستهترة، وخرجت منها واهمة، مذعورة " (١)

الاستنتاجات

لقد غرق العسكريون في نقاط الضعف العسكرية، فيما استغرق السياسيون، في النقاط السياسية، وأهمل الجميع الأساس الاقتصادي - الاجتماعي لهذا كله، فأوجه القصور، سياسية كانت أم عسكرية، هي نتائج، وليست أسباب، تمرض، وليست المرض.

حتى العسكريون، لم يلاحظوا، بأن الهزيمة كانت قراراً رسمياً عربياً، إذا كيف تدخل دول عربية الحرب لتهاجم بثلاث قوات أعدائها، وسدس قوات الأعداء مضافاً إليها الاحتياطي؟! ناهيك عن جهل الجيوش العربية بطبيعة الأرض، وبالهدف الذي تقاتل من أجله (التكليف العسكري)، وتعارض أرادات الدول العربية، التي دخلت الحرب،

مؤتمر وطني فلسطيني، سرعان ما انتخب حكومة، حملت اسم " حكومة عموم فلسطين " وترأسها أحمد حلمي عبد الباقي باشا، لكن النظام السياسي الرسمي العربي، عمل على تحنيط هذه الحكومة، منذ ولادتها. وقد نجح ذلك النظام، في مهمته هذه، أيما نجاح، لأسباب ذاتية، وموضوعية، لا يتسع المجال لذكرها هنا.

(١) خيرية قاسمية (إعداد)، مذكرات فوزى القاوقجي، ط٢، دمشق، دار النمير، ١٩٩٥، ص ٣٢١ - ٥٠٦.

ومبادرة بعض الجيوش العربية إلى سحب أسلحة المجاهدين الفلسطينيين، بمجرد دخول تلك الجيوش إلى فلسطين، بدل أن تستعين الجيوش بالمجاهدين والمحليين، وهم الأدرى بطبيعة الأرض، ونقاط ضعف العدو، على الأقل.

مع هذا كله، فلعل ما رصده المسئولون العرب، فلسطينيون، وغير فلسطينيين، من أسباب للهزيمة، والنكبة، يكمل ما بدأه باحثون عرب، في رصد هذه الأسباب. أما الحق، فيبدو أنه على الطليان!

* * *

الفصل العشرون:

قراءة في وثائق النكبة

(أسسمهان شريح)

لم يكن لنكبة فلسطين أن تحصل على الشكل الذي حدثت به لولا تواطؤ القوى الإستعمارية العداونية متمثلة بالدول العظمى في أوروبا وأمريكا. فقد بدأ التحضير للنكبة بخطوات وإجراءات محددة، كما توفرت عوامل ذاتية وموضوعية أدت لتحقيق المشروع الصهيوني المدعوم من القوى العظمى عام ١٩٤٨.

تتحمل أوروبا أولاً والولايات المتحدة الأمريكية ثانياً، المسؤولية عن نكبة فلسطين، تشاركها عصابة الأمم وخليفاتها منظمة الأمم المتحدة هذه المسؤولية؛ وليست الإمبراطورية العثمانية والأنظمة العربية بمنأى عن هذه المسؤولية؛ ومع مرور الوقت، وتيسر سبل الحصول على المعلومات أخذت هذه المسؤولية تتكشف شيئاً فشيئاً، حتى اتضحت معالم المؤامرة الكبرى بحق فلسطين وشعبها. وقد انقشع الكثير من الضباب الذي كان يغشى معالم المسألة الفلسطينية، ومسبباً الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني، وذلك نتيجة إخراج عدد من الوثائق إلى حيز الضوء، وبالتالي فحصها وقراءتها بعقلانية وموضوعية.

وبذلك يغدو ملائماً، بل ومفيداً، الإطلال على هذه الوثائق، في محاولة للعثور على بعض أجزاء لوحة النكبة الفلسطينية، وتركيبها في

مكانها المناسب، وعلى طريق استكمال هذه اللوحة لاستخلاص الدروس والعبر اللازمة على طريق الصراع الطويل من أجل استرداد الحقوق الوطنية الفلسطينية.

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة قراءة أولية في وثائق النكبة من خلال بعض المصادر المتنوعة المتوافرة باللغة العربية، الصادرة أساساً باللغة العربية، أو المترجمة إليها، لعلها تلفت نظر المختصين من سياسيين وقانونيين وغيرهم لإنجاز قراءات مختصة وأكثر عمقاً لوثائق النكبة.

ونظرًا لأغراض هذه الدراسة، فإنها ستعتمد التقسيم الموضوعي، فتتناول الوثائق البريطانية والفرنسية والألمانية والتركية والعربية، بالإضافة إلى وثائق عصبة الأمم والأمم المتحدة، وستتبع المنهج التحليلي في قراءة الوثائق.

مقدمة:

يعود تاريخ الأطماع الأوروبية في فلسطين خلال العصور الحديثة، إلى منتصف القرن السابع عشر، حيث كان البيرويتانيون يشكلون الطبقة الحاكمة في إنجلترا والأراضي المنخفضة، بالإضافة إلى كونهم القوة الاقتصادية المنفذة، فمنهم كبار التجار ورجال الأعمال. ونظرًا للصلة الوثيقة التي كانت تربط البيوريتانية اليهودية، فقد تهيأ لليهود مجال واسع للمساهمة في النشاط التجاري دون خوف أو وجل من البيوريتانيين. ما جعل رئيس إنكلترا البيرويتاني آنذاك، أوليفر كرومويل، يدرك مدى الفائدة المادية التي كان بمقدور اليهود تقديمها لاقتصاديات بلده، وخاصة في المجال التجاري. ولذلك أبدى اهتمامًا كبيرًا بشؤون اليهود، وراح يقدم

لهم الكثير من التسهيلات. وقد نظم عدد من البيوريتانيين الإنكليز " حركة " (١) بهدف مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين؛ وقاموا سنة ١٦٤٩ بتقديم عريضة إلى الحكومة الإنكليزية جاء فيها: " إن الأمة الإنكليزية مع سكان الأراضي المنخفضة سيكون أول الناس وأكثرهم استعدادًا لنقل أبناء إسرائيل وبناتها إلى الأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب كي تصبح إرثًا دائمًا لهم (٢).

وبالرغم من أن هذه الحركة ودعوتها إلى توطين اليهود في فلسطين لم يتمخض عنها أية نتيجة عملية، إلا أنها كانت مؤشرًا للقوى الحاكمة في بريطانيا وغيرها كي تولي فلسطين مزيدًا من اهتمامها، وتدرس بجدية مدى الفوائد الاقتصادية والسياسية التي يمكن جنيها من وراء توطين اليهود فيها. وبالفعل، فقد شهدت فلسطين، منذ منتصف القرن الثامن عشر، وبشكل أوضح في القرن التاسع عشر، نشاطًا مكثفًا واكب التوسع الإمبريالي الغربي، قامت به مجموعات من التجار وعلماء الآثار والمغامرين.

الوثائق البريطانية :

كان لبريطانيا الدور الرئيس في التسبب بنكبة الشعب الفلسطيني، فلم تكثف الحكومة البريطانية بمنح زعماء الحركة الصهيونية اليهود وعدًا

(١) د. أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، شباط / فبراير ١٩٨٤، ص ١٣، عن ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية في إنكلترا، الصهيونية العنصرية (بيروت: ١٩٧٧)، مجلد ٢، ص ٢٨.

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

يضمن لهم تحقيق مشروعاتهم في فلسطين، هو وعد بلفور، بل سعت جاهدة لتنفيذ هذا الوعد من خلال تضمينه في صك الإنتداب الذي أقرته عصبة الأمم. وبعد إنفاذ مشروع الإنتداب، وبسط الإنكليز نفوذهم على فلسطين، أخذوا بتنفيذ وعدهم، بدءًا بتسهيل هجرة اليهود الأوروبيين، وتمكينهم من الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، مرورًا بتسليحهم وتأمين الحماية لهم أثناء الصدامات مع الفلسطينيين الذين قاوموا محاولات اليهود للاستيلاء على بلادهم، وانتهاء بتقديم كل التسهيلات التي من شأنها تأسيس البنية التحتية للدولة اليهودية التي تم الإعلان عن قيامها في الخامس عشر من أيار ١٩٤٨، بعد استكمال شروطها.

ويتأكد الدور البريطاني في نكبة فلسطين من خلال قراءة الوثائق الرسمية ذات العلاقة.

وعد بلفور:

وهو عبارة عن رسالة بعث بها وزير الخارجية البريطانية، آرثر بلفور، عام ١٩١٧، إلى اللورد روتشيلد، أحد زعماء الحركة الصهيونية في تلك الفترة، والتي عرفت فيما بعد باسم وعد بلفور؛ وتم اعتبارها أول خطوة رسمية يتخذها الغرب لأقامة كيان لليهود في فلسطين. وقد قطعت فيها الحكومة البريطانية تعهدًا بإقامة دولة لليهود في فلسطين. وفي ما يلي نص الرسالة:

" إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًا أنه لن يوتى بعمل من شأنه أن ينتقص من

الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع لها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى".

ولم يكن وعد بلفور هو الوعد الأول الذي قدمته بريطانيا لليهود، بل سبقه وعدان إبان فترة الحرب ولكنهما توقفا، وكان الوعد الأول في آذار / مارس سنة ١٩١٦. على يدي جراي وأسكيث، ولكن حدث أن تعطل صدور هذا الوعد. وكانت المحاولة الثانية لإعطاء اليهود وعدًا في ربيع سنة ١٩١٧، حين كانت بريطانيا في ذلك الوقت في تنافس شديد مع فرنسا، التي كانت تريد كسب أصوات اليهود لتتفوق في فلسطين المعروف يومئذ بالقسم الجنوبي من سوريا، وكان الوزارة البريطانية عادت وصرفت النظر عن هذا الوعد أيضًا. ثم منحتهم وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧، مع اجتياح الجيوش الإنجليزية فلسطين (١).

وهكذا فإن احتلال فلسطين، فعليًا، من قبل الجيش الإنكليزي قد تم قبل تكليف عصبة الأمم بريطانيا بالانتداب على فلسطين.

من الناحية القانونية: صدر وعد بلفور على شكل رسالة موجهة من آرثر جيمس بلفور، الذي كان وزير خارجية بريطانيا آنذاك، والذي حمل التصريح اسمه، منذ ذلك الحين، إلى آدموند دي روتشيلد، وهو من أثرياء اليهود في بريطانيا، بتاريخ ١٢/١١/١٩١٧، ما يشير بوضوح إلى أن

(١) د. محمد إسماعيل علي السد، مدى مشروعية أسانيد السيادة "الإسرائيلية" في فلسطين، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٥ ص ١٤٥.

تصريح بلفور لا يعدو أن يكون تصريحًا سياسيًا ليس له صفة الإلزام القانوني، فهو قد صدر عن شخص قانوني يملك أهلية الالتزام في دائرة الأعمال القانونية الدولية، وهذا الطرف هو بريطانيا ممثلة في وزير خارجيتها، الذي يملك طبقًا لقواعد القانون الدولي أن يعبر عن إرادة الدولة^(١).

أما الطرف الثاني فهو فرد عادي ليس له أي كيان دولي، ومن ثم فإن ما يتم بينه وبين الحكومة البريطانية من علاقات واتفاقات لا يدخل في نطاق العلاقات الدولية ولا يحكمه بالتالي القانون الدولي^(٢).

ويمكن تقسيم وعد بلفور إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو المتعلق باليهود ويقول: " تنظر حكومة صاحبة الجلالة بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل مساعيها لتسهيل هذا الهدف ".

ولابد هنا من الإشارة إلى نقطتين:

الأولى: إن الحركة الصهيونية في مراحلها الأولى لم تركز على فلسطين بصورة مطلقة دون سواها، فقد قامت بمحاولات سابقة للحصول على قبرص أو شبه جزيرة سيناء من بريطانيا. ودرس زعماء الصهاينة احتمال اتخاذ شرق أفريقيا والأرجنتين لإقامة دولة لليهود. ولكن بعد

(١) د. محمد طلعت الغنيمي، قضية فلسطين أمام القانون الدولي، دار المعارف، الإسكندرية، ص ١١.

(٢) سامي هداوي، ملف القضية الفلسطينية، تحرير د. يوسف صايغ، منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٨ ص ٢٥.

انتصار (جماعة فلسطين) في المؤتمر الصهيوني الذي عقد عام ١٩٠٤، عقب وفاة هيرتزل، بعد ذلك فقد تركزت مطالب الصهاينة على فلسطين. وهذا على الأقل يلي الشك حول الادعاءات الصهيونية اللاحقة بأن فلسطين هي الملجأ الوحيد المقبول لليهود في المنفى.

الثانية: فهي أن الجزء الأول من التصريح لم يفصح عما هو أكثر من (وطن قومي) في فلسطين. بالإضافة إلى أن هذا الوعد المحدود كان مشروطاً حسب الجزئين الثاني والثالث من التصريح ^(١).

القسم الثاني: هو المتعلق بحقوق الفلسطينيين ووضعهم، وينص على أنه: "من المفهوم بوضوح أنه يجب عدم القيام بأي عمل من شأنه الإجحاف بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين"، وهو بذلك يقسم فلسطين على أساس طائفي تمهيداً لضمان مكانة اليهود.

القسم الثالث: الذي يشير إلى وضع اليهود خارج فلسطين فيقول: "يجب ألا تجحف إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين بالحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في الأقطار الأخرى".

إن هذه العبارة الأخيرة قد أعطت اليهود وطن شعب آخر، في الوقت الذي حافظت فيه على حقوق اليهود في بلدانهم الأصلية. ويعتبر وعد بلفور نصاً نموذجياً لكيفية القضاء على شعب كامل له حضارته العريقة وإحلال آخرين مكانه، فعند صدور هذا الوعد كان عدد سكان فلسطين

(١) اللاجئين الفلسطينيون، مركز المعلومات البديلة، القدس، دمشق ص ٨.

يُناهز ٦٠٠ ألف نسمة، بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز، حسب تقرير مقدم من الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين لعصبة الأمم، ٥٥ ألف نسمة بما فيهم اليهود الفلسطينيون (غير المهاجرين الأوروبيين)، ما يعني أن نسبة ٩١ ٪ من السكان في فلسطين هم سكانها الأصليين. بينما لم يشكل اليهود سوى نسبة ٩ ٪ فقط من العدد الكلي للسكان^(١). وذلك بخلاف ما جاء به القسم الثاني من وعد بلفور، الذي أعطى صورة مضللة عن وضع اليهود في فلسطين وعد دعاوى ملكيتهم الثابتة لها، عندما استخدم عبارة (الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين)، قاصداً بذلك إعطاء انطباع مضلل بأن الفلسطينيين كانوا أقلية لا يعتد بها، وبأنهم يحتلون وضعا ثانويا بالنسبة لوضع اليهود؛ حيث توحى هذه العبارة بالحرص على حماية حقوق الفلسطينيين بصفقتهم (الطوائف غير اليهودية) تمهيدا للاستيلاء على حقوقهم في بلدهم بصفقتهم أصحابه وسكانه الأصليين، وهو ما حدث فعلاً.

وبإمعان النظر في المعاني المتضمنة بهذه العبارة، يمكن إصدار الحكم التالي عليها: إنها كافية بذاتها لإبطال مفعول بقية الوعد (وعد بلفور)^(٢).

ومن الناحية السياسية التحليلية تقول القراءة الصهيونية / الإسرائيلية أن الحركة الوطنية الفلسطينية ظهرت أو انبعثت فقط نتيجة للقاء مع

(١) محمد سيف، ٩٠ عاماً على وعد بلفور/قراءة قانونية، مدونات مكتوب على الشبكة الإلكترونية.

(٢) المصدر نفسه.

الصهيونية، وهو ادعاء ينطوي على قدر من الخبث المغرض من حيث أنه يسعى إلى صبغ الحركة الفلسطينية وروادها بألوان المحاكاة وانعدام التقاليد والإرث القوميين، بل ودمغها بالعدمية والعنفوية العنيفة. ما قاد، بالتالي، إلى الإدعاء بأن الفلسطينية كانت بمنزلة ردة فعل رجعية على صدور وعد بلفور، وبالتالي ليس هناك بطبيعة الحال أية صلة أو رابطة بين هذا " الوعد " وبين الذين ظهرُوا بجريرتِهِ (" الطوائف والمجموعات غير اليهودية " في فلسطين). وهو ما يعني - وفقاً لما يرمي إليه الإدعاء ذاته - برهاناً آخر على مقولة " شعب بلا أرض لأرض بلا شعب ".

وفي قراءة إسرائيلية متخصصة لهذه الوثيقة، اعتبر د. يحيى شور، الكاتب والمؤرخ المحاضر في " كلية بيت بير "، أن في القراءة الإسرائيلية، أساساً وعناصر عاطفية ووجدانية مفردة، بل وحتى صبيانية وقاصرة بعض الشيء قبعَت في صلب إصدار وعد بلفور، مثل التزام بريطانيا تجاه المساعدات الكيميائية - العسكرية التي قدمها البروفيسور حاييم وايزمان للمجهود الحربي البريطاني؛ العلاقات الشخصية بين زعماء صهيونيين وبين زعامة الحكم البريطاني؛ التوجه المسيحي الحماسي لدى رئيس حكومة بريطانيا لويد جورج؛ الإيمان بضرورة تطوير علاقات عمل وتعاون بين المشروع الصهيوني المستقبلي وبين البريطانيين، إضافة إلى الاعتبار الأخلاقي بشأن وجوب دعم ومساندة الشعب اليهودي المضطهد... إلخ.

ورأى شور أن وعد بلفور كان يهدف، أو من المفروض أن يؤدي،

إلى دفن مشروعات سابقين فيما يتعلق بالشرق الأوسط: رسائل ماكماهون واتفاق سايكس - بيكو، بما يفضي إلى شرعة وتكريس الكولونيالية البريطانية.

ويخلص شور إلى أن صيغة الوعد الذي أصدره البريطانيون لم تأت عبثاً أو من باب الصدفة: فقد شكل ذلك الوعد/ التصريح الصادر في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ مدخلاً - رسمياً في نموذج الإنتداب، وشكل لاحقاً أرضية أخلاقية - دولية لإقامة دولة إسرائيل^(١). وفي القراءة السياسية، فإن وعد بلفور هو الخطوة الأولى على طريق بسط نفوذ بريطانيا على المنطقة من أجل تحقيق مصالحها فيها؛ تلك المصالح التي رأى المفكر الاستراتيجي كامل بترمان أنها لن تتحقق إلا بزرع كيان غريب في فلسطين صديق لبريطانيا وعدو لسكان المنطقة.

ومهما قيل في وصف " وعد بلفور "، والدور الرئيس الذي لعبه في مختلف مراحل المسألة الفلسطينية، فلن يكون من قبيل المبالغة اعتباره أحد الجذور الرئيسية للنكبة، إن لم يكن الجذر الأساس لها.

توصيات لجنة بيل :

كانت لجنة بيل التي عينتها الحكومة البريطانية في أعقاب اندلاع ثورة ١٩٣٦، لتقصي أوضاع فلسطين، أول من اتبع فكرة تقسيم فلسطين بين الغزاة اليهود الأوروبيين والفلسطينيين أصحابها الأصليين، حيث أوصت اللجنة في تقريرها الذي قدمته إلى الحكومة البريطانية، والذي

(١) د. يحيى شور، لماذا منح " وعد بلفور " لليهود تحديداً؟ موقع المشهد الإسرائيلي الإلكتروني، ٢٠٠٥/١٢/١.

صادقت عليه الأخيرة في تموز ١٩٣٧، بتقسيم فلسطين إلى دولتين، يهودية وتضم حوالي ٢٠ بالمائة من مساحة فلسطين، وفلسطينية تقم على المساحة المتبقية من فلسطين ومنطقة شرق الأردن. وقد احتلت توصية لجنة بيل أهمية خاصة، لدى الحركة الصهيونية لأنها أضفت شرعية على ثلاث قضايا أساسية:

أولاً: مطالبتها بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، الأمر الذي لم تتجرأ الحركة الصهيونية على المطالبة به رسمياً، وإن كانت تدعى إلى إنشاء " وطن قومي يهودي " في فلسطين.

ثانياً: مطالبتها بـ " تبادل سكان " بين الدولة اليهودية والدولة التي ستخصص للفلسطينيين.

وقد أثارت توصيات لجنة بيل نقاشاً حاداً بين القادة الصهيونيين. واتسمت ردود الفعل الصهيونية الأولية بمعارضة شديدة، لأن توصيات اللجنة قسمت " أرض إسرائيل "، حسب زعمهم، ومنحت اليهود " جزءاً صغيراً " منها فقط. غير أن هذه المعارضة أخذت تتضاءل وتخفت حتى تحولت إلى تأييد متحفظ أمام حقيقة توصية اللجنة بطرد العرب الفلسطينيين من الدولة اليهودية المقترحة (١).

وبذلك أسست هذه التوصية للنكبة الفلسطينية بتضمينها ترحيل الفلسطينيين عن أراضيهم ما جعل بن - غوريون يوليها أهمية استثنائية،

(١) د. محمود محارب، ستوت عاماً على النكبة: ترحيل الفلسطينيين؛ الجذور والممارسة، موقع عرب ٤٨، ٢١/١/٢٠٠٨.

وخاصةً التوصية المتعلقة بطرد الفلسطينيين، وأكد أن على الحركة الصهيونية " التمسك بالتوصية كما كنا تمسكنا بوعد بلفور، بل كما هو تمسكنا بالصهيونية ذاتها، يتوجب علينا التمسك بهذه التوصية بأقصى قوتنا وإرادتنا وأمانينا، لأن في هذه التوصية، من مجمل التوصيات، تعويضًا ما عن سلخ بقية أجزاء البلاد... إن بند الترحيل، حسب اعتقادي، أهم من جميع مطالبنا لزيادة المساحة.. وإذا لم يمكن بإمكاننا إخراج العرب من بين ظهرانينا الآن ونقلهم إلى مناطق عربية، الأمر الذي تقترحه لجنة ملكية بريطانية، فإنه لن يكون بمقدورنا القيام بذلك بسهولة (هذا إذا أمكننا القيام بذلك أصلاً) بعد إنشاء الدولة، عندما يكون كل العالم المعادي لنا ينظر إلينا بسبعة عيون، لمراقبة تصرفنا نحن تجاه أقليتنا " (١).

وبذلك تظهر توصيات لجنة بيل أن بريطانيا كانت متشبثة بإنفاذ وعدها لقيادة الحركة الصهيونية بل تبنت الصهيوني المتمثل في إقامة دولة لليهود بصورة علنية.

وهو ما يوضح أن تبني عصبة الأمم لوعد بلفور وتضمينه في صك الانتداب، ما هو إلا تأكيد على مدى إمساك بريطانيا بهذه الهيئة الأممية وتسخيرها لأغراضها الاستعمارية، لأن تنفيذ وعد بلفور كان سيستدعي، بالضرورة، التواجد البريطاني على أرض فلسطين، ما أوحى إلى الفكر الاستعماري البريطاني بابتداع فكرة الانتداب، بل وانتزاع مهر ختم عصبة الأمم عليه. وهو ما يبدو جلياً من خلال وثائق عصبة الأمم

(١) المصدر نفسه.

وخليفتها الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، والتي مهدت لحدوث النكبة.

وثائق عصبة الأمم والأمم المتحدة:

عصبة الأمم هي هيئة دولية أنشئت إثر الحرب العالمية الأولى، بموجب معاهدة فرساي التي وقع عليها يوم ١٩/٦/٢٨، ممثلو الحلفاء من جهة (كدول منتصرة) وممثلو ألمانيا من جهة أخرى (كدولة مهزومة).

وتضمنت هذه المعاهدة في بنودها الستة والعشرين الأولى ما أطلق عليه " عهد عصبة الأمم " الذي نص على إنشاء لجنة الانتدابات الدائمة من عضوية الدول الخمس الدائمة العضوية فيها. وتتلخص مهمة العصبة، التي ولدت رسميًا مع دخول معاهدة فرساي حيّز التنفيذ في ١٠/١/١٩٢٠، حسب نص العهد (الميثاق) في إقامة نظام دولي جديد مؤسس على العدالة، وفي ضمان السلم والأمن الدوليين، وتطوير التعاون بين الأمم. لكن، وبمرور الوقت، أكدت الوقائع أن العقلية الاستعمارية كانت تسيطر على عصبة الأمم، في جميع مراحلها، منذ قيامها مطلع عام ١٩٢٠، إلى أن خلفتها منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦. وتمثلت هذه العقلية، بشكل خاص في السياسات الفرنسية - البريطانية التي سعت، بكل ما في الاستعمار من جشع ووحشية، إلى اقتسام غالبية دول آسيا وأفريقيا. وكانت الأقطار العربية التي انفصلت عن الحكم التركي المهزوم في الحرب، والمتطلعة إلى الاستقلال، تعدّ مغنمًا لهذه السياسة. لهذا سارعت بريطانيا وفرنسا إلى احتلال ما استطاعتا احتلاله من تلك الأقطار، ومن بينها فلسطين، فوضع العالم أمام الأمر الواقع، وتمّ

استخدام عصابة الأمم لتقنين الاحتلال بشرعة دولية هي " عهد العصابة ". وبذلك أعطت هذه الهيئة الدولية الاستعمار " صبغة دولية مشروعة " تحت اسم " الانتداب ".

وكان ما ارتكبه بريطانيا بحق فلسطين وشعبها من خلال انتدابها خير دليل. فقد كان نصيب فلسطين من الاستعمار مضاعفًا حيث أضيف إلى الاستعمار مضاعفًا حيث أضيف إلى الاستعمار الذي أخضعت له أقطار العالم العربي، الاستيطان اليهودي الإحلالي؛ فاحتلتها إنكلترا منتدبة بتفويض من عصابة الأمم، في حين قامت الحركة الصهيونية بتنفيذ خطتها فغزتها هجرة فاستيطانًا، تحت حماية " الدولة المنتدبة ورعايتها بالقوة والسلاح.

ويمكن التعرّب على دور عصابة الأمم في توفير الظروف والشروط اللازمة لتحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين، وبالتالي التسبب في حدوث النكبة، من خلال قراءة العناصر والعوامل التي تم إعدادها وتهيئتها في مرحلة ما قبل تشكيل عصابة الأمم، حتى إذا قامت هذه الهيئة الدولية، استخدم الاستعمار والصهيونية تلك العناصر والعوامل، باسم العصابة، وإطارها، ومن خلالها، لتنفيذ المراحل الأولى للمشروع الصهيوني. فقد كانت الدول الكبرى في بداية القرن العشرين تسعى إلى فرض سيطرتها على الأقطار العربية الخاضعة، آنذاك، للحكم العثماني، الذي كان يعيش مرحلة التفكك والانحيار. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى، انتهت الإمبراطورية العثمانية، وبينما كانت الحرب على أشدها وقعت كل من إنكلترا وفرنسا في ١٦/٥/١٩١٦ اتفاقية " سايكس - بيكو

" السرية التي مزقت منطقة الهلال الخصيب إلى مناطق أخضعها لإدارة هاتين الدولتين. ومن ثم اتفقت إنكلترا وفرنسا في مؤتمر سان ريمو (١٩٢٢/٤/٢٥) على اقتسام النفوذ على أقطار بلاد الشام والعراق، وقامت إنكلترا بإدماج تصريح بلفور في صك الإنتداب على فلسطين، وأقرت عصبة الأمم هذا الصك في ١٩٢٢/٧/٢٤ منتهكة بذلك أحكام عهدها، الذي ادعى أن غاية الإنتداب هي مساعدة الشعوب على بلوغ مراتب الرقي والرفاهية، وتأهيلها لتقرر مصيرها ولتحكم نفسها بنفسها، وبذلك تكون الدول الخاضعة للإنتداب " أمانة مقدسة في علق المدنية ". وعليه فقد أجمع فقهاء القانون الدولي الذين فسروا عهد عصبة الأمم، على أنه لا يجوز أن تتولى الدولة المنتدبة شؤون البلاد كمالكة مطلقة، بل كما يتولى الوصي ما عهد به إليه ^(١).

أعلن مشروع الإنتداب البريطاني على فلسطين من قبل عصبة الأمم المتحدة بتاريخ ٦ يوليو / تموز ١٩٢١، وصودق عليه في ٢٤ يوليو / تموز ١٩٢٢، ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ سبتمبر / أيلول من العام نفسه، وتضمن مقدمة جاء فيها:

لما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن يعهد بإدارة فلسطين التي كانت تابعة فيما مضى للدولة العثمانية بالحدود التي تعينها تكل الدول إلى دولة منتدبة تختارها الدول المشار إليها تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم..

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤ ص ٢٣٦.

ولما كانت دول الحلفاء قد وافقت أيضاً على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي أصدرته في الأصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية في اليوم الثاني من شهر نوفمبر / (تشرين الثاني) ١٩١٧ وأقرته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق والوضع السياسي مما يتمتع به اليهود في أي بلاد أخرى..

ولما كان قد اعترف بذلك بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين وبالأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد...

ولما كانت الفقرة الثامنة من المادة ٢٢ المتقدمة الذكر تنص على أن درجة السلطة أو السيطرة أو الإدارة التي تمارسها الدولة المنتدبة سيحددها بصراحة مجلس عصبة الأمم إذا لم يكن هناك اتفاق سابق بشأنها بين أعضاء عصبة الأمم..

لذلك، فإن مجلس عصبة الأمم بعد تأييده الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يلي:

(وهنا سيتم اقتباس بعض الشروط / المواد المتعلقة بموضوع البحث).

المادة الأولى: يكون للدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في

أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي وفقاً لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصك وترقية مؤسسات الحكم الذاتي، وتكون مسؤولة أيضاً عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الجنس والدين.

المادة الثالثة: يترتب على الدولة المنتدبة أن تعمل على تشجيع الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الظروف.

المادة الرابعة: يعترف بوكالة يهودية ملأمة كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ولتساعد وتشترك في ترقية البلاد، على أن يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الإدارة.

المادة الخامسة: يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملأمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولأئقة لهذا الغرض، ويترتب على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين ييغون المساعدة في إنشاء الوطن اليهودي.

المادة السادسة: تتولى إدارة فلسطين مسؤولية سن قانون للجنسية، ويجب أن يشتمل ذلك القانون على نصوص تسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم.

وهكذا، فقد نشأ الانتهاك الرئيس لعهد العصبة في إدماج تصريح

بلفور في صك الإنتداب. واعترف صك الإنتداب بالمنظمة الصهيونية كوكالة يهودية ملائمة لإسداد المشورة إلى إدارة (حكومة) فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الأمور التي تساهم في إنشاء الوطن القومي اليهودي. في حين لم ينص صك الإنتداب على أن يعني أحد، أو جهة، أو مؤسسة بمصالح الشعب الفلسطيني، على غرار المركز الرسمي الذي منح للوكالة اليهودية. كما تؤخذ رغبات الفلسطينيين بالاعتبار كعامل رئيس في اختيار الدولة المنتدبة، وفقاً للمادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم^(١).

وبذلك فقد سلكت الدولة المنتدبة على فلسطين نهجاً بحيث طبقت عهد العصبة لصالح اليهود وكأنهم سكان فلسطين الأصليين. ففي أول اجتماع عقدته لجنة الانتدابات الدائمة بعد نفاذ الإنتداب على فلسطين في عام ١٩٢٣، لاحظت اللجنة طبيعة هذا الإنتداب الدائمة بعد نفاذ الإنتداب على فلسطين في عام ١٩٢٣، لاحظت اللجنة طبيعة هذا الإنتداب الفريدة من نوعها، وسجلت قلقها من تناقضاته الأصلية. وفي تقرير أعدته في دورتها الخامسة عام ١٩٢٤ وقدمته إلى مجلس العصبة، وقالت فيه: " في حين أن جميع صكوك الإنتداب الأخرى التي درست اللجنة تطبقها حتى الآن، لم يقصد بها إلا أعمال المبادئ العامة الواردة في المادة ٢٢ من العهد، يتسم صك الإنتداب على فلسطين بطبيعة أكثر تعقيداً. وكما هو مذكور صراحة في ديباجة صك الإنتداب، وكما تبينه بوضوح بنود عديدة من هذه الوثيقة، رغب المجلس أثناء وضعه شروط الصك، في الوقت

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

الذي تعمل فيه أحكام المادة ٢٢ من العهد، في أن ينفذ أيضًا خطة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، عملاً كما هو وارد في تصريح بلفور التاريخي، وهو تصريح أقرته دول الحلفاء الكبرى. وأن الواجب الأعظم للدولة المنتدبة، وفقاً للمبدأ الأساسي الوارد في ٢٢ من العهد، هو ضمان تنمية الأقاليم الخاضعة للانتداب وفقاً لمصالح سكانها". ومن ناحية أخرى، فإن لدى الدولة المنتدبة، بمقتضى تصريح بلفور تعليمات بالمساعدة على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يفهم جلياً، أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق والوضع السياسي التي يتمتع بها اليهود في أية بلدان أخرى" (١).

تبين هذه المادة أن الإنتداب وضع باعتباره إنشاء الدولة اليهودية كهدف أساس، واعتبر الفلسطينيون مجموعة من الإثنيات وضع باعتباره إنشاء الدولة اليهودية كهدف أساس، واعتبر الفلسطينيون مجموعة من الإثنيات والأعراق المنبانية. وبصورة أوضح: فقد أسقطت عصبة الأمم أوضاع الجماعات اليهودية المتبانية عرقياً وقومياً على الفلسطينيين وهم السكان الأصليين لفلسطين والذين ترتبط جذورهم فيه إلى عهود وأزمنة تاريخية مغللة في القدم؛ وذلك باعتراف بعض مؤرخي الغرب المتحررين من سطوة الدراسات التاريخية الكتابية (التوراتية) أمثال كيث وايتلام وتوماس طومسون وغيرهم.

وفيما يتعلق بوثائق الأمم المتحدة، والتي تعتبر خليفة عصبة الأمم،

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فإن قرارها بتقسيم فلسطين الصادر بتاريخ ٢٩/١٠/١٩٤٧، بناءً على طلب بريطانيا، لم يكن القرار الأول لتقسيم فلسطين، بل سبقه قرار لجنة بيل، وتكررت فكرة التقسيم في مؤتمر لندن ١٩٤٦، حيث عرضت بريطانيا مشروع مورييس القاضي بتقسيم فلسطين إلى أربع مناطق إدارية (١).

وعن حيثيات هذا القرار: فقد أوصت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين: "دولة عربية"، تضم نحو ٤٣.٥% ودولة يهودية تضم نحو ٥٦.٥% من أرض فلسطين البالغة ٢٧ ألف كم^٢، ونص القرار على اتحاد اقتصادي يربط بين الدولتين، وعلى تدويل منطقة القدس. ولم تعر الجمعية العامة للأمم المتحدة التفاتاً إلى توصيات اللجنة التي عينتها، وأناطت بها مهمة القيام بالتحقيقات في فلسطين وتلقي الشهادات من السلطة المنتدبة وممثلي السكان فيها، وخاصة تلك المتعلقة بمطالب وحقوق الفلسطينيين. ما يدل بجلاء أن منظمة الأمم المتحدة، كانت قد اتخذت قراراً مسبقاً بإقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب أصحابها الأصليين.

خصص قرار التقسيم للدولة اليهودية مساحة مقدارها ١٤.٢٠٠ كم^٢ يملك الفلسطينيون ثلثي أراضيها، وقدر عدد الفلسطينيين في المنطقة المخصصة للدولة اليهودية بـ ٥٠٩ آلاف نسمة بينما عدد اليهود ٤٩٩ ألف نسمة. وعند صدور قرار التقسيم، كان الفلسطينيون يشكلون أكثر من ثلثي عدد السكان في فلسطين ويملكون ٩٦% من مساحتها.

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، دمشق ١٩٨٤، ص ٥٥٧ - ٥٥٨.

في القراءة الأولى لقرار التقسيم، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن والتطرق لمادئ العدل والإنصاف، فالغبن التاريخي الذي لحق بالفلسطينيين أصحاب فلسطين الشرعيين، قام على أساس الفكرة الصهيونية العنصرية التي ألغت الوجود الفلسطيني. وهو مخالفة صريحة لواحد من أهم الأهداف التي تبنتها المنظمة الدولية، وهي حق الشعوب في تقرير مصيرها (المادة ١ ف ٢)، لأن أعمال هذا الهدف يتطلب احترام رغبة أصحاب فلسطين الشرعيين في تقرير مثير بلدهم. كما أن القرار يتفقر إلى أي سند قانوني، فالجمعية العامة لا تملك سلطة التصرف بدون ضابط في شؤون الأقاليم الموضوعة تحت الإنتداب، وفلسطين واحدة منها. لأن ميثاق الأمم المتحدة أنشأ نظام الوصية لكي يحل محل نظام الإنتداب بموجب اتفاقات للوصية تبرمها الأمم المتحدة مع الدول صاحبة الشأن. وقرر الميثاق أنه إلى حين وضع اتفاقيات الوصاية يجب استمرار العمل بالاتفاقات الدولية القائمة. ومعنى هذا أن الجمعية العامة عند نظرها في المشكلة الفلسطينية، كان عليها الدخول في مفاوضات لوضع فلسطين تحت الوصاية، وتقرير إنها الإنتداب البريطاني عليها في حال تحقيق أغراضه في تهيئتها للإستقلال.

والغبن التاريخي كما يراه الفلسطينيون كامن في إسباغ الشرعية على إقامة دولة إسرائيل، مع الضرب بعرض الحائط حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة، أو في حقه بالألا تقام على أرضه دولة أخرى. فالإعتراف بقرار التقسيم هو اعتراف بالدولة اليهودية وشرعية يهوديتها، لأن قرار التقسيم لم يعتمد حق تقرير المصير لليهود، وإنما اعتمد على

دول عن التصويت، كانت القيادة الفلسطينية قد رفضته واعتبرته مخططاً استعمارياً عملت على إحباطه يومها، مما أدى إلى اندلاع حرب ١٩٤٨.

وقد نص القرار على إنشاء ميليشيات في الدولتين عبارة عن قوة عسكرية تكون تحت سلطة الدولتين وغايتها بالأساس حفظ الأمن الداخلي في كل واحدة منهما. وأكد بن درور أن " الأمم المتحدة أهملت نصف قرار التقسيم، أي فكرة إقامة الدولة العربية، وكانت الفكرة تنفيذ إقامة الدولة اليهودية فقط، وأن تعمل الأمم المتحدة في وقت لاحق على إقامة الدولة العربية ". وأنه بموجب مخطط اللجنة التنفيذية، فإن المهمة الأساسية للمليشيا اليهودية كانت فرض سيطرة الدولة اليهودية على العرب الذين بقوا فيها والذين كان عددهم في الدولة اليهودية، وفقاً لخارطة التقسيم، مقارباً لعدد اليهود.

كان من المفترض، حسب المؤرخ الإسرائيلي، أن تخضع قيادة المليشيا للأمم المتحدة التي كانت ستعين أيضاً قادة المليشيا، لكن اللجنة التنفيذية كانت تعزم إسناد إقامة المليشيا إلى عصابة " الهاغاناه " اليهودية وتحويلها إلى تنظيم شرعي مسلح، في الوقت الذي كانت تصف في آنذاك بالمنظمة الإرهابية ^(١).

ويعزو إيلان بابيه، الصوت الإسرائيلي الأقرب إلى الموضوعية والحقيقة، في كتابه " التطهير العرقي في فلسطين "، يعزو خطيئة الأمم المتحدة بحق فلسطين وأهلها بإقرارها قرار التقسيم، الذي أسس للنكبة

(١) هاشم منور، الأمم المتحدة وقرار تقسيم فلسطين، شبكة الإنترنت الإعلام العربي/أمين، ٢٠٠٧/١/٧.

بافتقارها إلى الخبرة، حيث لم يكن قد مضى على تأسيسها سوى عامين، وقد " عهدت بمسألة مستقبل مصير فلسطين إلى لجنة خاصة بفلسطين اتضح أن أيًا من أعضائها لم يكن لديه خبرة مسبقة بحل النزاعات أو معرفة بتاريخ فلسطين " (١).

إلا أن بابيه لا يلبث أن يلاحظ التأثير السيء لقرار التقسيم في فلسطين وسكانها، فبدلاً من تهدئة الوضع، كما كان القصد منه، فاقم التوترات، وتسبب بتدهور البلد إلى واحد من أسوأ أطوار العنف في تاريخه، بسبب مدى ظلم وعدم شرعية الإجراءات التي اتخذتها الأمم المتحدة. فقد أدخل قرار التقسيم أكثر الأراضي خصوبة و ٤٠٠ قرية فلسطينية ضمن حدود الدولة اليهودية المقترحة. وهكذا فإن أشد جوانب القرار لا أخلاقية يتشمل في كونه لم يتضمن آلية لحماية فلسطين من التطهير العرقي في وقت لاحق، فإنه حيث يتم تبني أيديولوجيا إقصائية في واقع إثني شديد التوتر، فإن الحتمية هي التطهير العرقي. ولأنهم رسموا الخريطة على هذا النحو، فإن أعضاء الأمم المتحدة الذين صوتوا في مصلحة قرار التقسيم ساهموا مساهمة مباشرة في الجريمة التي كانت على وشك أن ترتكب " (٢).

بعد كل هذا يخلص بابيه إلى قناعة تفيد بـ " خيانة الأمم المتحدة "، ذلك أنه بموجب قرار التقسيم، كان ينبغي للأمم المتحدة أن تكون حاضرة

(١) إعلان بابيه، التطهير العرقي في فلسطين، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٤١-٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤ - ٤٥.

على الأرض لتشرف على تنفيذ خطتها للسلام، حيث تضمن قرار التقسيم أمورًا إلزامية واضحة جدًا، منها التعهد بأن تمنع الأمم المتحدة أية محاولة من الطرفين لمصادرة أراضٍ تعود ملكيتها إلى مواطني الدولة الأخرى، سواء كانت مزروعة أم لا. ورغم أن ممثلي الأمم المتحدة في فلسطين حاولوا الدفع باتجاه إعادة تقييم سياسة التقسيم، لكنهم، عمليًا، لم يقوموا بأكثر من المراقبة وإرسال التقارير عن بدء التطهير العرقي، خاصة أن السلطات البريطانية منعت وجود فريق منظم من الأمم المتحدة (١).

وبذلك، فإن الأمم المتحدة ساهمت بشكل مباشر في النكبة لا في إقرارها مشروع التقسيم، فحسب، ولكن في السكوت عن آثاره المدمرة. وهو أمر مفهوم عند الأخذ بعين الاعتبار أن مؤسسي الأمم المتحدة هي القوى الاستعمارية التي تقاطعت مصالحها مع مصالح الصهيونية. وهذا ما يظهر من خلال الإطلاع على الوثائق الأمريكية والفرنسية والألمانية. وثائق أخرى:

كانت فرنسا أول من طرح بشكل جدي فكرة توطين اليهود في فلسطين، حيث أعدت حكومة الإدارة الفرنسية عام ١٧٩٨ خطة سرية لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين، في حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي " بما فيه فلسطين "، مقابل تقديم الممولين اليهود قروضًا مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر، آنذاك، في ضائقة

(١) محمود، مصدر سبق ذكره، ص ١٤.

اقتصادية خائفة، والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة نحو الشرق بقيادة نابليون بونابرت (١).

لقد أكد نابليون أنه على اليهود الاعتماد على فرنسا لكي تخلصهم من نير العبودية في أوروبا وجور الاضطهاد المسيحي المتعصب؛ باعتبار على فرنسا، لكي تخلصهم من نير العبودية في أوروبا وجور الاضطهاد المسيحي المتعصب؛ باعتبار أن لفرنسا كما لورما، إرثًا يهوديًا ستدافعان عنه.

وفي فترة لاحقة أصدرت فرنسا تصريحًا شبيهًا بتصريح بلفور، وهو تصريح كامبو، قبل استصدار وعد بلفور البريطاني في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧، حيث أصدر المسؤول الفرنسي في خارجيتها وعد كامبو في شهر أيار / مايو عام ١٩١٧ (٢). ما يقرأ من خلاله تسابق كل من القوتين الإستعماريتين إنكلترا وفرنسا على إقامة دولة يهودية في فلسطين للحصول على مكاسب ومناطق نفوذ.

وفي وثائق الخارجية الألمانية، بخصوص الموقف الذي يجب اتخاذه من احتمال إنشاء دولة يهودية تحت الانتداب البريطاني: جاء في بند سري للغاية وثيقة رقم ٥٦١، مجلد رقم ٥ تسلسل D، برلين، تاريخ ١٩٣٧/٦/٥: "إن تشكيل دولة يهودية أو كيان سياسي يقوده اليهود تحت

(١) أسمهان شريح، غزة المحررة أم مكسر العصا؟، موقع المجموعة ١٩٤ على الشبكة الدولية، ٢٠٠٦/١١/٦.

(٢) نجدة فتحي صفوة، (مراجعة وتقديم)، العالم العربي في وثائق سرية ألمانية ١٩٣٧ - ١٩٤١، ترجمة رزق الله بطرس، الوراق، لندن ٢٠٠٦، ص ٢١.

الانتداب البريطاني ليس من مصلحة ألمانيا " (١).

وتعلل الخارجية الألمانية ذلك بأن الكيان اليهودي المزعم إقامته لن يستوعب يهود العالم، بل سيخلق موقع قوة إضافيًا بموجب القانون الدولي لليهود العالم.

وبذلك فإن معارضة ألمانيا للمشروع الصهيوني اقتضت على عدم تمكين اليهود، الذين تريد التخلص منهم، من إيجاد موقع قوة لهم. من هنا جاء اعتراض ألمانيا على اتفاقية هافارا التجارية مع المنظمات الصهيونية، والتي يتم بموجبها نقل رأسمال اليهود المهاجرين أو الذين ينوون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين. حيث تقرر الوثيقة أن منقولات هافارا الاقتصادية يبلغ حدًا تصل فيه إلى استنزاف البضائع من دون بدل، إما بالقطع الأجنبي أو على شكل بضائع. وهذا يعني، سياسيًا، دعمًا كبير القيمة لتشكيل دولة قومية يهودية بمساعدة رأس المال الألماني (٢).

وإلى جانب موقف ألمانيا من " الوطن اليهودي " تعطي الوثائق الألمانية صورة عن المواقف الأوروبية من هذا الموضع إبان الإعلان عنه. فتحت عنوان " الموقف الألماني من تأسيس دولة يهودية في فلسطين " ومما ورد في الوثيقة رقم ٥٦٤ المؤرخة في ١٩٣٧/٦/٢٢ يُقرأ انتقاد للجنة بيل، فترى أنه كان من الواجب أن تحقق في الشكاوى العربية واليهودية في فلسطين، وأن تجد حلاً للنزاع العربي - اليهودي، وتقرير اللجنة لم ينشر بعد، لكن أصبح من المعروف، من تعليقات

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥ - ٢٩.

الصحافة، أن التقرير يدرس فكرة تقسيم فلسطين إلى منطقة عربية وأخرى يهودية.

والصحافة اليهودية – وكذلك في ألمانيا – تدافع بتعاطف عن إنشاء دولة يهودية، أو على الأقل – كيان سياسي بإدارة يهودية تحت الإنتداب البريطاني، والتي بصددتها تقوم الدعاية من أجل أكبر توسيع ممكن للأراضي اليهودية.

وفي إشارة لموقف الرأي العام الإيطالي، الذي وصفته الوثيقة بالسلبية، رغم وضوحه، لاحظت الوثيقة أن الصحافة الإيطالية توجه الانتباه الانتقادي إلى المسألة اليهودية حتى في إيطاليا. وأن الموقف الإيطالي تجاه فكرة دولية يهودية في فلسطين يتقرر بالفعل – بالعداء للسامية إلى حد أقل من الخوف أن تطوّر إنكلترا تشكيل دولة يهودية في فلسطين إلى خطة لسياستها المتوسطة.

ورأت الوثيقة أن السياسة الفرنسية المتوسطة، في المدى المنظور، في حينه، لا تتأثر إلى الدرجة نفسها بتأسيس دولة يهودية في فلسطين كما يتأثر مجال المصلحة الإيطالية.

وترى الوثيقة أن هذه الأحداث المشار إليها، أدت إلى إعادة النظر في الموقف الألماني فيما يتعلق بمشكلة تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين. حتى الآن، تقول الوثيقة، كان الهدف المبدئي للسياسة اليهودية لألمانيا تشجيع الهجرة اليهودية من ألمانيا، الذي تملّيه متطلبات السياسة الداخلية، يروّج في الواقع لدمج اليهود في فلسطين؛ وبذلك يسرّع تطوير دولة

يهودية في فلسطين، ما من شأنه أن يظهر أن ألمانيا تؤسس لدولة يهودية في فلسطين.

لكن إبقاء اليهود متفرقين، في الواقع، كان ذو أهمية أكبر بالنسبة لألمانيا. لأنه عندما لا يعود أي فرد من العنصر اليهودي مستقرًا على الأراضي الألمانية، فإن القضية اليهودية تبقى من دون حل بالنسبة لألمانيا. لكن تطورات السنوات الأخير أظهرت أن اليهودية الدولية ستبقى بالضرورة عدوًا أيديولوجيًا، وبالتالي سياسيًا، لألمانيا الاشتراكية القومية. وعليه فإن القضية اليهودية، تشكل، في الوقت نفسه، واحدة من أهم المشكلات في سياسية ألمانيا الخارجية. لذلك هناك أيضًا اهتمام ألماني كبير في التطورات الجارية في فلسطين، لأن الدولة الفلسطينية لن تستوعب يهود العالم بل - إلى حد مشابه لمجال نشاط الفاتيكان - سيتوفر لها موقع قوة إضافي بموجب القانون الدولي ما قد يكون له نتائج فاجعة على السياسة الخارجية الألمانية.

وتبيّن الوثيقة أن السفير الألماني في لندن، أخبر الحكومة البريطانية أن ألمانيا فعلاً قد شجعت هجرة اليهود إلى فلسطين إلى أكبر حد ممكن حتى الآن. ومع ذلك، كان من الخطأ الزعم أن ألمانيا ستؤيد تأسيس كيان سياسي في فلسطين تحت قيادة يهودية إلى حد ما. وفي الهياج المضاد لألمانيا من قبل اليهودية الدولية، لم تستطع ألمانيا الزعم أن تشكيل دولة يهودية في فلسطين قد يشجع التطور السلمي للأمم^(١).

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣٥.

وفي قراءة أولية يتبين أن ألمانيا عارضت مشروع قيام دولة يهودية في فلسطين من منطلق مصالحها الخاصة. وبذلك اتسم موقفها بالإرتباك، فهي تريد التخلص من الوجود اليهودي فيها، إلا أنها خشيت من قيام دولة يهودية من شأنها تقوية نفوذ اليهود. والملاحظ أن ألمانيا لم تفرق بين اليهودية والصهيونية من خلال نعتها للصهيونية بـ " اليهودية الدولية "، إلا أن المعارضة الألمانية لقيام دولة يهودية في فلسطين، لم تتطور إلى درجة التحالف مع الفلسطينيين لمواجهة هذا المشروع، بسبب التخفف مع معارضة الفرنسيين والبريطانيين الذين يبسطون نفوذهم على العالم العربي، كما يتضح من خلال وثائق أخرى بعثت بها السفارة الألمانية في باريس إلى حكومتها في برلين، ما انعكس تخوفاً وعدم اطمئنان إلى وعود ألمانيا السرية لزعماء المشرق العربي، وخصوصاً في العراق، بشأن قيام إمبراطورية عربية شمالية تحت سيطرة العراق. ما يكشف تنافساً بين كل من ألمانيا، وبريطانيا على المنطقة، ففي حين حاولت بريطانيا إقناع زعماء الحجاز بأنها تؤيد قيام دولة عربية في الجزء الآسيوي من العالم العربي، أخذت ألمانيا بإيهام زعماء العراق أنها تؤيد مساعيهم لإقامة إمبراطورية عربية في منطقة الهلال الخصيب.

ومن الوثائق الأمريكية، تقرير لجنة الخبراء الأمريكيين، حول تصريح بلفور وإقامة دولة يهودية في فلسطين، المقدم إلى الرئيس الأمريكي ويلسون في ١٩١٩/١/١٢، والذي جاء فيه: " من الصحيح أن فلسطين يجب أن تصبح دولة يهودية فيما لو جعلها اليهود كذلك، ومتى أتاحت لهم الفرصة الكاملة... بيد أن اليهود في الوقت الحاضر، لا

يكادون يؤلفون سدس مجموع السكان البالغ ٧٠٠ ألف في فلسطين... وباختصار فإن فلسطين أبعد ما تكون بلدًا يهوديًا الآن. إلا أنه يمكن الاعتماد على بريطانيا، كدولة منتدبة، لكي تمنح اليهود ذلك المركز الممتاز (المميز) الذي يجب حصولهم عليه " (١).

ويقتطف كليفورد رايت من الوثائق الأميركية: أدلى مندوب الفلبين لدى الأمم المتحدة بخصوص قرار التقسيم بما يلي: " إن القضية هي إذا ما كان يجب على الأمم المتحدة أن تقبل بتحمل مسؤولية تنفيذ السياسة التي تتعارض بشكل واضح مع التطلعات الوطنية لشعب فلسطين، وإن حكومة الفلبين ترى أن للأمم المتحدة الحق في رفض تحمل مثل هذه المسؤولية ". وبعد يومين تم استدعاء المندوب الفلبيني وإقالته من منصبه. وكانت مكالمة هاتفية واحدة من واشنطن العاصمة مع الرئيس الفلبيني روكساس كفيلة بتغيير الموقف الفلبيني إزاء فلسطين بمقدار ٣٦٠ درجة، وقد ساعد الصهيوني سول بلوم، عضو الكونغرس الأمريكي ورئيس لجنة الشؤون الخارجية، في ممارسة الضغط على المندوب الفلبيني (٢).

ومن ملفات وكالة الاستخبارات الأمريكية وثيقة بقلم رئيسها كيرمت روزفلت جاء فيها: " سيطر الصهاينة على زمام المعركة، وحشدوا

(١) محمود عزمي، أصول قرار إنشاء دولة إسرائيل التاريخ الذي نسيه البعض، صامد الاقتصادي، (عمان)، العدد ١٢٥، صيف ٢٠٠١، دار الكرمل، ص ١٧٤ - ١٧٥، عن الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الأول، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) كليفورد رايت، حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، ط١، ترجمة عبد الله عريقات وعبد الله عياد، دار الناصر، عمان، ١٩٩٢ ص ١١٢.

مجموعة من الأمريكيين المتنفذين واختاروا أهدافهم بعناية ومارسوا نفوذهم إلى أقصى درجة ممكنة، فتم تحديد ست دول أعربت عن رغبتها في التصويت ضد الخطة كأهداف مختارة. انهالت على مندوبي الدول الست وعلى حكوماتهم رسائل وبرقيات، وجهت من قبل أعضاء في الكونغرس الأمريكي ومن آخرين كانوا يستغلون هيبة ونفوذ الحكومة الأمريكية " (١).

وكتب الصحفي في شيكاغو ديلي تريبيون درو بيرسون: " إن الرئيس ترومان يضغط بشدة على وزارة الخارجية كما لم يفعل من قبل من أجل ضمان التصويت لصالح قرار تقسم فلسطين " (٢).

ويعزو رايت موقف ترومان إلى قناعة الثاني بأن الدولة اليهودية سوف تخدم المصالح الأمريكية في المنطقة. ويضيف رايت: " لم تكن القوى الغربية هي الوحيدة التي أيدت الصهاينة ودعمتهم، فالاتحاد السوفييتي اتخذ نفس الموقف، بل إن دعمه لم يقتصر على الدعم السياسي، فقد جاءت أهم وأكبر مساهمات الاتحاد السوفييتي في قيام الدولة اليهودية على شكل تزويد هذه الدولة بشحنات من الأسلحة الثقيلة " (٣). ما قلب الميزان العسكري ضد العرب في حرب ١٩٤٨.

ومن الوثائق التركية: أثناء زيارات هرتزل إلى القسطنطينية عام ١٨٩٦، وبعد عدم تمكنه من مقابلة السلطان، نصحه عزت بك، الحصول

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها عن شيكاغو ديلي تريبيون، ١٩٤٨/١٢/٩.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

على قطعة من الأرض، وإقامة مستعمرات يهودية فيها، ثم تقديمها لتركيا مع مبالغ إضافية مقبل فلسطين^(١).

وفي الوثائق العربية: أن الحكومة الأردنية عرقلت وصول أول فوج من جيش الإنقاذ إلى فلسطين، ثم وافقت على مضض، شرط أن يتم ذلك بسرية وتحت جناح الظلام، استجابة لطلب حليفتها بريطانيا^(٢).

وأيضاً: يقول عبد الله التل، الضابط في الجيش الأردني، في كتابه "كارثة فلسطين": أبرقت إلى جلالة الملك عبد الله بما يلي:

"ع/٢٥ تاريخ ١٩٤٨/٥/١:

معني قائد المنطقة الإنكليزي من حماية القنصلية العراقية وتقديم النجدة والمساعدة لجنودنا، في تلك المنطقة، وهددني باستعمال مدافعه ضدنا إذا لم أسحب الجنود والمدركات وأخلي المنطقة. أسترحم من جلالتم التداخل للسماح لنا بالدفاع عن النفس، وإذا سقط القطمون سقطت القدس بأيدي اليهود".

ولما وصلت برقيتي لعمان جرى اتصال ما بين الملك والمندوب السامي في القدس، ولم أعلم ما جرى بينهما إلا أن الأمر قد ورد إليّ من عمان لتنفيذ أوامر قائد المنطقة الإنكليزي باعتبار أن جميع وحدات الجيش العربي في فلسطين، إنما وجدت هناك بأمر من الإنكليز وتحت

(١) أسهان شريح، دور تركيا العثمانية في المشروع الإستيطاني في فلسطين، صامد الاقتصادي، عمان، العدد ١١٣، صيف ١٩٩٨، عن: محمد حسنين هيكل، الاتصالات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الأول ط٥، دار الشروق، بيروت ١٩٩٦، ص ٢٣ - ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١.

إشرافهم التام^(١).

يستدل من هذه الوثيقة أن ثمة جهات إقليمية ساهمت في النكبة الفلسطينية، بسبب ارتباطها ببريطانيا التي كانت أهم الأطراف التي هيأت وساهمت في النكبة.

نتائج:

- ١- تعود فكرة إنشاء دولة يهودية في فلسطين إلى بداية نشوء استعمار في أوروبا.
- ٢- لم يكن مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين حرصًا على اليهود، أو عطفًا عليهم، بل للتخلص من المشكلة اليهودية.
- ٣- أدى انشغال الغرب بحل المشكلة اليهودية إلى الوصول لحل استعماري لهذه المشكلة.
- ٤- حذت القوى الإستعمارية حذو الحركة الصهيونية في تجاهل الشعب الفلسطيني.
- ٥- أدى تجاهل وجود الشعب الفلسطيني إلى استبعادهم من المشاركة في تقرير مصيرهم مما يخطط لهم ولبلادهم.
- ٦- عملت الحركة الصهيونية بدأب واستخدمت كافة الوسائل الممكنة لتحقيق مشروعها.
- ٧- استجاب الغرب الإستعماري لمطلب الصهيونية بسبب التقاء

(١) عبد الله التل، مذكرات، كارثة فلسطين، ط١، دار القلم، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٠ - ١١.

المصالح المشتركة وتقاطعها.

٨- تبدو ألمانيا الإستثناء الوحيد في الحذر والتخوف والممانعة من إقامة دولة يهودية، إلا أن تلك الممانعة لم تصل إلى درجة عرقلة ومقاومة المشروع الصهيوني.

٩- ساهمت بعض القوى الإقليمية في نكبة فلسطين.

١٠- دخلت أمريكا على خط دعم المشروع الصهيوني، منذ البدايات، فساهمت في نكبة فلسطين.

١١- ساهمت المنظمات الدولية في نكبة فلسطين، منتهكة بذلك مبادئها التي أقرتها وادعت فيها أنها تعمل على إحلال السلم العالمي ومنح الشعوب حرياتها واستقلالها.

وفي الخلاصة: فإن القوى العظمى، خططت ومهدت لنكبة فلسطين، وقد سخرت عصبية الأمم والأمم المتحدة لتنفيذ مخططاتها، وهو أمر يمكن ملاحظته من خلال وثائقها العديدة، التي بات جزء كبير منها متوفراً. ما يهيء للجهات المعنية أوراق قوة إشهارها في وجه المتسببين في النكبة، وبالتالي استخدامها لاسترداد حقوق الفلسطينيين في وطنهم وإزالة الظلم الذي وقع عليهم عن سابق تصميم وإصرار.

* * *

الباب الرابع: تداعيات النكبة

الباب الرابع تداعيات النكبة

الفصل الحادي والعشرون:

الأبعاد الجغرافية والديموغرافية للنكبة

رشا حسني

أسهمت الطبيعة الجغرافية لفلسطين في جعلها مطمعًا للغزاة، على مر التاريخ، إما طمعًا في أرضها، أو رغبةً في استخدامها ممرًا لغزو بلادٍ عربية أخرى.

أولاً: الطبيعة الجغرافية لأرض فلسطين

على الرغم من صغر مساحة فلسطين، التي لا تتجاوز سبعةً وعشرين ألفاً من الكيلو مترات المربعة، فإنها ظلت منذ أقدم العصور، تتمتع بمكانة خاصة، نظرًا لأهميتها، من الناحيتين الدينية والسياسية^(١).

تأتي أهمية فلسطين الجغرافية، والاستراتيجية، مرتكزةً على موقعها من منطقة المشرق العربي، إذ تكون فلسطين الطرف الغربي للهلال الخصيب، الذي يحيط ببادية الشام على شكل نصف دائرة، ويتطابق في حده الغربي مع قناة السويس، ذلك الشريان الحيوي الذي يربط بين القارات الثلاث، أوروبا وآسيا وإفريقيا^(٢).

جمع موقع فلسطين بين خصائص الموقع القاري، وخصائص الموقع

(١) يوسف مجلي، فلسطين والمظهر الجغرافي لمشكلتها، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت، ص ١.

(٢) هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٨٨، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص ٥٣.

البحري، كما أن وقوع فلسطين عند ملتقى قارتي آسيا وإفريقيا، جعلها تشارك مصر في أهمية موقعها، كمحور حركة رئيسي، وحلقة اتصال بين القارتين، لذا يمكن اعتبار تاريخ فلسطين اختزالاً مثاليًا لتاريخ الوطن العربي بأسره، إضافةً لكونها ميدانًا للحروب، التي استهدفت استعمار الدول العربية في شتى العصور^(١).

على الرغم من صغر مساحة أرض فلسطين وبساطة تكوينها فإنها تضم أربع وحدات تتميز كل واحدة منها عن الأخرى، من حيث نظام سطحها، ومناخها، ونباتها. تشمل الوحدات الأربعة، السهل الساحلي، والغور، والهضاب الغربية، والهضاب الشرقية، التي تتكون منها المملكة الأردنية^(٢).

يبلغ طول السهل الساحلي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ١٢٠ ميلاً، أما عرضه فيتراوح بين بضعة أمتار عند حيفا إلى ٢٠ ميلاً، في طرفه الجنوبي، ويمتد السهل من رأس الناقورة شمالاً، حتى الحدود المصرية جنوباً، تقسمه جبال الكرمل، الممتدة من حيفا قسمين غير متساويين، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، يضيق السهل في الشمال، ويزداد اتساعاً بصورة تدريجية، كلما تقدمنا صوب الجنوب. تعتبر أرض السهل الساحلي إحدى المناطق الخصبة النادرة في فلسطين، لذا كانت

(١) أحمد صدقي الدجاني (مشرفاً)، الفلسطينيون في الوطن العربي، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨، ص ١٤.

(٢) مجلي، مصدر سبق ذكره، ص ٨ - ٩.

مطمعاً للصهاينة^(١).

أما منطقة الغور (وادي الأردن)، فهي عبارة عن هبوط في قشرة الأرض بين انكاسرين متوازيين، بحيث بقيت حافتا الأخدود مرتفعتين، أكثر أجزاء هذا الوادي انخفاضاً تتمثل في البحر الميت، الذي ينخفض سطحه عن مستوى سطح البحر بنحو ٣٩٢ متراً، أما وادي عربية فهو نموذج نادر للصحاري الداخلية الحوضية، أهم ما يميز وادي الأردن أنه حدد فلسطين منذ بداية تعميرها من جهة الشرق كما أنه لم يمثل حاجزاً طبيعياً، أمام الهجرات القادمة من شبه الجزيرة العربية^(٢).

تتنوع طبيعة الأرض في الهضبة الغربية، وتختلف تربتها عن السهل الساحلي، فهي مقسمة إلى هضبيات، تفصلها بعضها عن بعض وديان عميقة، وهي في مجملها تبدو متموجة على شكل تلال. كذلك حال الهضبة الشرقية، التي تتشابه في كثير من سماتها مع الهضبة الغربية وإن كانت أكثر ارتفاعاً نتيجةً لكثرة الطفح البركاني، الذي تجمع فوق سطحها، مما ساعد على تكثيف السحب فوقها، وأدى إلى تفتيت الصخور الجيرية وزيادة خصوبة التربة^(٣).

و بذلك يمكن القول بأن أرض فلسطين تتألف من أربعة أنماطٍ أرضية رئيسية، هي على التوالي، من الغرب: السهول الساحلية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وهي أخصب أراضي فلسطين. أما في الوسط،

(١) المصدر نفسه، ص ٩ - ١٢.

(٢) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

(٣) مجلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤ - ٢٥.

فتوجد المرتفعات، وتتألف من كتل جبلية، تبدأ من الشمال بجبال الجليل، يليها سهل مرج بن عامر، الذي يعد ممراً استراتيجياً سهلاً، يربط السهل الساحلي بغور الأردن، وإلى الجنوب منه تقع جبال نابلس، حيث مدينتي جنين ونابلس، ثم مرتفعات الخليل، حيث القدس والخليل. ولهذه المرتفعات أهمية استراتيجية، لكونها تتحكم بنطاق أراضي الغور، بشكل كبير (١).

النمط الثالث للأراضي الفلسطينية يشمل أرض الغور، التي تمتد من سهل الحولة حتى نهاية البحر الميت، الذي ينخفض إلى ٤٠٠ متر تحت سطح البحر (٢).

يتمثل النمط الرابع في النطاق الصحراوي، الذي يشمل صحراء النقب، التي تشغل نصف مساحة فلسطين، وهي على شكل مثلث، قاعدته جنوب مرتفعات الخليل، ورأسه عند البحر الأحمر. تعد صحراء النقب ذات أهمية استراتيجية خاصة، لأنها حلقة الوصل بين شمال الجزيرة العربية وسيناء (٣).

بتأمل الأقسام الحادة للأراضي الفلسطينية، التي تختلف كل منها، اختلافا جذرياً، عن غيرها، يمكن القول بعدم عدالة أي تجزئة لتلك الأرض، إذ يحرم ذلك فئة من الشعب من حقوقها في الاستفادة بمزايا بقية

(١) بسام محمد العبادي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين من ١٨٨٠ - ١٩٩٠، عمان، دار البشير، ١٩٩٠، ص ١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤.

الأنماط الجغرافية.

إن محاولة تقسيم فلسطين، التي بدأت منذ نشأة الصهيونية، تتعارض مع الوضع الجغرافي للبلاد، لاعتماد وحداتها بعضها على بعض، كل الاعتماد، بل ولاعتمادها، أيضاً، على جاراتها لإمدادها بالمياه، وتموينها بالحبوب، وإمدادها بالبترول^(١).

إن المحور الرأسي الذي يبرز قيمة فلسطين، كموقع، بالدرجة الأولى، قد لعب دوراً مهماً في تاريخ فلسطين. وجعل تاريخها جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الوطن العربي، مشرقاً ومغرباً. من ناحية أخرى فإن موقع فلسطين، كمنبر بالدرجة الأولى، جعلها قبلة للطامعين والمستعمرين، الأمر الذي لم يدع المجال متسعاً أمام سكانها الأصليين كي ينعموا بالأمن، لذا لجأ السكان للاستقرار فوق الجبال، والتردد فحسب على السهل الساحلي، حسب الحاجة، في مواسم الزراعة، فقد كان السهل الساحلي والأودية الداخلية، على الرغم من اغرائهما بيئياً، مسلماً للجيش والغزاة. وقد استغل العدو الصهيوني تلك النقطة، عند غزوه فلسطين، فعمد إلى احتلال السهل قبل التل والجبل^(٢).

ثانياً: حدود فلسطين ومشاريع التقسيم:

جاءت حدود فلسطين التي تم تحديدها، بدقة، وفقاً للاتفاقات والمعاهدات الدولية، نتيجة للصراع بين القوى المختلفة لتحقيق مصالحها، على حساب الشعب الفلسطيني، لذا فإنها تبرز مظاهر شاذة لا تسير مع

(١) مجلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩.

(٢) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

الظواهر الطبيعية في كل الحالات، برغم تميز تلك الحدود بالتنوع، بحيث يعتبرها الباحثون متحفًا طبيعيًا، يشتمل على مختلف الصور للحد السياسي، فقطاعات منها تسير مع قمم جبلية عالية، وأخرى تسير مع خط تقسيم المياه بين نظم نهريّة مختلفة الاتجاه والانحدار. كما تسير بعض قطاعات هذه الحدود في وسط أنهار، وفي وديان جافة، وأحيانًا كانت تسير وسط البحيرات العذبة، ثم غيرت مسارها إلى ضفافها. بعض أجزاء منها تسير وسط البحار الملحية المغلقة، ومع البحار والخلجان الساحلية. وتسير حدودها الجنوبية الغربية وسط منطقة صحراوية، ومن ثم فهي هندسية منتظمة^(١).

ارتبط تعيين الحدود الشمالية لفلسطين، بما انتهى إليه مؤتمر الصلح، الذي عقد في سان ريمو (أغسطس/ آب ١٩٢٠)، بتوقيع معاهدة " سيفر"، التي نصت على الفصل بين فلسطين من جهة، وكل من سوريا والعراق، من جهة أخرى. كما انتهى المؤتمر إلى وضع سورية وتشمل لبنان - تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين، وشرقي الأردن، تحت الانتداب البريطاني. وواضح أن عامل المياه كان دافعًا رئيسيًا وراء تعيين الحدود على اعتبار أن المياه من أهم موارد الصحراء، وقد جاء تعديل الحدود تحت تأثير الحركة الصهيونية في بريطانيا، بوصفها سلطة الانتداب في فلسطين، التي تتولى مسؤولية تنفيذ " وعد بلفور " ^(٢).

(١) محمد محمود إبراهيم الديب، حدود فلسطين، دراسة تحليلية لوثائق الانتداب، القاهرة، جامعة عين شمس، ١٩٨٠، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ١٢.

كذلك الحال بالنسبة للحدود الشرقية لفلسطين، فقد ارتبط تحديده بموقف بريطانيا، بوصفها صاحبة سلطة الانتداب على فلسطين، التي كانت تشمل شرق الأردن، وفقاً لما قرره مجلس الحلفاء الأعلى في (سان ريمو)، في مساحاتٍ واسعةٍ من النقب، التي ينتمي أغلبها إلى المعروف باسم "صحاري الحماده"، وتتخلل هذه الهضاب مساحات سهلية واسعة، تنتشر فوقها رواسب من الأحجار، والحصى، والزلط، وتنتهي هذه السهول، إلى النوع المسمى "سهول الرق" (١).

تحكمت ستة معايير رئيسية في رسم الحدود السياسية لفلسطين، وهي: الاعتبار العسكري والاستراتيجي لحماية قناة السويس ومصر من تركيا والمحافظة على الأسرة الخديوية لصالح إنجلترا. وكان ذلك العامل الأساسي وراء رسم الحد السياسي الجنوبي الغربي لفلسطين مع مصر، عام ١٩٠٦ (٢).

إلى ذلك كان الاعتبار الاقتصادي عاملاً حاسماً في رسم حدود فلسطين الشمالية، والشمالية الشرقية، والشرقية، والجنوبية، بما يشمل ذلك الاعتبار من أراضٍ خصبة، وثروات معدنية، وشبكات النقل، والمواني (٣).

لعبت الصهيونية، ممثلة في معتقيها، وعملائها، وأدواتها، وعملائها، عاملاً أساسياً، كذلك، في وضع حدود فلسطين، وفقاً لصك الانتداب.

(١) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢) الديب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٠ - ١٥١.

أرسل الصهاينة البعثات، للقيام بدراسة فلسطين، ومواردها، ووضع حدود لها، واتصلوا بالمسؤولين على مستوى العالم، للتأثير عليهم بشتى الأساليب، لرسم حدود فلسطين، ومواردها، ووضع حدود فلسطين، بما يتماشى مع مصالحهم^(١).

كان الاستيطان الاستعماري رابع العوامل التي وضعتها القوى المؤثرة في رسم حدود فلسطين، ضمن أولوياتها، فجاءت وفرة الرقعة الكافية لتوطين اليهود، وتوفير الموارد الاقتصادية والطبيعية لهم، بعد تفرغها من سكانها الأصليين بشتى الوسائل^(٢).

أما الصفقات والاعتبارات الإثنوغرافية فقد مثلت العاملين الخامس والسادس التي تحكمت في رسم حدود فلسطين. واتضح آثارهما في التعديلات، التي أقرت عام ١٩٢٠، على الحدود، دون سند واقعي أو تفسير طبيعي أو بشري. فقد بادلت إنجلترا جنوب جبل الدروز (العرب) بقراه الجنوبية، التي كانت تحت سيطرتها، في شرق الأردن، والنصف الشرقي من بلدة بو كمال، نظير وادي اليرموك، والنصف الغربي لجبل سنجار. وقد كانت كمية البترول ونسبته، التي اتفقت عليه إنجلترا على منحها لفرنسا، بمقتضى مؤتمر "سان ريمو"، عام ١٩٢٠، عاملاً أساسياً لتعديل الحد السياسي في الشمال الشرقي لصالح فلسطين، على حساب سوريا^(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

في حين تردد بين الحين والآخر الاعتبار الإثنوغرافي (الدين والتاريخ) كمعيار لرسم الحدود السياسية لفلسطين، فيما بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢٢، ومعروف أن فلسطين التاريخية تمتد من دان إلى بئر سبع فحسب، ولم تكن النقب جزءا منها، وبشكل عام يصعب الاتفاق بشأن هذا الاعتبار، الذي قد يخضع لعمليات تضليل وتزييف للاستيلاء على الأرض^(١).

تعددت مؤامرات ومشاريع التقسيم في محاولة لفرض حدود جديدة على أرض الواقع، تقلص من مساحة الدولة الفلسطينية، لصالح الدولة المزعومة، مع منحها مزايا الموقع، وخصوبة التربة، واعتدال المناخ، وحرمان أهل البلاد الأصليين من تلك المميزات.

بدأت مشاريع التقسيم بمشروع لجنة بيل (١٩٣٧)، الذي أوصى بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام. أولها عربي، ويضم شرق الأردن، ويتكون من مملكة عربية ذات سيادة مرتبطة بمعاهدة مع بريطانيا، على غرار العراق وسوريا، وثانيها قسم يهودي تقوم فيه دولة ذات سيادة، مرتبطة كذلك بمعاهدة مع بريطانيا، وانتداب انجليزي، يمتد من منطقة " يافا " إلى القدس. وقد رفض هذا المشروع من " اللجنة العربية العليا "، فأعقبه اقتراح صهيوني للتقسيم، عام ١٩٣٨، طالب بقيام دولة في غربي نهر الأردن، ومنطقة غزة و بئر السبع، وتقسيم القدس بين الدولة الصهيونية ومنطقة الانتداب البريطاني. قوبل هذا الاقتراح بالرفض، ليس من العرب فحسب، وإنما كذلك من " الصهاينة الاصلاحيين "، الذين كانوا

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٢ - ١٥٣.

يطمعون في أكثر من ذلك^(١).

في عام ١٩٤٦، وضعت اللجنة الأنجلو أمريكية مشروعًا جديدًا للتقسيم استهدف الحد من الانتداب لصالح الكيان الصهيوني. تلاه ثلاثة مشاريع، وضعتها لجنة الأمم المتحدة، في عامي ١٩٤٧، و١٩٤٨، آخرها مشروع التقسيم، الذي وضعه الوسيط الدولي، الكونت فولك برنادوت، الذي اعتبره الصهاينة في غير صالحهم، وسارعوا باغتيال برنادوت، ومرافقة الكولونيل الفرنسي سيرو^(٢).

جاء مشروع التقسيم، الذي أقرته الأمم المتحدة، في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، بمنح العرب ١١٢.٣ كم^٢، ومنح اليهود ١٧٧ كم^٢ في الوقت الذي كان فيه ٩٤.٣٣ كم^٢ من الأراضي الفلسطينية مملوكة للعرب، حتى عام ١٩٤٨^(٣).

بعد صدور قرار التقسيم، سعى الطرف الصهيوني لتحقيق أمرًا واقعيًا في فلسطين، بالضغط على العرب في جميع أرجاء فلسطين، فاندلعت الاشتباكات في كل مكان، وبعد انقضاء ١٢ يومًا على صدور قرار التقسيم قتل ٧٩ صهيونيًا واستشهد ٣٢ عربيًا، في إشارة لعدم خضوع الجانب العربي وتسليمه بهذا القرار^(٤).

(١) خيرية قاسمية، الصراع العربي - الإسرائيلي في خرائط، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٩، ص ٤٦، ٥٤.

(٢) إسماعيل شموط، موجز تاريخ فلسطين المصور، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والتوجيه القومي، ١٩٧٢، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٤) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.

بتأمل الخريطة (١) الموضحة للدولتين العربية واليهودية، حسب اقتراح قرار التقسيم، مع تدويل القدس، يتبين اختيار الأراضي الساحلية السهلية المميزة، لتمنح للكيان الصهيوني، في حين اختص قرار الأمم المتحدة الفلسطينيين بالمناطق الجبلية الوعرة. وكما هو واضح فهناك تداخل بين أراضي الدولتين المقترحتين، وعزل للجزء الخاص بغزة وما حولها عن بقية الأراضي الفلسطينية. الأمر الذي يؤكد أهمية العوامل الجغرافية، كخلفية لاختيار الأراضي التي منحتها الأمم المتحدة للصهاينة، كي تساعد على إقامة دولة قوية آمنة. في حين تم اختيار أراضي وعرة، منعزلة عن بعضها، متقطعة الأوصال، لتقوم عليها دولة فلسطينية ضعيفة، تعتمد على العدو في كل مجالات الحياة، ولا تتحقق لها الوحدة العضوية، التي هي أهم شروط الدولة القوية.

من ناحية أخرى لا تقتصر خطورة المشروع الصهيوني على اغتصاب الأرض، وإنما تكمن الخطورة الحقيقية في مفهوم الحدود بالنسبة للكيان الإسرائيلي، فهو مفهوم متحرك، يتطور مع تطور هذا الكيان، ونموه، كما يرافقه تطور المجال الحيوي، الذي يعني الحيز والمناخ المنتظر أن يمتد إليه الكيان الصهيوني، في المراحل القادمة، لذا يحرص الكيان الإسرائيلي على بقاء مجاله الحيوي في حالة عجزٍ وشلل، كي لا ينشأ عنه إعاقة مستقبلية لتمرد الجسم الإسرائيلي، فإسرائيل تبادر إلى ما يسمى بالضربات الاستباقية، لأي بوادر تخرج عن المنظور

الاستراتيجي الإسرائيلي^(١).

ثالثاً: حرب ١٩٤٨:

بعد أن مهدت مشاريع التقسيم، التي اختتمت بقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧) الطريق أمام الاحتلال الصهيوني، واصطنعت له شرعية دولية. كان من السهل إتمام الخطة الأخيرة في مخطط الغزو الصهيوني وقيام دولته بمحاربة دول عربية لم تكن قد نالت استقلالها، بعد، ولا تملك الأسلحة، والخطة، والإمام بالطبيعة الجغرافية لمسرح الحرب.

اشتعلت المقاومة الفلسطينية، فور إعلان قرار التقسيم، وشهد شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧ عدة معارك، نجح فيها المقاومون في صد هجمات الصهاينة على بيت صفافا والقدس القديمة، ولفتا، والقطمون، وباب الخليل. وفي يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨ تمكنت المقاومة الفلسطينية من محاصرة الحي اليهودي في القدس القديمة، كما دارت عدة معارك، استهدفت تخفيف ضغط القوى الصهيونية باتجاه المدن الأخرى، منها معركة جدين، قرب ترشيحا، في المنطقة الشمالية، ومعركة بيت سوريك. وفي فبراير/ شباط تمكن العرب من نسف شارع هاسوليل اليهودي، ومهاجمة حي مونتيفيوري، ونسف شارع بن يهودا بالقدس، ما حدا باللجنة الخماسية لمجلس الأمن رفع تقريرها المؤكد على ضرورة تأليف قوة دولية، تتولى فرض التقسيم في فلسطين، غير أن مجلس الأمن، والجمعية العامة رفضا التوصيات، كما رفضت بريطانيا السماح للجنة

(١) العبادي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩.

الخماسية بدخول فلسطين، إلا بعد انتهاء الانتداب^(١).

وصلت المقاومة الفلسطينية إلى أوجها، في مارس/ آذار ١٩٤٨، حيث تمكن العرب من السيطرة على رأس العين، ما بين القسطل وتل أبيب، كما نسفت المقاومة الفلسطينية دار " الوكالة اليهودية "، في شارع الملك جورج بالقدس، وهاجمت القوافل اليهودية التي تحمل المؤن إلى مستعمرات القدس. وفي إبريل/ نيسان ١٩٤٨ شهدت المقاومة الفلسطينية تراجعاً شديداً، نتيجة لاحتلال الصهاينة قرية القسطل، واستشهاد قائد " الجهاد المقدس " عبد القادر الحسيني، بعد تمكنه من استعادتها، وسرعان ما احتلها الصهاينة من جديد، بعد استشهاد الحسيني^(٢).

برغم الجهاد المستميت للمقاومة الفلسطينية، سقطت المدن العربية، الواحدة تلو الأخرى، بعدما منعت السلطات البريطانية وصول الاعدادات العسكرية للمجاهدين، ولم تسع لحماية أهل طبرية، وسموح، وبيسان، ويافا، وحيفا، وغيرها من المدن والقرى التي احتلها الصهاينة، بعد تسلمها من الإنجليز فور انسحابهم منها، قبيل ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨^(٣).

شغلت المعارك التي نشبت للسيطرة على الطرق المؤدية للقدس، بال العرب، منذ صدور قرار التقسيم، كانت المقاومة تستهدف الاحتفاظ بباب

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤، ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣) محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية ١٩١٧ - ١٩٤٨، القاهرة، الهيئة العربية العليا لفلس، طين، ١٩٥٩،

ص ٩٤ - ٩٥.

الواد، الممر التاريخي، الذي يربط سهل فلسطين الغربي بجبال القدس، ويعتبر مفتاحًا لتلك المدينة، في الوقت الذي كان فيه الصهاينة يسعون للاستيلاء على هذا الممر، وما حوله من قرى وهضاب، ليتمكنوا من احتلال القدس، وتزويد حاميتها بالمؤن والجنود، بعدما تمكنت المقاومة من قطع طرق أريحا ورام الله والخليل. خرب العرب الطرق المؤدية إلى باب الواد، وأعطبوا أنابيب المياه، وتصدت مجموعات " الجهاد المقدس " للقوافل الصهيونية المسلحة. ولكن في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، وبانتهاء الانتداب البريطاني، وإعلان قيام الكيان الصهيوني، تسلم الجيش الأردني المواقع التي كانت بحوزة المقاومة بين اللطرون وباب الواد، وبعد أقل من شهرين، في يوليو/ تموز ١٩٤٨ تمكن الصهاينة، خلال فترة الهدنة الأولى، من حشد قواهم، ثم هاجموا الجيش الأردني في قطاع اللطرون (١).

بسقوط المدن الفلسطينية، الواحدة تلو الأخرى، منذ الأسبوع الثالث من إبريل/ نيسان إلى الأسبوع الثاني من مايو/ أيار، سقطت جبهة المنطقة الساحلية الغربية، وعظم جبهة الجليلين، الشرقي، والغربي، ولم يأت موعد انتهاء الانتداب البريطاني، حتى كانت الأراضي التي اختص بها قرار التقسيم اليهود في أيديهم، إضافةً إلى مدن وقرى أخرى، مثل يافا، وجزء كبير من الجليل الغربي، وجزء كبير من قرى القدس، واللد، والرملة (٢).

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠، ٨٢.

(٢) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥ - ٩٦.

برغم صعوبة الموقف، كان من الممكن تداركه بالتدخل العربي السليم القائم على خطة عسكرية منظمة. لكن ذلك لم يحدث، فقد كان إجمالي القوات العربية، التي حاربت الصهاينة لايزيد عن ١٥ ألفاً، وكانت قياداتها غير موحدة، فضلاً عن عدم الإلمام بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

لم يكن الوقت قد فات، بعد، لتغيير مسار تلك الحرب، خاصة مع عقد الجمعية العمومية للأمم المتحدة دورة استثنائية، للنظر في القرار الذي اتخذته مجلس الأمن، بإعادة القضية إليه، لإعادة النظر فيها على ضوء التطورات، فقررت وقف لجنة التقسيم عن ممارسة مهمتها، وتعيين الكونت فولك برنادوت وسيطاً دولياً، الذي سرعان ما اغتاله الصهاينة، بعدما أوصى بضم القدس والنقب للعرب. ولو حشدت القوات العربية قواتها لتلك الحرب لأمكن تغيير الوجه المظلم لتلك الحقبة التاريخية، لكن قلة عدد القوات، خاصة من مصر والعراق - التي لم تبلغ ٤ آلاف جندي - كانت من أهم أسباب الهزيمة، إضافةً للافتقار للقيادة العامة المسيطرة على القوات، فضلاً عما بدا من دهشة إزاء الحصون اليهودية، ومن جهل بجغرافية فلسطين، مع أن استقصاء تلك المعلومات من أهم البديهيات العسكرية وأيسرها تحقيقاً، لو تم التعامل مع الحرب بالجدية الكافية^(١).

اقتصرت ما حققته الجيوش العربية على انتصارات محدودة، فاجتازت القوات المصرية الحدود، في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، واستولت على ثلاث مستوطنات، وكانت على مسافة ٢٠ كم جنوبي تل أبيب، كما وصل

(١) المصدر نفسه، ص ٩٦ - ١٠١.

الجيش الأردني القدس، في ١٧ مايو/ أيار ١٩٤٨، وتقدم الجيش السوري في الشمال الشرقي، ووصل أحد جسور بنات يعقوب، واحتل " مشمارهايردن ". وفي الشمال استولى الجيش اللبناني مع قوات " جيش الإنقاذ " على معسكر المالكية، وتابعت قوات " جيش الإنقاذ " طريقها، باتجاه الناصرة في الجليل، كما تحرك الجيش العراقي في منطقة جنين، وكان مسرح عمليات قوات الجهاد المقدس موزعاً في مناطق الجيش الأردني، والعراقي، والمصري. غير أن الصهاينة استغلوا الهدنة الأولى - التي دعا إليها مجلس الأمن الدولي - في مايو/ أيار ١٩٤٨، والتي امتدت ٤ أسابيع، وبدأت من ١١ يونيو/ حزيران، حتى ٧ يوليو/ تموز ١٩٤٨، وحشدوا الأسلحة المتقدمة من طائرات، ومدفعية، وسيارات مصفحة، ليزدادوا توسعاً، ويتمكنوا من ضم غرب الجليل، واللد، والرملة، وجزءاً كبيراً من وسط فلسطين (١).

لم تمض أربعة أيام على استئناف القتال، حتى تطور الموقف لغير صالح العرب، بانسحاب القوة الأردنية من حول اللد والرملة، والقوة العراقية من رأس العين، ومجدل الصادق، وبعض مناطق مرج بن عامر، سرعان ما احتلها الصهاينة، وتوجت هذه المفاجأة، بقصف القاهرة، ودمشق، وعمان. وتفرغت قوات الصهاينة لمحاصرة كتائب الجيش المصري، حتى كادت تهزمه، لذا تمت الموافقة على الهدنة الثانية، وبدأت فعلياً، في ١٨ يوليو/ تموز ١٩٤٨. استمر الموقف المريع الذي اضطرت مصر على إثره - بعد انسحاب بقية القوات العربية - على

(١) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤، ٨٦.

قبول المفاوضات المنفردة على الصهاينة، وتوقيع هدنة دائمة، في رودس، في فبراير/ شباط ١٩٤٩، ثم تبعتها حكومات الأردن، فلبنان، وأخيراً سوريا^(١).

(١) دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.



شكل (٤١) الكيان الصهيوني يوسع حدوده ١٩٤٨ - ١٩٤٩

(الخريطة رقم - ٢) (١)

(١) المصدر نفسه، ص ٨٧.

توضح الخريطة رقم (٢) المناطق التي تم احتلالها فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٤٩.

وبذلك تُرك الفلسطينيون ليلقوا، وحدهم، مصيرهم المجهول، ما بين المذابح الإسرائيلية، التي يمكن وصفها بالإبادة العرقية، وبين مرارة التحول إلى لاجئين في شتى بقاع العالم.

رابعاً: تغيير الخريطة الديموغرافية

ينص قرار مجلس الوزراء البريطاني، عام ١٩٠٥، على الموافقة على تقرير كامبل بزمّن رئيس وزراء بريطانيا، آنذاك، على " ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، بإقامة حاجز بشري قوي وغريب، يحتل الجسر البري، الذي يربط آسيا بإفريقيا، بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة لبريطانيا، وعدوة لسكان المنطقة " (١).

لا يدع ذلك القرار مجالاً للشك بأن إسرائيل هي صنيعة الاستعمار، وذراعه الممتد نحو الوطن العربي كله لا فلسطين وحدها. ويشير ذلك القرار، كذلك، للمؤامرة الموضوعة، مسبقاً، وقبل " وعد بلفور "، في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧، بضرورة تغيير الطبيعة الديموغرافية لفلسطين، وإحلال اليهود محلهم بالقوة.

تمت الهجرة اليهودية إلى فلسطين على عدة مراحل، بدأت مبكراً في

(١) ناصر موسى زيد كيلاني، إسرائيل دولة المهجرين، عمان، مديرية المكاتب والوثائق الوطنية، ١٩٨٥، ص ٨.

سنة ١٨٨٢، إثر إغتيال القيصر الروسي ألكساندر الثاني، وقرار الروس بطرد اليهود، لتورط بعضهم في عملية الاغتيال. وبعدها تأسست جمعيات "أحباء صهيون" في أوروبا الشرقية، وجذبت لعضويتها شبابًا من يهود روسيا، ورومانيا، وبريطانيا، عملت هذه الجمعيات على تهجير ٣٠ ألف يهودي إلى فلسطين عام ١٨٨٢، إثر اغتيال القيصر الروسي ألكساندر الثاني، وقرار الروس بطرد اليهود، لتورط بعضهم في عملية الاغتيال. وبعدها تأسست جمعيات "أحباء صهيون" في أوروبا الشرقية، وجذبت لعضويتها شبابًا من يهود روسيا ورومانيا وبريطانيا، عملت هذه الجمعيات على تهجير ٣٠ ألف يهودي إلى فلسطين عام ١٨٨٢، قبل أن يفرض الحاكم العثماني، في إبريل/ نيسان من العام نفسه حظرًا على دخول اليهود احتالوا على قرار الحاكم العثماني عن طريق الرشوة، وتسللوا إلى الأراضي الفلسطينية وأقاموا ثلاث مستعمرات يهودية تملكت ٣٢٠٠ دونمًا^(١).

شملت المرحلة الأولى من مراحل الهجرة اليهودية ست موجات، امتدت من عام ١٨٨٠ وحتى عام ١٩٤٨، تميزت الموجة الخامسة منها بتركيزها على انتقاء المهاجرين، فكانوا شبابًا دون الثلاثين، أو أولادًا في الحادية عشرة، أصبح هؤلاء في عام ١٩٤٨ قادرين على حمل السلاح، ومنهم تكون جيش الدفاع الإسرائيلي. كما اتسمت تلك الموجة بتدافع اليهود من العراق، وسوريا، ولبنان إلى فلسطين، خوفًا من الخطر الألماني. أما في فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، فقد زادت نسبة

(١) المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤.

المهاجرين اليهود، ليصلوا إلى ٦ أضعاف، ما قبل الانتداب. وبعد عام ١٩٣٩، اتخذت الهجرة اليهودية شكلاً مكثفًا، بحيث بلغ عدد المهاجرين، في الفترة من ١٩٣٩ حتى وقوع النكبة، نحو ١٥ ألفًا. أما مجموع الذين وصلوا، خلال عام واحد من قيام إسرائيل، إلى أرض فلسطين، فقد بلغ ٢٠٣ ألفًا (١).

في الوقت نفسه أخذ الكيان الصهيوني في اتباع سياسات الطرد والتهميش المنهجية، بشتى السبل والوسائل غير المشروعة، لتغيير الواقع الديموغرافي للبلاد، جاء نزوح عرب فلسطين نتيجةً لعمليات الطرد القسري في حيفا، واللد، والرملة، وطبرية، وبئر السبع، وغيرها من المدن والقرى، إضافةً لفقدان الأمن نتيجة لغياب الأجهزة اللازمة، بعد أن بدأت بريطانيا انسحابها، منذ مارس/ آذار ١٩٤٨، تاركةً قوى رمزيةً مبعثرة. ولم يتوان الكيان الصهيوني عن ممارسة الإرهاب، وارتكاب المذابح، وأبشعها مذبحة دير ياسين، في ٩ إبريل/ نيسان ١٩٤٩، التي ذبح فيها نحو ٧٠٠ نسمة، هم أهل تلك القرية، لم ينج منهم إلا عددًا محدودًا للغاية. استخدمت الدعاية الصهيونية هذه المجزرة لخدمة الحرب النفسية، وحث العرب على مغادرة ديارهم، خوفًا على حياتهم، وأعراضهم (٢).

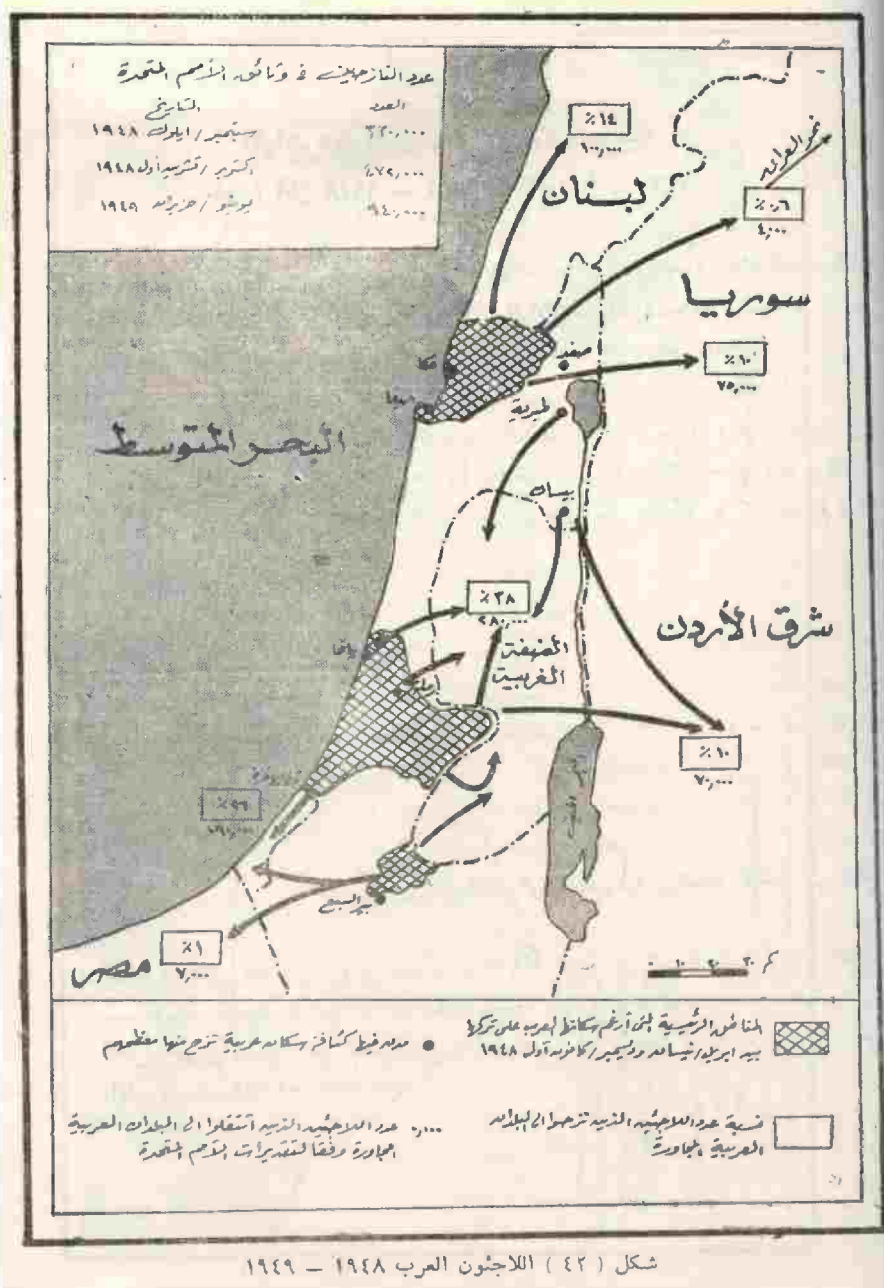
تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن عدد النازحين من أهل فلسطين، الذين أجبروا على مغادرة وطنهم، حتى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، بلغ ٧٢٥ ألف نسمة، أما من بقي من أهل فلسطين داخل الأراضي

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٨.

(٢) قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨.

المحتلة، فتقدر الإحصاءات الإسرائيلية عددهم فيما بين ١٢٠ إلى ١٣٠ ألفاً، وهناك مصادر أخرى تقدر هذا العدد بحوالي ٩٠٠ ألف نسمة^(١).

(١) الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.



(١) (الخريطة رقم ٣)

(١) المصدر نفسه، ص ٨٩.

توضح الخريطة رقم (٣) عدد النازحين حتى ١٩٤٩ والأماكن التي نزحوا إليها.

بعد انتهاء معارك ١٩٤٨، ووقوع النكبة، أصبحت أرض فلسطين مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، بلغت مساحة الأول ٢٠.٧٧ كم^٢، أقيمت عليه دولة إسرائيل. الجزء الثاني بلغت مساحته ٥.٨٧٨ كم^٢ ويمثل الضفة الغربية، وضم إلى إمارة شرقي الأردن، وشكل معها " المملكة الأردنية الهاشمية ". الجزء الثالث، البالغ مساحته ٣٢٦ كم^٢، ويمثل " قطاع غزة "، وضع تحت الإدارة المصرية^(١).

إثر ذلك تشتت الفلسطينيون في دول مختلفة، وانقسموا إلى عدة أقسام، فهناك عرب الأرض المحتلة، الذين لم يغادروا الأراضي التي احتلتها إسرائيل، وهناك اللاجئون الفلسطينيون، الذين هاجروا من أراضيهم، للإفلات من بطش القوات الصهيونية وأقاموا في الضفة الغربية، وقطاع غزة، وفي الأردن، وسوريا، ولبنان، ومصر، والعراق. يقدر إجمالي اللاجئين في تلك المناطق، في عام ١٩٤٩، بحوالي ٩٦٠ ألف نسمة، حسب تقدير وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين (الأونروا)^(٢).

أي أن الاحتلال الصهيوني لم يكتف باحتلال الأرض، وتغيير ملامحها لضمان تمام الاستيلاء عليها، وإنما عمد لاستخدام شتى

(١) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٨، ٩١.

الطرق غير المشروعة، لتغيير الخريطة الديموغرافية لأهل فلسطين. واستخدم المحتل الصهيوني المعطيات الجغرافية للسيطرة على البلاد، والاستيلاء على ثرواتها، كما عمد إلى الطرد القسري، واستخدام الوحشية لاحتلال اليهود والصهاينة من شتى بقاع الأرض محل أهل فلسطين في أذهان الأجيال القادمة إلى أن يتم التحرير.

* * *

الفصل الثاني والعشرون:

ثورتى مصر والعراق

منى محروس

منذ بدأت الهجرات اليهودية إلى أرض فلسطين، كان لدى الشعوب العربية موقفٌ معادٍ لتلك الهجرات، كما دعم الشعب العربي الثورة الوطنية الفلسطينية (١٩٣٦ - ١٩٣٩).

وكان للشعبين المصري والعراقي، دوران بارزان، في مساندة تلك الثورة، وطالبت الجماهير العربية الأنظمة الحاكمة بالتدخل السريع، لإنقاذ الشعب الفلسطيني، لما يعانيه جراء الاحتلال، من اغتصاب وسلب لأراضيه، وعندما رضخت الحكومات العربية لمطالب شعوبها، أرسلت جيوشها إلى فلسطين، دون تنظيم، أو تسليح كافٍ لخوض معركة حقيقية ضد جيشٍ مستعدٍ لخوض معركة.

عندما تقدمت الجيوش بطلب العون من أنظمتها، أرسلت إليها أسلحة غير صالحة لخوض حربٍ متكافئة، لكن الجيوش العربية استمرت في مقاومتها، ونجحت في معارك عدة ضد العصابات الصهيونية المسلحة، وإن كانت الحرب حسمت، في النهاية، لصالح العدو الصهيوني، بهزيمة الجيوش العربية، ما كان له أبلغ الأثر في نفوس تلك الجيوش، بعد خروجها من فلسطين، دون تحقيق الهدف الحقيقي، الذي ذهبوا من أجله، وعادت الجيوش إلى أوطانها، وهي مشحونة ضد أنظمتها، وضد

الاحتلال، في آنٍ معاً، فماذا كانت ردة فعل هذه الجيوش عامةً، وجيشي مصر والعراق خاصةً؟ هذا ما سنتطرق إليه في هذا الفصل.

الاستعداد للمعركة:

كان ملوك ورؤساء الدول العربية قد اجتمعوا، في عمان، في ٢٩ إبريل/ نيسان ١٩٤٨، وأوصوا بتعيين الملك عبد الله بن الحسن، قائدًا للجيوش العربية، وأن يتولى اللواء الركن نور الدين محمود، من العراق، منصب القائد التنفيذي، ويكون تابعًا للجنة السياسية لجامعة الدول العربية، مباشرة، وكان ذلك قبل بدء العمليات الحربية بخمسة أيام فقط، وكان مجلس الوزراء العراقي قد اجتمع، يوم ١٩٤٨/٥/٩، بحضور السيد جمال مردم، رئيس الحكومة السورية، السيد رياض الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية، وفي هذا الاجتماع تم تأييد قرار جامعة الدول العربية، كما عقد اجتماع آخر، في اليوم التالي، في دمشق، في غياب ممثل كلٍ من حكومتي مصر والسعودية، وطلب وضع خطة عسكرية، بناءً على طلب الساسة، الذين حضروا الاجتماع، وتم وضع خطة نهائية للعمليات المقبلة في فلسطين، مع تحديد مهام كل من الجيوش العربية، بالفعل، وتحدد دور كل من مصر والسعودية، رغم عدم حضورهما ذلك الاجتماع.

كان دور مصر حسب الخطة الموضوعية:

- ١ - التقدم من حدود مصر في رفح إلى الشمال نحو تل أبيب، وتصفية ما يقابل الجيش المصري من مستعمرات.
- ٢ - أن تقوم البحرية المصرية بمراقبة السواحل الفلسطينية،

ومحاصرتها.

٣ - أن تقوم القوة الجوية المصرية بمساندة الجيش، عند تقدمه.

أما دور الجيش العراقي فكان حسب الخطة، التقدم من إربد إلى جسر المجامع، على نهر الأردن، وكيشر وكوكب الهوى، ومنها إلى بيسان، ثم العفولة، فالناصرية.

ما حدث، لاحقاً، أكد غياب تنظيم عسكري عربي، قبل بدء الحرب، فإسناد مهام إلى قوات غير موجودة، بشكل فعلي، عند الاستعداد، كمصر والسعودية، يؤكد الاستخفاف العربي تجاه تلك الحرب. والدور المصري قد حدد دون وجود مندوب أو ممثل للجيش المصري^(١).

في الوقت المحدد لدخول الجيوش العربية فلسطين، كانت هناك أوضاع سيئة تسود الدول العربية عموماً، وجيوشها بشكل خاص، ولم يضع حكام العرب الخطر الصهيوني في إعتبارهم، وكانت مصالحهم الشخصية فوق كل شيء، بما في ذلك فلسطين، وظل الحكام العرب يعتقدون إجتماعاتهم، دون محاولة مد يد العون الفعلي للمجاهدين العرب في فلسطين، وحرص أولئك الحكام على إرضاء السياسة البريطانية، ومسايرتها، وأضاعوا الوقت هباءً، وكان كل يوم يمر يزداد اليهود في فلسطين قوة، فيما يزداد العرب ضعفاً، ولم تتحرك الجيوش العربية إلى فلسطين إلا بعد خروج الإنجليز، وتسليم فلسطين لليهود، كما أن الجيوش

(١) لواء أ. ح. د/ إبراهيم شقيب، حرب فلسطين ١٩٤٨، رؤية مصرية، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، ص١٥٨-١٥٩.

العربية التي دخلت أرض فلسطين ١٩٤٨. كانت تفتقر للعتاد، والسلاح، والقيادة الكفوءة، وكانت الخيانة واضحة من قبل الملوك والحكام العرب، رغم تلك الظروف تحركت الجيوش العربية، ومن ضمنها الجيش المصري، دون سلاح، فالسلاح فاسد، قديم، متآكل، والقيادة غير أمينة، وخطوط التموين غير سليمة أو متماسكة. وعلى العكس من ذلك كان العدو على أتم الاستعداد، من عدة وعتاد، وأثناء الحرب تقدم المجاهدون المصريون بعزيمة وثبات، وهم يتذكرون أهم قادتهم الذين أستشهدوا، وعلى رأسهم البطل أحمد عبد العزيز^(١).

منذ بدء الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، وحتى حرب فلسطين ١٩٤٨، قد مر الجيش المصري بأحقاب تاريخية ثلاث، الأولى من بدء الاحتلال البريطاني وحتى معاهدة ١٩٣٦، والثانية من ١٩٣٦، وحتى إعلان الحكومة المصرية عدم اشتراك مصر في الحرب العالمية الثانية، تجنبًا لويلاتها، في عام ١٩٤٠، والثالثة من عام ١٩٤٠ وحتى انتهاء حرب فلسطين عام ١٩٤٩، ومن ثم حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

في الحقبة الأولى، كان ضباط الجيش الإنجليزي يسيطرون على الجيش المصري، بشكل كامل، حيث كانوا يشغلون كل المراكز القيادية للجيش المصري، بما في ذلك القيادة العامة للجيش، ولم يكن وزير الحربية المصري يملك حق التدخل في أي من شئون الجيش، وحرصت القيادة الإنجليزية أن يكون الجيش

(١) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، ثورة شعب، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٥ ص ١٣٣: ١٥٠.

المصري مجرد جيش احتفالات، ولكن الضباط المصريون اشتهروا، في تلك الحقبة، بالحفاظ على كرامتهم، ووطنيتهم، الأمر الذي عرضهم للمحاكمات العسكرية، أحياناً، والفصل من خدمة الجيش، أحياناً أخرى^(١).

بدأت الحقبة الثانية، بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦، وحتى عام ١٩٤٠، واتسم ضباط الجيش، آنذاك، بالطابع الوطني، وانسحب الموظفون البريطانيون من الجيش كما عادت القوات المصرية إلى السودان، بعد أن كانت انسحبت منه، عام ١٩٢٤، ووصلت بعثة عسكرية بريطانية، تولت إعادة تنظيم الجيش المصري، وتسليحه، وتدريبه. كما عين اللواء محمود شكري باشا قائداً للجيش، بعد سفنكس باشا، وارتفع عدد الجيش المصري، في ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٣٩، بعد قيام الحرب العالمية الثانية، إلى ١٤٢١ ضابطاً، ٣٤.٨٥٥ من الرتب الأخرى. وكان هناك نقصٌ طفيف في ميزانية ذلك العام، والتي بلغت ١٤٤٤ ضابطاً، و ٣٦.٨٤٠ صفًا وجنديًا.

أما الحقبة الثالثة، والتي تطور خلالها الجيش المصري، فبدأت عام ١٩٤٠، وأعلنت مصر عدم المشاركة في الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي جعل البعثة العسكرية البريطانية تتأخر في مهمتها، وتم سحب الضباط الإنجليز أركان الحرب، وحل محلهم ضباط وحدات، ووسمت سياسة الجيش المصري بعدم الإتران، فالقيود البريطانية عليه من ناحية، وعدم وجود سياسة تحكم الجيش من قبل الحكومات، من ناحية أخرى،

(١) شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠.

الأمر الذي ولد استياءً من قبل عناصر الجيش من البريطانيين والحكومة على حدٍ سواء^(١).

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، عرض الإنجليز على الحكومة المصرية شراء أعداد كبيرة من دبابات شيرمان، ومعدات عسكرية أخرى، في الوقت الذي كانت إنجلترا مدانة لمصر بحوالي ٤٠٠ مليون جنيه استرليني. ومع ذلك رفضت الحكومة المصرية هذا العرض، كما أهملت تعزيز الجيش، وتطويره، وعانى الجيش من النقص الشديد في السلاح والذخيرة، وكانت النتيجة دخول الجيش المصري، حرب فلسطين، وهو يعاني نقصاً واضحاً، في أسلحته، ومعداته، وذخيرته وتدريبه. " الأمر الذي ولد البغض والكرهية من قبل ضباط الجيش، الذي لا يعنيه مصلحة قواته المسلحة، والتي ستخوض معركة عن أرض مقدسه كفلسطين. " وكانت رئاسة الجيش قد وضعت خطة، في ٢٣ مارس/ آذار ١٩٤٧، لزيادة عدد الجيش، وإعادة تنظيمه، وتسليحه، وذلك للوصول بتعداد الجيش إلى ٦٣٤٩ ضابطاً، و ٤٤٢٥٠ من الرتب الأخرى، ولكن الجيش المصري دخل حرب فلسطين، ولم تطرأ عليه أي زيادة تذكر، اعتباراً من ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤٧، وحتى مايو/ أيار ١٩٤٨، مع إعلان التعبئة، وتشكيل وحدات احتياطية للطوارئ. ومع تطور الأحداث في فلسطين، زار وزير الدفاع المصري قوات الجيش في العريش، في ١٧ فبراير/ شباط ١٩٤٨، واقترح دراسة احتمال استخدام القوة، أو جزء منها في التقدم شرقاً إلى فلسطين، وإعادة النظر في

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٢، ١٤٥.

وحدات العريش وبحث أوجه النقص في القوة، سواء في الأفراد، أو المعدات، وذلك لاستكمالها. كما بحث الوزير ما يمكن للجيش تقديمه من المعاونة في حدود طاقته، آنذاك. ورفع الوزير تقريراً للموقف من إدارة العمليات الحربية، وأعد ذلك اللواء مصطفى مرسي لطفي باشا، مدير العمليات الحربية، في مارس/ آذار ١٩٤٨، ولذلك اقترح رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة، في مذكراته، التي قدمها لوزير الدفاع ضرورة إعادة النظر في العروض التي قدمت من الشركات الأجنبية، وأهمها العرض المقدم من شركة زروفاكبرتو، واتخاذ الخطوات العملية في سبيل تعزيز الجيش بالأسلحة الآلية الحديثة. وقد بعث اللواء لطفي بمذكرة إلى رئيس هيئة أركان الجيش بالنيابة، اللواء عثمان المهدي، في التاسع من مايو/ أيار ١٩٤٨، طلب فيها سرعة استكمال القوات في العريش، من العربات، والمعدات الفنية، والأسلحة، والذخيرة. واتضح من ذلك أن الجيش المصري لم يكن مستكماً لأسلحته، ومعداته، عشية قرار دخول فلسطين، في العاشر من مايو/ أيار ١٩٤٨. وكان يعاني نقصاً واضحاً في ذخيرته، بالإضافة إلى القصور الواضح من جانب المخابرات في توفير المعلومات عن الأرض، والعدو، للقوات المنتظر دخولها فلسطين، الأمر الذي دفع بمدير عمليات الجيش إلى طلب قيام طائرات السلاح الجوي بالمساعدة في الحرب^(١).

الجو الذي نشأ فيه الضباط المصريون :

كان الضباط المصريون الشبان يسعون فرادى ومجموعات، إلى

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٥ : ١٥٨

بيت الفريق عزيز المصري في " المطرية "، فطالما حدثهم عن مصر، وعن أنفسهم، باعتبارهم خلاص مصر مما هي فيه. وكان " المصري " يبت فيهم أفكاره، المليئة بالحرص على وجود جيل مصري قوي مثقف، يُعتمد عليه، وظل يحثهم على القراءة في جميع المجالات. وكان هؤلاء الضباط يتشوقون للقاء الذي يجمعهم مع عزيز المصري، للتعرف على أفكاره، وتلقي توجيهاته. في الوقت الذي أصبحت فيه الأحزاب السياسية تتعارك من أجل التقرب من الملك وبريطانيا، من أجل البقاء في السلطة، وتناسوا الهم الوطني، وازدادت الفجوة بين الجماهير من جهة والأحزاب وزعمائها، والنظام الحاكم من جهة أخرى، ومن هنا بدأت تظهر الأفكار الثورية والتقدمية، وتركت هذه الأحوال للشعب المصري عامة، والعسكريين خاصة خيبة أمل، فبدأت تظهر أفكار شابة متحررة " كمصر الفتاة " وظهر مصلحون من العسكريين أشاعوا الأمل في التغيير بأساليب جديدة على الفكر السياسي المصري، وتجلى ذلك في " عزيز المصري "، الذي نقل كل ذلك إلى الضباط الشباب الذين كانوا مستمرين في اللجوء إليه، للتعلم منه، وكان حادث فلسطين هو الكاشف الحقيقي عن الأزمة التي تعيشها مصر، وكانت الحافز الذي دفع الضباط للتحرك الفعلي. وكان العمل السياسي في الجيش يمر بمظاهر مختلفة، من اتصال بقوى خارجية، إلى كتابة صحفية، إلى تهيج ثوري، إلى اتفاقات جنائية، بل إلى أعمال عنف، وانتهت إلى ثورة، كما أسهمت حرب فلسطين في تحرك مصر، لامتلاك جيش قوي. وانغمس ضباط الجيش في العمل السياسي، بهدف التغيير، الذي يعيد لمصر وجهها الصحيح، وكانت المحصلة ثورة

٢٣ يوليو، تموز ١٩٥٢^(١).

عن تاريخ هؤلاء الضباط الوطنيين، يقول عبد الناصر في " فلسفة الثورة " : إن طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل إلى تفكيري، وأنا طالب في المدرسة الثانوية، أخرج مع زملائي في إضراب عام، في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني من كل عام، احتجاجاً على وعد بلفور.... لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة، وثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول الموضوع، لما أصبحت طالباً في الكلية الحربية، أدرس تاريخ فلسطين، بصفة خاصة.... ولما بدأت أزمة فلسطين، كنت مقتنعاً بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض غريبة، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس " ^(٢)، يقول عبد الناصر: " أذكر يوماً، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٨، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة الفلسطينية، وذهبت، في اليوم التالي، أطرق باب الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، وكان لا يزال يعيش في الزيتون، وأقول له إنكم في حاجة إلى ضباط، يقودون المعارك، ويدربون المتطوعين. في الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد ان يتطوع، وهم تحت أمرك، في أي وقت تشاء. وقال لي الحاج أمين الحسيني إنه سعيد بهذه الروح، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية، قبل أن

(١) عبد الوهاب بكر، الجيش المصري وحرب فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٥٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ص: ٢٧٣ - ٢٧٨.

(٢) اللجنة العربية لتخليد القائد جمال عبد الناصر، فلسفة الثورة، القاهرة، الجزء الثالث، ص: ٣٩ - ٥٦.

يقول شيئاً. ورأى الحاج أمين الحسيني، آنذاك، أن يستأذن الحكومة المصرية ولكن طلبه قوبل بالرفض، وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية، جنوبي القدس، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين، عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار، التي تحولت إلى مجلس قيادة الثورة، وكان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزي القاوقجي، الذي كان يقود " جيش الإنقاذ " يستعد لمعركة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين (١).

وضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادي خطة جزئية، للقيام بعمل حاسم في المعركة التي يستعد لها جيش الإنقاذ. وقرر إبراهيم والبغدادي أن يقوم سلاح الطيران المصري، وذلك لاستخدامه في المعركة، مسانداً لجيش الإنقاذ ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين، كان جو الرقابة في القوات المسلحة، بما فيها سلاح الطيران، حذرًا متيقظاً. بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح الطائرات، وإعدادها، وكانت هناك جهود واضحة في التدريب. وقليل من الضباط يعرف هذا السر، يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليومٍ تجيء فيه إشارة سرية من سوريا، لينطلقوا بعدها إلى الجو حتى يشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الأرض المقدسة، وبعدها يتوجهون إلى مطار قرب دمشق، وينزلون فيه، ويتربصون الأحوال في مصر، ويعرفون صدى الحركة التي أقدموا عليها، ويقررون بعدها كيف يتصرفون، يقول عبد الناصر: " وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار أن هذه

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣.

المخاطرة الجزئية، لم تكن حباً في المغامرة، ولا رد فعل للعاطفة في نفوسنا، إنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن رفح ليست آخر حدودنا، وأن نطاق سلامتنا يوجب علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة، ولم تتم الخطّة، لأننا لم نتلق إشارة من سوريا، وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين". يردف عبد الناصر "يعنيني من حرب فلسطين شيء عجيب، لقد دخلتها شعوب العرب بنفس المرارة والخيبة، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة. ومن هنا نجد أن الضباط الأحرار كانوا منظمون بشكل كبير، قبل دخول تلك الحرب، وساهمت تلك الحرب في تشكيل وعيمهم، بشكل كبير، حيث بدأ هؤلاء الضباط يربطون مصير الأمة العربية بأكملها ببعضاً" (١).

يمكننا القول أن الحماس كان شديداً، في بداية عام ١٩٤٨ لدى كافة الشعوب العربية للجهاد على أرض فلسطين، وكان ضباط الجيوش العربية وخصوصاً الشباب منهم أكثر اندفاعاً للتطوع في سائر جبهات القتال: ففي سوريا قدم عدد كبير من الضباط طلبات الالتحاق عن طريق قيادتهم وقدم قسم منهم استقالاته من الجيش، إلى أن قبلت رئاسة الأركان السورية إقرار ٤٦ ضابطاً منهم مع عدد كبير من ضباط الصف والجنود، وزعم كبار ضباط العراق الفكرة، وانضم الكثير من الضباط الشباب المحليين على التقاعد، إلا أنهم اشتركوا، قبلاً، في ثورة "رشيد عالي الكيلاني"، وكان أوائل المتطوعين المصريين المقدم أحمد عبد

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤، ٤٥.

العزیز، والنقباء ” حسین فهمی عبد المجید (مدفعی)، معروف الحصر، کمال الدین حسین (مدفعی)، حمدي واصف، عبد المنعم عبد الرؤوف، محمود عبده، عبد الجواد طبالة، والملازمون زغلول الشلبي، عمر النبيلي، کمال حسك، ومدلول عباس، والنقيب مشيل عيسى (من أصل فلسطيني)، والملازمون الأوائل: محمد الحنيطي، کمال سعدون، علي کمال الدين، والملازمان: عبد العزيز حمدي، حاسم عماره ^(١). في اليوم الأول من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، تجمعت ثمانية أفواج، ومن بينهما فوج اليرموك، قائده الرئيس مدلول عباس (عراقي)، فوج القادسية: قائده المقدم مهدي صالح العني (عراقي)، فوج حطين: قائده المقدم عادل نجم الدين (عراقي) ^(٢).

أزمة السلاح العربي :

لم يكن التسلح، ولا استيراد السلاح ولا صنعه محلياً، مشكلة من بين المشاكل التي شغلت بال مسؤولي الدول العربية، في السنوات الأولى من حياة تلك الدول، دولياً، بعد انفصالها عن الحكم العثماني، ذلك أن خضوعها لحكم الاستعمار الأوروبي، بشكلٍ أو بآخر، في الفترة التي مرت بين ١٩١٨ : ١٩٤٨ وبعدها، أبعداها عن العناية بمسألة التسليح، وانشغلت أكثر بمسألة الاستقلال. وبالرغم من اعلانات الاستقلال في ما بين ١٩٣٠، ١٩٤٨، في مصر والعراق وبعض الدول العربية الأخرى،

(١) محمد فائز القصري، حرب فلسطين عام ١٩٤٨، الجزء الثاني، مرحلة النضال والجهاد، دمشق، المطبعة العمومية، ١٩٦٢، ص ٢٤٧ : ٢٤٩.

(٢) عارف العارف، النكبة، نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، ١٩٤٧ : ١٩٥٢، بيروت، المطبعة العصرية، و. ت.، ص ٣٨ : ٤١.

فإن مصائر هذه البلدان ظلت مربوطة بالرغبة الأجنبية في أمور حياتية أساسية، يتوقف عليها مصير الأمة بشكل عام. كانت الجيوش العربية من المؤسسات، التي لم يرض الاستعمار أن تصبح أداة حرة قوية بين القوى التي أخذت تحاول سد الفراغ العسكري، على إبقاء الجيش تحت السلطان الأجنبي بشكل غير واضح. وهكذا كانت الجيوش العربية في ١٩٤٨، عام بدأ مرحلة حاسمة في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، وكانت جيوش سبع دول عربية مستقلة، جيوشًا غير مستقلة، بالمعنى الصحيح للكلمة. فجيش مصر والعراق على سبيل المثال قد عقدا معاهدتين مع بريطانيا، وكان هناك تحكّمًا بريطانيًا على قوى البلدين العسكرية، وبشكل شامل ومرهق. ولكن الفقر وضالة العدد جعل حالهما أتعس من حال الجيوش العربية الأخرى.

في العقد الأربعين من هذا القرن كانت هناك محاولات للضباط العرب، في كل جيش عربي، لتطويع مؤسساتهم، وترقيتها، لتلعب دورًا رئيسيًا في معركة الدفاع عن الوطن، بشكل عام، وفي معركة إنقاذ فلسطين، بشكل خاص، فكان هناك إلحاح من قبل الضباط على حكوماتهم للحصول على السلاح، فطلب ضباط الجيش العراقي وشرق الأردن من حكوماتهم ضرورة استيراد سلاح جديد وفعال، ولكنهم فشلوا في إقناع حكوماتهم، للسيطرة البريطانية على تلك الحكومات. كما ألح ضباط الجيش المصري على الملك فاروق بطلب المزيد من السلاح، وأعطاهم الملك سلاحًا فاسدًا، غير صالح للاستخدام، وكان ذلك حال الجيوش العربية على العموم، الأمر الذي جعل ضباط تلك الجيوش تفكر، أولاً،

في التخلص من تلك الحكومات، حينما تعود إلى أوطانها^(١).

كانت الحرب الفلسطينية، بالنسبة لعدد كبير من الضباط، وخاصة " الضباط الأحرار "، تجربة من نوع مريب، فتسليح الجيش لم يكن كافياً، ولم تكن هناك قيادة بالمعنى المتعارف عليه، وأصبحت قضية الأسلحة مشكلة رئيسية تدق أبواب القصر بالإدانة، وضغط الملك، آنذاك، على الحكومة، والنيابة العامة، حتى أمرت بحفظ التحقيق بالنسبة لرجال الحاشية. وكانت تلك الحادثة من أهم أسباب اتساع الفجوة بين الملك وضباط الجيش، فأنكشف الوجه الحقيقي للملك وحاشيته، أمام ضباط الجيش، مما ترك أثراً بالغاً لدى الآخرين، ورغبة في الانتقام من الملك، ونضج هذا النظام أمام الشعب المصري. وبدأ الضباط يضعون أمامهم أهدافاً رئيسية، وخطوات فعلية، من أجل ذلك، للثورة ضد هذا النظام الفاسد، كما سبب الحصار داخل الفالوجة لدى الضباط المصريين شعوراً بالحقن الدفين ضد النظام الذي جر الجيش إلى تلك الحرب^(٢).

عن حصار القوات المصرية في الفالوجة، يقول عبد الناصر في " فلسفة الثورة " إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمه، التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار، وتلحق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة... وكنت مؤمناً أن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث وما زال احتمال حدوثه قائماً لأي بلد في هذه المنطقة،

(١) أنيس صايغ، ميزان القوى العسكرية بين الدول الغربية وإسرائيل، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧، ص ٩: ١٢.

(٢) شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٤: ٤٥٣.

مادام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن، ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين، وعدت إلى الوطن، كانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلاً واحداً... كان الحادث يقع في القاهرة، فيقع مثيلاً له في دمشق غداً، وفي بيروت، وفي عمان، وبغداد، وغيرها". ما يؤكد تأثير الحرب والحصار في الضباط، بشكل كبير، فالحصار وحد تلك الجيوش العربية دون أن تدري، وعادت الجيوش، ولديها عدو واحد، وهو أي عدو يعتدي على أي بلد من بلدان المنطقة^(١).

حرب فلسطين والضباط المصريين :

إذا كانت حرب فلسطين قد بدأت في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨، بتفوق عددي إسرائيلي، يقابله تفوق عربي في قوة النيران، فإن الإسرائيليون قد بدأوا عملياتهم، في ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٨، وهم محققين تفوقاً في العدد، والعتاد على الجيوش العربية مجتمعة^(٢). يذكر فاتيكوتس في كتابه "الجيش المصري في السياسة" أن الأحد عشر ضابطاً الذين جمعتهم اللجنة التأسيسية لجماعة الضباط الأحرار، أواخر عام ١٩٤٩، دخل منهم الكليه الحربية ١٩٣٦، ثمانية، والباقي دخلوها بعدهم، يتصور أن تنظيم الضباط الأحرار ظهر ككيان تنظيمي في ١٩٤٩، ولم يكن الأمر قبل ذلك سوى مجرد إرتباطات وعلاقات شخصية، بدأت في الكليه الحربية، بين عامي ١٩٣٦، ١٩٣٩ ونمت، وتحددت، بين عامي ١٩٤٥، ١٩٤٨، وتطورت أكثر، أثناء حرب فلسطين ولم يكن هناك التحام فكري

(١) فلسفة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦، ٤٧.

(٢) شكيب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٢.

بينهم، يعتمد على الخطط المنظمة، والعمل الثوري، بل تطورت افكارهم من خلال الأحداث التي مرت بها البلاد الفتره من ١٩٤٨ : ١٩٥١. ثم جاءت حرب فلسطين لتبعث في شباب " الضباط الأحرار "، وقبل إعلان الحكومة دخولها الحرب في ١٥ مايو/ أيار قررت جماعة الضباط مساندة المقاومة الفلسطينية بالعرض الذي قدمه عبد الناصر للحاج أمين الحسيني، كما أشرنا من قبل، وقدم عبد الناصر استقالته، آنذاك، من الجيش للإنضمام إلى حركة الكفاح هناك، ولكن استقالته رفضت، وإن استطاع جمال الدين حسين أن يستقيل، وتطوع في فلسطين. كانت تجربة فلسطين صدمةً بالنسبة للجيش والشعب ولحركة الضباط الأحرار. وكان الشعب المصري يرى أن الجيش مؤسسة عسكرية تقف بجوار الملك، ويسيطر عليها هو والاحتلال، وكان دخول الجيش حرب فلسطين أول نشاط لهذه المؤسسة، في القرن العشرين، واحتضنت الجماهير كافة العمليات العسكرية، بأمالها، ونمى لديها الشعور بانتماء الجيش وضباطه المقاتلين لها، " ومن هنا بدأت ثقة الشعب في الجيش، الأمر الذي جعلهم يساندون الثورة التي قام بها هؤلاء الضباط، في يوليو/ تموز ١٩٥٢، وكانت حرب فلسطين السبب في ذلك "، وما حدث في فلسطين كان واحداً من عوامل التقارب بين الجيش والجماهير. وأدرك الضباط، آنذاك، أن العدو لم تكن إسرائيل، وحدها، ولكنه الاحتلال البريطاني، والرجعية المحلية في مصر، مجتمعين. وفي الفترة من ١٩٤٩، ومع العودة من فلسطين، وضع أساس التنظيم كله، واختير اسم " الضباط الأحرار "، ورسم أهدافه، ونظمه، وتمثل ذلك في:

١- القضاء على الإستعمار وأعدائه.

٢- إنشاء جيش وطني قوي.

٣- إيجاد حكم نيابي سليم.

في الفترة من ١٩٥٠: ١٩٥١ أصدر " الضباط الأحرار " العديد من المنشورات، التي تؤكد أن الجيش جيش الأمة، وليس ملك فرد من الأفراد (الملك)، كما ذكر فوشية في كتابه " المنشور الأول " في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٩، صدر مكتوبًا بخط اليد، وفيه نداء للمصريين بتحرير الوطن، وبدأ درس فلسطين المريع، يعطي ثماره، مع المطالبة بإعادة تنظيم الجيش وتدريبه، ومع دعوة الحكام، للكف عن تبديد خيرات البلاد في البذخ والترف^(١).

يقول عبد الناصر: " ذهبت أتجول في المواقع، وأتعرّف على حقيقة الجو بين الضباط. وفي الحقيقة كنت أحاول أن أضم بعضهم إلى تنظيم الضباط الأحرار... وطريقتي، في ذلك الوقت، كانت تركز على عاملين، الأول: أن أعطي الثقة لكل من أقابلهم، والثاني: أن أقوي صلاتي الشخصية بهم، إلى أبعد حد... إن الثقة والصدقة كفيلتان، عندما يحين الوقت المناسب، أن تتحول إلى شيء أعمق، وأنا أنظر حولي الآن، فأجد وجودًا كثيرة في تنظيم الضباط الأحرار، التقيت بها، لأول مرة، في الخنادق في فلسطين ". ومن هنا نجد أن حرب فلسطين كانت فرصة

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥: ١٩٥٢، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٤٥٧، ٤٧١.

حقيقية لدى " الضباط الأحرار " المصريين في ضم عدد آخر من الضباط الوطنيين إلى تنظيمهم، ممن شاركوا في الحرب^(١).

كما رأى الضباط المصريون، وعلى رأسهم عبد الناصر، بأنهم وسط شعب لا يختلف كثيرًا عن الشعب المصري، بل أن تاريخهم وحياتهم تتصل، عضويًا، بتاريخ الشعب المصري وحياته، وكان العدو لا يقتصر عداؤه على الشعب الفلسطيني، وحده، وإنما يمتد عداوة بامتداد مطامعه، إلى تهديد ما حول فلسطين، شمالاً وجنوبًا. ورأى عبد الناصر نفسه في فلسطين، ومعه مقاتلين من ضباط وجنود معظمهم من الشعوب العربية، ضباط وجنود من فلسطين، والأردن، والعراق، والسعودية، كلهم يقاتلون من أجل هدف يقع خارج الحدود السياسية الضيقة لدولهم، ولكنه هدف يعنيه جميعًا ويمسهم. وأدرك عبد الناصر بأن خطر هذا الاستعمار يهدد المنطقة العربية بأكملها، فكل البلدان العربية تتعرض للاحتلال، وكلها غير مستقلة، ورأى الضباط أن لديهم دورًا يجب أن يقوم به داخل أوطانهم^(٢).

عاد جنود الجيش المصري من فلسطين، سنة ١٩٤٩، وأحس مقاتلون فيه بأنه لا بد من عمل شيء، وأن الأمانة الملقاة على عاتقهم ضخمة وكبيرة، وتألفت جماعة " الضباط الأحرار "، وقرروا نشر دعوتهم داخل صفوف الجيش، للعمل على إنقاذ البلاد مما تعانيه من

(١) محمد حسنين هيكل، يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين، باريس، منشورات مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ص ٢٣: ٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٨، ١١٩.

فساد. والتزم هؤلاء الضباط بالحرص الشديد على جماعتهم، وكنتموا أمرهم، واعدوا أنفسهم لاستقبال الموت في أي لحظة، واجتمعت هيئتهم، في يناير/ كانون الثاني ١٩٥٠، لاختيار رئيس لهم، ووقع الاختيار على جمال عبد الناصر، بالإجماع، وتكرر نفس الاختيار في يناير/ كانون الثاني ١٩٥٠، ويناير/ كانون الثاني ١٩٥٢، وانحصر دور " الضباط الأحرار " في الدعوة لحركتهم، والتمهيد لها، وإعداد الرأي العام داخل صفوف الجيش وخارجه للثورة.

بالرغم من عدم مشاركة الجيش في العمل الفدائي في القتال، سنة ١٩٥١، بسبب سوء ظروفه، بعد العودة من حرب فلسطين، فإن الضباط الأحرار لم ينسوا واجبهم، وقاموا بتدريب الفدائيين على حرب العصابات، وتزويدهم بالسلاح والذخيرة. " كانت حرب فلسطين درساً أدرك، بعده، الجيش عدم المشاركة في معركة غير مستعد لها، كما أدرك الضباط أن بريطانيا أرادت استدراج الجيش إلى معركة القتال، للنيل من الجيش، والقضاء عليه، كما قضت على جيش عرابي (١٨٨٢) وكما حدث في النقب، أثناء حرب فلسطين " (١).

ثم حدث صدام عنيف بين " الضباط الأحرار " والملك فاروق، بعد خوض الضباط الأحرار انتخابات نادي الضباط، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥١، الأمر الذي جعل الملك فاروق يحل مجلس إدار النادي مرة، ثم إعلانه، مرة أخرى، عام ١٩٥٢. في تلك الآونة ازدادت الأحوال

(١) عاشور، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨، ١٦٩.

سوءًا بين الضباط والملك^(١).

لم يضم الجيش المصري، طوال عصر الاحتلال وحتى ثورة يوليو ١٩٥٢، إلا الفقراء، والطبقات المهملة من الشعب، وظل المثقفون ومتوسطو الحال بعيدين عن صفوف الجيش، الأمر الذي أدى إلى انخفاض مستوى الجيش، انخفاضًا مؤسفًا، وقبل ثورة يوليو، بلغ الجيش المصري درجة من الإهمال، وتدهورت الروح المعنوية، بشكل كبير، جعل قيام ثورة يوليو أمر لا رجعة عنه، ويوم ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢، عرف العالم أن الجيش المصري قد ارتقى مستواه، واعترفت قوات الاستعمار بأن الجيش المصري أصبح قوة حربية ضاربة في الشرق الأوسط^(٢).

كانت حرب فلسطين العامل الرئيسي في قيام ثورة يوليو، على ما أوضح عبد الناصر في " فلسفة الثورة " بقوله: " كنا نحارب في فلسطين، ولكن أحلامنا كلها في مصر، كان رصاصنا يتجهه إلى العدو الرابض أمامنا في خنادقه، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا... وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس، وتبحث، وتجتمع في الخنادق، والمراكز، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية. كان حديثنا شاغل وطننا، الذي يتعين علينا محاولة إنقاذه. يقول عبد الناصر: " لم ألتق في فلسطين بالأصدقاء، الذين شاركوني في العمل من

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

أجل مصر، وإنما التقيت بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل”^(١). كانت حرب فلسطين، صفحة جديدة في تاريخ الجيش المصري، وتحولاً هاماً، وأهم عناصره أن الجهود التي بذلت من أجل إحياء الجيش المصري تميزت بأنها محاولة مصرية خالصة... وأن هذا الموقف كان يخدم تحقيق رغبة التيار الشعبي في امتلاك جيش حديث يفتخر به، وكانت تلك قضية مرتبطة، بالدرجة الأولى، بما حدث في فلسطين، ومن النتائج المباشرة لهذه الحرب، إدخال تعديلات على المنهج الدراسي للكلية الحربية، بعد قيام ثورة يوليو/ تموز ودروس مواد جديدة، مثل الأرصاد الجوية، واقتصاديات الحرب، اللغة العبرية، كانت من المواد الجديدة التي تدرس، كما أدخل تدريس الإشارة^(٢). لم تكن مصر هي البلد الوحيد الذي شهد تحولاً جذرياً، بعد حرب فلسطين، كان لهزيمة ١٩٤٨ أثر كبير في كل أنحاء الوطن العربي، وفي بلد بعد آخر أصبحت الأنظمة القديمة ليس لديها أي دور تقوم به، ففي سوريا أطاح انقلاب بنظام الرئيس شكري القويثلي عام ١٩٤٩، وازدهر التدخل العسكري، كنمط جديد في السياسة العربية، كما تم اغتيال الملك عبد الله، ملك الأردن، عام ١٩٥٢، كما دخلت مصر فترة من الاضطرابات السياسية، والتي انتهت بثورة الضباط الأحرار، في يوليو/ تموز ١٩٥٢^(٣). وأذاع السادات رئيس مصر الأسبق بيان الثورة قائلاً: ” اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من

(١) فلسفة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص ٨: ١٤.

(٢) بكر، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥: ١٦٩.

(٣) آفي شليم، أيوجين روجان، وآخرون، حرب فلسطين، ترجمة ناصر عفيفي، القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، ٢٠٠١، ص ١٨.

الرشوة، والفساد، وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثيراً على الجيش، تسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد هذه الحرب قد تضافرة فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمرهم إما جاهل أو خائن أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا داخل الجيش رجالاً نثق في قدرتهم، وخلقهم وفي وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب " (١). وأشار بيان الثورة إلى الهزيمة في فلسطين كعامل رئيسي في قيام ضباط الجيش بثورة يوليو/ تموز.

الجيش العراقي في فلسطين؛

كان الجيش العراقي من الجيوش، التي شاركت في حرب فلسطين. ففي ٧ يناير/ كانون الأول ١٩٤٧، وافقت وزارة الداخلية العراقية على قيام جمعية ألفها عدد من أعيان الشعب العراقي في بغداد، تحديداً، وأسموها " جمعية إنقاذ فلسطين "، وتم انتخاب عدد من الأسماء في الهيئة التنفيذية العليا للجمعية، ومنهم: - الفريق الركن حسين فوزي إبراهيم باشا (رئيساً)، اللواء الركن إبراهيم باشا الراوي (نائباً للرئيس) عبد الرحمن خضر (محاسباً)، إبراهيم عطار باشا (أميناً للصندوق)، محمود فهمي درويش (سكرتيراً عاماً)، والعلامة الشيخ محمد النهاوي، الزعيم الركن توفيق حسين، العقيد طاهر محمد عارف، العقيد عبد القادر

(١) إذاعة الفراعين الإلكترونية، بيان الثورة، إحتفالية ٢٣ يوليو/ تموز ٢٠٠٧، الساعة ٦م.

العزاوي، النائب جميل الأورفة لي، الدكتور اسماعيل ناجي، والشيخ فرحان العرس، جميل روعي، نور الدين داوود، والشيخ محمد محمود الصواف (أعضاء). وقد استقال العضوان الأخيران، وحل محلهما المحاميان عبد الباقي السعيد، وابراهيم مصطفى الأيوبي (أعضاء).. وأول عمل قامت به الجمعية دعوتها الشعب العراقي للتطوع من أجل القتال في فلسطين، ولبي الدعوة نحو عشرة آلاف شخص، سجلوا أسماءهم في سجل المتطوعين من أجل إنقاذ فلسطين، وكان من هؤلاء من سبق أن انخرطوا في سلك "الجندية أو الشرطة"، جنودًا وضباطًا، وتألّفت من المتطوعين أفواجًا عديدة، باسم "الحسين"، و"القادسية"، وما إلى ذلك من الأسماء التاريخية. كما تكونت سرية من المغاوير (الكوماندوز)، قوامها ضباط متدربون على هذه الأعمال، وأقيم في بغداد معسكر لتدريب الجنود الأحداث، وكان كلما تدرّبت فرقة من المتطوعين، سافروا إلى الشام، لتكون تحت رعاية اللجنة العسكرية. وفي ١٩٤٨/١/٧، غادرت بغداد أول وحدة من سرية المغاوير، ونزلت دمشق، بمرافقة اثنان من أعضاء الجمعية، هما عبد الرحمن ومحمود فهمي درويش، لتنظيم الاتصال بين الجمعية واللجنة العسكرية. وفي ١٩٤٨/١/١٥ سافر إلى الشام "فوج الحسين بن علي"، وتبعه، بعد يومين، "فوج القادسية"، وأرسل إلى الشام، في الوقت نفسه، السلاح، والعتاد اللازمين لهذه الوحدات، أو من هنا نجد أن أول من لبي نداء الدفاع عن فلسطين هم ضباط الجيش وجنوده، الذين تألفت منهم "جمعية

إنقاذ فلسطين”^(١). ثم ألغيت الجمعية بمساع حكومية، وتألفت بعد ذلك ” الجبهة المتحدة لإنقاذ فلسطين ”، والأشخاص الذين تكونت منهم، وهم مخلصين لوطنهم، وينتمون لأحزاب، وعقليات مختلفة، بشكل لم يسمح لهم بالتعاون والعمل المشترك. نذكر منهم الرئيس جميل المدفعي، محمد الصدر (رئيس الأعيان)، ومصطفى العمري. وكان من بين أعضاء الجبهة ” يهود ”، وهذا ما أكده رئيس الجمعية، حسين فوزي باشا، كما جمعت الجبهة من الشعب العراقي ما يزيد عن مئتي ألف دينار، وخصصت هذا المبلغ لشراء الأسلحة من إيطاليا، بواسطة وزير الدفاع العراقي، شاكر الوادي، والذي عرف باتصالاته مع الإنجليز^(٢).

العراق ودعمه لقضية فلسطين:

كان العراق، قبل الحرب العالمية الثانية، مساندًا لقضية فلسطين، كما أيد الشعب العراقي الشعب الفلسطيني في ثورته الوطنية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) على الانتداب البريطاني، وضد الهجرة اليهودية الواسعة إلى فلسطين، وتطوع عدد من الشباب العراقي للجهاد في فلسطين، ومساندتها، مادياً ومعنوياً، وبعد الحرب العالمية الثانية كانت جميع الأحزاب المجازة تتخذ من القضية الفلسطينية قضية قومية، ودعت إلى إنشاء دولة فلسطينية مستقلة موحدة.

بعد إعلان الحكومة العراقية الأحكام العرفية، في ١٥/٣/١٩٤٨

(١) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١، ٥٢.

بسبب اندلاع حرب فلسطين، ساد العراق نوع من الإرهاب السياسي، وانكششت على إثرها الحركة النقابية، واعتقل رؤساء نقابات العمال، وعقدت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، في ١٠ إبريل/ نيسان ١٩٤٨، وبحث الوضع العربي المتأزم في فلسطين، وأوضح الحاج أمين الحسيني أن موقف المدافعين العرب الفلسطينيين في منتهى الخطوره، كم انتقد أعضاء اللجنة من العراق والسعودية لتأخرهم في تقديم الأسلحة للمجاهدين الفلسطينيين، وتم مطالبة العراق بما يلي:

١- إرسال لواء من الجيش العراقي، ليرابط على حدود فلسطين من ناحية شرق الأردن، لمراقبة الوضع، وتقوية معنويات المدافعين عن فلسطين.

٢- إرسال الأسلحة الثقيلة للمجاهدين الفلسطينيين.

إلى ذلك انتقد الشعب العراقي حكومته لعدم إسراعها في إرسال الجيش لفلسطين، للقتال بجانب المجاهدين ضد العصابات الصهيونية الاستيطانية، وخرجت، آنذاك، المظاهرات وأضراب طلاب المدارس، إلى أن وصل هؤلاء إلى مجلس الوزراء، فألقى رئيس الوزراء، محمد الصدر، كلمة وعد فيها المتظاهرين بتنفيذ مطالبهم، وتضمن خطابه إرسال الجيش العراقي إلى فلسطين، وإرساء نظام " الفتوة " في المدارس، وتدريب الطلاب والطالبات، تدريباً عسكرياً، وأن تعلن الحكومة موقفها المبدئي من قضية فلسطين^(١). بدأ العراق إرسال قواته

(١) صدام حسين، العراق في التاريخ، بغداد، المكتبة الوطنية، ١٩٨٣، ص ٧٢٣، ٧٢٥.

إلى فلسطين، تنفيذًا لقرار الجامعة العربية، وافترقت الاستعدادات العسكرية المطلوبة من الجبهة العراقية إلى الاستعداد على خير وجه، إذ افترقت أشياء هامة، مثل المعلومات عن العدو التي ستواجهه، والخطّة الملائمة للحرب، وتضامن عربي، ودعم دولي. كما تعرضت القوى الوطنية والأحزاب السياسية العراقية للضغط والإرهاب، والمطاردة، وبذلك سيطر المؤيدون لمعاهدة بورتموت على الحكم في وزارة الباجه جي، تلك الوزارة التي أعادت الثقة للموقعين على المعاهدة، بتعيين شاكر الوادي وزيرًا للدفاع، وعودة صالح جبر، ونوري السعيد إلى بغداد. الأمر الذي أصاب المعارضة في البرلمان بالاستياء، فشنت حملة ضد الباجه جي، وضد اضطهاد الوطنيين، كما أعلنت الأحكام العرفية، جعل ذلك حزب الأحرار الوطني يعلن تجميد نشاطه في مطلع يناير/ كانون الأول عام ١٩٤٨، لم يبق من الأحزاب العلنية، آنذاك، إلا " حزب الاستقلال"، وواجهت الوزارة صعوبات جديدة، لموقفها من القضية الفلسطينية، وعدم مساندة الجيش المصري الذي كان محاصرًا في الفالوجة، آنذاك، وخرجت المظاهرات المطالبة باستئناف القتال في فلسطين ونجدة الجيش المصري، هنا قدم الباجه جي استقالته، في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٩، وعهد إلى نوري السعيد بتأليف وزارة جديدة، وهدفها " إنقاذ الوضع في فلسطين"، إلا أن السعيد سحب الجيش العراقي من فلسطين، الأمر الذي مكن العصابات الصهيونية من احتلال مواقع الجيش العراقي. وألف نوري السعيد حزبًا جديدًا بإسم " الاتحاد الدستوري" في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٩، وقدم السعيد استقالة

حكومته، في ١٠/١٢/١٩٤٩، وخلفه جونت الأيوبي. ولعل من أهم أعمال وزارته إلغاء الأحكام العرفية، في أواخر ١٩٤٩، الأمر الذي أدى إلى عودة النشاط الوطني، وإن كان الأيوبي قدم استقالته، هو الآخر في الأول من فبراير/ شباط ١٩٥٠^(١). من هنا نجد أن الدور العراقي في حرب فلسطين كان متناقضًا. فالقادة العراقيون أول من دافع عن التدخل العسكري في فلسطين، بواسطة جيوش الدول العربية، ومع ذلك فالجيش العراقي، بالرغم من أنه أكبر قوة شاركت في الحرب، وإن لم يقم بفعل أكثر من احتلال مواقع في تلك الضفة، كما طالب الوزراء العراقيون مقاطعة عربية، بترولية، وتجارية على الدول الغربية المؤيدة للتقسيم، ولم يفعلوا شيئًا من أجل تحقيق ذلك. وأثناء الحرب رفض العراق كل مبادرات وقف إطلاق النار، ولكنه لم يكن يمتلك استراتيجية عسكرية تدعم ذلك، وبالتالي عجز عن ترجمة رفضه. كما رفضت الحكومة العراقية المشاركة في مباحثات الهدنة، وبدا أنها على استعداد كامل لسحب قواتها، في أسرع وقت، لكن ذلك لم يبلغ إرتباط الشعب العراقي، والضباط العراقيين، بقضية فلسطين، كلجنة الدفاع عن فلسطين، وأنشطة أشخاص مثل الضباط في الجيش الطرفي من طرابلس بيروت، فوزي القاوقجي، الذي أصبح قائدًا لجيش الإنقاذ، عام ١٩٤٨، وقبل ذلك بسنوات، كانت زيارة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني للعراق، والذي اتصل بدوائر النفوذ المحيطة برشيد عالي الكيلاني، وأصبحت لقضية فلسطين الغلبة على كل القضايا الأخرى، ونجد أن بريطانيا قد نجحت في

(١) المصدر نفسه، ص ٧٢٦، ٧٢٨.

تفرقة محركي الأحداث في العراق، ولكن ذلك لم يؤثر على العوامل التي دفعت المجتمع العراقي للارتباط الحميم بالقضية الفلسطينية^(١).

بعد أن فشلت الحكومات العربية، التي أرسلت جيوشها للقتال في فلسطين ضد الصهاينة، وما حدث من مهازل، وتواطؤ، واستخفاف بحقوق الشعب الفلسطيني، من جانب بعض حكام العرب، لم يتحقق الهدف الرئيسي، الذي ذهبوا من أجله، وتم الانسحاب من فلسطين، دون القيام بعمل ينقذ فلسطين. كان ذلك أمراً مؤلماً لضباط الجيش العراقي، لعدم إتاحة الفرصة لهم لمقاتلة الصهاينة، بشكل متكافئ، وذلك لضعف التسليح، وقلته، بالإضافة لعدم صدق نوايا الحكام، الأمر الذي زاد من غليان ضباط الجيش ضد النظام والحكام، " لأن أمر هؤلاء الحكام قد افترض أمام الجيوش، وكانت حرب فلسطين العامل الذي كشفهم، على حقيقتهم ". وظهرت من هنا مجموعة من الضباط الشباب في صفوف الجيش العراقي ساخطة على هذا الوضع، وذلك نتيجة لأحداث فلسطين، بالإضافة إلى كشف دور بريطانيا، التي قدمت العون للصهاينة، وقدمت غطاءً شرعياً لهم في المحافل الدولية، ولم تقدم شيئاً لـ " حلفائها " العرب في الأمم المتحدة. كما حركت حرب فلسطين غالبية ضباط الجيش العراقي وقادته. ويرى العقيد الركن نجيب الربيعي* أن حرب فلسطين لم تكن حرباً بالمفهوم الصحيح، وإنما هي لعبة، وإن دخول الجيش العراقي، على حد وصفه، كان مسرحية، أخرجها الضابط الإنجليز "

(١) شليم، روجان، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤، ١٣٦.

(*) أحد القادة العراقيين، الذين شاركوا في حرب فلسطين.

جون باجوت جلوب باشا " (١).

رأى الربيعي ضرورة توحيد جهود الضباط الوطنيين للقيام بعمل ضد الحكومة في بغداد، والانتقام منها، بعد عودة الجيش العراقي للبلاد، وضباط الجيش قد أدركوا خطورة ما قام به، وزاد ذلك الضباط كرهاً للوصي على العرش عبد الإله، وقاموا بتشكيل خلايا سرية، وأسهم بعمل أول خلية في حرب فلسطين (١٩٤٨) النقيب رفعت الحاج سري، الذي ضم إليه عددًا من الضباط الذين عايشوا الحرب، واكتشفوا ما فيها من فساد وتخاذل بحق العرب الفلسطينيين. قام الركن رفعت الحاج سري بمحاولة اغتيال جلوب باشا، وبتأييد من الركن نجيب الربيعي، ولكنه فشل، ثم نشطت الخلايا السرية للضباط الوطنيين العراقيين، وتوسعت، وانضم إليها أعداد من الضباط البارزين، أمثال العقيد الركن نجيب الربيعي، والمقدم الركن عبد الكريم قاسم، والمقدم طارق سعيد فهمي، والرائد عبد الوهاب أمين، والرائد داوود الجنابي، والرائد طاهر يحيى، والنقيب محسن الرفيعي، والملازم خليل ابراهيم وغيرهم من الضباط (٢).

صدر أول منشور، هاجم حكام العرب، واتهمهم بالخيانة، وتوعدهم بالمصير المؤلم، في الوقت الذي اتهمت فيه السلطات البريطانية الفريق صالح الجبوري بأنه سيقود الجيش للاستيلاء على السلطة، لمجرد عودته للبلاد، ورأى الضباط إمكانية ما خططوا له، وذلك بعد نجاح الثورة

(١) محمد حمدي الجعفري، انقلاب الوصي في العراق، انتفاضة تشرين الثاني عام ١٩٥٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠، ص ١٤٦: ١٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣١.

المصرية، التي قادها " الضباط الأحرار " عام ١٩٥٢، وكان تأثير ذلك واضحاً على الضباط، فازداد عدد الضباط المنتمين لتلك الخلايا، وأطلق عليها " حركة الضباط الأحرار " تيمناً بالضباط الأحرار المصريين. كما نجحت تلك الخلايا في التنظيم والاعداد لوضع خطة الثورة، موضع التنفيذ، وكان نشوء " الضباط الأحرار " بشكل منظم وسري، منذ عام ١٩٤٨، خطوة مهمة على صعيد العمل السياسي السري في صفوف الجيش. " وذلك عامل مشترك بين الضباط المصريين والعراقيين، كلاهما كان يفعل نفس الشيء أثناء حرب فلسطين، بالقيام باختيار اكفا العناصر وأكثرها وطنية، لضمها لتنظيماتهم "، وكانت تلك أكبر نكبة تعرضت لها أجهزة الاستخبارات البريطانية، العاملة في العراق، والتي خيل لها بأنها على علم بكل ما يجري في صفوف الجيش. بعد أن قامت بمحاولات فاشلة لاحتواء الجيش العراقي، وتحجيمه، وإضعافه. إلا أن حركة " الضباط الأحرار " التي قامت بثورة ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨، كانت السكين التي ذبحت مصالح بريطانيه في العراق " (١).

لقد كان لحرب فلسطين أثر واضح على نفوس المواطنين والجيش العراقي، بشكل خاص، فعندما أصدرت القوى الوطنية وضباط الجيش الوطنيين حكماً على النظام الملكي العراقي، وحملته مسئولية فشل الجيوش العربية في حربها ضد الصهاينة، كان ذلك بداية السقوط التدريجي للحكم الملكي العراقي، ولم يع هناك مبرر لإقناع الشعب بأن الحكم الملكي حريص على المصالح العربية، بعدما فرط في حقوق

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٥ : ١٦٢.

العرب في فلسطين، وكانت انتفاضة نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٢، امتدادًا لما حدث في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٤٨، فالدوافع والأسباب واحدة، ولكن ثورة ٢٣ يوليو/ تموز المصرية كانت السبب الذي سرّع في إشعال تلك الانتفاضة في العراق، التي تم استخدام الجيش في إخمادها. كانت غالبية الضباط الذين يقودون القطاعات الداخلية إلى بغداد من الموالين للبلاط. لكن ذلك لم يمنع الضباط الأحرار فيما بينهم، من استغلال الفرصة والانقضاض على النظام ومن ثم إسقاطه. وكانت هناك ظروف معينة جعلت " الضباط الأحرار " يؤجلون تنفيذ خطتهم (والربط الذي حدث بين أوضاع فلسطين والعراق يؤكد تأثير تلك الحرب على نفوس هؤلاء الضباط وعلى نشأتهم الثورية، بالقدر الكبير، الأمر الذي جعلهم يربطون مصائرهم بمصير فلسطين). والتفكير في وضع خطة لإسقاط النظام من قبل ضباط الجيش كان كافيًا للإقناع بأن البلاط قد هزم، وفضح أمر الحكومات العميلة، المتعاونة مع الاستعمار ضد مصالح الشعوب، قد تحقق ذلك، بالفعل. الأمر الذي أضعف الوصي على العرش والنخبة الموالية له والحاكمة، التي تزايدت، بمرور الوقت. وفي الوقت أخذ ولاء الضباط، للحكم في الانحسار المطرد. فكانوا يخافون من المصير الذي سيلاقونه فيما بعد... الأمر الذي جعلهم يستسلمون، بسهولة، صباحية ١٤ يوليو/ تموز عام ١٩٥٨، عند تحرك الجيش لإسقاط النظام الملكي^(١).

(١) ليث عبد الحسن جواد الزبيدي، ثورة تموز ١٩٥٨ في العراق، بغداد، منشورات مكتبة البقعة العربية، ١٩٨١، ص ١٠٦: ١٤٢.

أثر حرب فلسطين على الضباط العراقيين :

نشأ تنظيم الضباط الأحرار، إثر رجوع الجيش العراقي من فلسطين، إدركت غالبية هؤلاء الضباط بأن النصر يجب أن يمر ببغداد، قبل فلسطين، وقد دفعت بهذا الاتجاه، بشكل كبير، ثورة يوليو المصرية، وحتى في المبادئ والمطالب الوطنية، ومنها:

- ١- إزالة النظام الملكي، وإقامة نظام جمهوري.
 - ٢- القضاء على الإقطاع، وتشريع قانون الإصلاح الزراعي.
 - ٣- تحقيق الإصلاحات الجذرية، في جميع المجالات، وإزالة التخلف.
 - ٤- تحرير اقتصاد العراق وماليته.
 - ٥- تأليف مجلس قيادة الثورة، من أعضاء اللجنة العليا للضباط الأحرار.
 - ٦- استرداد حقوق الشعب العراقي لجمع ثرواته، والتصرف بما تقتضيه مصلحة الشعب.
 - ٧- تحقيق الوحدة الوطنية.
 - ٨- تحقيق العدالة الاجتماعية.
- بالإضافة إلى مبادئ وأهداف قومية، الدرعية للوحدة العربية، والمساهمة مع الدول العربية الأخرى في تحرير فلسطين، ومن المبادئ الأخرى:

- ١- التحرر الوطني وإزالة القواعد العسكرية البريطانية.

- ٢- الخروج من حلف بغداد.
 - ٣- اتباع سياسة عدم الانحياز.
 - ٤- تحديد العلاقات السياسية، والاقتصادية للعراق، مع جميع دول العالم على أساس المصلحة الوطنية والقومية.
 - ٥- إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الاشتراكية الشعبية.
- من هنا نجد أن أهداف الضباط الأحرار العراقيين قد تأثرت، بشكل كبير، بأهداف الضباط الأحرار المصريين. ومن هنا نجد أن ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ قد سرعت في تحريك الجيش العراقي، ورسم أهدافه الوطنية^(١).
- كانت دعوة عبد الناصر للوحدة، التحرر من الاستعمار، ومن الأنظمة الحاكمة، قد حرك المشاعر الوطنية في نفوس كل الوطنيين العراقيين، ووصل أول مبعوث للثورة إلى بغداد، في الأسبوع الأول من شهر مايو/ أيار ١٩٥٤، وهذه كانت بداية جولة استطلاع للعراق، والوقوف على الوضع السياسي فيه، ومحاولة الاتصال بالعناصر القومية والثورية، والوطنية، وكان أول لقاء مع الضباط الأحرار مع العقيد رفعت الحاج سري، الذي حمل رسالة للرئيس جمال عبد الناصر، قال فيها: إنه بدأ مع بعض رفاقه في تنظيم العناصر الوطنية المخلصة من الضباط، ليجمع تنظيمًا مماثلاً لتنظيم الضباط الأحرار في مصر^(١).

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢، ٤٣.

(١) عبد الكريم العلوجي، عبد الناصر والاشتراكية، مخطوط لم ينشر بعد، د. ت.

الضباط العراقيين والثورة:

ما دفع الضباط للقيام بالثورة، في ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥٨، تحقيق آمال الشعب العراقي في التحرر والوحدة. وقد أثرت سياسة مصر على الأحزاب العراقية، التي طالبت السياسة مشابهة لسياسة مصر وسوريا، بالابتعاد عن سياسة الأحلاف العسكرية، التي لا تفيد العراق، فلا توجد مصلحة للعراق منها، وانتقد الضباط الأحرار السياسة التي انتهجتها الحكومة، التي تأمرت على سوريا، وحاولت توجيه الجيش العراقي لضرب سوريا، وحينما كان عبد الكريم قاسم، والعقيد عبد السلام عارف في الأردن، عام ١٩٥٦، على رأسهم اللواء التاسع عشر، أجريا اتصالات مع الضباط السوريين، ومنهم عبد الحميد سراج، واللواء عفيف البرزي، في منطقة (الرمثا)، على الحدود الأردنية - السورية، وصرح قاسم بعدم اقتناعه بسياسة النظام الملكي العراقي، وأكد عدم مشاركته جميع ضباط الجيش العراقي بالقيام بأي عمل ضد الجيش السوري. وطلب " قاسم " من " السراج " أن يبلغ عبد الناصر رسالة مفردة وجود حركة ضباط أحرار في الجيش العراقي، سوف تأخذ على عاتقها إزالة النظام الملكي^(١).

* كما كان للعدوان الثلاثي (خريف ١٩٥٦) على مصر، دور هام في إصدار الضباط العراقيين على السير في خططهم الثورية، التي بدأت بحرب فلسطين، كقضية مصيرية، تهم العالم العربي كله، ومرورًا بثورة يوليو، إلى أن جاء " العدوان الثلاثي " على مصر، وكان ذلك دافعًا آخر

(١) الزبيدي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢، ٤٣.

لإصدارهم على القيام بالثورة، وولد ذلك شعورًا عدائيًا من قبل الشعب العراقي تجاه الحكومة، وقامت الأحزاب السياسية بالقيام بالعمل المسلح وزرع المتفجرات في الأماكن التي يتواجد فيها الضباط البريطانيون، كما عمل الضباط على تهيئة الجماهير الشعبية لإسقاط النظام الملكي، وكان للوحدة المصرية - السورية (١٩٥٨/٢/٢٢) أثر بالغ على الشعب العراقي، وطالب الأحزاب القومية بالإنضمام إلى هذه الوحدة. ويمكن أن يكون عجز الأحزاب السياسية العراقية عن القيام بالثورة الشعبية، هو ما دفع هؤلاء الضباط إلى تفجير ثورة ١٤ يوليو/ تموز^(١).

والخلاصة، إن الإطاحة بالملكية العراقية، عام ١٩٥٨، لم تكن نتيجة مباشرة لحرب ١٩٤٨، بل إن تلك الحرب كانت عاملاً من عوامل ذاتية مؤثرًا في الضباط الأحرار، الذين شاركوا في تلك الحرب، وفي تكوينهم الثوري^(٢). بدءًا بالانقلاب العسكري في سوريا (١٩٤٩)، مرورًا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، و " العدوان الثلاثي "، وتنامي الشعور القومي لدى ضباط الجيش والشعب، وتحقيق الوحدة العربية بين مصر وسوريا، بالإضافة للانتصارات المختلفة التي أحرزها الشعب العربي في كل من مصر، وسوريا، والأردن، وتصاعد الثورة في الجزائر، وافتضاح أمر " حلف بغداد "، ومعه الحكومة العراقية ناهيك عما للأزمة الداخلية التي تعرض لها العراق، والتعقيد في مشاكل الجماهير الحيوية، وتدهور الاقتصاد الوطني وتقييد الحريات الديمقراطية من موقع مهم في صنع

(١) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢) شليم، أيوجن، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧.

ثورة ١٤ تموز ١٩٥١ الوطنية العراقية^(١). ونجح " الضباط الأحرار " في ضم فئة الجنود وضباط الصف، الذين ينتمون لأصول فلاحية، والذين لعبوا دورًا كبيرًا في إسقاط النظام الملكي. أن ثورة يوليو/ تموز ١٩٥٨، تاريخيًا، هي حصيلة نضال طويل ومرير، وخاصة للشعب العراقي، وكانت نهاية حتمية، بعد أن استنفذ النظام الملكي طاقته على الحياة ولم يعد بإمكانه مواكبة حركة تطور المجتمع العراقي، وتقدمه، وكانت من هنا مبادرة القوى الوطنية، ولى رأسهم ضباط الجيش، بتفويض النظام الملكي، والإعداد لبناء المجتمع العراقي على أسس جديدة^(٢).

* * *

(١) حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣٦، ٧٤٠.

(٢) الزبيدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ : ٣٥.

الفصل الثالث والعشرون:

انعكاسات النكبة على سوريا

نهال قاسم

عندما قررت البلاد العربية، في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨، الدخول في حربٍ ضد العصابات الصهيونية في فلسطين، لطردهم منها، وتخليص فلسطين من قبضتهم، وكانت الحكومة السورية من أسبق الدول العربية إلى إعلان الحرب، دفاعاً عن هذه القطعة الغالية من الوطن العربي، رغم أن سوريا كانت حديثة عهد بالاستقلال، ولم تكن على مستوى من القدرة العسكرية أو التدريب الذي يؤهلها لذلك. وقد كانت سوريا دوماً ترى^(١) في تدفق الهجرة الصهيونية إلى فلسطين خطراً يجب التصدي له، ليس على الكيان السوري وحده، وإنما على الأمة العربية كله.

إلا أن الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨، قد جعلت الشعوب العربية عامة، والسوري خاصة، تدرك أن أحد الأسباب الرئيسية للهزيمة^(٢)، وضياع فلسطين، كان نتيجة التفكك في القيادة، والاختلاف في الأهداف، وطغيان المصالح الشخصية على مصلحة الأمة، ولهذا ثار الشعب العربي في سوريا، لا على حكومته وحدها،

(١) محمد فرج، النضال الشعبي في سوريا (قصة الانقلابات)، سلسلة "كتب قومية العدد

١٥١، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٤٤، ٤٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤

وإنما على الحكومات العربية عمومًا، و قد بدأ بعدها يتطلع إلى تغيير الحكم القائم في البلاد، الذي استغل الأحكام العرفية^(١) لتشديد أعمال القمع ضد القوى الديمقراطية، فضلاً عن تأزم الوضع السياسي الداخلي، والاقتصادي بعد هزيمة الجيش، واستغلال كل من الولايات المتحدة^(٢)، وبريطانيا، وفرنسا، هذا الوضع، لتثبيت مواقعهم في سوريا، فبدأت في التآمر، مع مختلف القوى الرجعية، المتمثلة في طبقة كبار الملاك، والرأسماليين، الذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية، والسياسية، في تلك الفترة، لإدخال سوريا في مشاريعها (سوريا الكبرى) و(الهلال الخصيب). وقد أدى ضعف طبقتي البروليتاريا^(٣) والبرجوازية الوطنية، ورجعية البرجوازية الكبيرة، المرتبطة بمالكي الأراضي الإقطاعيين، وضعف المشاركة الشعبية في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد، وخشية الأمريكان من تنامي التيارات العقائدية، الشيوعية واليسارية، داخل البلاد، وتزايد التواجد السوفيتي بعد رحيل الانتداب الفرنسي عن سوريا، التي أصبحت تنن تحت أوضاع قلقة مضطربة، وخاصة بعد نكبة فلسطين، واتهام بعض قيادات الجيش^(٤) والسياسيين بالفساد، وسرقة المجهود الحربي للجيش، الأمر الذي أدى إلى إقالة وزير الدفاع " أحمد

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥

(٢) د. فوبليكوف وآخرون، تاريخ الأقطار العربية المعاصرة (١٩١٧ - ١٩٧٠)، الجزء الأول، موسكو، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي، معهد الاستشراق، عام ١٩٧٥، ص ١٠٥.

(٣) ن. ك. نيفيوديفا، على المبدأ (نضال الحزب الشيوعي السوري من أجل الجبهة الوطنية الموحدة) ١٩٣٦ - ١٩٦٦، ترجمة زياد الملا، دمشق، دار العلم، ١٩٩٢، ص ١٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

الشرباتي"، ثم الوزارة بأكملها، كما احتدمت النقاشات بين السياسيين في البرلمان، حتى أن الشرطة تدخلت أكثر من مرة لفضها، كما ازدادت الاضرابات ضد تعسف الاحتكارات الأجنبية داخل البلاد، ما أدى إلى تزايد نفوذ الجيش السوري، وتدخله في الحياة السياسية، والمدنية، وتشجيعه للقيام بالانقلابات العسكرية، بتأييد من الأوساط الاحتكارية الأمريكية، والبريطانية، التي تغلغت في سوريا، بالإضافة إلى تطلع مختلف التكتلات البرجوازية - الاقطاعية، إلى تحقيق مصالح شخصية، أو عرقية، أو أيولوجية، بمساعدة العناصر اليمينية المدنية والعسكرية^(١)، للقضاء على الحريات الديمقراطية، وتغيير الاتجاه التقدمي لتطور سوريا، ما أدى إلى وضع حد لفترة الاستقرار النسبي، وفتح طريق للأزمات الاقتصادية، والسياسية المستمرة، ودخول سوريا منذ نهاية آذار/ مارس ١٩٤٩، سلسلة من الانقلابات العسكرية وتغيير الحكومات.

وقد اكتظت ملفات الأرشيفين الدبلوماسيين البريطاني والأمريكي^(٢)، وكذلك اليوميات والمذكرات السياسية السورية، بالتحذيرات من الانقلاب الوشيك.

وهو ذات الأمر الذي استشعره، د. أديب منصور^(٣)، في مقاله يوم

(١) مصطفى عاشور، إنقلاب الزعيم واختراع التسعات الأربعة، إسلام أون لاين، ٢٠٠٧/٦/١٤.

(٢) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

(٣) أيوجين روجان، آفي شليم، وآخرون، حرب فلسطين (إعادة كتابة تاريخ ٤٨)، ترجمة ناصر عفيفي، القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، سلسلة الكتاب الذهبي، ٢٠٠١، ص ١٨٨.

١٩٤٨/١١/١٤ جريدة " ألف باء " اليومية، التي تصدر في دمشق، وعبر فيه عن حالة اليأس وفقدان الثقة عند المدنيين السوريين، وتطلعهم إلى قيادات نشطة، وإيمانهم بقدرة الجيش - دون غيره - على إنقاذهم من تردى الأوضاع الداخلية.

وبعد نشر مقاله بثلاثة أيام، قام " حسنى الزعيم " الذي كان رئيساً لأركان الجيش السوري، بالانقلاب الأول في تاريخ سوريا^(١)، الذي حظي في البدء بمساندة فئات البرجوازية الصغيرة، التي كانت تتوقع من الحكومة الجديدة تطبيق برنامجها في الإصلاحات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والزراعية خاصة، وتهيئة حكم ديمقراطي صحيح^(٢) والبدء في وضع قانون جديد للانتخاب، وإعطاء المرأة السورية حق الانتخاب، وتطهير الجهاز الحكومي، وإسناد الأعمال إلى المخلصين، والقضاء على البطالة، وتوفير الغذاء، والكساء، والدواء، ورفع مستوى الحياة للطبقة الكادحة، وتحديد الملكية، وتوزيع الأراضي الحكومية على المعدمين، وإحياء الوعي القومي.

ويذكر أحد أهم عملاء " المخابرات المركزية الأمريكية " في الشرق الأوسط^(٣)، آنذاك، أن انقلاب " الزعيم " قد تم الإعداد له، ووضع خطته المتكاملة، وبكافة التفاصيل المتعلقة به في السفارة الأمريكية في دمشق، بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم

(١) اليعازر بعيري، ضباط الجيش في السياسة والمجتمع العربي، الطبعة الأولى، ترجمة بدر الرفاعي، القاهرة، دار سينا للنشر، ١٩٩٠، ص ٦٠.

(٢) فوبليكوف، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٦.

(٣) محمد فرج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠، ٥١.

الخارجي إلى أن بدأت الروائح تفوح منه، والألسن تتناقله، وأن " حسنى الزعيم ليس أكثر من صبي من صبيان الأمريكان ".

في كتابٍ لاحقٍ^(١) يضيف العميل نفسه أن " الزعيم " قد قام بالتمهيد للانقلاب بخطوتين الأولى - حملة تضليل إعلامي بدائية غايتها إبراز حالة المحافظة على أمن وسلامة الدبلوماسيين الأجانب في البلاد، والثانية - الوسائل التي اتبعتها للحيلولة دون تسرب أى معلومات عن مخططه قبل بلوغه مرحلة من التقدم يعجز أيًا من كان عن إحباطها. ومن ناحية أخرى يؤكد العميل نفسه أن " الزعيم " قد توخى الحذر^(٢)، ولم يفصح عن أي نية إنقلابية أمام أحد من قادة الألوية مع العلم بأن خطته قد شملتهم جميعا دون علمهم!

كما يشير العميل نفسه في كتابه الأول إلى تأكيد " الزعيم " مرارًا و تكرارًا أنه لا ينوي العودة بالبلاد إلى الحكم البرلماني، وعزمه على الزج بالسياسيين الفاسدين في السجون، وإعادة تنظيم جهاز الحكومة على أسس أكثر فاعلية، وإجراء الإصلاحات الضرورية في المجالين الإقتصادي والاجتماعي، واتخاذ بعض " الاجراءات الإيجابية " لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، وهي النقطة التي كانت بمثابة المخدر الذي ثنى وزارة الخارجية الأمريكية عن عزمها طلب إلغاء فكرة تنفيذ الانقلاب

(١) مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، الطبعة الأولى، تعريب مروان خير، مكتبة الزيتونة، بيروت، ١٩٧٠.

(٢) مايلز كوبلاند، اللاعب واللعبة (عالم الاستخبارات الأمريكية في اعترافات أحد رجالاته)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ٧٩.

كان التخطيط للإنتقال دقيقاً^(٢)، و نفذ بسرعة، ولم يلق مقاومة تذكر. ففي الثانية من صباح يوم ١٩٤٩/٣/٣٠، قامت وحدات الجيش، بمحاصرة دمشق، ودخلوها وخلال ساعة، كان الجيش قد احتل مقر الحكومة المدنية، ومراكز البوليس، والمرافق العامة، وألقى القبض على رئيس الجمهورية " شكرى القوتلي "، و " خالد العظم " رئيس الوزراء^(٣)، وعدد من القيادات، والشخصيات السياسية.

يذكر محلل إسرائيلي^(٤) بأن " القوتلي " كان على علم تام بمعظم الخطط الخاصة بالتمرد، والمؤامرات التي كانت شائعة في السنوات المبكرة لاستقلال سوريا، والتي كشف العديد منها، بأن لها علاقة بما أطلق عليه البريطانيون " حركة الملكيين " في سوريا، وإيمان معظم الضباط السوريين، بأن " من ٥٠ إلى ٧٥ ٪ " من القوات المسلحة السورية، تؤيد قيام إنتقال عسكري وإنشاء " سوريا الكبرى " بالتنسيق مع بريطانيا.

ولذلك فقد قام " القوتلي " بتكوين شبكة واسعة من الجواسيس، من أجل معرفة كافة أخبار " الحركة الملكية " في سوريا^(٥)، والمتعاطفين معها من أفراد الجيش، وفي تصريح لرئيس المكتب السوري للمعلومات،

(١) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٢) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

(٣) عاشور، مصدر سبق ذكره.

(٤) روجان وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

أكد فيه " أنه على ثقة، من أن أي متاعب في سوريا، سوف تقوم بريطانيا برعايتها"، وقد عملت " الحركة الملكية " على إثارة السخط بين صفوف الجيش، والدعاية للملك، بين جماهير الشعب السوري، ما ساعد في ازدهار بذور الفرقة، والانقسام، وعدم الثقة في التربة السورية.

ومن ناحية أخرى، فقد كان الدروز على قمة القائمة الطويلة، لأعداء " القوتلي " في الداخل، والذي كان يتخوف من أن يعملوا كفرقة استكشاف، تمهد لغزو الموالين للإنجليز، لسوريا، بعد أن قاموا بالثورة على دمشق، في النصف الأخير من عام ١٩٤٧، وتحول زعمائهم نحو البريطانيين، طلبًا للمساعدة، وكان جبل الدروز، ذو الموقع الإستراتيجي، عند الركن الجنوبي الشرقي، من سوريا، على الحدود الأردنية، على مقربة من فلسطين.

وقد كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال، تحت الانتداب الفرنسي، وبعد الاستقلال، حرّمهم القوتلي منه، بعد أن قام بدمج جبل الدروز، مع بقية سوريا، وفرض الحكم المركزي، كما قام القوتلي بإلغاء النتائج الإقليمية في الانتخابات البرلمانية، في ذلك العام، والتي حقق فيها مرشحوا عائلة " الأطرش "، نصرًا ساحقًا، في جبل الدروز، حتى يحرّمهم القوتلي من الحكم، كما قام بتقليص المساعدات الحكومية للمنطقة، وحاول إشعال حرب أهلية، ما بين قبائل الدروز، بمساعدة، وتسليح مناوئي الأطرش، وهم عدد من القبائل الأقل نفوذًا، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم " الشعبيين "، وذلك بعد أن عجز القوتلي عن استخدام القوة العسكرية، لفرض الحكم المركزي، على منطقة الدروز،

ولكن حيلة القوتلي، في بث الفرقة ما بين صفوف خصومه، باءت بالفشل، بعد أن أثبت رؤساء قبائل عائلة " الأطرش "، أنهم أكثر قوة، وشعبية، مما يعتقد، فقاموا باستئصال شأفة " الشعبين "، في الأشهر الأخيرة، من عام ١٩٤٧، كما قاموا بقطع كل خطوط الهاتف والتلغراف المتصلة بدمشق، وأغلقوا الطرق المؤدية إلى الجبل، وقد وصل الأمر إلى حد تهديد مركبات الجيش، ومنعها من الوصول إلى جبهة فلسطين، ثم طلبوا من الملك " عبد الله "، الزحف على دمشق، لتنفيذ خطته " سوريا الكبرى "، ومع بداية انخراط سوريا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، اضطر القوتلي إلى العدول عن سياسته الخاصة بالدروز^(١)، كما سبق، وعدل عن سياسته، الخاصة بإصلاح الجيش، وفشلت محاولاته، في راب الصدع، مع عائلة " الأطرش "، وتهدة ثائرة زعماء الدروز، الذين ظلوا عاقدين العزم، على الاطاحة به^(٢)، وقد استغل " الزعيم "، قائد الجيش، هذه العوامل، للقيام بانقلابه الأول، الذي قوبل في بداية الأمر، بالرضا، وخاصة بعد أن صاحبه حالة من الانفراج^(٣)، واتخاذ العديد من الخطوات الإصلاحية، في أجهزة الدولة، وتكوين لجان لإعادة النظر، في القوانين المرعية، وسن قوانين جديدة، كما أصدر القانون المدني الجديد في ١٨ أيار/ مايو ١٩٤٩، وقانون العقوبات، وقانون التجارة، وقانون التحسين العقاري، كما أصدر مرسومًا، بإلغاء الأوقاف، وحلها، وتصفيتها، وقام بمحاولة عزل الدين عن الدولة، وسيادة قانون الدولة في

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٢.

(٣) فرج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.

جميع المرافق، ما جعل الشعب يتفائل، ويأمل الكثير في هذا العهد الجديد، وحل جميع المشكلات التي يعاني منها، وتوفير الحياة الكريمة له^(١).

لكن تاريخ قائد الانقلاب، ونشأته التي لم تسمح له بأن ينال قسطاً كافياً من التعليم، جعله جاهلاً بشئون السياسة، والرئاسة، والحكم، كما يقال عنه أنه كان ضعيف الشخصية، وتشوب حياته الكثير من الاتهامات، وسوء السلوك، الذي يمس سمعته، وعندما تولى شئون الحكم، وهو الأمر الذي لم يخطر على باله مطلقاً، والذي تم بمساعدة القوات المسلحة، ولهذا كان دائم التخوف، من أن يثور ضده أحد رجاله، ولذلك بدأ بإعداد حرس خاص يحيط به، ليحميه، كما قام بإبعاد بعض الضباط من ذوي الميول القومية، من الأكراد، والشراسة، مما أثار غضب الكثيرين منهم^(٢).

بدأ النظام الجديد يكشف عن وجهه الديكتاتوري، بإعلانه حل البرلمان، الذي حل محله هيئة دستورية، كلفت بوضع دستور، وقانون جديد للانتخابات، كما أعلن حل جميع الأحزاب السياسية، وحظر المظاهرات، والاجتماعات، وفرض الرقابة العسكرية في البلاد، وقد اعتبر " الزعيم "، نفسه، منقذ الأمة العربية، من الخطر الشيوعي^(٣).

وفي أوائل نيسان/ إبريل، أعلن حل مجلس النواب، وتولى " الزعيم " كلتا السلطتين التشريعية، والتنفيذية، وفي الأسبوع الأول من حزيران/

(١) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٣) ديفاء، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١، ١٤٢.

يونيو، دعا إلى إجراء استفتاء للموافقة، على تعديل قانون الانتخاب للرئيس، والذي لم يستشر فيه أيًا من أعضاء الحكومة، والذي جرى استفتاء عليه يوم ٢٥ حزيران/ يونيو، وتم فيه الموافقة على القانون الرئاسي الجديد، وأن " الزعيم " - المرشح الوحيد - قد اختير رئيسًا للجمهورية، في الاستفتاء الذي شارك فيه ٩٠% من الناخبين، إذ حصل " الزعيم " على ٩٩% من الأصوات، وفي اليوم التالي، تشكلت حكومة جديدة برئاسة " حسنى البرازي "، تضم ستة من المدنيين، إضافةً إلى الزعيم عبد الله عطفة، كوزير للدفاع، بينما منح " الزعيم " نفسه، رتبة المشير، التي لم تكن موجودة من قبل في سوريا^(١)، وقد بدأ حكم " الزعيم " في الانهيار بعد خمسة أشهر، من قيامه بالانقلاب، بعد أن جمع في يديه، بصفته قائد الانقلاب، جميع المسئوليات، والسلطات، منذ اللحظة الأولى لانقلابه.

وأصبح واضحًا بأن سوريا، بدأت تعيش في فترة حكم فردي، مطلق، لايتفق مع السياسة العميقة، التي رسمها الشعب العربي في سوريا، لنفسه، الأمر الذي شعر به، أيضًا، الضباط الذين شاركوا " الزعيم " الانقلاب، حين بدأوا يلمسوا انحرافًا في سياسات " الزعيم " الاستبدادية، وانشغاله ببناء مجده الشخصي، دون أن يهتم بمصالح أمته، وقد ترتب على ذلك، أن أصبح مكروهًا، من شعبه، الذي أخذ يتطلع إلى إنهاء حكمه، يخاصة بعد أن فتح الباب أمام التغلغل الأمريكي^(٢)، بعد توقيع

(١) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢.

(٢) فرج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣.

اتفاقية مع شركة " التابلاين " الأمريكية، لتمديد خطوط البترول، عبر الأراضي السورية، ومد الاتفاقية السورية - الفرنسية، حول حق فرنسا بإصدار النقد السوري، وتعيين الجنرال الألماني " روديف " مستشاراً أول في وزارة الدفاع السورية^(١).

قام " الزعيم " - بدعمه بعض الأوساط الأجنبية - بحملة إرهاب ضد القوى الديمقراطية في سوريا، اعتقل فيها ١٥٠ شخصاً، من كوادر وقيادات " حزب البعث "، في دمشق، وتم تقديمهم إلى المحاكمة العسكرية، مما اضطر الحزب الشيوعي، إلى الانتقال للعمل السري، وقد نظم الشيوعيون مظاهرات خاطفة، في الأماكن المزدحمة في المدن، وأخذوا يهتفون ضد الديكتاتورية، والعمالة، كما تشكلت عدة وفود نسائية، طالبت بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، الذين كانوا يتعرضون للتعذيب الوحشي، أياماً متواصلة، وفي أوائل آب/ أغسطس ١٩٤٩، أعلن المعتقلون السياسيون إضراباً عن الطعام، احتجاجاً على معاملة إدارة السجن السيئة، والتعذيب الجسدي، كما قامت مظاهرة نسائية، تصدرتها النساء الشيوعيات، تضامناً مع المعتقلين السياسيين، والتي انطلقت من سراي الحكومة إلى البرلمان، وقد تعرض العديد منهم للاعتقال، والضرب المبرح بالهراوات، من قبل الشرطة. وقد كانت هذه المظاهرات مقدمةً للإطاحة بديكتاتورية الزعيم، وتقييده للحريات العامة، واعتقال كل من يعارض حكمه من الكتاب، ورجال الفكر، والصحافة، فيما عدا الصحف التي تكيل له المديح، ومنها (الأيام، المنار، القبس، ألف

(١) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢.

باء، العلم، والشعب). ونمت في عهده أجهزة المخابرات، والأمن بطريقة غير مسبقة^(١).

أما عن سياسته الخارجية، تجاه المنطقة العربية، والتي أوضحها في بداية عهده، من حرصه على التقيد بميثاق جامعة الدول العربية، والترحيب بأي اتفاق، أو ميثاق، ما بين الدول العربية، أو أي خطوة ترمي إلى تقوية أو اصر المودة، بين سوريا، وشقيقاتها، وقد سارعت كل من العراق، والأردن، إلى الاعتراف بالوضع الجديد بعد نجاح الانقلاب، وقيل أن اتفاقاً عقد ما بين " الزعيم " والملك عبد الله في بلدة " المفرق "، وأن هذا الانقلاب كان لصالح الأسرة الهاشمية، كما قيل أن مقابلة تمت بين " الزعيم " ونوري السعيد، على حدود سوريا والعراق، لتأييد فكرة الانقلاب، لصالح الأسرة الهاشمية، ولكن " الزعيم " سرعان ما تراجع عن موقفه، بعد عودته إلى دمشق، ورفض مشروع (سوريا الكبرى)، و(الهلال الخصيب)، الأمر الذي باعد بينه وبين بريطانيا، التي أيدت انقلابه، منذ ساعاته الأولى، طمعاً في تحقيق هذين المشروعين، أو أحدهما، كما كانت بعض الأحزاب تؤيدهما، مثل " الحزب السوري القومي الاجتماعي "، و " حزب الشعب "، وقد تمادى " الزعيم " في تحدي الدولتين الهاشميتين - الأردن، والعراق - فقام بإرسال الجيش السوري، لاحتلال الأردن، مما زاد العلاقات بين الدولتين تردياً، وتم إغلاق الحدود بين سوريا، والأردن، وفي ذات الوقت توطدت علاقة " الزعيم " بمصر، والمملكة العربية السعودية، وتركيا.

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أما عن سياسته الدولية، فقد بدا واضحًا التقارب ما بين الزعيم وأمريكا، وفرنسا وخاصة بعد توقيعها اتفاقيتي (التابلاين والنقد)، مع ما فيهما من مساس بسيادة سوريا، طمعًا في أن تدعمه الدولتان، وتؤيدان انقلابه، وتعترفان بحكمه^(١).

يؤكد العميل الأمريكي بأن نهاية "الزعيم"، في صبيحة ١٤ آب/ أغسطس ١٩٤٩، على أيدي مجموعة من أصدقائه الضباط، بقيادة سامي الحناوي، إسمًا، وأديب الشيشكلي، فعلًا، بدأت بمحاصرة الزعيم، وقتله، ثم دفنه في المقبرة الفرنسية، يؤكد أن "عمالة أي حاكم لدولة عظمى"، حتى لو كانت أقوى دولة في العالم، لا تكفي لضمان بقائه في الحكم، واستمراره في السلطة.

ورغم النهاية المأساوية "للزعيم"، فقد كان أول من أرسى في السياسة العربية، ثقافة الانقلابات، كما أرسى سياسة المرشح الواحد للرئاسة، ونسبة التسعات الأربع، في نجاح الرؤساء في الاستفتاءات، ومنهج التعامل العنيف مع المعارضين، ومنهج الإكراه للشعوب، من أجل الحصول على الشرعية للنظام الانقلابي^(٢).

الإنقلاب الثاني للزعيم "سامي الحناوي" في ١٤ آب/ أغسطس ١٩٤٩، قائد الفرقة الأولى المتمركزة على الجبهة السورية الإسرائيلية، وبالتعاون مع ضباطه، ومنهم بعض الدروز الموالين لـ "الحزب السوري القومي الاجتماعي"، وقد أفاض في بيانه الأول بالحديث عن الفساد

(١) فرج، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤، ٥٥.

(٢) كوبلاند، لعبة الأمم، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦.

الأخلاقي لعهد " الزعيم "، وخروجه على القانون، واستهانت به بالتقاليد القومية، ثم أقسم الجيش " أمام الله والتاريخ "، على أن يترك تسيير البلاد للزعماء المدنيين، في الوقت المناسب^(١)، وهكذا انتقلت السلطة، إلى فئة عسكرية، أخرى، نتيجة ضعف القوى الديمقراطية، واعتمادًا على مساعدة بريطانيا، وأوساط البرجوازية - الإقطاعية الموالية لبريطانيا، والمتمثلة في " حزب الشعب "، وعلى رأسها قائد الانقلاب^(٢)، وكان الشيوعيون لايزالون مضربين عن الطعام، في المعتقلات، فأفرج عنهم، والتقى " الحناوي " بالعديد منهم، فضلاً عن بعض الشخصيات السياسية، والحزبية الأخرى، بعد أن عادت جميع الأحزاب، للعمل العلني^(٣)، فيما عدا " الحزب الشيوعي " كما ألغيت اتفاقية شركة (التابلاين) الأمريكية، واتفاقية " النقدية " مع فرنسا^(٤)، وقد قدم الحناوي ابتكاراً جديداً في تكتيك الانقلاب العسكري، أصبح، منذ ذلك الحين، عرفاً يحتذى به، ألا وهو تكوين لجنة من الضباط، تمثل أعلى سلطة تشريعية، وتنفيذية، وقضائية، في البلاد، مما يضيف صبغة دستورية، وشرعية على الديكتاتورية العسكرية^(٥)، ثم قام الحناوي باستدعاء المجلس الأعلى لإدارة البلاد، وحدد شهر كانون الأول/ ديسمبر، من العام نفسه، موعداً لانتخاب جمعية تأسيسية، حصل على أغلبية مقاعدها " حزب الشعب " ^(٦)، وتشكلت حكومة مدنية مؤقتة، برئاسة هاشم الأتاسي، الذي كان رئيساً للجمهورية السورية، فيما

(١) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.

(٢) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٢.

(٣) الملا، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١.

(٤) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٥) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤.

(٦) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩^(١)، وعين خالد العظم، الذي كان رئيسًا للوزارة، التي أطاح بها " الزعيم "، وزيرًا للمالية، وعين رشدي الكيخيا، وزيرًا للخارجية، وأكرم الحوراني، وزيرًا للزراعة، وميشيل عفلق، وزيرًا للمعارف^(٢)، ولم يشترك في الوزارة من العسكريين، سوى عبد الله عطفه، كوزير للدفاع^(٣)، وقد استلم عدد من ممثلي حزبي " البعث "، و " الاشتراكي "، مناصب في الجيش^(٤)، وقد جاءت سياسة الحناوي نقيضًا لتلك التي استنتها " الزعيم "، فعلى المستوى الداخلي، توقفت خطوات العلمنة، بإهمالها، ووضع العراقيل، أمام تطبيقها، بينما سمح للمرأة، بالإدلاء بصوتها، في الانتخابات التي جرت في عهد الحناوي^(٥)، كما تجددت المحادثات للتوقيع على مشروع (سوريا الكبرى)، و(الهلال الخصيب)، مع تزايد النفوذ البريطاني، والرأسمالي في البلاد^(٦)، بدلاً من الولاء لفرنسا، والولايات المتحدة، كما قام " الحناوي "، بتوطيد العلاقات مع مصر، والسعودية، وتركيا، والعراق، والأردن، وهي السياسة التي كانت تتفق، تمامًا، مع توجهات زعماء " حزب الشعب "، أكبر الأحزاب السياسية في البلاد، كما أصبحت سوريا، بصفة خاصة، الهدف الأول لنشاطات التجار، والصناع، والحرفيين، في حلب.

(١) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٣) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(٤) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٥) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

(٦) ديفا، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

وقد أتاحت الظروف، للحناوي، قوة جماهيرية راسخة، اعتمد عليها، وبالتالي، لم يكن في حاجة إلى فرض قيود ديكتاتورية^(١)، بينما ظل التقييد على الشيوعيين، قائمًا، وخاصة في مجال قطع مورد العيش، عبر تسريحهم من وظائفهم^(٢)، وجاءت أول دعوة شعبية، من للوحدة مع العراق، في بداية أيلول/ سبتمبر، من جانب أحد ممثلي الحزب السوري القومي، ودون علم القيادة، وكان صبري العسلي*، الذي أصبح، بعد ذلك، بتسع سنوات، نائبًا للرئيس عبد الناصر، في عهد الوحدة، هو صاحب تلك الدعوة، لكن معارضي الوحدة، وقفوا ضد المشروع البريطاني الاستعماري، الذي كان هدفه إقامة عرش للأمير عبد الإله* في سوريا، وتزايد التواجد البريطاني، الأمر الذي رفضه كلٌّ من الشيوعيين، و " الحزب العربي الاشتراكي "، بينما رحب به كلٌّ من " حزب الشعب "، و " الوطن "، و " الإخوان المسلمين "، وتمثل الاعتراض، في أن الوحدة مع بلد يحكمه العرش الهاشمي، يمكن أن يفقد سوريا استقلالها، وطبيعتها الجمهورية، ويحولها - تحت شعار الوحدة - إلى تابع للاستعمار البريطاني، ويزيد من الجفوة مع مصر، والسعودية، ولذلك كان اقتراح رئيس الحزب الاشتراكي، أكرم الحوراني - ممثل الأقلية - إضافة (الحفاظ على النظام الجمهوري)، في القسم على اليمين الدستوري، بينما تقدمت الأغلبية الجمعية التأسيسية، التي كانت تقف في صف الوحدة، بينما تركز المعارضون لها، في الأوساط الشعبية، والضباط، وبدعم من

(١) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

(٢) الملا، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١، ١٩٢.

(*) صبري العسلي: الذي قام بتشكيل الحكومة الجديدة بعد أن قدم د. معروف الدواليبي استقالة حكومته.

(**) كان الوصي على عرش العراق.

الحناوي، باقتراح يقضي أن يتضمن قسم " رئيس الجمهورية "، " العمل من أجل تحقيق الوحدة ما بين البلاد العربية "، وقد رفضت الجمعية فكرة الإضافة، بأغلبية ٦٠، ضد ٤٨، وأقرت سياسة الوحدة مع العراق، وتم تحديد ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩، موعدًا لأداء اليمين الدستوري، ولكن الانقلاب الثالث الذي قام به اللواء الأول بقيادة العقيد " أديب الشيشكلي "، في جناح الظلام، وبعد مقاومة قصيرة، استولى فيها على دمشق، وتم القبض على الحناوي، ومرافقيه من العسكريين، والمدنيين، وقد استلم الشيشكلي، بنفسه، قيادة الأركان العامة، ثم تشكلت حكومة من " حزب الشعب "، برئاسة ناظم القدسي، تسلم فيها " معروف الدواليبي " وزارة الدفاع، ثم رئاسة الوزارة، وقد دعم كلٌّ من حزبي " البعث " و " الاشتراكي "، النظام الجديد، وبدأ بالتالي إعداد الدستور الجديد، وأطلقت الحريات الديمقراطية، إلى حد ما، وقد استفاد الحزب " الشيوعي "، من هذا الوضع، رغم الحظر على نشاطه العلني، فقد تابع النضال، وتوحيد صفوف كافة القوى الديمقراطية، للدفاع عن الاستقلال^(١)، كما خاض الشيوعيون، نضالاً عنيفاً، ضد الأحلاف، والارتباطات، والمعاهدات مع الاستعمار، لاسيما الإمبريالية الأمريكية، كما قاموا بتنظيم مظاهرة ضد ربط لبنان بمعاهدة أمريكية، وأسسوا " اتحاد الشباب الديمقراطي "، و " حركة أنصار السلام "، اللتان لعبتا دوراً كبيراً في التعبئة الشعبية العامة، من أجل السلم، والديمقراطية. كما ظل نشاط الحزب ونفوذه بارزاً، في الوسط النقابي، والعمالي^(٢).

(١) بعيري، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦، ٦٧.

(٢) الملا، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

لاحقًا، أفاض كاتب يساريّ سوري في وصف انقلاب الشيشكلي، وما صاحبه من صراعاتٍ سياسيةٍ بين السياسيين السوريين، والعسكر في الجيش السوري، الذين اقتحموا الحياة السياسية السورية، بقوة، وموقف الحزب الشيوعي، من الانقلابات، التي حاولت القضاء على الحياة السياسية السورية، عبر القمع، والاعتقالات، التي طالت الأحزاب السورية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي السوري، وحزب الشعب، والاخوان المسلمين، والحزب السوري القومي الاجتماعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، على الرغم من تعاطف بعض هذه الأحزاب مع العسكر السياسيين، وقادة هذه الانقلابات، حسيما اقتربت سياسة هؤلاء العسكر مع توجهات الأحزاب، عدا الحزب الشيوعي السوري، وحزب البعث العربي الاشتراكي^(١).

يذكر أن البيان الأول للشيشكلي، كان من أجل وحدة، وسلام البلاد، وحماية النظام الجمهوري، وأنه ليس للجيش أية مآرب أخرى، وقد أعلن عزمه على تسليم مقاليد الأمور، إلى رجال سوريا المنتخبين، دستوريًا، وأنه لن يتدخل في الأمور السياسية، تحت أي ظرف من الظروف، ما لم يكن هناك ما يهدد وحدة البلاد، وسلامتها^(٢).

ومن ثم يمكن للساسة أن يمارسوا سلطتهم، بشرط ألا تتعارض آراؤهم السياسية، مع وجهات نظر الساسة، من الضباط، ولكن

(١) بسام سفر، ضوء جديد على الصراع السياسي في سوريا، النور، (دمشق)، العدد ٢٧٦، ٢٠٠٧/١/١٠.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ٦٧.

الشيشكلي، قام بتعطيل الحياة الدستورية، والبرلمانية، وبدأ يحكم حكمًا ديكتاتوريًا عسكريًا مباشرًا، ولذلك فقد اجتمعت قيادة الحزب الشيوعي السوري، لدراسة الأوضاع المستجدة، وقد ألقى الأمين العام للحزب، كلمة في الاجتماع الموسع للجنة الحزب المركزية، تحت عنوان " من أجل النضال بنجاح في سبيل السلم، والاستقلال، والديمقراطية "، التقرير التوجيهي العام حول سياسة الحزب ومهامه، بالتوجه نحو العمال، والفلاحين، للتصدي للإجراءات البوليسية، التي إتخذها الإنقلاب الثاني للشيشكلي، من حل جميع الأحزاب السياسية، وإغلاق مكاتبها في دمشق، والمدن الأخرى، بالشمع الأحمر، وانطلقت الجماهير إلى الشارع، تهتف ضد الديكتاتورية، كان أضخمها تلك التي بدأت في الجامعة السورية، وانضم إليها طلاب الثانوية في دمشق، ضد تأييد السلطة للحلف التركي الباكستاني الأمريكي، والمطالبة بإعادة النظر في شروط الإتفاقيات المعقودة مع الشركات الأجنبية، وتأميم هذه الشركات، وتحت ضغط الحركة المعادية للإمبريالية، عمدت الحكومة البرجوازية السورية، التي لها موضوعيًا، مصلحة في إضعاف التبعية، حيال الإحتكارات الأجنبية، إلى تأميم مؤسسات شركة التبغ الفرنسية (ريجي دي تابا)، وشركتي (المياه، والكهرباء)، وتوصلت إلى اتفاقٍ مرضٍ في شروط الإتفاقيتين المعقودتين مع شركة (نفط العراق)، وشركة (التابلاين) الأمريكية^(١).

كما صدر مرسوم يحد من إمكانية منح الامتيازات للإحتكارات الأجنبية، وقد أسهم النضال ضد دسائس الدول الإمبريالية في توطيد

(١) مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.

العلاقات مع العرب، فشاركت سوريا عام ١٩٥٠، في إعداد وتوثيق ميثاق الأمن الجماعي للبلدان العربية، كما جرت عدة مظاهرات شعبية ضخمة في سوريا، لدعم النضال التحريري، لشعوب مصر، وتونس، والمغرب، وسائر البلدان العربية^(١).

وقد تابع الشيوعيون النضال من خلال توزيع المنشورات والمظاهرات الخاطفة، وخاصة ضد (حلف البحر المتوسط)، ورسول الاستعمار " أرتاخو " وزير خارجية أسبانيا، إلى لبنان، كما جمعوا التوقيعات، بالمئات، تضامناً مع الشعب الكوري، ضد العدوان الأمريكي. وامتد نفوذ الشيوعيون إلى كل المدارس، والمعاهد، والجامعات، واتحاد الطلبة الجمهوريين، الذي عقد مؤتمره الأول في نيسان/ أبريل ١٩٥٣، في حلب، بشكلٍ سري، وحضره أكثر من ٣٠ " رفيقاً " يمثلون سائر المحافظات، وطلبة الجامعة، الذين طالبوا فيه بإطلاق الحريات العامة، وفضح ديكتاتورية " الشيشكلي " القمعية، وإعلانه الأحكام العرفية، واعتقال معظم القيادات السياسية للأحزاب، ومنهم الكيخيا، عدنان الأتاسي، الجابري، صبري العسلي، ميشيل عفلق، أكرم الحوراني، صلاح البيطار، كما وضع هاشم الأتاسي قيد الإقامة الجبرية^(٢).

ومع بداية عام ١٩٥٤، أقدم الديكتاتور على خطوة إجرامية كبيرة أعطى فيها أوامره بقصف جبل العرب، مما أودى بحياة الكثيرين، ثم قام بعقد مؤتمر كبير في منزل أحد زعماء " الحزب الوطني " في حمص "

(١) مصدر سبق ذكره، ص ١٠٧.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥، ١٩٦.

عبد الله فركوح"، وفي حضور أقطاب الحزبين (الشعب والوطني)، وبعض قادة الإخوان المسلمين، بينما رفض دعوة ممثلين عن الحزب الشيوعي، والذين حضر، بعضهم، ضمن الجماهير المحتشدة، وتم فيه فضح سياسة الحزبين، وموقفهما من الدستور، وأهدافهم المستترة، ورفع شعارات الحزب الوطنية، والديموقراطية. وفي أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٥٤، بدأ النضال المسلح، في جبل الدروز، ضد ديكتاتورية "الشيشكلي" ^(١)، وفي ٢٥ شباط/فبراير ١٩٥٤، ثارت الوحدات العسكرية المرابطة في شمال سوريا، والتي أنضم إليها سائر وحدات الجيش السوري، والجماهير الغفيرة، في حديقة حلب، التي كانت مركز الثورة، التي قام بها مجموعة من الضباط، بعضهم من الديموقراطيين، وقد أعلن بالتعاون مع "الأتاسي"، وأتباعه داخل الجيش، والبعثيين، والشيوعيين، تأييدهم للإنقلاب، وضرورة خوض المعارك القادمة، في جبهة موحدة، مع كل من يعادي الأحلاف، والمعاهدات، وبرامج "المساعدة" ويدعو إلى سيادة الحريات الديموقراطية، كما اجتمع الزعماء السياسيون، في حمص، وقرروا بطلان كافة الإجراءات التي اتخذها "الشيشكلي" منذ إنقلابه في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥١، وعاد الأتاسي، إلى رئاسة الجمهورية، في ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٥٤، وصدر قرار بإجراء انتخابات عامة، خلال ثلاثة أشهر، كلف بعدها صبري العسلي، بتشكيل حكومة جديدة، بعد أن قدم د. معروف الدواليبي، إستقالة حكومته ^(٢).

(١) مصدر سبق ذكره، ص ١٠٧.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦، ١٩٧.

وقد تشكلت الحكومة الجديدة، من ممثلي الحزبين الأساسيين (الشعب والوطني)، بينما ظل مجلس النواب، الذي حله " الشيشكلي "، مبعداً، لكن التناقضات الداخلية ما بين الحزبين، والنهوض الشعبي، والطلابي الواسع، أدى إلى نشوء أزمة وزارية، واستقالة الوزارة، فيما بعد، والقيام بتشكيل حكومة جديدة حيادية في ١٨ حزيران/ يونيو ١٩٥٤، برئاسة المحامي سعيد الغزي، وفي آب/ أغسطس، عاد شكري القوتلي، من منفاه الاختياري في مصر، إلى دمشق^(١).

ويصف قائد شيوعي سوري عن آلية انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وعدم فوز منافسه خالد العظم نائب الكتلة الديمقراطية، ودور " حزب الشعب " في عدم فوزه من تشكيل الوزارة الأولى في المجلس، على رغم أنه رئيس الكتلة الأكبر في البرلمان، وتكليف النيابي " فارس الخوري " بدلا منه^(٢).

حيث يقدم ذلك القائد الشيوعي السوري، تقييماً واضحاً للصراع السياسي في سوريا، في الفترة ١٩٥٤ - ١٩٥٧، ودور صفقة السلاح من تشيكوسلوفاكيا، إلى مصر، وإنهاء قيادة الجنرال البريطاني " جلوب " للجيش الأردني، وتأمين قناة السويس، و " العدوان الثلاثي " على مصر، ومؤامرة " ستون "، لقلب نظام الحكم السوري، والصراع الذي احتدم ما بين قوى الرجعية، والقوى التقدمية هناك^(٣)، وإقرار المجلس النيابي،

(١) حبيب عيسى، الإقليم الشمالي - الطريق إلى الوحدة، دمشق، مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية، ٢٠٠٨/٣/١٧.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ٧٤.

(٣) مصدر سبق ذكره.

قانون الانتخابات الجديد، في سوريا (٢٧ حزيران/يونيو ١٩٥٥)، وإنشاء " الحزب الديمقراطي الكردي " للمطالبة بالحقوق الوطنية والقومية للشعب الكردي السوري (١٩٥٧)، و أخيراً في ٥ شباط/فبراير ١٩٥٨، موافقة البرلمان على اتفاقية الوحدة مع مصر، وتحويل سوريا إلى إقليم شمالي في " الجمهورية العربية المتحدة "، وترشيح الرئيس الراحل " جمال عبد الناصر " رئيساً للجمهورية^(١).

ويوضح القائد، نفسه، موقف الحزب الشيوعي السوري من هذه الوحدة، بالوثائق الصادرة عنه، واللقاءات التي جرت بين بعض قياديه، وبعض السياسيين الذين كان لهم دور هام في الوحدة مع مصر.

هذا وقد حققت سوريا ازدهاراً كبيراً في المجال الاقتصادي، والزراعي، في أوائل خمسينيات القرن العشرين، حيث كانت البلد العربي الوحيد الذي يزيد فيه معدل الانتاج الزراعي، والصناعي عن معدل الزيادة السكانية.

كما برز على الساحة الثقافية في الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٥٤ عدد كبير من الكتاب والشعراء الماركسيين في لبنان وسوريا، وظهرت مجلتي " الطريق " و " الثقافة الوطنية "، وكانت الأحزاب والحركات القومية العربية في ١٩٥٠، لا تزال قيد التأسيس، وكانت أجهزة الدولة، بما فيها مؤسساتها العسكرية، أضعف من أن تستبد بالشعب، وبالتالي فإن الانقلابات العسكرية الثلاثة التي شهدتها الأعوام ١٩٤٩ - ١٩٥٤، لم

(١) مرشد اليوسف، المشروع القومي للإصلاح والتغيير الديمقراطي في سوريا، أخبار الشرق، دمشق، ٣٠ نيسان/إبريل ٢٠٠٧.

تتمكن من إحكام سيطرتها على المجتمع فسقط الانقلاب الأول خلال أشهر، والثاني خلال أيام، والثالث خلال عامين، ولكن عمومًا، لم تتمكن هذه الانقلابات من الحد من الحراك الجماهيري المتصاعد، الذي تم التعبير عنه من خلال توسيع قواعد الأحزاب، والحركات السياسية، وخاصة الأحزاب ذات التوجه القومي العربي، ما يؤكد قوة البنية الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، في كل مؤسسات الدولة، وأجهزتها الناشئة التي لم تمكن الانقلابيين من إحكام سيطرتهم على المجتمع فقتل قائدا الانقلابيين الأول والثاني، فيما فر الثالث^(١).

تشير العديد من الدراسات إلى تشابه البيان الأول في معظم الانقلابات، وارتداء القائمين بها ثياب الوطنية، والرغبة في محاربة الفساد، وإحداث التنمية، ونشر الديمقراطية، ورفع الظلم... إلخ، من أجل الحصول على الشرعية اللازمة للحكم.

نخلص مما سبق، إلى أن هزيمة الجيش السوري في حرب ١٩٤٨، هز بعنف شجرة النظام السياسي السوري، فتساقطت أوراق النظام القديمة، مفسحة المجال، باطراد، لأوراق جديدة، تمثلت في نهوض " البعث "، و " الشيوعي " السوريين. كما أقحمت الهزيمة " بقوة " الجيش السوري في خضم الحياة السياسية السورية، ما عزز مواقع " البعث " و " الشيوعي " داخل الجيش السوري. كما حثت الهزيمة التوجه الشعبي السوري للوحدة العربية حتى توج هذا التوجه بتحقيق الوحدة المصرية - السورية، مطلع ١٩٥٨، على النحو المعروف.

* * *

(١) عاشور، مصدر سبق ذكره.

الفهرس

٣.....	مقدمة
٣.....	مقدمة
٣.....	حرب ١٩٤٨ ونكبتها
٥.....	حرب ١٩٤٨ ونكبتها
٩.....	مدخل.. ما جرى في ١٩٤٨ - وهم، أم حرب؟
٩.....	أحمد زكريا محمد نرج
٢١.....	الباب الأول: الحرب
٢١.....	الأسباب الأولى للحرب
٢٣.....	الفصل الأول: الاقتصاد السياسي النكبة
٢٣.....	رانيا عبد الرحيم (الرهون)
٢٣.....	اقتصاد القطاعين
٢٥.....	في عهد الانتداب:
٢٥.....	الإطار المؤسسي للنشاط الاقتصادي:
٢٥.....	أولاً: الصهيوني:
٢٦.....	ثانياً: المؤسسة التعاونية:
٢٧.....	ثالثاً: الإطار المؤسسي العربي:
٢٩.....	موارد فلسطين والطاقة الاستيعابية:
٢٩.....	سياسات الهجرة ^٠ :
٣٠.....	محددات التطور الاقتصادي:
٣٢.....	العلاقات الاقتصادية:
٣٢.....	محددات التطور الزراعي ^٠ :
٣٢.....	هيكل الإنتاج الزراعي، وتطورات:

محددات التطور الصناعي:	٣٥
أ- في القطاع العربي ^٥ :	٣٥
ب - في القطاع اليهودي ^٥ :	٣٥
ج - صندوق القروض متوسطة الأجل:	٣٦
هيكل الإنتاج الصناعي عام ١٩٣٩ وتطورات:	٣٦
تطور الصناعة:	٣٩
تأثير الحرب في الصناعة:	٤٠
محددات التطور التجاري:	٤١
أولاً: هيكل الموارد الطبيعية والبشرية وانعكاساتها:	٤٢
١ - موقع فلسطين الجغرافي:	٤٣
٢ - الموارد الطبيعية وتشكيل تركيبة التجارة الخارجية:	٤٣
ثانياً: تركيبة التجارة الخارجية والتخلف الاقتصادي:	٤٥
ثالثاً: السياسة الاقتصادية البريطانية التمييزية وانعكاساتها التجارية:	٤٦
رابعاً: تأثير التجارة بالحرب العالمية الثانية:	٤٩
د - محدّدات النظام المصرفي والمالي:	٤٩
المؤسسات المالية في فلسطين ^٥ :	٤٩
تطور الجهاز المصرفي في عهد الانتداب البريطاني:	٥٠
الفصل الثاني: المقاتلون الفلسطينيون في الحرب	٥٤
أسماء الغرراوي	٥٤
كيف تبلور المناضلون الفلسطينيون؟	٥٧
الهبة العربية العليا	٥٨
الجهاد المقدس:	٦١
التنظيم الداخلي للجهاد	٦٢
معارك الجهاد:	٦٣
فرقة التدمير العربية:	٦٦

٦٧	اللجنة العسكرية:
٦٩	اللجنة القومية:
٧٠	ألهاناه:
٧١	المناضلون الفلسطينيون، والقوات الصهيونية في الميزان:
٧٦	عدد الشهداء من أبناء فلسطين ^٥ :
٧٦	المعارك:
٧٧	بيت صفافا:
٧٨	لقت:
٧٩	حصار الحي اليهودي في البلدة القديمة:
٧٩	معارك الصبيح:
٨١	معركة سنهدريا:
٨٢	معركة كفار عصبون الأولى وظهر الحجة:
٨٣	معركة بيت سوريك:
٨٣	ميكور حاييم:
٨٤	معركة القسطل:
٨٦	معركة الماصيون:
٨٧	معارك يافا:
٨٨	معارك حيفا:
٨٩	نقاط التفوق والإخفاق في أداء المناضلين الفلسطينيين ^٥ :
٩٢	الفصل الثالث: المتطوعون العرب في الحرب
٩٢	ياسمين مجري:
٩٨	كتائب أخرى:
١٠١	عن قيادة جيش الإنقاذ:
١٠٥	إمكانات المتطوعين:
١٠٨	أهم المعارك:

١١٢	 بداية النهاية
١١٤	 دروس التجربة
١١٨	 الفصل الرابع: حرب ١٩٤٨ على الجبهة المصرية
١١٨	 لؤلؤ أ.ح. متقاعد/ عمري شعراوي
١٢١	 بدء العمليات وتطورها (٦ - ٤٨/٥/١٩)
١٢٢	 العمليات على محور الأيمن ^٥ :
١٢٢	 عمليات ١٩ - ٤٨/٥/٢٤ ^٥ :
١٢٣	 التقدم شمالاً وشرقاً (٥/٢٤ - ١٩٤٨/٦/١١)
١٢٤	 الموقف حتى ١٩٤٨/٦/١:
١٢٥	 تغير اتجاه العمليات للتمسك بخط الجندل - الفالوجا - بيت جبرين - الخليل ٢ - ٦/٣
١٢٦	 تعارض السياسات ^٥ :
١٢٧	 احتلال نيتسارم ^٥ :
١٢٧	 عمليات ٤٨/٦/١١ ^٥ :
١٢٧	 الهدنة الأولى (٦/١١ - ٤٨/٧/٧):
١٢٧	 موقف القوات المصرية:
١٢٨	 استئناف العمليات الحربية
١٣١	 الهدنة الثانية (٧/١٩ - ٤٨/١١/٥):
١٣٢	 القوات المصرية تدفع الثمن وحدها
١٣٣	 القوات المصرية تتحمل الهجوم الصهيوني وحدها:
١٣٧	 - نظرة العسكريين للسياسيين:
١٣٨	 الموقف (١١/١٠ - ٤٨/١٢/٥):
١٣٨	 تعقد الموقف:
١٣٩	 تطور العمليات ٥ - ٤٨/١٢/١٠:
١٣٩	 الموقف من ١١ - ٤٨/١٢/٢٢:
١٤١	 كلمة حق:

١٤١	عمليات العسلوج (٢٥ - ١٢/٢٦):
١٤٢	العمليات ضد العريش (٢٧ - ١٢/٣١)
١٤٣	عمليات ١٢/٢٨:
١٤٣	عمليات ١٩٤٨/١٢/٢٩:
١٤٣	عمليات ٤٩/١٢/٣٠:
١٤٤	عمليات ٤٨/١٢/٣١:
١٤٤	عمليات ١ - ١٩٤٩/١/١١:
١٤٤	عمليات ١٩٤٩/١/٢:
١٤٤	عمليات ٣ - ١٩٤٩/١/٥:
١٤٤	ليلة ١٩٤٩/١/٤:
١٤٥	ليلة ٤٩/١/٤:
١٤٥	عمليات ٤٩/١/٥:
١٤٥	فشل تطويق رفح (٦ - ١٩٤٩/١/٧):
١٤٥	مساء ١/٧:
١٤٦	الموقف ٤٩/١/٨:
١٤٦	الموقف في ٤٩/١/١١:
١٤٧	الهدنة الأخيرة
١٤٧	أسباب النكبة
١٤٨	الخاتمة:
١٦٠	الفصل الخامس: الجبهة السورية في الحرب
١٦٠	نظيمة سعر الدين
١٦٠	خلفية سياسية:
١٦٢	بعد جلاء القوات الاجنبية:
١٦٤	القوتلي .. رئيسا لسورية:
١٦٩	القوات السورية التي اشتركت في الحرب:

- ١ - جيش الانقاذ: ١٦٩
- ٢ - القوات السورية النظامية: ١٧٠
- قرار الحرب النظامية (عربياً): ١٧١
- إرهاصات دخول الحرب: ١٧٢
- الاستعداد على الجبهة الإسرائيلية: ١٧٢
- بدء المعركة السورية: ١٧٣
- بحيرة طبرية... الجبهة الشمالية: ١٧٨
- بين القوات العربية والاسرائيلية^٥: ١٨٢
- الفصل السادس: الجيش العراقي في الحرب** ١٨٤
- و. عبد الكريم العلوي ١٨٤
- حقيقة مقولة "ماكو أوامر" : ١٨٥
- مواقف الحكومة العراقية تجاه القضية الفلسطينية: ١٨٧
- العراق يعارض التقرير: ١٨٧
- تغير موقف الحكومة العراقية من أمين الحسيني: ١٨٨
- العراق يطلب حشوداً عسكرية على الحدود الفلسطينية: ١٨٨
- العراق يرفض مشروع التقسيم ويطالب بقطع النفط: ١٨٨
- كيف شارك العراق بحرب فلسطين؟: ١٩٠
- العراق يقبل الهدنة الأولى: ١٩٠
- انسحاب الجيش العراقي من المواقع المربط فيها: ١٩٠
- العراق يوقف ضخ النفط إلى ميناء حيفا: ١٩١
- القوات الصهيونية تهاجم وتحتل المدن الفلسطينية: ١٩٢
- تغيير القائد العام للجيش العربية: ١٩٢
- الملك عبد الله لا يرغب في ذهاب القطعات العراقية: ١٩٢
- القوات العراقية تغادر فلسطين: ١٩٣
- الخبراء العسكريون يعارضون استخدام القوة: ١٩٣

١٩٣	إصدار الأوامر لتحرك القوة العراقية:
١٩٤	أرض المعركة:
١٩٥	مشروع الكهرباء "مشروع روتنبرغ":
١٩٦	منطقة (غيشر) الدفاعية:
١٩٦	محمل الخطة العراقية:
١٩٧	الأردن أنذر العمال اليهود بمغادرة "مشروع روتنبرغ" خلال ٤ ساعات:
١٩٨	القوات العراقية تعتقل أفراد المشروع:
١٩٨	أمر القوات العراقية وجه إنذارا إلى الصهاينة بحصن "غيشر":
١٩٨	القوات الصهيونية بالحصن تستعد لصد الهجوم العراقي وتنسف الجسور:
١٩٩	الانقضاء على حصن "غيشر":
٢٠٠	اجتياز نهر الأردن:
٢٠٠	طريق عبور المدرعات:
٢٠٠	إنشاء رأس الجسر:
٢٠٠	بدء الاشتباك:
٢٠١	خسائر العدو:
٢٠١	العدو يروج:
٢٠١	تطور القتال يوم ١٦ مايو:
٢٠٢	احتلال محطة غيشر والهضاب الغربية:
٢٠٣	محاصرة قرية وحصن غيشر:
٢٠٤	مهاجمة تلال وحصن غيشر:
٢٠٥	تعزيز الهجوم على كوكب الهوى:
٢٠٥	هجوم المدرعات على حصن غيشر:
٢٠٦	معركة الليل:
٢٠٧	المدرعات العراقية تتحدى القلعة:
٢٠٧	وبدأ القتال القريب بالقنابل اليدوية:
٢٠٧	عمل بطولي:

٢٠٨	الدبابات تحاول كسر باب الحصن:
٢٠٩	المعركة تستمر:
٢٠٩	القائد الصهيوني يتفقد حالة الحصن:
٢١٠	المؤتمر الليلي وخطبة الغارة على بيت يوسف:
٢١٠	ملخص الخطة:
٢١٠	موقف كوكب الهوى:
٢١١	العدول عن الغارة:
٢١١	تغيير محور الهجوم:
٢١٢	الملك عبد الله يقول سأحتل القدس غدًا وتل أبيب بعد أسبوع:
٢١٢	معركة جنين:
٢١٢	المعركة:
٢١٣	رتل أسد يتحصن في قلعة جنين:
٢١٣	تبادل التراشق بالمدفعية:
٢١٣	القوات العراقية تقرر الهجوم المضاد لاستعادة جنين:
٢١٤	آمر القوات المحاصرة بالقلعة يطلب معاونة المدفعية:
٢١٤	العدو يتكبد خسائر فادحة:
٢١٥	الموقف بعد ظهر يوم ٦/٣:
٢١٥	هجوم الفجر:
٢١٦	خسائر العدو:
٢١٦	خسائر الجانب العراقي:
٢١٦	صد الهجوم المضاد:
٢١٧	دور القوة الجوية العراقية:
٢١٨	نتائج الحرب:
٢١٨	ومن أهم أسباب فشل العرب في هذه الحرب:
٢٢٣	الفصل السابع: الجيش الأردني في الحرب

٢٢٣	ياسمين حلمي (العايري)
٢٢٣	أولاً: تعداد وخطط الجيش الأردني بالمقارنة بالجيش الإسرائيلي
٢٣٣	ثانياً: المعارك :
٢٣٦	المواجهة العسكرية في القدس
٢٤٠	المعارك التي دارت في اللطرون:
٢٤٤	إعلان الهدنة في ١١ يونيو/ حزيران ١٩٤٨:
٢٤٥	معارك اللد والرملة:
٢٤٨	المعارك في القدس بعد الهدنة:
٢٤٨	ثالثاً: أثر الدبلوماسية الأردنية على سير المعارك العسكرية
٢٥٣	الفصل الثامن: الحرب على الجبهة اللبنانية
٢٥٣	آمال الخزالي
٢٥٦	دور لبنان في الحرب:
٢٥٦	أ- الدور السياسي:
٢٥٨	ب - الاستعداد للحرب :
٢٥٩	ج - الحرب:
٢٦٨	الباب الثاني: الأبعاد والروايات
٢٦٨	الباب الثاني الأبعاد والروايات
٢٧٠	الفصل التاسع: البعد الدولي لحرب ١٩٤٨
٢٧٠	نعيمه عبدره أبو مصطفى
٢٧١	١- بريطانيا والدول الأوروبية:
٢٧٥	٢- الولايات المتحدة الأمريكية:
٢٨١	٣- الاتحاد السوفيتي:
٢٨٦	٤- الأمم المتحدة ومجلس الأمن:
٢٩٠	٥- الحركات الصهيونية:
٢٩٤	الفصل العاشر: الرواية الإسرائيلية للحرب

٢٩٤	خالد سعيد
٢٩٦	القوات العسكرية بين الطرفين:
٢٩٦	أولاً: الصهيوني:
٣٠٠	ثانياً: العربي:
٣٠١	المواجهة العسكرية:
٣٠٥	الخطة (د):
٣٠٥	تكوين الدولة الإسرائيلية "التجمع الصهيوني":
٣١١	الهدنة:
٣١٥	استنتاجات
٣١٧	الفصل الحادي عشر: الذات والآخر في حرب ١٩٤٨
٣١٧	محمد حسني
٣١٩	الآخر/ العدو:
٣٢٢	الجانب الصهيوني
٣٢٢	صورة الذات:
٣٢٢	- اليهودي:
٣٢٥	- العربي:
٣٢٨	اليهودي المضطهد:
٣٢٩	اليهودي جزء من العالم المتقدم:
٣٣٠	إسرائيل تمد يدها بالسلام:
٣٣١	صورة الآخر (العربي):
٣٣٢	التعميم:
٣٣٣	وصم العرب بصفات سلبية:
٣٣٦	إلقاء اللوم على الضحية:
٣٣٧	أقام العرب بالوحشية والبذاءة بالاعتداء:
٣٣٨	الجانب العربي

٣٣٨	رؤية الذات:
٣٤١	صورة الآخر (الصهيوني)
٣٤٨	الفصل الثاني عشر: الرؤية الإسرائيلية للنكبة
٣٤٨	رضوى عبر القاور
٣٤٨	رؤى الصهاينة:
٣٤٩	الضيافة العربية:
٣٥١	ضعف وصراع وحساسية ظاهرية:
٣٥٥	تباطؤ:
٣٥٨	عملاء ورداءة جيش
٣٦٠	مبالغة في الإعلام:
٣٦١	الموقف المصري:
٣٦١	استغلال صهيوني للهدنة:
٣٦٥	نفسية العرب:
٣٦٧	تشئت وإستهانة:
٣٦٩	ماذا لو؟:
٣٧٣	الفصل الثالث عشر: من اليشوف إلى الدولة
٣٧٣	أحمد منصور إسماعيل
٣٧٥	أولاً - من ناحية البنية السياسية:
٣٨٤	السلطة التنفيذية في إسرائيل:
٣٨٥	أما البرلمان الإسرائيلي:
٣٨٦	أما السلطة القضائية:
٣٨٧	وفيما يتعلق بالبحال العسكري:
٣٨٨	ثانياً - من الناحية الاجتماعية:
٣٩٤	ثالثاً - من الناحية الاقتصادية:
٤٠٠	الفصل الرابع عشر: ملاسبات تأسيس "جيش الدفاع الإسرائيلي"

٤٠٠	رضوى جبر القاور.....
٤٠٠	نشأة العصابات:
٤٠٤	من العالمية الثانية إلى التقسيم:
٤١٠	تساحال:
٤١٧	ميزانيات " تساحال "، وإمكاناته
٤٢٣	كما سعى بن غوريون، لتحقيق الآتي ^٥ :
٤٢٤	" التاليها " :
٤٢٩	الفصل الخامس عشر: إتفاقيات الهدنة
٤٢٩	كريمة عزوم.....
٤٣٠	الأتفاقيات
٤٣٣	الهدنة الأولى:
٤٣٥	الهدنة الثانية:
٤٣٨	خط الهدنة بين قطاع غزة وإسرائيل:
٤٣٩	١ - إتفاقية الهدنة بين مصر - إسرائيل:
٤٤١	٢ - إتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل ٢٣/٣/١٩٤٩:
٤٤٣	٣ - إتفاقية الهدنة بين الأردن - إسرائيل (١٩٤٩/٤/٣):
٤٤٨	٤ - إتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل ٢٠/٧/١٩٤٩:
٤٤٨	اختراق إسرائيل للهدن والاتفاقيات:
٤٤٩	أ - تعيين خط الهدنة:
٤٥٠	ب - خط الهدنة والسكان:
٤٥٢	ج - الحدود ومصادر المياه والتربة:
٤٥٣	د - خط الهدنة داخل مدينة القدس:
٤٥٥	تحليل الهدن:
٤٥٧	خاتمة.....
٤٥٨	الباب الثالث: النكبة

٤٥٨	الباب الثالث النكبة
٤٦٠	الفصل السادس عشر: الحرب المزعومة
٤٦٠	أسمهان شريم
٤٦١	تمهيد:
٤٦٤	أسباب الحرب واستعدادها:
٤٧٧	الحرب المريعة:
٤٨٥	الفصل السابع عشر: جامعة الدول العربية والنكبة
٤٨٥	هرى فاروق
٤٨٥	نشأة الجامعة:
٤٨٦	فرز الأوراق:
٤٩١	الهيئة العربية العليا:
٤٩٢	الادارة المدنية:
٤٩٨	وقع قرار التقسيم:
٤٩٩	الدول العربية عشية الحرب:
٥٠٠	الجامعة والاعداد للحرب:
٥٠٢	موقف الجامعة من قيام الكيان الصهيوني:
٥٠٢	موقف الجامعة من الهدن:
٥٠٤	شهادات على حرب ١٩٤٨:
٥٠٦	مما سبق من حديث نستج التالي، عن الطرف العربي في حرب ١٩٤٨:
٥١٢	الفصل الثامن عشر: السيرة الذاتية للنكبة كيف نُجحت النكبة الفلسطينية؟!
٥١٢	عبر (لقاورياسين)
٥١٢	١- الخلفية التاريخية
٥١٧	٢- تدشين القضية الفلسطينية
٥٢١	٣- مجرى الحرب
٥٢٨	الانحدار

٥٣١	الخصلة.....
٥٣٢	التسليم بإسرائيل.....
٥٣٧	الفصل التاسع عشر: أسباب النكبة من داخلها.....
٥٣٧	عبر (القاور ياسين).....
٥٣٧	هل يمكن لمن كان ضمن المشرق أن يراه، مثل من كان خارجة؟!.....
٥٤٧	أسباب العسكر العرب.....
٥٥٢	الاستنتاجات.....
٥٥٤	الفصل العشرون: قراءة في وثائق النكبة.....
٥٥٤	أسمهان شريع.....
٥٥٥	مقدمة:.....
٥٥٦	الوثائق البريطانية:.....
٥٥٧	وعد بلفور:.....
٥٥٩	ويمكن تقسيم وعد بلفور إلى ثلاثة أقسام:.....
٥٦٣	توصيات لجنة بيل:.....
٥٦٦	وثائق عصبة الأمم والأمم المتحدة:.....
٥٨٩	الباب الرابع: تداعيات النكبة.....
٥٨٩	الباب الرابع تداعيات النكبة.....
٥٩١	الفصل الحادي والعشرون: الأبعاد الجغرافية والديموغرافية للنكبة.....
٥٩١	رشا حسني.....
٥٩١	أولا: الطبيعة الجغرافية لأرض فلسطين.....
٥٩٥	ثانيا: حدود فلسطين ومشاريع التقسيم:.....
٦٠٣	ثالثاً: حرب ١٩٤٨:.....
٦١٠	رابعا: تغيير الخريطة الديموغرافية.....
٦١٧	الفصل الثاني والعشرون: ثورتي مصر والعراق.....
٦١٧	منى محروس.....

٦١٨	 الاستعداد للمعركة:
٦١٨	 كان دور مصر حسب الخطة الموضوعية:
٦٢٣	 الجو الذي نشأ فيه الضباط المصريون:
٦٢٨	 أزمة السلاح العربي :
٦٣١	 حرب فلسطين والضباط المصريين :
٦٣٨	 الجيش العراقي في فلسطين:
٦٤٠	 العراق ودعمة لقضية فلسطين:
٦٤٨	 أثر حرب فلسطين على الضباط العراقيين. :
٦٥٠	 الضباط العراقيين والثورة:
٦٥٣	 الفصل الثالث والعشرون : انعكاسات النكبة على سوريا
٦٥٣	 نهال قاسم
٦٧٧	 الفهرس

* * *

